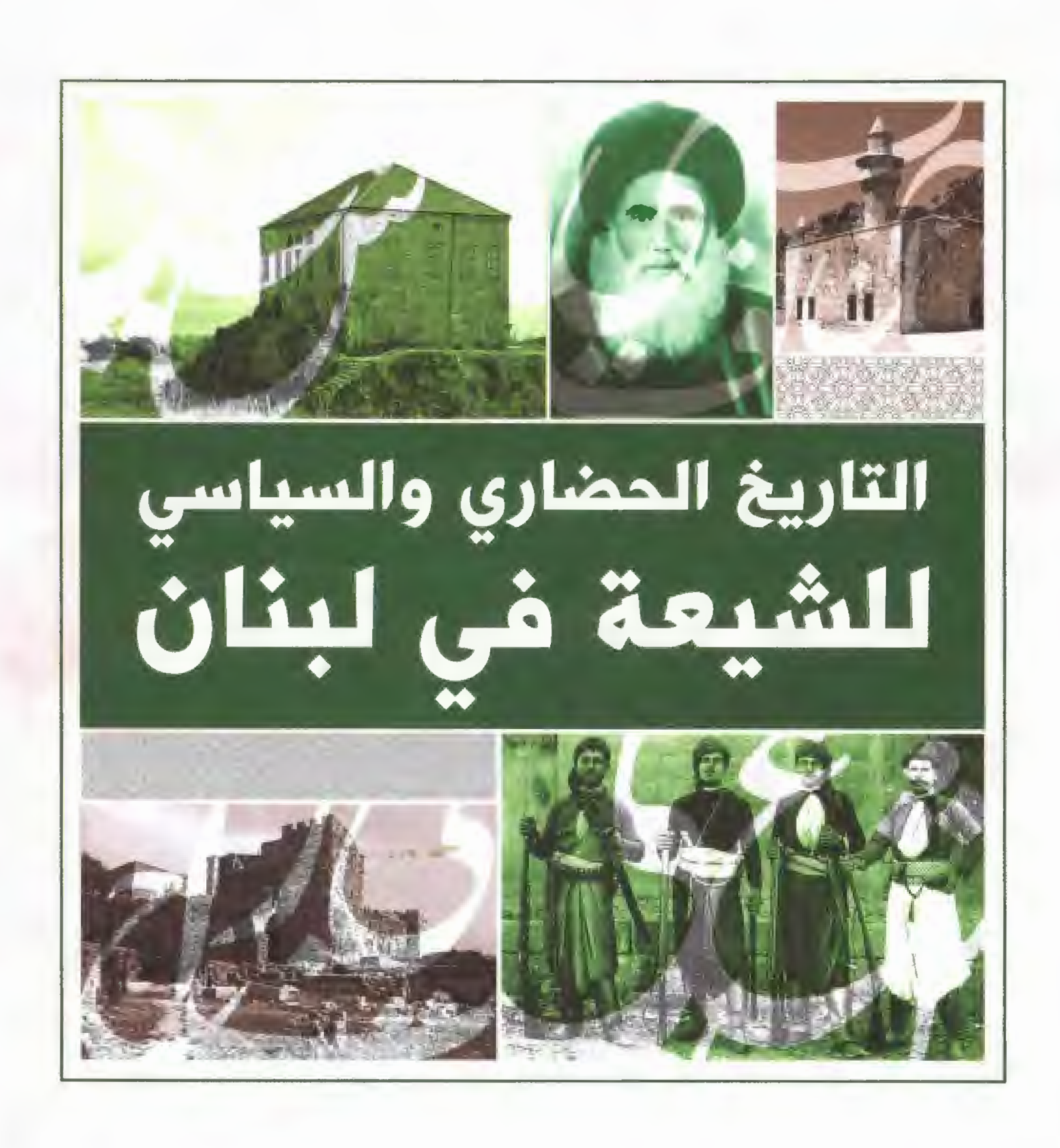
الدكتور رامز رزق



دار الولاء
لصناعة النشر
www.daralwalaa.com

التاريخ الحضاري والسياسي
للشيعة في لبنان

التاريخ الحضاري والسياسي
للشيعة في لبنان



الرويس، شارع الرويس، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com
P.O. Box: 307/25 | www.daralwalaa.com

ISBN 978-614-420-290-6

التاريخ الحضاري والسياسي للشيعة في لبنان

المؤلف: رامز رزق.

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر.
الطبعة: الأولى بيروت_لبنان ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م

إخراج فني وتنفيذ:

eight 8
press & production

www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

رامز رزق

التاريخ الحضاري والسياسي للشيعة في لبنان



دار الولاء
لصناعة النشر


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الشيعة في لبنان إحدى الطوائف الكبرى وهي أساسية في تكوين الشعب والمجتمع اللبنانيين. والكتابة التاريخية عن الطوائف في لبنان أمر غير مستحدث، فمنذ زمن بعيد، ومنذ تشكلت الطوائف بتكويناتها الأثنية والعقائدية بدأ كتّاب السير والحوليات والمؤرخون يكتبون ما يمكن أن يثبت تمايز كل طائفة عن الطوائف الأخرى، وما أكثرها في البلاد السورية (الشامية) ومنها لبنان.

إن المصادر التاريخية المعتبرة التي تتحدث عن تاريخ الشيعة في لبنان هي بشكل عام مصادر غير شيعية، وفي كثير من الأحيان يجاهر مؤلفو تلك المصادر بالعداء للشيعة. وفي هذه الحالة تصبح المعلومات المنقولة عنهم ضعيفة وغير موثوقة إلى درجة كبيرة، ورغم ذلك فلا بد من العودة إليها لعدم وجود البديل. وعندما بدأ بعض كتاب الشيعة في العصر الحديث يبحثون عن «تاريخ» لهم، لم يجدوا أمامهم إلا مصادر غير شيعية كتبت تاريخاً للحكام من سلاطين وأمراء، فجاءت الكتابات حصرية وخاصة ببعض الأسماء دون الإلتفات لتاريخ المجتمع كجماعة مؤتلفة. ومن الطبيعي أن لا تذكر هذه المصادر أحوال الشيعة عامة مما جعل الكتاب المعاصرين من الشيعة يفترضون أن هناك محاولات لطمس هذا التاريخ الذي ظل تاريخاً افتراضياً أكثر منه تاريخاً واقعياً.

الكتابة التاريخية هي نقل لصورة الماضي كما هو إلى الحاضر وحفظه للمستقبل. فإذا كانت صورة الماضي غير موجودة أو غير واضحة فمن المستحيل رسمها بواقعية. لذلك لجأ كثير من كتاب التاريخ الشيعة في لبنان إلى المبالغة والاطناب. فتحدثوا عن أمجاد وبطولات كثيرة وصوروا بعض رجالهم بمظاهر العظمة والقوة. وفي نفس الوقت تجاهلوا عمداً أو جهلاً تاريخَ رجال منهم أكثر أهمية وقوة وبسالة وحضارة

من أولئك الذين تحدثوا عنهم سابقاً. فتاريخ الشيعة في لبنان كاد أن يختصر بتاريخ بعض زعماء آل علي الصغير المختارين في بلاد بشارة، دون الاعتماد على مصادر موثوقة لنقل المعلومات. بل استحضر هؤلاء الكتاب بعض الحكايات القصصية التي تروج على ألسنة العامة لينسجوا منها تاريخاً افتراضياً. كما لم يعتن أحد من هؤلاء المؤرخين بجدٍ لتاريخ عشائر الحمادية والحرافشة في الشمال والبقاع. فتاريخ هاتين الأسرتين إضافة إلى أسرة مستراح والشاعر وسواهما، موجود في بطون بعض الكتب المعادية التي لم تذكر أحداً من رجال هذه الأسر بخير. وفي بعض المحاولات الحديثة لبعض الباحثين الشيعة من اللبنانيين للكشف عن تاريخ الحمادية والحرافشة يلاحظ أن التاريخ يتصاعد متدرجاً بحماس ليصور حروباً وثورات من إحدى الأسر (مثل آل حمادة) ضد السلطنة، وهي الدولة الكبرى في حينه التي يعيش في ظلها أمم وشعوب كثيرة وكبيرة أكبر بكثير جداً من بعض الأسر الشيعية في جبل لبنان. فيصبح تاريخ هذه الأسر افتراضياً ومبالغاً فيه جداً. فالتاريخ الثوري التصاعدي لهذه الأسرة أو تلك لا يلبث أن يخبو. وينتهي دور الأسر المعنية دون أن يعطي الباحثون تعليلاً علمياً لهذه النهاية الغامضة.

لقد نسي الباحثون عن تاريخ الشيعة أن الأوبئة (كالطاعون أو الريخ الاصفر والكوليرا) والمجاعات المتلاحقة بسبب انتشار الجراد، إضافة إلى فتك العدو الداخلي والذي هو جيش السلطنة الذي فتك بالشعوب الخاضعة له أكثر من الأوبئة. فكان قتل الرجال ومصادرة البهائب ونهب المحاصيل وتلويث وطمر الآبار وقطع الأشجار... إلخ من الأشياء العادية التي تتكرر باستمرار بحيث تخلو القرى والمزارع من ساكنيها. فإذا قيض لبعض النازحين من بعض المناطق أن يصلوا إلى خرائب القرى فإنهم يعيدون إعمارها بحيث يكون السكان الجدد غرباء وليسوا استمراراً حضارياً للسابقين. فلا يمكن اعتبار سكان جبل لبنان الشمالي مثلاً، من أنسال الحماديين أو غيرهم. كما أن الحماديين أنفسهم هم من النازحين الذين أتوا من مكان ما في الشرق الإسلامي واستقروا في بعض مناطق جبل لبنان الشمالي وكانت مهجورة. وكذلك يمكن القول عن الحرافشة وسواهم. ونفس هذه المقاييس تنطبق على الشيعة

في جبل عامل، مع فارق أساسي هو استمرار الوجود المذهبي الشيعي في جبل عامل منذ بدء التاريخ الإسلامي وإلى اليوم دون انقطاع، وإليه أضيف عدد من المهاجرين الشيعة الجدد القادمين من مناطق مختلفة. أي أن الهجرة والنزوح لم تؤدِ إلى تغيير مذهب العامليين كما حدث في مناطق مثل جبل لبنان. لكن الذين كتبوا عن تاريخ «جبل عامل» الشيعي انزلقوا إلى ما دون الكتابة الطائفية والمذهبية فأرخوا عن عمد لبعض الأسر العاملية دون أهل جبل عامل. وربطوا تاريخ هذا الشعب المتميز بتاريخ بعض الزعماء عن قصد، بحيث جاء تاريخ جبل عامل مبتوراً. لقد تعمّد معظم، إن لم يكن كل الذين كتبوا عن «تاريخ جبل عامل» إلى الكتابة عن تاريخ أسرة «علي الصغير» محاباة منهم لزعيم محلي من هذه الأسرة. فاخترعوا لهذه الأسرة نسباً افتراضياً وجعلوا لها تاريخاً يشبه تاريخ الأكاسرة والقياصرة، وتحدثوا عن أمجاد وهمية لشخصيات خرافية لم تكن موجودة. ونسجوا بعض الحكايات الخرافية حول جيوش وعساكر وألقاب لم يثبت لها وجود في التاريخ. وكل ذلك لإضفاء شرعية تاريخية لبعض رموز هذه الأسرة، في نفس الحقبة التي كانت طوائف أخرى في لبنان تكتب تاريخاً خرافياً لتمجيد بعض الزعماء المحليين بنفس الطريقة. ورغم تمسك العامليين تاريخياً بحرياتهم وكراماتهم والتزامهم المذهب العلوي الشيعي الجعفري الإمامي، فإن الذين كتبوا عن أسرة «علي الصغير» ومجدوها، صوروا العامليين جماعة من العبيد الخانعين الذين ارتضوا الضيم وخضعوا للخونة الذين هاجموا جبل عامل بدعم من أعدائه من القبائل الفلسطينية (عنزة وطوقان وسواهما) ليهلكوا الأسر العاملية الأصيلة التي دافعت عن الجبل وأهله كآل سودون وآل شكر وسواهم. ثمّ ليصور هؤلاء الأبطال العامليين الأصيلين بمظهر الخانعين الضعفاء، ويصور الغزاة المتوحشين وأنصارهم وأعوانهم بصور البطولة.

ومن المؤسف أن أحد الكتاب المحدثين قد دأب على كتابة «تاريخ للشيعة في لبنان» فسار بنسق علمي صرف وهو يتحدث عن الشيعة في جبل لبنان والبقاع. حتى إذا انتقل للحديث عن تاريخ الشيعة في جبل عامل ترك المقاييس العلمية والتوجه العلمي وأعاد تكرار الأساطير دون أن يكلف نفسه عناء البحث في صدقية المصدر الذي ينقل عنه، حتى نقل دون تعليق مقولة أحد كتبة التاريخ الافتراضي أن الشيخ

حمد المحمود النصّار قد جند جيشاً من ثمانية آلاف جندي على نفقته. وهو أمر كانت تعجز عنه دول كبرى فكيف يتمكن زعيم محلي صغير من القيام بذلك؟

إن لبنان، الكيان السياسي الحالي، ليس كياناً قومياً بالمفهوم التاريخي، فلا يوجد في التاريخ شعب يعرف بالشعب «اللبناني» كما هو معروف اليوم، في التاريخ المعروف يوجد منطقة جغرافية تسمى «جبل لبنان» قد يتفق علماء الجغرافيا والمؤرخون على تحديدها أو يختلفون، لكنها لا تزيد عن كونها منطقة جغرافية. فكما يوجد جبل الألب أو جبل هملايا أو جبل التيبستي... إلخ كذلك يوجد جبل اسمه «جبل لبنان». يوجد هذا الجبل على شكل سلسلتين شرقية وغربية بخطين يوازيان شاطىء البحر المتوسط الشرقي ويمتد (جبل لبنان) من جنوب لبنان الحالي (جبل عامل) وحتى جبال طوروس في الأناضول (تركيا).

وقد اتخذ هذا الجبل في أجزاء منه أسماء عرفت به في مراحل التاريخ حسب الأقوام التي عاشت فيها، أو اشتقت بعض الأسماء من ظاهرة معينة أو شكل معين. كما أن بعض الأسماء تبدلت وتغيرت في ظروف تاريخية سياسية معينة بينما احتفظ الإسم العام لجبل لبنان باسمه حتى العصر الحديث. لذلك يجب التمييز بين استعمال اسم «جبل لبنان» كواقع جغرافي وبين استعمال اسم «اللبنانيين» للشعب الذي ينتمي بشكل سياسي للدولة اللبنانية المستحدثة في منتصف القرن التاسع عشر (بحدود متصرفية جبل لبنان ١٨٦٤) وبين دولة لبنان الكبير بعد ضم سنجق بيروت بأقضيته الثلاثة: صيدا وصور ومرجعيون. وضم الأقضية الأربعة في البقاع: حاصبيا وراشيا وبعلبك والهرمل التي كانت تتبع دمشق حتى سنة ١٩٢٠. بالإضافة إلى ضم مدينة وطرابلس وما حولها إلى الدولة اللبنانية الناشئة.

دولة «لبنان الكبير» أنشئت بقرار من الحكومة الفرنسية سنة ١٩٢٠ حيث أعلن ذلك المندوب السامي الفرنسي ولم يكن للشعب اللبناني يد في ذلك. ربما اعتمد المندوب السامي وحكومته على تأييد فئات من اللبنانيين خصوصاً مسيحيي متصرفية جبل لبنان الذين طالبوا صراحة بانشاء دولة تضم متصرفية جبل لبنان وبعض المناطق المحيطة

بها. أما غالبية سكان الأقضية المضافة فقد اعترضوا على هذا القرار وطالبوا في أنديتهم ومؤتمراتهم التي عقدوها لبحث هذه المسألة بالإنضمام إلى مملكة الشريف حسين العربية. وبعد هزيمة مشروع إقامة مملكة سورية العربية التي يحكمها فيصل ابن الشريف حسين، لم يجد السكان في الأقضية المضافة بداً من مقاومة واقع الوجود الفرنسي. وأدت هذه المقاومة خصوصاً في جبل عامل (جنوب لبنان) ومعظم سكانه من الشيعة، وكذلك سكان منطقة البقاع الشمالي، وهم بمعظمهم شيعة أيضاً، أدت مقاومتهم إلى وقوع أعمال عنف كبيرة اتخذت في بعض أشكالها صراعاً طائفياً سرعان ما تمدد إلى داخل سوريا. وكان لاستشهاد أدهم خنجر أحد قادة المقاومة في جبل عامل على أيدي الفرنسيين بعد اختطافه من ملجأه في بيت الزعيم الدرزي سلطان الاطرش في جبل العرب، كان ذلك سبباً في تفجر الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ والتي أدت إلى مذابح رهيبة، بعض منها كان له شكل طائفي أيضاً.

هكذا يتبين أن الصراع في المنطقة عموماً وفي لبنان خصوصاً يتحول من شكل ما في بدايته (ثورة أو مقاومة ظلم أو احتلال...) إلى عنف طائفي وحرب مذهبية بما يفرض أن تكون كل جماعة دينية تحتفظ بمقوماتها الخاصة التي تميزها عن الطوائف الأخرى. لذلك برز وجود تاريخ خاص لكل طائفة مع كتابات خاصة للمشاهير الذين ينتمون إليها كعلماء الدين والشعراء والمؤرخين والأمراء....

حرمت الطائفة الشيعية لمدة طويلة من الزمن أن يكون لها تأثير هام في التحولات السياسية الكبرى التي كانت تجري في المنطقة. فمنذ أن تدخل الصليبيون وقاموا بحملاتهم الضخمة والكبيرة والوحشية إلى الشرق (ابتداءاً من سنة ١٠٩٩) تحولت الطائفة الشيعية في كل البلاد السورية ومنها لبنان إلى هدفٍ يرمى من أكثر من طرف في ذلك الصراع الكبير. فرغم مقاومتهم الدؤوبة في مواجهة الغزو بعد أن تخلى الآخرون عن واجبهم الجهادي المقدس في الدفاع عن ديار الإسلام، ورغم تقديمهم التضحيات الجسام في تلك المواجهة، إلا أنهم اتهموا بالتواطوء مع العدو وبالخيانة ومن ثم كُفِّروا وحوربوا وجرت عليهم ويلات حتى كادوا أن يستأصلوا من الارض لولا قدر مقدر. لقد قاومت إمارة طرابلس الشيعية أكثر من عشر سنوات (١٠٩٩-

١١٠٩) وكان أميرها القاضي أبو علي عمار يطوف العواصم الإسلامية في الشام والعراق يستحث الناس على نجدته دون طائل. فسقطت طرابلس وذبح أكثر سكانها بأيدي رعاع الفرنجة. وهجر الباقي حتى لم يبق في طرابلس أحد من أهلها. وقاومت مدينة صور أكثر من ربع قرن وهي تستغيث بمن ينجدها فلم تجد إلا الفتات من أمراء البلاد الإسلامية الذين كانوا يتحاربون فيما بينهم ويقدمون في حروبهم تلك أعداداً كبيرة من الرجال كان يكفي بعض منهم لصد الهجمة الهمجية الأوروبية. وبعد ربع قرن اضطرت صور للإستسلام، لكن هذه المرة بشروط منصفة. إذ بقي سكان جبال صور (بين نهر القاسمية ووادي القرن وامتداداً إلى اعالي الجبال المطلة على وادي الأردن) في قراهم يعملون في حقولهم ويدفعون جزية للحكام الجدد. كما بقي في مدينة صور نفسها عدد وافر من السكان الشيعة.

وظلت صور وجبالها تحت حكم الفرنجة طيلة قرنين، باستثناء فترة محدودة تمكن فيها المسلمون من الاستيلاء على قلاع تبنين وهونين وبانياس والشقيف أرنون ثم ردوها للصليبيين مقابل أشياء تافهة، كصلح الكامل الأيوبي مع روجر سنة ١٢٢٩ وصلح الناصر الأيوبي مع صليبيي الساحل سنة ١٢٥٤. وفي الصلحين تخلى الأيوبيون عن القدس وقلاع صفد وتبنين وهونين والشقيف، وهي القلاع التي تحكم المنطقة التي تعرف تاريخياً ب «جبل عامل».

لقد دفع الشيعة في لبنان ثمناً باهضاً بعد استرداد الأراضي التي احتلها الصليبيون فاعتبرهم السلاطينُ الجدد أعداء وكفار ومارقين. فالمماليك الذين قُدّر أن يستولوا على الحكم في الشام ومصر، وهم في معظمهم عبيد أرقاء تدربوا ليصبحوا محاربين عند أسيادهم قبل أن يتمردوا ويصبحوا سلاطين. ثم استباحوا البلاد والعباد في الشام ومصر ونفذوا مذابح ضد الشيعة في كسروان والبقاع وبلاد النصيرية (النصيرية هم شيعة إثني عشريون إماميون جعفريون مثل إخوانهم الشيعة في جبل عامل والبقاع وجبل لبنان ويختلفون عنهم فقط في الاعتراف بالمرجعية والتقليد). لكنهم في ذات الوقت واجهوا صموداً ومقاومة شرسة من أهالي البلاد فاضطرت السلطات إلى مسايرة الأمر

الواقع واعترفت للأمراء المحليين من بني بشارة في جبل عامل ولاحقاً بني حرفوش في البقاع بسلطة كاملة مقابل ضرائب معينة كانت تدفع لوالي دمشق أو والي صفد. وفي أواخر أيام الدولة المملوكية كان أمراء بني حرفوش يمدون سيطرتهم الشيعية الصرفة في مناطق بعلبك والبقاع حتى مدينة حمص، وكانت جماعات أسرية من آل داغر وآل حمادة يسيطرون بالقوة على مناطق جبل لبنان (يقصد بجبل لبنان حسب الخريطة العثمانية المنطقة الممتدة من جبلة على الساحل السوري حتى نهر بيروت وصعوداً إلى أعالي الجبال المطلة على البحر غرباً وعلى وادي البقاع وبعلبك شرقاً). وهذا يثبت عدم وقوع ما يعرف عند بعض المؤرخين ب (الاضطهاد) للشيعة في لبنان، ليس لعدم رغبة السلطان المملوكي بذلك، بل بسبب صمود وثبات وعنفوان شيعة لبنان في مواجهة أعدائهم.

أما في العهد العثماني فكان الصراع أوسع وأشد، فالسلطنة كانت تحكم المناطق بطريقة الالتزام (الضمان) وحلت الفوضى والخراب منذ بداية العهد العثماني وحتى نهايته أي طيلة أربعة قرون تغيرت فيها معالم الوجود الحضاري في مناطق لبنان وجرت محاربة الشيعة باستمرار من أكثر من طرف محلي أو من بعض الباشاوات الباحثين عن الثروة حتى كاد الوجود الشيعي في جبل لبنان أن ينتهي، وضعف نفوذهم في مناطق بعلبك والبقاع بينما استمر هذا الوجود في جبل عامل مع ميزة خطيرة وهي حلول الجهل والتخلف في كل البلاد.

في القرن العشرين بدأت مرحلة جديدة، لا يمكن الحديث فيها عن تاريخ الشيعة كجماعة طائفية بل يمكن الحديث عن تاريخ لبنان الدولة والشعب. في هذه الدولة يتواجد عدد كبير من الطوائف والجماعات التي تحمل فيما بينها عناصر مشتركة كاللغة والثقافة العامة. واستراح اللبنانيون إلى وجود دولة مدنية جامعة استطاعت أن تحمي وجود كل طائفة بما لها من خصائص. ورغم وقوع مشكلات طائفية في بعض الأحيان إلا أن الأحداث اثبتت تماسك الشعب بطوائفه، وان الصراعات التي تمر لا تعدو كونها سياسية تلبس لباساً طائفياً أو مذهبياً.

إن الدافع الحقيقي لكتابة «التاريخ الحضاري والسياسي للشيعة في لبنان» هو الرد

على بعض الكتاب والمؤرخين من الشيعة اللبنانيين ومن تبعهم من عراقيين وإيرانيين حول أربع نقاط مهمة وأساسية في تاريخ الشيعة اللبنانيين جرى تحويرها وتزييف وقائعها. كما جرى تكرار صورتها المزيفة حتى تقبلها الناس كأمر واقع. هذه النقاط الأربع هي أولاً: ما يتعلق بالصحابي الجليل أبي ذر الغفاري وارتباط شيعة لبنان تاريخياً به. وثانياً ما ذكر عن بني بشارة ونسبهم ووضع تاريخ افتراضي لهم لا علاقة له بالتاريخ ولا بالواقع. وثالثاً: ذلك الغموض الذي يكتنف تاريخ الشيعة في لبنان في العهد الصليبي ثم الأيوبي والمملوكي (١٠٩٩-١٥١٦). إذ اكتفى معظم من أرّخ عن الشيعة في لبنان إلى ذكر مذابح كسروان ولمحة مجتزأة عن الشهيد الأول، ولا شيء غير ذلك. فلا حديث عن علماء دين شيعة ولا عن منطقة شيعية مقاومة للوجود الصليبي في جزين ولا علاقة الشيعة في جبل عامل بالصليبيين، ولا عن العلماء في أيام المماليك.

ورابعاً: هو ما نسج من أساطير حول أسرة آل علي الصغير حتى ربطوا تاريخ جبل عامل عن جهل أو عن سوء نية ببعض رموز هذه الأسرة. على ألا يفهم من ذلك الانتقاص من دور بعض الزعماء الذين بذلوا الجهد الممكن في صون البلاد والعباد حسب ما أوتوا من قوة. بينما برزت أسماء أخرى من نفس الأسرة لعبت دوراً سيئاً ساعد في كثير من الأحيان في إضعاف الوجود الشيعي دوراً وحضارة.

لا يكتب التاريخ إلا أبناؤه، ومن عتب على المؤرخين الذين أهملوا «تاريخ الشيعة في لبنان» أولى له أن يعتب على الشيعة أنفسهم لأنه لم يخرج منهم مؤرخ يثبت لهم تاريخاً. وكذلك من كتب في العصر الحديث عن اضطهادٍ للشيعة وإبعادٍ لهم عن السلطة واستصغار شأنهم، من الأولى أن يبحث عن السبب الحقيقي الذي جعل الشيعة يبتعدون عن السلطة، وهل حقيقة أبعدوا ولم يكن لهم دور في السياسة العامة في بلادهم؟ وهل حقيقة كانوا هملاً وهدفاً يرمى من الكبير والصغير؟ أما اتهام الدول المتعاقبة باضطهاد الشيعة فإن الشواهد الكثيرة لا تثبت مثل هذا الاضطهاد المزعوم بل تؤكد خلافه تماماً فما أنشأه الشيعة من مساجد ومزارات ومقامات أكثر من أن يحصى في ظل الدول

(المضطهِدة لهم) كما أنشأوا مدارسهم وخرجوا علماءهم في ظل هذه الدول. دون أن يعني ذلكَ أنهم كانوا أنداداً للحكام الذين حكموا في زمن كان الدين والمذهب هما القانون والعرف والشريعة. أما وجود صراعات مذهبية وطائفية كبيرة بين الشيعة وباقي المذاهب الإسلامية فإنها مسألة يجب مناقشتها بانفتاح للخروج بنتيجة تؤدي إلى إلغاء الأسباب التي أدت إليها. حيث يظهر من الكتابات المتعددة أن السبب الحقيقي وربما الوحيد هو «السب والشتم» لرموز محددة من الصحابة التي اعتمدهما بعض الشيعة منذ الشيخين المفيد والطوسي. الأمر الذي لا يسمح بحوار ولا بتقارب، مع أن هذه البدعة لم يكن لها ما يبررها ولا سبب يبقيها (كدعاء: اللهم العن صنمي قريش، ودعاء اللهم العن الأول والثاني...إلخ). إن هذه اللعنات قد أصابت الوجود الشيعي قبل أن تصيب غيره، حتى ضعف انتشار هذه الملة في العالم الإسلامي. وبعد أن كان التشيع يغطي معظم البلاد الإسلامية تحول بالتدريج منذ مطلع القرن السادس الهجري إلى الانكفاء ثم إلى التقوقع.

الفصل الأول

١- تعريف ال «شيعة»

٢ - الجغرافيا التاريخية للبنان الحالي

أ: فترة السلمي العربي (٦٣٥-١٠٩٩)

ب: فترة الحكم الصليبي (١٠٩٩-١٢٦٠)

ج: فترة الحكم «الأيوبي» والمملوكي (١٢٦٠-١٥١٦)

د: فترة الحكم العثماني (١٥١٦-١٩١٨)

١- تعريف ال «شيعة»

يعرف الشيخ المفيد كلمة «التشيع» على أنها تعني: الإتباع على وجه التدين والولاء للمتبوع على الإخلاص[١]. بينما يظهر تعريف أكثر اختصاراً ويختلف قليلاً عن كلام الشيخ المفيد وهو أن «الشيعة لفظ معناه الأتباع والأنصار يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث»[٢]. فالشيعة حسب هذا التعريف هم الحزب.

لكن هذه الكلمة اختصت بحزب بذاته وجماعة بعينها بحيث صارت تعني الجماعة التي شايعت علياً بن أبي طالب. ويظهر جلياً في التاريخ الإسلامي أن هذه اللفظة التصقت بجماعة من الصحابة شايعت علياً بن أبي طالب عليه السلام، أي تحزّبت له، ثم انتقلت الصفة ذاتها والتسمية نفسها لتشمل كل من قال بإمامة علي عليه السلام وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، وكل من اعتقد أن الإمامة لا تخرج من أولاد علي[٣].

يعتقد الشيعة بشكل جازم أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أول من أطلق لفظة «شيعة» على أتباع علي عليه السلام. ويستندون لإثبات هذه المقولة على مجموعة من الأحاديث ينقلونها عن محدثين من غير الشيعة وهي مثبتة في مصادر مختلفة لدى أهل السنة مثل السيوطي في تفسيره «الدر المنثور»، وابن الأثير في «النهاية»، وابن حجر العسقلاني في كتابه «الصواعق المحرقة»، وجميع هؤلاء من المتأخرين الذين استقوا مادتهم من قدامى المحدثين. إضافة إلى مصادر أخرى عديدة. حيث تصف الأحاديث النبوية علياً ومن معه بقول «هذا وشيعته». وقد استند كثير من متأخري الشيعة على هذه الأحاديث ليثبتوا أقدمية مذهبهم.

الجماعة الأولى التي عرفت باسم «شيعة علي» حسب التعريف السابق كانت مجموعة

---

(١) الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد ، اوائل المقالات، دار المفيد للطباعة والنشر بيروت - ١٩٩٣، ص ٣٤.

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ج ٦ ص ٢٥٢.

(٣) الشهرستاني، **الملل والنحل** مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٢ ج ١ ص ١٤٦.

من الصحابة الذين والوا علياً بن أبي طالب في حياة النبي ثم بعد وفاته، وظلوا على ولائهم (تشيعهم) لعلي حتى النهاية. لقد عد منهم أصحاب الرجال جملة من الأشخاص منهم سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن عمرو (المشهور بالمقداد بن الأسود) وعمار بن ياسر وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد اللّه الأنصاري والبراء بن عازب[١] بالإضافة إلى عدد آخر من أنصار علي الذي وقفوا إلى جانبه في المدينة في حياة النبي ثم بعد بيعة أبي بكر المشهورة والمرتبطة بحادثة السقيفة.

هذه البداية للتشيع لا تزيد عن كونها تعبيراً سياسياً حزبياً لادارة الدولة الإسلامية الفتية التي بدت بعد وفاة النبي دون برنامج واضح المعالم لإدارتها.

من الطبيعي ان يكون لكل حاكم أو متطلع إلى الحكم في الدولة الإسلامية الفتية سندٌ ديني يثبت به شرعية مطالبته بالسلطة. وقد وجد مثل هذا السند في دعوى أبي بكر عندما دعا الناس إلى بيعة أحد المهاجرين (عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة بن الجراح) بإيراده نص حديثٍ مفردٍ نسبه للنبي ﷺ يقول أن «الأئمة من قريش»[٢]. فنزع بذلك حجة الأنصار في دعواهم لبيعة أمير منهم. وقد وجد أنصار علي وشيعته حجة مختلفة لا ترتبط بهذا الحديث، لقد استرجع الشيعة نص الخطبة التي قيلت في غدير خم في منصرف النبي من حجة الوداع (كما يرويها الشيعة) والتي نصت بشكل صريح على ولاية علي بن أبي طالب على المسلمين (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)[٣]. ورغم اعتراف كثير من مصادر السنة بهذا الحديث إلا أن الخلافة الأولى لم تلتفت إليه وكأنها لم تسمع به.

لقد أحدث هذا الأمر جدلاً لا ينتهي حول شرعية الخلفاء الثلاثة الأوائل وأثبت الشيعة تفوق نظريتهم على الآخرين حول هذه النقطة (حق علي بالخلافة) لكن

(١) محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان ص ٢١٧.
(٢) مقاتل الطالبيين ص ٦٢ والمفيد، الإرشاد ج ٢ ص ٨.
(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ٣٦٦ طبعة دار الفكر. والنسائي في سننه والبيهقي في سننه من حديث أنس بن مالك. وتاريخ دمشق لابن عساكر ج ٤٧ ص ٤٢٩ نسخة مصورة.

دون تحديد مفهوم صحيح وصريح لمعنى الخلافة، إذ ليس في الشريعة الإسلامية (الكتاب والسنة المعتبرة) نصوص صريحة تحدد شكل الحكم وصلاحيات الحكام والأمراء وبالتالي صلاحيات الخليفة. وما يتفق عليه بعض المسلمين من أمور إجرائية هي استنتاجات وتأويلات لبعض الأحاديث أو شرح لبعض الأيات. لذلك كان لكل حزب أو جماعة من المسلمين رؤى مختلفة للدولة والسلطة ارتبطت فيما بعد بالمذاهب وصار لكل جماعة مذهبية منظرون يصفون الحاكم أو السلطان بالأوصاف التي يرونها مناسبة من وجهة نظرهم.

إن الشيعة في الأصل هم جماعة سياسية لها زعامتها وأهدافها وفي جميع الحالات تستند شرعياً إلى الدين. هذا الأصل بدأ يختلف ويطرأ عليه تبدلات بتقلب الزمان وظهور أمور إعتقادية تحتاج إلى من يثبت أو يدافع عنها. فخرج من بين الشيعة علماء كلام (جدليون) يمدون النظرية الأصلية بأفكار تثبت أحقيتهم في مسائل، في الأصل سياسية، ثم أصبحت فقهية دينية.

يمكن استنتاج أن التشيع منذ بدايته وحتى العصر الحديث قد احتوى خمسة أقسام أو مراحل تلتقي جميعها في الإسم (شيعة) وتختلف في المضامين.

القسم الأول: هم شيعة علي أي الجماعة الشيعية الأولى وهؤلاء هم مجموع الشيعة والأنصار والمحازبين الذين أيدوا وناصروا علياً في أيام النبي ﷺ وبعد وفاته. وهم الذين استمروا في تأييدهم لعلي وحاربوا معه حروبه كلها في الجمل وصفين والنهروان ووالوا بعده ابنيه الحسن والحسين عليهما السلام وحافظوا على نفس الدرجة من الولاء لعلي بن الحسين عليه السلام.

تشمل هذه المجموعة كل الجماعة الأولى من الشيعة (أبو ذر وعمار وسلمان وحذيفة والمقداد....إلخ) ومن انضاف إليهم بعد بيعة علي عليه السلام عندما التجأ الناس إليه في أعقاب مقتل عثمان بن عفان. العدد الإجمالي لهذه الجماعة يزيد قليلاً عن ثمانماية رجل في تقدير بعض المصادر، ثم أضيف إليهم بعد معركة النهروان مقاتلة شرطة الخميس التي

انشأها أمير المؤمنين كجيش نظامي مخلص للخلافة[١]. وقد تناقص عديد هذه الجماعة بعد استشهاد أمير المؤمنين وبيعةُ الحسنِ بن علي عليه السلام معاويةَ بن ابي سفيان فيما يعرف بعام الجماعة، بحيث لم يبق على ولائه للحسن عليه السلام وللخط العلوي إلا ثلة قليلة انضمت ثلّة منهم إلى الحسين بن علي عليه السلام واستشهدوا معه في موقعة الطف. وتخلفت جماعة كبيرة من الشيعة عن نصرة الحسين عليه السلام خاصة في الكوفة ثم اندفعوا بعد موت يزيد بن معاوية يطلبون التوبة والتكفير عن تقاعسهم عن نصرة الحسين في حركة يائسة، وشاركوا في قتال المستميت مع حركة التوّابين ثم مع حركة المختار الثقفي.

المرحلة الثانية: شيعة آل محمد: هذا القسم من الشيعة هم الذين رأوا أن الأئمة (من محمد بن علي إلى الإمام الغائب عليهم السلام) هم الأجدر بالخلافة والولاية من الحكام الأمويين والعباسيين الذين عاصروهم. ولهذا القسم من الشيعة ترجع معظم النظريات التي نشأت مستندة إلى نص الحديث الذي يرتبط بوصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غدير خم أو ما يعرف بحديث الثقلين (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي)[٢]. لقد بدأ تحول التشيع مع الإمام الباقر عليه السلام من شيعة علي إلى شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبدأ يتغير تعاطي الشيعة مع الإمام، فكان بداية أي مع علي والحسن والحسن وعلي بن الحسين عليهم السلام يساوي مشروعاً سياسياً يستند إلى الوصية وحديث الثقلين ما يوصل إلى تولي الوصي أو وصي الوصي الخلافة ليكون إمام الأمة. وكان كل جدل شيعي يوصل إلى أحقية علي عليه السلام وأولاد علي من بعده بالخلافة مقارنة بالخلفاء والولاة الأمويين. وكانت المفاضلة بين علي ومعاوية، وبين الحسين ويزيد، وبين علي بن الحسين وعبد الملك يرجح كفة البيت العلوي من حيث التقوى والورع والعلوم الدينية. لكن الأمور تبدلت في أيام الباقر عليه السلام حيث أصبح الحديث عن الإمام بالمفهوم الديني وليس السياسي. فالباقر عليه السلام لم يعد يقارن بينه وبين الخليفة الأموي للتفاضل

(١) الكليني ، الكافي في الفقه ج ١ ص ٢٨٨ والصدوق محمد بن علي بن بابويه ، امالي، دار الأعلمي بيروت ط ٥ ١٩٨٠ ص ٢.

(٢) محمد بن علي الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٦٤ طبع طهران ١٤٠٥/ ١٩٨٤.

أيهما أحق بالخلافة، بل صار التفاضل يتم بين الباقر عليه السلام والحسن البصري ومالك بن أنس وعبد اللّه بن إباض حول الفقه. وكان لكل فقيه جماعة تتبعه أو تفضله، فكان ذلك البذرة العقائدية لنشوء المذاهب المختلفة، فالإمام الباقر عليه السلام فعلياً هو المؤسس الحقيقي للمذهب الإمامي الذي سينمو ويتأصل مع ابنه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

وبينما لا تعترف المصادر غير الشيعية بحديث الثقلين أو بالجزء الثاني منه ، فإن له في المصادر الشيعية أهمية مقدسة لأنه يؤسس لاعتقاد راسخ بوجوب الإمامة وتحديد الإمام، وعليه استند الشيعة لاعطاء الحق للأئمة في أيامهم بتولي أمور المؤمنين حتى وإن لم يتمكنوا من تولي الحكم والسلطان. فكان الإمام في أيامه مرجعاً للشيعة يأخذون منه أحكام دينهم وأمورهم الشرعية، وكذلك الفلسفة والإعتقادات حتى برز الأئمة الأربعة الكبار الباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام كموجهين للشيعة بكل شؤونهم الحياتية الدنيوية بالإضافة إلى الشؤون الدينية.

في هذه الحقبة أو المرحلة راجت بين الشيعة نظرية دينية - سياسية ترفض تولى الإمام (المعصوم) للسلطة. تقول هذه النظرية بأن مهمة الإمام المعصوم هي في الأصل شرح القرآن. وتصف هذه النظرية الإمام بأنه كالقلب بالنسبة للجوارح. وان اللّه لم يترك الأمة بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هملاً بل ترك فيها من يكون قوّاماً على شرح الكتاب بحيث يكون الإمام هو القرآن الناطق في مقابل القرآن الصامت. وقد وجد من نظّر لهذه النظرية في أيام الإمام الكاظم عليه السلام أي أثناء حكم الخليفة العباسي هارون الرشيد حيث قام هشام بن الحكم (رض) أحد أصحاب الإمامين الصادق والكاظم، وأحد أهم الكلاميين الشيعة، بشرح هذه النظرية (إن اللّه لم يترك الجوارح حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح، ويتيقن لها ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافاتهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم)[1]. وقد أدّت جدلية هشام بن الحكم إلى قيام الخليفة هارون الرشيد باعتقال الإمام الكاظم وسجنه أربع سنوات حتى مات في سجنه.

(١) الكشي، رجال الكشي، ص ٢٧٣.

كما أدت بدايةً إلى فرار هشام بن الحكم من وجه هارون الرشيد ليقضي نحبه بعد ذلك بشهر واحد.

كان من نتائج هذه النظرية أن رفض الإمام الثامن علي بن موسى ارضا عليه السلام قبول ولاية العهد التي عرضها عليه الخليفة المأمون، محتجاً بأن دولة الأئمة هي آخر الدول. فمهد بذلك إلى النظرية السياسية التالية.

المرحلة الثالثة: مع أن إرجاعها إلى الإمام الرضا عليه السلام ممكن إلا أن الحديث عنها نشأ وتأصل ابتداءً من الغيبة الصغرى (٢٦٠/ ٨٧٤) وامتداداً إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر) مترافقة مع حكم البويهين في العراق وإيران. لقد استحدث الفقهاء الشيعة نظرية دينية يمكن تسميتها «نظرية الانتظار» (انتظار قيام القائم عجل الله فرجه الشريف ليملأها عدلاً كما ملئت جوراً). أصل النظرية يعود إلى أحاديث نقلت من «الأصول الأربعماية» وهي مجموعات حديث غير مثبتة منسوبة للائمة الإثني عشر لم يتبق منها اليوم إلا نتف غير محققة. فنقل عنها الشيخ الكليني والشيخ الصدوق وكذلك عامة شيوخ التأسيس (أي الشيوخ العلماء الذين أسسوا للفقه الإمامي) دون تحديد المصدر بذاته أو تمحيص أو تحقيق النصوص. وتعني هذه النظرية في إحدى جوانبها عدم جواز تولي الشيعي للسلطة أو الحكم لأن أي حاكم يتولى الحكم سيكون ظالماً. هكذا تخلى الشيعة عن السلطة تدريجياً وخلال قرن من الزمن في الأقطار والمدن التي يعيشون فيها، وتركوا الأحكام والسلطة فيها لجماعات غير شيعية، أو تابعوا الحكم من خلال نظرية سياسية غير شيعية.

في هذه المرحلة نشأ وتطور الفقه الإمامي ووضع بشكله الحديثي بجهد مجموعة من رجال الدين المؤسسين الذين استندوا إلى ما روي عن الأئمة الإثني عشر، لينشأوا مذهباً فقهياً دينياً واجتماعياً مستقلاً، ومبتعداً بحذر عن المذاهب الإسلامية السنية الأخرى. في هذه الفترة اتسع الوجود الشيعي بين المسلمين حتى شكلوا أغلبية السكان في العالم الإسلامي المتسع الارجاء. لكن الشأن السياسي ترك على حاله القديم المرتبط بنظريات وتطبيقات سياسية غير شيعية. فكان حكم بني بويه في بلاد

إيران والعراق، وكذلك حكم الحمدانيين في شمال ووسط الشام، وحكم الفاطميين في باقي الشام ومصر والحجاز ومعظم شمال أفريقيا، كانت أحكام هؤلاء جميعاً تشبه شكلاً ومضموناً طريقة حكم الأمويين والعباسيين، أي الاستبداد بالسلطة، والسيطرة على بيت المال، ودون تحديد صلاحيات الحاكم الذي يحكم بنظرية (خليفة اللّه في أرضه).

المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي استمرت أكثر تاريخ الشيعة في العالم وتمتد من بداية القرن الخامس/ الحادي عشر وحتى العصر الحديث. مقومات هذه المرحلة تعود إلى مجموعة من رجال الدين الذين استقل كل واحد منهم بنظرية معينة أدت في مجموعها إلى ما يسمى اليوم المذهب الجعفري. في هذه المرحلة ظهرت نظرية التقليد لابن الجنيد الاسكافي ونظرية الاجتهاد لابن أبي عقيل الحذّاء، ونظرية تقديس الذرية الطالبية (السادة الأشراف) للشيخ الصدوق وما يتبعها من نتائج. كما راجت نظرية الحط من قدر الصحابة التي نظّر لها الشيخ المفيد، وأضاف إليها الشيخ الطوسي نظرية التكفير والسب واللعن.

كان من نتائج هذه المرحلة وقوع الفتن بين الشيعة والمذاهب الأخرى، وتلقى الشيعة مجموعة ضربات هائلة شارك فيها الحكام الذين صاروا غير شيعة، حتى ضعف الوجود الشيعي وتناقص عديدهم في البلاد الإسلامية بالتدريج وتحولوا إلى أقلية بين جمهور المسلمين.

المرحلة الخامسة: هي بامتياز مرحلة روح اللّه الموسوي الخميني الذي انتقد نظرية أن «الإمام هو القرآن الناطق» ووظيفته «تفسير الأحكام» ليخرج بتفسير جديد لدور الإمام. أي أنه وضع نظرية سياسية مختلفة وهي أن «وظيفة الإمام تنفيذ الأحكام»[1]. وبالتالي أوجد الخميني نظرية وجوب الحكم بالعدل الذي يتولاه الفقيه العادل. أي توصل إلى وجوب تطبيق نظرية ولاية الفقيه التي آمن بها قبله عدد من كبار أئمة المذهب الإمامي كالشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (اللبناني) والشيخان النراقي والأنصاري في

(١) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك، ص ٧٧.

إيران. هذه النظرية فتحت باباً للصراع مع أصحاب المذاهب الأخرى بسبب التنافس الذي أصبح واقعا وسبيلاً إلى اشتعال الحروب المذهبية.

لذلك سيكون الحديث عن تاريخ الشيعة الحضاري في لبنان مرتبطاً بكل مرحلة من المراحل الأربعة الأولى على اعتبار أن الخوض في المرحلة الخامسة سابق لزمانه كون هذه المرحلة لا زالت في بداياتها.

٢- الجغرافيا التاريخية للبنان:

ما يعرف حالياً ب (لبنان) هو تجميع جغرافي لأجزاء من مناطق كانت تتبع تقسيمات إدارية مختلفة في فترات التاريخ الإسلامي، أي منذ أن سيطر المسلمون على بلاد الشام عقب معركة اليرموك التاريخية، وحتى سقوط الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

هذه المدة المتطاولة تقسم إلى أربع حقب تاريخية مختلفة عرف اللبنانيون خلالها تنظيمات إدارية وسياسية تتصل بشكل السلطة الحاكمة ومدى قوة أو ضعف هذه السلطة.

أ- **فترة السلم العربي**: لقد أشرف عمر بن الخطاب الخليفة الثاني على وضع تقسيمات إدارية تختلف جزئياً عن التقسيمات التي كانت شائعة في أيام البيزنطيين. فقد أنشأ في سوريا (بلاد الشام) أربع ولايات هي الأردن (وعاصمتها مدينة طبريا) ودمشق وحمص وفلسطين. واستمرت هذه التقسيمات الإدارية قائمة بشكلها وأنظمتها حتى وصول جحافل الصليبيين إلى المنطقة سنة ١٠٩٩.

في هذه الحقبة كان قسم من جنوب لبنان من مجرى نهر الليطاني وصعوداً حتى سهل مرجعيون ومن هناك جنوباً حتى وادي القرن ووادي أيوبية التي تشكل حالياً جزءاً من الحدود اللبنانية الفلسطينية، أُتْبِع هذا القسم لولاية الأردن. ويستفاد مما ذكره اليعقوبي في «البلدان» وابن خرداذبة في «المسالك والممالك» وابن حوقل في «صورة الأرض» أن ولاية الاردن كانت مقسمة إلى بضع كور هي كورة طبرية،

كورة السامرة، كورة بيسان، كورة فحل، كورة جرش، كورة بيت راس، كورة جدر، كورة كابل، كورة سوسية، كورة صفورية، كورة عكا، كورة قدس، كورة صور[١]. من مجموع هذه الكور تنتمي كورتا صور وقَدَس إلى لبنان الحديث بينما تتوزع الباقي على فلسطين وشرق الاردن.

أما الكور التي تتبع ولاية دمشق فهي: سهل الغوطة، أقليم سنير، مدينة بعلبك والبقاع، وأقليم لبنان، وكورة جونية، وكورة أطرابلس، وكورة جبيل، وكورة بيروت، وكورة صيدا، وكورة البثنية، وكورة حوران، وكورة الجولان، وظاهر البلقاء، وجبل الغور، وكورة مآب، وكورة جبال، وكورة الشراة، وكورة بصرى وكورة عمّان، والجابية[٢].

من كل هذه الكور ينتمي للبنان الحديث كور: أقليم سنير (جبل الشيخ ومنطقة العرقوب)، مدينة بعلبك والبقاع، وأقليم لبنان، وكورة جونية، وكورة أطرابلس، وكورة جبيل، وكورة بيروت، وكورة صيدا. ويبدو من مجموعها أنها تشمل تسعة اعشار خريطة لبنان الحالية، كما يلاحظ فيها أن ما كان يقصد ب «لبنان» في حينه هو القسم الشمالي من جبل لبنان فقط.

ب - **فترة الحكم الصليبي**: تمكن الصليبيون ابتداءً من سنة ١٠٩٩ من السيطرة على شريط ساحلي ضيق شمل مدينة طرابلس وما حولها من سهل ساحلي والجبال المطلة عليها في عكار، وكذلك الطرق الممتدة على طول شاطىء البحر حتى رأس الناقورة جنوب صور ومن هناك نحو فلسطين. وقد سيطر الصليبيون في الجنوب على كل بلاد جبل عاملة من نهر الأولي حتى وادي القرن وصعوداً إلى اعالي الجبل وتوسعوا شرقاً في سهل الحولة حتى مجرى نهر الأردن. لكنهم لم يسيطروا على كل الجبال المطلة على جبيل وبيروت ومنطقة الغرب ومنطقة جزين. فخلت هذه النواحي منهم، واحتفظت بما يشبه الحكم الذاتي حيث كانت تشكل مناطق عازلة بين مناطق سيطرة الصليبيين ومناطق

(١) الحكومة الإسلامية، الإمام الخميني، ص ١٠ و ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق.

سيطرة الدولة الزنكية ثم الايوبية في دمشق وبعلبك وحمص. وقد حاول الصليبيون التمدد نحو وادي التيم ففشلوا وسيطروا لمدة وجيزة على مرجعيون ثم تراجعوا عنها إلى هونين حيث بنوا سنة ١١٧٩ قلعة مهمة.

كانت إدارة البلاد الساحلية الخاضعة للصليبيين تتم على طريقة الاقطاع الأوروبي في العصور الوسطى. وقد تملك كل إقطاعي صليبي منطقة بمن وما فيها. وكان نقل الملكية في المناطق يتم بشكل شمولي إذ يبيع الاقطاعي أملاكه ومن وما فيها. أما التقسيم الإداري لهذه المناطق فقد انقسم على وضعين مختلفين واحد خاص بالكنيسة والثاني معتمد من قبل نبلاء المملكة. بالنسبة للقسم الاول فقد استعادت الكنيسة نظام الأبرشيات الذي كان معمولاً به في العصر الروماني وامتداداً إلى العصر البيزينطي حيث كان في سوريا (بما فيها لبنان والأردن وفلسطين) ثلاث عشرة أسقفية تخضع لكنيسة إنطاكية. وكان يطلق على أسقف صور في الشرق لقب «صاحب القداسة العظمى» لأنه كان صاحب الصدارة بين الكنائس الثلاث عشرة[١]. ولأن صور اصلاً كانت عاصمة فينيقية الساحلية في العصر الروماني.

أما طرابلس فقد تبعت أسقفية طرسوس وتبعت بعلبك أسقفية حمص. وقد تعين الأب وليم الاول على صور بعد احتلالها سنة ١١٢٤. وبعد وفاته أصبح الأب فولشير بطريركاً على صور سنة ١١٣٨.

أما القيادة السياسية في لبنان في هذه الحقبة فقد تبعت مملكة أورشليم وقد تمتعت كونتية طرابلس في الشمال بحكم ذاتي منذ تأسيسها سنة ١١٠٩ وحتى سقوطها بأيدي المماليك سنة ١٢٨٩. وتمتعت مدينتا جبيل وبيروت بحكم ذاتي مع خضوعهما لملك أورشليم. أما المناطق جنوب بيروت فقد خضعت لمملكة أورشليم مباشرة التي تألفت من أربع بارونيات كبيرة واثنتي عشرة مقاطعة. كان جبل عامل في جنوب لبنان الحالي يتبع حسب هذا التقسيم ثلاث من هذه المقاطعات، القسم الشمالي (شمال القاسمية) منه كان يتبع لبارونية صيدا (La Sagette)، بينما

---

(١) وليام الصوري ج ٣ ص ١٠١.

كان القسم الجنوبي الساحلي (جنوب القاسمية) يتبع مقاطعة صور وعكا (La Territoire de Tyr et Acre)، فيما كانت المنطقة الجبلية تتبع مقاطعة تبنين (La seigneurie de Toron). وكانت كل من هذه المقاطعات تنقسم إلى مجموعة من النواحي تدعى كل ناحية منها (fief) يكون مركزها في قلعة عادة ما يتبعها عدد من الحصون الصغيرة، وفي أكثر الأحيان لم تكن تلك الحصون الصغيرة سوى قصور إقطاعية تحكم مجموعة من الفلاحين البلديين (غالباً من الشيعة). ومن العسير جداً معرفة عدد النواحي (fiefs) بدقة نظراً للتغيرات الكثيرة التي كانت تحصل على حدودها خصوصاً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر حيث لم تتعد مساحة الناحية في بعض الأحيان مساحة قطعة ضيقة من الأرض.

كانت حدود بارونية صيدا شمالاً مجرى نهر الدامور، وغرباً البحر وجنوباً مجرى نهر القاسمية. وقد تبعت مرجعيون التي سماها الفرنج (Le val Germain) وكذلك حاصبيا هذه البارونية لفترة محدودة في القرن الثاني عشر.

في نفس الفترة كانت المناطق الجبلية إلى الشرق من مدن الساحل تتمع بحكم ذاتي غير واضح المعالم والحدود. فقد اتخذ أحد المغامرين العرب واسمه الضحاك بن جندل (من قبيلة ربيعة) في شقيف تيرون في جبل نيحا حصناً وكان يهادن الافرنج على الساحل وأمراء دمشق في الداخل ليستقر في قلعته مع أنصاره. وعندما سيطر نور الدين زنكي على دمشق قام بالاستيلاء على نيحا وقضى على إمارة الضحاك. كما تمتعت جزين وناحيتها بحكم ذاتي ظل قائماً طيلة الحروب الصليبية. وقد حاول الصليبيون مرة السيطرة عليها عندما أرسلوا من صيدا ٥٠٠ مقاتل من الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩-١٢٢١) لكن الأهالي (المياذنة وهو اسم للشيعة في ذلك الزمن) هزموهم وطردوهم ولاحقوهم حتى مداخل صيدا ولم يفلت من الحملة إلا ثلاثة رجال[١].

ومن المؤسف أن مقاومة أهالي المناطق اللبنانية المختلفة للوجود الصليبي ابتداءاً من طرابلس وصيدا وصور وانتهاءاً بكسروان وجزين لم يغن عن مهاجمة المماليك لهذه

(١) ابن أبي شامة، ذيل الروضتين، ص ١٥٧.

المناطق والفتك بأعداد كبيرة من سكانها في حرب مذهبية نشرت الدمار والخراب في طول البلاد وعرضها.

ج - **فترة حكم الأيوبيين والمماليك**: إعتمد الأيوبيون بعد استيلائهم بالقوة على سوريا (والموصل) نظاماً مرتجلاً في تقسيم البلاد السورية حكموا فيها بنظام الأسر الإقطاعية بشكل عشوائي. فالحاكم الأيوبي (ابتداءاً من صلاح الدين يوسف) اعتبروا البلاد ملكاً لهم يجوز فيها البيع والشراء والتوريث والتقسيم. فالسلطان يملك البلاد والعباد بما يشبه ملك الرقيق. وكانت الضرائب تفرض على الناس بشكل عشوائي وحسب رغبات السلاطين أو من ينوب عنهم وفي وصف ابن جبير عن شكل الضرائب والرسوم التي يفرضها الصليبيون ومقارنة ذلك مع ما يفرضه المسلمون ما يدل على بؤس الإدارة التي اتبعها الأيوبيون في البلاد.

أما المماليك فقد قسموا البلاد التي حكموها إلى ممالك كان لبنان فيها يتبع لمملكة صفد في الجنوب ومملكة دمشق في الشرق ومملكة طرابلس في الشمال. وكانت الإدارة المملوكية نسخة عن الإدارة الأيوبية مع دخول تحسينات مهمة جداً في أيام الملك الناصر محمد (٦٩٤-٧٤١/ ١٢٩٥-١٣٤٠) الذي راك البلاد (تقسيمات إقطاعية) وحدد حقوق الأمراء وقادة الجند ورتبهم... إلخ.

واتخذ المماليك من القلاع مراكز لإدارة البلاد وجعلوا في كل قلعة متسلماً يكون صلة بين حكام المقاطعات والسلطان (او الملك)، وبنوا في كل مقاطعة أبراجاً يقيم فيها الحاكم ومعه بعض المجندين ويكون مستعداً لمواجهة أي عدو في أي وقت، ولا زال كثير من آثار الأبراج (أو الأذواق) موجوداً في مختلف المناطق اللبنانية، وتحمل في كثير من الأحيان اسماء بناتها أو أصحابها مثل ذوق مصبح وذوق مكايل وبرج قالوية وبرج دوبيه...إلخ.

د - **فترة الحكم العثماني:**

وهو يقسم إلى مرحلتين: ١٥١٦ - ١٨٦٤ حيث كانت البلاد السورية تخضع لنظام الولايات (دمشق وطرابلس وحلب). ثم عدل هذا النظام بانشاء ولاية صيدا سنة ١٦٦١.

وقد قسم جبل عامل في الجنوب في هذه الفترة إلى ثلاثة اقاليم وهي بلاد بشارة جنوب الليطاني ومركزه قلعة تبنين. وبلاد الشقيف شمال الليطاني ومركزه قلعة أرنون. وأقليم التفاح والشومر ومركزه قلعة جباع، التي أزالتها الحكومة اللبنانية في مطلع الستينات بطريقة مشبوهة وكأن المراد إلغاء تاريخ المنطقة.

أما في الداخل فقد تبع البقاع إدارياً لمدينة بعلبك (التي كانت تتبع مملكة دمشق) بينما كانت الإدارة الفعلية فيه للأمراء المحليين الشيعة من آل حرفوش. وفي الشمال الذي تبع طرابلس حافظ الأمراء الشيعة من آل حمادة وآل داغر بسيطرة فعلية على مقادير الأمور فيه.

واستمرت إدارة البلاد بهذا الشكل حتى سنة ١٨٦٤ عندما انشئت ولاية سوريا التي أتبعت لها ولاية صيدا (عكا) وطرابلس. وفي سنة ١٨٨٨ أنشئت ولاية بيروت التي ضمت المنطقة الساحلية من اللاذقية إلى رفح. بينما حصل جبل لبنان الأوسط على استقلال ذاتي باسم متصرفية جبل لبنان وأتبع مباشرة إلى السلطان.

في العهود المختلفة كان جبل لبنان الممتد من نهر الكلب حتى النهر الكبير الجنوبي يتبع ولاية دمشق ثم ألحق بولاية طرابلس في العهد العثماني أما البقاع البعلبكي فكان دائماً يتبع دمشق منذ ايام تقسيمات عمر بن الخطاب وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى. أما الجنوب فكان بقسميه الجنوبي والشمالي يتبع إما دمشق (خاصة القسم الشمالي منه صيدا وارنون) وإما للأردن أو صفد (منطقة جنوب الليطاني).

تقسيم لبنان جغرافياً إلى اربع مناطق، ثلاث منها تبعت دمشق (البقاع والجبل والساحل بما فيه طرابلس وبيروت) والرابع تبع الأردن (منطقة جنوب الليطاني) يفترض تاريخاً منفصلاً ببعض المتفرقات في كل من هذه المناطق من حيث الحكام وسلوكهم وطريقة إدارتهم للبلاد ومدى التقدم أو التخلف الذي حدث في كل من هذه المناطق.

الفصل الثاني

تاريخ الشيعة في فترة السلم العربي ٦٣٥-١٠٩٩

١ - جيوش الفتح والشيعة فيها

٢ - أبو ذر الغفاري مؤسس التشيع في لبنان

٣ - الوجود الشيعي في ظل بني أمية

٤ - لبنان في العصر العباسي حتى الغيبة الكبرى(١٣٣- ٣٢٩/ ٧٥٠- ٩٤١)

٥ - طرابلس في فترة السلم العربي

٦ - صور، في فترة السلم العربي

١ - جيوش الفتح والشيعة فيها:

تصف كتب السير والفتوحات العربية الحروب التي جرت في بلاد الشام سنة ١٣/ ٦٣٤ وما بعدها باسهاب شديد فتذكر عشرات أسماء لصحابة ومحاربين من قبائل مختلفة قدر لكثير منهم أن يبقوا في الشام (سوريا) بعد انتهاء الحرب حيث رابطوا في قلاع استولوا عليها أو بنوها بأنفسهم في الأماكن التي اعتقدوا أنها مناسبة للدفاع عن البلاد المفتتحة.

وبطبيعة الحال فإن رجال القبائل العربية من المحاربين بمن فيهم الصحابة كانوا يميلون سياسياً إلى زعماء وقادة في الدولة الإسلامية الفتية، بحيث يمكن استجلاء وجود أمراء كثيرون لهم اتباع يأتمرون بأوامرهم ويخلصون الولاء لهم. فكان كل أمير من هؤلاء يشبه رؤساء الأحزاب أو شيوخ القبائل. ويوجد في أسماء رؤساء القبائل ورجالهم من الفاتحين جماعة شيعية (موالية لعلي بن أبي طالب) استمرت على ولائها لعلي ومن أهمهم خالد بن سعيد بن العاص الأموي الذي استشهد في معركة مرج الأصفر قرب دمشق. وكان خالد قد اعترض بشدة على تولي أبي بكر الصديق الخلافة معتبراً بأنها هي حق حصري بعلي بن ابي طالب. وعندما أراد أبو بكر إرسال الجيوش إلى الشام جعل خالد بن سعيد أميراً على عامة الجيش فاعترض عمر بن الخطاب بشدة وظل يمانع في ذلك حتى عدل أبو بكر عن رأيه[1]. وهذا سيعيد إلى الأذهان أن مسألة الخلافة الأولى وبيعة أبي بكر لم تؤدِ إلى قطيعة فعلية بين شيعة علي وشيعة أبي بكر. لقد شارك في جيش الفتح من شيعة علي الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي شارك في معركة اليرموك. ثم وقع في جيش يزيد بن ابي سفيان وأقام في ولاية الأردن حتى عد شامياً. وكان له مشاركة في فتح قبرس ورودس وفي الهجمات على البيزنطيين في ناحية العواصم (قرب حلب). وسيكون لهذا الصحابي دور مهم وخطير في تحريض الناس على عثمان حتى اضطر

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٥٨٦.

معاوية لطرده من الشام بأمر من عثمان وليس العكس كما توهم كثير من كتّاب الشيعة حيث قالوا بأن عثمان نفاه إلى الشام.

٢ - أبو ذر الغفاري مؤسس التشيع في لبنان

يفتخر أهل جبل عامل أنهم أسبق أهل الأرض إلى عقيدة التشيع لعلي عليه السلام معتمدين على بعض النصوص الشعبية التي تدّعي أنه لم يسبق أهل هذا الجبل إلى التشيع إلا جماعة محصورون في المدينة[1]. كما يعترف بعض المؤرخين في العصر الحديث بما يشبه هذه القناعة بالقول أن المعروف بين الشيعة في جبل عامل خلفاً عن سلف أن الذي دلهم على هذا المذهب أبو ذر الغفاري لما سُيِّر إلى الشام. ولا يزال في قرية الصرفند (بين صيدا وصور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجداً معموراً، وهو غير مسجد القرية الجامع. وفي قرية ميس الجبل له مقام آخر. وميس هذه قرية في جبل عامل على طريق القادم من دمشق[2].

لكن بعض الكتابات التاريخية في العصر الحديث خصوصاً من بعض علماء الدين الشيعة قد دأبت على التشكيك بقصة أبي ذر وتشيّع الناس بسببه. وافترض كثيرون أن مدة بقاء أبي ذر الغفاري كانت قصيرة ولم تكن كافية ليتحول الناس إلى طريقته ومذهبه.

يستند معظم هؤلاء على نص للشيخ الحر العاملي في أمل الآمل لم يحدد مصدره، مفاده أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان قد نفى أبا ذر من المدينة إلى الشام فتشيع فيها (المقصود دمشق) جماعة. ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوصل إلى جبل عامل وراح يؤلب الناس على عثمان. فاستدعاه معاوية ثم كتب في شأنه إلى عثمان فأمره أن يرسله إلى المدينة على أصعب قتب، وعند وصوله عزّره عثمان وأنّبه ونفاه إلى الربذة حيث مات فيها.

هذه المقولة غير صحيحة ومقلوبة وبعيدة كل البعد عن الواقع التاريخي. فأبو ذر

---

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي - أمل الآمل- ج١ ص ١٣

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام، ج ٦ ص ٢٥٢.

يوصف في المصادر الشيعية بصورة فيها الكثير من الغموض، حيث يمكن الشك بصحة المعلومات التي ترد فيها. فأبو ذر (رض) حسب هذه النصوص إنسان بائس ضعيف فقير ليس معه من حطام الدنيا إلا كسرات خبز يابس يضعها تحت وسادته. وأن عثمان حاول رشوته بالمال لكن أبا ذر ردّ مرسل عثمان على عقبيه ورفض قبول رشوته. كما أن أبا ذر (حسب هذه المصادر) حين كان يصرخ في وجه معاوية محذراً ومؤنباً كان يشبه شيوخ الصوفية الذين يعظون أصحاب السلطان ولا يلقون لديهم قبولاً ولا رداً جميلاً.

هذه الصورة التي يتناقلها علماء الدين الشيعة وبعض المؤرخين الذين حذو حذوهم في العصر الحديث هي صورة مقلوبة ليس فيها من الجدية إلا بعض مظاهر التصوف. أما سيرة أبي ذر كما هي معروفة عند كتّاب السيرة فمشهورة ومتفق على أكثر وجوهها. فأبو ذر هو خامس المسلمين وكان رجلاً طويلاً أسمر كث الشعر قوياً صلباً. وكان يدين بالتوحيد قبل أن يسمع بالنبي وصلى ثلاث سنين قبل أن يسلم. وعندما سمع ببعثة النبي ﷺ قصده وأسلم على يديه وأخلص للدعوة. وربما يكون أبو ذر أول مسلم رفع صوته بالتوحيد في وجه رجال قريش فضربوه وعزروه، واستنقذ من بين أيديهم لموقع قبيلته غفار على طريق تجارة قريش (سيرة أبي ذر موجودة بالتفاصيل في طبقات ابن سعد، وفي تاريخ ابن عساكر وفي تاريخ الذهبي، وعند معظم كتاب السيرة بتفاصيل كافية) كما أن ابا ذر هو أول مسلم حيّ النبي بتحية الإسلام.

لم يشهد أبو ذر بدراً ولا أحداً لأنه كان في قبيلته يدعو الناس للاسلام، وعندما وجد الظرف مناسباً هاجر إلى المدينة ولازم الرسول وحظي عنده لما يملكه من صفات حميدة وسجايا محببة. وقد شارك الرسولَ في حركاته السلمية والعسكرية، وكان من الصحابة المبجلين وفيه قال النبي ﷺ أحاديث زادته هيبة واحتراماً بين المؤمنين.

بعد وفاة النبي ﷺ بدأ تسيير جيوش المسلمين إلى الأمصار فكان أبو ذر أحد جنود الإسلام ومقاتلي الفتح. وانتقل مع الجيش الذي اتجه إلى الشام بإمرة يزيد بن أبي سفيان فشارك في اليرموك وفي المعارك التي تلت حتى تمّت السيطرة على البلاد الشامية.

بعد انتهاء الحرب استقر أبو ذر في الشام في ولاية الأردن المستحدثة التي تولاها

مدة قصيرة شرحبيل بن حسنة، ثم أصبحت بإمرة يزيد بن أبي سفيان. وبعد وفاة يزيد هذا تولى الأردن أخوه معاوية بن أبي سفيان وجُمعت له ولايتا الأردن ودمشق، فأصبح أبو ذر خاضعاً لأمرته حيث ستكون تحركات أبي ذر بعد سنة ١٧ / ٦٣٨ مستندة إلى رأي معاوية وسلطته.

شارك أبو ذر في فتح مصر في النجدة التي أرسلت لعمرو بن العاص من الشام(١). وبعد انتهاء العمليات العسكرية عاد أبو ذر إلى موقعه العسكري في الأردن. وشارك سنة ٢٣ في الصائفة التي قادها معاوية بن ابي سفيان ووصل فيها إلى خليج القسطنطينية، وركب معه في البحر(٢). كما شارك سنة ٢٨/ ٦٤٩ (أو سنة ٢٩/ ٦٥٠) في الحملة البحرية للسيطرة على قبرس أيضاً بإمرة معاوية وأبلى فيها بلاء حسناً(٣).

كان عطاء أبي ذر من بيت المال أربعة آلاف درهم سنوياً حسب الديوان الذي أنشأه عمر بن الخطاب، أي أنه كان يحسب ضمن أصحاب بدر، ورغم أن أبا ذر لم يشارك فيها إلا أن عمر حسبه بين أهل بدر في العطاء(٤). فكان أبو ذر ينفق من عطائه، وهو مبلغ كبير جداً، على حاجياته وما يتبقى ينفقه في أمور الجهاد، فكان يقتني في إحدى القرى في الشام (الأرجح أنها ميس الجبل حيث كان يقيم) ثلاثين فرساً، فكان يشتري لها الأعلاف وينفق على من يقوم عليها لتكون جاهزة عند الحاجة إليها زمن الحرب(٥). وهذا يثبت أنه لم يكن فقيراً، بل كان يعيش حياة الزهد مختاراً.

يضاف إلى ذلك أن الناس كانوا يثقون به وبصدقه بناءً على حديث نبوي يصف فيه أبا ذر بأنه من أصدق الناس لهجة. وكان الولاة والأمراء لا يردون له طلباً ويعتبرون ذلك

---

(١) ابن عسّاكر ، تاريخ دمشق ج ٦٦ ص ١٧٦.

(٢) الحافظ بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦٤ والطبري ج ٣ ص ٣٠٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧ ص ١٦٥. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٣ ص ٧٧ والطبري ج ٣ ص ٣١٥

(٤) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ج ٧ ترجمة ٩٨٦٨ وفي طبعة مصر ٢٠٠٨ ج ٧ ص٢١٥-٢١٦ ترجمة رقم ٩٩٠٤.

(٥) ابن عسّاكر، تاريخ دمشق ج ٦٦ ص ٢٠٧.

تنفيذاً لحق واجب التنفيذ. فقد طلب مرة من يزيد بن أبي سفيان أمير الجيش أن يعيد جارية أخذها غصباً من أحد المقاتلين فنفذ واعتذر. كما فرض على معاوية سنة ٢٩/ ٦٥٠ عقب غزوة قبرس أن يقسم الغنائم بطريقة معينة فنفذ معاوية دون اعتراض[1]. كل ذلك يثبت تلك المكانة التي تمتع بها أبو ذر بين الحكام والعامة. وهو، رضي اللّه عنه، في كل هذه المدة يقيم في الشام.

كان أبو ذر يزور المدينة قادماً من مكان مرابطته في الشام كل سنة تقريباً حاجاً أو معتمراً. وكان يستأذن الخليفة في زمانه (عمر أو عثمان) بالبقاء مدة أطول مجاوراً قبر الرسول فيؤذن له. حتى إذا قضى مُدةً أُمِرَ أن يلتحق ببريده، أي بالمنطقة العسكرية التي ينتمي إليها في الشام، فينفذ.

هنا يبدأ إدراك موقع أبي ذر في الشام. فالشائع بين أهالي جبل عامل أن أبا ذر كان يرابط في قطرهم فيكون مرة على شاطىء البحر في قلعة الصرفند، ومرة في قلعة صغيرة في أعالي جبل عامل في قرية ميس الجبل. وربما هي هذه القرية بالشام التي استوطنها أبو ذر حيث كان يقتني الأفراس ويهتم بها. وقد بُني في القريتين (الصرفند وميس الجبل) مقامان لأبي ذر، ثم أقيم فوق المقامين مسجدان يحملان اسم صاحب المقام. وكانت سيرة هذا الصحابي بين الناس كافية لتجعل له أصحاباً ورفاقاً يتبعون طريقته في الزهد والعبادة والولاء والتشيع لصاحبه علي بن أبي طالب عليه السلام حيث ستصبح هذه الظاهرة (التشيع) إرثاً شعبياً مستمراً يدين فيه الجمهور العاملي لأبي ذر الغفاري دون جدال.

حتى سنة ٢٩/ ٦٥٠ أي بعد مضي السنوات الست الأولى من خلافته،كانت سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان تشبه سيرة سابِقَيْه، لكنه بدأ في تلك السنة بتبديل أمور واستحداث أشياء تخالف السُّنَّة المتبعة. فاستثار عليه الصحابة وبدأ يواجه مشكلات كانت تتزايد باستمرار. وبدل أن يتراجع عن هذه المستجدات أقدم عثمان على مواجهة الصحابة بقسوة وعنف غير معهود ولا مبرر، وعاقب عدداً من أجلاء الصحابة الذين انتقدوه، فجلد عمار بن ياسر حتى أشرف على الهلاك، واستنقذه منه بنو مخزوم لحلف

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق ج ٦٦ ص ١٩٢.

بينهم في الجاهلية(١) وضرب عبد الله بن مسعود وحمل من بين يديه في حالة بائسة. وأخيراً وصل الدور إلى أبي ذر وهو أشد الصحابة عليه وكان في موسم الحج سنة ٣١/ ٦٥٢ فانتقده بقسوة وألب الناس عليه فأمره عثمان بالإلتحاق ببريده في الشام، أي الإلتحاق بمكان مرابطته في الشام، فنفذ الأمر طائعاً، وهذا لا يعني أنه نفي إلى الشام بل أعيد إليه. وربما هذه الحادثة هي ما يرجع إليها معظم المؤرخين الشيعة فيعتبرون خطأً أن أبا ذر قد نفي إلى الشام بينما الحقيقة أنه أعيد إلى مكان مرابطته ولم يُنْفَ. وبعد رجوعه اتخذ أبو ذر من موقعه في الشام منبراً يحرض الناس على عثمان فاستدعاه معاوية من الجبال في الأردن (جبل عامل) إلى دمشق. فازداد تحريضاً وثورة، ووسع انتقاده ليشمل معاوية الذي كان يعيش في دمشق حياة ترف تخالف ما عرفه المسلمون من سيرة ولاتهم في أيام عمر. ولم يكن بامكان معاوية ردعه أو منعه من الكلام. لا بل إن أبا ذر قد أنبه على ملإ من المسلمين حول بنائه لقصر الخضراء في دمشق. فلم يجروء معاوية أن يرد عليه لمكانته بين الناس. كما حذره في ملإ من الناس أن يدعو بيت مال المسلمين «مال الله» فاستجاب له معاوية(٢). وعندما أصبح كلامه خطرا على السلطة، كتب معاوية شكوى بحقه إلى عثمان فرد عليه يأمره بتسيير أبي ذر إلى المدينة وأن يحمله على أغلظ مركب وأوعره(٣). كما تتحدث مصادر مختلفة عن السبب الذي جعل عثمان يُشخص أبا ذر من الشام حيث كان يرابط إلى المدينة(٤).

في المدينة عاتبه عثمان فأغلظ له أبو ذر الجواب حتى أمره عثمان بمغادرة المدينة إلى أي مكان إلا الشام فانتقل إلى الربذة، في بعض الروايات طائعاً، وفي أخرى منفياً وبقي فيها حتى قضى نحبه في نهاية سنة ٣٢/ ٦٥٢.

بحساب بسيط يمكن تقدير مدة إقامة أبي ذر في الشام من سنة ١٤/ ٦٣٥ وحتى سنة ٣١/ ٦٥٢ أي ما يزيد عن ١٦ سنة وهي مدة كافية جداً ليكون معه في مرابطته رفاق

(١) The formative period of Islamic thought P 8 , M. Watt.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٣٥.

(٣) ابن ابي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج ٨ ص ٢٥٨.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٣٥

سلاح وجهاد، وليشكل جماعة شيعية، خاصة مع وجود تلك الهالة المقدسة التي كان يمثلها. كما يمكن تقدير تلك الشخصية الشجاعة الفذة لأبي ذر الرجل الصلب المقدام الذي لا يخاف في اللّه لومة لائم. منفذاً بذلك وصية خاصة له من الرسول الاعظم ﷺ. فكيف رأى بعض مؤرخي الشيعة، وبعض رجال الدين منهم، أن المدة التي قضاها أبو ذر في الشام قصيرة لا تتجاوز أياماً قلائل قضاها منفياً لا يملك من حطام الدنيا إلا اليسير من الخبز اليابس؟ واتفق لهم أن يصوروا أبا ذر ضعيفاً مسكيناً يستعطف الناس ببؤس وعجز ليشايعوا أمير المؤمنين؟ ربما يقع اللوم في تأويل هذا الحدث على عدد من رجال الدين الذين دأبوا على تصوير الشيعة بأنهم فئة مستضعفة معرضة دائماً للاضطهاد بسبب تشيعهم. وهذه الصورة هي عكس الواقع التاريخي الذي يثبت أن الشيعة مثلهم مثل كل الفرق الإسلامية قد عاشوا فترات من القوة. ووصلوا إلى حكم معظم العالم الإسلامي على مراحل، دون أن يكون لنظرية الاستضعاف وجود فعلي إلا في فترات قصيرة ومحدودة الأثر.

٣ - الوجود الشيعي في لبنان في ظل بني أمية

لم يغير موت أبي ذر كثيراً في الوجود السياسي العام في الشام (ولبنان ضمنا) فالسلطة العربية الإسلامية فيها ظلت في يد معاوية الذي جمع في يده منذ سنة ١٧/ ٦٣٨ أيام عمر بن الخطاب ولايتي دمشق والأردن. ثم أضيف له ولايتا حمص وفلسطين سنة ٢٥/ ٦٤٦[1]. فأصبحت ولايات الشام كلها مجتمعة في يده يحكمها كيف يشاء دون اعتراض الخلافة. وعندما بدأت الثورة على عثمان وانتقلت الخلافة إلى علي بن ابي طالب عليه السلام لم يسمع في الشام أي صوت يخالف معاوية أو يعترض على حكمه أو يعلن ولاءه للخليفة الجديد. لقد تمكن معاوية طيلة السنوات التي حكمها في الشام أن يؤلف بينه وبين شيوخ القبائل وأمراء النواحي من المسلمين، وحتى غير المسلمين. وعرف كيف يسترضيهم ويقدم لهم الهبات والعطاءات حتى تمكن من حكم البلاد بهدوء ودون اعتراض معترض. ربما كانت الشام هي المنطقة الوحيدة التي لم يجرِ فيها أي تحرك

(١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٣٩.

معارض أو مخالف أثناء الثورة على عثمان وبعدها. لقد تدفق الثائرون من مصر (ومعها أفريقيا) ومن العراقين (البصرة والكوفة وما يتبعهما من بلاد إيران وبلاد الخزر) ومن داخل الجزيرة العربية، تدفق الثوار والمعارضون على المدينة معلنين رغبتهم في خلع عثمان، فيما كان معاوية وأهل الشام يقفون في الجهة الداعمة للخلافة والمستعدة لإمداد عثمان والدفاع عنه.

في مثل هذا الواقع لا يمكن الحديث عن وجود شيعي في الشام كله بما في ذلك لبنان، وإذا وجد مثل هذا التشيع فإنه كان يتمثل بأشخاص وليس بجماعات. وفي الحرب التي وقعت في صفين بعد ذلك اجتمعت قبائل الشام كلها تحت رايات معاوية وحاربوا في كثير من الأحيان أنسباءهم من نفس القبائل مواجهة، دون أن يبدو على أي من القبائل الشامية شيوخاً ومحاربين أي رغبة في التراجع عن تأييد زعيمها معاوية. لقد اختصر التشيع الذي أنتجه أبو ذر الغفاري حالة حزبية مؤقتة سرعان ما تبددت أثناء المواجهة في صفين.

أما البحث عن وجود جماعة شيعية قبلية موالية لعلي بن ابي طالب في الشام فهو محض خيال كمثل الحديث عن جماعة من قرية إسعار الواقعة تحت جبل الثلج في جنوب دمشق (هي اليوم خراب ويحمل إسمها نهر إسعار في هضبة الجولان إلى الجنوب من قرية مجدل شمس) حيث توجه رجل ومعه جماعة من أقربائه إلى أمير المؤمنين (علي بن ابي طالب) ليسأله في أمر أشكل عليه حول ابنته الشابة التي ظن أهلها أنها حامل. وقد قطع أمير المؤمنين بما لديه من علم وحكمة الشك في هذه المسألة، وبرأ الشابة مما نسب إليها[1]. وليس في القصة التي أسهب راويها في تعداد فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ما يدل على تشيع هؤلاء. فأمير المؤمنين عليه السلام كان أقضى الناس وأعلم الناس. وكان يُقصد من المشايع ومن المعادي لأخذ رأيه في مسائل معقدة. كما كان يقصده لنفس الأسباب أشخاص من أتباع ديانات مختلفة فيدلهم على الحلول دون أن يعني ذلك أن السائلين هم دائماً شيعة له.

(١) شاذان بن جبرائيل القمي، الفضائل، ج ٦ ص ٢٥٢.

كما يصر بعض المؤرخين في العصر الحديث على ربط أسماء القبائل بالتحزب المذهبي كالقول بأن قبيلة همدان مثلاً كانت شيعة، وقبيلة قريش مثلاً كانت غير شيعة. وهذه المقاربات لا حقيقة لها، بل هي محض خيال وفهم مقلوب للحقائق التاريخية. ففي معركة صفين كانت تجتمع تحت رايات القبائل في كل جهة جزء من قبيلة فهناك همدان العراق وهمدان الشام وهناك ربيعة العراق وربيعة الشام...إلخ. فالعرب المسلمون قد انقسموا على أسس سياسية وليس على أسس قبائلية. ويمكن اكتشاف وجود مثل هذا الإنقسام حتى في البيت الواحد حيث كان يتواجه إخوة في الميدان كل يدعي أن أميره على الحق.

٤ - لبنان في العصر العباسي الأول حتى الغيبة الكبرى (١٣٣- ٣٢٩/ ٧٥٠- ٩٤١):

انتهى الصراع على الخلافة بين بطون قريش إلى استيلاء الأسرة العباسية على الحكم بعد حرب ضروس كانت آخر معاركها على نهر الزاب. وتقدم العباسيون فبسطوا سيطرتهم على البلاد الشامية (ومنها لبنان) وأصبح عبد اللّه بن علي العباسي والياً على كل ولايات الشام (باستثناء فلسطين) من سنة ١٣٢/ ٧٥٠ وحتى تمرده وعزله سنة ١٣٧/ ٧٥٤.

بالشكل الإداري لم يتغير حال البلاد في ظل الخلافة العباسية الجديدة. لكن التبدل الإجتماعي كان كبيراً جداً. في عهد الأمويين كانت العاصمة في دمشق وكان العنصر العربي هو الأساس في معظم الإدارات. لذلك وجد في ولايات الشام حالة من التمدد المجتمعي العربي حيث اتخذت أسماء الأماكن من أسماء القبائل العربية التي استوطنت فيها (ديار بكر ديار ربيعة، وادي التيم، جبال عاملة.... إلخ). وكان الولاة والأمراء وشيوخ القبائل يتبعون الطريقة العربية التقليدية في الحكم التي تحاكي طريقة شيوخ القبائل العربية في المحافظة على أبناء عشائرهم وحمايتهم.

مع انتقال الحكم إلى العباسيين بدأت تظهر في إدارة المناطق اسماء أعجمية (فارسية أو تركية أو كردية...إلخ) نقلت معها طريقة الحكم الاستبدادي الذي يحاكي طرق حكام البلاد التي جاؤوا منها، لكنها في مقابل ذلك ساعدت على ظهور التواجد الشيعي بشكل

صريح. طبعاً الشيعة في هذه الفترة أصبحوا شيعة آل محمد، وليس كما كان الحال في عهد أمير المؤمنين أي شيعة علي عليه السلام. ولا يعني هذا التواجد الشيعي نفس الشكل المعروف في العصر الحديث، بل شكلاً من الاعتقاد بأفضلية الإمام من آل محمد (الإمام جعفر الصادق عليه السلام في زمانه) وتقدمه على أئمة المدارس الأخرى. لم تكن المذاهب الإسلامية قد ظهرت بشكلها المعروف، بل كان المسلمون يتبعون رجال دين ويقلدونهم في أمور دينهم، وقد اشتهر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كامتداد للامام الباقر عليه السلام وللأئمة السابقين باعتبارهم آل محمد (الأئمة من آل علي). وبسبب من تميزهم بالتقوى والعبادة والورع بما لا يقاس مع رجال الدين في عصرهم فقد تفوق الأئمة من (آل محمد) وأصبحوا أملاً ومثالاً للمؤمنين. فاتسع مذهبهم، وانتشر شيعة (آل محمد) في أصقاع الدولة العباسية انتشاراً واسعاً دون أن يكون هناك أي عائق أو مانع يحد من انتشارهم وتوسع نفوذهم.

ساهمت عوامل سياسية كثيرة على انتشار التشيع كان من أهمها الدور الذي لعبه الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي قام بخطوة غير مسبوقة في تكريم ذكرى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث أمر ببناء المقام العلوي في نجف الكوفة ليتحول ذلك المكان بمرور الزمن إلى مدينة شيعية مقدسة وعاصمة من عواصم الشيعة في العالم إلى اليوم. كما ساهم ابنه الخليفة عبد اللّه المأمون بنشر التشيع بشكل أوسع عندما بايع الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام (١٤٨-٢٠٣/٧٦٦-٨١٨) بولاية العهد معتبراً أنه أحق بالخلافة من بني العباس. صحيح أن الإمام الرضا عليه السلام قضى نحبه قبل المأمون، وصحيح أنه رفض قبول ولاية العهد إلا بشروط، لكن النتيجة الحقيقية لذلك كانت اعتراف العباسيين بأحقية الأئمة من آل محمد بالخلافة، مما زاد في انتشار التشيع تحت رعاية الخلافة وقبولها. من هنا يمكن فهم السبب الحقيقي لانتشار الشيعة في بلاد الشام وليس كما أراد بعض المؤرخين المحدثين أن يربط ذلك بتحرك لقبيلة همدان أو قبيلة عاملة أو سواهما من القبائل في محاولة لإظهار التشيع كحالة قبلية وليس كحالة عقائدية دينية.

كان من الطبيعي أن تتوتر العلاقة بين الأئمة الذين جاؤوا بعد الإمام الرضا (الجواد

والهادي والعسكري عليهم السلام) وبين الخلفاء العباسيين الذين حكموا بعد المأمون، لاعتقادهم الراسخ بوجود خطر على خلافتهم من الأئمة. لكن الواضح أنه لم تحدث طيلة هذه الفترة (٢٠٣ـ٢٦٠/ ٨١٨ـ٨٧٤) اي حوادث تدل على وجود اضطهاد ما للشيعة كجماعة وهم أكثرية السكان ومنتشرون في كل البلاد الإسلامية. أما الحديث عن اضطهاد الشيعة وأنه السبب في هجرة الشيعة من أماكن مختلفة باتجاه الشام حيث أصبحوا أغلبية فيها فهو سوء تفسير لحركة التشيع في العصر العباسي الاول.

لقد انتشرت الجماعات الشيعية بمذاهبها المختلفة (زيدية أو اسماعيلية أو جعفرية... إلخ) في طول البلاد وعرضها وطبيعي أن هذه الظاهرة قد امتدت في البلاد الشامية ومنها لبنان. وتزايدت حتى تمكنت في مناطق كثيرة من السيطرة على الحكم. ففي حمص مثلاً لاحظ أحد المؤرخين تحولها بشكل غريب إلى التشيع فيقول: «ومن العجب أنهم كانوا أشد الناس على علي، رضي اللّه عنه، فلما انقضت تلك الأيام صاروا من غلاة الشيعة، حتى أن في أهلها كثيراً ممن يرى مذهب النصيرية وأصلحهم الإمامية السبابة»[1].

وفي نواحي ولاية الأردن أصبح أهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمّان شيعة، ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية[2]. وانتشر المذهب الفاطمي بشكل واسع في بلاد الشام بعد سيطرة الخلافة الفاطمية وانتشار مذهبها في مصر وشمال أفريقيا. وكان مذهب الفاطميين شيعياً اسماعيلياً (سبعياً) يختلف عن فقه الإمامية (الإثني عشرية) ببعض الفروع ويتفق معه في ظاهرة مهمة هي الآذان ب»حيي على خير العمل» التي تحولت إلى شعار يميز السلطة الشيعية عن غير الشيعية في الحقب التالية.

إن سيطرة الشيعة على البلاد الشامية إضافة إلى مصر قد ألغى حكماً مقولة تعرض الشيعة للاضطهاد على أيدي الحكام التي يكثر بعض المؤرخين من اعتمادها أساساً للحديث عن تاريخ الشيعة في لبنان (وفي العالم الإسلامي) حيث ترد دائماً عبارة (رغم اضطهاد الحكام) أو (رغم جور الحكام). وجود الشيعة في المناطق اللبنانية أصبح ثابتاً

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١١٣.

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم، ص ٦٦.

بعد وصول العباسيين إلى الخلافة (سنة ١٣٢/ ٧٥٠) واستمر كذلك حتى أثناء سيطرة الصليبيين على سواحل الشام وإلى ما بعد سقوط هؤلاء سنة ١٢٩١ أي قرابة خمسة قرون ونصف. طبعاً هناك فترات جرت فيها حوادث معينة أدت إلى ضعف الوجود الشيعي في بعض مناطق الشام لكن التواجد الشيعي في لبنان الجغرافي تحديداً ظل قوياً طيلة هذه الحقبة.

٥ - طرابلس في فترة السلم العربي

تأخر فتح طرابلس عن سائر بلاد الشام داخلاً وساحلاً لوقوع المدينة على ساحل البحر وتواصل الإمداد لها من الأسطول البيزنطي. وفي سنة ٢٣/ ٦٤٤ أرسل معاوية بن أبي سفيان وكان والياً على دمشق والأردن سفيانَ بن مجيب الأزدي لفتحها فأقام خارجها وبنى حصناً مشرفاً عليها وفرض عليها حصاراً برياً فاضطر أهلها للهروب منها بحراً فاستولى المسلمون عليها ونقل إليها معاوية عدداً كبيراً من اليهود[1]. فشكلوا مع من تبقى من أهلها عامة السكان فيها حتى أيام عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦/ ٦٨٤-٧٠٥) فتمردوا بدعم من البيزنطيين. فهاجمها جيش أموي بقيادة الوليد بن عبد الملك وأخضعها.

ولا تذكر أي أحداث مهمة في طرابلس بعد ذلك حتى سنة ٣٥٩/ ٩٧٠ عندما دخل ملك الروم الشام، «ولم يمنعه أحد ولا قاتله. فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها. وحصر قلعة عرقة، فملكها ونهبها وسبى من فيها. وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه، فقصد عرقة، فأخذه الروم وجميع ماله وكان كثيرا»[2]. وبعد خروج الروم عنها تولاها القائد الفاطمي ريان الخادم[3]. ثم تولاها نزّال أحد القادة الفاطميين الذي ساعد القائد الفاطمي منير أثناء توجهه إلى دمشق لعزل أميرها بكجور سنة ٣٧٨/ ٩٨٨.

قبل سنة ٤١٥/ ١٠٢٤ تولى ناصر الدولة حسين بن الحسن بن حمدان مدينة طرابلس

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٢٧٩.
(٢) ابن الأثير، الكامل ، ج ٧ ص ٣١٣ أحداث سنة ٣٥٩.
(٣) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣٤٦أحداث سنة ٣٦٣/ ٩٧٤.

للخليفة الفاطمي الذي عاد وصرفه عنها بعد أشهر[1]. ويبدو أن طرابلس كانت تحكم بوالٍ يتبع مباشرة للخليفة الفاطمي ويكون مخلصاً له وينفذ تعليماته في ساحل الشام. وقد استمر هذا الواقع قائماً حتى تمكن أحد أبناء قبيلة طيء وهو أبو طالب عبد اللّه بن عمار من الوصول إلى حكمها وأنشأ فيها إمارة تمتعت إلى حد كبير باستقلال ذاتي. تلك كانت بداية حكم الشيعة لبعض المناطق في لبنان بشكل سياسي منذ أن وصلت الجيوش الفاطمية إلى سواحل الشام واستولت عليه. فبدأ الآذان بحي على خير العمل يعلن الهوية المذهبية بالإضافة إلى السياسية في البلاد.

في حدود سنة ١٠٥٨/٤٥٠ أعلن القائد الفاطمي أبو طالب بن عمار نفسه حاكماً على مدينة طرابلس وما يتبعها بعد وفاة الحاكم السابق. وقد ورد إسم ابن عمار عرضاً في حوادث سنة ١٠٦٨/٤٦٠ ثم يظهر إسمه بعد أربع سنوات عند وفاته في منتصف رجب سنة ٤٦٤/ السبت ٧ نيسان ١٠٧٢ وهو أمين الدولة أبو طالب عبد اللّه بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد اللّه بن إدريس بن يوسف الطائي[2]. ويبدو من سلسلة النسب المذكورة أنه عربي شامي وليس مغربياً أو أندلسياً كما توهّم بعض المؤرخين بسبب تشابه اسمه مع اسم قائد مغربي هو أبو محمد الحسن بن عمار الكتامي.

يتحدث ناصر خسرو أثناء مروره في المنطقة عن طرابلس سنة ٤٣٨/ ١٠٤٦، أي قبل قليل من تسلم ابن عمار للمدينة، بكثير من الإعجاب. ويصف بساتينها وابنيتها وتجارتها كحالة إقتصادية متميزة، ثم يصف قلعتها وأسوارها وارباضها ليثبت أن المدينة حصينة ومهيئة لصد أي هجوم محتمل من قبل الروم. كما يذكر صراحة أن أهل طرابلس كلهم شيعة وأنهم شيدوا مساجد جميلة في كل البلاد[3].

ويورد في الرحلة أنه مر على مدينة جبيل التي كانت تتبع صاحب طرابلس مما يثبت اتساع تلك الإمارة جنوباً حتى جبيل وربما لما أبعد من ذلك حيث لا يوجد ما يثبت

(١) أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢ ص ١٤٤ أحداث سنة ٤١٥.

(٢) أحمد بن علي المقريزي، أتعاظ الحنفاء، ج ٢ ص ٣٠٧ حوادث سنة ٤٦٤.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٥٧-٥٨.

استقلال مدينة بيروت عن طرابلس أو تبعيتها لدمشق. أما شمالاً فكانت مدينة جبلة تابعة لصاحب طرابلس أيضاً بعد أن استردها المسلمون من الروم الذين كانوا قد استولوا عليها مدة من الزمن. وقد تعين فيها منصور المعروف بابن صليحة قاضياً ومدبراً للمدينة من قبل جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس. وعندما مات منصور بن صليحة خلفه ابنه عبيد اللّه الذي عصى على ابن عمار وأثبت هذا العصيان بإقامة الخطبة العباسية وليس الفاطمية. وربما يكون عبيد اللّه قد اتخذ هذا القرار وتقوى عليه بعد أن استولى اتسز بن أوق الخوارزمي على دمشق سنة ١٠٧١ حيث ألغى فيها الآذان بحي على خير العمل وأقام الخطبة للخليفة العباسي فكانت آخر مرة يخطب فيها للفاطمي[١]. وظل عبيد اللّه هذا في المدينة حتى وصول الصليبيين إلى الشام.

في سنة ٤٦٤/ ١٠٧٢ توفي القاضي أبو طالب عبد اللّه بن عمار فقام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار فضبط البلد أحسن ضبط ولم يظهر لفقد عمه أثرٌ لكفايته[٢]. واستمر في إدارة الإمارة الناشئة بكفاءة حتى وفاته، فتسلمها أخوه القاضي أبو علي عمار بن محمد بن عمار الذي أحسن إدارة الإمارة وسعى في تطويرها وأنشأ المكتبة الكبرى. ولا زال نهر (أبو علي) في طرابلس يحمل اسمه إلى اليوم.

في أيام أبي علي عمار وصلت جيوش الصليبيين إلى بلاد الشام فألقت الحصار على مدينة طرابلس فقاوم أهلها الحصار مدة قصيرة. ثم وجد أبو علي بن عمار أن يصانعهم بالمال ليرحلوا عن المدينة، فوافقوا وتركوه واتجهوا جنوباً حيث استولوا على القدس. وعادوا شمالاً فاستولوا على طبريا حيث واجهوا تجمعاً لجيوش المسلمين سنة ١١٠٤ ما أدى إلى توقفهم مدة قصيرة عن مواصلة عملياتهم. في هذه الفترة كانت دمشق تخضع للأتابك طغتكين وقد وصلت إليها جيوش من البلاد الإسلامية المجاورة ومنها جيش مصري بقيادة سماء الملك ابن الأفضل سلطان مصر. وقد حاول سماء الملك انتزاع طرابلس من ابن عمار فقاومه بنفس الطريقة والقوة التي قاوم بها الغزو الصليبي.

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٨ ص ٣٩٢ في أحداث سنة ٤٦٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣٩١.

وفي سنة ١١٠٧ عاود الصليبيون الكرة على طرابلس فحاصروها فاضطر فخر الملك ابن عمار لمغادرتها والتوجه إلى دمشق لطلب النجدة من الأتابك طغتكين. لكن هذا الاخير اقنعه بالتوجه إلى بغداد وطلب النجدة من الخليفة العباسي. عند ذلك ثار أبو المناقب بن عمار على ابن عمه فخر الملك ونادى بشعار الأفضل وأرسل إلى سماء الملك أن يتسلم منه المدينة. وهكذا انهارت إمارة ابن عمار في طرابلس وانتهت بعد سنتين بسقوط المدينة بأيدي الصليبيين الذين قضوا على سكانها قتلاً واستعباداً حتى لم يبق من أهالي طرابلس المسلمين الشيعة أحد. وقد قام الصليبيون بعد ذلك بإعادة بناء المدينة والسكن فيها لتصبح إحدى إمارات المملكة اللاتينية.

٦ - صور: في فترة السلم العربي

يبدو أن الزلازل التي حدثت في البلاد السورية منتصف القرن السادس الميلادي والتي أدت إلى تدمير بيروت قد أدت كذلك إلى تدمير مدينة صور التي كانت ذلك الحين عاصمة لفينيقيا الساحلية حسب التقسيم الروماني. ولم تعد صور إلى وضعها القديم المميز حتى بعد مرور نصف قرن وأكثر من الزمن على تهدمها. لذلك لم يرد ذكر لمدينة صور أثناء الفتوحات لا بين المدن المفتتحة ولا بين المدن التي صالحت الفاتحين. لقد تحول مركز الثقل إلى مدينة صيدا التي ظلت رغم ذلك صغيرة وغير ذات أهمية على الساحل السوري قياساً إلى مدينة طرابلس في نفس الحقبة.

أمر معاوية بن أبي سفيان (٦٦٠–٦٨٠) بجعل مدينة عكا ميناء لبناء السفن، وعندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة نقل دار الصناعة إلى صور وحصنها حتى أصبحت من أحصن المدن وأهمها على الساحل فوصفها المقدسي بأنها «... مدينة حصينة على البحر، بل فيه، يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد، قد أحاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة تجر السلسلة...»[1].

وهكذا استعادت صور دورها لتصبح إحدى أهم المدن البحرية الإسلامية. ويذكر

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤.

مؤرخو ذلك العصر أنه كان فيها عدد من الصناعات بالإضافة إلى صناعة السفن كصناعة الزجاج والثياب كما عمل أهلها بالتجارة وكثرت فيها الأموال.

وبدت صور متميزة أيضاً بوجودها مركزاً علمياً وثقافياً جامعاً حيث قصدها أو عاش فيها عدد من أهم كتاب ومؤرخي وعلماء ذلك العصر، بل وخرج منها العديد من الأدباء، والشعراء، والمحدثين، والمؤرخين. فقد أقام فيها الفقيه سليم بن أيوب الرازي وأحمد بن عطاء الروذباري شيخ الصوفية، وعالي بن عثمان بن جنّي النحوي ابن النحوي المشهور، وابن نصروية السمرقندي الإمام والفقيه الحنفي، وأبو عبد اللّه الطالقاني المحدّث الصوفي ونصر بن إبراهيم المقدسي شيخ الشافعية بالشام وصاحب التصانيف، وأبو منصور الطوسي المقرئ، وأبو الفتح الكراجكي الفيلسوف المصنّف، وعشرات غيرهم. كما ينتسب إلى صور من المشاهير الحافظ أبو عبد اللّه الصُّوري شيخ المؤرخ الخطيب البغدادي، وصاحب التصانيف الكثيرة، والشاعر المشهور عبد المحسن الصوري، وغيث بن علي الأرمنازي مؤرخ صور، وابن السرّاج الصوري الشاعر المصنّف، وغيرهم. واجتذبت إليها من الأعلام والمشاهير: الدارقطنيّ وابن عديّ والأمير ابن ماكولا، وعبد الغني بن سعيد وابن حيّوس وأسامة بن منقذ وأبا الحسن التهامي، والحافظ السِّلَفي وابن السمعاني، وابن الخياط الدمشقي والقُضاعي المؤرخ. كما اهتم أبناؤها باقتناء الكثير من الكتب في دورهم اثباتاً لاهتمامهم بالعلوم والآداب. كذلك قصدها عدد من الأمراء والوزراء ليقيموا فيها براحة بعيداً عن القاهرة وبغداد حيث الصراع على النفوذ مستشرٍ بين الأمراء والحكام والولاة.

وبسبب وقوعها على شاطىء البحر فإنها كانت مقصداً للأساطيل العربية (الفاطمية) كما كان الأسطول البيزنطي يحاول الوصول إليها بحيلة او بأخرى خصوصاً في السنوات التي يشتد فيه الصراع بين البيزنطيين والمسلمين. وقد حدث مثل هذه المحاولة سنة٣٨٧/ ٩٩٧ عندما تمرد بحار صوري يدعى علاقة على الخلافة الفاطمية معتبراً وجود جيش مغربي في المدينة اضعافاً لها فثار مع الأهالي على من في المدينة من المغاربة وقتلوا منهم جماعة وغلبوا على البلد. واعتبر البيزنطيون ذلك فرصة لهم فاستغلوا الموقف وارسلوا عدداً من مراكبهم نحو صور. لكن الأسطول الفاطمي تصدى

لهم وانتشبت معركة بحرية كبيرة انتصر فيها الأسطول الفاطمي الذي أكمل طريقة إلى صور فحاصر المدينة براً وبحراً ثم دخلها عنوة وعمل على نهب المدينة انتقاماً من أهلها. وحوصر علاقة مع بعض اتباعه في احد الأبراج حتى استسلم في الرابع عشر من جمادى الآخرة ٣٨٨/ ١٢ حزيران ٩٩٨. وحمل علاقة مقيداً و«سيق في جماعة معه إلى القاهرة فشهروا وقد ألبس العلاقة طرطورا من رصاص له عظم وثقل على رأسه وكاد أن يغوص على رقبته ثم قتل وصلب وقتلت أصحابه»[(١)].

ويظهر أن الأمراء الذين كانوا يتولون صور يأنسون إلى قوة أسوارها ومناعة حصونها فيلجأون إلى التمرد في أول فرصة تسنح لهم فكما فعل علاقة سنة ٣٨٨/ ٩٩٨ هكذا فعل والي صور سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ٤٨٢/ ١٠٨٩ الأمير منير الدولة الجيوشي الذي عصى على الخليفة الفاطمي المستنصر وامتنع بمدينة صور فسيرت العساكر إليه من مصر. وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل العسكر المصري إلى صور وحصروها وقاتلوها ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش، وسلموا البلد وهجم العسكر المصري بغير مانع ولا مدافع ونُهِبَ من البلد شيء كثير وأسر منير الدولة ومن معه من أصحابه، وحملوا إلى مصر وقطع على أهل البلد ستون ألف دينار فأجحفت بهم ، ولما وصل منير الدولة إلى مصر ومعه الأسرى قتلوا جميعهم ولم يعف عن واحد منهم[(٢)]. ولا يرد في النصوص التاريخية ما يدل على أن الأمير منير الدولة قد غير الآذان بحي على خير العمل أو أجرى أي تعديل يمس العرف العام في المدينة بل جل ما فعله هو العصيان دونما سبب سياسي واضح. ويظهر من الأحداث المشابهة التي وقعت عقب تمرد منير الدولة أن مدينة صور واجهت على فترات متقطعة ظلماً وعسفاً شديدين من جيوش المصريين مما جعلها تضعف كثيراً عند مهاجمة الصليبيين للبلاد بعد ذلك. ومن أمثلة ذلك ما ذكره المقريزي في المواعظ والاعتبار في حوادث سنة ٤٦٢/ ١٠٧٠ حيث يقول: «وفيها حاصر أمير الجيوش بدر مدينة صور وبها عين الدولة أبو الحسن علي الملقب بالناصح ثقة الثقات ذي الرئاستين ابن عبد اللّه بن

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٨-١٩.

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٤٨٩ أحداث سنة ٤٨٦.

علي بن عياض بن أحمد بن أبي عقيل القاضي وضايقها فسير عين الدولة إلى الأمير لواء مقدم الأتراك الواردين من العراق إلى بلاد الشام لينجده واتصل ذلك بأمير الجيوش فخاف من الأتراك فرحل عن صور. ثم لما اطمأن عاد إلى صور ونازلها فلم يظفر منها بشيء»[١]. وهذا يعني أن مدينة صور قد تمردت أو انفصلت عن الخلافة الفاطمية وأصبحت تحكم ذاتياً تماماً كما حدث قبلاً في طرابلس من ابن عمار، مع فارق مهم وهو أن ابن عقيل كان سنياً يحكم مدينة ذات أكثرية شيعية وبقبولهم وموافقتهم. وقد لاحظ ذلك ناصر خسرو أثناء مروره على صور سنة ١٠٤٧ أي قبل تمرد القاضي علي بن عبد اللّه بن...أبي عقيل فقال باختصار: «وتعرف صور بين مدن ساحل الشام بالثراء ومعظم سكانها شيعة والقاضي هناك رجل سني اسمه ابن أبي عقيل وهو رجل طيب ثري»[٢].

وهذا الوجود الثنائي الشيعي السني في صور هو ظاهرة الحضارة الإسلامية العامة في بلاد الشام قبل وصول الصليبيين إلى المنطقة فليس في التاريخ المكتوب ما يذكر عن وجود خلاف سني - شيعي على المستوى الشعبي. هناك بلا شك وجود لاختلاف سياسي ومستويات من التأييد للحكام، لكن لم يحدث أي تمرد أو فتنة أو ما يشبه ذلك في مناطق لبنان المختلفة في الفترة العربية (٦٣٥-١٠٩٩). وهذا يؤدي إلى استنتاج أن ما حدث أثناء وبعد الحروب الصليبية من فتن مذهبية في البلاد الإسلامية قد تسبب بها الحكام الجدد الذين تمكنوا بظروف الحروب الصليبية من استلام السلطة فعمدوا إلى إشعال البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها بفتن مذهبية أنهكت البلاد وأفنت كثيراً من العباد، وأدت في النهاية إلى دخول الأمة في ظلمة الجهل المتطاولة وصلت إلى حد تصحر العقل العربي والإسلامي. وما كان في يوم من الماضي يثبت الوجود الحضاري والثقافي والابداعي الإسلامي، كان يرتبط بنسبة كبيرة جداً بالوجود الشيعي، فلما تراجع هذا الوجود تراجعت معه الحضارة العربية. وكلما كان الوجود الشيعي يزداد ابتعاداً عن السلطة أو وقوعاً في دائرة الاضطهاد كان العقل العربي والإسلامي يتجه نحو التصحر حتى وصل إلى ما وصل إليه من تخلف عن ركب الحضارة العالمية.

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٠٣ أحداث سنة ٤٦٢.
(٢) سفرنامة ص ٦٠

٧- بعلبك في فترة السلم العربي

كانت مدينة بعلبك إحدى الحواضر الهامة في العهد الروماني - البيزنطي وقد أنشات فيها إحدى أهم الكنائس التي تحولت إلى مطرانية.

عندما دخلت جيوش المسلمين العرب إلى سوريا عبرت في سهل البقاع متجهة إلى حمص حيث صالحت بعلبكُ المسلمين لمدة سنة واحدة على مبلغ من المال ذق سنة ١٣/ ك٢ ٦٣٥. وكان في المدينة حامية بيزنطية كبيرة حيث كانت تتجمع فيها النجدات ثم تنطلق منها إلى المدن السورية التي تتعرض لأي هجوم. وفي أثناء فترة الصلح وصل إلى بعلبك جيش بيزنطي يزيد عدده عن عشرة آلاف جندي فأقاموا فيها وشكلوا خطراً على مؤخرة الجيش العربي الذي وصل إلى حمص فاضطر العرب المسلمون إلى إخلاء المنطقة حيث قاموا بمهاجمة دمشق في رجب سنة ١٤/ أيلول ٦٣٥ واستولوا عليها وتحولوا بعد ذلك لمهاجمة بعلبك حيث تمكنوا من السيطرة عليها في السنة التالية. وتسلمها الوالي رافع بن عبد الله السهمي من قبل أبي عبيدة بن الجراح (٢٠ شباط ٦٣٦)[١].

عندما أصبح معاوية والياً على دمشق ولى على بعلبك سفيان بن مجيب الأزدي ونقل إليها بعضاً من القبائل العربية وبعض الفرق العسكرية التي كانت تعرف بالفرق الفارسية. وقد وهم بعض المؤرخين فظن أن هؤلاء من الفرس، وهم حقيقة من العرب الذين قاتلوا في الجبهة الفارسية في حروب الفتوح. وأصبحت بعلبك المركز الأساسي لتجمع الجيوش التي تمد السواحل اللبنانية (الشامية) بالمقاتلين. وقد شاركت وحدات من هذه المدينة في الحملة على قبرص سنة ٢٣/ ٦٤٤ حيث نجح العرب في السيطرة على الجزيرة وبنوا مدينة عربية فيها للمراقبة وأسكن عدد من مقاتلي بعلبك في المدينة الجديدة التي ظلت قائمة حتى أمرهم يزيد بن معاوية بالعودة إلى بعلبك[٢].

---

(١) الواقدي، فتوح الشام ص ١٢٣-١٢٥.

(٢) باختصار نقلاً عن تاريخ بعلبك لنصرالله ج ١ ص ٩٥-٩٦.

بعد سفيان بن نجيب الأزدي تولى بعلبك روح بن زنباع الجذامي وظل فيها حتى وفاة معاوية (٤٩-٦٠/ ٦٧٠-٦٨٠).

عندما حدثت الثورة العباسية كان يتولى بعلبك يزيد بن روح اللخمي الذي تمرد على الخليفة الأموي مروان بن محمد قبل وصول العباسيين إلى الشام فوجد يزيد الفرصة سانحة ليعلن بيعته للعباسيين فانتقلت السلطة في بعلبك للخلافة الجديدة. ثم ألحقت بالوالي العباسي المقيم في دمشق. وفي سنة ١٤٠/٧٥٨ زار الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور دمشق ولبنان وأمر بانتقال وسكن القبائل التنوخية في جبل الغرب وبيروت وصور وبعلبك. وأمرهم بالمرابطة ودرء الأخطار البيزنطية عن السواحل.

سنة ٢٦٤/ ٨٧٨ تمكن أحمد بن طولون والي العباسيين على مصر من السيطرة على مدن الشام ومنها بعلبك التي كانت تتبع أمير حمص، فأصبحت المدن السورية واللبنانية ترتبط بمصر أكثر من ارتباطها ببغداد.

في سنة ٢٩٠/ ٩٠٣ هاجم القرامطة مدن الشام الكبرى ومنها بعلبك حيث تمكنوا من الاستيلاء عليها وقضوا على معظم سكانها قتلاً حتى لم ينج من أهلها إلا اليسير[1]. وقد تمكنت جيوش الخلافة العباسية من استعادة بعلبك والمدن السورية بعد سنة واحدة (٢٩١/ ٩٠٤) وتم القضاء على وجود القرامطة في البلاد الشامية.

في سنة ٣٣٥ / ٩٤٧ تمكن سيف الدولة الحمداني من الاستيلاء على بعلبك وألحقها بإمارته حيث ظلت تتبع للحمدانيين حتى سنة ٣٥٩/ ٩٧٠ عندما تمكن الفاطميون من انتزاعها منهم وضمها إلى حكم المعز الفاطمي حيث رفع في بعلبك لأول مرة الآذان ب «حيي على خير العمل» لتعلن هوية المدينة الشيعية (السبعية). وظلت بعلبك كذلك حتى تمكن اتسز بن أوق الخوارزمي من الاستيلاء عليها سنة ٤٦٨/ ١٠٧٥ بعيد استيلائه على دمشق لسلطانه ملكيشاه السلجوقي حيث ألغى الآذان ب «حيي على خير العمل» وأساء السيرة في الأهالي وظلمهم[2]. وبوصول السلاجقة إلى دمشق وبعلبك بدأت الفترة

(١) ابن الاثير، الكامل ج ٦ ص ٤١٧.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤١٠-٤١١.

العربية تنقضي لتبدأ بعدها مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة عنوانه الرئيسي هو سيطرة الأعاجم خصوصاً الأتراك والأكراد على الحالة العامة السياسية والعسكرية والسبب في ذلك هو توليهم الحرب ضد الصليبيين الذين اجتاحوا سواحل الشام وهددوا كل سوريا ومصر طيلة قرنين من الزمن.

يلاحظ في كل تاريخ فترة السلم العربي في بعلبك عدم وجود أي هوية مذهبية للمدينة كما كل المدن العربية عامة. فليس هناك هوية شيعية جعفرية أو سبعية ولا هوية سنية مميزة لمذهب من المذاهب السنية التي كانت تعد بالعشرات قبل سنة ١٢٦٠ حيث اختصرت بأربعة وفرضت على عامة السنة وألغي ما عداها. لذلك لا يمكن الحديث عن تاريخ شيعي لبعلبك قبل سنة ١٠٩٩ ولا يمكن كذلك الحديث عن تاريخ شيعي لباقي المناطق اللبنانية في هذه الحقبة. التاريخ المذهبي سيبدأ في الفترة التي تمكن فيها المماليك (وهم غير عرب) من استلام الحكم حيث عبثوا بكل القيم الدينية والحضارية التي كانت قائمة قبلهم (قبل سنة ١٢٦٠) وأثبتوا قيماً جديدة من أهمها الصراعات المذهبية والطائفية التي أصبحت سمة من سمات التاريخ العام. وتحول تاريخ المنطقة من تاريخ للحضارة الإسلامية العربية إلى تاريخ للسلاطين والمذاهب ولرجال الدين حيث انحطت الحضارة العربية وأخذت تفقد لمعانها بالتدريج حتى وصلت إلى الحضيض أثناء استيلاء العثمانيين الأتراك على مقاليد الأمور.

الفصل الثالث

الناتج الحضاري للشيعة في لبنان
في فترة السلم العربي

١ - تحولات الفكر الشيعي أثناء وبعد الغيبة الصغرى

٢ - مكتبة طرابلس

٣- ابن منير الطرابلسي:

٤ - عبد المحسن الصوري

٥ - الكراجكي أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان (ت ٤٤٩/١٠٨٧)

١ - تحولات الفكر الشيعي أثناء وبعد الغيبة الصغرى

عرف التشيع الإمامي نقلة نوعية هامة في نهاية ما يعرف عند الشيعة بـ«الغيبة الصغرى» التي امتدت تسع وستون سنة (قمرية) (٢٦٠-٣٢٩/ ٨٧٤-٩٤١) وتولى فيها السفراء الأربعة أمور الشيعة عندما لم يكن للمؤمنين إمام معصوم ظاهر. فقد قام بعد وفاة الإمام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري عليه السلام (٢٣٢-٢٦٠/ ٨٤٦-٨٧٤) أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عمرو العمري وبتفويض من الإمام وبوصية منه حسب المصادر الإمامية[1]، بالإشراف على أمور الدين لجماعة الإمامية ابتداءاً من سنة ٢٦٠/ ٨٧٤. وقد أوصى (ليس هناك من توثيق لتاريخ وفاته) لابنه محمد بعده في مرتبته أي السفارة للإمام الحجة. توفي السفير الثاني محمد بن عمرو سنة ٣٠٥/ ٩١٧ بعد أن فوض السفارة لحسين بن روح النوبختي الذي بقي سفيراً حتى وفاته سنة ٣٢٦/ ٩٣٨ فأبلغ قبل وفاته أن السفارة ستكون لعلي بن محمد السمري الذي تولاها حتى وفاته سنة ٣٢٩/ ٩٤١ حيث أبلغ وجوه الشيعة في أواخر أيامه أن السفارة ستنقطع لتبدأ ما يعرف بالغيبة الكبرى المستمرة إلى الآن.

إن إدراك مقدار التحول الذي طرأ على الفكر الشيعي الإمامي بعد هذه المرحلة يؤدي إلى فهم مدى استقلال الفقه والعقائد الإمامية عن باقي المذاهب الإسلامية التي ظلت متقاربة فيما بينها حتى هذا التاريخ (٣٢٩/ ٩٤١). ما حصل في الغيبة الكبرى هو اعتماد رجال الدين الشيعة (الإمامية) على أنفسهم وما ينتجونه من فكر ليواكب التطور الإجتماعي والسياسي في البلاد الإسلامية. وقد كانت أولى ثمرات هذا التطور نشوء نظرية التقليد التي وضعها الشيخ الحسن بن أبي عقيل العماني الحذاء (القرن الرابع/ العاشر) ثم أتبعت بنظرية أخرى هي نظرية الاجتهاد التي نادى بها الشيخ محمد بن احمد بن الجنيد الإسكافي (ت ٣٨١/ ٩٩١). في نفس الفترة

(١) محسن الأمين ، أعيان الشيعة ج ٢ ص ٤٧.

ظهر الشيخ الصدوق ليضع مجموعة من المفاهيم الاعتقادية التي لا ترقى إلى درجة النظريات، ولكنها تشكل جزءاً أساسياً من التقاليد الدينية التي أصبحت مقدسة. كالقول بوجود الذرية المقدسة (السادة) وتمييزهم عن العامة (الموالي). أو الترويج لنظرية العصمة أو القول بأن طاعة الإمام مفروضة كطاعة اللّه...إلخ. ورغم أن هذه المعتقدات أصبحت راسخة في الفكر الإمامي فإنها لم تكن معروفة أو شائعة بهذا الشكل قبل الشيخ الصدوق.

أما التحول الأبرز في الفكر الإمامي فإنه يعزى إلى عالمين كبيرين من علماء الكلام هما (الشريف) المرتضى (٣٥٥-٤٣٦/ ٩٦٦-١٠٤٤) والشيخ المفيد (٣٣٤-٤١٣/ ٩٤٥-١٠٢٢) فبينما يمكن القول عن الأول بأنه المؤسس لفكر عقلاني منفتح فإن الشيخ المفيد أوغل في معاداة أصحاب المذاهب الإسلامية غير الشيعية متهماً رموز الخلافة بالانحراف وحتى بالكفر.

وختمت هذه المرحلة بالشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠/ ٩٩٥-١٠٦٨) الذي فرّع الفروع للمذهب الإمامي فابتعد نهائياً عن باقي المذاهب الإسلامية. كما كان للشيخ الطوسي مأثرة خطيرة جداً وهي وضع مجموعة أدعية تتهم الخلفاء الأوائل وتلعنهم مما أحدث فتناً كثيرة بين الشيعة والسنة لم تنته آثارها إلى اليوم.

لقد استغرق هذا البناء الفكري لجماعة الشيعة الإمامية ما يزيد على قرن من الزمن، وكان مركز الثقل فيه أرض العراق بينما كانت بلاد الشام ومنها لبنان تتأثر بتلك التيارات بنسب متفاوتة. فسكان طرابلس وما حولها قد أخذوا بنظريات المرتضى وكذلك فعل أهل صيدا وطبريا عاصمة ولاية الأردن وكذلك صور ومنطقتها. وبالتالي وجد الشيعة والسنة في مدن لبنان بانسجام وتصالح، ولم تتحدث المصادر التاريخية عن فتن بين السنة والشيعة في عموم بلاد الشام بعكس ما كان يحدث في العراق في نفس الحقبة. لا بل لاحظ ناصر خسرو أثناء رحلته أن أهل صور وأكثرهم شيعة قد فوضوا القضاء إلى سني هو ابن أبي عقيل الصوري[1]. وكان شيعة جبل عامل قبل ذلك قد استقبلوا المقدسي

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة ص ٦٠.

في مقام النبي صديق قرب تبنين (في حدود سنة (٣٧٠/ ٩٨٠) ليؤمهم في الصلاة يوم جمعة دون أن يهتموا لمذهبه[١].

ولم يكن يميز الشيعة في لبنان عن غير الشيعة سوى الآذان ب «حي على خير العمل » التي يطبقها الشيعة ويعتبرونها جزءاً من الآذان بينما لا يؤمن السنة بذلك. وكان استيلاء أي سلطة شيعية على إحدى المدن في الشام معناه إعلان الآذان بحي على خير العمل، بينما كان يسارع الحاكم غير الشيعي إلى العكس ويقوم بإلغاء هذه الطريقة. كما تميز الشيعة عن السنة في جهر إمام الصلاة الشيعي بالبسملة بينما يخفت السني ، فكان ذلك من المميزات بين اتباع الطريقتين.

بدأ المد الشيعي بالانحسار في العالم الإسلامي كرد فعل ثوري لكن بوتيرة تراجعية على نظريات الشيخ الطوسي. وتفاقم هذا الرد مع دخول السلاجقة الأتراك بغداد والسيطرة على عاصمة الخلافة العباسية (سنة ١٠٥٥) وراحت السلطة السلجوقية الجديدة تتوسع نحو الشام فاستولت على معظم المدن الكبرى كحلب ودمشق. وعينت حكاماً منها في كل منطقة أو مدينة استولت عليها. فكان أول ما يقوم به الحاكم الجديد هو إلغاء الآذان ب «حي على خير العمل» فتصبح السلطة للسنة بينما يستمر الوجود الشعبي بغالبية شيعية لكن دون أثر سياسي.

٢ - مكتبة طرابلس

قد يكون من المهم لفت النظر إلى واقع يرتبط بعقائد الشيعة الإمامية وثقافتهم ألا وهو دأب الحاكم الشيعي في أي مكان وزمان على ترويج الفكر والثقافة العامة بين الناس بقصد إثبات أحقية مذهبه. لقد كان لهذا التوجه أثره الكبير في إنشاء المكتبات العامة الكبيرة في كل مكان حكمه الشيعة تاريخياً. يمكن الحديث بفخر عن المكتبات التي أنشئت في بغداد وفي حلب وفي القاهرة والتي حوت مئات آلاف الكتب والمجلدات بكل أنواعها. ففي بغداد أقام الحاكم البويهي المكتبة المستنصرية التي حوت أكثر من

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ٨٩-٩٠.

مائة ألف مجلد أحرقت بالكامل بعد دخول السلاجقة إلى بغداد سنة ١٠٥٥. كما أشرف المعز الفاطمي ومن بعده العزيز على إنشاء المكتبة الكبرى في القاهرة التي ألحقت بالجامع الأزهر. وقد جرى إتلاف ما فيها على مراحل ابتداءاً من استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر. وفي حلب جعل الأمير سيف الدولة الحمداني الشيعي قصره أشبه بنادٍ ثقافي كبير حيث استجلب الكتّاب والشعراء والموسيقيين فشكلت إمارته زبدة الفكر الحضاريّ العربي الإسلامي. ولكن كل ذلك جرى إتلافه بعد أن خضعت حلب لحكم السلاجقة.

لم يختلف أمراء طرابلس الشيعة من بني عمار عن هذا الخط فبعد أن تمكن من الحكم قام القاضي إبن عمار بإنشاء مكتبة ضخمة في طرابلس دعاها دار الحكمة، وقد حوت على أكثر من مائة الف مجلد هي خاصة الكتب التي كانت معروفة في ذلك الزمان. لقد قلّد ابن عمار بهذا العمل الحضاري ما فعله الأمير سيف الدولة الحمداني في حلب فبلغت طرابلس في هذا العهد الذروة في الشهرة العلمية. وأصبحت مكتبتها مقصداً لعدد كبير من طلبة العلم ورواد الفكر. وكان من جملة من قصدها الفيلسوف أبو العلاء المعري.

لقد شهدت طرابلس سنة ١٠٧٩ أعظم حركة ثقافية وعلمية في تاريخها على الاطلاق فقد جرى تجديد بناء مكتبتها المعروفة بأمر القاضي جلال الملك ابن عمار [علي بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمار (ت سنة ٤٩٢/١٠٩٩)]. وتعين القاضي أسعد بن أبي روح الطرابلسي ناظراً لها. ثم تولاها بعده الأديب الطرابلسي أبو عبد اللّه الطليطيلي مؤدب أسامة بن منقذ[(١)]. وأصبحت طرابلس بوجود مكتبتها حاضرة ثقافية شهدت الكثير من المطارحات الشعرية والمناظرات الأدبية والمناقشات العلمية والفقهية والفلسفية في مجالس الأمراء من بني عمار الذين كانوا يجزلون العطاء للشعراء والعلماء وينفقون الأموال بسخاء لشراء المخطوطات من مختلف الأقطار[(٢)].

ومن المؤسف أن رعاع أوروبا الصليبيين قد دمروا مدينة طرابلس سنة ١١٠٩ أثناء

(١) عبد السلام التدمري، ديوان ابن منير الطرابلسي ص ١١.

(٢) المصدر السابق.

غزوهم الهمجي للمنطقة فأتلفوا تلك المكتبة وقضوا على ما فيها من كنز حضاري.

كما يمكن الحديث عما كانت تزخر به مدينة صور من رواج للعلوم وكثرة المدارس وكمية الكتب، وهي في ذلك الحين ذات غالبية شيعية كما وصفها أحد الرحالة في ذلك العصر. وقد برز من مدينة صور وصيدا عدد كبير من رجال الفكر في ذلك العهد كان لهم أثر في مسيرة الفكر الشيعي الإمامي من أبرزهم:

٣ - عبد المحسن الصوري (٣٣٩- ٤١٩/ ٩٥٠- ١٠٢٨)

هو عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري أحد أعلام الشعر العربي في عصره. امتدحه ابن خلكان بقوله: الشاعر المشهور أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء شعره بديع الألفاظ حسن المعاني من محاسن أهل الشام له ديوان شعر أحسن فيه كل الاحسان[١].

عاش عبد المحسن في مدينة صور وكانت تعج بالحركة الفكرية في أيامه حيث كان يقصدها الكتاب والأدباء من أقطار الشام والعراق ومصر حيث تلتقي فيها التيارات الأدبية والفكرية المختلفة.

لا يعلم عن حياة عبد المحسن من طفولته إلى شبابه إلا القليل. ولم يذكر خارج شعره بشيء ذا بال، باستثناء أنه عاش فقيراً مدقعاً لم ينفعه شعره الجميل في الحصول على صلات الأمراء إلا في النادر.

وكان عبد المحسن من الشيعة الإمامية[٢]، ورد في ديوانه خمس قصائد في مدح أهل البيت، ورثى الشيخ المفيد بن النعمان إمام الشيعة الإثني عشرية عند وفاته سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٣ بمقطوعتين. وانسجاماً مع عقيدته الإمامية فإن الصوري كان منفتحاً على أتباع المذاهب والطوائف الأخرى. فلم يجد مشكلة في مدح من يعتقد أنه يستحق المديح ولو اختلف معه في العقيدة. وهكذا مدح ابن غلبون الصوري الخليفةَ الفاطمي

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٣٢ ترجمة رقم ٤٠٦.
(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٨ ص ٩٥.

العزيز باللّه بقصيدة واحدة، ومدح الحاكم بأمر اللّه بقصيدتين. كما مدح عددا وافراً من القضاة والأعيان والأمراء وكبار الموظفين على اختلاف مذاهبهم، ودياناتهم من مسلمين ونصارى ويهود، ما بين حاجب، وكاتب، وطبيب. ومن أشهر ممدوحيه علي بن الحسين ابن الوزير الفاطمي أبي القاسم بن المغربي، والأمير أبا الحسن بشارة أمير طبرية. واسم الأمير بشارة هذا جعل العالم محسن الأمين العاملي يعتقد أنه ينتمي إلى أسرة بشارة العاملية[1]. وهو احتمال ضعيف لأن بشارة هذا كان مملوكاً وليس ما يثبت أنه ترك نسلاً لتعرف البلاد باسمه. كما أن المدة طويلة جداً بين فترة حكمه لطبريا وبين بروز اسم «بلاد ابن بشارة» الذي شاع في مرحلة متقدمة من فترة حكم المماليك وبالتحديد بعد بداية القرن الخامس عشر الميلادي.

شعر عبد المحسن الصوري بديع الألفاظ حسن المعاني. وهو شاعر مطبوع على الإجادة في أكثر أبواب الشعر غزلاً وتشبيباً ومديحاً ورثاءً ووصفاً وغير ذلك. ويمتاز شعره بجمال العبارة ومتانة الديباجة مع ميل ظاهر إلى الإبداع والابتكار في المعاني. وليس في قصائده طول فهو يميل دائماً إلى الايجاز وجل قصائده مقطوعات قصيرة أو شبيهة بالمقطوعات. وقد عيب عليه ذلك ونسب إليه العجز والحصر. أما هو فقد اعتز وتباهى بمذهبه هذا في الإيجاز مع البلاغة وحسن الدلالة على المعنى. وقد أشار إلى هذا المعنى مراراً، من ذلك قوله في قصيدة:

لقد انفردتَ فكنتَ وحدك سامعاً وقد انفردتُ وكنتُ وحدي شاعرا
ولطالما كثرت أقاويل الورى فأتيت بالنزر القليل مكاثرا

لعبد المحسن الصوري مقطوعات شعرية جميلة تعبر عن عمق إنساني كتلك التي يرثي فيها أمّه:

رهينة أحجار ببيداء دكدك تولت فحلت عروة المتمسك
وقد كنت أبكي إن تشكت وإنما أنا اليوم أبكي أنها لا تشتكي

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ٩٦.

كما يظهر الجانب البلاغي في وصفه لبخل أحد الناس يوم نزل ضيفاً عليه:

وأخٌ مسّـــهُ نزولـــي بقـــرح | مثلمـا مسّـنيَ مـن الجـوع قـرحُ
بـتّ ضيفـاً لـه كمـا حكـم الدّهـرُ | وفـي حكمـه علـى الحـرِّ قبـحُ
فابتدانـي يقـول وهـو مـن السّـكرة | بالهـمِّ طافـح ليـس يصحـو
لمـا تغرّبتَ ؟ قلـت: قال رسـول اللّه | والقـول منـه نصـح ونُجْـحُ
سـافروا تغنمـوا، فقـال: وقـد قـال | تمـام الحديـث: صومـوا تصحـوا

يبلغ ديوان عبد المحسن الصوري حوالي الخمسة آلاف بيت موزعة على أكثر من ٥١٣ مقطوعة يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين بيتين اثنين وخمسة وثلاثين بيتا من الشعر[١]. وقد جمع فيه كثيراً من أسماء الأعلام والأماكن من أمراء ووزراء وحكام وكتاب وشعراء إضافة إلى أسماء القرى والمدن المرتبطة بأسماء الأشخاص الممدوحين.

وعلى الرغم من كل هذه الأهمية للشاعر عبد المحسن الصوري إلا أن المصادر التاريخية التي تحدثت عنه لم تذكر أحداً من أساتذته أو شيوخه. رغم اعتبار صور في ذلك الحين مركزاً ثقافياً وحضارياً هاماً يكثر فيها الأدباء والعلماء الذين كانت مجالسهم مقصداً للمتعلمين والمتأدبين.

توفي عبد المحسن الصوري سنة ٤١٩/ ١٠٢٨ في صور ودفن فيها.

٤ - ابن منير الطرابلسي:

أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الدين أحد أهم الشعراء في الشام في عصره. لا بل كان من المبدعين في الشعر العربي ومن الذين تركوا أثراً كبيراً في تاريخ الآداب العربية.

ولد أحمد بن منير في طرابلس سنة ٤٧٣/ ١٠٨٠ وعاش طفولته فيها. كان أبوه أحد المنشدين لقصائد ابن العوني وهو أحد الشعراء الذين كتبوا كثيراً من المراثي في أهل

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ٩٧

البيت. لقد اعتقد أحد الذين أرخوا لابن منير أن أباه منير بن أحمد كان يغني في أسواق طرابلس بحيث يخرج القارىء بانطباع أن منير بن أحمد كان «مغنياً» ولم يكن منشداً.

تعلم ابن منير اللغة والقرآن في طرابلس، وربما يكون قد بدأ يقول الشعر فيها حيث يبدو من المستغرب أن الذين كتبوا عنه لم يذكروا شيئاً من أشعاره التي قالها في طرابلس، بل جل ما ذكر عنه كان بعد خروجه منها في حدود سنة ١١٠٩ أي قبيل سقوط المدينة بأيدي الصليبيين.

انتقل ابن منير إلى دمشق وأقام فيها، واشتهر بشعره الفائق والجيد مما أثار عليه غيرة بعض الدمشقيين فألبوا عليه حاكمها بوري بن طغتكين فاعتقله وسجنه مدة ثم أفرج عنه بكفالة الحاجب يوسف بن فيروز حيث يمم شطر مدينة شيزر وأقام فيها مع بني منقذ.

ويبدو مما كتبه بعض المؤرخين أن هناك تحاملاً على ابن منير بسبب انتمائه المذهبي حيث يذكر أنه كان «رافضياً خبيثاً يعتقد مذهب الإمامية»[١]. وهذه «التهمة» كانت كافية لإلصاق بعض الأمور به كالقول إنه كان هجّاءً خبيث اللسان يكثر الفحش في شعره ويستعمل فيه الألفاظ العامية[٢]. مما جعل ذاك المؤرخ يفترض أن هذا الهجاء المزعوم وخبث اللسان سبباً في سجن ابن منير، وأن حاكم دمشق بوري بن طغتكين كاد أن يقطع لسانه لولا تدخل الحاجب يوسف بن فيروز. وقد نقل الذهبي نفس الكلام والحجج التي ساقها ابن عساكر والتي تبدو أنها لم تكن صحيحة، لا بل خيالية وتشبه القصص الخرافية. فالعماد الأصفهاني الكاتب قد وضع وصفاً مناقضاً لما حدث مع ابن منير حيث يذكر أن وجود هذا الشاعر الكبير في دمشق قد أحفظ بعض أكابرها مما دفعه لترك دمشق والتوجه إلى شيزر حيث روسل مراراً للعودة إلى دمشق فأبى وكتب رسائل في ذم أهلها[٣]. ولو كان ما لفّقهُ ابن عساكر صحيحاً لما روسل ابن منير للعودة.

انتقل ابن منير بعد حين إلى حلب حيث أصبح مسكنه مقصداً لطلبة العلم والمتأدبين.

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق ج ٤ ص ٣٩٠ ترجمة رقم ٢٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام ج ٣٧ ص ٢٩٦ ترجمة رقم ٤١٨.

وفي هذه الفترة كتب ابن منير أفضل قصائده في مدح عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين وعندما توجه نور الدين لحصار دمشق صحبه معه وأرسله رسولاً إلى أهلها حيث جرى استسلام المدينة بواسطته. ويبدو أن ابن عسّاكر والذين تحاملوا على ابن منير بسبب «تشيعه ورفضه» لم ينتبهوا إلى أن القصائد الكبرى التي قالها هذا الشاعر كانت في مديح عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زعيمي السنة في ذلك العصر.

أما اتصاله بعماد الدين زنكي فيشوبه شيء من الغموض إذ تنقل الرواية أن زنكي استمع إلى مغنٍ ينشد:

ويلي من المعرض الغضبان إذ نقل ... الواشي إليه حديثاً كله زور
سلّمت فازور يزوي قوس حاجبه ... كأنني كأس خمر وهو مخمور

فسأل عماد الدين عن صاحبها فقيل ابن منير الطرابلسي فأرسل يستدعيه. وليلة وصوله إليه قتل عماد الدين. وحسب هذه الرواية فإن ابن منير لم يلتق بعماد الدين زنكي، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك، فالقصائد المذكورة في ديوان ابن منير فيها عددٌ من القصائد التي مدح فيها عماد الدين ومنها تلك الأبيات التي قالها بعد فتح عماد الدين مدينة بارين واستخلاصها من الصليبيين فيقول[1]:

فدتك الملوك وأيامُها ... ودام لنقضك إبرامُها
وزلّت لعيشك أقدامُها ... وزال لبطشك إقدامُها
ولو لم تسلم إليك القلوب ... هواها لما صح إسلامُها

وكذلك مدحه بقصية أخرى عندما فتح مدينة الرها منها هذه الأبيات:

فتح أعاد على الإسلام بهجته ... فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهدى بمعتصم باللّه فتكته ... حديثها نسخ الماضي وأنساه
ان الرها غير عمورية وكذا ... من رامها ليس مغزاه كمغزاه[2]

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٣ ص ١٨٢.
(٢) المصدر السابق.

وهذا يثبت أن ابن منير قد التقى ومدح عماد الدين زنكي قبل مقتله.

أما علاقته بنور الدين زنكي وقربه منه فهي مشهورة حتى ليكاد يكون شاعره الشخصي كما كان المتنبي شاعر سيف الدولة. وله في مدحه عدة قصائد منها أبيات قالها ابن منير بعدما انتصر نور الدين زنكي في معركة الرّوج على الصليبيين:

صدم الصليب على صلابة عوده فتفرقت أيدي سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة بالروج مقر ما جنت غدراته
تمشي القناة برأسه وهو الذي نظمت مدار النيرين قناته

وقد كلفه نور الدين زنكي بأن يكون رسوله إلى أهل دمشق مثبتاً بذلك ثقة كبيرة بشاعره.

لم يهتم المؤرخ ابن عساكر ومن سار على نهجه أو نقل عنه في الحديث بحقد عن الشيعة (الروافض) بالعلاقة الطيبة بين الشاعر ابن منير الشيعي والأتابك نور الدين زنكي أحد أهم قادة السنة في زمانه وواحد من الذين نذروا حياتهم للجهاد، وهو الذي لم يأبه لاختلاف المذاهب بين المسلمين بقدر اهتمامهم بجهاد عدوهم الأوروبي. وهذا يعني أن جماعة الأحقاد والفتن قد برزوا بعد الزنكيين وربما مع قيام الدولة الأيوبية ومن جاء على أنقاضها من المماليك.

توفي ابن منير في حلب سنة ٥٤٨/ ١١٥٣ تاركاً ديوان شعر كبير. لكن هذا الديوان فُقِدَ، واختفى كثير من قصائد ابن منير، وما بقي لا يساوي إلا جزءاً يسيراً من عطائه جمعها بعض الباحثين في العصر الحديث في ديوان فاق عدد أبياته الشعرية ١٨٠٠ بيتاً. وتحمل أشعاره الكثير من الحكمة والحث على الخلق الصالح كتلك التي يقول فيها:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله في منزل فالحزم ان يترحلا
كالبدر لما ان تضاءل نوره طلب الكمال فحازه متنقلا
سفه بحلمك ان رضيت بمشرب رنق ورزق اللّه قد ملأ الملا
ساهمت عيسك مر عيشك قاعدا أ فلا فليت بهن ناصية الفلا

فـارِقْ تَـرُقْ كالسـيف سُـلَّ فَبـانَ فـي متنيـه مـا أخفـى القـراب وأخمـلا
لا تحسـبن ذهـاب نفسـك ميتـة مـا المـوت الا أن تعيـش مذلـلا
للقفـر لا للفقـر هبهـا إنمـا مغنـاك مـا أغنـاك أن تتوسـلا

٥ - الكراجكي أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان

أحد أهم علماء الدين الشيعة في الشام في القرن الخامس/ الحادي عشر، تتلمذ على الشيخ المفيد والشريف المرتضى والشيخ الطوسي فتأثر بهم واتبع طرائقهم في الكلام والفقه والفروع فكان ناقلاً للفكر الشيعي الإمامي بشكله العراقي إلى الشام. كما أخذ الحديث وبعض مسائل الفقه من علماء من أهل السنة وأسند كثيراً من الأحاديث عن مصادرهم. قصد الساحل ليسكن فيه فنزل أولاً في مدينة الرملة إحدى الحواضر الفاطمية وعاصمة ولاية فلسطين فبقي فيها ردحاً من الزمن ثم يمم نحو مدينة صور فأقام فيها وألّف رسالة سماها (الأصول في مذهب آل الرسول) عملها للإخوان بصور[١] سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٦ م. ثم انتقل إلى صيدا لينتقل منها بعد حين إلى مدينة طرابلس حاضرة الساحل الشامي الكبرى ومدينة العلم والثقافة فاستقر فيها طويلاً حتى نسب إليها وعرف بالكراجكي الطرابلسي.

كان عالماً في الفقه، والكلام، والحكمة، والطب، والفلك، والرياضيات بأقسامها. واعتبره آغابُزُرك الطهراني أقدم فلاسفة الشيعة بساحل دمشق، وبالغ ابن أبي طيء في الثناء عليه في ذكر الإمامية، ووصفه القُمّي بالشيخ الفقيه الجليل[٢]. له مؤلفات كثيرة بلغت السبعين حسب عد بعض معاصريه، ومنها كنز الفوائد والاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الانصاف، والاستنصار في النص على الأئمة الأطهار، والاعلام بحقيقة ايمان أمير المؤمنين وأولاده الكرام، والبرهان على صحة طول عمر صاحب الزمان، والبيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان، والتعريف بحقوق الوالدين، والتعجب من أغلاط العامة

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٩ ص ٤٠١.
(٢) المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، ص ٢٠٣.

في مسالة الإمامة وتفضيل أمير المؤمنين عليه السلام، وتهذيب المسترشدين، وشرح جمل العلم للمرتضى، والكر والفر في الإمامة، ومعارضة الأضداد باتفاق الأعداد، ومعدن الجواهر ورياضة الخواطر، ومعرفة الفارض في استخراج سهام الفرائض، والمنهاج في معرفة مناسك الحاج، والنوادر، ووجوب الإمامة(١). توفي محمد بن علي الكراجكي سنة ٤٤٩/ ١٠٥٧ في مدينة صور ودفن فيها(٢).

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٩ ص ٤٠١.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الرابع

شيعة لبنان تحت حكم الصليبيين والأيوبيين
(١٠٩٩- ١٢٦٠)

١ - الحملة الصليبية الأولى: مقاومة المدن الشيعية للغزاة - سقوط طرابلس وجبيل وبيروت

٢ - سقوط صور

٣- العلاقة بين الصليبيين وأهالي البلاد

٤ - حروب صلاح الدين واستعادة السيطرة على بعض المناطق

٥ - صلح الناصر ونتائجه

١ - الحملة الصليبية الأولى: مقاومة المدن الشيعية للغزاة

بدأت المواجهة بين اللبنانيين والغزاة الصليبيين منذ وطئت أقدامهم الأراضي اللبنانية، فبعد استيلاء الصليبيين على إنطاكيا تابعت جيوش الحملة الاولى طريقها جنوبا باتجاه القدس. وبوصولهم إلى طرابلس وجدوا حاكم المدينة ابن عمار وقد جمع جموعه ليتصدى لهم فوقعت المناوشات الأولى التي جعلت حاكم المدينة يتراجع ويفضل مصانعة الغزاة بالمال والهدايا علّهم يتابعون طريقهم مبتعدين عن مدينته. وقد دفع ابن عمار لأمراء الصليبيين ١٥ ألف قطعة ذهبية بالإضافة إلى عدد من الجياد والبغال وكمية من الحرير والأواني[١]. عند ذلك تابع الصليبيون زحفهم جنوباً مستفيدين من أدلاء محليين من سكان جبل لبنان، حتى وصلوا إلى بيروت فتلقوا من حاكمها المال والهدايا أيضاً[٢]. ويبدو أن المدن الساحلية قد فوجئت بهذا العدو الذي لم تكن تحسب حساباً لوصوله. فكانت هذه المدن قد ألفت العيش بحكم ذاتي بعيداً عن سلطة الخلافة الفاطمية في القاهرة مما أدى إلى ضعفها عن مقاومة جيوش الغزو الكثيرة العدد.

كان الهدف الأهم للغزاة هو الوصول إلى المدينة المقدسة لأن الاستيلاء عليها يعطي لقادة الصليبيين مصداقية في العمل القتالي الديني مما يسمح باستمرار تدفق المحاربين من أوروبا إلى الشرق. فسارعوا نحوها حتى وصلوا إلى مدينة الرملة التي كانت عاصمة ولاية فلسطين فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها خوفاً فاستولوا عليها وسكنوها، فكانت الرملة أول مدينة في فلسطين تتحول إلى مدينة صليبية وجوداً وسكاناً.

لم تكن المدينة المقدسة تتمتع بحماية كافية، الأسباب كثيرة، فبالإضافة إلى المفاجأة كانت القدس قد تعرضت لهجوم سلجوقي أدى إلى انتزاعها مدة بسيطة من المصريين، وقام السلاجقة بتخريب الأبراج والتحصينات في المدينة قبل أن يسترجعها المصريون،

---

(١) وليم الصوري ٧: ٢٠-٢١ ج ٢ ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق.

وقد تم ذلك قبل شهر واحد من وصول الصليبيين إليها. لم يزد عدد المدافعين عنها عن ألف رجل في مواجهة جيوش جرارة وبمعزل عن وصول أي نجدة إليها، مما اضطر حاميتها إلى الاستسلام والانسحاب إلى مصر تاركين رقاب الناس فيها رهن إشارة وحوش الغزو الأوروبي الذين دخلوا المدينة في الخامس عشر من تموز سنة ١٠٩٩ وعملوا على قتل كل حي فيها. قضى نتيجة ذلك أكثر من سبعين ألفاً من أهل القدس ومثل بجثث الكثيرين وجمعت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل في شوارع المدينة وأزقتها. يروي المؤرخ وليام الصوري خبر مذبحة بيت المقدس فيقول: «... وشهدت أرجاء المدينة مذبحة فظيعة الشناعة وكان الدم المسفوك مخيفاً حتى أن المنتصرين أنفسهم ساورهم الإحساس بالخوف وشعروا بالتقزز. وفر الجانب الأكبر من الناس إلى فناء المسجد لوقوعه في موضع قصي من المدينة لكن فرارهم لم يسعفهم بالخلاص إذ سرعان ما اقتفى تانكريد أثرهم على رأس معظم رجال الجيش الذين اقتحم بهم المسجد وأعمل مذبحة شرسة. كان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولي عليه الفزع فقد كانت الاشلاء البشرية في كل ناحية...»[١]. أما مبرر الأسقف وليم رجل الدين المسيحي الأوروبي لهذه المذبحة فبسيط جداً وهو: «كان ذلك قضاءً عادلاً من الرب أمضاه في من دنسوا هيكل السيد بشعائرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن فكان لا بد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهراق»[٢].

انتهت معركة القدس لتبدأ بعدها معارك استهدفت الاستيلاء على الساحل اللبناني والفلسطيني بالتدريج. كانت أولى المناطق سقوطاً هي منطقة طبريا عاصمة ولاية الاردن العربية حيث سينشأ بعد حين إمارة تعرف باسم (إمارة الجليل) تكون عاصمتها مدينة طبرية. وقد قام الملك الصليبي الأول غودفري دي بويون بمنح مدينة طبرية بعيد سقوطها إلى النبيل تانكريد بطل مذبحة القدس، ملكاً ووراثياً فيه إلى الأبد[٣]. ثم أضاف إليه كل

(١) وليم الصوري ك ٨، م ٢٠-٢١ ج ٢ ص ١٢٦-١٢٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ٩: ١٣- ج٢ ص ١٦٨.

منطقة الجليل وكذلك مدينة بورفيريون (حيفا) بكل ملحقاتها. يجب التنويه هنا بأن الحديث عن هذه المسألة رغم عدم ارتباطها بسياق الموضوع إلا أنها ترتبط بشيء مهم وهو تمييز ما يعرف باسم «الجليل» في التاريخ سواءً التعبير التوراتي أو التعبير الروماني (ثم المسيحي) لا يتعدى وادي القرن الذي يقع جنوب رأس الناقورة حيث تشكل المنطقة شمال وادي القرن ما يتفق على تسميته بأرض صور كما تعرف المنطقة العليا منه (بلاد بشارة) بجبال صور وتنتهي حدود صور عند نهر الشريعة الذي يفصلها عن بانياس. وقد اعتمد هذا التقسيم كذلك في فترة وجود الصليبيين في المنطقة (١٠٩٩-١٢٩١). لذلك يجب أن لا يتوهم أحد تبعية بلاد بشارة وجبل عامل قديماً وحديثاً لمنطقة «الجليل».

عندما توفي الملك الصليبي غودفري في نفس السنة (١١٠٠م) تولى العرش بعده الكونت بلدوين الذي كان على خلاف عميق مع تانكريد أمير طبرية والجليل فاضطر هذا إلى التخلي عن إمارته وعن منطقة حيفا طواعية حتى لا يضطر إلى مبايعة الملك الجديد. وانتقل بعدها ليصبح حاكماً بالوكالة على إنطاكية. وظل تانكريد يتمتع بمحبة جمهور الشعب اللاتيني في المنطقة حتى وفاته في انطاكية سنة ١١١٢[1] ويوصف عادة بالنبيل المبجل في الوثائق الصليبية.

بعد تولي الملك بلدوين الحكم أقطع مدينة طبرية والجليل للنبيل هيغ دي سانت أومير أحد الأمراء المبجلين عند الصليبيين. وكان إقطاعه ملكاً ووراثياً شبيهاً بما كان عليه الحال مع تانكريد. لكن هيغ سرعان ما بدأ يتحرك من طبرية نحو جبال صور (جبل عاملة) فتمكن من السيطرة على المنطقة الجبلية الواقعة على طريق صور دمشق والتي كانت تمر قرب قرية تبنين حيث كان يوجد برج صغير لحماية الطريق فوجد هيغ في الموقع أهمية خطيرة لحصار صور ومضايقة أهلها وقطع الطريق منها إلى الداخل السوري فشرع سنة ١١٠٥ (أو ١١٠٧) ببناء قلعة كبيرة عرفها باسم تورون التي ستصبح إحدى أهم المواقع في الخريطة العسكرية والإدارية في القرون التالية. يصف وليم مطران صور بناء قلعة تورون بشيء من المبالغة والاهتمام فيقول: «كانت مدينة صور لا تزال حتى ذلك الوقت

(١) المصدر السابق ١١: ١٨. ٢/ ٢٩٩.

في قبضة «الجاحدين» الذين كانوا يحاولون إعاقة تقدم الصليبيين بشتى الطرق، وكان هيغ دي سانت أومير، ذلك الرجل الشريف القوي الباذل نفسه في خدمة المسيح قد خلف تانكريد في حكومة مدينة طبرية. وكان دائم القيام بهجمات خاطفة على صور، ومراوحتها بالغارات المستمرة بما تسمح به المسافة بين البلدين وهي ثلاثون ميلاً. وكان العسكر في غدوهم إلى صور ورواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود أي قلاع أو أماكن حصينة بين المدينتين يلجأون إليها لو تعقبهم العدو، لذلك حاول هذا الرجل العظيم تذليل تلك الصعوبة فعزم على بناء حصن على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور وإن كان يبعد عنها حوالي عشرة أميال. وكان الإسم الأصلي لهذا الموضع هو تبنين. ولما كان الحصن واقعاً على جبل شاهق الارتفاع شديد الانحدار فقد أطلق عليه اسم (تورون) واشتهر بطيب هوائه وبديع مناخه وهو يوجد في قبيلة «أشير» فيما بين البحر وجبل لبنان وعلى مسافة متساوية من كلتا المدينتين صور وبانياس...»[1].

الهدف من نقل هذه النص بطوله هو التركيز على نقطة أساسية أخطأ فيها مترجم كتاب مطران صور. ذلك أنه ترجم «قبيلة أشير» ب «قبيلة عشير». مما أوهم بعض الكتاب أن الإسم يرتبط ببعض بطون القبائل أو العشائر العربية. والحقيقة أن مطران صور كان يتحدث عن أرض أشير أحد أسباط بني إسرائيل الذي أصابه سهم تقسيم «أرض الميعاد» أيام يشوع قائد بني اسرائيل بعد النبي موسى عليه السلام. حيث تذكر الأساطير التوراتية أنه قسّم (الأرض) على الأسباط. وقد قام رجال الكنيسة فيما بعد باعتماد هذا التقسيم الافتراضي كتحديد جغرافي للمدن في فلسطين، وتمددوا اعتباطياً في أرض صور دون الانتباه إلى النصوص التي تنقض ذلك في علاقة النبي سليمان الحكيم عليه السلام مع حيرام ملك صور وتحديد بعض الاماكن.

تساقط المدن الساحلية

يوجد الكثير من المصادر التاريخية التي تؤرخ للحروب الصليبية بدقة وصدق. ويمكن متابعة الحدث الواحد في مصدرين كل واحد يمثل طرفاً مناقضاً للآخر رغم وصفهما

(١) المصدر السابق ١١: ٥ أو ٢/ ٢٦٨.

لحدث واحد. نتيجة الحرب ومعاركها وما فيها من مآسٍ متفق عليه تقريباً مع تناقض المبررات. فمطران صور الأسقف وليم يتحدث عن المذابح التي ارتكبها الصليبيون ويبرر ذلك بما يتوافق مع معتقداته الدينية والأخلاقية وكذلك يفعل الكتاب المسلمون. ولأن الحرب تقع في بلاد المسلمين فإن المذابح التي وقعت بين المدنيين كانت بأيدي الصليبيين في المرحلة الأولى التي استمرت قرابة قرن أي منذ بدء الحرب سنة ١٠٩٩ وحتى معركة حطين سنة ١١٨٧. أما المرحلة الثانية فإن المدن الصليبية وقعت ضحية الحرب فجرت فيها أعمال ثأرية ومذابح وفظائع، لكنها لم تكن بمستوى الفظائع التي ارتكبها الصليبيون.

كانت أولى المدن اللبنانية التي سقطت بأيدي الصليبيين مدينة جبيل التي قصدتها الجيوش الصليبية البرية والبحرية فأحاطت بها وحاصرتها. وعندما أدرك الأهالي أنهم غير قادرين على المقاومة وأنه لا أمل بوصول أي نجدة من بلاد المسلمين شرعوا في مفاوضة المهاجمين وتوصلوا معهم إلى اتفاق على تسليم المدينة على شروط منها أن يخرج بأمان كل من يريد من أهلها مع ما يحملونه من متاع مع نسائهم واطفالهم. وأن يسمح لمن يريد بالبقاء في المدينة على أن يدفع جزية معينة للحاكم الصليبي. هناك اختلاف مهم بين المؤرخين العرب والفرنج على تاريخ سقوط مدينة جبيل، ففي حين يذكر العرب أن سقوطها قد تم سنة ١١٠٤ في نفس السنة التي سقطت فيه مدينة عكا حيث يُذكر «أن نجدة وصلت إلى الفرنج في اللاذقية فاستعان بهم صانجيل المحاصر لطرابلس فأمدوه وأعانوه أياماً ثم رحلوا عنها ونزلوا على ثغر جبيل فقاتلوه وضايقوه وملكوه بالأمان فلما حصل في ملكتهم غدروا بأهله ولم يفوا بما بذلوه من الأمان وصادروهم واستنفذوا أحوالهم وأموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب»[1]. في حين يذكر وليم الصوري الحادث بأنه جرى سنة ١١٠٩ قبل سقوط مدينة طرابلس مباشرة، ولا يأتي وليم على ذكر ما حدث للأهالي من مصادرة وعقوبات.

وفي نفس السنة ١١٠٩ وقعت الكارثة الكبرى بسقوط المعقل الكبير للحضارة

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٤ أحداث سنة ٤٩٧.

العربية بشكلها الشيعي. فقد كانت حاضرة طرابلس على موعد مع الهجوم الصليبي الكبير عليها. بدأت الجيوش الصليبية التي هاجمت جبيل (كما يزعم وليم الصوري) بالانتقال بعديدها وعتادها شمالاً للهجوم على مدينة طرابلس التي كانت ترزح تحت الحصار منذ مدة وكان للأسطول الجنوي فضل كبير في إغلاق الطريق البحري الذي كان يأمل سكان طرابلس أن يتلقوا عبره النجدة من مصر. وبعد قتال اليائسين أرسل وجهاء المدينة وفداً يفاوض الصليبيين على استسلام المدينة بشروط معينة من أهمها «أن يسمح بحرية الخروج بلا عائق لمن أراد مغادرة المدينة مع الإذن له باستصحاب أهل بيته وحمل حاجاتهم إلى أي جهة شاؤوها. أما الذين لا يحبون الرحيل عنها فيسمح لهم بالبقاء في دورهم سالمين آمنين مع احتفاظهم بما تملكه أيديهم لقاء دفعهم للكونت سنوياً قدراً معيناً من المال»[١]. وقد وافق الملك الصليبي على الشروط فاستسلمت مدينة طرابلس في العاشر من حزيران سنة ١١٠٩. أما في المصادر العربية فيذكر أن «الإفرنج قد نزلوا بجموعهم وحشدهم على طرابلس وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها منذ أول شعبان (سنة ٥٠٢/ ٩ آذار ١١٠٩) إلى الحادي عشر من ذي الحجة / يوافق ١١ تموز ١١٠٩. وأسندوا أبراجهم إلى السور. فلما شاهد الجند والمقاتلة وأهل البد سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك وذلت نفوسهم لاشتمال اليأس من تأخر وصول الاسطول المصري في البحر والميرة والنجدة. فشد الإفرنج القتال عليها وهجموها من الأبراج فملكوها بالسيف يوم الإثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ونهبوا ما فيها وعوقب أهلها واستصفيت أموالهم»[٢].

ويبدو أن المؤرخين العرب قد أخطأوا في ذكر سقوط مدينة جبيل سنة ١١٠٤ لأن هذه المدينة سقطت في نفس الفترة التي سقطت فيها طرابلس سنة ١١٠٩ مع اختلاف يسير في تاريخ السقوط. ويمكن أن يكون المقصود ب(جبيل) التي سقطت سنة ١١٠٤ هو مدينة جبلة على الساحل السوري التي كانت تتبع لابن عمار صاحب طرابلس.

بعد سقوط طرابلس بقي على الساحل اللبناني بيروت وصيدا وصور فبدأت الجيوش

---

(١) وليم الصوري ٢/ ٢٧٩

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠

الصليبية تزحف إليها الواحدة بعد الأخرى مستغلة التفوق العسكري الذي أصبح واضحاً أمام تنازع الأمراء المسلمين وعدم جديتهم في مقارعة الغزاة. ومن الملفت للنظر تراخي الممالك والإمارات العربية والإسلامية في مواجهة الصليبيين، لا بل إن كثيراً من الأحداث تثبت أن حكام البلاد الإسلامية لم ينظروا إلى الغزو الأوروبي إلا باستخفاف وكأن ما يحدث هو صراع على السلطة بين أمراء محليين. وقد بدأت باكراً المراسلات بين بعض الحكام وأمراء الصليبيين لترتيب تحالفات وتقديم تنازلات. كما جرت مفاوضات بين الخصوم من المسلمين والصليبيين أفضت إلى مصالحات آنية كما حدث بعد سقوط طرابلس عندما خشي ظهير الدين أتابك دمشق أن يهاجم الصليبيون بعلبك فقدم لهم تنازلاً خطيراً عن ثلث إيراد البقاع «وحصن المنيطرة وحصن عكار على أن يكفوا عن العيث والفساد. فأقاموا على ذلك مدة يسيرة فلم يلبثوا على ما تقرر وعادوا إلى رسمهم في الفساد والعناد»[١].

سقوط صيدا وبيروت:

انتقل الجيش الصليبي بعد فراغه من طرابلس إلى بيروت فحاصرها براً وبحراً. ودافع أهل بيروت عن مدينتهم دفاع المستميت وتمكنوا من رد هجمات كبيرة للصليبيين. لكن هؤلاء تمكنوا في النهاية من الدخول إلى المدينة ونفذوا كما كانوا يفعلون غالباً عندما يتمكنون من المدنيين، مذبحة مروعة ضد أهالي المدينة. ينقل المقريزي سقوط بيروت بيد الصليبيين فيقول: «وفي سنة ٥٠٣/ ١١٠٩ سار الفرنج نحو بيروت وعملوا عليها برجاً من الخشب وزحفوا فكسره أهل بيروت. وقدم الخبر بذلك على الأفضل فجهز تسعة عشر مركباً حربية فوصلت سالمةً إلى بيروت وقويت على مراكب الفرنج وغنمت ودخلت إلى بيروت بالميرة والنجدة فقوي أهلها بذلك. وبلغ بغدوين الخبر فاستنجد بالجنوية فأتاه منهم أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحف على بيروت في البر والبحر ونصب عليها برجين وقاتل أهلها في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال (١٢ أيار) فعظمت الحرب وقتل مقدم الأسطول وكثير من المسلمين ولم ير للفرنج فيما

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ أحداث سنة ٥٠٣.

تقدم أشد من حرب هذا اليوم. فانخذل المسلمون في البلد وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهراً وخرج متولى بيروت في أصحابه وحمل في الفرنج فقتل من كان معه وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد وسبوا من فيه وأسروا واستصفوا الأموال والذخائر[١]. أما من الجهة الصليبية فقد وصفت معركة السيطرة على بيروت بكثير من التفاصيل التي تبرز قوة وبطش الصليبيين حيث تمكنوا من صنع أبراج من خشب غابة الصنوبر القريبة من المدينة حتى تمكنوا من اعتلاء الأسوار واقتحام المدينة ف«لم يجد الأهالي بداً من الفرار إلى الساحل مما مكن الجيش (الصليبي) من دخول المدينة من غير أن يلقى كيداً واستحوذ عليها كلها. ولما جاء الخبر بأن الملك وعسكره اقتحموا البلد وثب الصليبيون الموجودون على ظهور السفن إلى اليابسة واحتلوا الميناء وردوا إلى الوراء بسيوفهم جموع الأهالي الذين فروا على وجوههم عسى أن يجدوا مكاناً آمناً وأرغموهم على الرجوع حتى صاروا وسط أعدائهم ولما شاء سوء طالع أهل البلد أن يحصروا بين فريقين معاديين لهم فقد ضاقت بهم السبل وضلوا الخطى فكانوا يمضون تارة نحو هذا الفريق وتارة نحو الفريق الآخر فتناوشتهم سيوف الجانبين فأهلكتهم. وكان الاستيلاء على هذه المدينة يوم ٢٧ ايار سنة ١١١٠[٢].

ولم يبق بين الصليبيين وبين مدينة صيدا سوى مسير يوم فتحركوا براً وبحراً نحوها وأحدقوا بالمدينة فارضين عليها حصاراً قاسياً. ولما كان أهل صيدا يعرفون تمام المعرفة أن احتمال وصول نجدات لهم من البلاد الإسلامية شبه معدوم فقد اعتمدوا على أنفسهم في الدفاع عن مدينتهم لمدة قصيرة ثم فاوضوا العدو على الاستسلام بشروط منها السماح «لكبار رجالهم بمغادرة صيدا، على أن يبقى الأهالي على ما كانوا عليه من قبل وفق شروط مقبولة حتى يتابعوا زراعة الحقول. فأجيبوا إلى ما التمسوه واستسلمت المدينة وأذن لوجوه القوم بالرحيل من غير مضايقة والذهاب حيثما شاؤوا مستصحبين معهم حريمهم وأولادهم[٣].

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٤٥.
(٢) وليم الصوري ج ٢ ص ٢٨٩ / ١١: ١٤.
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٣ / ١١: ١٤.

تعتبر السيطرة على صيدا استكمالاً للسيطرة على الطريق الساحلي حيث اصبحت الطريق من انطاكيا على الساحل السوري الشمالي إلى يافا مفتوحة باستثناء مدينة صور التي كانت تقوم ببعض المضايقات البسيطة للقوافل التي تعبر براً. كما حافظ أهالي الجبال المطلة على ساحل صيدا وبيروت (مناطق جزين والغرب وكسروان وبلاد جبيل الجبلية) ومعظمهم من الشيعة على تواجدهم وتمتعوا لمدة طويلة من الزمن باستقلال ذاتي حيث أقاموا توازناً بين المناطق الصليبية والمناطق الداخلية الإسلامية. ولم تنجح محاولات الصليبيين ولا محاولات الإمارات الإسلامية الداخلية من إضعاف هذا الوجود وهذا الاستقلال إلا في أزمنة متباعدة ولمدد قصيرة، رغم اعتراف أمراء وحكام هذه المناطق بالتبعية لدمشق أو للقاهرة. وأكبر دليل تاريخي على ذلك تلك المناشير التي كتبها حكام دمشق أو القاهرة لأمراء الغرب والتي أورد عدداً منها صالح بن يحي صاحب تاريخ بيروت والتي يرجع معظمها إلى فترة وجود الصليبيين في بيروت وصيدا.

٢ - سقوط صور:

منذ بداية الحروب الصليبية أدرك قادة الغزو أهمية مدينة صور على وجودهم فبدأوا يعملون على احتلالها مستعملين كل ما يملكونه من قوة ومن بأس. لقد مر في الحديث عن بناء قلعة تبنين (تورون) سنة ١١٠٥ أن الهدف منه كان قطع الطريق بين صور ودمشق. وفي سنة ١١٠٧ أقام الملك الصليبي بلدوين الأول في خارج مدينة صور برجاً كبيراً في تل المعشوق «وكان النائب الأمير فيها حينذاك سعد الملك كمشتكين أحد مماليك الأفضل. وبعد شهر واحد من البدء ببناء برج تل المعشوق أقدم سعد الملك على مصانعة بلدوين بسبعة آلاف دينار صوري حتى رحل عن البلد»[١]. هذا بالإضافة إلى بناء قلعة في منطقة اسكندرونة إلى الجنوب من صور والتي أصبحت فيما بعد مركز إدارة لناحية حملت نفس الاسم مع تحريف بالأحرف(اسكنداليون).

استمرت محاولات الصليبيين مدة طيلة من الزمن كان أهالي صور يدافعون فيه عن

(١) Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux. III PP 462. Pub: Paris 1898, repub 1967 Gregg press,Westmead,England.

مدينتهم بأنفسهم وكانوا يتلقون بعض المساعدة المحدودة من الفاطميين في مصر عن طريق الأسطول المصري. كما كانت تأتيهم نجدات من مدينة دمشق.

يتحدث المؤرخ الصليبي وليم أسقف صور بكثير من الاعجاب عن مدينة صور التي قاومت الغزو بشراسة وبطولة قل نظيرها. ويمتدح أهلها الذين «اشتهروا في التاريخ بالذكاء الألمعي وخفة الروح»(١). ثم يأخذ في تعداد ما أنجزه أهل صور في التاريخ، وهو في ذلك يتحدث عن حقيقة ثابتة، فهو يعزو إليهم «أول محاولة لتسمية عناصر الكلام بأحرف تتلاءم مع منطوقها. وهم أول أهل الأرض في تشييد بيوت لحفظ الأموال. كما ساهموا في الرفاهية عن طريق رموز الفكر الحية وهي معرفة الكتابة وهذا أمر لا جدال فيه. كما اشتهرت صور أيضاً بأنها كانت أول من قدمت للناس اللون الأرجواني وعرفتهم به، ومن ثم عرف هذا اللون منذ ذلك الحين باسم اللون الصوري. وأيضاً تقول الروايات أن سيشاريوس وزوجته إيليايدو قدما من صور إلى أفريقيا وتم على أيديهما تأسيس مدينة قرطاجة»(٢). وهذه المقدمة التي تتحدث عن صور الفينيقية القديمة تزداد تألقاً عندما يجري الحديث عنها بعدما أصبحت مستعمرة رومانية وعاصمة لولاية كبيرة هي فينيقيا الساحلية الرومانية تتبعها أربع عشرة مدينة مهمة (كل مدينة تعتبر مركز لمحافظة) وحدودها الجنوبية هي صخرة رأس الناقورة القريبة كل القرب من صور وتمتد نحو الشمال حتى نهر فالينا (قرب مدينة بانياس الساحلية) وشرقاً مع خط مرتفعات جبال لبنان الشرقية أي أن صور الرومانية تشمل مساحة لبنان المعاصر وأكثر.

صور التي امتدحها وليم الصوري تعيش فقط في التاريخ، أما صور التي واجهها الصليبيون فكانت أكثر أهمية وحضوراً من القديمة. هي مدينة كبيرة، حصينة جداً وقوية جداً. وهي في نفس الوقت حاضرة من أهم الحواضر الإسلامية، مدينة للعلم والثقافة ومدينة للصناعة والتجارة. وهي عاصمة منطقة جبل عاملة الذي يشرف عليها من جهة الشرق وهي المدينة الوحيدة فيه في ذلك الوقت.

---

(١) وليم الصوري ج ٣ ص ١٤ / ١٣ : ٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

استعدت صور لمواجهة الغزاة بكل ما تملك من وسائل القوة وتمكنت من صد الهجمات المتتالية مدة ربع قرن. كانت كل مدن الساحل قد تهاوت، وحكومات البلاد الإسلامية المجاورة تتصارع فيما بينها ولا أمل يرتجى من نصرتها إلا من بعض المتطوعين. وقد وصف أحد المؤرخين قلة المدد الذي وصل إلى صور بطريقة تثبت العجز عن مواكبة الأحداث بحجم الأخطار فذكر أن أتابك بادر بانفاذ جماعة وافرة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على المائتين فرساناً رماة أبطالاً فوصلت إليهم وأتت أهل صور رجالة كثيرة من جبل عاملة رغبوا في ذلك مع رجالة من دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عندهم وشرع أتابك في انفاذ عدة أخرى[1]. والعدد كما يظهر لم يكن بحجم الهجوم الذي كانت صور تتعرض له.

أما الجيش الصليبي المهاجم فقد كان كثير العدد يسانده أسطول بحري ضخم للجنوية والبنادقة فأحاط الغزاة بصور من كل الجهات. بدأ الحصار في ٦ شباط سنة ١١٢٤ وتتابعت الهجمات على أسوار المدينة مدة طويلة أدرك معها قادة الغزاة أن الاستيلاء على صور سيكلفهم الكثير من الجهد والتضحيات فبدأوا بالتفاوض مع الصوريين للاستسلام بشروط منصفة. وانتهت المفاوضات إلى «عقد موادعة بينهما تنص على أن تستسلم المدينة إلى الصليبيين على أن يسمح أن يغادرها من أهلها من شاء مغادرتها من تلقاء أنفسهم من غير إكراه لهم في ذلك الخروج ولا تعنت. وأن يكونوا سالمين في أنفسهم ونسائهم وأبنائهم وكل متاعهم. أما الذين يؤثرون البقاء في صور فلهم ما أرادوا وتعود إليهم دورهم وممتلكاتهم»[2]. وقد تمت سيطرة الصليبيين على صور يوم ٢٩ حزيران سنة ١١٢٤[3].

في المصادر الإسلامية لم يظهر ذلك الاهتمام الجدي بالحادثة وكأن مدينة صور العظيمة لا قيمة لها، أو أنها تتساوى مع أي مدينة سقطت نتيجة غزوة بسيطة. فيذكر أن: «أخذهم إياها بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم وأعانهم طغتكين

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣١.
(٢) وليم الصوري ج ٣ ص ٤٠ ١٣ : ١٣
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٣.

صاحب دمشق ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج فاستقر الأمر على أن الفرنج تستولي عليها بالأمان فخرج أهلها بما خف حمله وتفرقوا في البلاد. وكان تملكهم لها في يوم الاثنين ثالث عشري جمادى الآخرة سنة ٥١٨.»[١]. وهذا التاريخ يوافق يوم الإثنين ٢٨ تموز ١١٢٤ أي بفارق شهر كامل عن ما قاله وليم الصوري.

وهكذا تحولت إحدى أهم المناطق الشيعية في لبنان إلى حكم الصليبيين مع بقاء السكان فيها. وكانت مناطق جبل عامل المشرفة على صور قد أخذت بالخضوع للصليبيين ابتداءً من تأسيس قلعة تبنين (حوالي سنة ١١٠٥) حيث انتقل «كل الأقليم الجبلي القريب من صور والممتد تقريباً إلى لبنان (الجبل) بكل حصونه ومزارعه في هدوء إلى يد رجل شريف بالغ السطوة اتخذ الجبال له مقاماً واصطفاها سكناً ذلك هو همفري (دي سانت أومير) صاحب تورون»[٢].

مناطق الفصل والاستقلال الذاتي:

بعد سيطرة الصليبيين على الشاطىء اللبناني من النهر الكبير إلى رأس الناقورة (حسب الخريطة الحالية للبنان) بدأت مرحلة جديدة من المواجهة مع سكان البلاد وما حولها. فالحرب التي ابتدأت سنة ١٠٩٩ لم تهدأ ولم ينعم الغزاة بالطمأنينة بل كانت الهجمات تتوالى عليهم من كل الجهات. لكن ما كان يؤخر القضاء على الوجود الصليبي في المنطقة هو عدم وجود قوة واحدة قادرة على إدارة الصراع وتوجيهه نحو الحسم الجدي. لقد حاولت القوى الإسلامية سنة ١١١٣ بقيادة مودود أحد قادة السلاجقة إنهاء الأزمة وكاد مودود ومن معه أن يقضوا على الدولة اللاتينية لكن اغتيال مودود على أيدي الحشاشين (وهم جماعة متطرفة) جعل الجيوش الإسلامية المحتشدة في دمشق وما حولها تسارع إلى التراجع كل أمير إلى إمارته. كما حاول القائد التركماني بلك الاستيلاء على انطاكية فقتل أيضاً وفشل مشروعه. في نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة الفاطمية تواصل هجماتها بشكل دائم على حدود المملكة اللاتينية في الجنوب. ولم يكن ليمر

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ١٠٧ أحداث سنة ٥١٨.

(٢) وليم الصوري، ج ٣ ص ٤١.

عام دون أن تنشب فيه معركة بين الطرفين. وهكذا حصل توازن في القوى بين المسلمين والصليبيين مما أوجد مناطق عازلة بين الطرفين لم يسعَ أي منهما للتدخل فيها.

كان حكام الأقاليم الصغيرة في سوريا (ولبنان) يعرفون ب «المقدمين» وكذلك عرف بهذا اللقب متسلمو القرى. ومن أبرز المقدمين الذين ذاع صيتهم أيام الصليبيين المقدم الضحاك بن جندل التيمي والذي ورث المقدمية عن أخيه برق بن بحدل (جندل) مقدم وادي التيم الذي قتل صبراً على يد حاكم قلعة بانياس الباطني. فقام أخوه الضحاك وأسرته بالمطالبة بدمه وتوجه الضحاك إلى مصر طالباً الدعم من خليفتها فحصل على ما يريد وعاد إلى وادي التيم حيث تحرك مع قبيلته وأتباعه إلى شقيف تيرون في أعالي جبل نيحا وسيطر عليه. وشقيف تيرون قلعة حصينة جداً في موقع شديد الوعورة، فاتخذه الضحاك مقراً له وبسط نفوذه منه على النواحي القريبة. لكن حكم الضحاك لشقيف تيرون لم يدم بسلام طويلاً إذ أن حاكم دمشق شمس الملوك اسماعيل ابن بوري هاجمه سنة ٥٢٨/ ١١٣٤ وانتزع القلعة منه[1].

في نفس الفترة كان المقدمون الشيعة من آل العود يبسطون نفوذهم على جزين وما حولها أي في الناحية الجنوبية لشقيف تيرون. ولم تتمكن القوى الصليبية من الدخول إلى جزين وما حولها، وكذلك لم تخضع هذه المنطقة لحكم ملوك وأمراء دمشق. فكانت منطقة جزين تتمتع بحكم ذاتي يسيطر فيه علماء الدين من آل العود. وآل العود إحدى العائلات الكبرى التي استقرت في جزين وجوارها وبسطوا نفوذهم على مناطق التواجد الشيعي في كسروان والجرد إضافة إلى جزين. وكان منها عدد من كبار علماء الدين الشيعة ومن أوائل الذين اتصلوا بالحوزة الدينية في النجف وأخذوا منها. وقد حاول الصليبيون أثناء الحملة الخامسة (١٢١٩-١٢٢١) التقدم باتجاه جزين للسيطرة عليها. لكن الشيعة فيها قاوموا هذه الحملة بقوة وتمكنوا من القضاء على معظم المهاجمين. يقول ابن ابي شامة حول ذلك في أحداث سنة ٦١٤/ ١٢١٧:»... ولما انفصل الفرنج عن (قلعة) الطور (قرب عكا) قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا وقال: لا بد لي من أهل هذا

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٦٥٦.

الجبل. فنهاه صاحب صيدا وقال: هؤلاء رماة وبلدهم وعر فلم يقبل وصعد في خمسماية من ابطال الفرنج إلى جزين ضيعة الميارنة (الميادنة) قريباً من مشغرا. فأخلاها أهلها وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا ، فتحدّرت عليهم الميادنة من الجبال فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم وأسروا ابن اخت الهنكر. فهرب من بقي منهم نحو صيدا وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين قد أسروه فقال لهم: أنا أعرف إلى صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليه. فقالوا إن فعلت أغنيناك. فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون ففهموا أن الجاموس غرّهم فقتلوه ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسماية وجاؤوا إلى دمشق بالأسارى وكان يوماً عظيماً»[(١)]. والميادنة هو لقب كان يطلق على شيعة جزين في تلك الحقبة.

٣- العلاقة بين الصليبيين وأهالي البلاد

أصبح واضحاً أن سيطرة الصليبيين على أماكن يتواجد فيها فلاحون مسلمون كانت محدودة، ففي الشمال لم يتعد التواجد الصليبي منطقة الساحل الطرابلسي ولم يتبق من السكان الشيعة في تلك الناحية إلا القليل الذين بدأوا يتناقصون مع الوقت حتى تلاشى وجودهم بعد حوالي القرن من بدء الغزو. أما في الجنوب (جبل عامل) فقد حافظ الأهالي على وجود مستمر وكثيف بسبب إتفاقيات الصلح، أو بسبب انتقال هذه المناطق إلى حكم الصليبيين سلماً مما أتاح وجود طريقة معينة للتعامل مع الواقع المستجد.

اعتبر وجود الفلاحين العرب المسلمين في القرى التي خضعت للصليبيين في هذه المناطق (خاصة جبل عامل أي في مناطق صيدا وصور وعكا وتبنين) مهماً وضرورة اقتصادية من أجل تغذية خزينة النبلاء الفرنج من عائدات الضرائب المفروضة عليهم[(٢)]. كان مجموع ما فرض على السكان المحليين من ضرائب يبدو مريحاً مقارنة مع ما كان مفروضاً على المسلمين في المناطق التي كان يحكمها أمراء مسلمون في بلاد الشام. لقد عبر الرحالة ابن جبير أثناء مروره في المنطقة سنة ١١٨٤ عن هذه الأمور بشيء من الأسى،

(١) ابن أبي شامة الدمشقي، الذيل على اخبار الروضتين، ص ١٥٧.
(٢) R.C.Smail, 1097 Crusading warfare - 54 PP ,1193.

فقد كان المسلمون الذين يعيشون في ظل حكم الصليبيين يدفعون «نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم (للصليبيين) على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل. وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله...»[١].

لقد افترض بعض المؤرخين أن شهادة ابن جبير قد لا تعبر عن حقيقة الأوضاع إلا في فترة زمنية محدودة، ولكن بقليل من التقصي يمكن اكتشاف أن ما قاله ابن جبير فيه الكثير من المصداقية، لقد مر ابن جبير في المنطقة في فترة حكم صلاح الدين الأيوبي لمصر والشام كسلطان أوحد لا منازع له، وهي فترة مميزة نظراً لما اتصف به صلاح الدين على ألسنة المؤرخين المسلمين الذين عاشوا في أيامه، من عدل ورحمة ورفق بالأهلين، وكانت أحوال الرعية في المناطق التي يحكمها كما وصف ابن جبير، فكيف كان من الممكن وصف الأوضاع في الفترة التي سبقت وصول صلاح الدين إلى دمشق أي في أيام نور الدين زنكي، أو تلك التي سبقت زنكي؟ وماذا يمكن القول عن الفترة التي أعقبت موت صلاح الدين والتي بدأ التناحر فيها بين ورثته؟ إن حقيقة الأمور تثبت أن الأهالي وغالبيتهم العظمى من المسلمين الشيعة، الذين كانوا يعيشون في ظل حكام مسلمين كانوا يتعرضون لظلم وعسف غير مبرر، فيما أثبت الفرنج أن سياستهم في المناطق التي حكموها كانت أكثر عدلاً ورحمة، إلا في مناطق محددة وفي أزمنة متفاوتة. وهذا ما كان من الممكن حقاً أن يثير فتنة بين المسلمين. والشواهد على ذلك كثيرة جداً. ويبقى الولاء للدين والتعصب للعقيدة أقوى من التفكير بمقدار الضريبة المدفوعة أو بمستوى عدل الحكام الغرباء.

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٥.

كان عدد السكان المسلمين في المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون في لبنان أكبر بكثير من عدد اللاتين أو الفرنج أو الغرباء[١]. وكان هناك تواجد محدود لمسيحيين بلديين يعيشون في القرى جنباً إلى جنب مع المسلمين الشيعة. وفي بعض المصادر التي رأت عياناً الأحداث التي وقعت سنة ١١٨٧ يذكر أن «... معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين مساكين لمساكنة الفرنج، مستسلمين فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة»[٢].

كما وصف ابن جبير وجود القرى في جبل عامل (جنوب لبنان) أثناء مروره فيه فقال: «ورحلنا عن تبنين دمرها اللّه سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون...»[٣].

كان الأمراء الصليبيون في معظم مناطق الشام المحتلة بما فيها لبنان، قد فرضوا على المسلمين عدم حمل السلاح في المدن إلا بشروط صعبة، وفي إحدى الحالات جردوا المسلمين البلديين من كل آلة حادة ووضعوهم فيما يشبه الاعتقال الجماعي عندما تعرضت مدينة انطاكية الصليبية لخطر الهجوم عليها من قبل المسلمين بقيادة إيلغازي سنة ١١١٩[٤]. وكان الصليبيون قد حاولوا بشكل مستمر أن يُسْكِنوا في الأماكن التي سيطروا عليها جاليات صليبية وأن يطبقوا النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في أوروبا عند مجيئهم إلى الشرق، لكن عدد المستوطنين الصليبيين ظل قليلاً جداً خصوصاً في الأرياف قياساً إلى كثرة السكان المحليين، بينما كان عدد الأوروبيين (على الأخص بنادقة وفرنسيين) يتزايد في المدن خصوصاً في القدس وصور وصيدا وطرابلس.

لقد شجع القادة الصليبيون وقد أصبحوا أصحاب إقطاعات، إختلاط العناصر المختلفة في المملكة اللاتينية وهذه العناصر بشكل عام كانت متعددة القوميات والأعراق والمذاهب، فكان هناك تواجد عربي كبير مع وجود أرمن وأتراك وسريان كما كان يعيش

(١) Crusading warfare 1097-1193. Pp54

(٢) العماد الأصفهاني، الفتح القسي ص ٦٢.

(٣) ابن جبير ، الرحلة ص ٢٧٤.

(٤) 1097 Crusading warfare 57 PP .1193

جنباً إلى جنب مع هؤلاء مسيحيون ملكيون وآخرون يتبعون الكنيسة الكاثوليكية. في نفس الوقت كان معظم السكان المسلمين في البلاد شيعة خصوصاً في مناطق جبل عامل وجبل لبنان وساحل سوريا الشمالي حول مدينة انطاكية وفي منطقة جبال النصيرية، أو جبال النزارية كما كانت تعرف في العهد الصليبي، (وهو اسم قديم كان يطلقه الرومان على منطقة شمال غرب سورية خصوصاً قرب أفامية[١]. ولا علاقة لهذا الإسم بشخص اسمه محمد بن نصير. فيما كان هناك تواجد سني واضح في مناطق فلسطين المختلفة من عكا شمالاً وحتى عسقلان وغزة جنوباً. هذا الكم الكبير من الجماعات المختلفة كانت تلتقي تحت سلطة الملك اللاتيني في أورشليم أو سلطة ممثليه من رجال الإقطاعات في المناطق والنواحي، وكان لا بد من حدوث تمازج بين هذه الجماعات حتى افترض بعض المستشرقين أنه كانت هناك أمة جديدة على طريق التكون دعاها الأمة الفرنكو- سورية (Une nation franco-syrienne)[٢]. وهذا الإفتراض فيه كثير من المبالغة، لأن استكانة السكان للوجود الصليبي لم يكن يعني انغماسهم فيه، وإنما كانت تلك الاستكانة مرتبطة بأوضاع عامة. وكان يمكن تقييم الأمور بنظرة أخرى لو أخذ صاحب هذه النظرية المشكلات المذهبية التي عصفت بالمسلمين بعد إلغاء الخلافة الفاطمية في مصر، وبدء الفتن المذهبية في بلاد الشام بكاملها.

لقد كان التعدد المذهبي الإسلامي قائماً ومستمراً زمناً طويلاً في بلاد الشام ومصر، ربما منذ بدء انتشار الإسلام في الأمصار، وكان هناك ولا شك اختلافات بين أصحاب المذاهب وخلافات، لكن الخلافات المذهبية في أسوأ الإحتمالات لم تكن تؤدي إلا إلى تشابك محدود بين جماعات من هنا وهناك، ولم يحدث إلا نادراً أن استعملت السلطة الحاكمة السيف ضد أتباع مذهب معين. لكن الأمور تبدلت عندما دخل صلاح الدين الأيوبي إلى مصر واستولى عليها. ثم أقدم ببادرة منه على إلغاء الخلافة الفاطمية الشيعية السبعية وأمر بالدعاء على منابر القاهرة والمدن المصرية للخليفة العباسي. كان ذلك يبدو ممكناً ولا يثير مشكلات ملحة، خاصة وأن البلاد الإسلامية الأخرى في الشرق (الشام

(١) PLINIUS. Natural history. XIX.81

(٢) 1097 Crusading warfare- PP56 .1193

والعراق والحجاز...) كانت الدعوة فيها للخليفة العباسي دون أن يمس ذلك الوجود المذهبي الشيعي. لكن صلاح الدين أمعن في إثارة أمور خطيرة كانت عواقبها وخيمة جداً على الأمة، فقد فرض مثلاً أن تكون المنابر في الأزهر، وهو مسجد بناه الفاطميون الشيعة، حكراً على أئمة المذاهب السنية الأربعة، وأمر بإلغاء الآذان بحي على خير العمل، ثم أمر بالاقتصاص من عدد كبير من زعماء الشيعة في مصر، فكان بأعماله هذه كمن يلغي بالقوة المذهب الشيعي. وسرعان ما وجدت حركة صلاح الدين المذهبية تجاوباً في مدن الشام التي كان حكامها أيضاً غير شيعة مثل دمشق وحلب، رغم أن أكثرية السكان في هذه المدن كانوا من الشيعة. وتشكلت جماعات مسلحة، شبيهة بالميليشيات، بتشجيع الحكام أخذت على عاتقها ضرب الشيعة بقوة فيما يشبه حرباً أهلية مذهبية غير معلنة. وقد وصف ابن جبير ما كان يجري في تلك الفترة بالذات بقوله: «وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين وقد عمروا البلاد بمذاهبهم... وسلط اللّه على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنّبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم...»[1].

لقد تركت الفتنة التي أوقدها صلاح الدين الأيوبي ناراً شب ضرامها دهراً طويلاً، وامتدت الفتنة جيلاً إثر جيل. في البداية كان الشيعة في لبنان لا يزالون في حالة ترقب وانتظار لمن يحررهم من الاحتلال الصليبي، لكنهم مع الزمن، وما كانوا يسمعونه عن إخوانهم في الأقطار المجاورة جعلهم يشعرون بيأس قاتل، فمهما كانت نتائج أي حرب بين المسلمين والفرنج، فإنها ستكون وبالاً عليهم. ووجدوا أخيراً أن بقاءهم تحت الحكم الصليبي سيكون أكثر أماناً من وقوعهم تحت رحمة السيف الأيوبي الذي كان بعض رجاله يتقربون إلى اللّه بقتل الشيعة ويجدون في قتلهم صورة من صور الجهاد.

هذه الصورة قد توضح لماذا لم يحرك المسلمون الشيعة الذين خضعوا للصليبيين في بعض مناطق الشام ساكناً. إن الإفتراض بأن السكان البلديين لم يجدوا كثير اختلاف بين

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٢.

وجود حاكم مسلم (عادة غير عربي) ووجود حاكم صليبي وهو بالضرورة غير عربي، كما اعتقد بعض المستشرقين[1]. هو اعتقاد فيه الكثير من الحقيقة. فالعرب البلديون لم يكونوا يكنون تلك المودة للحاكم الأجنبي في الحالتين، ولم يجدوا بداً من الخضوع في الحالتين بنفس المستوى ما دام المتسلط أجنبياً لا يفهم لغتهم، ولا يعتقد عقيدتهم، وما داموا ملزمين في الحالتين أن يدفعوا جزءاً وافراً من انتاجهم للحاكم.

لقد عرفت البلاد التي حكمها الصليبيون حالة من الاسترخاء أدت بمرور السنين إلى تقارب كبير بين الحكام الصليبيين والسكان البلديين، مما مهد لتجنيد عدد من هؤلاء ضمن الجيوش الصليبية، ربما بعد مرور زمن غير قصير من الإحتلال، فقد أنشىء فيلق خاص بالبلديين عرف باسم الفيلق التركي (Turkoble) اعتبر واحداً من مجموع القوى الأساسية المكلفة بالدفاع عن المملكة اللاتينية[2]. وقد شارك هذا الفيلق في كثير من المعارك ضد المسلمين دون أن يهتم رجاله لأصلهم أو لانتمائهم الديني. ويمكن استكشاف دور هذا الفيلق في معركة بانياس التي وقعت بين الصليبيين ونور الدين زنكي والتي وصفها ابن القلانسي بقوله: «إن جيش نور الدين أوقع بالصليبيين هزيمة كبيرة أمام بانياس ومحقت السيوف عامة رَجّالتهم من الإفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم»[3]. وربما تكون صورة فيلق التوركوبل أرقى ما وصل إليه التمازج بين العناصر البلدية والعناصر الصليبية في تلك الحقبة. أما اطلاق اسم الفيلق التركي فمرده إلى تسمية كل الجنود المحاربين في الجهة الإسلامية ب»تُرْك». فيما كان المدنيون يسمون (Saracenes) أي الشرقيين.

يمكن أن تضاف ملاحظة للعلاقة بين الصليبيين والبلديين وهي أنه في أثناء الحرب المتطاولة بين الطرفين خصوصاً فترة حروب صلاح الدين الأيوبي اعتاد الطرفان على الإلتقاء ليس فقط في ساحات الحرب، بل في لقاءات مسالمة. فقد ذكر ابن شداد وهو شاهد عيان على الأحداث، صورة ما كان يجري بين الطرفين بعد معارك متعددة فقال:

---

(١) Crusading warfare 1097-1193 PP.309 نقلاً عن Cahen , loc.cit

(٢) E.REY. PP 110

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٩.

«... فطال الأمر بين الفئتين، وما يخلو يوم عن جرح وقتل وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث كانت الطائفتان تتحدثان وتتركان القتال، وربما غنّى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة»[١].

الحكم الايوبي: كانت الحرب بين المسلمين والصليبيين مستمرة بشكل متقطع، ولم تعرف المنطقة هدوءاً مستمراً إلا لآجال قصيرة. لكن قدرة المسلمين على استرداد ما استولى عليه الصليبيون لم يظهر فعلياً إلا بعد سنة ١١٣٤ أي بعد عشر سنوات فقط من سقوط صور، عندما تمكن شمس الملوك اسماعيل ملك دمشق التركي من السيطرة على قلعة شقيف تيرون في أعالي جبل نيحا في جبل لبنان المتصل بجبل الشوف[٢].

كانت قلعة شقيف تيرون موقعاً عسكرياً مهماً في حينه لأنها كانت مركز إدارة إمارة عربية صغيرة هي إمارة الضحاك بن بحدل (أو جندل) البقاعي، الذي ينتسب إلى قبيلة ربيعة إما بالانتساب إلى بني تغلب بن وائل الربعي أو، وهذا الأرجح، إلى بني تيم بن ثعلبة الربعي التي تعرف وادي التيم بهذا الإسم نسبة إليه. بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تمكن عماد الدين زنكي حاكم الموصل من استرداد مدينة الرها. ومنذ ذلك الوقت والمسلمون يتقدمون، ولكن ببطء شديد، نحو استرداد كل المناطق المحتلة. ففي سنة ٥٤٦/ ١١٤٩ تمكن نور الدين زنكي من استرداد حصن أفاميا قرب حماة من الصليبيين وفي سنة ٥٦١/ ١١٦٦ تمكن نور الدين زنكي الذي صار ملك دمشق والموصل وحلب من الاستيلاء على حصن المنيطرة[٣]. فأصبحت المناطق المشرفة على بيروت وجبيل تحت تهديد جيوشه.

وكان نور الدين قد تمكن أيضاً من استرداد بانياس وقلعتها، فأصبحت جيوشه تهدد مناطق أغوار الحولة وطبرية مباشرة، خصوصاً بعد تحوّل منطقة حاصبيا ومرجعيون إلى تجمع للقبائل والأسر العربية من عشائر ربيعة مثل تيم وحمدان إضافة إلى بعض بيوت

(١) ابن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص ١٥٦.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٦٥٦.
(٣) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر ص ٢٧٣

عربية كالشهابيين الذين ادعوا الانتماء إلى بني مخزوم. وبعد وفاة نور الدين زنكي بقليل وصل السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق حيث تمكن من توحيد الحكم في مصر والشام (دمشق وحلب والموصل) في مواجهة الصليبيين.

كانت المواجهات متلاحقة والمعارك بين المسلمين والصليبيين تتم بين فترة وأخرى. أولى المواجهات الهامة كانت سنة ٥٧٥/ ١١٧٩ في وقعة مرجعيون، كان السلطان صلاح الدين قد حشد جيشه على مقربة من تل القاضي القريب من بانياس حيث قصده الصليبيون فالتقى بهم قرب مرجعيون وهزمهم[1]. ويعتقد أن المكان الذي تجمع فيه جيش السلطان هو الموقع الذي أنشأت فيه قرية «الخيام» اللبنانية، بداية كسوق غير ثابت لتموين الجيش، ثم استقر في الموقع عدد من العائلات العاملية الشيعية حيث سميت القرية باسم (الخيام) نظراً لأن بيوتها الأولى كانت من الخيام فقط قبل أن تتحول إلى بيوت حجرية ثابتة. كانت الجيوش الإسلامية تتجمع باستمرار في الخيام باعتبارها منطقة استراتيجية هامة للتحرك نحو الغرب (أرنون) أو نحو الجنوب الغربي (هونين وتبنين) أو نحو الجنوب (طبرية) وقد احتشدت الجيوش الإسلامية في تلك النقطة بضع مرات بين أعوام ١١٧٩ و١١٩٢ مما ساعد على تثبيت الموقع كقرية دائمة.

وقعت المعركة الفاصلة في حطين (يوم السبت ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٨٣/ ٤ حزيران ١١٨٧) حيث تمكنت جيوش المسلمين من إنزال هزيمة ماحقة بالصليبيين ومن أسر عدد كبير من جنودهم وقادتهم وأمرائهم بمن فيهم ملك القدس. بعد هذه المعركة راحت المناطق الخاضعة للصليبيين تسقط الواحدة تلو الأخرى.

كانت قلعة تبنين أحد الأهداف الأساسية للسلطان صلاح الدين من أجل استكمال تحرير المنطقة، فبعد أن «حرر عكا وقرر قواعدها، سار السلطان يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى ٥٨٤/ ٨ تموز ١١٨٨ وهي قلعة حصينة منيعة فنصب عليها المناجيق وضيق عليها بالزحف والخناق وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ونصره الله عليهم وتسلمها يوم الأحد في الثامن عشر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٢.

من الشهر المذكور عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل. ثم رحل منها إلى مدينة صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وهو يوم الإربعاء العشرين من جمادى المذكور...»[(١)].

هناك نص مثير نقله العماد الأصفهاني حول استسلام حامية تبنين وما جرى بعده يلقي بعض الضوء على الحالة التي كانت تنتظر أهل جبل عامل بعد دخول جيوش المسلمين إلى بلادهم، يقول العماد الأصفهاني: «ولما خلوا القلعة وأخلوا البقعة سيّر الفرنجة وسيّر معهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدوري، فأرشد به ذلك الصقع الغوي فإن أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر، وأهلها وإن كانوا مسلمين، كانوا أعواناً لأهل الكفر، فوصى سنقر بتأنيس النافر وتعكيس الكافر وتأليف الجافل وتعريف الجاهل. وقال له: تبني بتبنين ما هدم بالمنجنيق وتجد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق، وكان حصار تبنين يوم الأحد ١١ جمادى الأول (سنة ٥٨٣/ ١١٨٧) وتسليمها يوم الأحد ١٨ منه[(٢)].

وبعد أن تمكن السلطان من تبنين ومنطقتها قرر محاصرة صور فتوجه إليها واستدعى أخاه العادل من القدس ليكون مدداً له كما سير من حاصر هونين فسلمت بأمان في ٢٣ شوال سنة ٥٨٣/ ٢٥ كانون الأول ١١٨٧[(٣)]. ثم جدد السلطان عزمه على قصد شقيف أرنون، فسار إليه حتى وصل إلى مرج عيون فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب وكان وصوله بمرج عيون في ١٧ ربيع الأول سنة ٥٨٥/ ٥ أيار ١١٨٩. وبعد أن اكتملت استعدادت السلطان جاء صاحب القلعة وهو ارناط صاحب صيدا، وعرض عليه الصلح وتسليم القلعة ولكن بعد أجل محدد بقصد المماطلة وتسويف الوقت وانتظاراً لوصول نجدات صليبية. وبعد طول انتظار اكتشف السلطان خداع صاحب أرنون فاعتقله وأرسله أولاً إلى بانياس ثم إلى دمشق، ثم استسلمت حامية القلعة مقابل ترك رجالها يذهبون إلى صور بأمان.

(١) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ٨٠

(٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص ٥٨-٥٩.

(٣) المصدر السابق ص ٨٣.

وبسقوط قلعة شقيف أرنون بأيدي المسلمين أصبحت كل منطقة جبل عامل (جنوب لبنان) بأيديهم ما عدا صور التي شكلت لاحقاً رأس حربة لهجوم صليبي متجدد خاصة بعد أن تلقت إمدادات ضخمة ونجدات كبيرة من البحر.

كانت الحرب مستمرة طيلة السنوات الخمس التالية، لكن محاورها كانت خارج لبنان، لقد أخذت الحرب أبعادها الميدانية في عكا وحولها ثم على طريق الساحل إلى يافا ومنها صعداً إلى بيت المقدس. وسجل الصليبيون فيها انتصارات محدودة لم تغير كثيراً في الأوضاع التي ترتبت على انتصار حطين.

بقاء صور بأيدي الصليبيين أثبت أن انتصار صلاح الدين كان ناقصاً، وأسس لفترة طويلة من الاضطراب والحروب المتلاحقة شملت بلاد الشام ومصر طيلة القرن التالي. في هذه الفترة المضطربة ظلت القلاع العاملية الثلاث أي تبنين وهونين وشقيف أرنون، بشكل مستمر بأيدي الأيوبيين حتى سنة ١٢٥٤ حيث جرى صلح بين ملك دمشق الناصر الأيوبي والصليبيين تخلى بموجبه الناصر للصليبيين عن كل الأراضي الواقعة غرب أرض الخيط وهو تعبير عن مجرى نهر الحاصباني-الأردن، وقد استثني من ذلك مرجعيون التي ظلت بأيدي الأيوبيين بشكل مستمر، وكانت مطالبة الصليبيين بها في أيام الظاهر بيبرس سبباً من أسباب سقوط صفد بيده. فانتقل حكم القلاع الثلاث (تبنين وهونين وشقيف أرنون) إلى الصليبيين مدة تسع سنوات حتى استطاع المسلمون (المماليك) من استرداد المنطقة.

لقد اعتاد المؤرخون العرب امتداح ما أنجزه صلاح الدين الأيوبي، واعتبروه البطل الكبير الذي استعاد مدينة القدس من أيدي الفرنجة، كما أطنبوا في وصف شهامته وزهده وتقواه وما إلى ذلك من صفات، وهم بشكل عام محقون في ذلك، فصلاح الدين قائد تاريخي قل أن يجود الزمان بمثله. لكن ما وقع فيه صلاح الدين من أخطاء قد ترك آثاره السيئة على المنطقة لأجيال طويلة. فبالإضافة إلى فتحه باب الصراع اللامتناهي بين الشيعة والسنة على مصراعيه ابتداءً في مصر ثم امتداداً إلى بلاد الشام، كذلك وقع في مشكلتين خطيرتين ترتب عنهما مشكلات كبيرة وخطيرة في مستقبل الأيام التي أعقبت موته، فقد ابتدع السلطان طريقة الإرث الملكي للسلطنة حيث اعتبر أن ما حكمه من بلاد بمثابة ملك شخصي له يسري عليه قانون شبيه بقانون الإرث الشرعي، وقسم صلاح

الدين بالتالي، قبيل وفاته، المملكة بين إخوته وأبنائه وأبناء إخوته، مما فتح المجال واسعاً بعده للصراع الدموي على السلطة بين هؤلاء، ثم تكرر فيما بعد ذلك النمط من تقسيم الممالك والإمارات بين أحفاده وأحفاد أخوته، فكان موت أي أمير أيوبي معناه تقاسم إمارته أو مملكته بين الورثة، واشتعال الحروب والمنازعات، وأدت على المدى البعيد إلى إقامة تحالفات بين الأمراء المختلفين بما في ذلك بعض التحالفات غير الطبيعية بين أمراء أيوبيين وآخرين صليبيين ضد أمراء أيوبيين آخرين. كما أدت الصراعات المستمرة وإضعاف كل منطقة للمنطقة التي تجاورها إلى إقدام الملك الأيوبي الكامل ملك مصر بعد أبيه الملك العادل شقيق صلاح الدين، إلى إعادة القدس سلماً للأمبراطور الصليبي فريديريك الثاني سنة ٦٢٦/ ١٢٢٩[١].

وهناك خطأ آخر وقع فيه صلاح الدين والأمراء الايوبيين المتعاقبين ثم امتداداً إلى المماليك، وهو الإقدام على هدم القلاع والحصون والأبراج التي كانوا يأخذونها سلماً أو حرباً من العدو، مما جعل البلاد مكشوفة أمام أي هجوم معادٍ. كانت حجة الأيوبيين في ذلك هو الخوف من عودة الصليبيين إلى تلك القلاع أو الحصون واستعمالها ضد المسلمين. وقد بلغ هذا الأمر أشده حين أمر الملك الايوبي المعظم ملك دمشق سنة ٦١٦/ ١٢١٩ بتدمير السور الذي يحمي مدينة القدس مما أدى إلى هجرة معظم أهلها عنها خوفاً من هجوم الصليبيين وإيقاعهم بأهل البلد من المسلمين[٢].

لقد كتب المؤرخون العرب الذين عايشوا الحقبة الأيوبية بكثير من السخط عن الفواحش العديدة التي كان يجترأ عليها ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين الذين تشبه حياتهم الخاصة وما فيها، حكايات ألف ليلة وليلة التي يمكن أن تكون قد نسجت بعض حكاياتها في هذه الحقبة، فكثير من المحرمات أصبحت في أيامهم مباحة، والدخول في الفتن الداخلية الكثيرة وفرض الرسوم والضرائب غير المبررة وإكثارهم من العبيد والمماليك، كل ذلك أصبح شيئاً مشتركاً لهذه الفترة. وهي الفترة التي مهدت الطريق لحكم المماليك البلادَ واستيلائهم على مقاليد الأمة ودفعها إلى الوراء بشدة ليشكل

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٤٨١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٨٣.

عصرهم (أي عصر المماليك) بداية عصر الإنحطاط الذي يوافق تقريباً نفس فترة دخول المغول إلى بغداد. مما حمل المؤرخين على ربط الإنحطاط بالمغول وإهمال دور الأيوبيين والمماليك الواضح فيه.

لقد حكم الأيوبيون المناطق اللبنانية التي سيطروا عليها من القلاع الكبرى التي استولوا عليها وانتزعوها من الغزاة من الصليبيين وحافظوا عليها كمراكز لتجميع قواهم العسكرية. فكانت الهجمات الصليبية التالية تستهدف هذه القلاع لأن من يستولي عليها يستولي على البلاد. فقد هوجمت قلعة تبنين في أول صفر سنة ٥٩٤/ ١٣ كانون الأول ١١٩٧، وكان حاكمها في ذلك الوقت الأمير عزالدين أسامة حيث تصدت للهجوم حامية القلعة بقوة، وأرسلت تطلب المدد، فتأخرت النجدات وقتاً في طريقها، وكانت من العساكر المصرية بقيادة العزيز عثمان ابن صلاح الدين. ولما رأى رجال حامية القلعة أنه لا طاقة لهم بالصمود أكثر قرروا الاستسلام، ونزل بعضهم إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة، وأثناء المفاوضات قال الترجمان وهو أحد المسيحيين البلديين، للمفاوضين المسلمين من رجال الحامية بأن تسليم الحصن لن يعفيهم من القتل، وقد قال ذلك باللغة العربية دون أن يفهم قائد المهاجمين ذلك وهو من الإلمان، ونصحهم بالدفاع عن القلعة حتى الموت. فعاد المفاوضون وكأنهم يردون الجواب على من بالقلعة فلما وصلوا إليها، غلّقوا أبوابها واستمروا في الدفاع عنها حتى وصول نجدات المسلمين[١].

كما تعرضت قلعة تبنين لهجوم قوي آخر وكادت أن تسقط سنة ١٢٢٩ أثناء حملة الأمبراطور فريدريك الثاني. فكانت القلاع الموجودة في المنطقة والتي سلمت من التخريب والهدم حتى ذلك الحين سبباً من أسباب رد العدو.

يجب التذكير هنا باسم القائد التركي حسام الدين بشارة الذي تعلق به بعض كتّاب ومؤرخي جبل عامل ونسجوا حوله حكاية خرافية لا حقيقة لها حتى نسبوا له اسم البلاد (بلاد بشارة) التي لم تعرف بهذا الإسم إلا بعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ. لقد تكرر

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٩ ص ٢٧٣.

ذكر هذا القائد التركي ثلاث مرات فقط في سيرة صلاح الدين الأيوبي التي كتبها بهاء الدين ابن شداد دون تفاصيل خاصة عنه. فقد ذكره مرة بعد تحرير عكا وتقرير أمرها حيث ترك السلطان فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والإطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة[١]. كما ذكره مرة ثانية بعد معركة جرت قرب صور حيث ذكر بأن رسالة وصلت من حسام الدين بشارة يذكر فيها أنه خرج من صور مائة راكب، وانضم إليهم من عكا مقدار خمسين، طمعوا فخرجوا لشن الغارة على البلاد الإسلامية، فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف، وجرى بينهم قتال شديد قتل من العدو ١٥ نفساً ولم يقتل من المسلمين أحد[٢]. وإطار هذه الرسالة يوحي بأن حسام الدين بشارة المذكور كان قائد العسكر المولج بحفظ البلاد في المنطقة الواقعة بين صور وعكا، وينتمي إلى اليزك السلطاني الذي كان يتحرك قرب عكا، واليزك وحدة عسكرية كانت مولجة بعمليات الاستطلاع. كما ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة بين رجال وفد أرسله العادل الأيوبي إلى شقيقه السلطان صلاح الدين[٣]. ولا يذكر ابن شداد في تاريخه أن حسام الدين بشارة هذا هو القائد الأسطوري العاملي أسد الدين بشارة بن مهلهل العاملي الذي اخترعه وروج له بعض مشايخ جبل عامل بطريقة تشبه سيرة عنترة العبسي أو تغريبة بني هلال، ولُفِّقَ بإسمه تاريخٌ وهميٌ لا يستقيم ولا يثبت مع الوقائع التاريخية المبينة في المصادر الإسلامية والأوروبية التي أرخت لتلك الحقبة. مع العلم بأن اسم حسام الدين مختلف عن إسم أسد الدين. وسيتعلق كثير من مؤرخي جبل عامل باسم حسام الدين بشارة ليبنوا مقولة غريبة وهي أن القسم الجنوبي من جبل عامل، بلاد بشارة، عرفت بهذا الاسم نسبة إلى هذا القائد، وأن أسرة «بشارة» العربية التي حكمت المنطقة المعروفة باسمهم (بلاد بشارة) في القرن الخامس عشر هي من نسل هذا القائد وهو تركي غير عربي. يمكن بيسر وسهولة تفنيد هذه المقولة، خصوصاً أن هذا القائد وسواه من القادة قد جرى تبديلهم بعد توقيع الهدنة مع الصليبيين وانتقلوا إلى أماكن أخرى. كما أن القسم

(١) ابن شداد، سيرة صلاح الدين ص ٩٦.
(٢) المصدر السابق ص ٢١٠.
(٣) المصدر السابق ص ١٩٥.

الجنوبي من جبل عامل سيصبح حسب الهدنة مقسم إلى قسمين قسم جبلي يتبع قلعة تبنين وحاكمها سنقر الدوري مملوك السلطان صلاح الدين، وقسم ساحلي سيظل إلى أجل طويل مع الصليبيين، فكيف يمكن نسبة هذه المنطقة إلى قائد عابر لم يتولَّ أمراً فيها؟

كان الحاكم التالي بعد سنقر الدوري لقلعة تبنين ومنطقتها (وكانت غالباً ما تشمل قلعتي بانياس وهونين) الأمير عز الدين أسامة الذي صمد أمام هجوم الصليبيين الإلمان سنة ٥٩٤/ ١١٩٧ ثم تولى تبنين وهونين وبانياس الأمير فخر الدين جهاركس (شركس) بتكليف من الملك العادل الأيوبي[١]. وهذا القائد كان من المشهود لهم بالقوة والحكمة، وقد كان قبل ذلك في مصر وزيراً للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته (اي عثمان) سنة ٥٩٥/ ١١٩٩ فانتقل الحكم إلى العادل الأيوبي، الذي كلفه بحكم القلاع الأربع: تبنين وهونين وبانياس والشقيف (أرنون). وكان جهاركس (أو شركس) يقيم حيناً في قلعة تبنين وحيناً في هونين أو بانياس ثم انتقل إلى مصر وتوفي فيها سنة ٦٠٨/ ١٢١١ فتولى حكم القلاع الأربع ابنه وكان طفلاً صغيراً، بطلب من الملك العادل. فتولى باسمه الأمير صارم الدين قطلبا بن عبد الله التبنيني[٢]. وعندما توفي ابن فخر الدين شركس في ظروف غامضة سنة ٦١٥/ ١٢١٨ استقل قطلبا بن عبد الله بالقلاع الأربع حتى وفاته سنة ٦٣٥/ ١٢٣٧[٣]. ليتولى مكانه الأمير شرف الدين بن الصارم الذي شارك في الحرب بين أمراء الأيوبيين قرب القدس سنة ٦٣٩/ ١٢٤١[٤].

قبيل هذه الحرب أقدم الملك الصالح اسماعيل الأيوبي صاحب دمشق على تسليم قلعة الشقيف أرنون إلى صاحب صيدا الصليبي رغم الإنكار عليه من بعض رجال الدين في دمشق وقد جرى ذلك سنة ٦٣٨/ ١٢٤٠[٥]. كم أقدم بعد ذلك الناصر الأيوبي الذي حكم دمشق ابتداءاً من سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠ وربما بسبب خوفه من اقتراب المغول (وهو

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات ج ١١ ص ١٥٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن كثير البداية والنهاية ج ١٥ ص ٢٢٢.
(٤) المقريزي، السلوك إلى معرفة دول الملوك، ج ١ ق ٢ ص ٣٠٣.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٥ ص ٢٢٩.

صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب) إلى ابرام اتفاق مع الصليبيين سنة ٦٥٢/ ١٢٥٤ مدته عشر سنوات وستة أشهر وأربعين يوماً، تنازل بموجبه عن كل الأراضي الواقعة غربي نهر الشريعة (القسم الواقع شمال بحيرة طبريا من نهر الأردن) للصليبيين، وقد استثني من هذه المنطقة قرية زرعين في الجليل واستعيض عنها بقرى في منطقة مرجعيون في جبل عامل[١]. وقد ظل هذا الاتفاق سارياً حتى نقضه الصليبييون أيام الظاهر بيبرس فكان نقضه سبباً في استيلاء الظاهر بيبرس على صفد وتحرير المنطقة الجبلية من جبل عامل بكاملها.

في غضون ذلك وقعت قلعة تبنين مدة قصيرة بأيدي الفرسان الالمان سنة ٦٢٦/ ١٢٢٩ بعد أن تنازل عنها الملك الكامل الايوبي كما تنازل عن القدس للأمبراطور فريدريك الثاني. وفي هذا التاريخ بالذات أي سنة ١٢٢٩ قام أصحاب قلعة مارون وناحيتها ببيع القلاع (عددها ثمان) المرتبطة بناحية مارون للفرسان التيوتون. تاريخ تسجيل عقد البيع هو شهر نيسان سنة ١٢٢٩[٢]. وكان هؤلاء الأصحاب يعيشون في منطقة صور وعكا ويعتبرون ما أخذه المسلمون منهم بعد حطين حقاً من حقوقهم ولهم كل الحق في بيعه.

تعرضت قلعة تبنين للتخريب بأمر من الملك المعظم الأيوبي ملك دمشق مع شقيقتها قلعة بانياس، بعد استعادتهما للمرة الثانية، لكن أعيد إعمارهما وتحصينهما بعد مدة قصيرة.

وفي مراجعة للأسماء التي تتردد أثناء الحروب الكثيرة جداً والمتصلة في فترة حكم الأيوبيين سواءاً تلك الحروب الأهلية الدائمة بين الأيوبيين أو المعارك الكثيرة بين هؤلاء وبين الصليبيين، لا يرد اسم يحمل لقب أو صفة بشارة (بعد القائد حسام الدين بشارة أحد قادة اليزك السلطاني سنة ١١٨٧)، مما يثبت وهن تلك المقولة التي نسبت جزءاً من البلاد في جنوب لبنان (بلاد بشارة) إلى شخصية وهمية تدعى «الأمير بشارة». والأسوء في هذه المقولة هو اختلاف الإسم بين حسام الدين بشارة وأسد الدين بشارة، أو أسد الدين بن بشارة الذي ادعى بعض الشعراء انتساب البلاد اليه.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٤١٢.

(٢) STREHLKE, TAB. ORD. THEUT. P 59

أما في مناطق جبل لبنان وشماله فإن الاوضاع اختلفت مع تلك التي سادت في الجنوب. فسكان جبل الشوف أو الأشواف أو منطقة الغرب ظلوا على ولائهم للدولة الإسلامية التي تحكم في دمشق أو القاهرة. وكانت العشائر التنوخية التي تستوطن المنطقة قد أخذت تتحول إلى المذهب التوحيدي الدرزي في عهد الحاكم بأمر اللّه الفاطمي (٣٨٦ـ٤١١ / ٩٩٦ـ١٠٢١) وعهد خلفه. وتحديداً بعد معركة الأقحوانة التي وقعت جنوب بحيرة طبرية في ١٢ آذار سنة ١٠٢٩ بين أتباع أنوشتكين الدزبري (الدرزي) الموالي للفاطميين، والأمير صالح بن مرداس الذي ينتمي إلى أسرة شيعية جعفرية سيطر أمراؤها على حلب ومدوا نفوذهم إلى منبج وبالس والرقة والرحبة، ثم إلى حمص وطرابلس وبعلبك وصيدا (٤١٤ـ٤٧٢/ ١٠٢٤ـ١٠٧٩). وقد انتصر أنوشتكتين في هذه المعركة[1]. مما عزز وجود أتباع المذهب الدرزي في وادي التيم وجبل الأشواف (الغرب) بينما بقيت مناطق جبل عامل وجبال كسروان وجبيل شيعة إماميين. وسيطر أمراء التنوخيين الدروز على منطقة الغرب وقاوموا الوجود الصليبي المجاور لهم. وكانوا يحصلون على منشور بالحكم في المناطق التي يحكمونها من الملوك والأمراء في دمشق أو القاهرة مع التزامهم بحماية الثغور. كذلك المرسوم الذي حصل عليه الأمير جمال الدين حجي بن...التنوخي سنة ٦٥٠/ ١٢٥٢ من الملك الناصر الأيوبي ملك دمشق «بجهات مفرقة عرامون عندرافيل طردلا عين كسور رمطون قدرون مرتغون الصباحية سرحمور عيتات عين عنوب الدوير»[2].

في ذلك الوقت كانت مدن الساحل لا زالت بأيدي الصليبيين (طرابلس وبيروت وصيدا وصور) كما يذكر ذلك مرسوم من السلطان عز الدين أيبك (زوج شجر الدر) لأحد أمراء الغرب حيث يذكر أن «المدن كلها بالساحل كانت بيد الافرنج في حين ذلك الوقت والجبال بيد المسلمين»[3]. وهذا يعزز الاعتقاد بأن بعض المناطق الجبلية قد حافظت على استقلال ذاتي أثناء وجود الصليبيين على السواحل.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٦٨.

(٢) ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ج ١ ص ٣٦٣.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٨.

أما مناطق البقاع البعلبكي فقد كانت خاضعة لملك دمشق، ولا يرد في السير ما يدل على تمتع الشيعة في هذه المنطقة بأي وضع استثنائي. فالعشائر البعلبكية كانت تتحرك بتعليمات وأوامر من الوالي في قلعة بعلبك. وتدل إحدى الحوادث على هذا الواقع حيث يذكر أنه «في سنة (٦٧٧/ ١٢٧٨) أحرق عسكر الشام بلاد الغرب وجبل بيروت وذلك أن العساكر والعشاير من ولاية بعلبك والبقاعين وصيدا وبيروت توجهت إلى الغرب من جهة قطب الدين السعدي وكان قد استقطع قرية كفرعميه عن أمرا الغرب آل تنوخ المذكورين فقتل في تلك القرية وذكروا أن الذي قتله نجم الدين محمد بن حجي العاق لأبيه وكان أبوه وقرايبه في السجن. ولما قتل قطب الدين السعدي أقاموا العساكر في بلد الغرب سبعة أيام في نهب وحرق وهدم وخراب واحتما (احتمى) نجم الدين محمد بن حجي وشرف الدين علي ابن زين الدين ابن علي ومعهم جماعة في كهف شاهق صخر ذاهب في الهوى (الهواء) يقال لهوه (له) شقيف كفرا، عوص منيع جداً فتحصنوا به، فحصروهم العسكر بتلك الشاهقة فانزلوهم منها والله أعلم أن ليس معهم كان زاداً ولا المكان لا يتملك في هذه المدة ولو اجتمع عليه ألوف عديدة وفيه عشرة أنفار ولا يتملك عنوة ولما نزلوا اتعتقلوا عليهم وساروا بهم خلف المنهزمين من الغرب حتى وصلوا إلى بلد الشيخ العلم ويسمى كفرفاقود. جهز الشيخ العلم المواشي تدوس الطريق لتخفي اثر المنهزمين على ممن يتبعهم من العسكر ولم يحدث على البلاد كاينة اعظم منها»[1]. وتظهر هذه الكتابة بلغتها العامية وصفاً حقيقياً للحالة السياسية والعسكرية التي كانت تحكم البلاد اللبنانية خارج المدن التي يحتلها الصليبيون.

وما ينطبق على الشيعة في البقاع البعلبكي ينطبق كذلك على الشيعة في مناطق كسروان وجبيل والشمال حيث كانت العشائر في هذه النواحي تلتزم بتنفيذ اوامر الوالي في بعلبك أو الملوك في دمشق.

النشاط الحضاري للشيعة في الفترة الصليبية - الأيوبية

قد لا يبدو أن للشيعة أي نشاط حضاري مميز في فترة حكم الصليبيين والأيوبيين

(١) ابن سباط، تاريخ ابن سباط ص٤٥٧ - ٤٥٨.

للبنان، وفي هذا الكثير من المصداقية. لقد مر في المقدمة أن الشيعة الإمامية بسبب من نظريات معينة أُنْتِجَت عقب انتهاء الغيبة الصغرى (٣٢٩/ ٩٤١) قد بدأوا يدخلون نظرياً في عصر الانتظار أو عصر الغيبة الكبرى حيث أسست لمفاهيم سيئة عن السلطة، التي ستكون دائماً حسب الفهم الشيعي المستجد، ظالمة قبل ظهور الإمام الحجة. لقد عنى ذلك ابتعاد الشيعة عن الحكم ومراكز القرار في البلاد الإسلامية التي كانوا يشكلون فيها أكثرية سكانية كما هو الحال في البلاد السورية عموماً. وقد كان من نتائج ذلك تسلم رجال غير شيعة لمقاليد الأمور. في البداية لم يظهر أي تبدل حقيقي على الواقع الأثني والطائفي في البلاد، لكن ، بمرور الزمن تحول الشيعة إلى أكثرية مدانة ومتهمة في دينها وبدأت تفقد أكثريتها العددية بالتحول إلى مذهب آخر، إما درءاً للأخطار التي أحاقت بهم، وإما تقية. وكلما كان عددهم ينقص كلما واجهوا صعوبات أكثر في الاستمرار في أماكن تواجدهم. فاضطر كثيرون منهم إلى الهجرة من أماكن خطرة إلى أماكن أكثر أمناً تاركين البلاد الأصلية إلى جماعات جديدة.

كانت بدايات التحول قد جرت بعد وصول صلاح الدين الأيوبي إلى الحكم في مصر حيث بدأ عمله بإلغاء التشيع فيها. ففي سنة ٥٦٥/ ١١٦٩ أبطل صلاح الدين الآذان ب «حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي وذلك يوم الجمعة لعشر مضين من ذي الحجة ثم أمر أن يذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك»[(١)]. ثم أقدم صلاح الدين على القيام بخطوة أكثر خطورة عندما عزل قضاء مصر من الشيعة وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدباني الشافعي وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعدما أحضره من المحلة وخلع عليه في يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاةً شافعية.

ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣ ص ٣١٧.

واختفى مذهب الشيعة من الإمامية الإسماعيلية. وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره[١]. وقد أقدم صلاح الدين بعد ذلك على قتل كل من ظن أنه يعارض أو يشكل خطراً على أفعاله. كإقدامه على إعدام الشاعر عمارة بن علي اليمني لأنه فقط قال قصيدة يرثي فيها الخلافة الفاطمية.

ما أقدم عليه صلاح الدين في مصر كانت له مفاعيله في البلاد الشامية (بما فيها لبنان) حيث بدأت عملية اضطهاد منظم ضد الشيعة الذين تخلوا عن الحكم واستكانوا لواقع لم يعرفوا خطورة تغيره. لقد وصف ابن جبير الوجود الشيعي في الشام فأظهر كثرة عددهم ووجود مساجدهم ومقامتهم المقدسة وكذلك ما يتهددهم من أخطار. وقد مر ابن جبير على دمشق سنة ٥٨٠/ ١١٨٤ أي في الفترة التي كان فيها السلطان صلاح الدين يبسط سيطرته على سوريا كما بسطها على مصر. يقول ابن جبير: «.... ومشاهد كثيرة لأهل البيت رجالاً ونساءً قد احتفل الشيعة في البناء عليهم ولها الأوقاف الواسعة. ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب قد بني عليه مسجد حفيل رائق البناء وبإزائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة. والمسجد كله ستور معلقة في جوانبه صغار وكبار وفي المحراب حجر عظيم قد شق بنصفين والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية ويزعم الشيعة أنه انشق لعلي إما بضربة بسيفه أو بأمر من الأمور الإلهية على يديه وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد.

وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عمروا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة ومنهم الإمامية والزيدية ومنهم الأسماعيلية والنصيرية.... وإلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء قد أضلهم اللّه وأضل بهم كثيراً من خلقه نسأل اللّه العصمة في الدين ونعوذ به من زيغ الملحدين. وسلّط اللّه على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم ولا يرون أن يستعدي أحد

(١) المصدر السابق.

منهم في نازلة تنزل به. لهم في ذلك مذاهب عجيبة. وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه. وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم وشأنهم عجيب في الأنفة والإئتلاف. ومن مشاهد أهل البيت مشهد أم كلثوم ابنة علي بن ابي طالب ويقال لها زينب الصغرى وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي لشبهها بابنته أم كلثوم والله أعلم بذلك. ومشهدها الكريم بقرية قبلي البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ وعليه مسجد كبير، وخارجه مساكن وله أوقاف. وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم. مشينا إليه وبتنا به وتبركنا برؤيته. وبالجبانة التي بغربي البلد من قبور أهل البيت كثير منهما قبران عليهما مسجد يقال إنهما من ولد الحسن والحسين ومسجد آخر فيه قبر يقال إنه لسكينة بنت الحسين أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت»[1].

ويبدو من هذا النص الذي يصف قتل جماعة «النبوية» للروافض حيث وجدوهم بنصرة السلطان والدولة للقتلة، وعدم محاسبتهم على فعل يقومون به ويشتهر بين الناس. وهذا يثبت ضلوع السلطنة الأيوبية منذ نشاتها في الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة والتي ازداد أوارها في العهود التالية.

أما أهم الرجال الشيعة في لبنان في العصر الصليبي والأيوبي فيختصر بعدد قليل من الأسماء التي وردت في بطون بعض كتب السيرة وأشهرهم على الاطلاق الشيخ العلامة اسماعيل بن حسين العودي الذي وردت له ترجمة مضطربة في أعيان الشيعة حيث ذكر أنه: «إسماعيل بن الحسين العودي العاملي المعروف بشهاب الدين بن شرف الدين توفي في الجبل سنة ٥٨٠/ ١١٨٤ تقريبا كان فاضلا متضلعا في العلم والفضل الجم. وكان أديبا شاعراً دخل العراق وزار المشاهد وحضر على علماء الحلة ثم رجع إلى بلده جزين»[2].

يمكن أن يكون جرى خطأ في النقل عن المصدر لأن هذا العالم قد مات في زمن أبعد بحوالي القرن (حوالي سنة ١٢٧٠) وقد رثي من بعض الشعراء الذين ولدوا بعد سنة

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير ص ٢٥١-٢٥٣.

(٢) محسن الأمين أعيان الشيعة ج ٣ ص ١٠٤٢.

٥٨٠ بكثير. كما أن النسبة إلى جبل عامل (العاملي) لم تكن قد وجدت بعد وكانت النسبة تعود إلى اسم المدينة أو إلى القبيلة (العودي نسبة إلى بني العود).

وإذا كان هذا الرجل موجوداً في القرن السادس فإن هناك عالم آخر تنطبق عليه نفس الأوصاف التي وردت في الأعيان وقد عاش بعد هذا التاريخ بحوالي تسعين سنة. الشيخ هو جمال الدين ابن الحسام ابراهيم بن أبي الغيث الذي كان موجوداً وشاعراً قبل سنة ٦٧٧/ ١٢٧٨ وتوفي بعد سنة ٧٣٦/ ١٣٣٥ بشهادة حدثين أولهما: رثاؤه للشيخ أبي القاسم بن الحسين بن العود الذي توفي سنة ٦٧٧/ ١٢٧٨ وقول الصفدي أن القاضي فضل الله شهاب الدين العمري قد رآه سنة ٧٣٦/ ١٣٣٥. وهذا يؤكد أن الشيخ ابن العود الجزيني المعني بالكلام والمولود حوالي سنة ٥٨٧[١]. هو غير الشيخ الذي أرخ له الأمين في الأعيان وجعل وفاته سنة ٥٨٠/ ١١٨٤. لذلك سيكون الحديث عن هذين العالمين في الفقرة التي تتحدث عن عصر المماليك باعتبارهما من رجال ذلك العصر.

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات ج ٢٤ص٩١.

الفصل الخامس

لبنان تحت حكم المماليك (١٢٦٠ - ١٥١٦)

١ - نشوء دولة المماليك

٢ - المماليك يستردون السواحل وإنهاء الوجود الصليبي؛

٣ - الإدارة المملوكية في لبنان؛

٤ - الشيعة اللبنانيون تحت حكم المماليك وأهم علمائهم

١ - نشوء دولة المماليك

يمكن الحديث عن ظاهرة المماليك في فترة مبكرة من تاريخ الدولة العباسية عندما عمد خلفاؤها إلى استجلاب أعداد من المرتزقة وجعلوهم ضمن عديد الحرس الخاص للخلافة. لكن هؤلاء عامة كانوا من الأحرار الذين ينخرطون في الجندية بقصد التكسب والعيش في كنف الدولة ومنافعها.

لكن هذه الظاهرة تطورت في عهد ملوك الأيوبيين الذين استولوا على البلاد بالقهر والغلبة. فوصول صلاح الدين الأيوبي إلى السلطنة في مصر ثم تقدمه وسيطرته على الشام قد فتح شهية كل طامع بالسلطة والنفوذ. فصلاح الدين لم يستند في شرعية حكمه إلا على ما توصل إليه بالغلبة والقهر. وأثبت هذه المقولة حين قضى بقسوة على ورثة سيده نور الدين زنكي الذي يدين له صلاح الدين وأسرته (من أبناء أيوب الكردي) بكل المناصب التي وصلوا إليها.

في البداية كان الأمراء وحكام المناطق وأصحاب القلاع يشترون المماليك بأعداد قليلة ليصبحوا خدماً ومساعدين لمالكيهم. لكن الحكام الأيوبيين، وما واجهوه من فوضى عارمة في البلاد التي يحكمونها، وكثرة الحروب بين الأخوة والأقرباء على الملك والحكم والنفوذ، قد عمدوا إلى شراء واستجلاب أعداد كبيرة من المماليك وأنشأوا منهم حرساً وجنوداً تدرجوا فيما بعد حتى شكلوا نخبة الوحدات العسكرية لإمارات الأيوبيين الكثيرة. كان المملوك يتلقى تدريباً عسكرياً صارما منذ أن يدخل في خدمة السيد الذي يقتنيه. كما كان يتلقى تعليماً جيداً فينشأ ضليعاً في الكتابة والحساب وقراءة القرآن. وهكذا تفوق المملوك على أبناء البلاد وأصبح هو الذي يقرر أحوال الدولة ومن فيها. وبمرور الزمن تمكن المماليك من السيطرة على مقاليد الحكم. فبعد وفاة ملك مصر الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦ـ ٦٤٧/ ١٢٣٨ـ١٢٤٩) كتمت زوجته شجرة الدر خبر وفاته وأرسلت إلى ابنه توران شاه الموجود في حصن على الفرات بالقدوم على عجل

لتولي الحكم. كانت الفترة القليلة التي أدارت بها شجرة الدر ومن معها من المماليك شؤون الدولة كافية لاقناعهم بامكانية التسلط واستلام مقاليد الحكم دون الاستناد إلى شرعية الملوك الايوبيين. وبوصول توران شاه إلى مصر وجد أن شجرة الدر قد استولت على مقاليد الأمور مع مماليك أبيه وتتمتع بكامل السلطة والقوة على إدارة الدولة. فحاول جاهداً التخلص منها ومن المماليك المحيطين بها فاصطدم بهم. وعندما وجدوا الفرصة سانحة أمامهم للتخلص منه قتلوه وبايعوا شجرة الدر بالحكم (٦٤٨/ ١٢٥٠) لتكون أول سلطانة في تاريخ المسلمين. وقد ألزمت، لأسباب واعتبارات شرعية بالزواج من أحد زعماء المماليك (عزالدين أيبك ٦٤٨_٦٥٥/ ١٢٥٠ _١٢٥٧) فتولى ظاهرياً الحكم منها. لكنها ظلّت الآمرة الناهية دون اهتمام جدي لوجوده. ثم اغتالته بعد حين. فتسلم الحكم ابنه علي بن أيبك (٦٥٥_٦٥٧/ ١٢٥٧_١٢٥٩) وتمكن من القضاء على شجرة الدر بالتفاهم مع زعماء المماليك الذين تأكدوا أنهم أصبحوا القوة المهيمنة على البلاد المصرية. وبهذه القوة خلعوا علي ابن أيبك نفسه وسلموا الحكم لأحدهم، قطز (٦٥٧_٦٥٨/ ١٢٥٩_١٢٦٠). ليحمل لقب «السلطان».

في هذه الفترة كان التتار يزحفون من الشرق على البلاد الإسلامية فينتزعونها بالتدريج ويقضون على أعداد كبيرة من السكان. حتى تمكنوا من دخول بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ وقضوا على الخلافة العباسية. واستباحوا المدينة فقضوا على معظم أهلها كما أحرقوا المكتبات فيها وقضوا على كثير من العلماء. وتابعوا زحفهم غرباً نحو الشام فدمروا في طريقهم مدينة حلب وقضوا على معظم أهلها. ثم تابعوا سيرهم حتى دخلوا دمشق فارتكبوا فيها فظائع كبيرة. ثم تابعوا زحفهم نحو الجنوب باتجاه مصر مركز سلطنة المماليك. لكن هؤلاء استجمعوا كل ما لديهم من قوة وزحفوا ليلاقوا التتار في عين جالوت في فلسطين سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠ حيث دارت رحى معركة رهيبة انتصر فيها المماليك وفتكوا بقوات التتار فتكاً ذريعاً وقتلوا قائدهم كتبغا. فتراجع التتار بعد هذه الهزيمة الكبيرة وأرغموا على الإنسحاب من معظم أراضي الشام إلى ما وراء الفرات. هذا النصر الكبير منح المماليك هيبة وقوة افتقدها المسلمون زمناً طويلاً. وأصبح المماليك في أعين المصريين والشاميين حماة الدين ورعاة المسلمين.

لم يتمتع السلطان المملوكي قطز طويلاً بالانتصار فقد أقدم رفاقه على اغتياله بعد أيام من انتصاره العظيم في عين جالوت وبايع القتلة الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر والشام.

يعتبر السلطان بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك بنظمها وتشريعاتها وسياساتها وطرق عملها العسكرية والتي ستستمر طيلة أكثر من قرنين ونصف (١٢٦٠ -١٥١٦). فبعد أن أصبح سلطاناً بدأ الظاهر بيبرس تنظيم البلاد بطريقة مبتكرة. إذ مزج بين طريقة حكم الأيوبيين، من حيث الملكية المطلقة والوراثية، وبين الاستعانة بالدعاية الدينية لاضفاء الشرعية على حكمه. وللحصول على هذه الشرعية المفترضة أقدم بيبرس على مبايعة أحد العباسيين بالخلافة وجعله رأس الدولة دون أن يعني ذلك أن الخليفة العباسي الجديد قد تمكن من الحصول على صلاحيات سياسية ولو ضئيلة. كما أمر بيبرس بإعادة بناء الجامع الأزهر وكان قد مضى على وقف العمل العبادي فيه منذ أسقط صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية (٥٦٧/ ١١٧١). أما إدارة الدولة فقد ارتأى الظاهر بيبرس أن يقسم البلاد إلى ممالك صغيرة (وصل عددها في فترة لاحقة إلى ست ممالك وقد تدعى ولايات) يحكم كل مملكة (أو ولاية) نائب عن السلطان المقيم في القاهرة. وكان يساعد كل نائب عدد كبير من الموظفين الذين يعينون من قبل النائب وفي بعض الأحيان بتوصية من السلطان نفسه. كما كان السلطان يعين حكام القلاع الكبرى في عواصم الولايات ويكون حاكم كل قلعة مرتبطاً مباشرة بالسلطان وليس بنائب الولاية. وكان يتولى قيادة الجيش في كل ولاية ضباط برتب عالية يحصلون عليها من السلطان مباشرة يسمى الواحد منهم أمير مئة مقدم ألف. وتقسم كل ولاية إلى عدة أقاليم أو مناطق أو نواحي يحكمها نائب يمثل النائب-الوالي. وتقسم كل ناحية إلى إقطاعات يكون أصحابها عادة من ضباط الجيش أمراء العشرات على أن لا تكون أي إقطاعية تامة لشخص واحد بل يكون هناك شركاء في كل قرية ومزرعة. وللمقطعجي نسبة محددة منها (الربع أو النصف أو غير ذلك). ولا تكون الإقطاعية وراثية، بل يتولاها في حال غياب المقطجي المكلف بسبب الوفاة أو العجز أو العزل، مقطعجي جديد بأمر من السلطان أو نائب الولاية. وقد برز أثر هذه التقسيمات الإدارية في حركة المجتمع «اللبناني» وتطوره المذهبي والسياسي.

٢ - المماليك يستردون السواحل وإنهاء الوجود الصليبي:

دخلت الدولة الأيوبية التي أنشأها صلاح الدين مرحلة من التفسخ والفساد مباشرة بعد وفاة مؤسسها. فالدولة -المملكة لم تحسب خارج الأملاك الشخصية لأبناء وأخوة صلاح الدين فتقسّموها فيما بينهم. ومن الطبيعي أن تقع الحروب وتشتد الفتن ويتصارع الأخوة والأقارب من أجل السلطة والحكم. كانت ممتلكات الصليبيين في سواحل الشام ضعيفة عندما مات صلاح الدين وكان يكفي القليل من الجهد للقضاء على الوجود الصليبي في المنطقة. لكن خلفاء صلاح الدين تركوا هؤلاء يعيدون تشكيل قواهم ويستقبلون نجدات أوروبية مما عزز وجودهم وأبقاهم في المنطقة طيلة قرن كامل كادوا في خلاله أن يستولوا على مصر ووصلوا إلى القاهرة لمدة قصيرة، وفرضوا على حكامها جزية معينة. عند ذلك قام أمراء الجيش من المماليك الذين استولوا على الحكم بتأسيس دولة عسكرية لتكون قادرة، ليس على الحكم في مصر فقط، بل على التصدي للغزو المغولي الداهم. وعندما نجحوا في ذلك في المعركة التاريخية الكبرى في عين جالوت سنة١٢٦٠ لم يبق أمام قادة المماليك ما يمنع من توسيع سيطرتهم نحو البلاد السورية. كان للنصر الكبير الذي أحرزه المماليك في معركة عين جالوت أثر بالغ في التاريخ، إذ سمح بإقامة نظام سياسي وعسكري جديد. ودخلت على السلطة مفاهيم جديدة لم تكن معروفة من قبل. وطبعت المنطقة التي تشمل الشام ومصر بطابعها حتى بعد زوال دولة المماليك ليستمر أثر النظم المملوكية حتى نهاية القرن الثامن عشر. فما سنه المماليك من تشريعات دينية واقتصادية واجتماعية ترسّخ بمرور الزمن حتى أصبح من الثوابت التي لا زالت بعض آثارها في المجتمعات السورية (واللبنانية ضمناً) قائمة ومستمرة إلى اليوم كأشكال وجود العائلات والعلاقات الأسرية وبعض العلاقات بين الفلاحين وملاك الأراضي... إلخ.

عندما تولى الظاهر بيبرس السلطنة بدأ عهدٌ من الحكم العسكري أغلب عناصره من الأعاجم خصوصاً من الترك الذين كان يفترض واقعهم العسكري متابعة الحرب ضد الصليبيين في السواحل والتصدي المستمر لحملات التتار التي ما كانت لتهدأ حيناً إلا وتعود للهجوم من جديد. ولا يوجد في المصادر التاريخية ما يثبت وجود أي قائد أو أمير له أهمية من البلديين المصريين أو السوريين.

بدأ المماليك بقيادة الظاهر بيبرس الحرب ضد ما تبقى من الصليبيين على السواحل السورية بحجة بسيطة اتخذها السلطان ذريعة لانتزاع ما يمكن انتزاعه منهم. فقد أقدم جنود صليبيون على قتل رجل مسلم في منطقة صور اسمه «السابق شاهين» في حادث عرضي. فاعتبر الظاهر بيبرس ذلك خرقاً للهدنة القائمة منذ صلح الناصر (١٢٥٤). و«قدمت الإقامات (الوجهاء) من الفرنج إلى السلطان (الظاهر بيبرس) وسألوا الصلح فتوقف وطلب منهم أموراً لم يجيبوا إليها فأهانهم. وكان العسكر قد خرج للغارة على بلادهم من جهة بعلبك فسألوا رجوعه. واتفق الغلاء ببلاد الشام فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام الملك الناصر وإطلاق الأسارى من حين انقضت الأيام الناصرية. فسارت رسل الفرنج لأخذ العهود وتقرير الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت فكاسر الفرنج في أمر الأسارى فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق واستعملهم في العمائر. فتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين فأجيبوا: بأنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية مرج عيون وقايضتم صاحب تبنين والمقايضة في أيديكم. فكيف تطلبون العوض مرتين. فإن بقيتم على العهد وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد. وخرج الأمير جمال الدين المحمدي في عسكر وأغار على بلاد الفرنج وعاد غانماً سالماً»[1].

هذا يثبت أن ما كان أخذه الفرنج قبل ذلك بثماني سنوات أي في أيام الناصر لم يعد مقبولاً، بعد أن تمكنت دولة المماليك، وأصبحت القوة الكبرى الأولى في المنطقة. وكان الظاهر بيبرس لا يزال يخشى من تحرك بعض الأمراء الأيوبيين المطالبين بالعرش المصري أو ببعض الممالك الصغرى في الشام وكان أخطر هؤلاء الملك المغيث عمر صاحب الكرك الذي دأب على مكاتبة هولاكو، فخادعه السلطان بيبرس حتى تمكن منه فاعتقله ووضعه في السجن في القاهرة[2]. ولما خلا بال السلطان (الظاهر بيبرس) من هم الملك المغيث توجه بكليته إلى الفرنج «فإنهم كانوا قد شرعوا في التعلل وطلبوا زرعين (قرية في الجليل شمال فلسطين) فأجابهم السلطان بأنكم تعوضتم عنها في الأيام الناصرية ضياعاً من مرج عيون وهم لا يزدادون إلا شكوى. وآخر الحال طلب

(١) المقريزي، السلوك ج ١ ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) المقريزي، السلوك ج ١ ص ٥٥١.

الفرنج من والي غزة كتاباً بتمكين رسلهم إذا حضروا. فكتب لهم الكتاب وتواصلت بعد ذلك كتبهم. ووردت كتب النواب بشكواهم وأنهم اعتمدوا أموراً تفسخ الهدنة فزحف السلطان بعساكر مصر حتى وصل إلى بيسان وقد أمر «ألا ينزل أحد في زرع الفرنج ولا يسيب فرساً ولا يؤذي لهم ورقة خضراء ولا يتعرض إلى شيء من مواشيهم ولا إلى أحد من فلاحيهم»[1]. وقد طالب الظاهر بيبرس الصليبيين برد ما أخذوه من الملك الأيوبي الصالح إسماعيل فيما مضى بصلح معه ومنها قلعة أرنون وبعض القلاع الأخرى باعتبار هذه القلعة تتبع مملكة دمشق التي صارت تحت سلطة بيبرس. كما طالبهم باطلاق سراح الأسرى المسلمين عندهم بسبب شروط صلح سابق معهم لم يلتزموا به.

وقبل أن يرد الصليبيون الجواب على مطالبه أرسل السلطان الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة القيامة في الناصرة وكانت أجل مواطن عبادة الصليبيين، فسار إليها وهدمها ولم يتجاسر أحد من الفرنج أن يتحرك. ثم وجه السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري في عسكر إلى عكا فساروا إليها واقتحموا أبوابها وعادوا. ثم ساروا ثانياً وأغاروا على مواشي الفرنج وأحضروا منها شيئاً كثيراً إلى المخيم.

«وطلب أهل بلاد الساحل من الفلاحين وقرر عليهم أموالاً سماها جنايات وألزمهم بحملها إلى بيت المال عن ديات من قتل وليس له وارث وهو ما نهبوه من مال جهل مالكه. فحملت من ذلك أموال كثيرة جداً من بلاد نابلس وبلاد الساحل وانكسرت شوكة أهل العيث والفساد بذلك بعدما كان الضرر عظيماً بهم من تسلطهم على الرعية ونقلهم الأخبار للفرنج. فرأى السلطان عقوبتهم بهذا الفعل أولى من قتلهم فإنهم أصحاب زرع وضرع»[2]. وتمكن جيش المماليك من تحرير قيسارية وحيفا وعتليت وأرسوف سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥ وجرى تقسيم الأملاك في هذه المدن وما حولها إلى إقطاعات وزعت على أمراء المماليك.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ٥٥٤.

ثم هاجم السلطان صفد واستولى عليها بالقوة فقتل كل حامية القلعة من فرسان الصليبيين فلم يبق للصليبيين قوة في المنطقة تستطيع أن تهاجم المسلمين. وبالسيطرة على صفد أنشأ السلطان إدارة جديدة في المدينة وأقام حامية في قلعتها فأصبحت ولاية قائمة بذاتها وضم إليها عددا من المدن والقرى. ثم سيّر الظاهر بيبرس الجيش في جبل عامل فاسترجع قلعتي تبنين وهونين (سنة ٦٦٤/ ١٢٦٦) اللتين أخذتا في صلح الناصر. وصيرهما السلطان عملاً وضمهما إلى ولاية صفد ولم يبق بايدي الصليبيين من جبال عاملة إلا قلعة الشقيف أرنون.

كانت عمليات الظاهر بيبرس ضد الصليبيين تسير بسرعة وكانت الجيوش تتحرك من مصر ومن الشام على عجل دون أن يعرف الأمراء وجهة سيرهم حتى يتلقوا أوامر السلطان بالهجوم في منطقة محددة. فبعد أخذه صفد وما حولها عاد بيبرس إلى القاهرة مدة قصيرة ثم خرج منها نحو يافا فاستولى عليها في يوم واحد وهدم قلعتها وأجبر سكانها على النزوح عنها. وأرسل إلى أمراء دمشق بالخروج بالعساكر نحو بانياس وهناك تلقوا أمراً منه بالتوجه إلى قلعة الشقيف حيث التحق بهم السلطان وفاجأ حامية القلعة يوم ١٩ رجب سنة ٦٦٦/ ١٢٦٧ وبعد عشرة أيام من الحصار والقذف بالمنجنيق استسلمت الحامية فأخرج منها النساء والأولاد إلى صور وأخذ الرجال أسرى مقيدين. وعين السلطان حاكماً على القلعة ومنطقتها الأمير صارم الدين قايماز الكافري وقرر فيها قاضياً وخطيباً[1]. كما أمر بإعاة إعمار ما خرب منها.

وبعد انتهائه من شقيف أرنون تابع السلطان تحركه شمالاً حتى بلغ طرابلس فهاجم الجبال القريبة منها واستولى على إحدى القلاع وأعدم من وجده فيها، ثم هاجم المغاور واستولى على عدد منها و«هدم الكنائس وقطع الاشجار»[2]. ويبدو من ذكر هذه الوقائع أن سكان المنطقة الجبلية المطلة على طرابلس في شمال لبنان كانوا مسيحيين ولم يذكر أي مصدر معاصر للأحداث وجود مسلمين من أي مذهب في تلك الناحية.

(١) المقريزي، السلوك ج ٢ ص ٤٩.
(٢) المصدر السابق.

عند ذلك أرسل الصليبيون في صور إلى الظاهر بيبرس يطلبون استمرار الهدنة حسب الشروط التي كانت بين الصليبيين والمسلمين منذ أيام الناصر ودفعوا دية الرجل المسلم الذي قتلوه (السابق شاهين) وهي خمسة عشر ألف دينار صورية قاموا بنصفها وأمهلوا بالباقي وأحضروا أيضاً عدة أسرى مغاربة. فأجيبوا وتقررت الهدنة لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات[١].

استمر الظاهر بيبرس في تحركاته العسكرية طيلة فترة حكمه. وبعد وفاته تابع القائد قلاوون الذي خلف بيبرس في السلطنة نفس الطريق وتمكن من استرداد مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ وهدمها بالكامل وهدم الأبراج والحصون المبنية في المنطقة. وفي سنة ١٢٩١ تمكن جيش المماليك من الاستيلاء على عكا. وبسقوطها أدرك الفرنج المتبقين في مدن الساحل أن بقاءهم في البلاد يعني فناءهم ففروا من المدن الساحلية دون قتال حتى انتهى الوجود الصليبي من كل البلاد الشامية وخضعت الدولة بكاملها لنظام السلطنة الجديد الذي بدأ يطبق طريقة جديدة في الحكم والسياسة أساسها العسكر المؤلف بغالبيته العظمى من المماليك.

ومن المفارقات أن مدينة صور الحصينة التي عجز عنها صلاح الدين وهو في أوج قوته لم تصمد ساعة واحدة عندما وصل إليها المماليك فوجدوها خالية تماماً من السكان. وكذلك كان حال مدينة صيدا بقلعتيها البرية والبحرية. وقد أمر السلطان الأشرف خليل بهدم المدينتين وأسوارهما كما أمر بهدم قلعتي صيدا. وفي زمن لاحق قام المماليك بإعادة بناء القلعتين في صيدا على نفس الأسس القديمة حتى ظن الناس أن هاتين القلعتين الباقيتين إلى اليوم هما من بناء الصليبيين وليس من بناء المماليك. كما أعيد بناء المدينة لتصبح مركز ناحية. أما صور فقد ظلت خربة طيلة قرن ونصف أي حتى منتصف القرن الخامس عشر عندما قام بنو بشارة بالسكن فيها. لكنها لم تبلغ حتى العصر الحديث حجم المدن عمراناً وأهمية.

---

(١) المقريزي، السلوك ج ٢ ص ٤٤

٣ - الإدارة المملوكية في لبنان:

حسب النصوص التي نقلها بعض المؤرخين في العصر المملوكي فإن المناطق اللبنانية كانت موزعة على ثلاث ولايات: دمشق وطرابلس وصفد[١].

بالنسبة إلى مملكة (ولاية) دمشق فقد تبعها: منطقة البقاع وهي ثلاثة أعمال.

الأول: عمل بعلبك وهي مدينة بشمالي دمشق جليلة البناء نبيهة الشأن قديمة البنيان. وهي مختصرة عن دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها. بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة وبخارجها جبل لبنان المعروف بعش الأولياء.

الثاني: عمل البقاع البعلبكي نسبة إلى بعلبك لقربه منها.

الثالث: عمل البقاع العزيزي وكأنه نسبة إلى الملك العزيز ابن صلاح الدين ومقر الولاية به كرك نوح عليه السلام. وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بعلبك وهما مجموعتان لوال جليل مفرد بذاته.

الرابع: عمل بيروت بساحل دمشق وهي مدينة جليلة على ضفة البحر الرومي عليها سواران من حجارة وفيه كان ينزل الأوزاعي الفقيه المشهور وبها جبل فيه معدن حديد ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها ١٢ ميلاً في التكسير تتصل إلى تحت لبنان وفي شماليها على الساحل مدينة جبيل بينهما ١٨ ميلاً وبينها وبين بعلبك على عقبة المغيثة ٣٦ ميلاً.

الخامس عمل صيدا: وهي ولاية جليلة واسعة العمل ممتدة القرى تشمل نيف وستماية ضيعة[٢].

أما ولاية طرابلس فقد تبعها أربعة أعمال وهي:

طرابلس: بعد أن أخذها المسلمون سنة ٦٨٨/ ١٢٨٩ خرّبت ودمرت. ثم عمر

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٩ وما بعدها

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ج٤ ص ١١٠.

المماليك مدينة جديدة على بعد ميل منها (حوالي ٢،٥ كلم) وسموها باسمها. وأصبحت بسرعة مدينة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً. وحدّها (نيابة طرابلس) من القبلة جبل لبنان ممتداً على ما يليه من مرج الأسد (سهل الهرمل) حيث يمر نهر العاصي. وحدها من الشمال قلاع الدعوة. ويتبعها نيابات وأعمال.... الثاني: عمل عكار وهي قلعة على مرحلة من طرابلس من جهة الشرق بوسط جبل لبنان في وادٍ والجبل محيط بها.

عمل جبة المنيظرة (المقصود المنيطرة).

عمل بُشَرَّيه: هكذا في «التعريف» والجاري على الألسنة «بشراي» بابدال الهاء ياء مثناة تحت (المقصود منطقة بشري كما هو واضح من الاسم)

عمل أنفة: وهي بلدة على البحر الرومي تردها المراكب بِقِلَّة(١).

أما مناطق الجنوب من نهر الزهراني وحتى وادي القرن (القسم الأكبر من جبل عامل) فقد كان يتبع مملكة (أو ولاية) صفد. وكان حد هذه الولاية «من القبلة الغور حيث جسر الصَّنبرة من وراء طبرية. وحدها من المشرق الملاّحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وحولة بانياس. وحدها من الشمال نهر ليطا (المقصود نهر الليطاني المار شمال غرب مرجعيون). وحدها من الغرب البحر. ويتبع هذه الولاية من المناطق اللبنانية ثلاثة أعمال وهي:

أولاً: عمل تبنين وهونين بعطف الثاني على الأول: وهما حصنان بنيا بعد الخمسماية بين صور وبانياس بجبل عاملة. وأهل هذا العمل شيعة رافضة.

ثانياً: عمل صور: وهي مدينة قديمة بساحل دمشق وبناؤها من أعظم أبنية الدنيا (حسب ما ينقله عن كتاب اسمه الأطوال) وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر فلما فتحها المسلمون في سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ مع عكا خرّبوهما خوفاً أن

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥١

يتحصن بهما العدو. وهي خراب الآن. وسكان هذا العمل رافضة لا يشهدون جمعة ولا جماعة.

ثالثاً: عمل الشقيف: ويعرف بشقيف أرنون ويعرف أيضاً بالشقيف الكبير وهو حصن بين دمشق والساحل بعضه مغارة منحوتة في الصخر وبعضه له سور وهو في غاية الحصانة. وعلى القرب منه شقيف آخر يعرف بشقيف تيرون وهي قلعة حصينة في جند الأردن على مسيرة يوم من صفد وليست من أعمال صفد (تيرون). وأهل هذا العمل رافضة[1].

ويبدو من الإضافة التي يضعها المؤرخ تمييزاً صريحاً لأهالي جبل عامل كلهم بأنهم شيعة رافضة مما يعطي صورة حقيقية لانتماء أهل هذا الجبل، وإلى ما يمكن أن يواجهوه مع حكام الدولة المملوكية خاصة، وأن هذه الدولة قد نشات وأديرت منذ البداية على أسس مذهبية وجرت فيها الأحكام بناء على الانتماء المذهبي. كما لحق بذلك مجمل المنافع التي تصيب السكان من الدولة، كالوظائف العامة والإقطاعات التي بقيت حكراً على مذاهب دولة السلطان.

٤ - الشيعة اللبنانيون تحت حكم المماليك وأهم علمائهم:

لفترة طويلة قبل وصول المماليك إلى السلطة كان الصليبيون بعد أن سيطروا على المنطقة قد انفردوا بادارة البلاد وأقاموا سلطة سياسية خاصة بهم لم تُبْقِ على أي وجود سياسي عربي أو إسلامي في النواحي التي سيطروا عليها في لبنان. الوجود السياسي الوحيد خارج الإدارة الصليبية تمثل بما احتفظ به الشيعة (المياذنة) في المناطق الجبلية الموازية للساحل كمنطقة جزين التي احتفظت باستقلال ذاتي برعاية رجال دين شيعة. وكذلك وجد ما يشبه الإمارات الأسرية المستقلة في أعالي جبال كسروان وجبيل. بالإضافة إلى استمرار التنوخيين في السيطرة على مناطق الأشواف والغرب.

أثناء وبعد تحرير مناطق تبنين وهونين وأرنون من الاحتلال الصليبي عيّن السلطان صلاح الدين الأيوبي حكاماً عسكريين مهمتهم الأساسية الدفاع عن البلاد في القلاع

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥١ وما بعدها

المذكورة. لذلك لم يظهر إلى الوجود أي زعامة شعبية بلدية لا من خلال الأسر ولا من رجال الدين رغم تميّز هاتين المنطقتين (أي «تبنين وهونين» و «أرنون» بوجود شعبي شيعي مستمر ومتواصل منذ ما قبل الغزو الصليبي. أما في بعلبك فقد بدأ رجال الدين الشيعة يثبتون وجوداً علمياً وإجتماعياً وأخذوا يلعبون دوراً متزايداً في الإشراف على الأمور الاجتماعية بشكل عام دون أن يصلوا إلى مرحلة التمظهر السياسي. ويبدو أن هذا التقليد (اي قيادة رجال الدين) سيصبح ظاهرة عامة في المناطق اللبنانية الشيعية خصوصاً في مناطق البقاع وجبل لبنان. وسيستمر ويتطور في القرون التالية لتعوض عن نقص الوجود السياسي لزعماء مدنيين في البلاد.

أثناء الغزو المغولي للمنطقة وقع قسم من المناطق اللبنانية تحت سيطرتهم (المغول) المباشرة وبالتحديد في منطقة البقاع نزولاً حتى وادي التيم وغور الأردن. كما هاجم التتار منطقة الساحل ودخلوا مدينة صيدا لمدة وجيزة فنهبوا المدينة وما حولها من قرى ثم عادوا إلى دمشق.

في هذه المرحلة لم يتخذ علماء الدين الشيعة (الذين هم أصحاب القرار في الجماعة) موقفاً محدداً في مواجهة الغزو المغولي. فقد وجد من يقف إلى جانب الغزاة ويتعاون معهم باعتبارهم الدولة الجديدة القوية. وينسب بعض الكتاب في العصر الحديث أنّ أحد علماء الدين ويدعى تقي الدين الحشائشي قد سالم التتار وحصل منهم على فرمان أمان لبعلبك. كما وجد آخرون رفعوا راية الجهاد في مواجهة الغزاة ووجدوا كثيراً من الأنصار المتحمسين يقودهم الشيخ أحمد بن محسِّن بن ملي البعلبكي فخاضوا حرب عصابات ضد الغزاة[1]. وبقليل من التقصي تبين أن الفترة التي بقي فيها التتار في البقاع لم تكن كافية لقيام حرب عصابات حقيقية ضدهم. فالغزاة لبثوا في المنطقة من أول رمضان سنة ٦٥٨ حتى الخامس والعشرين منه حيث انسحبوا بعد هزيمتهم في عين جالوت إلى ما وراء الفرات. فلا يبدو تاريخياً أن لحركة تقي الدين الحشائشي السلمية ولا لحركة ابن ملي الثورية ذلك المردود السياسي المتميز.

(١) الشيخ المهاجر، التأسيسي لتاريخ الشيعة ، ص ١١٠.

كان لانتصار المسلمين في عين جالوت أثر هائل على مجريات الأحداث، وسيستمر هذا التأثير في القرون الثلاثة التالية. لقد تمكن المماليك في عين جالوت من إثبات ضخامة الدولة التي أقاموها وأصبحوا القوة الكبرى الدولية التي ورثت أمجاد الممالك الإسلامية السابقة. وقد أدرك زعماء هذه الدولة حقيقة قوتهم فانطلقوا بعد عين جالوت في التوسع والسيطرة في كل اتجاه مستعملين في الوظائف العامة شبكة من الكتاب ورجال الدين وضباط الجيش وأصحاب الإقطاعات.

لسبب ما بدأ الدور الشيعي في التراجع تدريجياً حتى كاد يختفي تماماً من الساحة السياسية في دولة المماليك. ويبدو أن البحث عن أسماء أمراء أو زعماء شيعة في فترة حكم المماليك قبل القرن التاسع/ الخامس عشر شيء صعب جداً إذ لم ينوجد في المصادر التاريخية الشائعة سوى بعض أسماء علماء الدين الذين بدأ وجودهم أيضاً ينحسر ويتضاءل بعد سنة ٧٠٠/ ١٣٠٠ حتى لم يبق لهم بقية ذات أهمية طيلة القرن التالي بكامله.

حتى سنة ١٢٦٠ كانت بلاد الشام (ومنها لبنان) غنية بأعداد من الطوائف والمذاهب والأعراق المتآلفة دون أن يظهر أن هذا الوجود المتعدد الأوجه قد أدى إلى فتن أو حوادث. ويظهر مما كتبه ابن جبير في رحلته وبما ذكره المؤرخون اللاحقون كابن الاثير والذهبي واليونيني والصفدي أن الطوائف المتعددة لم تكن سبباً لوقوع اضطرابات أو أحداث مهمة. بل ربما تكون الفتن قد وقعت كثيراً جداً بين المماليك أنفسهم الذين كان كل مملوك منهم يسعى للحصول على ما يمكنه الوصول إليه.

في هذه الأجواء الصافية أقدم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس على خطوة خطيرة وسيئة جداً في التاريخ الإسلامي عندما حصر المذاهب الإسلامية بأربعة كلها من السنة وهي مذاهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنل. وفرض بيبرس على المسلمين في مملكة مصر والشام أن يتعبدوا حسب هذه المذاهب فقط. وعاقب كل من خالف قراره، حتى وإن كان من أتباع مذهب سني مختلف كمذهب الأوزاعي أو ابن حزم. وطبعاً في هذه الحالة سيجد الشيعة أنهم أكثر المتضررين من قرار الظاهر بيبرس.

لقد تراجع الشيعة في هذه المرحلة عن ركب الحضارة بشكل كبير. فليس في القرنين السابع والثامن/ الثالث عشر والرابع عشر مؤلفات شيعية. ولا يذكر لأي من علمائهم إلا بعض نتف من قصائد شعرية ينحو معظمها منحى التصوف. كما لا يوجد أي كتابة شيعية تاريخية في هذه الحقبة، حتى كتب الرجال والتعريف بهم انعدمت في هذ الفترة بشكل كامل بحيث لا يمكن التعرف على أي شخصية شيعية لبنانية عاشت في القرون الثلاثة الرابع والخامس والسادس عشر إلا من خلال مؤلفات وكتابات غير شيعية، وبعضها متحامل بشدة على الشيعة مثل ابن كثير الدمشقي. المصادر التاريخية التي يمكن الركون إلى بعض كتاباتها تنتمي إلى غير الشيعة، وفيها اختصار شديد وتغييب لبعض التفاصيل التي يحتاج الباحث إليها ليعرف أحوال المترجم لهم. وربما يعود الفضل الأكبر للكاتب المحقق الشيخ الصفدي في كتابيه (الوافي بالوفيات) و(أعوان العصر) لمعرفة أحوال الشيعة اللبنانيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ويبدو واضحاً أن الصفدي وهو شامي المنبت والثقافة لم يتحامل على الشيعة، بل امتدح في كثير من الكتابات علماءهم ورجالهم. لكنه استنكر وجود بعض الشيعة الذين كانوا يسبون الصحابة فيثيرون غضب السنة وهم أصحاب السلطة، ويؤدي ذلك إلى عواقب سيئة للشيعة. كما وجدت نفس الطريقة في الكتابة عند كتاب من السنة سبقوا الصفدي كابن الاثير والذهبي واليونيني وجميعهم من سكان بلاد الشام. وقد كتب هؤلاء ووصفوا عدداً من رجالات المسلمين الشيعة بأوصاف حسنة وامتدحوا بعض الزهاد والعباد منهم. وسيكون لزاماً نقل هذه المعلومات من مصادرها كما هي حتى وإن كانت هذه المصادر معادية بالإجمال للشيعة، نظراً لعدم وجود المصدر الشيعي الموثوق الذي يمكن أن يستفاد منه بكثير أو قليل حول هؤلاء الرجال.

أول إشارة إلى رجل شيعي في الشام كان قبيل انتقال الحكم إلى المماليك فيذكر في بعض المصادر أنه «.... ورد كتاب المظفر (قطز) إلى دمشق في ٢٧ شهر رمضان سنة ٦٥٩/ ٢٤ آب ١٢٦١ (؟) يخبر بالفتح وكسرة العدو (في عين جالوت) و«يعدهم بوصوله إليهم ونشر المعدلة فيهم فثاروا العوام بدمشق وقتلوا الفخر محمد بن يوسف بن

محمد الكنجي في جامع دمشق وكان المذكور من أهل العلم لكنه كان فيه شر وميل إلى مذهب الشيعة وخالطه الشمس القمّي الذي حضر إلى دمشق من جهة هولاكو ودخل معه في أخذ أموال الغياب عن دمشق فقتل. ومن نظمه في علي (رض):

وكان علي أرمد العين يبتغي دواء فلما لم يحس مداويا
شفاه رسول اللّه منه بتفلة فبورك مرقياً وبورك راقيا
وقال سأعطي الراية اليوم فارساً كمياً شجاعاً في الحروب محاميا
يحب الأله والإله يحبه به يفتح اللّه الحصون كما هيا
فخص دون البرية كلها عليا وسماه الوصي المواخيا»[1]

وفي الملاحظة التي يضيفها الكاتب ليعطي تبريراً لقتل الفخر محمد بن يوسف الكنجي اكتفى بذكر الشر الذي فيه وهو ميله إلى مذهب الشيعة. ويبدو من هذا النص أن بعض الموظفين المتبقين من الدولة الأيوبية كانوا من الشيعة. وهذا الأمر لم يبق له أثر بعد أن سيطر المماليك على الشام إلا فيما ندر ولأسباب مختلفة. كما أن تاريخ (٦٥٩/ ١٢٦١) يزيد سنة عن التاريخ المتعارف عليه حول تلك الأحداث.

وينقل الكاتب معلومات عن علماء دين شيعة آخرين يكنيهم بأسماء مذاهب سنية مثل حديثه عن:

١ - **نجيب الدين الأسدي**: «أبو القاسم بن الحسين بن العود الحنبلي الفقيه على مذهب الشيعة. كان إماماً يقتدى به في مذهبهم ويرجع إلى قوله عندهم وعنده فضيلة ومشاركة في علوم شتى، وحسن عشرة ومحاضرة بالأشعار والحكايات والنوادر. رافقته من ظاهر بعلبك إلى ظاهر دمشق فوجدته نعم الرجل، يقوم كثيراً من الليل على صعبه، وصار بيني وبينه أنسة شديدة. وكانت وفاته ليلة الاثنين نصف شعبان بقرية جزين وبها دفن في المجلس الذي كان يجلس فيه بداره. وجدت بخط الفقيه شمس الدين محمد الأنصاري

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٦١.

المقيم بنحوسية (بحوشية؟) ما كتب به إلى أن وفاة المذكور كانت ليلة الاثنين»[١].

وعنه يتحدث الشيخ الصفدي مرتين في الوافي بصيغة المجهول فقال عنه: «... وهو الشيخ نجيب الدين أبو القاسم بن الحسين بن العود الأسدي الحنبلي الفقيه المتكلم شيخ الشيعة»[٢]. «..... وكان مفننا بأنواع الفضائل ورد مدينة حلب وتردد على نقيب الاشراف فيها عزالدين مرتضى واسترسل معه يوماً فنال من أصحاب رسول اللّه فزبره النقيب. وأمر بجره من بين يديه وأركب حماراً بالمقلوب وصفع في الأسواق. وعظم النقيب عند الناس بسبب إهانته لابن العود. أما ابن العود فتسحب من حلب وأقام بقرية جزين مأوى الرافضة فأقبلوا عليه وملكوه باحسانهم وكان في الآخر وقد تديّن وقام الليل. ورثاه ابراهيم بن الحسام أبي الغيث بأبيات اولها:

عــرِّج بجزيــن يــا مســتبعد النجــف ففضل من حلّها يا صاح غير خفي[٣]

توفي الشيخ نجيب الدين ابن العود (المذكور أولاً) سنة ٦٧٧/ ١٢٧٨ وعمره نيف وتسعين سنة مما يعني أن ولادته كانت حوالي سنة ٥٨٧/ ١١٩١.

في أعيان الشيعة يتحدث المؤلف عن عالم جزيني هو اسماعيل بن حسين العودي الجزيني أول من ذهب إلى الحلة وعاد إلى جزين ت سنة ٥٨٠/ ١١٨٤[٤]. وبعد أن يتحدث عنه باسهاب وينسبه إلى جبل عامل يعود الأمين فيشكك بذلك ويذكر أنه ابن العود النيلي (العراق). مع ملاحظة أن النسبة إلى جبل عامل لم تكن شائعة قبل الشهيد الأول (منتصف القرن الثامن/ الرابع عشر) فإن الأمين يسمي الشيخ اسماعيل ابن العودي (العاملي). ويبدو أن هذا الشيخ المذكور في الأعيان ليس هو نفسه الشيخ نجيب الدين حسين بن العود لأن الأسم والتاريخ المدون واقتران اسم الشيخ ابراهيم بن الحسام الذي رثاه تثبت صحة ما قاله الصفدي في الوافي. واختلاف الأسم واللقب

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات ج ٦ ص ٥٢ ترجمة رقم ١٦٤
(٢) المصدر السابق، ج ٢٤ص٩١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٠٢.

قد يوحي بأن هناك عالمين من بني العود عاشا في جزين في القرنين السادس والسابع وهو أمر ممكن.

أما الرثاء الذي قاله الفقيه جمال الدين ابراهيم بن الحسام أبي الغيث العاملي بعد وفاة الشيخ نجيب الدين ابن العود فمشهور ومنه هذه الأبيات:

عرّس بجزين يا مستبعد النجف ... ففضل من حلها يا صاح غير خفي
نور ثوى في ثراها فاستنار به ... وأصبح الترب فيها معدن الرف
لمثل يومك كان الدمع مدخرا ... باللّه يا مقلتي سحي ولا تقفي
كأنهم حين طافوا حول تربته ... بدور تم بدت من مطلع السدف
صلى الإله على ترب تضمنه ... لقد تبوأ أنواعاً من التحف
ترب تناكره الآمال زائرة ... من وارد نحوه يهوى ومنصرف

ولما بلغت هذه الأبيات جمال الدين محمد بن يحي بن مبارك بن مقبل الغساني الحمصي، وهو أحد رجال الشيعة المشهورين، قال:

لقد تجاوز حد الكفر والسخف ... من قاس مقبرة ابن العود بالنجف
ما راقب اللّه أن يرمى بصاعقة ... من السماء أو يهوي بمنجنف
واعجب بجزين ما ساخت بساكنها ... من جاهل لعظيم الوزر مقترف
وقد تحيرت فيما فاه من سفه ... ومن ضلال وإلحاد ومن سرف

....

ولا أقول لمن قاست جهالته ... الدر الثمين بمكسور من الخزف
أو من يقيس الجبال الشامخات بمن ... حط الحضيض وعرف المسك للجيف

٢ - أحمد بن ملي: أما العالم احمد بن ملي الذي ذكر في بعض المصادر أنه شكل حركة مسلحة لمقاومة الغزو المغولي في بعلبك والبقاع فيبدو من سيرته كما نقلت من غير مصادر الشيعة أنه لم يقم بشيء جدي في مواجهة التتار وإلا لكان اشتهر بذلك.

وكيف يمكن للشيخ ابن ملي أن يخوض حرباً ضد التتار الذين عجزت عن مواجهتهم الجيوش الجرارة؟ وابن ملي رجل دين عادي لا يملك من القوة ما يمنع به عن نفسه.

هذا العالم هو «..... أحمد بن محسِّن بن ملي بن حسن بن عتيق أو عتق، بن ملي العالم البارع المعروف بابن ملي الأنصاري البعلبكي الشافعي المتكلم ولد سنة ٦١٧/ ١٢٢٠ ببعلبك وسمع من البهاء عبد الرحمن وأبي المجد بن القزويني وابن الزبيدي وابن رواحة واشتغل بدمشق فأخذ عن ابن الحاجب العربية وعن ابن عبد السلام الفقه وعن الزكي المنذري الحديث والأصول عن جماعة والفلسفة والرفض عن جماعة. ودرس وأفتى وناظر واشتغل وتخرج به الأصحاب وكان متبحراً في العلوم كثير الفضائل أسداً في المناظرة فصيح العبارة ذكياً متيقظاً حاضر الحجة حاد القريحة اشتغل مدة بحلب ودمشق ودخل مصر غير مرة وكان شهماً جريئاً. قال الشيخ شمس الدين (الذهبي): «مشتلقاً يخل بالصلوات ويتكلم في الصحابة وكان يقول في الدرس عينوا آية حتى نتكلم عليها فيعينون آية ويتكلم عليها بعبارة جزلة كأنما يقرأ من كتاب». قرأ الشيخ علم الدين عليه «موطّأ» القعنبي وغير ذلك. وسمع منه الطلبة وتوفي بقرية بخعون من جبال الظنيين سنة ١٢٩٩/٦٩٩»[1].

وفيما كتبه المؤرخ بعض الملاحظات البسيطة كأن يوصف ابن ملي بأنه شافعي ثم يعترف لاحقاً بأنه شيعي (الرفض) وأنه تلقى دروسه على علماء من السنة دون يجد في ذلك حرج. فقد أخذ مذهب الإمامية من مصادره المناسبة. ثم يوصف بأنه كان يتكلم في الصحابة بمعنى أنه يتهمهم.

مكان وفاة أحمد بن ملي يثبت ذلك الوجود الشيعي في جبال الظنيين القريبة من طرابلس إلى الشمال من المنطقة التي كان يسكنها المسيحيون إلى جانب الشيعة. وهي المنطقة التي تعرف اليوم بالضنية.

٣ - **مؤيد الدين الحسين بن علي**: بن ماهد بن طاهر بن أبي الجن أبو عبد اللّه مؤيد الدين الحسيني. كان من أعيان الأشراف ووالده نظام الدين تولى نقابة الأشراف مدة

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات ج ٧ ص ١٩٩.

ونظر بعلبك وأعمالها مدة أخرى وكان واسع النعمة كثير الأملاك وافر الحرمة نزهاً عفيفاً في ولاياته غير أنه كان قليل النفع وكان له مكانة عند الملك الصالح عماد الدين اسماعيل (الأيوبي) وعند وزيره أمين الدولة. وأما ولده مؤيد الدين صاحب هذه الترجمة فكان شاباً حسناً دمث الأخلاق كثير الاحتمال والخدمة. لم يصحبه بنفسه مع عظم بيته وعدم احتياجه بل تحمله المروءة على ذلك. وكان يعظم الصحابة رضوان اللّه عليهم ويترضى عنهم ويذم من يسلك غير ذلك ويبري منه..... توفي يوم الاربعاء ٦ ربيع ٢ سنة ٦٧٠/ ١٢٧١.

ويذكر المؤلف أنه كان بينه وبين مؤيد الدين صحبة وأنه كان شيعياً لكنه لم يذكر الصحابة بسوء[1].

٤ - **ابن معقل البعلبكي**: أحمد بن علي بن حمير أبو العباس صفي الدين البعلبكي المعروف بابن معقل. كان من أماثل أهل بعلبك وله جثة متوسطة وعنده مكارمة وسعة صدر وحسن عشرة. وكان متشيعاً متغالياً في ذلك وتوفي بمنزله ببعلبك العصر نهار الخميس ثالث شعبان وقد نيف على الأربعين (سنة ٦٧١/ ١٢٧٢) -رحمه اللّه- وخال والده هو عز الدين أبو العباس أحمد بن علي بن معقل بن أبي العلاء بن محمد بن معقل الأزدي ثم المهلبي الحمصي. «كان شاعراً مقتدراً على النظم وعالماً بفنون الأدب والأصول والفقه على رأي الإمامية، غالياً في التشيع، وله ديوان يختص بمدح أهل البيت عليهم السلام لكنه قد حشاه بثلب الصحابة رضي اللّه عنهم، والتعري بهم والتصريح في بعض القصائد. وكان من شعراء الملك الأمجد صاحب بعلبك وانتقل إلى حماة مدة ثم عاد إلى بعلبك وتزهد وانقطع إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٤٤/ ١٢٤٦»[2].

٥ - **عيسى بن موفق**: «... بن المزهر مبارك سيف الدين التنوخي كان من أعيان الأمراء الحلبيين. ووالده الأمير ناصر الدين كان خصيصاً بالملك الصالح عماد الدين رحمه اللّه تعالى. وكان هذا سيف الدين كثير الخير والمروءة صادق اللهجة لا يذكر أحداً

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ص ٤٥٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦٦.

بسوء كثير البر بمعارفه وأصحابه والمكارمة لهم. توفي ببعلبك ليلة الأحد خامس صفر سنة ٦٧٢/ ١٢٧٣ وحمل إلى قرية بحوشية من قرى البقاع البعلبكية وهي شمال كرك نوح عليه السلام فدفن بها عند أهله وقد نيف على الستين سنة من العمر رحمه اللّه تعالى»[1].

٦ - **مبارك بن حامد:** «.....بن أبي الفرج المنعوت بالتقي الحداد كان من كبار الشيعة المتغالين في مذهبه عارفاً به وله صيت في الحلة والكوفة وتلك الأماكن وعنده دين وأمانة وصدق لهجة وحسن معاملة. وكانت وفاته ببعلبك يوم الأحد ١٨ ذق سنة ٦٧٤/ ١٢٧٥ وهو في العشر السبعين رحمه اللّه. ورثاه جمال الدين محمد بن يحي الغساني الحمصي بقوله:

لـو أن البـكا يجـدي علـى أثـر هالك بكينا على الدهر التقي المبارك»[2]

٧ - **مفيد الدين محمد بن عبد اللّه:** «.... بن أبي أسامة ابن الشيخ جمال الدين أبي صالح المعروف بابن الأحواضي كان مفنناً ذا علوم كثيرة والغالب عليه المنطق والحكمة والفلسفة والميل إلى مذهبهم (مذهب الشيعة). توفي بقرية حراجل من جبل الجرديين ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى ولم يبلغ الأربعين سنة ٦٧٤/ ١٢٧٥. ووالده شيخ الشيعة والمقتدى به عندهم والمشار إليه في مذهبهم»[3].

٨ - **ليث الدولة:** «..... محمد بن أبي الحسن بن البعلبكي مقدم بعلبك. كان رجلاً شجاعاً مقداماً خبيراً بالحروب وتقدمة الرجال صبوراً فيها صادق اللهجة كثير الصوم كان صومه أكثر من فطره عنده ديانة وتعبد وتشيع. توفي ببعلبك ليلة الاربعاء مستهل صفر ودفن يوم الاربعاء ظاهر باب حمص من مدينة بعلبك وهو في عشر الثمانين رحمه اللّه تعالى. وكان أمير عشرين فارساً. وإذا حضر الحرب ترجل وقاتل راجلاً ولم يكن في وقته من يضاهيه في الرجلة (الرجولة) والشجاعة وكرم الطباع وقوة النفس والصبر على المكاره[4].

(١) المصدر السابق ص ٤٩٥.

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٧.

(٣) المصدر السابق ص ٥٣٩

(٤) المصدر السابق ص ٥٨١: وفيات سنة ٦٧٥/ ١٢٧٦.

ربما هذا الرجل البعلبكي هو الشيعي الوحيد الذي أعطي إمرة عشرين عند المماليك، أي أنه يحمل رتبة «أمير». وطبعاً حصل على هذه الرتبة قبل تحرير طرابلس وعكا أي يوم كان المماليك يحتاجون إلى تجنيد كل من يمكن تجنيده في الحرب ضد الصليبيين وقبل أن يخرج ابن تيمية بنظرياته التي أفتت بقتل الشيعة.

٩ - **محمد بن الموفق:** «...... بن زهر مبارك أبو عبد اللّه الأمير نجم الدين: وقد تقدم ذكر أخيه عيسى رحمه اللّه ووفاته في أوائل هذه السنة. وتوفي نجم الدين محمد المذكور ليلة السبت ١٧ رجب سنة ٦٧٢/ ١٢٧٣ بقرية بحوشية ودفن بها عند أهله وهو في عشر الستين رحمه اللّه تعالى وكان عنده ديانة وتشيع ومعرفة بمذهبه وتغالى فيه. كثير المكارم حسن الصحبة والأدب مع من يصحبه رحمه اللّه تعالى[1].

١٠ - **حسام الدين لولو بن عبد اللّه:** «.... أحد كتاب الجيوش بالشام وهو عتيق بدر الدين جعفر بن محمد الآمدي أو عتيق أخيه موفق الدين علي بن محمد. وهو ممن استفاد صناعة الكتابة والتصرف وبرع في ذلك وخدم الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص. وتوفه (تقدّم؟) عنده حتى كان مداراة أموره عليه وهو في رتبة وزير صغير. فلما توفي الملك الأشرف انتقل من حمص إلى دمشق واستوطنها واستخدم في مشارفة ديوان الجيش بها. وكان الديوان بأسره عبارة عنه والرفقة تبعاً له. وكان غزير المروءة طاهر اللسان متفضلاً على معارفه وأصحابه كثير البر لمن يقصده في حاجة والمسارعة إليها حسبما يمكنه. وكان شيعياً متغالياً في التشيع داعياً إليه. ركناً لأهل مذهبه يلجأون إليه في أمورهم. ولم يسمع عنه ملاعنة كلمة يؤخذ عليها فيما بلغني عنه. وكنت أسمعه إذا ذكر أحداً من الصحابة رضي اللّه عنهم يترضى عنه ويذكره بأجمل ذكر وأما أهل البيت فيوفيهم حقهم في الموالاة والمبالغة في ذلك. توفي بدمشق يوم الأحد سادس عشرين ربيع الاول (سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩) ودفن بسفح جبل قاسيون رحمه اللّه وهو في عشر الستين»[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٧٢٣.

١١ - **فخر الدين أحمد بن النعمان**: «..... بن أحمد أبو العباس المعروف بابن المنذر الحلبي ناظر الجيوش في بالشام. كان رئيساً عنده مكارم وحسن عشرة وهو من أعيان الحلبيين ولي المناصب الجليلة وله الوجاهة التامة مشكور السيرة بين الناس لا يصدر منه في حق أحد إلا الخير وكان عنده تشيع ولم يسمع منه ما يؤخذ عليه. وكان ظاهر حمص وقت المصاف واتفق وقوفه بالميسرة فلما كسرت كان في جملة المنهزمين ووصل إلى بعلبك وقد خامره الرعب والتاث مزاجه من السوق وشدة الحركة مع الخوف. فتوفي بدمشق ليلة الثلاثاء ١٦ رمضان (سنة ٦٨٠/ ١٢٨١) ودفن بسفح جبل قاسيون وقد ناهز ستين عاماً رحمه اللّه»[١].

١٢ - **علي بن المظفر**: «.... بن ابراهيم بن زيد الأديب البارع الفاضل المقرىء المنشىء الناظم علاء الدين الكندي الاسكندراني ثم الدمشقي المعروف بالوداعي كاتب ابن وداعة. ديوانه يدخل في مجلدين كبيرين. إلا أنه كان يتشيع ويتوعر بذلك في ألفاظه وما يتورع. وكتب الدرج موقعاً بالحصون مدة طويلة ثم دخل آخر عمره ديوان الانشاء بدمشق على رأي العوام بألف حيلة. وكان هجّاماً على الأعراض هجّاءً للجواهر والأعراض وكان الناس ينفرون منه لذلك. توفي ليلة الاربعاء ١٧ رجب سنة ٧١٦ / ١٣١٦. ومولده سنة ٦٤٠ تقريباً. وكان شاهداً بديوان الجامع الأموي وولي مشيخة الحديث بالنفيسة وتولى نظر الصبيبة وبانياس فيما أظن.... وإنما سمي علاء الدين الوداعي لأنه كان يكتب للصاحب علاء الدين بن وداعة[٢].

١٣ - **محي الدين محمد بن عدنان** بن الحسن الحسيني العلوي الدمشقي المعتزلي ولد سنة ٦٢٦/ ١٢٢٩ وكان داعية إلى مذهب الإمامية معتزلياً جلداً يناظر على ذلك وولي نقابة الاشراف بدمشق ثم تركها لولديه حسين وجعفر فاتفق أنهما ماتا في حياته فاحتسبهما وصبر ولم تنزل له دمعة فأكرم بأن ولى النقابة حفيده عدنان بن جعفر. وكان محي الدين متعبداً كثير التلاوية والانقطاع بالمرة ولم يسمع منه سب للسلف بل كان يظهر الترضي

(١) المصدر السابق ص ٧٥٩.

(٢) الصفدي، أعوان النصر ترجمة رقم ١٢٣٨ ج ٣ ص ٥٤٦.

عن عثمان وغيره ولا يقطع التلاوة وعمر دهراً طويلاً مات في ذق سنة ٧٢٢/ ١٣٢٢[(١)].

١٤ - **محمد بن أبي بكر**: «.... بن أبي القاسم شيخ الإمامية وعالمهم شمس الدين الهمداني الدمشقي السكاكيني الشيعي. قال شيخنا الذهبي رحمه اللّه: حفظ القرآن بالسبع وتفقه وتأدب وسمع في حداثته من الرشيد بن مسلمة والرشيد العراقي ومكي بن علان وجماعة وخرّج له ابن الفخر عنهم.

وربيَ يتيماً فأقعد في صناعة السكاكين عند شيخين رافضيين فأفسداه وأخذ عن أبي صالح الحلبي وصاحب الشريف محي الدين بن عدنان وله نظم وفضائل ورد على التلمساني في الاتحاد وأم بقرية جسرين مدة ثم أخرج منها وأمّ بالسامرية ثم إنه أخذه منصور بن جماز الحسيني معه إلى المدينة لأنه صاحبها واحترمه وأقام بالحجاز سبعة أعوام ثم رجع. وهو شيعي عاقل لم يحفظ عنه سبّ بل نظم في فضائل الصحابة وكان حلو المجالسة ذكياً عالماً فيه اعتزال وينطوي على دين وإسلام وتعبد على بدعته وترفّض به ناس من أهل القرى. قال الشيخ تقي الدين بن تيمية: هو ممن يتشيع به السني ويتسنن به الرافضي. وكان يجتمع به كثيراً وقيل إنه رجع آخر عمره عن أشياء. نسخ صحيح البخاري وكان ينكر الجبر ويناظر على القدر. وتوفي في ١٦ صفر سنة ٧٢١/ ١٣٢١ ومولده سنة ٦٣٥/ ١٢٣٧»[(٢)].

١٥ - **الشيخ جمال الدين ابراهيم بن أبي الغيث بن الحسام**: أحد أهم وأشهر علماء الدين الشيعة في مطلع القرن الثامن/ الرابع عشر. يكتسب شهرته من تلك العلاقات الوثيقة التي نسجها مع عدد من رجال الدين السنة الذين حاوروه في مسائل عادة ما يختلف الشيعة والسنة بسببها. وكان أحد أهم محاوريه الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية الحنبلي الدمشقي. وتعتبر هذه الملاحظة مهمة جداً، لأن ابن تيمية عرف وفهم وأدرك من الشيخ ابن الحسام مباشرة تفاصيل اعتقادات وعبادات الشيعة الإمامية، إذا كان حقاً يجهلها أو يتجاهلها. وهو بلا شك كان يعرف ماذا يعني الانتماء إلى

---

(١) الدرر ج ٤ ص ٤٧ ترجمة رقم ١٣٦.

(٢) الصفدي، أعوان النصر ترجمة رقم ١٥٢٥ ج ٤ ص ٣٥٥.

المذهب الإمامي من قراءته لما كتبه العلامة الحلي وسواه من علماء الإمامية، ومن مجالسته وحواره مع الشيخ محمد بن أبي بكر الهمداني. فحواراته مع ابن الحسام قد زادته معرفة بالتأكيد. ورغم ذلك فقد زعم في الرسالة الشهيرة لسلطان المماليك أموراً ادعى أن الشيعة يقومون بها ودعا إلى قتلهم واستئصالهم بسببها وهو يعلم علم اليقين أن ذلك كذب وافتراء (يأتي الحديث عن هذه المسألة بالتفصيل). كما حاور الشيخ ابن الحسام المؤرخ الكبير صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الذي كتب عنه كتابة صديق يصف صديقاً، وكان منصفاً إلى حد بعيد فيما رواه. وربما يعتبر الصفدي المصدر الأساس في التعريف بهذا العالم الذي لا زال منسياً إلى حد بعيد عند كتّاب الشيعة. أما الترجمة المشهورة له فترد عند الصفدي في الكتابين الكبيرين: «الوافي بالوفيات» و«أعوان العصر» وفيها يقول الصفدي: «ابراهيم بن ابي الغيث الشيخ جمال الدين ابن الحسام البخاري الفقيه الشيعي. كان المذكور مقيماً بنواحي الشقيف من بلاد صفد بقرية مجدل سلم. كان إماما من أئمة الشيعية هو ووالده قبله، أخذ عن ابن العوّاد (العود) وابن مقبل الحمصي ورحل إلى العراق وأخذ عن ابن المطهر (الحلي). كان قد اتخذ في القرية المذكورة مجلسين أحدهما معد للوفود والأضياف، والآخر لطلبة العلم. ونهاره مقيم تارة يجلس إلى من زاره وتارة يجلس لطلبة العلم. وجوده يصل إلى المجلسين غداء وعشاء. رأيته أنا في قريته مجدل سلم سنة اثنتين وعشرين وسبع مئة (١٣٢٢) ودار بيني وبينه بحث في الرؤية وعدمها وطال الوقوف على جبلها والطواف بحرمها وهو في ناحية الاعتزال واقف وأنا عن السنة مجادل أثاقف وهو للحنظل ناقف وأنا للعسل مشتار ولاقف. وطال النزاع وامتد واحتدم كل منا الوغى واحتد. وكان شكلاً حسنا وذا منطق لسناً، قد أدمن مباحث المعتزلة والشيعة وجعل التأويل له في حلة البحث وشيعة. وكان يزور الشيخ تقي الدين ابن تيمية ويحمله في مباحثه على ما عنده من الحمية ويطير بينهما شرر تلك النيران وتمل من وخدهما في قفار الجدل الأزمة والكيران. ولم يزل في تلك الناحية قائماً بنصرة مذاهب الشيعة والاعتزال دائماً على جذب من يستضعفه من أهل السنة بالانقطاع والاختزال إلى أن سكت فما نبس وبطل من حركاته واحتبس.

وكان شكلا حسنا تاما لطيف الأخلاق ريض النفس وأهل تلك النواحي يعظمونه، قال القاضي شهاب الدين (ابن فضل اللّه العمري): آخر عهدي به في سنة ست وثلاثين وسبع مائة، وقال: كتبت إليه وقد طالت غيبته بعد كثرة اجتماع به في مجلس شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه اللّه. قال: ابن الحسام كان كثيرا ما يتعهد مجلسه ويستوري سنا الشيخ وقبسه، وكانت تجري بيننا وبينه بحضور الشيخ مناظرات وتطول أوقات مذاكرات ومحاضرات والذي كتبت إليه[1]:

حتى خيالك لم يحلم به حلمي لأن عيني بعد البعد لم تنم
أفنيت صبري بدمع والتهاب حشا ما بين منسجم منه ومضطرم
أحن للمجدل المنسوب في سلم فوق الحنين إلى أيام ذي سلم
وما ذكرتك إلا كنت من دهش أغص فيك بورد البارد الشيم
أهوى المسير إلى لقياك مجتهدا لكن يقصر بي التقصير في هممي
ولست أخشى نهارا سل صارمه حتى يخلف أذيال الدجى بدمي
ولا أخاف ضلالا في ظلام سرى لأنني أهتدي بالعلم والعلم

قال: فكتب إلي:

وديمة مطرت ربعي على ظما حتى انتعشت بها من أفضل الديم
سحابة لابن فضل اللّه جاد بها من ابتداء فكانت غاية الكرم
دب السرور بها في كل جارحة مني كمثل دبيب البرء في السقم
سعادة قرعت بابي وما لغبت مطيتي في بلوغها ولا قدمي
لثمتها حين لاحت في محاسنها درا نظيما ودرا غير منتظم
كواكب سبعة تهدي لناظرها نور الربيع وتجلو غيهب الظلم
جعلتها من هموم الصدر واقية تميمة ولدفع الضر والألم
كأنني حين حلتني قلائدها نلت الشبيبة بعد الشيب والهرم

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ترجمة رقم: ١٦٤ ج ٦ ص ٥٢.

نفسي الفداء لمنشيها ومسبغها ... من فضله نعمة من أسبغ النعم
جاوبته وجوابي دون رتبته ... هيهات أنى يقاس السيف بالجلم
لست كقدر أبي العباس إن له ... قدرا تقصر عن إدراكه خدمي
وليتها عرضة في صدر مجلسه ... من راحتي وعلا إسنادها بفمي

ومن شعر ابن الحسام قوله:

هل من أحمله إليه رسالة ... فيبث من شوقي إليه إليه
ويقوم في الشكوى مقامي عنده ... ويقص من وجدي عليه عليه
ويرى جواي فيتقيه بمثله ... فيكون تبريحي لديه لديه

ومنه:

طفلا حملت هواكم لا عدمتكم ... فشاب رأسي وما ثابت غدائره
والشيب داء إذا ما لاح في رجل ... يزور عنه من الأحباب زائره

ومن شعره يصف نمساً أفسد خلايا رجل فعمل له مصيدة من رحى وقعت عليه فاختنق:

ومقشعر الجلد مزور الحدق ... لا يرهب الليل إذا الليل غسق
مستتر حتى إذا النجم بسق ... عدا على النحل فآذى وفسق
وفتح الأبواب منها وخرق ... وكسر الأصنام فيها ومحق
سقطته بمستدير كالطبق ... كضغطة القبر إذا انطبق
فما استقرت فوقه حتى اختنق ... من صخر حوران شديد المتسق
من لج في البحر تغشاه الغرق ... أو سارع الدهر إلى الحتف اختنق

ومنه:

هل عاينت عيناك أعجوبة ... كمثل ما قد عاينت عيني

مصباح ليل مشرق نوره والشمس منه قاب قوسين

وله ايضاً:

قامت تودعني فقلت لها امهلي حتى أودع قبل ذاك حياتي
فإذا عزمت على الرحيل تركتني رهن البلى ومجاور الأموات

ولا يبدو أن الشيخ جمال الدين قد استفاد كثيراً من مصاحبة الشيخ ابن تيمية ولا من جداله مع شيوخ من غير مذهبه لأن السلطنة المملوكية كانت قد شرعت بمحاربة الوجود الشيعي في بلاد الشام. فهاجمت بيت الشيخ في مجدل سلم وصادرت كتبه، فكتب متظلماً:

لئن كان حمل الفقه ذنبا فإنني سأقلع خوف السجن عن ذلك الذنب
وإلا فما ذنب الفقيه إليكم فيرمى بأنواع المذمة والسب
إذا كنت في بيتي فريدا عن الورى فما ضر أهل الأرض رفضي ولا نصبي
أوالي رسول اللّه حقا وصفوة وسبطيه والزهراء سيدة العرب
على أنه قد يعلم اللّه أنني على حب أصحاب النبي انطوى قلبي
أليس عتيق مؤنس الطهر إذ غدا إلى الغار لم يصحب سواه من الصحب
وهاجر قبل الناس لا ينكرونها بها جاءت الآثار بالنص في الكتب
وبالثاني الفاروق أظهر دينه بمكة لما قام بالمرهف العضب
وأجهر من أمر الصلاة ولم تكن لتجهر في فرض هناك ولا ندب
وقد فتح الأمصار ما رد جيشه جالت خيول اللّه في الشرق والغرب
وجهز جيش العسرة الثالث الذي تسمى بذي النورين في طاعة الرب
وإن شئت قدم حيدرا وجهاده وإطفاه نار الشرك بالطعن والضرب
أخو المصطفى يوم المؤاخاة والذي بصارمه جلى العظيم من الكرب
كذاك بقايا آله وصحابه وأكرم بهم من خير آل ومن صحب

أولائك ساداتي مـن الـنـاس كـلـهـم فسلمهم سلمـي وحـربـهـم حـربـي
وفي بيعة الرضـوان عـنـدي كـفـاية فحسبي بها من ربتة لهم حـسبي[١]

ولما تشيع السلطان خدابندا قال جمال الدين ابراهيم بن الحسام يمدحه:

أهـدي إلـى ملـك الملـوك دعائـي وأخصـه بمدائحـي وثنائـي
وإذا الـورى والـوا ملـوكاً غيـره جهـلاً ففيـه عقيدتـي وولائـي
هـذا خدابنـدا محمـدٌ الـذي سـاد الملـوك بدولـة غـرّاء
ملـك البسـيطة والـذي دانـت لـه أكنافهـا طوعـاً بغيـر عنائـي

....

وبسـطتَ فيـه بذكـر آل محمـد فـوق المنابـر ألسـن الخطبـاء
وغـدت دراهمـك الشـريفة نقشـها باسـم النبـي وسـيد الخلفـاء
ونقشـت أسـماء الأئمـة بعـده أحسـن بـذاك النقـش والأسـماء[٢].

هذه السلسلة من العلماء والرجال الشيعة في بداية عهد المماليك تثبت ذلك التواجد الصلب للشيعة في لبنان. قد يبدو غريباً أن مؤرخي الشيعة وأصحاب كتب الرجال المحدثين مثل الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي والسيد محسن الأمين العاملي وسواهما لم يأتيا على ذكر هؤلاء العلماء. وإذا صادف وذكر أحد منهم فبكلام موجز لا يعطي صورة واضحة عنه. لقد قام بالحديث عن هؤلاء كما هو واضح، رجال دين من السنة من أمثال الصفدي والعمري وهما أشهر من كتب في الرجال والتاريخ في القرنين السابع والثامن/ الثالث والرابع عشر. ثم أتى من علماء الشيعة وكتابهم من تحدث عن محاولات لطمس التاريخ الشيعي. ولطالما تحدث كتاب الشيعة بألم عن تجاهل التاريخ الشيعي، رغم أن احتمال وجود عدد أكبر من علماء الدين أو الزعماء المدنيين يظل حقيقة مغيبة يلام على طيها في النسيان العلماء والمؤرخون الشيعة،

(١) (الصفدي، أعيان العصر ترجمة رقم ٤١ ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨.
(٢) الصفدي، أعوان النصر ج ٤ ص ٣١٥.

قبل سواهم، الذين لم يبادروا إلى ذكر رجالاتهم ووصف أحوالهم. فليس من المنطق أن تكون هناك ما يشبه إمارة في جزين قبل وصول المماليك إلى السلطة ولا يذكرها أحد ولا يعرف عن قادتها شيء. وما يعرف اليوم من أسماء لبعض العلماء والرجال، كما مر، قد وجد في بطون كتب وضعت في الأساس للحديث عن رجال السنة وليس للشيعة، وإنما ذكر عرضاً بعض الشيعة لأنه لم يكن من الممكن طمس سيرتهم. أما العطاء الأكبر الحضاري للشيعة فسيكون في مرحلة تالية من منتصف القرن الثامن/ الرابع عشر.

الفصل السادس

شيعة لبنان في مواجهة المماليك

١ - الحملات الكسروانية: أسبابها ونتائجها

٢ - ابن تيمية يشرّع ذبح الشيعة

٣ - رسالة ابن تيمية الشهيرة

٤ - اضطهاد الشيعة بعد الحملات الكسروانية

٥ - منع الشيعة من ممارسة مذهبهم في بيروت وصيدا وما حولهما

٦ - ثورة شيحين

٧ - هجوم تيمورلنك

١ - الحملات الكسروانية: أسبابها ونتائجها

تقع منطقة كسروان في الجهة الغربية من جبال لبنان المشرفة على بيروت والقريبة منها من جهة الشمال الشرقي. وقد عرفت هذه المنطقة حالة من الاستقرار النسبي أثناء وجود الصليبيين على السواحل فلم يكن لهؤلاء أي تواجد عسكري حقيقي في جبال كسروان بل اعتبرت أشبه بمنطقة فصل قوات بين المسلمين في البقاع والصليبيين على سواحل جبيل وكسروان. وقد بدأت كسروان تخرج إلى واجهة الأحداث بعد تَمَكُّنِ المماليك من استلام السلطة في مصر والشام بحيث كان أمراء هذه الدولة، وهم عادة من العسكر يبحثون عن مغانم يحصلون عليها، ومغارم يفرضونها على البلاد والعباد سواءاً كانوا مسلمين أو غير مسلمين. وفي بطون التاريخ الذي كتبه جماعة من المؤرخين المعاصرين كثير من الأخبار عن رسوم وضرائب وإتاوات كانت تفرض على الناس دون وجه حق. وقد أقدم بعض السلاطين على ألغائها في فترات قصيرة من باب اثبات التوبة والاستغفار. لذلك ليس بالغريب على هؤلاء أن يتهموا جماعة من المسلمين أو غير المسلمين بأي تهمة حتى تكون لهم حجة للنهب والسلب، وأفضل مثال على هذا الأمر ما جرى في كسروان ضد السكان المسلمين وعامتهم من الشيعة الذين تحولوا بهذا السبب إلى هدف يرمى من سلاطين المماليك ووعاظهم من شيوخ الفتن.

بدأ المماليك طريقتهم بتوجيه الاتهام للشيعة بممالأة الصليبيين عندما هاجم الظاهر بيبرس صفد (سنة ١٢٦٥). فيرد في بعض المصادر أن السلطان «طلب أهل بلاد الساحل من الفلاحين وقرر عليهم أموالاً سماها جنايات وألزمهم بحملها إلى بيت المال عن ديات من قتل وليس له وارث وهو ما نهبوه من مال جهل مالكه. فحملت من ذلك أموال كثيرة جداً من بلاد نابلس وبلاد الساحل وانكسرت شوكة أهل العيث والفساد بذلك بعدما كان الضرر عظيماً بهم من تسلطهم على الرعية ونقلهم الأخبار للفرنج. فرأى

السلطان عقوبتهم بهذا الفعل أولى من قتلهم فإنهم أصحاب زرع وضرع»[١]. وكما هو واضح من هذا النص فإن العقوبة شملت ليس الشيعة في بلاد صور فقط، بل السنة في نابلس وما حولها، والتهمة بالعيث والفساد والتسبب بالضرر سهلة ويمكن إلصاقها بأي جماعة. لذلك سيكون أسهل في جعل هذا الاتهام حقيقة عندما يجد السلطان أن السكان قد أعانوا أحد خصومه من المسلمين، فعندما تمرد القائد المملوكي والي دمشق سنقر الاشقر سنة ٦٧٩/ ١٢٨٠ على السلطان المنصور قلاوون اجتمع معه رجال كثيرون من جبال بعلبك[٢]. وهي الجبال اللبنانية الغربية (كسروان وجبيل والجرد) التي كانت تتبع إدارياً لمدينة بعلبك. وقد انهزم سنقر الأشقر ثم تصالح مع السلطان الذين سامحه وأغدق عليه العطاءات أما من كانوا أنصاره فقد دفعوا ثمن تمرده لكن ليس في حرب مباشرة.

وفي نفس الفترة كان رجال كسروان والجرد والجبليين يشاركون في هجوم ضد الصليبيين في مدينة طرابلس. وقد فشل الهجوم ووقع عدد من رجالهم أسرى بأيدي العدو[٣]. وظلوا في سجون الصليبيين حتى تمكن السلطان قلاوون من تحريرهم عندما دخل طرابلس سنة ١٢٨٩ مما يدل على أن الشيعة في جبل لبنان أو سكان كسروان وجبيل والجرد لم يكونوا مع الصليبيين أو حلفاء لهم. لكن ذلك لا يشفع لجماعة لا تتبع مذاهب السلطان الذي رأى في بلادهم مغانم كثيرة يبحث عنها فسير إليهم الحملة تلو الأخرى ليقضي عليهم ويستأصلهم.

الحملة الأولى: (سنة ٦٩١/ ١٢٩٣): بدأت جيوش المماليك التحرك من دمشق وما حولها لتأديب الكسروانيين والجبليين (المقصود بكلمة جبليين سكان الجبل المطل على مدينة جبيل) بعد أن اطمأن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣/ ١٢٩٠-١٢٩٣) إلى قوته بعد إسقاط كل الساحل الشامي وتحريره من الفرنج. فجهز السلطان «..... طائفة من الجيش نحو جبال كسروان والجرد بسبب ممالأتهم

(١) المقريزي، السلوك، ج١ ص ٥٥٤.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ص ٧٢٧ (حوادث سنة ٦٧٩/ ١٢٨٠).

(٣) المصدر السابق ص ٧٩٧.

للفرنج قديماً على المسلمين. وكان مقدم العساكر بيدرا وفي صحبته سنقر الأشقر وقراسنقر المنصوري الذي كان نائب حلب فعزله عنها السلطان وولى مكانه سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري وجماعة آخرون من الأمراء الكبار. فلما أحاطوا بالجبل ولم يبق إلا دمار أهله، حملوا في الليل إلى بيدرا حملاً كثيراً ففتر في قضيتهم. ثم انصرفت الجيوش عنهم وعادوا إلى السلطان (الأشرف خليل) فتلقاهم السلطان. وترجل السلطان إلى الأمير بيدرا وهو نائبه على مصر. وثم ابن السلعوس (شمس الدين بن السلعوس وزير السلطان الأشرف خليل) نبّه السلطان على فعل بيدرا فلامه وعنفه فمرض من ذلك مرضاً شديداً أشفى به على الموت حتى قيل أنه مات، ثم عوفي فعمل ختمة عظيمة..... وأطلق السلطان على أهل الحبوس وترك بقية الضمان عن أرباب الجهات السلطانية، وتصدق عنه بشيء كثير. ونزل هو عن ضمانات كثيرة كان قد حاف فيها على أربابها...»[1].

مصدر آخر للحملة الأولى على كسروان وبلاد الجبليين من أحد المؤرخين الذي عاش في عهد المماليك يضع الأسباب التي كان يتقولها الحكام على أهل كسروان والجبل فيقول: «كان السبب في ذلك أن السلطان لما كان نازلا على قلعة الروم كان أهلها (أهل كسروان) ينزلون ويقطعون الطريق على التجار والمسافرين، وهم كانوا دائما عصاة على نائب الشام وغيره، وكان الشجاعي لما كان نائب الشام أراد أن يركب إليهم بالعساكر، فمنعه أمراء الشام لما يعلمون من كثرتهم ومنعتهم، ولضيق الطرقات إليهم بحيث لا يسلكها الفارس. ولما دخل السلطان (الأشرف خليل) دمشق عرفوه بأمرهم، فاقتضى رأيه أن يجرد عسكرا صحبة بيدرا، وكان بيدرا قد وقف على حقيقة هؤلاء القوم، فكره الذهاب إليهم. فلما خاطبه السلطان بذلك شرع في الاستعفاء، فخرج السلطان من ذلك وصاح في وجهه وأخرجه من بين يديه وألزم نفسه أنه متى ما لم يسافر قبض عليه. فاضطر بيدرا عند ذلك إلى خروجه، فخرج ومعه عسكر نحوا من عشرة أمراء وثلاثة آلاف فارس، فساروا إلى أن وصلوا إلى جبال كسروان ورتبوا أمورهم، فعلم بهم الجبلية فخرجوا إليهم في جمع عظيم،

(١) ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٥ ص ٥٦٠ -٥٦١ أحداث سنة ٦٩١.

وكانوا كفرة روافض ولهم شوكة كبيرة، وجمعهم بمقدار عشرة آلاف نفر، وكلهم يرمون على القسى القوية، ومشيهم في تلك الجبال أسرع من مشى الخيل لأنهم تربوا فيها وألفوا بها. فاستقبلوا عسكر السلطان بالرمي والقتال، ثم رجعوا عن ذلك كالمنكسرين، وكان ذلك حيلة منهم حتى يستجروا العسكر إلى المواضع الصعبة، ثم يفعلون فيهم ما يشاءون. فلما حصلوا في تلك المواضع رجعوا عليهم ورموهم بالأحجار والقسى ونالوا منهم. ثم إن عسكر السلطان قاتلوهم قتالا عظيما على أن يجدوا طريقا فيرجعون عنهم، وكانوا قد ملكوا الطريق عليهم، ورأى العسكر شدة عظيمة إلى أن رجعوا إلى مكان وطلعوا منه، وقتل في ذلك اليوم تحت بيدرا ثلاث(ة) رؤوس من الخيل، وكذلك سائر الأمراء، فلما نزلوا إلى المخيم، افتقدوا العسكر، فوجدوا قد جرحت منهم جماعة وأسرت جماعة، فتحيروا ولا يدرون ماذا يفعلون. وكانت الجبلية يعتقدون أن هذه العساكر هم عسكر الشام، فلما سألوهم قالوا: إنه نائب السلطان الأمير بيدرا، ولما علموا بذلك ندموا على فعلهم، وأطلقوا الأسرى، وسألوهم أن يتوسطوا في إصلاح أمرهم مع السلطان خشية على أنفسهم. فهؤلاء عرفوا الأمراء، فأشارت الأمراء على بيدرا بإصلاح الأمور وإلا منعت العسكر، واتفق الحال على أن الجبلية أرسلوا من استحلف بيدرا والأمراء على أنهم لا يؤذونهم ولا يخونوهم، فانصلح الأمر بينهم. ثم نزلوا بالإقامات وأحضروا هدايا كثيرة، وخلع بيدرا عليهم، وكتب عليهم، بمال يحملونه كل سنة، واستحلفهم للسلطان، ثم رحل عنهم. ولما وصل إلى دمشق كان الخبر وصل قبله إلى السلطان وكان بين مصدق ومكذب، فلما حضر بيدرا تحقق الخبر، فأخذ يسبه وينكته بالقول، ويقول ويلك مثلك نائب السلطان وتروح إلى أناس فلاحين في جبل وتكسر عسكرى وتنكسر أنت، فأغلظ عليه بالقول كثيرا، وآخر الأمر قال له: اخرج من وجهي وإلا ضربت رقبتك. فخرج من بين يديه وهو في ألم عظيم، وحصلت له حمى حادة، وأصبح خبره شائعا بضعفه، وركبت إليه الأمراء، فمنع من يدخل إليه، وسير السلطان الحكماء والوزير إليه، وتألم بسببه، وبقى من العشر الأول من رمضان إلى نصفه والسلطان ينزل إليه ويطيب خاطره، ورسم أن يرتب في كل يوم عشرة آلاف درهم يتصدق بها على الفقراء والأيتام والأرامل وأصحاب الزوايا إلى أن عوفى، فلما ركب رسم أن يجمع الفقراء

والمشايخ ويعمل لهم وقت في جامع بني أمية؛ فعمل، وكان وقتا عظيما، ولم يبق في دمشق فقير ولا صعلوك إلا أكل من طعام ذلك الوقت والمهم»[١].

ليس في هذا النص سوى اعتراف وإقرار بأن الادعاء بأن هؤلاء «يقطعون الطرقات» غير صحيح. وأن نائب السلطان (بيدرا) الذي كان السلطان يأتمنه على المملكة وعلى نفسه، قد اقتنع بعد المواجهة الأولى بأن الكسروانيين والجبليين ليسوا بذلك السوء الذي وصفوا به. في تلك المواجهة القصيرة كان مع بيدرا عدد من الفرسان منهم سنقر الأشقر الذي تمرد سابقاً على السلطان قلاوون ثم تصالح معه وأكرمه وكان موثوقاً جداً بين العساكر. وكذلك كان مع العساكر الفارس قراسنقر المنصوري أحد الرجال الذين كان السلطان قلاوون يعتمد عليهم في المهام الصعبة. وقد وقف هذان الفارسان دون اعتراض على ما فعله بيدرا لقناعتهما الواضحة بأن الحملة على كسروان والجبل كانت ظالمة وليس لها ما يبررها.

يمكن أن يكون التفسير الحقيقي لتراجع بيدرا هو ما ذكره المؤرخ الذهبي والذي يصرح بهزيمة العسكر المملوكي أمام رجال الجرد فيقول: «... وأما نائب السلطنة بيدرا وسنقر الأشقر وقراسنقر (المنصوري) وبكتوت العلائي وكثير من الجيش فسار إلى بعلبك ثم إلى جبل الجرديين ووفاهم من جهة الساحل ركن الدين طقصو وعز الدين أيبك الحموي فنزلوا على الجبل فحضر إلى بيدرا من فتّر همته عنهم وتمكنوا من أطراف الجيش في تلك الجبال الوعرة ونالوا منهم. فرجع الجيش شبه المقهورين وحصل للجبليين الطمع والقوة. ثم هادنتهم الدولة وخُلع على جماعة منهم وحصل بذلك للعسكر وهن»[٢].

وينقل أحد مؤرخي جبل الغرب ما جرى من جهة التنوخيين (الدروز) وكيف شاركوا في تلك الحرب وأسبابها ونتائجها فيقول مبتدئاً بالحديث عن وفاة أحد أمراء الغرب: «.... وفي هذه السنة (٦٩٧/ ١٢٩٨) توفي الأمير جمال الدين حجي ابن محمد ابن حجي ابن كرامة ابن بحتر التنوخي أمير الغرب وكان يعرف بجمال الدين الكبير. توفي

(١) بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج١ ص ٢٣٩.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام ج ٥٢ ص ١٤.

نهار الثلثا تاني عشر شوال من هذه السنة سبعة وتسعين وستماية (٢٢ تموز ١٢٩٨). وكان مولده في جمادي الآخرة سنة ثلاثة وثلاثون وستماية. ومن جملة مطالعات لاجين (حسام الدين لاجين) لما كان نايب الشام (١٢٨٠ ـ ١٢٩١) إلى الأمير جمال الدين حجي المذكور وإلى زين الدين ابن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة كسروان والجردين يتوجها إليه بجموعهما وأهويتهما. وأن من نهب امرأة منهم كانت له جارية أو صبي كان له مملوكاً. ومن أحضر منهم رأساً فله ديناراً. وأن سنقر (الأشقر) توجه لاستيصال شأفتهم، ونهب أموالهم، وسبي ذراريهم وأنفسهم، وهذه المطالعات قبل هذه السنة»[1].

ويبدو أن الأعذار الكثيرة التي قيلت لتبرير الهجوم على كسروان وجبيل والجرد قد استكملت وازدادت. ووجد المماليك فيما بعد أسباباً إضافية فنفذوا مذابحهم وقتلوا ونهبوا وخربوا البلاد مما دفع أهالي كسروان إلى التعامل مع المماليك كأعداء وليس كمسلمين.

هناك رأي أكثر ظلامية مما كتبه مؤرخو العهد المملوكي هو ما ابتدعه أحد كتاب العصر الحديث الذي تفتق عقله عن سبب لم يكتشفه الأولون فقال: « تقدم أن إفرنج الساحل لما أصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم بأهل جبل لبنان ونزلوا عليهم وعاد آخرون إلى بلادهم في المراكب وقد أثار هذا القسم اللاجىء إلى لبنان نفوس بعض أهله فكرة العصيان فعصوا. فتوجست دولة الأشرف منهم خيفة فأرسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة بدر الدين بيدرا فسار إلى جبل كسروان في العسكر وعدة من الأمراء فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لأهل الجبل الطمع والقوة فأطلق لهم محابيس بدمشق من أرباب الجرائم العظيمة وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم...»[2].

وهكذا انتهت الحملة الأولى بهزيمة جيش المماليك وانتصار الكسروانيين

(١) ابن سباط، تاريخ ابن سباط ص ٥١٦

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ١٣١).

والجرديين. واعترافاً بهزيمتهم قامت السلطنة بتكريم بعض رجال الجرد وخلعت على عدد منهم. وللأسف لم يصل أي اسم للأشخاص المكرمين من الكسروانيين. ولم يعن ذلك انتهاء الحرب بل كان كل طرف يستعد لمواجهة مقبلة.

الحملة الثانية على كسروان والجرد: في سنة ٦٩٨/ ١٢٩٩ هاجم التتار مناطق شمالي سوريا واصطدموا بجيش مملوكي فهزموه. وفر المماليك من وجه التتار والتجأ البعض منهم إلى دمشق التي هاجمها التتار أيضاً. كما فر عدد من الفرسان بينهم نائب دمشق أقوش الأفرم ومعه عدد من الفرسان فسلكوا الطريق الساحلية عبر جبيل وبيروت متوجهين إلى مصر فقام الكسروانيون بالقبض على عدد منهم وأذلوهم انتقاماً مما وقع سنة ٦٩١. وقد قام الكسروانيون كما تقول الروايات المملوكية، ببيع بعض هؤلاء الفرسان عبيداً للصليبيين مع أنه لم يكن هناك أي وجود للصليبيين في المنطقة ليتم بيع العبيد لهم. وقد تبدو بعض الروايات ملفقة بشدة. والواضح من كلام المؤرخين أن الكسروانيين قد عاملوا الفل المملوكي بقسوة ولم يساعدوهم كما كان يجب. وقد راجت أخبار عن اختفاء بعض الهاربين أثناء عبورهم في لبنان كما حدث للشيخ الحسن بن أنو شروان قاضي قضاة المذهب الحنفي في دمشق، والذي قيل إنه خرج «إلى الغزاة في ربيع الأول سنة ٦٩٩/ كانون الأول ١٢٩٩) وكان ذلك آخر العهد به. واعتقد البعض أنه هذا الشيخ قد اعتقل في لبنان من الجرديين وأبيع للصليبيين وأخذ معهم إلى قبرس[١]. والغريب في هذه الرواية قول الكاتب أن الشيخ أحمد «لم يعثر له على أثر ولا سمع عنه خبر» فكيف عرف من عرف أن الجرديين باعوه للفرنج؟ كما ذكرت رواية ثانية أن الشيخ «آقوش جمال الدين المطروحي الحاجب بدمشق، أباعه الكسروانيون للفرنج في واقعة غازان ثم شراه ابن سعيد الدولة منهم وأعطي طبلخانة بعد الوقعة وكان شيخاً مليح الشيبة توفي سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩[٢]. وفي تاريخ الوفاة المذكور ما يثبت بطلان الادعاء لأن الوقعة مع التتار وما أعقبها من هروب للماليك جرى في منتصف تلك السنة فلو حدث للشيخ المطروحي ما حدث من بيع وانتقال إلى قبرس ثم إعادة شراء وتحرير

(١) الصفدي ، أعوان النصر ترجمة رقم ٥٥٩: ج٢ ص ١٨٦

(٢) المصدر السابق ترجمة رقم ٣٠٥ ج ١ ص ٥٦٠

فإن وفاته يجب أن تتأخر حتى تصدق الرواية وما كان اللّه ليؤجل نفساً جاء أجلها من أجل رواية كاذبة.

وبذكر هذه الأسباب حتى لو كانت كاذبة احتمل المماليك ضغينة وحقداً على الكسروانيين والجرديين وعادوا، بعد أن تراجع التتار (سنة ٦٩٩/ ١٣٠٠)، لينتقموا منهم. وسيروا جيشاً كبيراً بقيادة نائب الشام جمال الدين أقوش الأفرم وفي صحبته عدد كبير من المتطوعة من الرجالة والفلاحين «إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين وأخذ عددهم. فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال التزموا به وحملوه وأقطعت ديارهم وأرضهم...»[1].

أما صورة هذه الحملة على كسروان، وهي الحملة الثانية، فقد وصفها المؤرخ الدمشقي ابن كثير الحنبلي بطريقة أكثر وضوحاً فقال في أحداث سنة ٦٩٩/ ١٣٠٠ «وفي يوم الجمعة ٢٠ من شوال(٦٩٩/ ٨ تموز ١٣٠٠) ركب نائب السلطنة جمال الدين أقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا حين اجتازوا ببلادهم وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا اسلحتهم وخيولهم وقتلوا كثيراً منهم. فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تفي الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال. وأقطعت أراضيهم وضياعهم ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة ولا يدينون دين الحق ولا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله. وعاد نائب السلطنة يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة وتلقاه الناس بالشموع إلى طريق بعلبك وسط النهار»[2].

(١) محمد كرد علي، خطط الشام ج ٢ ص ١٣٧.

(٢) ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٤ ص ١٢.

ويبدو أن ابن كثير، وهو أحد تلامذة الشيخ تقي الدين ابن تيمية، يريد أن ينسب الى شيخه النصر الكبير على الكسروانيين فطلع بهذا النص. فجيوش المماليك كانت منظمة ومنضبطة يخضع فيها الجنود لقادتهم من خلال تراتبية عسكرية اشتهر بها المماليك، فكيف أمكن للشيخ تقي الدين ابن تيمية أن يقوم بجمع الرجال وقيادتهم في عمل عسكري دون أن يأخذ رأي الحاكم المملوكي النائب الأفرم؟ كما أن الشيخ المذكور والذي حصل على يديه ما لم يحصل على أيدي أمراء الجيش، كما يقول تلميذه، قد تمكن من استتابة الكسروانيين وألزمهم برد ما أخذوه و«أقطع بلادهم» ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند. وأن سبب الحرب الحقيقي هو «بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم» ولا شك أن ابن كثير قد كتب ما افترض أنه حصل أو تمنى أن يكون قد حصل، فلا الكسروانيين قد «تابوا عن عقائدهم» إكراماً لابن تيمية، ولم يدع راوٍ أنهم قد غيروا ما كانوا عليه. كما أن الحرب لم تنته معهم بسبب هذه التوبة المزعومة، أو لأنه «أقطع بلادهم». الحقيقة لم تكن أبداً بهذا الشكل، فنائب دمشق أقوش الأفرم قد وجد نفسه عاجزاً عن محاربة الكسروانيين، لأن الحرب معهم لم تكن مضمونة النتائج، وهو يعرفهم معرفة جيدة من تجاربه السابقة معهم. فاكتفى بأخذ مبلغ من المال ثم انسحب نحو بعلبك ليتهيأ لحرب جديدة.

وينقل الشيخ الذهبي خبر الحملة الثانية على كسروان مع اتهام للجرديين بأنهم رافضة أو زنادقة فيقول: «وفي شوال (سنة ٦٩٩/ تموز سنة ١٣٠٠) توجه ملك الأمراء (آقوش) الأفرم إلى جبال الجرد لحربهم فإنهم كانوا قد بدّعوا في الجيش عقيب الكسرة وأسروا وقتلوا وسلبوا وما اتقوا ممكناً. ومع هذا فعامّتهم أن يكونوا رافضة وإلا فبعض الناس يقول هم زنادقة منحلين من الدين. فذلوا ودخلوا في الطاعة وقهروا وقُرّر عليهم مبلغ كبير من المال والتزموا برد جميع ما أخذوه للجند وأقطعت أرضهم[1]».

ويمكن التشكيك بنتائج هذه المعركة التي وصفها الذهبي تلميذ ابن تيمية بما رآه يلبي

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٥٢ ص ٩٧.

أحلامه حول إذلال الرافضة ودخولهم في الطاعة مقهورين. فلو كان الأفرم انتصر في هذه الحملة لما اضطر بعد سنتين للقيام بحملة جديدة ولما كان اضطر للقيام بحملة بعد خمس سنوات. فما جرى من حوادث بعد هذه المعركة يثبت استمرار الكسروانيين والجرديين والجبليين معاندين للدولة المملوكية وشيوخها الذين سفكوا الكثير من الدماء على الشبهات، فلم يكن من الممكن للشيعة في جبل لبنان أن يرضخوا لانحرافات السلطة المملوكية. ويمكن إيراد النص الذي كتبه الصفدي، وهو من المعاصرين للأحداث، حيث كتب عن أقوش الأفرم: «.... ولما كانت كسرة المسلمين (في معركة وادي الخزندار ربيع١ سنة ٦٩٩) وجرى من أهل كسروان ما جرى على العساكر أثر ذلك في قلبه. ولما عاد واستقرت الأمور توجه إليهم بنفسه ونازلهم ولم يحصل على طائل. ووصلت الأراجيف بأحاديث التتار فعاد عنهم»[(١)]. وهذا النص هو الأقرب إلى الواقعية من أحلام ابن كثير والذهبي.

الحملة الثالثة: ينقل الرواية عن هذه الحملة وما نتج عنها صاحب خطط الشام دون أن يسمي المصدر الذي أخذ منه. وفي الحقيقة فإن الرواية موجودة في تاريخ بيروت لصالح بن علي التنوخي الذي تحدث عن نزول الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢ وتلقيهم دعماً من الكسروانيين والجرديين، فرفعت الشكايات إلى نائب دمشق جمال الدين أقوش الأفرم. وكانت حكومة دمشق «تعمل جهدها لمنع الفرنج من الاجتماع بأهل كسروان فحشدت جيوش الشام لمقاتلتهم فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم. وقدمت الأكراد لنجدتهم (لنجدة جيش الأفرم) فصدهم كمينان في الفدار والمدفون فلم يخلص منهم إلا القليل وخربوا بعض الغرب. وكان أمراء الغرب التنوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وسليخ وعين زينونة وبحطوش وغيرها»[(٢)]. ويقول صالح بن يحي إن السبب في قتالهم أن الهاربين من وجه التتر سنة ٦٩٩/ ١٣٠٠ حصل لهم أذية من المفسدين وخصوصاً من

(١) الصفدي، أعوان النصر، ترجمة رقم ٣٠٦، ١/ ٥٦٤-٥٦٥.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ١٣٨.

أهل كسروان وجزين وأكثرهم أذية للهاربين أهل كسروان فإنهم بلغوا إلى أن أمسكوا بعضاً منهم وباعوهم للفرنج. وأما السلب والقتل فكان كثيراً إلى أن عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم(١).

وهذه الحرب لم يأتِ على ذكرها مؤرخو وكتاب العهد المملوكي الذين أسهبوا في وصف انتصارات قادتهم وأكثروا من مدح الأمراء وإعطائهم الحجج الكافية والأسباب التي تشرع غزو كسروان والجرد ولكنهم. على ما يظهر، قد انتهت حملتهم الثالثة إلى كارثة عسكرية دفع ثمنهم مع حكام المماليك أتباعهم في جبل الغرب (الشوف والشحار) حيث تعرضوا للانتقام من الكسروانيين.

الحملة الرابعة: وهي الحملة الأهم والأكبر في محاولات المماليك الدؤوبة للقضاء على أهل كسروان، فبعد الهزائم الثلاث المتعاقبة في سنوات ١٢٩٣ و١٣٠٠ و١٣٠٢ بدأ نائب السلطنة في دمشق وبتحريض صريح من الشيخ تقي الدين ابن تيمية الدمشقي الحنبلي الذي تطوع للقيام بحملة شعبية قبل شروع الجيش المملوكي بالتحرك. يقول تلميذه الشيخ ابن كثير أنه في «في مستهل ذي الحجة (سنة ٧٠٤/ ٢٤ حزيران ١٣٠٥) ركب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الاشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً.

وفي ثان محرم (٧٠٥/ ٢٤ تموز ١٣٠٥)خرج نائب السلطنة بمن بقي من الجيوش الشامية وقد كان تقدم بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية. فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة (أهل وادي التيم) فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم فنصره الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة ووطؤوا أراض كثيرة من منيع بلادهم. وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبته الشيخ ابن تيميةً والجيش. وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير وأبان الشيخ علماً وشجاعة في هذه الغزوة وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً(٢).

(١) نفس المصدر.

(٢) ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٦ ص ٤١-٤٢

وفي العشر الأول من هذا الشهر (جمادى ١ سنة ٧٠٥/ ٧ كانون الأول ١٣٠٥) خُلع على جلال الدين بن معبد وعز الدين خطاب وسيف الدين بكتمر مملوك بكتاش الحسامي بالإمرة ولبس التشاريف وركبوا بها وسلموا لهم جبل الجرد والكسروان والبقاع(١).

من الملاحظ أن الشريف زين الدين بن عدنان الذي رافق الشيخ ابن تيمية هو أخ محي الدين محمد بن عدنان الشيعي الذي نقل نقابة الاشراف لولديه اللذين توفيا في حياته فنقل النقابة لحفيده ابن جعفر ولم يسلمها لأخيه ووربما يكون سبب ذلك علاقزين الدين بابن تيمية وتواطئه على شيعة كسروان والجبل.

وينقل النويري الحادثة بلغة قريبة لكنه يضيف إليها أموراً قد تسلط بعض الضوء على نتائج المعركة بشكل مختلف عن ما ذكره ابن كثير المتحامل بشدة على الشيعة كأستاذه ابن تيمية. يقول النويري: «كان أهل جبال كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطرقوا إلى أذى العسكر الناصري عند انهزامه سنة تسع وتسعين وستمائة. وتراخى الأمر وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج من الطاعة واغتروا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وأنه لا يمكن الوصول إليهم فجهز إليهم الشريف زين الدين بن عدنان. ثم توجه بعده في ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة الشيخ تقي الدين ابن تيمية والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري. وتحدثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك. فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومملكة من الممالك الشامية. وتوجه نائب السلطنة الأمير جمال الدين أقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الإثنين ثاني المحرم (سنة ٧٠٥/ ٢٤ تموز ١٣٠٥) وجمع جمعاً كثيراً من الرجال فيقال إنه اجتمع من الرجالة نحو خمسين ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه الأمير سيف الدين اسندمر بعسكر الفتوحات من الجهة التي تلي طرابلس. وكان قد نسب إلى مباطنتهم فكُتِب إليه في ذلك فجرّد العزم في ذلك وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحو عنه أثر هذه الشناعة التي وقعت، وطلع إلى جبل الكسروان من أصعب مسالكه. واجتمعت عليه العساكر (على كسروان) فقتل منهم خلق كثير وتبدد شملهم

(١) المصدر السابق، أحداث سنة ٧٠٥ ج ١٦ ص ٤٣.

وتمزقوا في البلاد. واستخدم الأمير سيف الدين اسندمر جماعة منهم بطرابلس بجامكية وجراية من الأموال الديوانية وسمّاهم رجال الكسروان وأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أخبازاً من حلقة طرابلس وتفرق بقيتهم في البلاد واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم. وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في رابع عشر صفر من السنة (٧٠٥). وأقطع جبال الكسروانيين والجرديين لجماعة من الأمراء التركمان وغيرهم منهم الأمير علاء الدين بن معبد البعلبكي وعز الدين خطاب وسيف الدين بكتمر الحسامي. وأعطوا الطبلخانات وتوجهوا لعمارة إقطاعهم وحفظ البحر من جهة بيروت[١].

أما المؤرخ ابن سباط وهو من الذين عاشوا بعد قرنين من الأحداث ونقل مادته من روايات أو أخبار كانت شائعة في أيامه فإنه يكرر نفس التهم للشيعة الكسروانيين والجرديين يقول ابن سباط: «سنة ٧٠٥/ ١٣٠٥: وفي هذه السنة سار جمال الدين أقوش الأفرم نايب الشام بعساكر الشام وغيرها يوم الاثنين ثاني المحرم إلى جبال كسروان (يعني بعد أقل من شهر على المفاوضات السابقة) وكانوا سكانها عصاة مارقين من الدين (؟) فحاطت العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات. وقيل إن العساكر كانوا نحو خمسين ألف فارس وراجل. ووصل نائب الشام أقوش الأفرم إلى جبال جرد كسروان واحتووا على جبالهم وأخرب القرايا وقطع كرومها ووطي العسكر أرضاً لم يكن أهلها يضنون (يظنون) أن أحد (أحداً) من خلق اللّه تعالى يصل إليها. فتمزقوا كل ممزق، وقتلوا وأسروا جميع من بها من الدرزية (الكاتب درزي ولم ينتبه للكلمة) والكسروانيين وغيرهم من المارقين وتطهرة (وتطهرت) تلك الجبال منهم. وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطرق بعد ذلك فإنهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار. ولم يسلم منهم إلا قليل لأن جماعة هربوا واحتموا بغار عظيم لم يستطيع (يستطع) لأحد (أحد) إلى الوصول إليه أبداً. وكانوا نحو ثلاثماية نفر. ولما عجز الجيش عنهم أمر نايب الشام أقوش الأفرم بينا (ببناء) باب الغار وهدم عليه ردم عظيم ووكل به أمير من أمراية (أمرائه). واستمر مدة شهر حتى مات جميع من فيه ولم يقدر أحد على أن يصل

(١) النويري، نهاية الارب، ج ٣٢ ص ٧٠-٧١.

إلى هذا الغار ولا اهتدا (اهتدى) عليه بعد ذلك الزيادة (لزيادة) الحرش والردم ودرس معالمه والله أعلم.

وكان أمرا الغرب برجالهم في هذه الفتوح، وقتل منهم الأمير نجم الدين محمد واخيه (وأخوه) الأمير شهاب الدين أحمد ولدي (ولدا) الأمير جمال الدين حجي ابن محمد ابن حجي ابن كرامة ابن بحتر التنوخي بقرية نيبية من كسروان مجاور الغار المذكور ويعرف بمغارة نيبيّة سنة خمسة وسبعماية»[١].

يمكن أن تضاف الروايات عن هذه الحملة من أكثر من مصدر معاصر للأحداث وبعضهم كان على صلة بها مباشرة لكن التفاصيل التي كتبت تبدو غير واقعية بالاستنتاجات التي أراد المؤرخون أن يصلوا إليها. فما ذكره ابن كثير والنويري عن استئصال وتبديد الكسروانيين يبدو غير منطقي ولا يتماشى مع وصف الأحداث التي جرت بعد ذلك. ويكفي تأمل ما قاله النويري عن توظيف الكسروانيين في ولاية طرابلس وإعطاء بعضهم إقطاعات صغيرة (أخباز الحلقة) دليل على أن الحرب قد انتهت باتفاق معين بين نائب دمشق أقوش الأفرم وزعماء الكسروانيين والجرديين اقتضى بموجبه اعلان كسروان والجرد الطاعة لنائب دمشق والتزام الأهالي بالشرائع والأعراف المفروضة في كل الدولة بحيث قسمت بلاد كسروان وجبيل والجرد والبقاع (المنطقة الوسطى التي عرفت بالبقاع العزيزي) إلى ثلاثة إقطاعات فتسلمها علاء الدين بن معبد (كسروان) وعز الدين خطاب (الجرد وجبيل) وسيف الدين بكتمر الحسامي (البقاع) والتزم الأمراء الثلاثة بشروط الإقطاع المملوكي التي توجب دفع جزء من المحاصيل والمنتجات للدولة، يتكفل بذلك أمير الإقطاع، كما يتكفل بتقديم عدد من الرجال للعمل في الجيش في فترات الحرب. أما أهل كسروان فقد حلت مشاكل المقاتلين منهم والقادة بأن حصلوا على وظائف في نيابة طرابلس. وما يزيد في القناعة بهذا الحل هو أن الجيش المملوكي عادة ما كان يرجع من حروبه يتقدمه حملة الرؤوس (أي رؤوس الأعداء الذين قتلوا في الحرب) لكن الحملة الشامية على كسروان عندما عادت كانت بلا حملة رؤوس، وكأنه لم يقتل أحد

(١) ابن سباط، تاريخ ابن سباط ص ٥٨٨-٥٨٩.

من أعدائهم في الحرب. أما القول بتبديد السكان في البلاد بما يوحي بأن جبال كسروان قد أصبحت خالية من الشيعة فهذا غير صحيح لأن الإقطاعيين كما ورد في نص النويري قد «توجهوا لعمارة إقطاعاتهم» وهذا يعني أن القرى المقتطعة لهم قد بقي فيها سكانها ليعملوا فيها. ولعل ما نقله صالح بن يحي في تاريخ بيروت يلقي بعض الضوء على الواقع القائم فقد كتب: «وعاد نائب الشام إلى دمشق بالعساكر في رابع صفر من السنة المذكورة (٧٠٥/ ٢٥ آب ١٣٠٥). وجعل الناظر في بلاد بعلبك والجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش. فقهر ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من أعيانهم جماعة. ثم أعطوا أماناً لمن استقر في غير كسروان. ثم أقطعوا علاء الدين بن معبد البعلبكي وعز الدين خطاب وسيف الدين بكر الحسامي وابن صبح أراضي في كسروان. ثم أبطلوها عنهم وأقطعوها التركمان فأدركوا مواني البحر ودروب البر من ظاهر بيروت إلى عمل طرابلس واستمروا إلى وقتنا هذا (حوالي ٨٥٠/ ١٤٤٥) وشهروا بتركمان كسروان وعرفوا به»[(١)].

كذلك هناك نص ورد في بعض المرويات التاريخية للشيخ ابن كثير عن حريق هائل اشتعل قريباً من جبال طرابلس وسواحلها وامتد جنوباً حتى بلغ كسروان وظل أياماً كثيرة حتى أتت النيران على كثير من الزروع والحيوانات وقد وصف الراوي أن أهل كسروان كلهم دروز ورافضة. يقول ابن كثير: «والعجب أني وقفت في شهر ذي القعدة (سنة ٧٥٧/ ١٣٥٦) على كتاب أرسله بعض الناس إلى صاحب له من بلاد طرابلس وفيه: والمخدوم يعرف الشيخ عماد الدين بما جرى في بلاد السواحل من الحريق من بلاد طرابلس إلى آخر معاملة بيروت إلى جميع كسروان أحرق الجبال كلها ومات الوحوش كلها مثل النمور والدب والثعلب والخنزير من الحريق ما بقي للوحوش موضع يهربون فيه وبقي الحريق عليه أياماً وهرب الناس إلى جانب البحر من خوف النار واحترق زيتون كثير فلما نزل المطر أطفأه باذن اللّه تعالى يعني الذي وقع في تشرين وذلك في ذي القعدة من هذه السنة (تشرين الأول ١٣٥٦) - قال ومن العجب أن ورقة من شجرة وقعت في بيت من مدخنته فأحرقت جميع ما فيه من الأثاث والثياب وغير ذلك ومن حلية حرير كثير. وغالب هذه البلاد للدرزية والرافضة. نقلته من خط كاتبه محمد بن يلبان

---

(١) صالح بن يحي، تاريخ بيروت ص ٥٠-٥١.

إلى صاحبه وهما عندي بقبان فيا للّه العجب»[١]. ومن الواضح أن هذا الحريق قد وقع سنة ٧٥٧/ ١٣٥٦ أي بعد أكثر من نصف قرن على الحملة الرابعة على كسروان وكان (غالب) السكان لا يزالون شيعة وهذا يفيد أن الرواية عن الإبادة والاستئصال والتبديد لم تؤدِ الغرض الذي سعى إليه أمراء المماليك وشيوخ الفتن.

أما لماذا نسجت الروايات عن هزيمة الشيعة في كسروان فإن الجواب عليه بسيط جداً وهو أن جماعة وتلامذة الشيخ ابن تيمية وهم أكثر الرواة، خصوصاً ابن كثير والذهبي، قد نقلوا الرواية عنه أو عن بعض أصحابه فقالوا ما قالوا ليثبتوا للشيخ ابن تيمية انتصارات وبطولات وقوة تفوق قوة نائب الشام. ومن المعروف أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية قد وجد بقوة في دمشق برعاية من النائب أقوش الأفرم الذي ترك له الحرية في الحركة وكأنه أمير وحاكم. فكان يتحرك مع عدد من الرجال المسلحين في مناسبات كثيرة فيثبت ويلغي كما يشاء دون رادع. ويكفي ذكر ما مر عن الحملة الكسروانية وما رواه ابن كثير حتى يتضح أن الشيخ ابن تيمية كان يتصرف بما يرى دون العودة إلى النائب. فهو يفاوض الكسروانيين ويفرض عليهم ما يراه مناسباً وهو يبيح القتل والنهب، وعندما تنتهي المهمة يعود على رأس رجاله دون أن يحاسبه أحد. وكان لتصرفات ابن تيمية أثناء وعقب حملة التتار على الشام، والتي تؤخذ نتائجها الوبيلة على السلطان وجيشه ذريعة للهجوم على كسروان والجرد، ما يثبت أن الرجل ومن حوله من أتباع قد رهنوا أنفسهم للقوي. فمن يتغلب يكونون معه، ومن ينهزم يكونون عليه ويرون كل عمل يقومون به مبرراً. فمثلاً: بعد معركة وادي الخزندار التي هزم فيها جيش المماليك أمام التتار قام ابن تيمية بالمشاركة في استقبال الغزاة والتملق لقادتهم. فيذكر تلميذه الذهبي أن الشيخ ابن تيمية كان في تلك الأيام يتردد إلى من يرجو نفعه إلى شيخ المشايخ (نظام الدين محمود المرافق لقازان ملك التتار) وإلى العلم سليمان وإلى قبجق. ثم إنه خرج مع جماعة إلى قازان وهو بتل راهط فأدخل عليه ولم يُمَكَّن من إعلام قازان بما يقع من التتار[٢].

ويضيف الذهبي نقلاً عن لسان أستاذه الشيخ: «وحكى لنا ابن تيمية طلوعه إلى خطلو

---

(١) ابن كثير الدمشقي، أحداث سنة ٧٥٧/ ١٣٥٦ج ١٤ ص ٢٥٦.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٥٢ ص ٨٢.

شاه إلى القصر هو والقاضي تقي الدين الحنبلي وغيره وباتوا بالمنيبع وخاطروا بنفوسهم. وذكر لنا اجتماعه بقازان ودعاءه له بالصلاح واجتماعه بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدولة والنجيب اليهودي الكحال وشيخ الشيوخ (نظام الدين محمود) والسيد القطب ناظر الخزانة والأصيل ولد النصير الطوسي ناظر الأوقاف وهؤلاء متعممو التتار»[١]. ويبدو من اعتراف الذهبي أن ابن تيمية كان يهيء نفسه ليكون من أزلام التتار لو طالت أيامهم في الشام.

ورغم تجاهل كثير من المؤرخين لأفعال ابن تيمية وتصرفاته، فإن أحاديثهم الخيالية عن نتائج الحملة على كسروان تؤكد أن المماليك كان يبحثون عن انتصار ما في مملكتهم يعطيهم هالة من القوة والهيبة بين الناس. لكن الحدث بذاته أكثر أهمية وأكبر مما اعتقد البعض، فليست كسروان مدينة يكفي أن يستسلم أهلها حتى تنتهي أو يتمكن جيش من فتحها فتزول، لقد كانت كسروان بالنسبة إلى المماليك الصخرة التي توقفت عندها طموحاتهم في السيطرة دون منازع ولا معارض. والحقيقة أنه لم يكن في كل سلطنة المماليك من وقف يحارب سيطرتهم سوى منطقة كسروان والجرد وجزين وجبل عامل، وهي مناطق شيعية بشكل عام. لذلك كان لانتصار المماليك (المزعوم) في الحملة الكسروانية دوي هائل في دمشق والقاهرة. فما يذكر بهذا الخصوص عن نائب دمشق أقوش الأفرم أنه بعد الحملة الكسروانية قد كَبُرَ وأصبح أكثر أهمية في مراتب السلطنة. فكان يعين ويوظف ويعزل دون اعتراض السلطان. وقد كُتِب عنه تعريفٌ يثبت أهمية هذا الحدث. فهو «جمال الدين أقوش الأفرم من مماليك السلطان المنصور قلاوون، وهو شركسي ومن أكابر المماليك البرجية السلاحدارية. كان ابن خالة حسام الدين لاجين (الذي أصبح سلطاناً) وعينه حاجباً. وعندما قتل لاجين (تولى السلطنة في مصر لمدة وجيزة) فر الأفرم إلى الشام وكان أحد ستة أمراء سعوا في إعادة السلطان الناصر (محمد بن قلاوون) إلى الحكم فأكرمه السلطان وجعله نائباً على دمشق. ولما كانت كسرة المسلمين (في معركة وادي الخزندار ربيع١ سنة ٦٩٩) وجرى من أهل كسروان ما جرى على العساكر أثر ذلك في قلبه ولما عاد واستقرت الأمور توجه إليهم بنفسه

(١) المصدر السابق، ج ٥٢ ص٩٠.

ونازلهم ولم يحصل على طائل. ووصلت الأراجيف بأحاديث التتار فعاد عنهم. ولما قضى اللّه تعالى بالنصر في واقعة شقحب جعل كسروان دأبه وكتب إلى نائب طرابلس ونائب صفد وجمعوا الرجال وأحاطوا بالجبل من كل ناحية فأظهره اللّه عليهم وظفره بهم وكتب كُتُب البشائر بذلك. ومدح الأفرم في هذه الوقعة بعدة مدائح جمعها شمس الدين الطيبي وسماها «واقعة كسروان». ومدحه الشعراء بسبب ذلك فأكثروا وزاد تمكن الأفرم بدمشق حتى كان يكتب التواقيع بالوظائف ويرسلها لمصر فيعلم السلطان عليها ولا يرد منها شيء»[١].

كما قتل في الحملة عدد من أمراء المماليك منهم الملك الأوحد تقي الدين شاذي ابن شيركوه ابن محمد بن شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب كان أحد أمراء دمشق. توجه مجرداً إلى جبال الجرد (كسروان) فتوفي هناك في ثاني صفر سنة ٧٠٥ وحمل إلى دمشق فدفن فيها[٢].

٢ - ابن تيمية يشرّع ذبح الشيعة:

يعزى تمكن المماليك من السلطة في مصر والشام إلى وقوفهم في وجه الغزو المغولي وتمكنهم من هزيمة الغزاة في معركة عين جالوت. فأصبحوا في نظر عامة المسلمين في مصر والشام حماة الملة والدين. لكن الحرب لم تنته في عين جالوت، فالتتار قد عادوا ونظموا صفوفهم وانطلقوا في معارك متقطعة كانوا يتمكنون في بعض الاحيان من الوصول إلى دمشق وفي أحيان أخرى كانوا يتراجعون قبل ذلك. وكان المماليك هم القوة الإسلامية الأساسية في الشام ومصر التي تقف في وجوههم. لكن في مرحلة لاحقة اعتنق بعض ملوك التتار الإسلام وأرسلوا وفوداً للصلح مع سلاطين المماليك وتوصلوا إلى حالة من الاستقرار والسلم المؤقت ليعودوا بعد حين إلى متابعة حالة الحرب التي لم يعد لها ذلك الطابع الديني الذي كان المماليك يحتفظون فيه بهالة من الاحترام والطاعة بين عامة المسلمين.

(١) الصفدي، أعوان النصر رقم ٣٠٦ ١/ ٥٦٤-٥٦٥.

(٢) المصدر السابق، ترجمة رقم ٧٦٥ ج ٢ ص ٥٠٠.

إحدى أهم المعارك التي وقعت بين التتار والمماليك كانت معركة وادي الخزندار التي وقعت قريباً من حمص في ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩/ ٢١ كانون الأول ١٢٩٩ وهزم فيها المماليك هزيمة كبيرة. واضطروا إلى ترك المعركة وسحب سلطانهم الناصر محمد الذي كان يقودهم فيها. وراحت جماعات المحاربين تتجه نحو دمشق أو تتابع طريقها نحو مصر للاستعداد للمعركة التالية. وكان بين المنسحبين عدد من الشيعة الذين شاركوا في المعركة دفاعاً عن الإسلام وعن بلادهم.

القسم الأكبر من فل الجيش المملوكي اتجه إلى مصر وساروا على طريق بعلبك والبقاع، فاصطدموا بكمائن العصابات وقطاع الطرق الذين أخذوا عدداً منهم أسرى حيث من الممكن أن يكونوا قد باعوهم لتجار الرقيق مقابل المال. وكان من بين الأسرى أقوش (وهو أمير مملوكي غير آقوش الأفرم) وغيره. وقد توجه المماليك وشيوخهم بالتهمة إلى أهالي كسروان وجبيل (جبل لبنان الأوسط) وجلهم من الشيعة، مما أعطى للاتهام شكلاً دينياً برر لبعض الشيوخ الدعوة إلى قتل واستئصال الشيعة في مناطق المملكة بكاملها وليس فقط في كسروان والجرد.

وبمراجعة بسيطة للأحداث تبين أن المماليك في دمشق وبمشاركة الشيخ تقي الدين ابن تيمية قاموا قبل معركة وادي الخزندار بغزوات متتالية ضد الشيعة في كسروان (كما مر في الحديث عن الحملة الأولى) فحذر الكسروانيون من مزيد من الغزوات واستعدوا لمواجهة العدو المملوكي فوقعت الأحداث سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩التي وجد فيها بعض الموتورين من الكسروانيين والجرديين فرصة للثأر من أعدائهم المماليك. فراحوا يهاجمونهم وينزلون بهم الأذى، وتعمدوا قهرهم وإذلالهم حقداً وانتقاماً دون أن يحسبوا حساباً لما يمكن أن ينتج عن ذلك. ولم تكن هذه الحوادث لترضي أهالي كسروان ووجهاءهم، فسارع عدد من هؤلاء وأرسلوا إلى والي دمشق من يبلغهم عدم قبولهم بما جرى وجمعوا الأموال من الفلاحين وقدموها للولاة تعويضاً عن الخسائر التي أصابت المماليك أثناء الحملة الثانية سنة ٦٩٩/ ١٣٠٠.

كان يمكن لهذه الأحداث أن تنتهي في حينها لكن الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي الشامي استغلها بطريقة سيئة جداً، وأصر على إثارة فتنة مذهبية قام فيها بدور

الظالم العاتي عامداً متعمداً حتى النهاية. وشجع والي دمشق أقوش الأفرم على القيام بغزو الجرد وكسروان. وجمع ابن تيمية الكثير من المطوعة وقادهم بنفسهم مشرعاً ذبح المسلمين الشيعة في كل مكان يمكنه الوصول إليه. وعندما انتهت الأحداث إلى ما انتهت إليها في الحملة الرابعة سنة ٧٠٥/ ١٣٠٥ وجد ابن تيمية أن مذهبه يفرض عليه أن يقدم تبريراً لسلطان المماليك خشية أن تحدث أي ردة فعل لا توافق تصرفه، فأرسل إلى سلطان المماليك في مصر الناصر محمد بن قلاوون رسالة خطيرة كل ما فيها تحريض على المسلمين الشيعة وعلمائهم، فكفّرهم وأخرجهم من الملة بذرائع كاذبة ولفق الكثير من الأمور ضدهم. ثم طالب السلطان باستئصال هذه الجماعة من الوجود. ولم ينس أن يهنيء السلطان بهذا النصر الكبير (سنة ٧٠٥) على فلاحي كسروان وجبيل وأهل الجرد.

ومن الملفت أن أحد أهم مؤرخي تلك الحقبة وهو الصفدي يروي في كتبه في أكثر من مكان عن أن الشيخ ابن تيمية قد حاور وجادل علماء الشيعة وخاصة العالم الكبير جمال الدين ابن الحسام وكان ابن تيمية يعرف تماماً كيف يتعامل الشيعة مع القضايا ودرجة التزامهم بالدين الإسلامي، عبادات ومعاملات، ورغم ذلك فإنه ادعى في رسالته أموراً كلها كذب وافتراء كقوله أن الشيعة يجمعون بين الأخوات في الزواج، وأنهم يكفرون من يقول بكذا أو كذا. وللبيان يجب قراءة الرسالة بكل ما فيها للوقوف على الطريقة التي أثيرت فيها الفتنة وحجم الدماء التي أريقت، ولا زالت بشكل ما تراق إلى اليوم في أكثر من مكان في العالم بسبب هذه الفتنة الابنتيمية العشواء.

٣ - رسالة ابن تيمية الشهيرة

كتب ابن تيمية إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون: «بسم الله الرحمن الرحيم: من الداعي أحمد ابن تيمية إلى سلطان المسلمين ومن أيد الله في دولته الدين وأعز بها عباده المؤمنين...... وتحقق في ولايته خبر الصدق المصدوق... الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين.... وذلك أن السلطان حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته..... ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين من جهاد أعداء الله المارقين من الدين وهم صنفان: أهل الفجور والطغيان وذوو الغي والعدوان الخارجون عن شرائع الايمان

طلباً للعلو في الأرض والفساد وتركاً لسبيل الرشاد. وهؤلاء هم التتار ونحوهم من كان خارجاً عن شرائع الإسلام وان تمسك بالشهادتين وببعض سياسة الأنام. والصنف الباقي أهل البدع المارقون وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة، مثل هؤلاء الذين غُزوا بأمر السلطان من أهل الجبل والجرد والكسروان فإن ما منّ به اللّه من الفتح والنصر على هؤلاء الطغاة هو من عزائم الأمور التي أنعم اللّه بها على السلطان وأهل الإسلام وذلك أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين فإن اعتقادهم أن أبا بكر وعمر وعثمان وأهل بدر وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان وأئمة الإسلام وعلمائهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ومشايخ الإسلام وعبادهم وملوك المسلمين وأجنادهم وعوام المسلمين وأفرادهم كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون وأكفر من اليهود والنصارى لأنهم مرتدون عندهم والمرتد شر من الكافر الأصلي ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان. ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض السواحل وحملوا راية الصليب وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا اللّه وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص وفرحوا بمجيء التتار هم وسائر المذهب الملعون مثل أهل جزين وما حواليها وجبل عاملة ونواحيه. فلما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر منهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم ولما نصر اللّه الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكسخان إلى بلاد الإسلام وفي استيلاء هولاكو على بغداد وفي قدومه إلى حلب وفي نهبه الصالحية وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله لأن عندهم أن كل من لا يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد ومن استحل الفقاع فهو كافر ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر ومن أحب أبا بكر أو عمر أو عثمان أو ترضى عنهم أو على جماهير الصحابة فهو عندهم كافر ومن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر هذا المنتظر صبي عمره سنتان أو ثلاث أو خمس يزعمون أنه دخل السرداب بسامرا من أكثر من أربعماية سنة وهو يعلم كل شيء وهو حجة اللّه على أهل الأرض فمن لم يؤمن به فهو عندهم

كافر وهو شيء لا حقيقة له ولم يكن هذا في الوجود قط وعندهم من قال أن اللّه يُرى في الآخرة فهو كافر ومن قال أن اللّه تكلم بالقرآن حقيقة فهو كافر ومن قال إن اللّه فوق السموات فهو كافر ومن آمن بالقضاء والقدر وقال إن اللّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء وأن اللّه يقلب قلوب عباده وأن اللّه خالق كل شيء فهو عندهم كافر وعندهم أن من آمن بحقيقة أسماء اللّه وصفاته التي أخبر بها في كتابه وعلى لسان رسوله فهو عندهم كافر.

هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم مثل بني العود فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل وهم الذين كانوا يأمرونهم بقتال المسلمين ويفتنونهم بهذه الأمور وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود وغيره وفيها هذا وأعظم منه وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علموهم وأمروهم لكنهم مع هذا يظهرون التقية والنفاق ويتقربون ببذل الأموال إلى من يقبلها منهم وهكذا كان عادة هؤلاء الجبلية فإنما أقاموا بجبلهم لما كانوا يظهرونه من النفاق ويبذلونه من البرطيل ممن يقصدهم والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة ذكر أهل (أنجرة) أنهم لم يروا مثله ولهذا كثر فسادهم فقتلوا من النفوس وأخذوا من الأموال ما لا يعلمه إلا اللّه ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرهم معهم في أمر لا يضبط شره كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد. وكانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوت على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين فإما أن يقتلوه أو يسلبوه وقليل منهم من يفلت منهم بالحيلة فأعان اللّه ويسر بحسن نية السلطان وهمته في إقامة شرائع الإسلام وعنايته بجهاد المارقين أن غُزوا غزوة شرعية.........وهؤلاء ليس لهم تأويل سائغ مثل أولئك (الحرورية) إنما يكون خارجاً عن طاعة الإمام وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول اللّه ﷺ وسنته وهم شر من التتار من وجوه متعددة لكن التتر أكثر وأقوى فلذلك يظهر كثرة شرهم... وقد قال كثير من السلف إن الرافضة لا حق لهم في الفيء لأن اللّه إنما جعل الفيء للمهاجرين والأنصار (والذين جاؤوا من بعدهم)....» وقطعتُ اشجارهم لأن النبي لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه فقال اليهود هذا فساد وأنت يا محمد تنهى عن الفساد...... وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر وتخريب العامر عند الحاجة إليه فليس ذلك بأولى من

قتل النفوس وما أمكن غير ذلك فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم وما أمكن ان يسكن الجبل غيرهم لأن التركمان انما قصدهم الرعي وقد صار لهم مرعى وسائر الفلاحين لا يتركوا عمارة أرضهم ويجيئون إليه فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره إخلاء الجبل منهم وإخراجهم من ديارهم.... وأيضاً فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز واليمن والعراق ما يرفع اللّه به درجات السلطان ويعز به أهل الإيمان. فصل تمام هذا الفتح وحركته تقدم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد وإقامة الشريعة قي البلاد فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرى كثيرة من يقتدون بهم وينتصرون لهم وفي قلوبهم غل عظيم وابطان معاداة شديدة لا يؤمنون معها على ما يمكنهم ولو انه مباطنة الغدر فإذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم مثل بني العود زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا اللّه... ويتقدم إلى قراهم وهي قرى متعددة بأعمال دمشق وصفد وطرابلس وحماة وحمص وحلب بأن يقام فيهم شرائع الإسلام: الجمعة والجماعة وقراءة القرآن ويكون لهم خطباء ومؤذنون كسائر قرى المسلمين وتقرأ فيها الأحاديث النبوية وتنتشر فيها المعالم الإسلامية ويعاقب من عرف منهم البدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام. فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا نحن قوم جبال وهؤلاء كانوا يعلموننا ويقولون لنا أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين ومن قتل منكم فهو شهيد. وفي هؤلاء خلق كثير لا يقومون بصلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة ولا يحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ولا يؤمنون بالجنة والنار من جنس الاسماعيلية والنصيرية والحاكمية والباطنية وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى باجماع المسلمين. فنقدم المراسيم السلطانية بإقامة شعائر الإسلام من الجمعة والجماعة وقراءة القرآن وتبليغ أحاديث النبي في قرى هؤلاء من اعظم المصالح الإسلامية وأبلغ الجهاد في سبيل اللّه وذلك سبب لانقماع من يباطن الغدر وهؤلاء ودخولهم في طاعة اللّه ورسوله وطاعة اولي الأمر من المسلمين»[1]. انتهت رسالة ابن تيمية.

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الوهاب الدمشقي الصالحي، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ١٤١-١٤٦) /

إن أحد أهم ركائز فكر ابن تيمية الحنبلي هو رفضه الظاهر لما اعتبره بدعاً في عادات المسلمين عامة ورفضه لمظاهر تقديس بعض الأشياء أو زيارات القبور وهو في ذلك يظهر حرصاً شديداً على ظواهر الدين وتمسكاً ظاهرياً أيضاً بالقيم الدينية فما يؤثر عنه هو مبادرته الشخصية وبالاشتراك مع المريدين للقيام بمحاربة ما اعتقد أنه يخالف الشرع حسب مذهبه وذلك دون تدخل الوالي (الأفرم) بما يثبت تواطوء الأفرم مع ابن تيمية وتأييده فيما يقوم به. كتلك الحادثة التي قام بها ابن تيمية سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢ من توجه «ابن تيمية ومعه جماعة إلى مسجد النارنج بدمشق واحضر معه جماعة من الحجارين وقطعوا صخرة كانت هناك يزورها الناس فادعى أنها من البدع»[١].

أما آل العود الذين يقع فيهم ابن تيمية بما يقع ففي التاريخ الذي كتبه رجال من أهل السنة وربما من أصحاب ابن تيمية نفسه ما يثبت بطلان حجته. فهؤلاء قادوا مقاومة أهالي جزين (الميادنة) ضد الوجود الصليبي وحافظوا على أقليم جزين مستقلاً معظم فترة الوجود الصليبي في الشرق. ومما لا شك فيه أن ابن تيمية كان يجالس ويحاور عدداً من علماء الشيعة قبل وبعد الحملات الكسروانية ومنهم العالم الجليل ابراهيم بن الحسام بن أبي الغيث تلميذ الشيخ نجيب الدين بن العود الذي وصفه الصفدي بأنه «كان مفننا بأنواع الفضائل»[٢].

إن التهم التي أوردها ابن تيمية للشيعة عموماً في دولة المماليك لم تكن الأولى من نوعها ولا سابقة بذاتها ولا فريدة في أهدافها، فقد اعتاد عدد من رجال الدين من وعاظ السلاطين على تلفيق التهم للشيعة أقلها الكفر والفسوق والعصيان والتمرد والردة وما يشبه ذلك ظلماً وعدواناً وكذباً وبهتاناً بما كان يؤدي بمن يسمع هذه التهم الباطلة إلى التصرف مع الشيعة ككفرة وكأعداء. وتحفل كتب مؤرخي العهد المملوكي بكثير من الحكايات التي فيها هدر لدماء الشيعة في دمشق وغيرها دون ذنب بل فقط افتراءاً ودجلاً. وهذا كله أدى إلى ردة فعل قوية عند الشيعة في أماكن متعددة في العالم الإسلامي حيث جرى على السنة علماء دين شيعة اتهامات مضادة لجمهور رجال الدين السنة بقلة الدين والارتداد وما يشبه ذلك تنفيساً

(١) ابن اياس، بدائع الزهور حوادث سنة ٧٠٢ / ١٣٠٢ ج ١ ص ٤١٧).

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات ج ٢٤ ص ٩١.

عن احتقانهم ورداً على تصرفاتهم. ولا زالت فتاوى ابن تيمية وأشياعه تستجلب الفتن بين عامة مذاهب المسلمين سنة وشيعة إلى اليوم، وتقع بسببها حوادث كثيرة وتسفك الدماء دون أن يكلف أحد من هذه العصبة نفسه عناء التحقق مما ادعاه شيوخ الفتنة.

٤ - اضطهاد الشيعة بعد الحملات الكسروانية

يذكر كثير من مؤرخي العهد المملوكي حوادث تثبت وقوع ذلك الاضطهاد العنيف للشيعة في مناطق مختلفة من المملكة بلغ ذروته أيام ابن تيمية ثم امتداداً إلى نهاية القرن الثامن/ الرابع عشر بحيث كان القاضي الحنبلي أو المالكي يصدر الاحكام بالقتل على الشيعي بأدنى شبهة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الصفدي في معرض حديثه عن الشيخ ابراهيم بن الحسام بن ابي الغيث حيث يعرف عنه بأنه: «ابراهيم بن ابي الغيث الشيخ جمال الدين ابن الحسام البخاري الفقيه الشيعي». وقد مرّ الحديث عنه. كما يستشهد الصفدي بما قاله الشيخ العالم ابن فضل اللّه العمري الذي قال عن ابن ابي الغيث: «آخر عهدي به في سنة ست وثلاثين وسبع مائة/ ١٣٣٦. وقال العمري: «كتبت إليه وقد طالت غيبته بعد كثرة اجتماع به في مجلس شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه اللّه. قال: ابن الحسام كان كثيرا ما يتعهد مجلسه ويستوري سنا الشيخ وقبسه، وكانت تجري بيننا وبينه بحضور الشيخ مناظرات وتطول أوقات مذاكرات ومحاضرات»[1]. ورغم هاتين الشهادتين من عالمين معاصرين وكلاهما يعمل في وظيفة كبيرة في دولة المماليك فإن ابن تيمية قد تحدث حسب الرسالة السابق ذكرها عن الشيعة بأمور يعرف حقيقة أنه يكذب فيها، لا بل ينافق. كما أن الحوار الذي كان يتم في مجلس يحضره عدد من رجال الدين السنة لم يحم الشيخ ابن أبي الغيث من الهجوم على داره ومصادره كتبه وأوراقه (مؤلفاته) وإتلافها حتى قال شعراً متذمراً دون أن يتبرأ من تشيعه:

لئـن كان حمـل الفقـه ذنبـا فـإنني ... سأقلع خوف السجن عن ذلك الذنب
وإلا فمـا ذنـب الفقيـه إليكـم ... فيرمـى بأنـواع المذمـة والسـب
إذا كنـت فـي بيتـي فريـدا عـن الورى ... فما ضر أهل الأرض رفضي ولا نصبي

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات ترجمة رقم: ١٦٤ ج ٦ ص ٥٢.

أوالي رسول اللّه حقا وصفوة وسبطيه والزهراء سيدة العرب

فإذا كان هذا حال عالم دين يعرفونه ويحاورونه، فكيف يكون الحال مع من كانوا يتهمونه بأمر ما مثل سب الصحابة؟

يبدو جلياً أن الكتب والأوراق المكتوبة تشكل هماً لشيوخ الفتنة في عهد المماليك، لذلك وجدوا طرقاً أخرى غير المصادرة والاتلاف والإحراق لكتب الشيعة ألا وهي طريقة المحو بالماء أمام العامة والقول بأن في الكتب ما يدل على الكفر والارتداد حتى يتصور السامع أن الشيعة هم مرتدون وكفرة. والدليل جاهز، فقد ادعوا أن أحد شيوخ الشام رافضي وقد وضع كتباً في الكفر. يقول الصفدي ناقلاً لهذا الحدث: «احضر صلاح الدين ابن شاكر الكتبي بدمشق إلى العلامة شيخ الإسلام قاضي القضاة تقي الدين السبكي كتابا في عشرين كراسا قطع البلدي في ورق جيد وخط مليح سماه مصنفه الطرايف في معرفة الطوايف افتتحه بالحمد لله وشهادة أن لا إله إلا اللّه فقط. وقال بعد ذلك: أما بعد فإني رجل من أهل الذمة ولي على الإسلام حرمة فلا تعجلوا بسفك دمي قبل سماع ما عندي، ثم أخذ في نقض عرى الدين عروة عروة أورد أحاديث وتكلم على متونها وإسنادها وتكلم في جرح الرجال وطعن عليهم كلام محدث عارف بما يقول وذكر أمورا دلت على زندقته وتشيعه وختم ذلك بان قال وللّه القايل:

وإن كنت أرضى ملة غير ملتي فما أنا إلا مسلم أتشيع

وشهد صلاح الدين المذكور وآخر أهل الحديث المعروفين بان هذا خط شمس الدين السكاكيني فظهر من ذلك أنه تصنيفه لأنه قال في فهرسة الكتاب المذكور تصنيف عبد المحمود بن داود المصري لم يعرف هذا الرجل، وقال الشيخ عماد الدين بن كثير: أن الأبيات التي كتبت للشيخ تقي الدين ابن تيمية وأولها:

أيا معشر الإسلام ذمي دينكم ....

وقد ذكرتها في ترجمة الشيخ علاء الدين القونوى هي لهذا السكاكيني، فقطع قاضي القضاة هذا الكتاب الملعون وغسله وخرقه واللّه اعلم بحقيقة الحال في ذلك. وقالوا أن

قاضي القضاة شمس الدين ابن مسلم رجع من جنازته وعلى الجملة فالظاهر من أمره أنه كان مريض العقيدة غير صحيحها. وهذا الشيخ محمد بن ابي بكر السكاكيني الذي مرت ترجمته والذي يقول عنه الشيخ ابن تيمية: «هو ممن يتشيع به السني ويتسنن به الرافضي وكان يجتمع به كثيراً»[1].

وقبل هذا التاريخ بست سنوات ذكر ابن كثير كيف فعلوا بحسن ابن شمس الدين السكاكيني: «في صبيحة يوم الاثنين ٢١ منه (جمادى١ سنة ٧٤٤/ ١٠ تشرين الأول١٣٤٣) قتل بسوق الخيل حسن ابن الشيخ السكاكيني على ما ظهر منه من الرفض الدال على الكفر المحض. شهد عليه القاضي شرف الدين المالكي بشهادات كثيرة تدل على كفره وأنه رافضي جلد. فمن ذلك تكفير الشيخين رضي الله عنهما وقذفه أم المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما وزعم أن جبريل غلط فأوحى إلى محمد وإنما كان مرسلاً إلى علي وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة قمعه الله وقد فعل. وكان والده الشيخ محمد السكاكيني (ت ٧٢١/ ١٣٢١) يعرف مذهب الرافضة والشيعة جيداً وكانت له أسئلة على مذهب أهل الخير ونظم في ذلك قصيدة أجابه فيها شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام بن تيمية...»[2].

ونفس التهم التي قيلت في الشهيد حسن ابن شمس الدين السكاكيني قيلت كذلك في شهيد آخر ذكره العمري في المسالك فيقول: «وفي شهر جمادى الآخرة (سنة ٧٤٤) قتل ابراهيم بن يوسف بن أبي بكر المقصاتي الرافضي إلى لعنة الله. وشهد عليه بشتم الصحابة رضي الله عنهم وقذف عائشة رضي الله عنها ووقع في حق جبريل عليه السلام»[3]. وربما لأمر غيبي كانت هذه الجملة هي آخر ما كتبه ابن فضل الله العمري في ذلك الجزء من مؤلفه الضخم (مسالك الأبصار) لتكون شهادة على الطريقة التي عومل بها الشيعة في دولة المماليك. فيكفي أن يشهد أحد ما على شخص ما بأنه سب أو شتم أو قذف أحد أسماء أصحابهم، حتى يحكم عليه بالقتل (ذبحاً وصلباً وحرقاً وتمثيلاً...). وكأن الشيعة لم

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٩٢.

(٢) ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٤ ص ٢١١.

(٣) العمري، مسالك الأبصار ج ٢٧ ص ٣٦٣.

يكن عندهم من هم ولا مشكلة سوى البحث في سجلات الصحابة وأمهات المؤمنين ليسبوهم.

وبهذه الطريقة من التعامل مع الشيعة ارتقى المماليك من المحاورة إلى مصادرة الكتب ثم إلى القتل والصلب، أي الاعدام على التهمة الشائعة (الرفض).

هناك الكثير من الحكايات التي يوردها بعض المؤرخين عن رجال من «الروافض» الذين أعدموا لأنهم سبوا الصحابة. ومن الطريقة التي تقدم بها الرواية ما يثبت أنها تلفيق لتكون مبرراً لقتل رجل مسلم فقط لأنه شيعي. وفي الحكاية التالية ما يثبت هذه الصورة: «.... وفي هذه السنة (سنة ٧٥٥/ ١٣٥٤) اجتاز رجل من الرافضة من أهل الحلة بجامع دمشق وهو يسب أول من ظلم آل محمد ويكرر ذلك فلما فرغ الناس من الصلاة مسكوه وأحضروه بين يدي قاضي القضاة وكان مارّر (ماراً) بين الصفوف فقال له القاضي: من الذي ظلم آل محمد ؟ فقال: أبو بكر الصديق. ثم قال جهراً والناس يسمعون: لعن اللّه أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد. وأعاد ذلك مرتين فأمر به الحاكم إلى السجن ثم استحضره المالكي وجلده بالسياط وهو مع ذلك يصرخ بالسب واللعن والكلام الفاحش. فعقد له مجلساً بدار السعادة وحضر القضاة الأربعة وطلب إلى هناك فحكم نايب القاضي المالكي بقتله فضرب عنقه تحت القلعة وأحرقه العامة وطافوا برأسه في البلد ونادوا عليه هذا جزاء من يسب»[1].

ولعل هذه الحكاية هي نفسها التي نقلها الصفدي التي تذكر اسم الضحية: «علي بن حسن بن أبي الفضل (ابن جعفر بن محمد بن كثير الحلي): قدم دمشق وأقام بها سنوات ثم إنه في يوم شق الصفوف في الجامع الأموي والناس في صلاة جنازة وجعل يقول: لعن اللّه من ظلم آل محمد. ومن هذا وشبهه فنبه الشيخ عماد الدين ابن كثير عليه وقال: أمسكوه فإن هذا يسب الصحابة. فأمسكوه وأحضروه إلى العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي رحمه اللّه تعالى فاستفهم منه عما يقول فظهر أنه يسب أبا بكر وعمر فأمر باعتقاله. ثم إن الناس قاموا في أمره ورفعوه إلى قاضي القضاة جمال الدين المسلاتي

(١) ابن ساباط ، تاريخ ابن ساباط، ص ٧١٠-٧١١.

المالكي فضربه ثلاثة ايام بالسياط ويأمره بالتوبة وهو مصر ثم إن الناس حملوه إلى دار العدل بين يدي النائب فأمره بالتوبة هو والقضاة وهو مصرّ ثم إن نائب القاضي المالكي حكم بضرب عنقه فتوجه الناس به إلى سوق الخيل وتوجه بعض الناس يشاور عليه فجاء بعض الجند وضرب عنقه وأخذ رأسه ولعب الجند به الكرة في سوق الخيل ثم إن العوام أحرقوا جسده بالنار وطيف برأسه بعد ذلك في أسواق دمشق وكان ذلك في يوم الخميس ٢٠ ج ١ سنة ٧٥٥/ ١١ حزيران ١٣٥٤»[1]. ويبدو أن أمر الاعتقال كان من ابن كثير، لقد أبى هذا الشيخ إلا أن يحمل دماء المؤمنين المظلومين من الشيعة تماماً كأستاذه ابن تيمية فأمر بالقتل وبالتمثيل بالجثة بقطع الرأس واللعب به. والتمثيل بالجثث إحدى الصفات «التقوية المباركة جداً» والمجمع عليها لجماعة ابن كثير وأستاذه ابن تيمية وهي مشهورة في التاريخ وكأنهم ينتقمون من حديث النبي ﷺ وتحريمه للمثلة حتى بالكلب العقور. أما مسؤولية سفك الدماء فتلقى على عاتق العامة الذين يتحركون ويفعلون ما يريدون دون تدخل القاضي أو الأمير. والطريقة التي أعدموا بها «المتهمين بالرفض» متشابهة طيلة القرن الثامن/ الرابع عشر أي القتل والتمثيل والصلب والإحراق. وهي الصفات التي أتقن أتباع ابن تيمية وتلميذه ابن كثير بتنفيذها دون رادع ولا وازع. فمن كان يحرك العامة فيأمرهم وينهاهم؟ لقد حدثت مذبحة بعدد من الشيعة البقاعيين الذين جاؤوا لنصرة السلطان في دمشق فقتلوا عن آخرهم، وكالعادة، يتحمل العامة وزر هذا العمل يقول المقريزي في السلوك: «وفى هذا اليوم (١٠ ذق سنة ٨٤٢/ ٢٣ نيسان ١٤٣٩) قتل بدمشق محمد المعروف ببلبان شيخ كرك نوح وولده محمد الخرباني. وكان من خبره أنه قدم بجموعه نصرة لعساكر السلطان فلم يصل حتى إنقضت الوقعة فدخل في خدمة النائب حتى عبر دار السعادة وتفرق الأمراء وغيرهم في منازلهم. فتوجه بلبان فيمن توجه حتى كان عند المصلى والعامة قد ملأت الطرقات فصاح به وبمن معه من العشير جماعة من أراذل عامة دمشق قائلين » أبا بكر أبا بكر » يكررون ذلك مرارًا يريدون نكاية بلبان وجماعته فإنهم يرمون بأنهم رفضة.

فلما كثر ذلك من العامة أخذ بعض العشير يضرب واحداً منهم فوثبوا به وألقوه عن

(١) الصفدي، أعوان النصر ج ٣ ص ٣٣٣ رقم الترجمة ١١٤٧.

فرسه ليقتلوه فإجتمع أصحابه ليخلصوه من العامة وقاتلوهم فبادروا وذبحوا ذلك البائس وتناولوا الحجارة يرمون بها بلبان وقومه. ووضعوا أيديهم فقتلوا بلبان وإبنه وجماعته وهم خمسمائة أو يزيدون بغير سبب ولا أمر سلطان ولا حاكم فلم ينتطح في قتلهم عنزان ولا تحرك لهم إثنان فكان ذلك من الأمور الشنعة وما أراه إلا أمراً له ما بعده ولله عاقبة الأمور[١]. ويرد في نص آخر: «ومات محمد ويعرف ببلبان شيخ كرك نوح قتله عامة دمشق وولده في يوم الجمعة ثالث ذي القعدة وقتلوا معه من قومه جماعة كبيرة بغيًا وعدوانًا وكان يتهم بأنه رافضي ولذلك قتلوه وكان صاحب همة عالية ومروءة غزيرة وأفضال وكرم من حال واسعة ومال جم»[٢].

ولعل الرواية التي ساقها ابن تغري بردى حول الحادثة أكثر إثارة وتدل على ذلك المدى من الحقد المذهبي الذي عانى من آثاره الشيعة في بلاد الشام تحت رعاية السلاطين فهو يقول: «بلبان الرافضي شيخ كرك نوح ت ٨٤٢/ ١٤٣٨: بلبان الرافضي شيخ كرك نوح بالبلاد الشامية واسمه محمد وغلب عليه بلبان. قتلته عامة دمشق مع ولده محمد الحرماني في يوم الجمعة ٣ ذق سنة ٨٤٢ بدمشق بعد القبض على نائبها الأمير إينال الجكمي. وكان من خبره أنه دخل إلى دمشق بجموعة من العشيرة نصرة لاستاذه الأمير برسباي حاجب حجاب دمشق وعونة للعساكر السلطانية فلم يصل حتى انقضت الوقعة فدخل دمشق في خدمة نائبها الأمير آقبغا التمرازي المتولي بعد إينال المذكور حتى أوصله إلى دار السعادة وتفرق الأمراء وغيرهم إلى منازلهم وعاد بلبان هذا أيضاً إلى محل إقامته وفي خدمته أعوانه وحواشيه إلى أن وصل إلى المصلى والعامة قد ملأت الطرقات فصاح به وبمن معه من العشير جماعة من عامة دمشق قائلين: ابا بكر أبا بكر يكررون ذلك مراراً يريدون نكاية بلبان المذكور وجماعته. كل ذلك وبلبان لا يلتفت إلى مقالتهم وكثر ذلك من العامة وأمعنوا فأخذ عند ذلك بعض العشير يضرب واحداً من العامة فوثبوا به وألقوه عن فرسه ليقتلوه فاجتمع أصحابه ليخلصوه من العامة وقاتلوهم فبادروا العامة وذبحوا ذلك الرجل وتناولوا الحجارة يرمون بها بلبان وقومه إلى أن ألقوه

(١) المقريزي، السلوك ج ٧ ص ٤١٧.

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٤٢٥.

عن فرسه وذبحوه ثم ذبحوا ابنه محمد المذكور وجماعة كبيرة من أعوانه وكان معه نحو خمسماية فارس فقتل بلبان المذكور من غير أمر يوجب قتله وأراح اللّه العباد منه فلا أسفاً عليه وذهابه إلى سقر فإنه كان رافضياً خبيثاً إلا أنه كان له مكارم وأفضال من مال واسع. وأغرب من هذا ما حكى لي بعض مماليك صهري الأمير آقبغا التمرازي المذكور أن أستاذ بلبان الأمير برسباي حاجب دمشق أقام مدة بدمشق يخاف أن يظهر بشوارع دمشق خوفاً من العامة. هذا مع عدم قيامه بطلب دم بلبان المذكور وعدم النصرة له[١].

إن تكرار حوادث القتل بهذه الطريقة يثبت أن دولة المماليك كانت دولة طغيان وظلم وقهر ومن الطبيعي أن تنتهي البلاد والعباد إلى حال من البؤس والتخلف والانهيار الشامل في كل المجالات.

٥ - منع الشيعة من ممارسة مذهبهم في بيروت وصيدا وما حولهما

يذكر القلقشندي مثلاً عن أشكال الأوامر التي كانت تصدر عن سلاطين المماليك إلى النواب وحكام الولايات والتي تضمنت في واحدة منها منع الناس من اعتقاد المذهب الشيعي الإمامي. وألزم الحاكم باستعمال الشدة وأساليب العنف والقهر ضد من يعرف بانتمائه إلى الشيعة. يقول القلقشندي: «... وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة وردعهم والرجوع إلى السنة والجماعة واعتقاد مذهب أهل الحق(؟) ومنع أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة والتعرض إلى أحد من الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين وأن لا يدعوا سلوك طريق أهل السنة الواضحة ويمشوا في شرك أهل الشك والضلال وأن كل من تظاهر بشيء من بدعهم قوبل بأشد عذاب وأتم نكال وليخمد نيران بدعهم المدلهمة وليبادر إلى حسم فسادهم بكل همة وتصريفهم عن التهوك في مهالك أهوائهم إلى ما نص عليه الشرع واعتبره، وتطهير بواطنهم من رذالة اعتقادهم الباطل، إلى أن يعلنوا جميعهم بالترضي عن العشرة، وليحفظ أنسابهم بالعقود الصحيحة. وليداوموا على اعتقاد الحق والعمل بالسنة الصريحة. في خامس عشرين جمادى الآخرة سنة أربع وستين

(١) ابن تغري بردى، المنهل الصافي، ترجمة رقم ٧٠٠ ج ٣ ص ٤٢٣-٤٢٥.

وسبعمائة/ ١٠ نيسان ١٣٦٣........ ثم تفرقت الآراء وتعددت الأهواء واختلفت العقائد وتباينت المقاصد ووهت القواعد وتصادمت الشواهد وتفرقت الناس إلى مقر بالحق وجاحد وظهرت البدع في المقالات وضل كثير في كثير من الحالات وتهافت غالبهم في الضلالات وقال كل قوم مقالة تضمنت أنواعا من الجهالات وكان من أسخفهم عقلا وأضعفهم نقلا وأوهنهم حجة وأبعدهم من الرشد محجة طائفة الرافضة والشيعة لارتكابهم أمورا شنيعة وإظهارهم كل مقالة فظيعة وخرقهم الإجماع وجمعهم قبيح الابتداع فتبددوا فرقا وسلكوا من فواحش الاعتقادات طرقا وتنوع ناسهم وتعددت أجناسهم وتجرأوا على تبديل قواعد الدين وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المرشدين وقالوا ما لم يسبقوا إليه وأعظموا الفرية فيما حملوا كلام الله ورسوله عليه وباؤوا بإثم كبير وزور عظيم، وعرجوا عن سواء السبيل فخرجوا عن الصراط المستقيم، وفاهوا بما لم يفه به قبلهم عاقل وانتحلوا مذاهب لا يساعدهم عليها نقل ناقل. وتخيلوا أشياء فاسدة حالهم فيما نخيلها أسوأ من حال باقل وتمسكوا بآثار موضوعة وحكايات إلى غير الثقات مرفوعة ينقل عن أحدهم ما ينقله عن مجهول غير معروف أو عمن هو بالكذب والتدليس مشهور وموصوف فأداهم ذلك إلى القول بأشياء منها ما يوجب الكفر الصراح ويبيح القتل الذي لا حرج على فاعله ولا جناح ومنها ما يقتضي الفسق إجماعا ويقطع من المتصف به عن العدالة أطماعا ومنها ما يوجب عظيم الزجر والنكال ومنها ما يفضي بقائله إلى الويل والوبال لعب الشيطان بعقولهم فأغواهم وضمهم إلى حزبه وآواهم ووعدهم غرورا ومناهم وتمنوا مغالبة أهل الحق فلم يبلغوا مناهم. مرقوا من الدين، وخرقوا إجماع المسلمين، واستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم، واكتسبوا الجرائم، وعدلوا عن سواء السبيل، وتبوأوا من غضب الله شر مقيل. مذهبهم أضعف المذاهب، وعقيدتهم مخالفة للحق الغالب، وآراؤهم فاسدة، وقرائحهم جامدة والنقول والعقول بتكذيب دعاويهم شاهدة، لا يرجعون في مقالتهم إلى أدلة سليمة، ولا يعرجون في استدلالهم على طريق مستقيمة، يعارضون النصوص القاطعة، ويبطلون القواعد لمجرد المنازعة والمدافعة، ويفسرون كلام الله تعالى بخلاف مراده منه، ويتجرأون على تأويله بما لم يرده الله ولم يرد عنه. فهم أعظم الأمة جهالة وأشدهم غواية وضلالة، ليس لهم فيما يدعونه مستند صحيح،

ولا فيما ينقلونه نقل صريح. فلذاك كانوا أقل رتبة في المناظرة، وأسوأ الأمة حالا في الدنيا والآخرة، وأحقر قدرا من الاحتجاج عليهم وأقل وضعا من توجيه البحث إليهم. أكابرهم مخلطون وأصاغرهم مثلهم ومعظمهم مخبطون، بل كلهم ليس لأحد منهم حظ في الجدال، ولا قدم في صحة الاستدلال. ولو طولب أحد منهم بصحة دعواه لم يجد عليها دليلا، ولو حقق عليه بحث لم يلق إلى الخلاص سبيلا غاية متكلمهم أن يروي عن منكر من الرجال مجهول ونهاية متعلمهم أن يورد حديثا هو عند العلماء موضوع أو معلول يطعنون في أئمة الإسلام ويسبون أصحاب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ويدعون أنهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بريء منهم منزه عما يصدر عنهم...... وافتروا على الله كذبا فذمهم وأباح دمهم وقال لسان حال أمرهم أرى قدمهم أراق دمهم وهان دمهم فها ندمهم وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها وأعمالها المضافة إليها وجهاتها المحسوبة عليها ومزارع كل من الجهتين وضياعها وأصقاعها وبقاعها قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه وعملوا به وقرروه وبثوه في العامة ونشروه واتخذوه دينا يعتقدونه وشرعا يعتمدونه وسلكوا منهاجه وخاضوا لجاجه وأصلوه وفرعوه وتدينوا به وشرعوه وحصلوه وفصلوه وبلغوه إلى نفوس أتباعهم ووصلوه وعظموا أحكامه وقدموا حكامه وتمموا تبجيله وإعظامه فهم بباطله عاملون وبمقتضاه يتعاملون ولأعلام علمه حاملون وللفساد قابلون وبغير السداد قائلون وبحرم حرامه عائذون وبحمى حمايته لائذون وبكعبة ضلاله طائفون وبسدة شدته عاكفون وإنهم يسبون خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ويستحلون دم أهل السنة من المسلمين ويستبيحون نكاح المتعة ويرتكبونه ويأكلون مال مخالفيهم وينتهبونه ويجمعون بين الأختين في النكاح ويتدينون بالكفر الصراح إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث والمذهب الذي ساوى في البطلان مذهب التثليث فأنكرنا ذلك غاية الإنكار وأكبرنا وقوعه أشد إكبار وغضبنا لله تعالى أن يكون في هذه الدولة للكفر إذاعة وللمعصية إشادة وإشاعة ولطاعة إخافة وإضاعة وللإيمان أزجى بضاعة وأردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام وفرقة من جند الإمام تستأصل شأفة هذه العصبة الملحدة وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة ثم رأينا أن نقدم الإنذار ونسبق إليهم بالإعذار فكتبنا هذا الكتاب ووجهنا هذا الخطاب ليقرأ على

كافتهم ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها والمذاهب التي انتحلوها تبيح دماءهم وأموالهم وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم......»[1].

هذا النص على ما فيه من افتراءات كاذبة ضد الشيعة وما ينسب إليهم من زور وبهتان وما ينقل عنهم من صور مشوهة قد جرى اعتمادها في عهد المماليك أساساً للتعامل مع الشيعة دون وجه حق. وللباحث أن يسأل: لماذا اعتمد المماليك هذا الأسلوب في التعامل مع الشيعة؟ والجواب يحمل وجهين متلازمين: الأول: أن المماليك كانوا أصحاب سلطان وعروش وهم في الأصل عبيد أرقاء وفيهم عدد من الخصيان. وقد اشترط الفقه الشيعي أن يكون الإمام (أو الحاكم أو الأمير أو السلطان) حراً صحيح الجسم وهذا لا ينطبق على المماليك. فمن الطبيعي أن يعادوا بشدة من يمنعهم من عروشهم وسلطانهم. والثاني: أن المماليك قد اتبعوا صوراً مشابهة من العسف مع أطراف كثيرة تدين بمذاهبهم. وكتب التاريخ المعاصرة لهم تشهد على كثرة الفتن والقتل وسفك الدماء وانتهاب الممتلكات واتلاف المحاصيل وحرق الزروع وقطع الأشجار. وكل ذلك كان عادياً لا يتحرك أحد من القضاة ولا من رجال الدين لوقفه. والأسوأ في كل هذه الصور هو أن القضاة أنفسهم كانوا خدماً عند السلاطين والأمراء، وكانوا ملزمين بتنفيذ رغباتهم فيحكمون بما يريده الملك أو الأمير وليس بما يجدونه في الشرائع. والأمثلة كثيرة جداً على ذلك. فليس مستغرباً أن يقدحوا في مذهب الشيعة الذين يشكلون النقيض الصافي والطاهر لشرورهم وفسادهم. فقلبوا الأمور بافتراءات تشبه افتراءات ابن تيمية التي ذكرها قبل نصف قرن من الرسالة التي أُمِرَ فيها بمنع أهل منطقتي صيدا وبيروت، وبالقوة من ممارسة اعتقادهم الإسلامي الحقيقي.

وكنتيجة لفتاوى وأوامر وعّاظ السلاطين جرى اضطهاد الشيعة والقضاء على من تتمكن السلطة من الوصول إليه من علمائهم، فقتل ظلماً الشيخ محمد بن مكي الجزيني العاملي المشهور عند عموم الشيعة في العالم ب»الشهيد الأول» أحد أبرز وأهم علماء الدين الشيعة في التاريخ قديماً وحديثاً، والأكثر أثراً في تطور الفقه الإمامي عقائدَ

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣ ص ١٤.

وعباداتٍ ومعاملات. العالِم الذي يدين له الشيعة بنظريات أساسية طبعت الفقه الشيعي الإمامي إلى اليوم، ولا زالت هذه النظريات في دور التفعيل والممارسة ومنها التوطئة لنظرية «ولاية الفقيه» التي أدت إلى انقلاب كبير في مفهوم الشيعة لدور عالم الدين في القيادة والإدارة السياسية والاجتماعية. (يأتي الحديث عن الشهيد الأول في الأثر الحضاري للعصر المملوكي). ورغم أن الشيخ محمد بن مكي قد درس الفقه والأصول على مذاهب السنة الأربعة المعترف بها والمفروضة قهراً من المماليك، وحصل على إجازات عدد من كبار علمائهم. فإن الاشتباه بأنه شيعي قد أدى للقضاء عليه بموافقة وقبول أئمة المذاهب الأربعة في دمشق. فاستشهد مظلوماً في دمشق سنة ٧٨٦/ ١٣٨٤. وقد علق مصلوباً بعد قتله وجرى التمثيل بجثته ثم أحرق. لقد اتبع الظلمة في قتل الشهيد الأول نفس الطريقة التي اتبعوها في الشيعة الآخرين الذين استشهدوا قبل وبعد ابن مكي. وفي كل ذلك كانوا يلجأون إلى فتاوى تلقى القبول والرضى من وعاظ السلاطين في دمشق.

لم يتوقف اضطهاد الشيعة وقتل علمائهم عند استشهاد محمد بن مكي، بل إن قتل الشهيد الجزيني يشبه قتل من سبقه من الشهداء وما أكثرهم. ويبدو أن المماليك الذين قتلوا وذبحوا واضطهدوا من قدروا عليه من الشيعة قد خربوا أيضاً وعن عمد معظم البلاد الشيعية التي تمكنوا من التسلط عليها، فبالتزامن مع القتل والنهب أمرت الدولة المملوكية بتدمير ونقل قريتين عامرتين كما يذكر ابن كثير حيث يقول: « وفي شهر اللّه الحرام (سنة ٧٦٦) رسم نائب السلطنة بتخريب قريتين في وادي التيم وهما مشغرا وتلفياثا وسبب ذلك أنهما عاصيتان وأهلها مفسدون في الأرض والبلدان والأرض حصينة لا يصل إليهما إلا فارس فارس. فخربتا وعمر بدلهما في أسفل الوادي بحيث يصل إليهما حكم الحاكم والطلب بسهولة. فأخبرني الملك صلاح الدين ابن الكامل أن بلدة تلفياثا عمل فيها ألف فارس ونقل نقضها إلى أسفل الوادي ٥٠٠ حمار عدة أيام[1]».

لكن وطأة الاضطهاد والتعسف والظلم بدأت تخف بعد استشهاد الجزيني ، والسبب

---

(١) ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٦ ص ٤٥٤.

ليس يقظة الضمير المملوكي ولا تحسن أداؤهم السياسي، ولا إدراكهم لسوء ما يفعلونه، بل لتطورات تاريخية سياسية وعسكرية عصفت بالسلطنة وتركت آثاراً مدمرة على بنية الدولة المملوكية طيلة القرن التالي. فقد قام التتر بقيادة تيمورلنك باجتياح المنطقة سنة ١٤٠٠ وقضوا بالقتل والتهجير على معظم سكان المدن الشامية. واعقب ذلك انتشار الأوبئة فهلك معظم الناجين من حرب تيمورلنك. وجاء بعد ذلك الجراد فقضى على الاخضر واليابس حتى فقد الناس زروعهم وبهائمهم وحلت المجاعة في كل البلاد الشامية حتى انخفض عدد السكان بشكل هائل وبقي كثير من الأراضي بوراً لأن أحداً لم يقم بزراعتها.

٦ - ثورة شيحين

من صفحات التاريخ المضيئة ما يمكن ذكره عن مقاومة الشيعة في لبنان لعتو المماليك وظلمهم. فليس كل ما أراده ملوك المماليك قد تحقق. لقد قاوم الشيعة اللبنانيون ظلم المماليك منذ البداية وتمكنوا بعد سنوات طويلة من النضال الدؤوب والصبر على المكاره من إثبات وجودهم والدفاع عن أنفسهم مما أمّن لهم الاستمرار في البلاد الشامية رغم قسوة الحكام الظالمين. ومنذ البداية وقف الشيعة خاصة في جنوب لبنان (جبل عامل) موقف المقاوم الصلب في وجه السلطان المملوكي.

إحدى علامات مقاومة الشيعة لحكم المماليك ثورة أحد وجهاء منطقة ساحل صور الذي عرف في المصادر التاريخية باسم «سابق شيحين». وشيحين قرية قريبة من موقع مدينة صور التي كانت مدمرة في عهد المماليك بأمر من السلطان.

فقد قُدِّر لهذه القرية الصغيرة في جبل عامل (جنوب لبنان) أن يكون لها دور أساسي في مواجهة المماليك. في تلك القرية القريبة من الساحل بدأت عملية طويلة في التمرد والثورة على طغيان المماليك. ومن المؤسف أن معظم الأحداث التي جرت في شيحين وحولها قد طواها النسيان لأن أصحاب الشأن وهم كتاب الشيعة لم يعرضوا لها ولم يتحدثوا عنها. وربما يكون للمؤرخين المعاصرين من رجالات دولة المماليك الفضل في كشف بعض الأمور التي حدثت في المنطقة.

ترتبط الاحداث بنائب صفد الأمير سيف الدين بُتْخاص أحد أمراء الألوف بدمشق

(أمير مائة تقدمة ألف وهذا يعني أنه يقود مائة فارس وألف من المشاة) ينتمي إلى المماليك البرجية وقد تولى نيابة صفد سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢ بعد النائب سيف الدين كراي المنصوري. يمثل بُتخاص النموذج المملوكي الذي يتعامل مع الناس في الولاية بمنطق القوة والقهر. يقول الصفدي عنه أنه:» أظهر المهابة ومزّق من المؤذي إهابة، وتنوع في اتلاف النفوس وفصل الأجساد عن الرؤوس. وَسَّطَ جماعة كثيرة وشنق وخنق آخرين من غيظه والحنق، وسمّر جماعة على الجمال وطاف بهم البلد. وأنزل بهم أنواعاً من النكال والنكد. قد تقمص القساوة والتجبر، وزاد في التعظم والتكبر»[١]. وهذا الكلام الذي يحمل المديح لهذا المملوك يصل في النهاية إلى اثبات بطولة بُتخاص الذي: «...مهّد جبل عاملة، وروّى سيفه منهم وعامله. أمسك سابق شيحين وأذاقه الحين بعد الحين. وسمّر أولاده تحت القلعة وأراهم أباهم وقد طار من المنجنيق في الهواء وانقلب»[٢].

وسابق شيحين المذكور هنا لا يعدو كونه الحاكم الذي يكون صلة الوصل بين النائب وبين السكان، فيشرف على جباية الضرائب ويجمع الشبان المكلفين أثناء الحروب. أما لماذا برزت شيحين دون سواها من القرى فإن ذلك يرتبط بموقعها الطبيعي الذي جعلها بمنأى عن طرق تحرك العساكر على الساحل وبعيدة نسبياً عن القلاع الأربع الكبرى (تبنين وهونين وأرنون وبانياس). هذه الرواية للصفدي عن سابق شيحين ذكرها أولاً في الوافي بالوفيات حول اسم بُتخاص فقال: « بتخاص، الأمير سيف الدين؛ كان بدمشق أميرا، وهو من جملة البرجية، ثم حضر إلى صفد نائبا، فأقام بها ست سنين ومهد جبلها، وقمع المفسدين، وأفناهم. أمسك سابق شيحين وسمر أولاده تحت القلعة ورمى أباهم في المنجنيق، ووسط جماعة وسمرهم وشنقهم، وأبدع في الهلاك أنواعا غريبة. ثم عزل وجهز إلى مصر وبقي بها من جملة الأمراء»[٣].

أما العسقلاني فقد تحدث عن الأمير بُتخاص باختصار دون أن يذكر ما فعله بسابق شيحين وبأولاده يقول: « بتخاص المنصوري: كان من الرحبة ثم من أمراء دمشق ثم ولي

(١) الصفدي، أعوان النصر، ج ١ ص ٦٧٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات ترجمة رقم ٢١٦٨ ج ١٠ ص ٤٦.

نيابة صفد فباشرها بمهابة زائدة وأكثر من القتل. ثم صرف، ثم عاد إلى القاهرة وولي بها أمرة في أول سلطنة المظفر بيبرس فلما جاء الناصر من الكرك أراد القيام عليه واتفق مع بكتمر الجوكندار نائب السلطنة أن يقيما موسى بن الصالح علي بن المنصور فبلغ الناصر فاستدعى الجوكندار فعوقه وأرسل إلى بتخاص فتمنع وتحصن بداره فأمر باحراقها ثم أمسك وسجن بالكرك ومات بها هو وأسندمر نائب طرابلس في ذق سنة ٧١١/ آذار ١٣١٢. وكان شديد التكبر والتجبر سامحه الله[١].

بعد هذه الحادثة لا يرد أي ذكر لأي حوادث مهمة في المنطقة. وباستثناء حادثين وقعا خارج جبل عامل فلا وجود لأي فعل تاريخي مؤثر. الحادث الاولى وقع سنة ٧٤٥/ ١٣٤٤ عندما هاجم أهالي البقاع بزعامة ابن صبح وهو أحد أمراء دمشق هاجموا منطقة وادي التيم: سنة ٧٤٥: «وقتل من الفريقين خلق كثير وأحرق ابن صبح قرية من وادي التيم وانقطعت السبل[٢].

كما وقعت حادثة أخرى سنة ٧٩١ في منطقة الغرب عندما هاجم أهالي كسروان بزعامة بعض أمراء التركمان الذين سكنوا في المنطقة بعد سنة ٧٠٥: «سنة ٧٩١: وانتشب القتال بين أمراء الغرب التنوخية وبين عشران البر أهل كسروان والأمراء أولاد الأعمى. وكان التنوخية ميالين إلى الملك الظاهر (برقوق) والكساورة مع أرغون نائب منطاش في بيروت فاستظهر أهل كسروان على أمراء الغرب وقتلوا منهم نحو ٩٠ نفراً وأمسكوا جماعة فسمروا بعضهم ووسطوا آخرين وأحرقوا عدة قرى من الغرب وتلقبوا بعشران البر. ثم إن العساكر الظاهرية زحفت على تركمان كسروان وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل فقتلوا منهم جماعة كثيرة[٣].

٧ - هجوم تيمورلنك

يعتبر القرن الثامن/ الرابع عشر من أسوأ ما مر على الشيعة في تاريخ لبنان الوسيط. لقد

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج١ ص ٤٧٢

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام ج٢ ص ١٤٧.

(٣) المصدر السابق، ج٢ص ١٥٧.

واجه الشيعة طيلة القرن حرباً شعواء لاستئصال وجودهم والقضاء عليهم. وكان نواب السلطنة في صفد ودمشق وطرابلس يتعاملون مع الوجود الشيعي كما يتعاملون مع عدو خطر وقد وضح مما كتبه ابن تيمية وما ذكره القلقشندي ماهية المبررات الخبيثة التي اعتمدها المماليك في تلك الهجمة المتوحشة. لكن الأحداث لم تستمر كما هي إلى ما لا نهاية، لقد بدأت دولة المماليك التي قامت على سفك الدماء تتآكل من داخلها، فكل سلطان حكم في القرن الثامن/ الرابع عشر قد فتك بمن حوله من أمراء ومن والاهم من أتباع. فكانت الحروب والفتن مستمرة ولا تهدأ أبداً. وفي كل سنة تتحرك جيوش السلطان لقتال منافسيه من المماليك، فيما يقوم أمراء وزعماء بالانقلاب بعضهم على بعض، وكأن البلاد المصرية والشامية في حرب أهلية مستمرة دون توقف لا يتغير فيها إلا الأسماء. وكان من الطبيعي أن تصبح البلاد هدفاً للملوك المغامرين والفاتحين الباحثين عن بلاد جديدة يطؤونها بقوة جيوشهم كما فعل ملك التتار تيمورلنك الذي بدأ الزحف من آسيا الوسطى نحو بلاد الشام ومصر بدعوى الانتقام لمذبحة تعرض لها العلويون في سنجار في شمال العراق. وبعد أن سحق تيمورلنك قوات العثمانيين في قونية وأسر سلطانهم بايزد تابع طريقه إلى سوريا فاستولى على مدنها واحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى دمشق فاستولى عليها وانتقم من أهلها انتقاماً مريعاً حتى قضى على معظم سكانها. وكانت حلب قد سبقت دمشق في تلقي الانتقام التيموري فحل عليها الفناء ولم ينج من سكانها إلا القلة القليلة. وعاد تيمورلنك بعد حين واستولى عليها فقضى على من تبقى فيها.

يذكر مؤرخو الحقبة المملوكية وخاصة الذين أدركوا فترة هجوم تيمورلنك على الشام أن المأساة في المدن الشامية كانت أكبر من أن توصف. وينقل العسقلاني ما روي له عن ما جرى في حلب من قتل وقطع للرؤوس وبناء المراتب بها. لكنه يقدم سبباً لتلك المذابح قلما يذكره المؤرخون وهو انتقام تيمورلنك للمذابح التي نفذها السلطان العثماني بايزيد بن عثمان بأهل سنجار وهم جماعة من العلويين فوصل هاربون منه إلى تيمورلنك واستنجدوا به. وليس هناك من مصادر تؤكد هذا السبب وتوثقه، لكن في كتابة العسقلاني ما يوحي به إذ يقول نقلاً عن القاضي محب الدين ابن الشحنة عن الحافظ الخوارزمي أنه أخبره «أن ديوان اللنك اشتمل على ثمانمائة ألف مقاتل، وذكر أيضا أن اللنك لما جلس في القلعة وطلب

علماء البلد ليسألهم عن علي ومعاوية فقال له القاضي القفصي المالكي: كلهم مجتهدون، فغضب وقال: أنتم تبع لأهل الشام وكلهم يريدون ويحبون قتلة الحسين»[١]. وفي هذه الإشارة ما يكفي لانزال العقاب الصارم حتى لم يبق من أهل حلب إلا القليل. ثم لاحقاً حل بأهل دمشق ما يشبهه حيث يقول العسقلاني: «فهلك تحت الضرب والعقوبة من لا يحصى، ثم خرج منها الأمراء المذكورون وصبح البلد في سلخ رجب المشاة والرجالة في أيديهم السيوف المصلتة فانتهبوا ما بقي من المتاع وألقوا الأطفال من عمر يوم إلى خمس تحت الأرجل وأسروا أمهاتهم وآباءهم ثم أطلقت النار في البيوت إلى أن أحترق أكثر البلد وخصوصا الجامع وما حواليه، ثم رحل تمرلنك بعساكره في ثالث شعبان فأعقب رحيله جراد كثير إلى الغاية ودام أياما، ومات في هذا الشهر من أهل الشام من لا يحصي عدده إلا اللّه تعالى، فمنهم من مات حريقا، ومنهم عن عجز من الهرب فمات جوعا، ومنهم من توجه هاربا فمات إعياء، ومنهم من كان ضعيفا فاستمر إلى أن مات»[٢].

إن الحديث عن هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي هو حديث عن أكبر المآسي التاريخية التي أصابت البلاد السورية عامة ما يفوق أضعاف أضعاف ما رأته هذه البلاد أثناء الغزو الصليبي وأضعافاً مضاعفة من هجوم هولاكو المغولي. فالحرب التي شنها تيمور لنك قد كادت تفني البلاد من سكانها. والناجون تعرضوا بعد تراجع التتار عن البلاد إلى موجة من اسباب الاضمحلال كبيرة. فالجراد هاجم الزروع فقضى على كل شيء أخضر في طريقه. وبقية المماليك في مصر واصلوا حروبهم فيما بينهم كل يريد أن يستولي على السلطة. والناس بين ذلك يدفعون ثمن هذه المظالم. ومن المهم ذكر ما كتبه ابن إياس في البدائع عن حالة الناس والمماليك بعد هزيمتهم أمام تيمور لنك: «.... وتتابع دخول المنقطعين بدمشق إلى القاهرة في أسوأ حال من المشي والعري والجوع. وكان أكثرهم ينزل من البحر المالح من على يافا ثم يطلعون من على دمياط ويدخلون القاهرة في اسوأ حال وأنحس هيئة. وقد ذهبت حرمة المملكة وتبهدلت الأتراك عند الفلاحين وغيرهم»[٣].

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج ١ ص ٢٤٨.
(٢) المصدر السابق، ج ١ ص٢٥٠.
(٣) ابن اياس، بدائع الزهور ج ١ ص ٦١٨

كان الهاربون يتعرضون قبل وصولهم إلى يافا إلى هجمات من العربان وقطاع الطرق بأسوأ ما لاقوه من جيش تيمورلنك في هذه الفترة وأثناء الأزمة يبدأ استعمال مفرد «العشير» كواحد من أسماء الغزاة الفوضويين المنتمين إلى بعض بطون العشائر العربية الشامية، والذين يقومون بأعمال اللصوصية وقطع الطرق. يقول ابن إياس في وصف ذلك: «.... فأخذهم (الهاربون من الشام نحو مصر) العشير فسلبوهم ما معهم ولم يتركوا عليهم إلا اللباس في وسطهم. فجرى عليهم من العربان والعشير ما لا جرى عليهم من عسكر تمرلنك وقتلوا العربان منهم خلقاً كثيراً»[١]. وهذا يثبت أن العشير قد أصبح لديهم من القوة ما يكفي لمواجهة الدولة المملوكية بعد أن تبهدل «الأتراك» وفقدوا هيبتهم.

ربما صدفة، أو لسبب ما نجت المناطق الساحلية الشامية من هجوم تيمورلنك ولم تقع فيها تلك الضربات الهائلة التي حلت بأهل المدن الداخلية، وقد ذكر بعض المؤرخين أن بعضاً من أهالي دمشق فروا إلى «القلاع والحصون المانعة، منهم من توجه إلى قلعة أرنون ومنهم من قصد شقيف تيرون»[٢]. وقد اتبع سلطان المماليك فرج ابن برقوق نفس الطريق التي اتبعها الهاربون من دمشق. يقول ابن سباط: «... ثم دخل على السلطان فرج ابن برقوق شخص من خواصه وأخبره بما لا يفهمه ثمّ أحد وكان من كبار أمرائه.... وخشي على مصر وخرج من قلعة دمشق في حكم الليل وسار وترك الشام وراءه وذهب على طريق البقاع العزيزي وجعل دربه على الجبال فتوجه نحو طريق الساحل وقيل إنه بات ثاني ليلة بسفح جبل لبنان إلى جهة الغرب بمكان يقال له الصفصاف بين قريتي نيحا وجباع لئلا يعلم به أحد....»[٣].

لقد أفضت حرب الإفناء التي مارسها تيمورلنك في المدن الشامية إلى نتيجة مهمة وهي زيادة واضحة في عدد سكان المناطق الساحلية التي أصبح لها دور مهم بعد سنة ٨٠٣/ ١٤٠٠. حيث تمكن أمراء العشير، وهم غالبية سكان المناطق الساحلية (صيدا

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ص ٧٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٦٠- ٧٦٤.

وصور وما يقابلهما من الجبال التابعة لنيابة صفد) من لعب دور مستجد في الأحداث التالية. وشعر هؤلاء أنهم يملكون الكثير من القوة للوقوف في وجه عتو السلاطين المماليك للحد من طغيانهم. وهذا هو السبب الأكثر قبولاً لبروز عائلة بشارة في جبل عامل.

الفصل السابع

إمارة آل بشارة

١ - آل بشارة: أصلهم، وأقاصيص الرواة عنهم

٢ - إمارة آل بشارة

٣ - نهاية إمارة آل بشارة

١ - آل بشارة: أصلهم، وأقاصيص الرواة عنهم

قد يبدو الحديث عن بني بشارة في جبل عامل (جنوب لبنان) من المسائل التي اختلطت فيها الأسطورة بالنفاق التاريخي. فاستحضار إسم وهمي وتركيبه في الحدث التاريخي قضية لا يمكن تركها كما هي لتصبح من المسلمات، وليصدقها من اخترعها.

لا يوجد تاريخ عاملي لجبل عامل (جنوب لبنان)، أي أن أحداً من أبناء البلد لم يكتب تاريخاً صحيحاً لما جرى من أحداث في فترة حكم المماليك ١٢٦٠ ـ ١٥١٦. ما كتب بهذا الخصوص كان في معظمه كتابة دينية ترتبط بالترجمة لبعض علماء الدين. وأقدم من كتب حول ذلك جاء متأخراً وفي فترة الحكم العثماني حيث لم يكن بالإمكان معرفة ما جرى للشيعة في لبنان إلا من خلال ما كتبه بعض علماء الدين من ترجمات شخصية لعلماء سابقين كالشيخ محمد بن الحسن الحر المشغري (ت ١١٠٤/ ١٦٩٢) صاحب كتاب «أمل الآمل في معرفة علماء جبل عامل». ليس بين أسماء العشرات من العلماء المترجم لهم في هذا الكتاب ما يفيد بحوادث تاريخية مهمة خصوصاً ما يرتبط من قريب أو بعيد بالبحث عن آل بشارة. وربما أول مرة ذكر أحد من كتاب الشيعة أو من أصحاب الرجال آل بشارة أو نسبهم كان الشيخ علي السبيتي في القرن التاسع عشر وتابعه شبيب الأسعد من باب التعريف بأسرته، ثم جاء العالم الجليل محسن الأمين العاملي فأخذ بتلك الرواية أو ما يشبهها في كتابه الموسوعي الكبير «أعيان الشيعة». وقد نقل عنه بعد مدة قصيرة الكاتب محمد جابر صفا في مؤلفه «تاريخ جبل عامل» المنشور سنة ١٩٤٥. لم يتحدث محمد جابر عن أسرة آل بشارة بقصد التعريف بها أو بتاريخها أو بما أنجزته عندما كانت في البلاد، لكنه قدم موجزاً صغيراً عن سبب تسمية جبل عامل بـ «بلاد بشارة»[1]. وفي كل ما ذكره الكاتب لم يصب هدفاً حقيقياً في التعريف الذي كتبه على

---

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٧.

الطريقة الإفتراضية ونسب الحديث عنه إلى مجاهيل بحيث لا يستخرج القارىء من كل الموضوع ما يمكن اعتباره تاريخاً علمياً حقيقياً.

يقول محمد جابر: «وأما تسمية جبل عامل ببلاد بشارة ومن هو بشارة فالأقوال فيه متضاربة. فمنهم من قال أنه الأمير بشارة بن معن وآل معن أسرة عربية وبطن من ربيعة حكمت لبنان(؟) من سنة ١٥١٦ م إلى سنة ١٦٩٧.... وقد نقض هذا الرأي إذ لم يعرف في سلسلة أمراء آل معن من اسمه بشارة»[١].

إذا فالكاتب نسب الكلام لمجهولين (منهم من قال...) ثم نقضه بحجة عدم وجود أحد بهذا الإسم في سلسلة أمراء آل معن. مع العلم أن آل معن هؤلاء قد ظهروا كما قال معرفاً بعد حكم آل بشارة بقرن على الأقل. ولعل الكاتب لم ينتبه إلى الرقم الذي كتبه حول حكم آل معن (١٥١٦....).

ثم ينتقل إلى فرضية ثانية ينسبها إلى رجل دين ممهداً لرفضها فيقول: «ومنهم من قال إنه بشارة بن مقبل القحطاني. وهذا القول انفرد به العلامة المؤرخ الشيخ علي سبيتي وتابعه عليه شبيب (باشا) الأسعد في العقد المنضد. ولم نر لهذا الاسم ذكراً فيما لدينا من المؤلفات التاريخية. ولم يذكر العلامة السبيتي المصدر الذي نقل عنه. فأصبح القول به في حكم المهجور حتى تتوفر الأدلة على صحته»[٢].

الجملة الأخيرة التي كتبها محمد جابر هي الأساس العلمي لإثبات التاريخ، فيهجر كل حديث لا توجد أدلة على صحته. ورغم ذلك فإنه ضرب بهذه القاعدة عرض الحائط عندما ذكر قناعته التالية: «والمعول عليه، والأقرب إلى الصحة أنه الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن أحمد بن سلامة العاملي، هكذا ساق نسبه ابن فتحون في تاريخه. وقال العلامة السيد محسن الأمين الحسيني ولم يذكر المصدر أنه من رهط عاملة بن سبأ». ويتابع محمد جابر: «وهذا الأمير كما يقول ابن فتحون هو من أمراء الدولة الصلاحية الكردية حضر مع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨.

فتح حصن هونين وأقطعه الملك خيط بانياس. وورد ذكره في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للملك الأفضل بن صلاح الدين في عكا بعد وفاة أبيه وظهر من كلامه أنه كان من أكابر أمراء الدولة»[١].

وهذا الكلام لمحمد جابر غير صحيح ولا موثق. فلا يوجد في التاريخ الإسلامي من عاش أثناء أو بعد حكم صلاح الدين من اسمه ابن فتحون. هناك رجل دين أندلسي بهذا الإسم عاش في القرن الحادي عشر وتوفي قبل صلاح الدين بقرن على الأقل فليس هو المقصود ب «المؤرخ ابن فتحون». لذلك فالاستناد إلى هذا الاسم هو باطل لا يمكن أن يبنى عليه. أما ما ذكره ابن شداد حول حسام الدين بشارة فيختلف كلياً عن الشخص الذي يعرف عنه الكاتب (يأتي الحديث عنه). ثم ينتقل محمد جابر إلى نقطة خطيرة تطيح بكل فرضيته وهي القول::»ومما تتناقله الألسن في جبل عامل ونص عليه بعض الباحثين (؟) أن قرية زبقين من أعمال صور كانت مركز إمارته حيث الآثار الفخمة فيها تدل على ذلك»[٢].

ليس في كلام محمد جابر أي شيء يمكن أن يوصف بأنه تاريخ، فما قاله شيء من الخيال. ولا يلام في ذلك لأن هدفه كان يختلف عن إبراز دور بني بشارة. لكن اللوم يقع على عاتق الذين قلدوا محمد جابر وأخذوا ما ذكره على أنه حقيقة تاريخية وبنوا عليها. فالشيخ محمد تقي الفقيه يقول في كتاب يحمل عنوان (جبل عامل في التاريخ) أن «عاملة قبيلة من قبائل العرب اليمانية، وبشارة هو أحد حكامها في العصور الوسطى والذي يدور على الألسن أن مركز إمارته في قرية زبقين من أعمال صور حيث لا تزال الآثار الفخمة فيها تدل على ذلك»[٣]. ورغم أن الشيخ الفقيه قد حسم المسألة وحدد إمارة بشارة مكاناً وزماناً (في زبقين في العصور الوسطى؟) إلا أنه يتابع متسائلاً: «وبشارة هذا هل هو من أمراء بني معن؟ أو هو بشارة بن مقبل القحطاني؟ كل ذلك لم يقم عليه برهان»[٤].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) محمد تقي الفقيه، تاريخ جبل عامل، ص ٧٣.

(٤) المصدر السابق.

لا يمكن مناقشة ما قاله الشيخ المؤرخ فالسؤال بذاته يلغي فرصة النقاش، ما دام (الأمير) بشارة هو من حكام قبيلة عاملة فلماذا يجب أن يكون من بني معن؟ وماذا تعني العصور الوسطى في الشرق؟ إن تعريف العصور الوسطى قد استعمله الأوروبيون للدلالة على حقبة امتدت في بلادهم ألف سنة تقريباً (٤٥٣ ـ ١٤٥٣) أي من سقوط روما بيد القوط إلى سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين. فهل كان الشيخ يعني هذه المدة أم زماناً آخر يبنى عليه في تاريخ غامض؟ وفي كل ذلك فقد عاد الشيخ ونقل ما كتبه محمد جابر كما هو مع تحديد نسب بشارة: «... والذي يقرب من الصواب أن بشارة هذا هو ابن أسد الدين العاملي الذي أقطعه الملك الناصر خيط بانياس ويدل على ذلك ما عن تاريخ إبن فتحون(؟) أن حسام الدين بشارة بن اسد الدين بن عامر بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي من رهط عاملة بن سبأ حضر فتح قلعة هونين مع الملك الناصر بن ايوب وأقطعه الملك الناصر خيط بانياس»[1].

من الملاحظ أن ما رفضه محمد جابر لعدم وجود أدلة صحيحة تثبته، قرر الشيخ الفقيه أنه صحيح واعتبره مثبتاً لا بل أعطى له نسباً.

وما كتبه الشيخ الفقيه يشبه إلى حد بعيد ما كتبه العالم الجليل محسن الامين العاملي في «أعيان الشيعة». لا بل ربما يكون هو الأصل الذي بنى عليه الشيخ الفقيه ومحمد جابر، فهو يذكر آل بشارة وإمارتهم في معرض تعريفه بأسرة (علي الصغير) فيقول: «وأصلهم (علي الصغير) من عرب عنزة من بني سالم المعروفين بالسوالمة جاء جدهم إلى جبل عامل وتحضر واتصل بالحكام وحارب معهم وصارت له عندهم مكانة. انتهت إليه الإمارة في تلك البلاد. إلا أن اسمه ومبدأ إمارته فيها لا يزال مجهولا. أما ما يقوله بعض أفراد هذه العائلة من أن اسمه محمد بن هزاع وانه جاء إلى بلاد عاملة والأمير عليها بشارة بن مقبل من قبل صلاح الدين الأيوبي وهو الذي تنسب اليه بلاد بشارة فحاربه هزاع وغلبه وتزوج ابنة بشارة وأجرى عليه معاشا حتى مات، فلا يستند إلى مأخذ. وما هو إلا نوع من الأقاصيص التي تخرجها المخيلات. والذي يظن كما قال بعضهم أن حكمهم

(١) المصدر السابق.

بعد بني سودون الذين كانوا من جهة نواب دمشق المنصوبين من ملوك مصر المماليك الأتراك حوالي سنة ٧٠٠/ ١٣٠٠. أما بشارة الذي تنسب اليه بلاد بشارة فالظاهر أنه بشارة بن أسد الدين بن عامر العاملي السبئي الذي كان في عصر صلاح الدين وحضر معه فتح هونين وأقطعه خيط بانياس وحضر معه فتح السواحل الشامية»[١].

لقد حسم السيد الامين المسألة بالتسليم بالظاهر والمعروف بالنسبة إليه أن بشارة (الأمير) هو عاملي سبئي عربي كما هو واضح من النسب.

لكن السيد محسن الأمين العاملي الذي اقتنع بهذا الظاهر عاد في مكان آخر من المؤلف ووضع فرضية مختلفة ومغايرة حين افترض أن الامير أبا الحسن بشارة حاكم ولاية الاردن في عهد الفاطميين قد يكون هو الأمير الذي تنسب إليه بلاد بشارة. فأثناء حديثه عن الشاعر عبد المحسن الصوري نقل عنه قصيدة يمدح بها الأستاذ أبا الحسن بشارة أمير طبرية ويقول الأمين في النهاية: «ويظهر أن بشارة هذا من الأمراء ويمكن أن يكون هو الذي تنسب إليه بلاد بشارة في جبل عامل»[٢].

لقد اعتمد محسن الأمين ومحمد جابر ومحمد الفقيه بحثاً عن أمير مجهول تنسب إليه البلاد، ورغم عدم توصلهم إلى قرار حاسم حول ذلك فقد بادر، بعد حين من مواقف المذكورين، بادر أحد علماء الدين المؤرخين وهو الشيخ المهاجر إلى التقرير والقطع بنفس الطريقة الافتراضية فكتب: «ما إن حررت قوات صلاح الدين جبل عامل وسقطت قلاع الصليبيين الحصينة حتى ولى عليها أحد أمرائه حسام الدين بشارة... »[٣]. يستند الشيخ المهاجر إلى النوادر السلطانية (ص ٢١٠ و ٢٤٥). والفيح القسي (ص ٢٧٦ و٤٤٢) ويؤكد هذه المقولة حول إمارة حسام الدين بشارة باثباته نصاً موجوداً في كتاب مرآة الزمان[٤] يصف كيف انتزعت بانياس بالقوة حيث قتل ولده وأخرج من البلاد[٥].

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٤ ص ٢١.

(٢) المصدر السابق، ج ٨ ص ٩٨.

(٣) جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، ص ٢٢٧.

(٤) المصدر السابق نقلاً عن مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي ج ٨ ص٧٩.

(٥) جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، ص ٢٢٧.

وبمراجعة النصوص التي يستند إليها الشيخ المهاجر لم يعثر على ما يثبت أو يلمح إلى تولي الامير حسام الدين بشارة أي إدارة أو سلطة أو حكم قلعة من القلاع (الحصينة) التي استولى عليها صلاح الدين في جبل عامل، بل ظل معه في الجيش لأنه كان أحد قادة اليزك السلطاني (وحدات الاستطلاع). وكان يتحرك في مهمات عسكرية صرفة في الجبهات. وعندما مرض السلطان صلاح الدين كان الأمير حسام الدين بشارة أحد الذين ظلوا إلى جانبه وأشرف على تحليف قادة الجيش لعلي بن صلاح الدين الملقب بالأفضل خوفاً من تبعات ما بعد وفاة السلطان في زمن الحرب. وهكذا أصبح الأفضل علي بن صلاح الدين ملكاً على دمشق وما يتبعها وأصبح أخوه العزيز بن صلاح الدين ملكاً على مصر وما يتبعها وتولى حكم القلاع والمدن الأساسية في المناطق التي تسيطر عليه قوات إسلامية أمراء معروفون وليس بينهم حسام الدين بشارة إلا بعد حين عندما تولى حكم قلعة بانياس فقط، وهي خارج حدود جبل عامل. وقد تولاها بعد مدة من وفاة صلاح الدين.

يضيف الشيخ المهاجر حول الأمير حسام الدين بشارة كلاماً فيه الكثير من الخيال اللامعقول فيقول عن حسام الدين: «... وهو رجل لا نعرف شيئاً يذكر من سيرته والظاهر أنه أحد الذين برزوا من خلال الأعمال العسكرية كما يحدث دائماً في الحروب الطويلة. والراجح أنه من أبناء المنطقة عاملي أو على الأقل من أبناء الجليل أو الحولة. فهو يوصف كثيراً بزعيم العشير فما يفهم منه أن زعامته كانت ذات طابع قبلي ولا زعامة من هذا القبيل من خارج الرابطة النسبية. ثم لا شك أن بروزه كان على قاعدة شعبية من بني قومه الذين اشتركوا في القتال ضد الصليبيين تحت قيادته وهذا مطلّ هام وغير معروف على تاريخ جبل عامل وأهله في ذلك الزمان. من هنا كان لحسام الدين بشارة دور سياسي بعد التحرير انطلاقاً من دوره العسكري قبل التحرير. ويستطيع المؤرخ أن يبدأ انطلاقاً من هذه الواقعة السياسية بالإضافة إلى الواقعة السكانية التي وصفناها قبل قليل في كتابة تاريخ حقيقي ل(جبل عامل). ولّى صلاحُ الدين بشارةَ على «خط بانياس» في السنة ٥٨٦ / ١١٩٠ بعد أن كان لفترة قصيرة واليه على عكا لكن من المؤكد أن سلطته كانت تمتد على كل المنطقة المحررة في جبل عامل أي ما عدا مدينة صور والظاهر أنه كان مسؤولاً

بمن معه من عشير عن منازلتها والتضييق على من فيها. ولقد جرت على حسام الدين خطوب بعد صلاح الدين بسبب النزاعات التي نشبت بين ابنائه وانتزعت منه بانياس بالقوة وقتل ولده وأخرجوه من البلاد ولكنه استمر في حكم جبل عامل بوسيلة ما بل ظل ابناؤه يحكمون أجزاء مختلفة من الجبل ما يزيد على الثلاثة قرون أي حتى الفتح العثماني ل (الشام) حيث اختفوا نهائياً في ظروف غامضة»[١].

لقد قرر الشيخ المهاجر سجلاً كاملاً للأمير المجهول الذي يعترف بأنه لا يعرف شيئاً يذكر عن سيرته. وإذا به يعرفه أميراً من المنطقة ومن العشائر العاملية العربية ليصبح الأمير وسيرته باباً من أبواب التاريخ العاملي. وكل ذلك بفرضية «الظاهر» و«الراجح» ثم «لا شك».

لا شك أن الشيخ المهاجر يعرف أن عكا استعادها الصليبيون سنة ١١٨٩ وجرت فيها مذبحة ولم تعد للمسلمين حتى سنة ١٢٩١ (تقريباً بعد قرن من الزمان) وأن الوالي عليها كان حتى سقوطها (بين ١١٨٧-١١٨٩) الأمير المشطوب ثم عين عليها لمدة وجيزة الأمير حسام الدين بشارة.

وللبيان، ولو أن الشيخ المهاجر تابع قراءة ما عرف عن الأمير حسام الدين بشارة، لعرف أنه أمير تركي في جيش صلاح الدين وليس عربياً ولم يدخل إلى المنطقة إلا مع الجيش الإسلامي (المتعدد الأعراق) ولم يعرف أبداً بشيخ العشير وهذه التسمية سيبدأ استعمالها بعد سنة ٧٠٥/ ١٣٠٥ انطلاقاً من عشران كسروان ثم بعلبك ثم إلى جبال صفد ونابلس. كما أن أحداً لم يذكر ولم يثبت أن الأمير حسام الدين بشارة التركي الجنس كان يحسن الكلام باللسان العربي. صحيح أنه كان من كبار الأمراء في الدولة الصلاحية، وكان بإمرته فرقة من اليزك السلطاني أي وحدة استطلاع الجيش تتحرك قبل تحرك باقي القطاعات العسكرية لتأمين الطرق أمامه. وبالتأكيد لم يكن حسام الدين بشارة أكبر الأمراء، فالكبار فازوا بالمناصب الكبرى في الدولة أثناء وبعد حكم صلاح الدين، فيما لم يفز بشارة بأي منصب يذكر.

(١) المصدر السابق ص ٢٢٩.

ثم، ما هي العلاقة التي كانت تربط العامليين بالصليبيين حتى يتحدث أحدٌ عن التحرير؟ هل كان هناك عداء ومقاومة للاحتلال؟ أم كانت علاقة وثيقة وطيبة؟ ففيما قاله العماد الأصفهاني ما يجيب على هذا السؤال: يقول العماد الأصفهاني: «ولما خلوا القلعة (قلعة تبنين) وأخلوا البقعة سيّر الفرنجة وسيّر معهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدوري، فأرشد به ذلك الصقع الغوي فإن أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر، وأهلها وإن كانوا مسلمين، كانوا أعواناً لأهل الكفر، فوصى سنقر بتأنيس النافر وتعكيس الكافر وتأليف الجافل وتعريف الجاهل. وقال له: تبني بتبنين ما هدم بالمنجنيق وتجد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق، وكان حصار تبنين يوم الأحد ١١ جمادى الأول (سنة ٥٨٣/ ١١٨٧) وتسليمها يوم الأحد ١٨ منه[١].

وقد فات الشيخ المهاجر كما فات مَنْ كتبوا قبله أمران: أولهما أن حسام الدين بشارة لم يكن شيعياً بينما كان أمراء الأسرة البشارية شيعة إماميون وكانوا يصرحون بمذهبهم دون مواربة. والثاني أن حسام الدين بشارة هو أمير تركي وليس عربياً كما يرد في النص الذي اطلع عليه المهاجر بلا شك في تاريخ ابن الأثير حيث يقول: «.... وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل، وكانت لأمير كبير تركي اسمه بشارة قد اتهمه العادل، فأمر جهاركس بذلك[٢]. وهي الحادثة ذاتها التي يذكرها المقريزي: «سنة سبع وتسعين وخمسمائه: فيها قبض الملك العادل على أولاد أخيه صلاح الدين وهما الملك المؤيد مسعود والملك المعز إسحاق وسجنهما فى دار بهاء الدين قراقوش بالقاهرة وتسلم الأمير فخر الدين جهاركس بانياس من الأمير حسام الدين بشارة بعد حصار وقتال»[٣].

لقد أصبحت سيرة الأمير حسام الدين بشارة واضحة، فهو أميرٌ تركيٌ وليس عربياً ولا يمت إلى العرب بصلة، وهو غير شيعي، وهو من أتباع السلطان صلاح الدين ليس

(١) العماد الأصفهاني، الفتح القسي ص ٥٨-٥٩.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ٢٦٩.
(٣) المقريزي، السلوك، ج ١ ص ٢٦٧.

له ذكر قبل حروب صلاح الدين. برز لأول مرة في حركة اليزك السلطاني قرب مدينة صور حيث كان حسام الدين بشارة أحد أمراء اليزك. ثم انتقل للقتال معه إلى مدينة عكا قبيل حصارها من قبل الصليبيين، فعينه السطان عليها حتى بدء الهجوم الصليبي فاضطر المسلمون للخروج عن عكا حيث سقطت بأيدي الغزاة الذين ارتكبوا فيها مذبحة فظيعة. لتنتقل الحرب بعدها إلى مدن الساحل. ولم تنته الحرب إلا بهدنة بين المسلمين والصليبيين مدتها ثلاث سنوات. انتقل فيها صلاح الدين إلى دمشق بعد أن زار بيروت وكان بصحبته حسام الدين بشارة مع عدد من الأمراء والكتاب. وبوصولهم إلى دمشق مرض السلطان المرض الذي قضى فيه. فاستدعى الأمير حسام الدين بشارة الأمراء وحلّفهم لعلي بن صلاح الدين (الأفضل علي) وهو أكبر إخوته وكان صلاح الدين يعتبره ولي عهده. وتوفي صلاح الدين فاقتسم أولاده المملكة ووقعت بينهم خلافات وحروب وكانت الحدود بينهم غير واضحة، لذلك بدأ الأمراء الصلاحية ينتقلون كل حسب ولائه ففارق الأفضل علي ملك دمشق جماعة منهم الأمير فخر الدين جهاركس وفارس الدين ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير (حاكم تبنين وهونين وارنون) وكانوا عظماء الدولة فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة. فأكرمهم وولى فخر الدين (جهاركس) أستاداره وفوض إليه أمره، وجعل فارس الدين ميمون وشمس الدين سنقر على صيداء وأعمالها وكان ذلك لهما، وزادهما نابلس وبلادها. وسار القاضي الفاضل أيضا من دمشق ولحق بالقاهرة فخرج العزيز إلى لقائه وأجلّ قدومه وأكرمه فشرع القوم في تقرير قواعد ملك العزيز والأفضل في شغل عنهم[١]. وفي السنة التالية تخلى عن الأفضل الأمير عزالدين أسامة حاكم كوكب وعجلون. بينما لا يوجد ذكر للأمير حسام الدين بشارة في هذه الأحداث والسبب أنه التحق بالعادل شقيق صلاح الدين وكان في الموصل وقد كلّفه العادل بنقل من بقي من أولاد أخيه صلاح الدين إلى القاهرة سنة ٥٩٠/ ١١٩٤ وأقام في القاهرة[٢]. ومن الواضح أن العادل حين استولى على السلطنة من أولاد أخيه قد كلف الأمير بشارة بحكم قلعة بانياس، وهذه القلعة خارج جبل عامل

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٤.

كما هو معروف. ثم شك العادل بولائه فعزله عنها وعين مكانه الأمير جهاركس الذي أضيف حكم بانياس (قلعة الصبيبة) إلى حكمه لقلاع أرنون وتبنين وهونين. وقد اختفى ذكر حسام الدين بشارة بعد سنة ٥٩٧/ ١٢٠١ ولا يوجد فيما هو معروف من مصادر مَن ذَكَرَهُ أو ذكر شيئاً عن نهايته. فكيف سيتعلق مؤرخو جبل عامل ومن نسج على منوالهم بإسم حسام الدين بشارة التركي العابر لينسبوا له المنطقة وليعطوه نسباً عربياً (يمنياً سبئياً....) وحكماً وإمارة في منطقة استرجع الصليبيون معظمها أثناء خلافات ورثة صلاح الدين؟

وإذا كان البحث عن الأصول الأسرية لآل بشارة غير ممكن لعدم وجود المصدر الموثوق الذي يمكن الركون إليه، فإن الأقرب إلى المنطق أن تكون تلك الأسرة الشيعية قد عاشت في ظل سلطة المماليك الذين خلفوا الأيوبيين، منتحلة صفة مذهبية سنية، عن قناعة واعتقادٍ أو مسايرة للحكم القائم حتى تمكنت من الحصول على امتياز الإقطاع والالتزام حسب النظام المملوكي. ولم تتمكن هذه الأسرة من الظهور العلني وإعلان صفتها وهويتها إلا بعد هجوم تيمورلنك عندما أصبح لدى أمرائها من الأتباع والمؤيدين ما يكفي لصد عاتيات الظلم المملوكي. وأقرب أسرة لهذا الواقع هي أسرة آل بشارة الدمشقية التي تنتسب إلى بشارة الشبلي الحسامي. يقول الصفدي عن هذا الرجل: «بشارة الشبلي الحسامي الكاتب مولى شبل الدولة صاحب المدرسة والخانقاه (يعني شبل الدولة) عند ثورا بدمشق. سمع مع مولاه حنبلاً وابن طبرزد وغيرهما وروى عنه الدمياطي والأبيوردي وجماعة. وهو رومي الجنس. وهو أبو أولاد بشارة المشهورين بدمشق. كان يكتب خطاً حسناً. وذريته يدعون النظر على المدرسة والخانقاه المنسوبة إلى شبل الدولة المذكور. توفي رحمه اللّه (بشارة) سنة ٦٥٤/ ١٢٥٦»[1].

وفي أسماء علماء دمشق يرد اسم الشيخ «علي بن الحسين بن علي بن بشارة (الفاضل علاء الدين أبو الحسن الشبلي الدمشقي الحنفي. سمع كثيراً من اليونيني وسمع بنفسه وكتب وأعاد وتأهل للافتاء توفي رحمه اللّه في شعبان سنة ٧٣٤/ ١٣٣٣ ومولده سنة

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠ ص ٨٨.

٦٩٠/ ١٢٩١ في غالب الظن. ولي إعادة المدرسة الشبلية»[١]. وهذا الرجل كما هو واضح من نسبه يرجع إلى بشارة الشبلي.

يذكر ابن قاضي شهبة في تاريخه: عثمان بن علي بن بشارة بن عبد اللّه العدل ولد سنة ٦٧٢ وتوفي في سنة ٧٥٥ ويقول المحقق في الهامش بأن العنوان بخط المؤلف هو: سابق الدين بن بشارة[٢].

وفي المأثورات الشيعية يرد إسم الشيخ زين الدين أبي الحسن علي بن بشارة العاملي تلميذ الشهيد الأول الذي حصل على إجازة منه في شعبان سنة ٧٥٧/ آب سنة ١٣٥٦ ووصفه فيها بأنه: «... العالم العامل الفقيه الكامل الزاهد العابد زين الدين أبو الحسن علي بن بشارة العاملي الشقراوي الحناط»[٣] نسبة إلى قرية شقرا إحدى قرى بلاد بشارة. ولا يظهر حول اسم هذا العالم الجليل أي تلميح إلى أن أسرته قد بلغت في ذلك العهد مبلغاً يميزها عن الأسر العاملية الأخرى. ويمكن الحديث عن احتمال أن تكون بداية شهرة أسرة بشارة راجعة إلى علماء الدين الذين مثلوا تاريخياً القيادة الحقيقية للشعب فلا غرو إن برز من بينهم من ترك لأولاده وأحفاده قيادة منطقة أو جماعة استناداً على تراثه العلمي والأخلاقي.

إن القول بأن آل بشارة الشيعة في جبل عامل ينتسبون إلى بشارة الرومي (الرومي في تاريخ المماليك تعني تركي من سكان الأناضول) هي الأقرب إلى الواقع وما انتقالهم إلى مقاطعة شيحين التي كانت مركز إدارة إقطاع الساحل والتي مر ذكرها في الثورة التي حدثت في عهد النائب بُتْخاص (وليس إلى زبقين التي ذكرها السيد محسن الأمين) هو شيء عادي، إذ أن معظم الإقطاعات في جبل عامل كانت تدار من قبل أمراء أو جنود الحلقة في صفد أو دمشق. والإقطاع على عهد المماليك لا يشبه الإقطاع الذي تطور سلبياً في العهود اللاحقة، الإقطاع في عهد المماليك هي إدارة لناحية أو منطقة أو أجزاء من

(١) الصفدي، أعوان النصر ترجمة رقم ١١٥١: ج ٣ ص ٣٤٩.
(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج ٣ ص ٦٩.
(٣) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٢٨٥.

منطقة من أجل جمع الضرائب المترتبة على الفلاحين وتجنيد المقاتلة في زمن الحرب. وكان المقطعجي ينال بسبب ذلك مكاسب مادية محددة. كما كان ينتزع منه الإقطاع إذا وجد السلطان أو النائب سبباً لذلك. والمقطعجي يحمل رتبة أمير، أمير طبلخاناه أو أمير عشرة وتقدمة مائة (أي يقود عشرة فرسان ومائة من المشاة وينفق عليهم من إقطاعه، وفي بعض الأحيان يعتبر أمير عشرين بتقدمة مائة). أو أمير أربعين تقدمة مائتين أو أمير مائة تقدمة ألف. وكان الإقطاع يتناسب مع حجم الأمير وعدد أتباعه (مائة أو الف...). وإذا ما مات المقطعجي فإن إقطاعه ينتقل إلى أحد الأمراء وليس بالضرورة لأولاده. أما وصف الأمير (ابن بشارة) فيما بعد بأنه من شيوخ العشير فهذا يوحي بأنه عربي، أو أنه انتسب إلى العرب، وهذا الأمر كان شائعاً في عهد المماليك بأن يدعي بعض الأمراء انتسابهم إلى إحدى القبائل العربية ومن ثم ينتمي إلى القيسية أو اليمنية. وقد حدث مثل ذلك في انتساب العسّافيين التركمان إلى القيسية بينما انتسب المعنيون في جبل الدروز (جبل الشوف) إلى بني ربيعة وهم أي المعنيون، من الرمطونيين الذين ينتسبون إلى بني الاحمر البقاعيين المجهولي النسب القبلي. وقد ادعوا أو ادعى من كتب تاريخهم أنهم من ربيعة. ومن البديهي أن يتحول الأمير ابن بشارة إلى شيخ عشير وعربي لكن دون أن يدعي شجرة نسب كما فعل المتأخرون عنه من الأسر والعائلات التي حكمت جبل عامل.

٢ - إمارة آل بشارة

أما أول مرة يرد ذكر لأحد من آل بشارة فكان سنة ٨٠٧/ ١٤٠٤ في الأحداث التي جرت بين نائب دمشق شيخ المحمودي ومعه جماعة من أمراء المماليك والسلطان. والسبب في ذلك هو تمرد الأمير يشبك على السلطان في القاهرة وهزيمته وفراره إلى الشام حيث لجأ إلى نائبها شيخ. فجمع الأمراء وسار بهم إلى القاهرة لمحاربة السلطان الناصر. لكن الأمراء اختلفوا فيمن ينصبونه سلطاناً إذا انتصروا. وباختلافهم تفرقوا وعاد الأمير شيخ إلى دمشق. يقول ابن تغري بردى في النجوم في تفصيل ذلك: «.... فلما بلغ يشبك ذلك رحل من غزة في ليلة الاثنين خامس عشرينه، بعد ما أقام بها ثلاثة عشر يوماً، وأخذ ما كان بها من حواصل الأمراء وعدة خيول، وبعث إليه أهل الكرك والشوبك بعدة تقادم، بعد ما كان عرض من معه من المقاتلة فكانوا ألفاً وثلاثمائة وخمسة وعشرين

فارساً، وتلقاه بعد مسيره من غزة مشايخ بلاد الساحل والجبل، وحمل إليه الأمير بكتمر جلق نائب صفد عدة تقادم، وقدم عليه ابن بشارة في عدة من مشايخ العشير. ثم جهز إليه الأمير شيخ نائب الشام جماعة لملاقاته طائفة بعد أخرى[١].

وبعد هذه الحادثة بدأ الأمير شيخ يستعد للوصول إلى السلطنة وحكم الدولة وقد رأى ضعف السلطان وعجزه عن مواجهة تحالف الأمراء. يقول صاحب النجوم: «.... ثم إن الأمير شيخًا نائب الشام عين جماعة من الأمراء ليتوجهوا لأخذ صفد فخرج الأمير تمراز الناصري أمير سلاح والأمير جاركس القاسمي المصارع والأمير سودون الظريف بعد عوده من طرابلس وساروا بعساكرهم لأخذ صفد من بكتمر جلق بحيلة أنهم يسيرون إلى جشار الأمير بكتمر جلق كأنهم يأخذوه فإذا أقبل إليهم بكتمر ليدفعهم عن جشاره قاطعوا عليه وأخذوا مدينة صفد منه فتيقظ بكتمر لذلك وترك لهم الجشار فساقوه من غير أن يتحرك بكتمر من المدينة وعادوا إلى دمشق وأخبروا الأمراء بذلك. فاستعد شيخ لأخذ صفد وعمل ثلاثين مدفعًا وعدة مكاحل ومنجنيقين وجمع الحجارين والنقابين وآلات الحصار. وخرج من دمشق يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ومعه جمع كبير من عسكر مصر والشام من جملتهم قرايوسف بجماعته وجماعة السلطان أحمد بن أويس متملك بغداد وجماعة من التركمان الجشارية وأحمد بن بشارة بعشرانة وعيسى بن الكابولي بعشرانه»[٢]. ويختلف التعبير قليلاً في الإنباء للعسقلاني فيقول: «وانضم إلى شيخ أحمد بن بشارة بعشيره»[٣].

وحسب هذه النصوص يظهر أن أحمد بن بشارة هو قائد حديث القيادة وحديث الرتبة. لا يسبق اسمه اي لقب كما هي الحال عند المماليك. ليس هو سوى قائد على العشران. وكلمة «عشران» استعملت في ذلك العصر للدلالة على المحاربين من أبناء العشائر. وقد وردت في بعض المصادر ابتداءً من الثلث الأخير للقرن السابع/ الثالث عشر للدلالة على رجال محاربين تجمعهم رابطة القرابة العشائرية. وكانت أول مرة

---

(١) يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم، ج١٢ ص ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٤٢.

(٣) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر ج ٥ ص ٢١٣.

استعملت فيها تعبيراً عن رجال من بعلبك والبقاع[١]. وعليه فإن أحمد بن بشارة هو واحد من أبناء العائلات التي تعيش في جبال صفد (أي الجبال التي تتبع مملكة صفد في عهد المماليك والتي تعرف بجبل عاملة). وليس في أي من المصادر التي تحدثت عنه ما يعطي تفاصيل أكثر عن هذا الرجل ولا عن العشائر المنضوية تحت لوائه خاصة وأنه جاء على رأس عدة من شيوخ العشير. لكن الحوادث اللاحقة أضاءت بعض الغموض الذي اكتنف سلطة آل بشارة.

في سنة ٨١١/١٤٠٨ برزت قوة ابن بشارة بشكل أكثر وضوحاً حيث يذكر المقريزي أن ثلاثة من أبناء بشارة شاركوا في الاحداث وليس أحمد فقط فيقول: «شهر اللّه المحرم الحرام أوله الأحد (سنة ٨١١/١٤٠٨). في ثانيه برز الأمير نوروز من دمشق إلى قبة يلبغا يريد صفد. ثم رحل إلى سعسع فأتاه الخبر بأن الأمير بكتمر شلق (أو جلق نائب صفد) جمع لحربه ونزل الجاعونة فتقدم إليه ومعه حسين ومحمد وحسن بنو بشارة واقتتلا فقتل بينهما جماعة وحرق الزرع وخربت القرى ونهبت. وسار نوروز إلى الرملة»[٢].

ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن كما أرادها أبناء بشارة لذلك تخلوا عن الأمير نوروز الحافظي نائب دمشق بعد شيخ وتحركوا ليثبتوا أنهم القوة الأولى في منطقتهم. يقول المقريزي عن أحداث نفس السنة: «شهر ربيع الأول (٨١١/١٤٠٨): وفيه قدم أولاد بشارة في عشيرهم إلى وادي التيم في رابع عشره وعاثوا في معاملة صفد وقتلوا جماعة ونهبوا شيئاً كثيراً فخرج إليهم عدة من عسكر وقاتلوهم فقتلوا بأجمعهم (أي العسكر) واشتدت وطأة بني بشارة على الناس وكتب ناصر الدين محمد وبدر الدين حسن ابنا بشارة إلى السلطان يسألان في تقدمة العشير على عادتهما والتزما بحمل ثمانية آلاف دينار»[٣]. وفي شهر جمادى الآخرة في سادس عشرينه: كتب مرسوم باستقرار ناصر الدين محمد وبدر الدين حسن ابني بشارة في تقدمة العشير بمعاملة صفد على أن يحملا

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحي ص ١٠٤ حول أحداث جرت سنة ٦٧٧/١٢٧٨.
(٢) المقريزي، السلوك، ج ٦ ص ٢٠٣.
(٣) المصدر السابق، ج ٦ ص ٢٠٦.

ثمانية آلاف دينار للسلطان ففرضا على أهل النواحي مالاً كبيراً جبوه لأنفسهما ولم يصل منه شيء إلى السلطان»[١].

في الاعراف الشائعة في دولة المماليك يصبح من يتولى مهمة التقدمة أميراً (إمرة عشرة أو اربعين أو مائة) وهذا يعني أنّ محمد وحسن ابني بشارة قد أصبحا أميرين ملزمين بتقديم عدد من الجنود عندما يستدعيهم السلطان. أما ابن بشارة الثالث حسين فلا يذكر في هذا المرسوم، لا بل يختفي عن مسرح الأحداث تماماً.

وليس هناك ما يثبت أن حسن وحسين ابني بشارة هما أخوان أو إبنا عم، هناك تأكيد على أن حسن هو ابن أحمد بشارة المار ذكره في أحداث سنة ٨٠٧/ ١٤٠٤ أما محمد فله نسب مختلف وهو محمد بن سيف بن عمر بن محمد بن بشارة[٢].

ويظهر أن أولاد بشارة قد اختلفوا فيما بينهم على الاستئثار بالسلطة وتمكن حسن ابن بشارة سنة ٨١٨/ ١٤١٥) من ضمان تقدمة العشير في المعاملة (جبال صفد) على ثلاثين الف دينار يقوم بها للسلطان وهو مبلغ كبير جداً قياساً إلى قيمة الضرائب التي كان يجمعها الحاكم من الأهالي والتي لم تصل إلى مثل هذا الرقم. وجهز له السلطان «تشريفة» على يد يشبك الخاصكي والتشريفة لباس خاص ينعم به السلطان على الأمراء المحظيين بعطف السلطان ورعايته. وعندما لبس حسن ابن بشارة التشريفة وقبل الأرض إثباتاً لطاعته للسلطان أثار غضب قريبه محمد بن بشارة وجمع على حسن فاقتتلا فانكسر محمد وفر إلى البقاع ونزل بالزبداني خارج دمشق ومر على وجهه يريد العراق[٣]. واستمر الأمير حسن ابن بشارة في إدارة معاملة جبال صفد في السنوات التالية وقد وافى السلطان إلى غزة بعشرانه سنة ٨٢٠/ ١٤١٧ مؤكداً امتثاله للأوامر السلطانية في بعض عمليات السلطان.

لكن محمد ابن بشارة تراجع عن هروبه إلى العراق وعاد ليثير حرب عصابات وتخريب

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٢١١.

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٤١٤.

(٣) المصدر السابق، السلوك، ج ٦ ص ٣٨١.

في معاملة صفد ليرغم النائب على معاملته بما يستحق فكثر «فساده بأرض صفد» حتى تمكن النائب في دمشق من القبض عليه بالغدر وتفصيل ذلك كما ذكر المقريزي في حوادث سنة ٨٢٢/ ١٤١٩ أن محمد بن بشارة قد اعتقل ونقل مقيداً بالحديد إلى مصر. «وكان قد خرج عن طاعة السلطان فتطلبه زماناً وأزعجه من بلاد صفد إلى أن ترامي بدمشق على الأمير ناصر الدين محمد بن منجك أحد خواص السلطان وقدم عليه في سابع صفر (سنة ٨٢٢) وقد بعث إليه بأمان السلطان وخلع عليه وأنزله فلما ظن أنه أمن تصرف في أشغاله وركب في أرجاء دمشق.

فبينما هو في ذات يوم قد وقف بسوق الخيل - هو وابن منجك - إذ دعاه إلى الدخول على الأمير نكباي نائب الغيبة بدمشق فدخل معه إليه ووقف أصحابه - وهم نحو العشرين - على خيولهم خارج باب السعادة فما هو إلا أن استقر بابن بشارة المجلس أشار ابن منجك إلى نكباي بطرفه أن اقبضه فأحيط به فأخذ ليدفع عن نفسه وسل سيفه فقبض عليه فسل خنجره وجرح به من تقدم إليه فتكاثرت السيوف على رأسه وأخذ وقيد وقبض على العشرين من أصحابه ووسط منهم أربعة عشر واعتقل أربعة مع ابن بشارة ثم حمل محتفظاً به فاعتقل»[١].

وبوصوله إلى القاهرة أمر السلطان به إلى السجن حيث قتل في ١٦ ذح من نفس السنة. وسلخ جلده وحشي تبناً وحمل إلى صفد. ثم عاد المقريزي وذكر أن قتل محمد بن بشارة تم في يوم السبت آخر شهر شوال وليس في ذي الحجة[٢].

ويروي ابن حجر العسقلاني هذه الحادثة بطريقة مشابهة لكنه ينسب التاريخ إلى شهر المحرم سنة ٨٢٢/ ١٤١٩ فيقول: «وفي المحرم قبض على محمد بن بشارة وذلك أن السلطان كان أرسل ناصر الدين محمد بن ابراهيم بن منجك إلى دمشق وأمره أن يحتال على ابن بشارة (محمد). فراسله إلى أن ضمن له عن السلطان الرضا. فلمّا اطمأن لذلك أرسل إليه أمان السلطان وحلف له وأرسل له خلعة فلبسها وأقبل إلى دمشق فتلقاه وبالغ

(١) المصدر السابق، السلوك، ج ٦ ص ٥٠١-٥٠٢.

(٢) المصدر السابق.

في إكرامه فأمن. فبينما هو في سوق الخيل فتلقاه ابن منجك فدخلا جميعاً إلى بيت نكباي نائب الغيبة فلم يستقر به المجلس حتى قبض عليه فدفع عن نفسه بسيفه وجرح من تقدم إليه فتكاثرت السيوف على رأسه وقبض على عشرين من أصحابه فوسط منهم أربعة نفر واعتقل ابن بشارة بدمشق ثم أمر السلطان باحضاره في رابع عشري جمادى الأولى»[1].

لقد اشتهر محمد بن بشارة هذا بقوة الساعد وشدة البأس. وقد اشتهر بذلك حتى روى بعض الرواة: «كان ابن بشارة هذا كثير الفساد من قطع الطريق والقتل وكان شجاعاً تام الخلقة قوي البدن وقد ذكر عنه أنه نزع في قوس له على فرس ليرمي به فانشقت الفرس لقوة القوس وشدة نزعه وقوة سواعده. وكان مطروداً من بلاده جبل عاملة وكان يغير على أطراف البلاد المتعلقة بالمتولي بها من أولاد عمه في كل قليل فشاع وذاع أنه أغار مرة على عكا فطعن بها شخصاً ممن يريد قتله فجاءت الطعنة في عنقه فأنفذته وجاءت الطعنة بين حجرين فتمكنت من الدخول بين اللصاقين فترك رمحه والمطعون فصار معلقاً في رمحه. بل قالوا إن الرمح خرق الحجر. وكان له من مثل هذه الوقائع ما يبهر المرء. وكان من أعظم المفسدين فقبض عليه على هذا الوجه (غدراً) ثم سلخ...»[2].

وليس بالإمكان إثبات شجرة نسب بين محمد بن سيف بن عمر بن محمد بن بشارة وبين بدر الدين حسن بن أحمد بن بشارة. فمن الواضح أن حسن ابن بشارة هو ابن الأمير البشاري الأول أحمد فيما يبدو غامضاً تلك الصلة بين محمد بن سيف وحسن بن احمد رغم انتمائهما إلى نفس الأسرة. وكذلك رغم ادعاء بعض المؤرخين المعاصرين بأن بشارة هو اسم الأب وأن محمداً وأحمد هما ابناه، وهذا مستبعد جداً.

وقد توفي حسن بن أحمد بن بشارة في سنة ٨٢٥/ ١٤٢٢[3]. وقد عمل على نقل

(١) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر ج ٧ ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٢) المصدر السابق، هامش ج ٧ ص ٣٤٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٧ ص ٧٢.

الإمارة لابنه علي قبل وفاته حيث يرد في أحداث سنة ٨٢٤/ ١٤٢١ أن «علي بن بشارة قاتل الأمير قطلوبغا التنمي نائب صفد فامتنع بالمدينة فحصروه حتى فر إلى دمشق. وأن الأمير جقمق استعد بدمشق واستخدم جماعة وسكن قلعة دمشق»[١]. وقد وصف حسن بن أحمد بن بشارة بأنه « كانت له رئاسة ضخمة بالنسبة لأبناء جنسه وثروة ومال كثير» وأنه مقدم العشير بالبلاد الشامية، وأنه توفي سابع ذي الحجة سنة ٨٢٥»[٢]. من الملاحظ استعمال لقب جديد للأمير حسن بن أحمد بن بشارة وهو «مقدم العشير في البلاد الشامية» وليس في جبال صفد أو في بلاد صيداء أو تلك الألقاب التي تثبت في كل مرة مدى أهمية الأمير ومدى اتساع إمارته ونفوذه. ومن الطبيعي أن يرث علي بن بشارة عن أبيه حسن تلك الأهمية المعقودة عليه. وحقيقة أصبح لهذا الأمير قوة يحسب لها الحساب، فكانت تحركات النواب والحكام في صفد ودمشق تتم بوجوده ونصرته لأحد الزعماء. ففي سنة ٨٢٧/ ١٤٢٤ استعرت الخلافات بين نائب دمشق تنبك البجاسي والسلطان (الأشرف برسباي) الذي أمر نائب صفد الأمير مقبل والأمير سودون بن عبد الرحمن (دوادار السلطان) بمهاجمة تنبك فتقدما من صفد إلى جسر بنات يعقوب شمال بحيرة طبرية على طريق دمشق. وخرج تنبك البجاسي من دمشق لمحاربتهما حتى انتهى إلى الجسر المذكور فرابط عنده. ثم اضطر للانسحاب «إلى جهة الصبيبة في انتظار ابن بشارة أن يأتيه تقوية له فكتب سودن بذلك إلى السلطان وركب بمن معه على جرائد الخيل وترك الأثقال في مواضعها مع نائب القدس»[٣].

وليس هناك ما يؤكد وصول علي بن بشارة لمساعدة تنبك البجاسي المتمرد، لا بل يبدو أن تنبك قد انتظر دون طائل نصرة علي بن بشارة. وما قيل في المصادر المملوكية يخبر أن تنبكاً هزم على أبواب قلعة دمشق وقتل دون ذكر شيء عن ابن بشارة.

ومما يؤثر ويؤرخ لعلي بن حسن بن بشارة مقدم العشير في البلاد الشامية أنه أعاد بناء

(١) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣٤.
(٢) ابن تغري بردى، النجوم، ج ١٤ ص ٢٩٢.
(٣) المقريزي، السلوك، ج ٧ ص ٩٣.

مدينة صور سنة ٨٢٤/ ١٤٢١ وكانت خراباً بعد استيلاء المماليك عليها من الصليبيين سنة ١٢٩١، وظلت مهجورة حتى قام هذا الشيخ بإعادة بنائها، حيث جعل لها أسواقاً، ونقل إليها من الناس وحصنها[١].

بعض المصادر التاريخية تشير إلى وقوع أمر مهم وخطير في الحديث عن أولاد بشارة. فما كان معروفاً عن أحمد بن بشارة وابنه حسن وحفيده علي هو انهم أمراء أو شيوخ العشير في معاملة صفد أو جبال صفد أو جبل عاملة. لكن في حوادث سنة ٨٥٣/ ١٤٥٠ يبرز إسم آخر من بني بشارة في معاملة صيدا، وهو من نسل محمد بن سيف بن عمر بن بشارة الذي قتله السلطان سنة ٨٢٢/ ١٤١٩ واسمه النجم أيوب (أو نجم الدين) بن بدرالدين حسن بن ناصر الدين محمد الشهير بابن بشارة[٢]. ويعرف بأنه مقدم العشير ببلاد صيدا. كانت «بلاد صيدا» تشمل في أيام المماليك ستمائة قرية وهي تضم ما يعرف حالياً بأقليم التفاح وأقليم الخروب وإقليم الشومر وأقليم الريحان ومقاطعة جزين. وهذه الأماكن مجتمعة تساوي أكثر بكثير من إقطاع يلتزمه جندي حلقة أو أمير عشرة أو حتى أمير مائة.

ويبدو أن ابن بشارة هذا قد تورط في خلاف ما مع السلطان الذي أمر ناظر الجيش في دمشق بالقبض عليه ففي حوادث سنة ٨٥٣/ ١٤٥٠: «وفي يوم السبت ثاني عشرة قبض السلطان على النجم أيوب بن بدر الدين حسن بن ناصر الدين محمد الشهير بابن بشارة مقدم العشير ببلاد صيداء وحبسه بالبرج من القلعة»[٣]. ويعرف عنه السخاوي بأنه: «أيوب بن حسن بن محمد نجم الدين بن البدر (بدر الدين) بن ناصر الدين بن بشارة مقدم العشير ببلاد صيدا. أقام فيها مدة أربع سنين ففعل كل قبيح وآل أمره إلى أن وُسِّط في أواخر سنة ٨٥٣/ ١٤٥٠»[٤].

أما التهم التي سيقت ضد النجم أيوب بن بشارة فهي مستغربة ويمكن أن تكون ملفقة.

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (٦٣٥-١٥١٦)، ص ٢٦٨.
(٢) ابن تغري بردى، حوادث الدهور ص ٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٨
(٤) محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢ ص ٣٣١.

فقد ذكر أنه في ذق سنة ٨٥٣/ ١٤٥٠ «وصل البدري حسن ابن المزلق ناظر جيش دمشق بعد أن كشف من بلاد صيداء عن أمر النجم أيوب بن بشارة المقبوض قبل وأحضر صحبته عدة محاضر تتضمن عظائم في حق المذكور منها إنه تزوج بثماني نسوة، وأنه قتل بيده جماعة، وأمر بقتل سبع وعشرين نفسا، واستولى في مدة مباشرته وهي نحو من أربع سنين على مائتي ألف دينار وسبعة عشر ألف دينار وأربعمائة دينار، وأشياء من هذا النمط يطول شرحها»[١].

وكانت عقوبة نجم الدين أيوب بن بشارة قاسية جداً إذ صلب وطيف به حسب النجوم يقول: «في يوم تاسع عشر ذي الحجة المذكور(سنة ٨٥٣)، سمر نجم الدين أيوب بن بشارة، وطيف به، ثم وسّط من يومه، ووسّط معه شخص آخر من أصحابه»[٢].

٣ - نهاية إمارة آل بشارة:

بين سنة ٨٢٥ وسنة ٨٥٣ يوجد انقطاع تاريخي في ذكر آل بشارة وإمارتهم حيث لا يرد في المصادر التاريخية وقوع اي أحداث ترتبط بمنطقة جبل عامل أو جبال صفد. وهذه الفترة الغامضة قد حصلت فيها تطورات سياسية أضعفت دولة المماليك في مصر والشام مما ساعد على ازدياد قوة بني بشارة في جبل عاملة حتى دعي مقدم بني بشارة ب «مقدم العشير في البلاد الشامية» وليس في جبال صفد أو جبل عاملة كما كان معروفاً من قبل. ففي حوادث سنة ٨٥٥/ ١٤٥٢ يقول صاحب (حوادث الدهور): «وفي يوم الأحد حادي عشرة (جمادى الآخرة سنة ٨٥٥) وصل ابن بشارة مقدم العشير بالبلاد الشامية وأخبر إنه طرق صور عدة مراكب من الفرنج تزيد على عشرين مركبا وهجموا صور وانهوا من بها حتى أدركهم ابن بشارة المذكور بجموعه. وقاتل الفرنج قتالا شديدا حتى أجلاهم عن البلد وقتل من الفريقين جماعة، وانتصر المسلمون. وقبض ابن بشارة المذكور على عدة من الفرنج وقطع رؤوسهم ولله الحمد»[٣]. الملاحظ أن المصدر ذاته قد تحدث عن قتل

(١) ابن تغري بردى، حوادث الدهور سنة ٨٥٣ ص ٣٠.

(٢) يوسف بن تغري بردي، النجوم ج ١٥ ص ١٥٣.

(٣) ابن تغري بردى، حوادث الدهور ص ٥٨.

نجم الدين ابن بشارة مقدم العشير في بلاد صيدا قبل بضعة أشهر من حادثة هجوم مراكب الفرنج على صور وهو ما يثبت أن مقدم العشير بالبلاد الشامية هو غير مقدم العشير في بلاد صفد. وأن السلطان قد استرضى أبناء محمد بن سيف بن بشارة الذي قتل سنة ٨١٩ باعطائهم بلاد صيدا بعد أن أخذ أنسباؤهم أولاد حسن بن أحمد بن بشارة بلاد جبل عاملة ومعاملة صفد. وهذا يثبت وجود إمارتين بشاريتين واحدة في صيدا وأخرى في صور.

بعد سنة ٨٥٥/ ١٤٥٢ استقرت الأمور في بلاد بشارة بحيث لم تذكر الأخبار التاريخية وقوع أحداث هامة فيها حتى سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧، حيث يذكر ابن طولون في تاريخه أن ابن بشارة قد شارك في الأحداث التي وقعت قرب دمشق سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ في الحرب التي دارت بين اهل دمشق وبين الدوادار آق بردى المصري، يقول ابن طولون في تاريخه: «وفي يوم السبت ١٦ ربيع الأول (سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧) أتى عشير كثير من الروافض إلى عند العصاة فلم يجدوا لهم موضعاً بميدان الحصى لكثرة الترك فيه وسكناهم في دور الناس بخيلهم وغلمانهم وجواريهم فتوزع العشير المذكور في أطراف الميدان المذكور.... ثم ورد الخبر أنه خرج من مصر جيش كثير مع نائب الشام الجديد كرتباي الأحمر وأن العشير الذي كان قد أتى إليهم ثم رجع إلى بلاده ينتظر قدوم الجيش والنائب الجديد ليدخل معه»[1].

ولا يجد ابن طولون الذي عاش الأحداث وشاهد قسماً منها عياناً أي تفسير للتمرد، فالأحداث التي تعبر عن فوضى عامة في نيابة دمشق وعن صراع بين أمراء المماليك لم يكن لها هدف واضح، كما لم يكن هناك من سبب منطقي لاجتماع العشير من «الروافض» لدعم الدوادار آق بردى وحزبه. فالذين كانوا مع الدوادار مثلوا ولاة ومقدمي المناطق المرتبطة بدمشق فيهم من «الروافض» ومن غيرهم. فهناك من المقدمين: «شيخ بلاد نابلس حسن بن اسماعيل، ونائب بعلبك ابن الحرفوش ومقدم التيامنة (أهل وادي التيم) ابن بشارة» الذين وصفهم ابن طولون بأنهم من المفسدين وقطاع الطرق، فهو يقول «... وبالجملة فكان أكثر من معه (الدوادار آق بردى) طائفة اليمنية وكان هؤلاء الذين معه يفسدون ويقطعون الطرقات. وكان أكثرهم فساداً نائب غزة...»[2].

(١) محمد بن طولون، مفاكهة الخلان، ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق.

وعندما وصل نائب الشام الجديد كرتباي الأحمر إلى دمشق كشف عن وجه خبيث في التعامل مع ما حوله من أهل دمشق ثم من أهل المناطق التابعة لها. فقد شرع في عمل انتقامي محدد عندما توجه بجيشه في ١٠ صفر سنة ٩٠٤/ ١٤٩٨ وكبس أهل كرك نوح وأتى بمشايخه وقتل منهم جماعة[١]. وكان أهل كرك نوح من الشيعة وفيهم الشيخ الكبير علي بن عبد العالي الكركي الذي فر من هذه الموقعة إلى جبل عامل والتجأ إلى الشيخ علي بن عبد العالي الميسي في ميس (الجبل) حيث لبث فيها بضع سنوات قبل أن يتركها عائداً إلى البقاع ثم منه إلى بلاد إيران.

لم يعش النائب كرتباي الأحمر طويلاً إذ قضى نحبه في في الثامن من ربيع الأول سنة ٩٠٤/ ١٤٩٨ بعد أقل من ثلاثة أشهر على ولايته. فتسلم الولاية نائب جديد (لا يذكر ابن طولون اسمه أبداً في حديثه عنه رغم أنه كان موجوداً في دمشق في ذلك الحين). وصف النائب الجديد بالتكبر وقد أثبت قيامه بكثير من المظالم فمن ذلك أنه «قبض على مقدم البقاع ناصر الدين ابن الحنش وكان حضر معه إليه أيضاً مقدم نابلس خليل بن اسماعيل وخليل بن شبانة وابن الجيوشي وغيرهم من مقدمي البلاد. ثم قبض على خليل بن اسماعيل وبقية المقدمين وجماعاتهم وطلب من كل واحد من المقدمين وجماعته وبلاده مائة ألف دينار»[٢]. ثم تحرك بجيشه نحو الغرب فشاع في دمشق «أن النائب حرق بيت ابن الحنش (ناصر الدين محمد) بقرية قبر الياس ونهب العسكر جميع ما وجدوه بالبقاع في عشية يوم الخميس سابعه (رمضان سنة ٩٠٤/ ١٤٩٨). ثم شاع بها بعد ذلك أن النائب دخل بيروت وأخذ من الفرنج عدة أحجار فضة تزيد على خمسين....وأن الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون قد ذهب إلى عنده في بيروت وجالسه وحادثة ولا قوة إلا باللّه ثم شاع بعد ذلك أنه دخل صيدا وشوّش على قاضيها وأمره ان يضبط له جهات ابن الحنش الهارب. ثم شاع بعد ذلك أنه أتى إلى دير زينون وهو مفطر لم يصم بل قيل ويشرب الخمر...»[٣].

(١) المصدر السابق، ص ١٦٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧٨.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧٩.

إن مراقبة الأحداث المتلاحقة ابتداءً من منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) يثبت انحداراً سريعاً لسلطنة المماليك واتجاهها نحو نهاية وخيمة. لذلك فكل الحوادث التي تذكر في المصادر التاريخية التي عاصرت تلك الاحداث ليس فيها سوى أخبار الفتن والقتل والغزوات الداخلية وانتشار الأوبئة خاصة الطاعون، وتناقص عدد السكان وخراب القرى والأرياف وجور الحكام الغير محدود. وفي مثل هذا الواقع حافظ أبناء بشارة على إمارتهم ووجودهم في جبل عامل رغم محاولة بعض الأمراء الطموحين التسلل إلى جبل عامل وإشاعة الفوضى فيه كما فعل الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش الذي ظهر فجأة في منطقة البقاع في مطلع القرن العاشر وحصل بطريقة ما على لقب مقدم البقاع. من المعروف أنه في زمن المماليك كان البقاع مقسوماً إلى ثلاثة أقسام: بعلبك (المدينة وما حولها) والبقاع العزيزي والبقاع البعلبكي (جرى الحديث عن ذلك في الإدارة المملوكية في لبنان). وكان كل قسم منه يحكم من وكيل أو نائب يتبع نائب دمشق. وفي بعض النصوص التي ذكرت ابن الحنش ذكرت أيضاً وجود نائب في بعلبك هو ابن الحرفوش[1]. ويبدو أن ذكر ناصر الدين ابن الحنش قد أعطي حجماً كبيراً في المأثورات الشعبية التي كتبت في بداية سيطرة العثمانيين على سوريا ولبنان. فابن الحنش نائب البقاع (او البقاعين بدون بعلبك) قد حاول السيطرة على أوسع منطقة ممكنة على السواحل وفي الجبال المطلة عليها فتحرك بقواته من البقاع بعد أن اتخذ من قرية مشغرة مقراً له وبنى فيها بيتا أصبح مكان سكناه، تحرك جنوباً باتجاه جبل عامل وكانت قاعدة آل بشارة في قرية شيحين القريبة من صور. وقد نجح ناصر الدين ابن الحنش في مفاجأة ابن بشارة الذي لم يكن معه عندما وصل ابن الحنش إلا القليل من العسكر (قرابة مائتين على رأي ابن سباط) ورغم ذلك فإن ابن بشارة قد تمكن من إنزال هزيمة كبير بابن الحنش وقتل من جماعته عدداً كبيراً. يقول ابن سباط: «وفي هذه السنة (٩٠٩/ ١٥٠٣) جمع الأمير ناصر الدين محمد ابن الحنش على ابن بشارة إلى قرية شيحين، وكان عبد الساتر بن بشارة في جملته قلايل، فانكسر جيش ابن الحنش باذن الله تعالى بغير رجال كثيرة، وكان مطر عظيم وقتل من جماعة ابن الحنش نحو مايتي قتيل

(١) المصدر السابق، ص ١٦٩.

واللّه أعلم. ثم عفوا بعد ذلك، ولو أرادوا كانوا أهلكوا الغالب، وأما النصر إلا من عند اللّه العزيز الحكيم»[١]. أما الأب الدويهي صاحب تاريخ الأزمنة فإنه نقل كثيراً من أقوال ابن سابا ط لكنه عندما تحدث عن موقعة شيحين تعمد إلباسها الغموض فقال بجملة قليلة: «وفيها (سنة ١٥٠٣/ ٩٠٩) جهّز الأمير ناصر الدين بن الحنش مقدم البقاع خمسة ألاف مقاتل على عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين وكان مطر عظيم فقتل من جماعة ابن حنش نحو مائتين[٢]. ويبدو جلياً أن الدويهي قد نقل جزءاً من كلام ابن ساباط واختصر الخاتمة حتى لا يعترف بفشل هذا الأمير في مبتغاه. كما يلاحظ في هذا النص بمصدريه يختلف عن النصوص السابقة بتصغير اسم ابن بشارة بحيث لا يظهر أمام اسمه الصغير أي من الألقاب الشائعة التي كان يتكنى بها الأمراء فهو عبد الساتر فقط وليس ناصر الدين أو بدر الدين أو ما يشبه هذه الألقاب. ربما يعزى السبب إلى أن الأحداث التي تلت قد قضت على نفوذ، لا بل على وجود ابن بشارة قضاءً تاماً. فابن بشارة كان يتبع نائب الشام مباشرة أو بواسطة نائب صفد في بعض الاحيان، وذلك منذ أن أصبح جبل عامل يخضع لأمرته بصفته شيخ العشير (حوالي سنة ٨٠٧/ ١٤٠٣). وعندما قامت الحرب بين المماليك والعثمانيين جمع ابن بشارة رجاله وتوجه بهم بصحبة الجيش المملوكي إلى مرج دابق حيث انتهت المعركة بكارثة على المماليك وجيوشهم بمن فيهم ابن بشارة. وعندما دخل العثمانيون دمشق ألغوا كل سلطة وكل ملتزم ظل وفياً للسلطان المملوكي وعينوا مكانهم رجالاً يوالونهم. وهكذا اختفت الأسرة البشارية عن مسرح السياسة في جنوب لبنان (بلاد بشارة أو جبل عامل) لتترك المكان لأسر جديدة. لكنها والحق يقال، لم تتمكن أي أسرة أن تقوم بذات الدور القوي والتوحيدي الذي قامت به أسرة بشارة. ومن حكموا بعدها في العهد العثماني كانوا يسيطرون على مناطق صغيرة وظلوا ضعفاء ومعرضين لاضطهاد وعسف الباشاوت إلا في ومضات تاريخية قصيرة.

(١) حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن ساباط، صدق الأخبار، ج ٢ ص ٩٢٩.

(٢) اسطفان الدويهي، تاريخ الموارنة ص ١٤٤.

الفصل الثامن

الناتج الحضاري للشيعة في عهد المماليك

١ - الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي الجزيني؛

٢ - فكر الشهيد الأول وآثاره

٣ - علماء ما بعد الشهيد الأول

٤ - الحوزة العلمية في ميس الجبل

يمكن الحديث عن عصر ذهبي من الانتاج الفكري للشيعة في لبنان في عهد المماليك. فرغم العسف الذي انصب على رؤوس الشيعة في المناطق اللبنانية وعموم بلاد الشام، إلا أن ذلك العهد قد شهد بروز عدد من كبار أئمة المذهب الإمامي الذين تركوا آثاراً خالدة في الفكر والمجتمع في لبنان والعالم الإسلامي. ورغم محاولات طمس هذا الفكر، وطمس أسماء العلماء والفلاسفة الشيعة اللبنانيين، إلا أن ما تركوه من آثار استعصى على الطمس والإلغاء.

لقد مر أثناء الحديث عن اضطهاد الشيعة أسماء عدد من علماء الدين الشيعة الذين عاشوا في بداية عهد المماليك ومنهم الشيخ ابن العود والشيخ ابن الحسام وغيرهما. وقد عاش الأول أثناء وجود الصليبيين على الساحل (بعد سنة ١١٩٢) وقاد جماعة المياذنة (شيعة جزين) في التصدي للصليبيين والدفاع عن المنطقة، كما كان له دور ريادي مهم في تحويل مسجده في جزين إلى مدرسة دينية ابتدائية قصدها عدد من طلبة العلوم الدينية في حينه.

أما ابن الحسام الشيخ الجليل، تلميذ ابن العود وصاحب المرثاة الخالدة فيه التي يقول فيها: «عرّج بجزين يا مستبعد النجف......» فقد قلد أستاذه بتحويل بيته إلى حوزة دينية كان يقوم بالتدريس فيها حسب وصف المؤرخ الصفدي[1]. وهذا يثبت الدور العظيم الذي قام به الشيخ ابن الحسام في انشاء مدرسة دينية سابقة على مدرسة ميس وممهدة لمدرسة جزين التي استمر وجودها بعد ابن العود بواسطة الشيخ مكي بن محمد النباطي والد الشهيد الاول والمتوفي سنة ١٣٢٨.

ورغم عدم بقاء شيء من آثار هذين العالمين (ابن العود وابن الحسام) سوى بعض القصائد التي نقلها الصفدي صاحب الوافي بالوفيات بأمانة، فإن العلماء الذين جاؤوا بعدهما كانوا أكثر أثراً وأبعد شأناً. يأتي على رأس هؤلاء بدون شك الشيخ محمد بن مكي الجزيني العاملي المشهور تاريخياً بالشهيد الأول.

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ترجمة رقم:١٦٤ ج ٦ ص ٥٢.

١ - الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي الجزيني:

ولد الشهيد شمس الدين محمد بن مكي (بن محمد بن حامد بن أحمد النباطي) العاملي الجزيني في جزين في الطرف الشمالي لجبل عامل سنة ٧٢١/ ١٣٣٣ من أسرة شيعية وفدت إلى جزين من قرية النبطية الفوقا، التابعة إدارياً لحكم قلعة أرنون المجاورة. وكانت جزين في حينه تتمع بموقعها الجبلي بحماية طبيعية أبعدت عنها جلاوزة سلاطين المماليك ونوابهم. فكانت بذلك مركزاً شيعياً مهما، وربما المركز الشيعي الوحيد في بلاد الشام بعد المذابح التي جرت في كسروان في مطلع القرن الثامن/ الرابع عشر.

لقد دأب بعض المؤرخين الشيعة وأصحاب الرجال أن يؤرخوا ولادة الشهيد الأول سنة ٧٣٤/ ١٣٣٣ دون الاستناد إلى مصدر موثوق. ففي حين لا يذكر محمد بن الحسن الحر المشغري تاريخ ولادته، وكذلك يحذو الشيخ يوسف البحراني حذوه، فإن حسن الصدر في تكملة أمل الآمل يجزم بولادته سنة ٧٣٤/ ١٣٣٣ فيقول: «تولد رضي اللّه عنه سنة أربع وثلاثين وسبعماية بلا خلاف، وهاجر إلى العراق سنة خمسين وهو ابن ست عشرة سنة...»[١] بينما يذكر المؤلف نفسه ما يناقض هذا التاريخ في مكان آخر في نفس الكتاب حين يتحدث عن والد الشهيد الشيخ مكي بن محمد بن حامد فيقول: «... وقال الشهيد في بعض إجازاته: وقد كان والدي جمال الدين أبو محمد مكي رحمه اللّه من تلامذة المجاز له الشيخ العلامة الفاضل نجم الدين طومان (المناري) والمترددين إليه إلى سفره إلى الحجاز الشريف. ووفاته بطيبة في نحو سنة ثمانٍ وعشرين وسبعماية أو ما قاربها»[٢]. من الواضح أن الصدر الذي ادعى أن لا خلاف على تاريخ ولادة الشهيد، قد أوجد أكثر من خلاف لأنه من غير المعقول أن يكون الشهيد الأول قد ولد بعد وفاة أبيه بست سنوات. فالثابت الذي يمكن أن يبنى عليه هو أن الشهيد قد ولد سنة ٧٢١/ ١٣٢١

(١) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٠.

وتلقى دروسه الأولى على أبيه ولم يترك جبل عامل حتى سنة ٧٥٠/ ١٣٤٩ حين سافر إلى العراق وعمره تسع وعشرين سنة وليس ست عشرة سنة كما افترض حسن الصدر نقلاً عن بعض المراجع.

لقد عانى محمد بن مكي اليتم صغيراً بما يعني ذلك من ضعف وفقر. ولكن رعاية الشيخ أسد الدين الصائغ الجزيني وهو عم أبيه (والد زوجته) قد خففت عنه تلك المعاناة فتابع تعلمه وتحصيله عليه في بلدته جزين التي كانت في ذلك الحين حاضرة جبل عامل والبقية الباقية من مراكز الإمامية وحاضنة الفقهاء الذين ذمهم ابن تيمية في رسالته المشهورة. فتخرج منها محمد بن مكي عالماً معتبراً.

لكن طموحه كان أبعد من حدود جزين وجبل عامل وكل الشام لذلك يمم وجهه شطر العراق قاصداً مدرسة الحلة التي كانت شهرتها قد طبقت الآفاق فقصدها الشهيد سنة ٧٥٠/ ١٣٤٩ ليتلقى من علمائها عدداً من الإجازات. فأجازه أولاً محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (٦٨٢ - ٧٧١/ ١٢٨٣ - ١٣٦٩) المعروف بفخر المحققين ابن العلامة الحلي المشهور. تاريخ الإجازة في ٢٠ شعبان سنة ٧٥١/ السبت في ٢٣ تشرين الأول ١٣٥٠ . ومن المشهور في هذه الإجازة قول فخر المحققين أنه استفاد من تلميذه محمد بن مكي أكثر مما استفاد التلميذ منه. وعاد الشهيد وحصل على إجازة فخر المحققين مرة ثانية سنة ٧٥٨/ ١٣٥٨ أثناء زيارته للعتبات المقدسة في العراق، وقد عرج فيها على الحلة.

كذلك أجيز الشهيد من الشيخ ابن نما سنة ٧٥٢/ ١٣٥١ وبعده من ابن معية سنة ٧٥٤/ ١٣٥٣ ثم المطار أبادي سنة ٧٥٥/ ١٣٥٤ ليعود بعدها إلى جزين حيث سيمارس عمله في رعاية مصالح الناس من حوله وهو يرى ويسمع كل يوم بما يلاقيه أبناء المناطق الشامية من عسف واضطهاد جلاوزة المماليك.

أدرك الشيخ محمد بن مكي أن العلوم الإسلامية الفقهية واسعة وكبيرة، لا بل أكبر من أن يستوعبها مذهب واحد أو جماعة واحدة، لذلك بدأ يقتفي أثر العلوم الدينية والفقهية في المذاهب الإسلامية السنية وهي مذاهب السلطان. فقصد مصادر هذه المذاهب في

بغداد ودمشق والقاهرة وبيت المقدس والخليل حيث حصل على إجازات نحو من أربعين عالماً منهم كما صرح بذلك في إجازته لأحد تلامذته (ابن الخازن العاملي). ويبدو أنه تزيّا بزي رجال الدين السنة بعد أن أجازوه وادعى الانتماء إلى أحد المذاهب السنية ومثل هذا الادعاء كان شائعاً في حينه عند كل علماء الدين الشيعة.

بعد عودة الشهيد محمد بن مكي إلى جزين أصبح مقصداً لطلبة العلم وشيخاً من شيوخ الإجازة، وتحول مسجده في جزين إلى حوزة علمية طيلة المدة التي استطاع البقاء فيها في جزين. حيث يذكر كثير من علماء الإمامية بفخر وجود حوزة دينية في جزين. كان من أشهر الذين قصدوه وأخذوا العلم عنه الشيخ أحمد بن النجار والشيخ المقداد بن عبد الله الحلي والشيخ محمد بن عبد علي بن نجدة ...إلخ.

وفي الروايات التي تحدثت عن الشيخ محمد بن مكي يوجد كثير من المصادر تؤكد أنه انتقل من جزين ليقيم في دمشق، فقد ورد عن الشيخ نفسه حادثة تثبت ذلك وهي قوله في حديثه عن تأليف كتاب «اللمعة الدمشقية» نقله الشيخ يوسف البحراني في اللؤلؤة: «.... ونقل عن المصنف (الشهيد الأول) رحمه الله تعالى أن مجلسه بدمشق في ذلك الوقت كان لا يخلو غالباً من علماء الجمهور لخلطته بهم وصحبته لهم. قال: فلما شرعت في تصنيف الكتاب كنت أخاف أن يدخل علي أحد منهم فيراه فما دخل علي أحد منهم مذ شرعت في تصنيف الكتاب إلى أن فرغت منه وكان ذلك من خفي الألطاف وهو من جملة كرامات....». يضيف الشيخ البحراني مستنتجاً: «أقول: وفي هذه الحكاية ما يدل على بطلان ما ذكره كتاب أمل الآمل من أنه صنف كتاب اللمعة في الحبس بقلعة دمشق»[(١)]. هذه الطريقة من الجدل صحيحة، وكان يجب أن تتم مناقشة تفاصيل الحدث نظراً لأهميته في تاريخ الفكر الشيعي. فعامة الكتاب الشيعة في زمن ما بعد الشهيد قد اعتمدوا نقل الرواية حوله وعن استشهاده من مصدر واحد تبدو التفاصيل فيها غير مترابطة. كما يتم سرد سيرة محمد بن مكي بطريقة خيالية موضوعة لتتلاءم مع مستوى تفكير الناس في القرن الثامن/ الرابع عشر وما بعده. ويظهر في الحكاية أن الشهيد الأول

(١) يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص ١٤٤.

كان يعيش في جبل عامل (جزين) وكان يحارب السحرة ويتصدى لمقولاتهم وأفعالهم، كمثل ذلك الرجل الذي ينتسب إلى قرية تعرف ببرج يالوش (مجهولة الموقع) والذي، حسب المرويات، قد ادعى النبوة وأغوى جماعة من الناس بسحر كان يتقنه. فتصدى الشهيد لهذا (الساحر) وأبطل سحره. ولأن الرواية تهدف إلى وضع الأسباب التي أدت بالشهيد إلى القتل فقد وجب أن يكون هناك أكثر من ساحر أو واشٍ تكون عداوته سبباً من أسباب القتل. فهناك مرتد (عن مذهب الإمامية) يدعى تقي الدينً الخيامي نسبة إلى قرية الخيام القريبة من مرجعيون، ارتد عن المذهب طمعاً في الحصول على منصب حكومي كانت السلطنة لا تمنحه إلا لمن ينتسب إلى أحد مذاهب السلطان. وحتى يثبت الخيامي إخلاصه للدولة ذهب إلى قاضٍ سني في صيدا وأبلغ عن وجود شيخ شيعي يفتي بغير مذهب السلطان. لكن قاضيً صيدا السني لم يعبأ بالأمر كثيراً حتى تلقى وشاية مرتد آخر يدعى يوسف بن يحي الذي جمع تواقيع حوالي سبعين رجلاً من أهل الجبل (جبل عامل) وتواقيع عدد كبير من أهل السواحل تشهد على خروج الشيخ محمد بن مكي عن مذاهب أهل السنة الذي ادعى الشهيد العمل بأحكامها. وهذه الرواية توافق تماماً ما كان ذكره القلقشندي عن أمر من سلطان المماليك « بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة عموماً وردعهم والرجوع إلى أهل السنة والجماعة واعتقاد مذهب أهل الحق[1]. لكن تتمة الرواية تثبت أن الشيخ محمد كان يقيم في دمشق عندما أمر النائب بيدمرو باعتقاله فيها. وفرض عليه البقاء في بيته فيما يشبه الإقامة الجبرية حتى ينظر في أمره. ويظهر أن بيدمرو وقضاة دمشق السنة لم يجدوا في الشكوى ما يثبتها فأرادوا التوقف فيها حتى حين.

أثناء إقامة الشيخ محمد بن مكي في دمشق وصل إليه رسول من الملك علي بن مؤيد ملك خراسان تدعوه للتوجه إليه والإقامة في بلاده. وتعده بكل إحسان ممكن. وكانت الدعوة مغرية جداً لو كان الشيخ يشعر بقلق ما من ناحية السلطة ونائب الشام. ولكن رده اللطيف على رسول الملك علي بن مؤيد تلغي هذه الفرضية أو قصة وصول الرسول أثناء اعتقال الشيخ. لقد وجد الشيخ أن رحيله عن الشام إلى خراسان غير مبرر فوجوده بين

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣ ص ١٤.

أهله وجماعته في الشام (دمشق وجزين) أكثر أهمية وأوجب شرعاً. فرد على الملك علي بن مؤيد بتأليف كتاب في الفقه الميسر والمبسط يكون حاضراً بين يديه وأيدي الشيعة في بلاد خراسان. وسيكون هذا الكتاب وهو «اللمعة الدمشقية» إلى اليوم أحد أهم مراجع الفقه الشيعي الإمامي.

ويبدو من سياق الأحداث التي رواها الشيخ علي بن الشوا تلميذ المقداد السيوري الحلي (الذي كان تلميذاً للشهيد الأول) أن الاعتقال قد تم على مراحل، فكان الشهيد في المرحلة الأولى يقيم في بيته في دمشق ويستقبل الناس والمريدين حيث قام هناك بتأليف كتاب اللمعة، ثم نقل الشيخ إلى قلعة دمشق حيث أمضى فيها سنة كاملة مسجوناً، استدعي بعدها إلى محكمة عقدها الملك بيدمرو بحضور قضاة المذاهب السنية الأربعة وبينهم القاضي عباد بن جماعة الشافعي والشيخ برهان الدين المالكي قاضي المالكية. وبعد جدال مستفيض دافع فيه الشيخ محمد بن مكي عن نفسه باعتباره مسلماً سنياً مالكيَّ المذهب، حكم عليه القاضي برهان الدين بالقتل بالسيف، وبعد قتله سلم للعوام فصلبوه ثم رجموه ثم أحرقوا جثته. جرى ذلك يوم ١٩ جمادى الأولى سنة ٧٨٦/ ٩ تموز سنة ١٣٨٤ في سلطنة برقوق الجركسي.

جميع الروايات الشيعية عموماً التي تحدثت عن نهاية الشهيد الأول قد أخذت من مصدر واحد هو الشيخ علي بن الشوا. وقد اعتمد مجمل مؤرخي وكتاب الشيعة على هذه الرواية دون مناقشة. أما الراوي علي بن الشوا، وهو عالم دين مغمور، فإنه لم ينسب الرواية لنفسه بل يقول بأنه نقلها عن أحد تلامذة الشهيد. ولم يؤيد روايته بأي مصدر مكتوب أو موثّق، وبالتالي لا يمكن الأخذ بروايته دون تحقيق ودون دفع الالتباس حول بعض المسائل. فالتهم التي أدت إلى الحكم بقتل الشهيد أكبر من مسألة واشٍ أو قاض صغير في صيدا. والملاحظ من الرواية أن النائب بيدمرو (نائب دمشق) قد أشرف بنفسه على المحاكمة. والقاضي الذي أصدر الحكم هو قاضي المذهب المالكي. وهذا القاضي قد أصدر أحكاماً مشابهة على عدد من رجال الدين السّنة لأسباب مختلفة. كما أن الأسماء التي وردت في الرواية مغلوطة أو فيها بعض الشك أو سوء نقل لجهل الراوي بالشخصيات أو لتحريف من الرواة. فإذا كان الشيخ محمد بن مكي قد استشهد في

جمادى٢ سنة ٧٨٦/ تموز ١٣٨٤ كما ورد في الرواية فهذا يعني أن قاضي الشافعية في دمشق هو الشيخ برهان الدين ابراهيم بن جماعة الذي عينه السلطان بأمر مباشر منه قاضياً في دمشق في شوال سنة ٧٨٥[١]. أما قاضي المذهب المالكي فهو علم الدين القفصي الذي عاد إلى قضاء المالكية بدمشق عوضاً عن البرهان الشاذلي في شهر جمادى ٢ سنة ٧٨٦[٢]. وهو نفس الشهر الذي أخبر ابن الشوا أن الشهيد قضى فيه. ربما يكون التاريخ الصحيح لاستشهاد ابن مكي هو سنة ٧٨٥ عندما كان يتولى قضاء المالكية في دمشق البرهان الشاذلي الذي يمكن أن يكون لقبه برهان الدين. أما الشيخ ابن جماعة فاسمه ابراهيم ولم يعرف في دمشق قاضياً شافعياً باسم عباد بن جماعة كما افترض ابن الشوا ومن نقل عنه.

في المصادر غير الشيعية لم تعطَ للشهيد الأول أي أهمية استثنائية، ولم تشر إليه تلك المصادر إلا بشكل عرضي، فقد نقل عن صاحب شذرات الذهب في أخبار من ذهب عبد الحي بن العماد الحنبلي، خبر صغير عن قتل محمد بن مكي العراقي[٣]. والنص منقول بحرفيته عن ابن حجر العسقلاني الذي كتب عن الشهيد الأول مرتين في كتابه «إنباء الغمر في أنباء العمر». فقد قال أنه: «قتل سنة ٧٨١/ ١٣٧٩ محمد بن مكي الرافضي بدمشق بسبب ما شهد به عليه من الانحلال واعتقاد مذهب النصرانية (تحريف عن النصيرية) واستحلال الخمر الصرف وغير ذلك من القبايح، وذلك في جمادي الأولى وأرخه بعض أصحابنا سنة ٨٦ فاللّه أعلم. وضربت عنق رفيقه عرفة بطرابلس وكان على معتقده»[٤].

وعاد ابن حجر وكتب عن نفس الموضوع في وفيات ٧٨٦/ ١٣٨٤ فقال: «محمد بن مكي العراقي، كان عارفاً بالأصول والعربية، فقتل على الرفض ومذهب النصيرية في جمادي الأولى وقد تقدم ذكره في حوادث سنة إحدى وثمانين واللّه أعلم»[٥].

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١ ق٢ ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ق٢ ص ٣٤٩.

(٣) ابن العماد الدمشقي، شذرات الذهب، ج ٦ ص ٢٩٤.

(٤) ابن حجرالعسقلاني، إنباء الغمر ج ١ ص ٣١١.

(٥) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٨١.

أما ابن إياس فقد نقل الخبر في حوادث سنة ٧٨٥/ ١٣٨٣ ورغم اختصاره الشديد إلا أنه وضع الكلمات المناسبة لتحدد أسباب قتله فهو يقول: «وفيه قدم الخبر بقتل محمد بن مكي كبير جماعة الرافضة. قتل بدمشق لتظاهره برأي النصيرية فضرب عنقه تحت قلعة دمشق[١]».

من هذه الروايات يمكن الاستخلاص أنه في القرن الثامن/ الرابع عشر كان ينظر إلى النصيرية والمياذنة (أو المتاولة) باعتبارهما مذهباً واحداً رغم اختلاف الإسماء. وأن الشهيد الأول لم يقتل وحده بل قتل معه شخص آخر اسمه عرفة الطرابلسي، وهذا الرجل لم يذكر في المصادر الشيعية على الأقل. وللتذكير فقط فإن الشيعة الإمامية الإثني عشرية أو المتاولة في لبنان والمياذنة في جزين وكسروان في عهد الصليبيين هم نفس المذهب الإمامي الجعفري الإثني عشري الذي يتعبد به من يعرفون بالنصيرية. والنصيرية هي نسبة إلى مكان وليس إلى رجل كما وهم كثيرون. المكان هو جبال النزارية وهو اسم قديم كان يطلقه الرومان على منطقة شمال غرب سورية خصوصاً قرب أفامية وتشرف على منطقة اللاذقية وطرطوس وقد وردت بهذا الإسم (جبال نازيريني) في كتابة لبلينيوس الكبير الجغرافي الروماني[٢]. واستعملها العرب بعد سيطرتهم على بلاد الشام باسم جبال النزارية، ثم حرّفت لتصبح جبال النصيرية.

كذلك لم يهتم أحد من المؤرخين أو أصحاب الرجال الشيعة بوجود شيعة (متاولة أو نصيرية) في طرابلس المستحدثة بعد الحرب الصليبية سواءً في المدينة أو في الجبال القريبة منها، حيث أن استشهاد عرفة الطرابلسي مع الشهيد الأول يثبت هذا الوجود. ولكن نقص الكتابة الشيعية عن المناطق اللبنانية وعدم وجود المصدر الشيعي الموثوق في تلك الحقبة قد ترك فراغاً كبيراً في المعلومات عن رجال الشيعة في ذلك العصر. كما يستفاد من سياق الرواية أن ابن حجر يشك بالتهم التي وجهت للشهيد بقوله في آخر الخبر «والله أعلم». ويعترف في نفس الوقت للشهيد بالمعرفة والعلم بالأصول والعربية. بينما يثبت ابن أياس واقعة الاتهام بالجرم العظيم في رأي المماليك أي التشيع سبباً للقتل.

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٣٤٢.

(٢) PLINIUS. Natural history. XIX.81.

٢ - فكر الشهيد الأول وآثاره

تنبه الشيخ محمد بن مكي باكراً للمشكلات التي واجهها الشيعة الإمامية في الأقطار التي سيطر عليها غيرهم من أصحاب المذاهب والتي وصلت إلى حد الاستئصال والإبادة كما حدث في مصر وحلب، ونسبياً في دمشق وطرابلس. لذلك سعى إلى أن يستند إلى واقع شعبي معين يلجأ فيه المؤمنون إلى علمائهم بصفتهم الحكام الحقيقيين والقضاة العدول وأولياء الأمر في المسائل الدينية والدنيوية يلزم فيها أن يكون الفقيه مجتهداً وعادلاً حتى يمكنه الحكم وتولي أمور المؤمنين. وهكذا وضع الشيخ محمد بن مكي مواصفاتٍ أو شروطاً ملزمة للفقيه الذي سيقوم بالاجتهاد. وهذه الشروط هي الإيمان، والعدالة، والعلم بالكتاب، والعلم بالسنة، والعلم بالإجماع والخلاف، والعلم بالكلام، والعلم بالأصول، والعلم باللغة والنحو والصرف وكيفية الاستدلال بها، والعلم بالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والظاهر والمأمول، والعلم بالجرح والتعديل، والعلم بمقتضى اللفظ. وأخيراً أن يكون حافظاً[1]. ومجموع هذه الشروط الثلاثة عشر مأخوذ من نص حديث يرويه عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام ويعرف ب: «مقبولة عمر بن حنظلة». حيث يقول النص أن عمر بن حنظلة قال: «سألت أبا عبد اللّه (الإمام الصادق عليه السلام) عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث تحاكما إلى القضاة، أيحل ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت وما يحكم له فإنما يأخذه سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له لأنه بحكم الطاغوت وما أمر اللّه أن يكفر به. قال اللّه تعالى: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به». قلت: وكيف يصنعان ؟ قال ينظران من كان منكم قد روى حديثاً، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته حاكماً[2]» ويكتب الشهيد نهاية النص «جعلته قاضياً»[3]. بحيث يبدو أن للكلمتين (القاضي والحاكم) مفهوماً واحداً.

(١) محمد بن مكي العاملي، ذكرى الشيعة، ص ٤٩ وما بعدها.
(٢) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ١ ص ٦٧.
(٣) محمد بن مكي العاملي، ذكرى الشيعة، ص ٤٣.

الحديث له إضافة طويلة ومتشعبة. وبمطالعة أولية له يتبين أن المقصود هو الحكم بمعنى القضاء وليس الحكم بمعنى السلطة.

الشهيد الأول ذكر هذا الحديث كتبيان لشروط وجود الحاكم أي القاضي الذي هو حسب ما مر ليس سوى الفقيه الذي يشترط فيه أن يكون عادلاً (الشرط الثاني). وهكذا يكون الشهيد حسب هذا الرأي قد أوكل مهمة الحكم والقضاء إلى الفقيه العادل ممهداً بذلك لظهور نظرية للحكم تستند في شرعيتها إلى حكم الفقيه الجامع للشروط المنصوص عنها سابقاً.

سيثبت هذا أن الشيخ محمد بن مكي قد وضع مشروعاً عملاقاً لإقامة كيان سياسي يستند في شرعيته إلى حكم علماء الدين، وهو بالتالي المؤسس الحقيقي النظري والعملي لولاية الفقيه. لم يشر الشيخ محمد بن مكي في مؤلفاته إلى كلمة «ولاية الفقيه» بشكل مباشر، ولكنه في مقدمة كتابه «ذكرى الشيعة» الذي ألف سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ والذي اشار فيه إلى «مقبولة عمر بن حنظلة» التي يرد فيها أول تعريف لكلمة «حاكم» أو «قاضي» ولوظيفته بين الناس. فالحاكم يجب أن يكون إمامياً يعرف حدود المذهب (معرفة الحلال والحرام) وميزان العدل الذي أثبتته سيرة الأئمة المعصومين. لقد ظهر أثر هذه «المقبولة» أو «النظرية» في أحكام الشيخ محمد بن مكي وفتاويه في كتابه «اللمعة الدمشقية» الذي صنفه سنة ٧٨٢/ ١٣٨٠ خصوصاً في الأبواب التي تتحدث عن الأحكام والجباية كباب الزكاة وباب الخمس وباب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وباب الحدود... إلخ. وبمقارنة بسيطة بين ما أفتى به الشيخ محمد بن مكي وما كان قد أفتى به الشيخ الطوسي في كتابه «النهاية في مجرد الفقه والفتاوى» أو ما قال به المحقق الحلي في كتابه « شرائع الإسلام في معرفة الحلال والحرام» يتبين مقدار البعد السياسي الذي توصل الشيخ محمد بن مكي للقناعة به.

كان مشروع الشيخ الجزيني قد بدأ بمشروع مالي يرتكز إلى جباية الاموال الشرعية من زكوات وأخماس ونذور وغيرها. وقد أفتى الشيخ الجزيني بحق العالم العادل (الفقيه العادل) أن يجبي الخمس وينفقه في مصالح الأمة. فكان

أول نظام جباية لا يعتمد مبدأ الحق العرقي أو القبلي، على اعتبار أن قسماً من الخمس (وتحديداً العشر) يذهب عادة «للسادة» من نسل الحسنين (وفي الأصل للهاشميين) حسب رأي أئمة التقليد والاجتهاد الذين يرجعون إلى فتاوى الشيخ الطوسي. بينما يوضع القسم الآخر بتصرف المرجعية لأنه سهم الإمام الحجة.

يعتبر الشهيد الأول في التاريخ الشيعي أول من هذب كتب الفقه عن نقل أقوال المخالفين، وقد استدرك على الفقهاء أموراً كثيرة في مقام الوضع التأليفي. وقد ترك الشهيد الأول إرثاً كبيراً جداً في الفقه، فمؤلفاته الهامة لا زالت تدرس إلى اليوم في الحوزات الدينية الجعفرية. من أهم مؤلفاته على الإطلاق كتاب اللمعة الدمشقية الذي جمع فيه الشهيد الأول أبواب الفقه ولخص فيها أحكامه ومسائله. وقد قدم الشهيد أحكام كل باب قبل أي شيء آخر ثم بحث بعد ذلك بالملحقات ثم أتبعها بعرض المسائل التي تتبع هذه الأحكام وترتبط بها. وتميز أسلوب كتاب اللمعة بدقة فائقة في تحديد المصطلحات الفقهية والابتعاد عن السجع والكلام المطول الذي لا طائل تحته.

ومهما يكن من أمر فقد اجتمعت عوامل كثيرة خلدت هذا الكتاب وجعلته في القمة وأبقت على مرجعيته في الحوزات العلمية إلى اليوم.

للشهيد الأول كتب ومؤلفات أخرى من أهمها « الدروس الشرعية في فقه الإمامية» ألّفَه سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ (مطبوع وله شروح كثيرة). و«الألفية» وهو يشتمل على ألف واجب في الصلاة. و«النفلية» وهي رسالة تشمل ثلاثة آلاف نافلة في الصلاة. و«البيان» كتاب في الفقه حول الطهارة والصلاة والزكاة والخمس. و«ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة» ألفه سنة ٧٨٦/ ١٣٨٤. و«القواعد والفوائد» و«أربعون حديثاً» و«مسائل ابن مكي» بالإضافة إلى كتب أخرى ورسائل كثيرة.

كما يعتبر الشهيد الأول قريباً جداً من فقه أهل السنة في موارد كثيرة ومهمة، حتى اتهم في زمن لاحق من قبل بعض الشيوخ أنه قد شوّه النقاء الشيعي بإدخال أحاديث تنسب

إلى مذاهب أخرى. فالشهيد الأول قد آمن بوجوب صلاة الجمعة ونادى بعينيتها في زمن الغيبة. وكان عدد من فقهاء الشيعة قد قالوا بعدم وجوب صلاة الجمعة في زمن الغيبة، وعللوا ذلك بأن خطيب الجمعة ملزم بالدعاء للحكام الجائرين وهذا ما لا يجوز شرعاً حسب المذهب الشيعي. وقد وجد بعد الشهيد الأول من يناصر موقفه من وجوبها كما فعل الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي الجبعي، وولده الشيخ البهائي وعدد كبير من أئمة المذهب الجعفري.

ولعل الاثر الأكبر والغير واضح لكثير من مؤرخي الشيعة هو أن الشهيد محمد بن مكي العاملي الجزيني هو أول من نسب إلى جبل عامل من العلماء. لقد مرت أسماء كثير لعلماء شيعة في بلاد الشام وقد نسبوا بالألقاب. فابن العود قد أقام في جزين وانتشرت شهرته في لبنان شمالاً وجنوباً إلا أنه لم ينسب إلى جبل عامل بل إلى جزين وبعد وفاته. أما الشيخ ابن الحسام، وهو من مجدل سلم فلم يعرف بالمجدلي ولا بالصفدي (نسبة إلى نيابة صفد) ولا بالشقيفي (نسبة إلى بلاد الشقيف) وانما عرف بابن الحسام وابن ابي الغيث. أما شيخ كرك نوح الكبير الشهيد محمد بلبان فلم ينسب إلى كرك نوح ولا إلى بعلبك ولكن اشتهر بلقبه (بلبان) مع أن اسم أسرته (الحرماني). لقد كان الشيخ محمد بن مكي أول علماء الشيعة العامليين الذين تلقوا علومهم وإجازاتهم في الحلة في العراق منتسباً إلى وطنه الأول جبل عامل. و كان الشائع عند علماء العراق وإيران نسبة المتعلم إلى وطنه الذي جاء منه كالكوفي والنجفي والحلي...إلخ. فانتسب الشيخ محمد بن مكي إلى جبل عامل (العاملي). وشاعت هذه الطريقة في الانتساب في الأجيال التالية حتى عمت جميع علماء الدين الشيعة اللبنانيين بمن فيهم البقاعيين والكسروانيين رغم وقوع البقاع وكسروان خارج جبل عامل.

٣ - علماء ما بعد الشهيد الأول:

بعد استشهاد الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي الجزيني تابع عدد من علماء الدين العامليين مسيرة الجهاد الكبرى حيث برز الشيخ عز الدين حسن بن أيوب بن نجم الدين الإطراوي نسبة إلى قرية اطراء العاملية (مجهولة الموقع). كان أحد تلامذة الشهيد وروى

عنه الحديث والفقه، كما روى عن أساتذة الشهيد خصوصاً الشيخ محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (فخر المحققين)، وكان الاطراوي معاصراً للشهيد الأول رغم أنه عاش بعده طويلاً، وتوفي سنة ٨٢٤/ ١٤٢١[(١)].

وربما لم يكن للشيخ الاطراوي تلك الأهمية لو لم يقم أحد العلماء بجمع فتاويه ومقارنتها بفتاوى الشهيد الأول. لقد قام بهذا العمل الشيخ أبو القاسم بن طي العاملي المعاصر للاطراوي ووضع كتاباً أسماه مسائل نجم الدين الاطراوي. في هذا الكتاب خمس وستون مسألة فقهية من أبواب متفرقة وضعت فيها الأجوبة مقارنة بين الشهيد وبين الأطراوي الذي كان قد سأل الشهيد عن تلك المسائل في قريته اطراء. تاريخ وضع كتاب الشيخ ابن طي هو سنة ٨٢٤/ ١٤٢١. ثم أعاد كتابته مرة ثانية سنة ٨٥٣/ ١٤٤٩[(٢)]. ورغم أن هذا الكتاب قد فقد إلا أنه يثبت أن العلماء العامليين كانوا قد بدأوا رحلة طويلة في تطوير الفقه الإمامي الجعفري وعدم التسليم برأي فقيه واحد في مسائل الخلاف.

عالم آخر عاش في نفس الفترة يدعى الشيخ حسن بن أحمد الماروني، ربما ينتسب إلى قرية مارون الركبة التي يعتقد أنها كانت تقوم بجوار قرية دير دغيا إلى الشمال من صور. أو أنه ينسب إلى قرية مارون الراس جنوب بلدة بنت جبيل (كان حياً سنة ٨٣١/ ١٤٢٨). وهذا العالم أجيز من الحلة وليس من جبل عامل مما يثبت عدم وجود حوزة علمية في جبل عامل بعد الشهيد مباشرة. والمعروف عن هذا العالم اصداره لبعض الفتاوى الفقهية كالقراءة في الركعتين الأخيرتين، ولا زالت فتواه هذه معمولاً بها إلى اليوم في بعض المناطق. كما ينسب إليه فتوى حول سجدتي السهو.

من العلماء الكبار الذين عاشوا بعد الشهيد الأول الشيخ ابراهيم الكفعمي (٨٤٠-٩٠٥/ ١٤٣٦-١٤٩٩) نسبة إلى قرية كفرعيما الموجودة خرائبها قرب قرية جبشيت في منطقة النبطية حيث يوجد أيضاً قبر الشيخ الكفعمي الذي اكتشف بالصدفة في العصر

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٥ ص ٢٤.

(٢) نفس المصدر السابق.

الحديث. وهي نفس القرية التي أسماها المهاجر العاملي «كفعم» أثناء سرده لأسماء قرى جبل عامل للشيخ يوسف البحراني في القرن السابع عشر[١].

يتحدر الشيخ ابراهيم الكفعمي من أسرة جاءت من قرية اللويزة الواقعة إلى الجنوب من جزين واستوطنت مدة من الزمن في كفرعيما التي كانت عامرة في حينه، ثم انتقلت هذه الأسرة، أو الشيخ ابراهيم وحده إلى قرية جباع التي كانت ملاذاً لعدد جم من علماء الدين الشيعة العامليين، فاستقر فيها ردحاً ثم انتقل إلى الحلة في العراق حيث أجيز فيها، وربما أجيز قبل ذلك من الشيخ زين الدين البياضي العاملي.

يعتبر الشيخ ابراهيم الكفعمي أحد أكبر شعراء تلك الحقبة غزير المادة جزل الأسلوب، له قصائد لا زالت تتردد إلى اليوم وموضوعاتها بشكل عام ترتبط بالفقه والمسائل الدينية. كما يعتبر الشيخ الكفعمي أحد كبار اللغويين وقد وضع كتباً متخصصة في هذا المجال من أهمها كتاب فروق اللغة. كما تطرق الشيخ الكفعمي في كتبه إلى كل المجالات الأدبية والدينية والتاريخية.

كذلك من علماء الدين الكبار الذين عاشوا بعد الشهيد الأول وحتى نهاية عصر المماليك العالم الشيخ حسن بن أحمد بن يوسف الكركي الملقب بابن العِشرة (كان حياً سنة ٨٥٦/ ١٤٥٣). قرأ على العالم شمس الدين بن محمد الكركي تلميذ الشهيد الأول في الكرك (كرك نوح في البقاع) واستجاز عدداً من العلماء.

من المشهور عن هذا العالم أنه اجتمع حوله وأجيز منه عدد كبير من التلامذة من أشهرهم محمد الاسكاف الكركي ومحمد بن أحمد الصهيوني ومحمود بن أمير الحاج وعلي بن هلال الجزائري ومحمد بن محمد بن المؤذن ومحمد بن علي الجباعي. كما اشتهر عن هذا الشيخ أنه حفر لنفسه في حياته قبراً في قرية كرك نوح حيث دفن فيما بعد. وكان من الزهاد المنقطعين للّه.

وعلى خطى الشيخ ابن العِشرة الكركي في إجازة طلبة العلوم الدينية قام عدد من العلماء بإجازة عددٍ من التلاميذ المستحقين كما فعل الشيخ محمد بن محمد بن المؤذن

---

(١) يوسف البحراني، الكشكول، ج ١ ص ٤٨٦.

(كان حياً سنة ٨٨٤/ ١٤٧٩) الذي أجاز الشيخ علي بن عبد العالي الميسي (نسبة إلى ميس الجبل) وآخرين سواه. وقد حاول بعض الكتاب في العصر الحالي القول بوجود حوزة دينية في مكان ما من جبل عامل (قبل حوزة ميس) كعيناثا مثلاً[1]. لكن هذا القول ليس له ما يثبته، فلم تقم في عيناثا ولا في سواها مدرسة دينية كالتي كانت في جزين، أو في مجدل سلم، وإنما بلغ أحد علمائها وهو الشيخ ظهير الدين بن الحسام (وهو غير ابراهيم بن الحسام بن أبي الغيث المجدلي) درجة هامة من العلم فقصده الشيخ ناصر الدين بن ابراهيم البويهي[2]. ومن الممكن أن تؤخذ الأمور بصورة مختلفة، حيث لم يكن وجود ناصر البويهي في جبل عامل لأسباب تعليمية فقط، ولكن لأسباب سياسية أيضاً خاصة أن الشيخ ابن الحسام كان في حينه من الزعماء البارزين في جبل عامل. كما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن قرية عيناثا العاملية كانت في ذلك الوقت إحدى أهم قرى المنطقة بعد مدينة صور الساحلية التي أعيد بناءها بعد سنة ١٤٢١م. وبعد شيحين التي كانت مقراً للحكام من آل بشارة. لقد حصل بعض العلماء على إجازات من بعض شيوخ عيناثا، لكن ذلك كان يتم بالقصد وليس بالدرس. ومثل هذا الأمر كان شائعاً، حيث كان الشيخ يقصد عالماً مشهوراً ويعرض عليه ما يعرفه ويستجيزه للرواية عنه أو لنقل كتبه فيفعل، وأمثلة ذلك كثيرة في التاريخ العاملي والإسلامي عموماً، وهذا ما كان يقصده الشهيد الأول مثلاً بأنه أجيز من أربعين عالماً من علماء أهل السنة وعدداً آخر من العلماء الشيعة، قصدهم في بلادهم فأجازوه دون أن يكون لكل واحد منهم حوزة دينية خاصة به.

وحول موضوع الحوزات العلمية يجب التذكير أنه لم يكن في العصور الوسطى وجود لمدرسة في البلاد الإسلامية كما هي المدارس اليوم، فالمقصود بالحوزة كان في الواقع اجتماع عدد من التلاميذ حول عالم في بيته أو في المسجد يسمعون منه روايته للحديث ويأخذون عنه الفتاوى وكانت مدة بقائهم مع هذا العالم مرتبطة بالامتحان الذي يجريه الأستاذ لكل تلميذ على انفراد ليتأكد من إدراكه للعلوم التي حصلها، فإذا نجح التلميذ

(١) علي درويش، جبل عامل بين ١٥١٦-١٦٩٧، ص١٢٩ نقلاً عن مقالة لجعفر شرف الدين في مجلة العرفان.

(٢) محمد بن الحسن الحر، أمل الآمل، ج١ ص ١٨٧.

في الإجابة على المسائل فإنه يجاز ويصبح شيخاً. فإذا تابع الدرس في مكان إقامته فإنه يعرض نتائج دراسته على عالم أعلم منه، يقصده من أجل ذلك ويستجيزه. ويمكن أن تكون هذه صفات حوزة جزين التي أقامها الشهيد الأول والتي لم تستمر طويلاً، وكذلك كانت هذه هي حال الحوزة الدينية الكبيرة في ميس الجبل التي أنشئت لتسد الفراغ الكبير في جبل عامل بعد عصر الشهيد الأول.

٤ - الحوزة العلمية في ميس الجبل:

بعد استشهاد الشيخ محمد بن مكي الجزيني أصبحت قرية جزين مركز الحوزة الدينية هدفاً لجلاوزة السلطان، مما تسبب في انهيار الحياة العامة في أقليمي جزين والريحان. فتوالت المجاعات وانتشرت الأوبئة مما أضعف الوجود البشري في المنطقة. واضطرت البقية الباقية من الأهالي من الشيعة إلى هجرها بالتدريج خوفاً على أنفسهم وظناً بعقيدتهم، وفي القرن التالي تعرضت تلك القرية والقرى الشيعية القريبة منها، إلى هجمات متكررة شبيهة بالهجمات التي تعرضت لها منطقة كسروان والجرد قبل ذلك، فهجر الشيعة قراهم في جبل نيحا وما حوله، وتحول علماؤهم جنوباً إلى منطقة أكثر أمناً وأبعد جنوباً وبعيدة عن طرق المواصلات الأساسية وعن تحركات الجيوش لينشأوا هناك حوزة علمية سيكون لها دور ريادي في القرن التالي. لقد وجدوا ضالتهم في قرية ميس (الجبل) في أعالي جبل عامل الجنوبية.

يعتقد أن من أنشأ حوزة ميس هو الشيخ علي بن عبد العالي الميسي (تقريباً ٨٥٠-٩٣٨/ ١٤٤٥-١٥٣١).

ألقابه: نور الدين وأبو القاسم، ولد في ميس في حدود سنة ٨٥٠/ ١٤٤٥ في بيت علم، فوالده الشيخ عبد العالي بن مفلح الميسي كان عالماً فاضلاً، كما ذكرت بعض الترجمات المتعلقة به دون أن تضيف كثيراً في التعريف به.

عاش الشيخ علي طفولته في ميس، وتلقى العلم فيها، فليس من ذكر يفيد بارتحاله إلى خارج جبل عامل من أجل تلقي العلم الديني، ومع أن السيد محسن الأمين العاملي

قد اهتم كثيراً بابراز ما فات الشيخ محمد بن الحسن الحر صاحب أمل الآمل من ذكر صفات الشيخ علي الميسي إلا أنه نسي في المقطع الخاص به أن يذكر من أجازه ومتى. لكنه ذكر ذلك بتفصيل في مكان آخر لا علاقة له بالميسي. فالشيخ علي بن عبد العالي الميسي قد أجيز من الشيخ الجليل محمد بن محمد بن المؤذن الجزيني العاملي، تاريخ الإجازة ١١ محرم سنة ٨٨٤/ الأحد ٤ نيسان ١٤٧٩. وابن المؤذن كان قد أجيز من الشيخ عز الدين حسن بن العشرة الكركي الذي أجازه الشيخ شمس الدين بن عبد العالي الكركي الذي أجازه الشهيد محمد بن مكي الجزيني ابن عم الشيخ ابن المؤذن (٧٣٢-٧٨٦/ ١٣٣١-١٣٨٤)[١] هكذا سيمكن ربط سلسلة العلماء بالشهيد الأول. وينقل السيد الأمين أن الشيخ علي بن عبد العالي الميسي قد أجيز من الشيخ محمد بن أحمد بن محمد الصهيوني الذي أجيز من حسن بن العشرة الكركي[٢].

إضافة إلى هاتين الإجازتين اللتين يعود تاريخهما إلى سنة ٨٨٤/ ١٤٧٩ حصل المحقق الميسي على إجازة من المحقق الثاني الشيخ علي بن عبد العالي الكركي، أثناء وجوده في ميس قبل أن يترك جبل عامل مهاجراً إلى إيران. وتاريخ الإجازة هو ٩١٥/ ١٥٠٩ أي بعد ثلاثين سنة على تاريخ إجازة الشيخ الصهيوني مما يثبت أن الإجازة الأخيرة كانت إجازة اجتهاد حيث سيعرف بعدها الشيخ علي بالمحقق الميسي.

لم يتمكن الشيخ الميسي من الاستمرار في بلدته وحوزته بعد دخول عتاة العثمانيين إلى المنطقة، كانت مدرسة ميس تتمع بحماية أمراء الأسرة البشارية الذين فقدوا نفوذهم بعد زوال دولة المماليك فأصبحت البلاد مكشوفة على كل شر أتى به العثمانيون مما اضطر الشيخ علي بن عبد العالي الميسي إلى اللجوء إلى مقام النبي صديق قرب تبنين في وسط بلاد بشارة، بينما اضطر أولاده إلى الفرار إلى بلاد إيران حيث لجأوا إلى الدولة الصفوية.

توفي الشيخ علي بن عبد العالي الميسي سنة ٩٣٨/ ١٥٣١ في ملجأه في قرية النبي

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٥ ص ١٧.

(٢) المصدر السابق.

صديق ودفن فيها. وقرية النبي صديق خراب اليوم، وقلة من عامة اللبنانيين من يعرف مكانها. وقد درس قبر الشيخ علي الميسي فلا يعرف اليوم مكانه بالتحديد.

ظهرت له كرامات كثيرة في حياته وبعد وفاته كما ذكر الشيخ حسين بن عبد الصمد، وكان الشيخ حسين قد التقى بالشيخ علي الميسي في أواخر عمره وقال بأنه لم يأخذ عنه العلم لانقطاعه بسبب الكبر.

كان الشيخ علي الميسي يملك من الصفات الأخلاقية والتقوية ما جعله موضع ثقة المتعلمين والمعلمين. لقد سمت نفسه عن مستوى العلماء العاديين، فكان يعيش عيشة الزهاد بورع وتقشف لا يقدر عليهما إلا النخبة الصالحة من المتقين. كان يعلم في النهار ويعمل في الليل حطاباً فينقل الحطب على حماره في قريته ميس لتلامذته وعياله[1]. رفيقه في هذا العمل تلميذه وصهره فيما بعد الشيخ زين الدين بن علي المستشهد بعد حين على التشيع والمشهور تاريخياً بالشهيد الثاني.

ترك الشيخ علي كتاباً واحداً مشهوراً هو الرسالة الميسية في الفقه، وقد ذكر السيد محسن الأمين أن العلماء قد نقلوا كثيراً منها في مصنفاتهم واعتنوا بشأنها كثيراً. وقد شرحها المحقق الثاني الكركي في كتاب أسماه شرح الجعفرية وشرح صيغ العقود المعروفة بالميسية في الفقه[2]. ولا يذكر أحد من الذين ألفوا في تاريخ جبل عامل مكان وجود هذه الرسالة إن كانت مخطوطة، كما لم يذكر أحد أنها طبعت أو أنها قيد التداول.

تتلمذ على الشيخ علي الميسي كثير من العلماء الكبار من أهمهم الشيخ زين الدين بن علي التحاريري المعروف بالشهيد الثاني الذي كان صهر الشيخ علي. وابنه الشيخ ابراهيم بن علي الميسي، وابنه الشيخ جعفر بن علي الذي كان شريك الشهيد الثاني في الدرس، وقد حصل على إجازته.

لقد كان في حوزة ميس عدد من العلماء الذين اهتموا بالتدريس فيها ومن أهم هؤلاء

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٦٢.

(٢) علي درويش، جبل عامل ١٥١٦ - ١٦٩٧ ص ١٦٢.

كان الشيخ علي بن عبد العالي الكركي المشهور بالمحقق الثاني، أحد رموز الفقه الشيعي الإمامي وناشر مذهب الإمامية في بلاد إيران.

لقد سجلت حوزة ميس نجاحاً هاماً طيلة ثلاثين سنة واستوعبت وخرجت أربعماية طالب علم كما ذكر كثير من مؤرخي جبل عامل[1]. وكان سبب نجاحها يعود إلى أمرين أولهما وجود الشيخ علي بن عبد العالي الميسي المحقق الذائع الصيت بتقواه وورعه وسعة علمه، إضافة إلى وجود علماء كبار إلى جانبه مثل الشيخ المحقق علي بن (حسين بن) عبد العالي الكركي. وثانيهما هو اعتماد الحوزة لنظام تدريس منتظم ومكتمل ومنسق يشبه إلى حد كبير اساليب التدريس المتبعة حالياً في الحوزات الدينية[2].

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٣٦.

(٢) علي درويش، جبل عامل بين ١٥١٦-١٦٩٧، ص ١٢٩.

الفصل التاسع

العهد العثماني

١ - الحكم العثماني: هويته وفتاوى شيوخه

٢ - الإدارة العثمانية للبلاد السورية

٣ - نظام الالتزام العثماني في لبنان

٤ - تعريف مناطق شيعة لبنان في العهد العثماني

١ - الحكم العثماني: هويته وفتاوى شيوخه

لم تكن الدولة العثمانية دولة دينية، لكن سلاطينها استندوا أو ادعوا استنادهم في شرعيتهم إلى الدين واعتبروا أنفسهم منذ أيام مؤسس السلطنة عثمان بن أرطغرل (١٢٩٩ - ١٣٢٥) قيّمين على الدين الإسلامي ومحافظين ومدافعين عنه. فخاضوا حروبهم الأولى ضد الدولة البيزنطية على هذا الأساس. لكن، عندما وقعت الصدامات الأولى بينهم وبين قبائل عربية وتركية تدين بمذهب الشيعة الإمامية النصيرية صوّرت السلطنة نفسها حامية لأهل السنة والجماعة (على مذهب أبي حنيفة النعمان) ففتكت جيوشهم بالشيعة الذين فر عدد من زعمائهم من مدينة سنجار مستجيرين بتيمورلنك الذي ادعى التشيع، واشتكوا عنده ما جرى عليهم من ظلم وقهر، فسيّر جيوشه للانتقام. فكانت حرب الدولة العثمانية في مواجهة تيمورلنك مواجهة بين السلطان السني الحنفي العثماني بايزيد ابن مراد الأول (٧٩٢- ٨٠٥/ ١٣٨٩- ١٤٠٢) والخان تيمورلنك الشيعي وقد انتهت الحرب بهزيمة السلطان العثماني وإعدامه في مدينة آق شهر شرق الأناضول. كان من نتائج هذه الحرب انتشار الجماعات الشيعية الإمامية سواءً النصيرية أو أصحاب التقليد والاجتهاد من عرب وكرد وترك في بلاد الأناضول، دون أن يقع اي احتكاك عسكري حتى حكم السلطان سليم (٩١٨- ٩٢٦/ ١٥١٢- ١٥٢٠)[1] الذي اشتعلت في أيامه حروب على أساس مذهبي وطائفي. ربما يعود السبب في ذلك إلى تحرك الجماعات الشيعية في الأناضول قريباً من المناطق المتاخمة للدولة الصفوية الناشئة، حيث يمكن الحصول على تأييدها ومساعدتها. وتحرك الشيعة في آسية الصغرى في حركة تمرد قوية شكلت خطراً جدياً على وجود الدولة العثمانية. قاد هذا التمرد الشاه قولي في السنة الأخيرة من حكم السلطان بايزيد الثاني ١٥١٠-١٥١٢. وبعد محاولات شاقة تمكنت السلطنة من إخماده بعد أن سقط قائده شاه قولي قتيلاً. وأوقعت الجيوش العثمانية مذبحة رهيبة سقط ضمنها

(١) عبد الباسط الفاخوري، تحفة الأنام ص ١٧١.

أربعون ألفاً من الشيعة الأتراك في الأناضول[١]. ولما انقلب السلطان سليم على أبيه وعزله عن الحكم وتولى السلطنة مكانه عمل على نقل الحرب إلى داخل بلاد إيران حيث يوجد السند القوي للشيعة. وقام بمهاجمة بلاد الصفويين واستولى على تبريز قاعدة حكمهم سنة ٩٢٠/ ١٥١٤ وارتكب فيها مذابح رهيبة قضى فيها على أعداد كبيرة من الشيعة فقط بسبب انتمائهم المذهبي. كما عمل على تخريب بلاد أصفهان ونقل الحرفيين منها حتى لا تقوم للدولة الإيرانية قائمة. لكن الصفويين سرعان ما جيشوا جيوشهم واستعادوا ما فقدوه وهاجموا العراق وتمكنوا من الاستيلاء على بغداد حيث يقال بأن الشاه اسماعيل بن حيدر الصفوي قد نقض تربة الإمام أبي حنيفة النعمان وهو خبر منفي لأن القبر لا زال إلى اليوم كما كان لم يتغير. ولكن السلاطين العثمانيين كانوا يظهرون في كل حين أنهم يحاربون دفاعاً عن السنة او انتصاراً لهم فينسجون حكايات توهم السنة بأن الشيعة يقومون بأعمال تشبه ما يقوم به جيش السلطان.

لقد تمكن السلطان سليمان خليفة سليم على العرش (١٥٢٠-١٥٦٦) لاحقاً من احتلال مدينة بغداد سنة ٩٤١/ ١٥٣٤. وقد أظهر السلطان العثماني بعد استيلائه عليها أموراً ما كان ليفعلها سابقوه من السلاطين، فقد زار مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النجف الأشرف، كما زار مدينة كربلاء المقدسة حيث قبر الحسين الشهيد. كذلك زار مرقد الإمام موسى الكاظم عليه السلام في بغداد وأظهر كثيراً من الإحترام لتلك المشاهد المقدسة. لكنه رغم ذلك تابع حروبه ضد الشاه طهماسب بن اسماعيل الصفوي فتعرض لهزيمة مريرة أمام الجيش الإيراني عزاها مؤرخوه إلى طول طرق المواصلات وتعب الجيش، واضطر للعودة إلى اسطنبول ليجهز حملة جديدة.

لقد تحولت حروب الدولة العثمانية المذهبية إلى حروب عبثية مرهقة مما دفع السلاطين اللاحقين إلى توقيع اتفاقيات للصلح والسلام مع الدولة الإيرانية أدت إلى توقف ذلك الشحن المذهبي الكبير على الأقل بشكله السافر. فاستفاد رعايا السطان العثماني من هذا الواقع الجديد ليظهروا مذاهبهم في ديار السطنة دون أن يعني ذلك

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٤٦

حصولهم على حقوق متشابهة مع رعايا السلطان من المذاهب السنية خصوصاً مذهب ابي حنيفة الذي صار أتباعه يتقدمون على من عداهم من أتباع المذاهب السنية الأخرى.

بالعودة إلى فترة حكم السلطان سليم الذي دخلت بلاد الشام تحت حكمه ابتداءً من سنة ١٥١٦ فإن هذا السلطان الذي أقدم سنة ١٥١٤ على ارتكاب مذابح ضد الشيعة في البلاد التي وطئها سواءً في الأناضول أم في مناطق اصفهان وكردستان، وجد نفسه بحاجة إلى سند شرعي ديني لتبرير مذابحه وجرائمه فلجأ أو أمر مفتي البلاط العثماني بتسطير فتوى شرعية تبيح له ما ارتكب من فظائع. ولأن رجال الدين في الدولة العثمانية كانوا أشبه بموظفين عند السلطان فإن الشيخ المفتي قد أصدر فتوى للسلطان كما أراد. من المهم معرفة أن هذه الفتوى قد جاءت بعد معركة چالديران التي وقعت بين السلطان العثماني سليم وبين الجيش الإيراني في ٤ أيلول سنة ١٥١٤ (١٤ رجب ٩٢٠) والتي انتصر فيها العثمانيون. فكانت الفتوى تعلن ليس فقط تكفير الشيعة ووجوب قتالهم بل عدم قبول توبتهم حتى لو تابوا. كذلك من المفيد الاطلاع على جزء من نص الفتوى الشهيرة لكي تكون الصورة واضحة لأوضاع الشيعة في الدولة العثمانية وردود أفعالهم المتوقعة. تقول الفتوى التي جاءت رداً على السؤال: «ما قولكم دام فضلكم ورضي اللّه عنكم ونفع المسلمين بعلومكم في سبب وجوب مقاتلة الروافض (الشيعة) وجواز قتلهم: هو البغي على السلطان أو الكفر؟ وإذا قلتم بالثاني فما سبب كفرهم؟ وإذا أثبتم سبب كفرهم فهل تُقبل توبتهم وإسلامهم كالمرتد أو لا تقبل كسب النبي ﷺ بل لا بدّ من قتلهم؟ وإذا قلتم بالثاني فهل يُقتلون حداً أو كفراً؟ وهل يجوز تركهم على ما هم عليه بإعطاء الجزية أو بالأمان المؤقت أو بالأمان المؤبد أم لا؟ وهل يجوز استرقاق نسائهم وذراريهم؟ أفتونا مأجورين أثابكم اللّه تعالى الجنة»[1].

إن مجموع الأسئلة المتراكمة تحت عنوان واحد قد حملت الجواب بذاتها فالسائل قد حكم مسبقاً بأنه هو مسلم والشيعة كفار. وأنه هو القاضي وهم المحكومون. وأنه هو يقرر نيابة عن اللّه شأن هؤلاء ويعطي لنفسه الحق بالتصنيف والاستنتاج لما غمض عليه

(١) ابن عابدين، العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية، ج ١ ص ٩٤.

من مسائل. لذلك فشكل الجواب لن يزيد في الأحقاد شيئاً لأنه شرّع الأمر ونقيضه. يقول في الجواب: «... إعلم أسعدك اللّه أن هؤلاء الكفرة والبغاة الفجرة جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والعناد وأنواع الفسق والزندقة والإلحاد، ومن توقف في كفرهم وإلحادهم ووجوب قتالهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم، وسبب وجوب مقاتلتهم وجواز قتلهم البغي والكفر معاً؛ أما البغي فإنهم خرجوا على طاعة الإمام (السلطان سليم)، وقد قال اللّه تعالى (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر اللّه). والأمر للوجوب فينبغي للمسلمين إذا دعاهم الإمام إلى قتال هؤلاء الباغين الملعونين أن لا يتأخروا عنه بل يجب عليهم أن يعينوه ويقاتلوهم معه»[1]. وأما حجج المفتي السلطاني فيمكن اتهام أي كان بها وإثبات التهمة دون دليل. فيمكن مثلاً لأي مسلم شيعي أن يطرح نفس الأسئلة بنفس السياق على أي قاض شيعي إمامي ويتهم المذهب الحنفي برمته بالإرتداد ونقض وصايا رسول اللّه وإتباع أئمة الفسق والفساد... إلخ. وهذه الأمور قد وجدت حقيقة في التاريخ الإسلامي أيام ابن تيمية (وقد مر الحديث عنه في حروب كسروان)، لكنها ظلت بلا رد من الجانب الشيعي لعدم وجود دولة شيعية في تلك الآونة. أما أيام السلطان سليم فقد كانت الدولة الصفوية مزدهرة في شمال إيران ولديها قوة عسكرية كبيرة ساهمت في رد الهجمة العثمانية بشراسة وتمكنت من وقف فتاوى وعّاظ السلاطين عند حد.

يقول ابن نوح آل صفا في حججه لتكفير وإباحة دماء الشيعة وأعراضهم وأموالهم جواباً على الأسئلة السابقة:»... وأما الكفر فمن وجوه، فإنهم يستخفون بالدين ويستهزئون بالشرع المبين ، ويهينون العلم والعلماء ويستحلون المحرمات ويهتكون الحرمات، وينكرون خلافة الشيخين ويطوّلون ألسنتهم على عائشة فهم كافرون بتكذيب القرآن العظيم، وسابون النبي ضمناً وهم يسبون الشيخين، ومن كفّر الصحابة كفر..... وثبت بالتواتر قطعاً عند الخواص والعوام من المسلمين أن هذه القبائح مجتمعة في هؤلاء الضالين المضلين، فمن اتصف بواحد من هذه الأمور فهو كافر يجب قتله باتفاق الأمة ولا تقبل توبته وإسلامه في إسقاط القتل سواء تاب بعد القدرة عليه والشهادة على قوله أو جاء تائباً من قبل نفسه.

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٤-٩٥.

فيجب قتل هؤلاء الأشرار الكفار تابوا أو لم يتوبوا ؛ ولا يجوز تركهم بإعطاء الجزية ولا بأمان مؤقت ولا بأمان مؤبد، ويجوز استرقاق نسائهم ويجوز استرقاق ذراريهم.... كتبه أحقر الورى نوح الحنفي عفا اللّه عنه والمسلمين أجمعين»[١].

كان يمكن لو أن دولة لطائفة أخرى حكمت أن تصدر فتوى مشابهة بنفس الحجج ضد المذهب الحنفي تبرر فيه القتل واسترقاق النساء والأولاد، ولكن ما ابتليت به الدولة العثمانية لم يقع مثله في تاريخ الإسلام. لقد وضعت الدولة العثمانية بسلاطينها ومفتيها وقضاتها وأمرائها شكلاً للحكم لا شبيه له ولا مثال. فالدولة هي العدو وهي الحاكم. يسير جيشها في البلاد التي هي بلاده بالأصالة فيقتل وينهب ويسلب ويحرق المزارع والحقول ويلوث الآبار بالجيف والدماء ويقطع الاشجار ويحرق البيادر والمواسم ويفرض الخوات والإتاوات تحت اسم الالتزام ويجبي الضرائب بواسطة جلاوزة لا ذمة لهم ولا شرع. وفي كل ذلك لم يعاملوا كل طائفة بتمييز عن الطائفة الأخرى فكل رعايا السلطان عبيد. وللسلطان الحق في كل شيء وهو فوق الشريعة لا يحاسب ولا يسأل ولو فعل الأفاعيل. ويكفي التذكير بأن السلطان سليم الواقف وراء فتوى ابن نوح قد قتل أباه واستولى على العرش بالقوة، ثم قتل عدداً من إخوته خوفاً من أن يزاحموه على الحكم. وقد قتل أحد أبنائه بسبب جارية كانت تعشق ابنه وهو يريدها لنفسه. وبعد كل ذلك كان هذا السلطان ودولته تعلن أنها حامية حمى الإسلام الحنيف وراعية دين التسامح.

هذه هي صورة الدولة العثمانية التي قدر لها أن تحكم لمدة أربعة قرون قضت فيها تقريباً على كل شيء إسمه حضارة عربية، وعلى كل شيء إسمه عقل عربي أو فكر إسلامي. جرت مثل هذه الامور في طول البلاد وعرضها في بلاد الكرج وبلاد الكرد وفي تراقيا الإسلامية وفي الأناضول وفي بلاد العرب مشرقاً ومغرباً. ودفع الرعايا ثمن «إسلام» السلطان بما لا مثيل له ولا شبيه في التاريخ. يقول صاحب خطط الشام في صورة بسيطة عن هذا المصاب في مقدمة كلام عن حركة قام بها باشا طرابلس في منتصف القرن السابع عشر: «أما في جهات لبنان الغربي والشرقي فإن الوالي أو المتسلم أو المستبد إذا

(١) المصدر السابق ص ٩٥ -٩٦.

غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجره. ولذلك كان من الدعاء على الرجل في لبنان «اللّه يقطع رزقه» أي أشجاره أو «يخرب زوقه» أي بيته والزوق البيت[١]. مع التذكير أن المذهب الذي ادعاه سلاطين بني عثمان يحرم على المسلم حتى في زمن الحرب أن يقتل بريئاً أو يجهز على جريح حتى المعادي أو يتبع مدبراً أو يقطع شجرة أو يقتل حيواناً إلا لطعام أو يهدم بيتاً أو ينشر فساداً... إلخ. وهذا كله فعلته الدولة العثمانية وأربت عليه ثم ادعت أن ذلك باسم الإسلام.

هذه الدولة لقدر مقدر، وجد الشيعة من أهل جبل عامل وبعلبك وجبل لبنان أنفسهم فيها. فكان بقاء أحياء منهم واستمرار وجودهم في الأرض هو غاية الغايات فكيف ببقاء شيء حضاري أو ثقافي أو حتى إنتاجي عادي ؟

بدأت هذه الآفة تسيطر على لبنان عندما قرر السلطان سليم العثماني أن يغزو مملكة الشام ومصر المملوكية. لقد احتج بصلف أنه يحارب من أجل الإسلام. وقبل أن يشرع بالزحف نحو سوريا لقتال المماليك «قام بقتل آلاف الشيعة دون أن يوفر النساء والأولاد. وأجلى من قدر عليه إلى أوروبا العثمانية وذلك لحماية خطوطه الخلفية مدة غيابه. وبعد انتصاره على المماليك في مرج دابق عرج على حلب التي فتحت أبوابها له سلماً ولم يغادرها نحو دمشق إلا بعد أن أضاف مذبحة أخرى إلى سجله الدموي اختلف المؤرخون في تقدير عدد ضحاياها وإن كانت المصادر الشيعية تتحدث عن ستين ألفاً»[٢]. وأعلن السلطان في حوار مع آخر سلاطين المماليك طومان باي أن الذي أفتى بوجوب هذه الحرب هم علماء الأعصار والأمصار «....وأنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة والفجّار فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر إلى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه...»[٣]. وتم للسلطان سليم السيطرة فصار لزاماً على اللبنانيين الشيعة وغير الشيعة مقاومة الواقع الجديد بما يمكنهم من قوة.

(١) محمد كرد علي، خطط الشام ج ٢ ص ٢٦٤.
(٢) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان ج١ ص ٢٢
(٣) ابن زنبل الرمال، آخرة المماليك ص ٢٤٤.

كانت مملكة مصر والشام المملوكية قد أخذت بالانحطاط منذ هجوم تيمورلنك سنة ١٤٠٠ ولم يكن من الممكن أن يتوقف ذلك الانحدار المتسارع بسبب شكل النظام المملوكي الذي تأسس على الاستيلاء على السلطان بالقوة. فكان كل أمير طموح يتمكن من حشد ما يكفي من الأنصار، يسعى للقيام بانقلاب في مملكة مصر والشام. فإذا انتصر ينصب نفسه سلطاناً ويسجن أو يقتل المخالفين ولم يكن من الممكن منع أي قوة أقليمية متماسكة من التدخل ومن ثم السيطرة على المملكة فكان مصير مملكة مصر والشام مرهون بوجود قوة عسكرية يمكن أن تنشأ وتتمدد في داخل المملكة أو على حدودها. وهكذا عندما أصبحت السلطنة العثمانية القائمة في آسية الصغرى والبلقان قادرة على التحرك جنوباً، فإنها سارعت للتدخل متذرعة بحجج مختلفة. وقعت المعركة الفاصلة في مرج دابق قرب مدينة حلب سنة ١٥١٦ فتهاوت جيوش المماليك المتنازعة والمتحاسدة فيما بينها. وكان سهلٌ على مدفعية السلطان العثماني سليم الأول أن تفتك بخيالة المماليك وتقضي على سلطانهم قانصوه الغوري الذي سقط في المعركة. وتابع الجيش العثماني سيره جنوباً يؤازره عدد كبير من خونة المماليك الذين تآمروا وخذلوا سلطانهم وأسلموه في ساحة المعركة. واستقبلت المدن السورية الكبرى الجيش الإسلامي الجديد دون أن تجد كثير فرق بين السلطان الجديد وولاته وبين السلطان القديم. فالأسماء والأفعال متشابهة وكلهم مسلمون يفرضون أنظمتهم التركية المتشابهة على الرعية دون قدرة على الاعتراض.

وتابع الجيش العثماني زحفه جنوباً فاستولى على مصر سنة ١٥١٧ ونفذ مذبحة كبرى بالمماليك بعد استسلامهم وفتك بسلطانهم الأخير وأعوانه الذين ألقوا السلاح متمنين عفو السلطان الذي بادر بالحكم بقتلهم وتعليقهم في ساحات القاهرة. وهذه الطريقة في قتل الأسرى هي في شرائع العثمانيين أمرٌ عادي فهم فعلوا ذلك في تبريز قبل ذلك وفي حلب. لكنهم عللوا ذلك بأن المقتولين شيعة يجوز قتلهم. فما هي حجتهم في قتل المماليك وهم من السنة؟

ومنذ هذا التاريخ (١٥١٦-١٥١٧) دخلت البلاد العربية الشرقية في مصر والشام والجزيرة العربية في عصر الظلمات الأكبر والأطول في تاريخها. لقد توقفت بقايا

المدارس والكتاتيب عن تعليم الصبية إلا فيما ندر وحل الجهل وانتشرت الأمية في كل المجتمعات العربية في سوريا ولبنان. وترافق ذلك مع فقر مدقع تسبب به حكام ظلمة وعتاة مجرمون لم يكن لهم همٌّ سوى استخلاص الأموال، وسلب الناس أملاكهم. وإذا ما وقع اختلاف بين أميرين أو حاكمين متجاورين فإن العواقب تكون بقتل المواشي وقطع الأشجار واتلاف المواسم وإحراق الزروع. مع قتل أي بريء يتمكن الطغاة من الوصول إليه.

في مثل هذه البيئة المظلمة لا يكتب تاريخ لشعب لا تكون مقاومة الظلم عنواناً له. وهذا هو حال الشيعة في لبنان طيلة القرون السوداء الأربعة التي حكمت فيها الدولة العثمانية. ورغم ذلك فإن هذه القرون الطويلة لم تكن متشابهة بل هناك فترات متغيرة حسب الظروف السياسية والتدخلات الخارجية التي بدأت تظهر ويزداد تأثيرها في المنطقة.

يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية في لبنان (وسوريا) إلى أربع مراحل: المرحلة الأولى تمتد من وصول العثمانيين إلى لبنان سنة ١٥١٦ وتنتهي بانشاء ولاية صيدا سنة ١٦٦٠. والمرحلة الثانية تبدأ من انشاء ولاية صيدا وتنتهي بوصول نابليون بونابرت إلى مصر والشام سنة ١٧٩٩. والمرحلة الثالثة تبدأ وصول نابليون وتنتهي مع إنشاء الولايات السورية الجديدة سنة ١٨٦٤. أما المرحلة الرابعة فتنتهي مع سقوط الدولة العثمانية سنة ١٩١٨. كل مرحلة من هذه المراحل تتميز بأحداث أساسية كبيرة تركت أثرها الهام في أوضاع الشيعة في لبنان لجهة أحوالهم السياسية ومقاومتهم للظلم السلطاني، مع سعيهم للمحافظة على وجودهم وخصائصهم الذاتية التي ثبت أنها عصية على كل محاولات الاستئصال، فخرجت في النهاية من ظلمات العثمنة إلى نور الحرية التي حاول الوجود الفرنسي طمسها لكنه لم يتمكن لقصر المدة التي قضاها في لبنان.

الإدارة العثمانية للبلاد السورية:

اعتمد العثمانيون بعد دخولهم إلى البلاد السورية نظاماً جديداً يختلف عن النظام الذي كان متبعاً في عهد المماليك. فقد ضمت الأمبراطورية العثمانية ٣٢ إيالة (أو ولاية) كانت

٢٤ إيالة منها مقسمة إلى ٢٧٩ سنجقاً. ذلك على وجه التقريب هو الوضع الذي تصفه قائمة أعدها الصدر الأعظم مراد باشا كويوجو للسلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٩ ومن هذا الإجمالي كانت ١٣ إيالة تتعلق بالأراضي العربية للأمبراطورية (إيالات أو ولايات) الإحساء والبصرة وبغداد والموصل والرقة وحلب والشام (أي سوريا الكبرى) وطرابلس الشام واليمن ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر وتضاف إليها الحجاز وهي ولاية تابعة تعترف بالسيادة العثمانية وتخضع لسلطة شريف مكة(١).

من الواضح أن السلطان العثماني قد جعل في سوريا ثلاث ولايات أو (إيالات) وهي دمشق وحلب وطرابلس وألغى بذلك مملكة صفد التي كان جبل عامل (جنوب لبنان) يتبعها سواء في بلاد بشارة (جنوب الليطاني) أو بلاد الشقيف (شماله) ومنطقة صيدا. كانت كل ولاية تقسم إلى سناجق والسنجق إلى معاملات أو نواحي كما تمتعت بعض المناطق بإدارة خاصة.

في ولاية دمشق أعلنت صفد سنجقاً يتبعه مناطق بلاد بشارة والشقيف وأعلنت صيدا وبيروت سنجقاً وتبعه أقليمي التفاح والشومر. واستمر الوضع الإداري كذلك حتى سنة ١٦٦٠ عندما أعلن قيام ولاية صيدا التي تبعتها مناطق جبل لبنان وجبل عامل وفلسطين حتى غزة.

أما الشيعة في بعلبك والبقاعين فقد أصبحوا يتبعون مباشرة لوالي دمشق فيما أصبح شيعة الشمال يتبعون والي طرابلس. ومن الطبيعي أن الأحداث التي كانت تجري بين الباشاوات (الولاة) في الولايات السورية كانت تصيب السكان الشيعة في هذه الأماكن بشرورها وويلاتها. لذلك سيكون الحديث عن تاريخ الشيعة في لبنان في العصر العثماني حديثاً عن ثلاث مناطق منفصلة تجري الأحداث في كل واحدة منها بمعزل عن المناطق الأخرى. وليس هناك من إثبات على أن أي من وجهاء هذه المناطق قد أجرى تحالفات مع أبناء المنطقتين الأخريين على أساس الانتماء المذهبي أو الديني. فالعلاقات بين وجهاء وزعماء كل منطقة كان يسير مع ما يراه مناسباً له. وهذا يؤدي

(١) روبرت مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ ص ٥٢٣.

للاعتراف بأن العلاقات المذهبية والدينية وحتى العرقية لم يكن لها ذلك الفهم الذي شاع في العصر الحديث.

لقد برز في العهد العثماني مفاهيم جديدة للإدارة والسلطة لم تكن تشبه ما كان مألوفاً ومعروفاً في العهد المملوكي. ففي ذاك العهد كانت الرتب تمنح للعسكريين الذين يتبعون السلاطين والولاة أو نواب السلطان. فكان المملوك يترقى من جندي حلقة إلى أمير خمسة أو عشرة (أو عشرين في بعض الأحيان) ثم أمير أربعين ومن ثم أمير مئة. وكان العدد الذي يدل على رتبة الأمير يعني عدد الفرسان الذين يأتمرون بأمره في زمن الحرب. دون ذكر عدد المشاة الذي يساوي غالباً عشرة أضعاف عدد الفرسان. وكان كل أمير (أمير عشرة أو أمير مئة) يتلقى من السلطان إقطاعاً فيكون إنفاقه على جنوده ومصالحه من ذلك الإقطاع وما يتبقى يرفع إلى خزينة السلطان. ولم يكن الإقطاع ملكية للأمير بل كان يؤخذ بعد وفاته ويسلم إلى أمير آخر. فكلمة مقطعجي أو إقطاعي في عهد المماليك تعني ملتزماً معيناً يقوم بجمع الضرائب من إقطاعه ويؤمن تجنيد العدد المتفق عليه من الفرسان والمشاة.

أما في العهد العثماني فإن الحكام يتدرجون من السلطان الذي هو أمير المؤمنين ويملك سلطة مطلقة في الدولة. يأتي بعده الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) الذي يستمد سلطته من سلطة السلطان فيقوى نفوذه أو يضعف حسب قوة وضعف السلطان. ويأتي بعد الصدر الأعظم الوزير أو الباشا أو حاكم الولاية. الذي يستمد سلطته من الصدر الأعظم. وبقدر ما يكون الصدر الأعظم قوياً تكون قوة الولاة الذين يفوضون حكم البلاد إلى مجموعة من الحكام يحملون ألقاباً ورتباً مختلفة منها رتبة أمير التي أصبحت تطلق على أي حاكم من أبناء البلاد يتولى الالتزام بما يشبه الالتزام الإقطاعي في أيام المماليك. فكان الأمير الحاكم في إحدى المقاطعات أو المناطق له صلاحية فرض الضرائب على الفلاحين وجبايتها وتسليم المطلوب منه للدولة على أن يحتفظ بالباقي. وهذه الطريقة في الحكم أدت إلى انتشار الرشوة والفساد في الدولة العثمانية عن طريق المزايدة على الالتزامات في المقاطعات. وكانت إحدى واجبات الأمير أو الملتزم تأمين جمع الرجال المقاتلين في زمن الحرب الذين يلتحقون بالأمير الحاكم في منطقتهم دون اهتمام لرتبته

أو سيرته فبرز بين اللبنانيين عموماً قادة ومتسلطين أمراء وشيوخ عشائر ووجهاء عائلات طبعت الفترة الأولى من الحكم العثماني في سوريا ولبنان بطابعهم.

وظهرت الدولة العثمانية غير مهتمة بمصير رعاياها، فمنذ بداية سيطرتهم على سوريا ولبنان بدأ الأمراء المعينون للإلتزامات الضرائبية يجمعون ما يفرضونه على الناس دون قانون واضح أو تشريع عادل. كما كانوا يجمعون الرجال في أي وقت ويرسلونهم للحرب في أي مكان يختارونه دون أن يبدو على هؤلاء أي قدرة على مقاومة الواقع الجديد. ومن البديهي أن السلطنة التي لم تهتم بمصير رعاياها لم تهتم كذلك بوجود طائفة (كالشيعة) في البلاد إلا بمقدار ما يشعر الباشا أو الأمير بخطر هؤلاء على سلطته ونفوذه. وبما ان الشيعة في لبنان وسوريا قد أبوا أن يذعنوا لما أنتجته سلطة الباشاوات والأمراء من ظلم وافتراء، فكان من الطبيعي أن يتعرضوا لاضطهاد وعسف الحكام ليس بسبب انتمائهم لمذهب الإمام الصادق، بل لوقوفهم بجرأة بوجه الجور ومقاومة الفوضى التي أشاعها الحكام. فتعرض الشيعة عامة في كل من المناطق الثلاث (البقاع وجبل لبنان وجبل عامل) لأحداث خطيرة طيلة العهد العثماني كانت في بعض الأحيان قريبة إلى درجة الاستئصال، ففرت أعداد كبيرة من الشيعة من المناطق المستهدفة، ليس إلى مناطق شيعية قريبة بل أوغلوا في الفرار حتى وصل بعضهم إلى إيران والهند وليس إلى طرابلس أو بعلبك.

لذلك يمكن اعتماد التسميات الشائعة لهذه المناطق الثلاث وهي منطقة جبل عامل وتشمل كل الجنوب اللبناني. ومنطقة بعلبك وتشمل كل شيعة البقاع. ومنطقة جبل لبنان من حدود نهر الكلب حتى النهر الكبير الجنوبي. يمكن على هذا النحو الحديث عن التاريخ السياسي للشيعة اللبنانيين في كل من هذه المناطق الثلاث. أما في حال الحديث عن التاريخ الحضاري فيجب أخذ لبنان كله كمنطقة حضارية واحدة عانت من تراجع عدد العلماء والمتعلمين وتناقص فيها عدد الأدباء إلا النزر اليسير. وحتى المتعلمون على سبيل القراءة فقد أصبحوا نادرين. وتلاشت الكتاتيب إلا من قلة نادرة. وظلت الازمة تستفحل يوماً بعد يوم حتى مجيء نابليون بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر حاملاً معه إلى الشرق شكلاً جديداً للإدارة والبناء. فأدى ذلك إلى تحول كبير في شكل الأنظمة في

البلاد السورية عامة كما في مصر وبدأت حركة نهضة وانبعاث لبعض الفكر العربي نما وكبر مع الزمن لكنه ترافق مع تراجع خطير في أعداد السكان في طول البلاد وعرضها. وكانت هذه الندرة البشرية سببا في نقص الانتاج وازدياد الفقر فما دخلت البلاد في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ إلا وقد بلغ التخلف في الدولة العثمانية أقصاه وباتت نهاية الدولة العثمانية بداية لقيامة الوجود العربي في الشرق.

٣ - نظام الالتزام العثماني في لبنان

إن حجة الالتزام هي الصيغة القانونية الرسمية التي تحدد الإطار الإداري الشامل لعلاقة الملتزم بالوالي. ولذلك كان المكان المعتمد لانعقاد «مجلس الشرع الشريف» لصياغة نص حجة الالتزام وإصداره بوصفه وثيقة قانونية وشرعية. وإعلانه على الملأ وتسجيله في السجل الرسمي المخصوص هو المحكمة الشرعية بحضور كبار رجال الباشوية وموظفيها كالمفتي والقاضي ونقيب الأشراف والقائمقام والكتخدا ومتسلم المدينة وكاتب العربية والترجمان والصفرجي باش وغيرهم بالإضافة إلى طرفي العقد الوالي والملتزم أو وكيلاً شرعياً ثابت الوكالة عن كل منهما[1].

كان الهم الأول للسلطان العثماني هو تأمين الجباية من الولايات، واعتبر أي نقص في ذلك يشكل تهديداً وجودياً للسلطنة فكان أولى واجبات الباشا في ولايته التفتيش عن أنجع الطرق التي تؤدي إلى أعلى رقم ممكن في الجباية.

لقد جرى تلزيم منطقة بعلبك (وهي مقاطعة واحدة بعلبك والبقاع البعلبكي) وما حولها إلى الأمراء الحرافشة وهم الوحيدين بين الشيعة في لبنان الذين حصلوا على هذا اللقب(أمير). بينما سلم التزام مقاطعات جبل لبنان إلى المشايخ الحمادية وهي مقاطعات جبة بشري والضنية والبترون وبلاد جبيل وكسروان والهرمل. أما في مناطق جبل عامل فلم يحصل أي تلزيم لأحد من وجهائها قبل سنة ١٦٦٠ كان الملتزمون الأوائل في الدولة العثمانية من اتباع ابن الحنش ثم من اتباع ابن الفريخ ثم انتقل هذا الالتزام إلى

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج١ ص ١٠٥ استناداً إلى المؤتمر الأول لتأسيس طرابلس ص ٦٦.

الأمير فخر الدين بن معن أمير جبل الدروز بمقاطعاته الأربع الشوف والجرد والمتن والغرب فالتزم الأمير فخرالدين بداية مدينة صيدا ومنطقتها (أقليمي التفاح والشومر). ثم التزم سنجق صفد الذي كان يتبعه بلاد الشقيف وبلاد بشارة. وبعد سنة ١٦٦٠ حصل بعض وجهاء العشائر في بلاد بشارة والشقيف على التزام بلادهم فكانوا يدفعون ما يترتب عليهم للباشا مباشرة ثم انتقل هذا الالتزام إلى الأمراء الشهابيين الذين اضطروا لمحاربة أهل جبل عامل بسبب ذلك على مدى وجودهم في كل مرة حصلوا فيها على التزامات جديدة في جبل عامل.

كذلك واجه الملتزمون لمناطق جبل لبنان حرباً مستمرة في كل مرة لزّم الباشا في طرابلس بلاد الحمادية لغيرهم. فكان الباشا يضطر لتشكيل الحملات العسكرية ضد الحماديين في جبل لبنان لسبب معلن هو الامتناع عن دفع مال السلطان. ويمكن فهم الحروب التي وقعت بين الحرافشة في بعلبك وبين باشاوات دمشق من نفس النظرة، فتلزيم بعلبك لغير الأمير الحرفوشي الشرعي كان يؤدي دائماً إلى اشتعال الحرب حتى يرغم الباشا على إعادة الأمور إلى نصابها وإعادة الأمير الحرفوشي إلى حكم إمارته. أما مدة الالتزام عادة فهي سنة واحدة فكان السكان يتوقعون أن تقع الحروب في البلاد عند انقضاء مدة الالتزام أي أن الحرب صارت عادة سنوية.

أما تاريخ الشيعة السياسي في العهد العثماني فسيكون مقسوماً ضمن ثلاث مناطق يتم البحث في كل واحدة منها بشكل مفصل ودون ربط فيما بينها لأنها لم تشكل منطقة واحدة. فلم تتحد ولم تتحالف ولم تظهر ذلك الاهتمام الفعلي فيما يقع من أحداث خارج حدود منطقتها إلا على صعيد ضيق جداً وفي فترات متباعدة. أما المناطق الثلاث فهي: جبل عامل، وبعلبك ومعها البقاع، وجبل لبنان

ولا يشمل التقسيم منطقة جبل الدروز أو المقاطعات الدرزية الأربع وهي الشوف والجرد والغرب والمتن التي تعتبر امتداداً سياسياً لإمارة التنوخيين التي استمرت لقرون عديدة. وقد أصبح جبل الدروز شبه متحد عندما حكم الأمير فخر الدين بن معن مقاطعة الشوف وتمدد حكمه ليهيمن على باقي المقاطعات. ثم تمكن بالالتزام أن يحكم مقاطعة صيدا ومنها امتد بنفس طريقة الالتزام من حكم بلاد بشارة وبلاد الشقيف فأصبح كل

جبل عامل تحت نفوذه طيلة عهده تقريباً. وقد عادت إمارة جبل الدروز إلى حجمها الأصلي بعد مقتل الأمير فخر الدين بن معن. لكن الإمارة اتسعت بعد سنة ١٦٩٧ عندما حكمها آل شهاب التيامنة فشملت منطقة كسروان وأقليم جزين ثم اتسعت بالالتزام والنفوذ لتستولي على بلاد جبيل من الحماديين ومنها استولت على معظم جبل لبنان.

٤ - تعريف مناطق شيعة لبنان في العهد العثماني

جبل عامل:

يشوب التاريخ المكتوب لجبل عامل كثير من اللغط والمبالغة في ذكر الحوادث كما تسود عصبية الولاء لزعامة، أُريدَ لها أن تكون تاريخية، فَكُتِبَ التاريخ العاملي من أجلها لا من أجل الجبل وأهله. لقد استغرق كُتّاب التاريخ العاملي من الشيعة قسطاً وافراً من كتابتهم ليثبتوا أنساباً لبعض الأسر فجاءت الأنساب مختلطة ومختلقة وغير مترابطة حتى ذكر وجود اختلاف بين إسمي أخوين من الزعماء المشهورين. والسبب في ذلك ليس في قلة المصادر ولا في كثرة الأسماء، ولا في طول الزمن. السبب في أن من كتبوا أرادوا أن يكتبوا ما يشتهون وليس ما هو واقع تاريخي.

معظم مؤرخي جبل عامل وكُتّابه انطلقوا في كتابتهم بعد اطلاعهم على ما كتبه مؤرخو جبل لبنان المسيحيون خاصة. وأرادوا أن يقلدوهم فاخترعوا ألقاباً لأمراء واخترعوا إمارات ليحكمها الأمراء ونسجوا على هذا المنوال واحداً بعد آخر حتى اعتقد كثيرون أن التاريخ العاملي هو تاريخ بعض الرجال (الأمراء والمشايخ الافتراضيين) الذين دافعوا عن «الشيعة» وحموا وجود التشيع في الجبل بقوتهم وحكمتهم. وبعد البحث في أسماء الزعماء الافتراضيين تبيّن أنهم (باستثناء الشيخ ناصيف النصار والشيخ قبلان الحسن وبعض مشايخ آل منكر وصعب) أشخاص عاديون جداً، وهم في أحسن الأحوال كانوا وجهاء قرى أو وجوه أسر وعائلات صغيرة.

لم يعرف جبل عامل وجوداً قبلياً أو عشائرياً شبيهاً بذلك الذي وجد في إمارة بعلبك وفي جبل لبنان. كانت تتوزع جبل عامل أسر متشابهة مرتبطة بولاء للأئمة من آل محمد ويعتنقون مذهب الإمام الصادق دون تزييف أو غلو. لقد مثلوا منذ زمن مبكر هذا الانتماء

واستمروا عليه في كل الظروف وفي كل الأزمنة. وقد حظوا باحترام كل السلاطين والحكام والأمراء الذين تداولوا المنطقة منذ زمن مبكر. فليس في التاريخ المعروف أنهم تعرضوا لحملات ملاحقة ومطاردة واستئصال أو تذويب شخصية أو ما يشبه ذلك مما وقع في المناطق الشامية الأخرى. لقد تشيع العامليون قبل كل الشيعة في العالم وهم أسبق أهل الأرض إلى هذا المذهب، وولاؤهم لعلي عليه السلام لم يمس ولم يتغير رغم تغير الدول والأقوام والشعوب والقبائل. وهذا يفترض إعادة قراءة متأنية لمجرى التاريخ العاملي من حيث هو تاريخ شيعي أو علمائي أو قومي أو قبلي. فمن كتب عن جبل عامل من الكتاب العامليين ، وكذلك من نسخ عنهم من المؤرخين قد خلط الأمور بعضها ببعض، فهل يقرأ التاريخ العاملي على أنه تاريخ شيعي فقط؟ أم يقرأ على أنه تاريخ بعض الأسر وأنسابها ؟ أم يقرأه كتاريخ لجماعة دافعت عن الوجود العربي لغة وحضارة أمام الغزوات الغربية والغريبة؟ أم يكون التاريخ العاملي تاريخاً وطنياً لمنطقة من بلاد الشام واجهت العدوان فحاربته وعاشت السلام فأنتجت فيه ما ينتجه أي شعب حضاري علماً وازدهاراً ومنافع؟

إن الحقيقة التي لا جدال فيها هي أن الشعب العاملي شعب أصيل يمتلك خصائص وخصال قل أن تتشابه مع شعب آخر ليس في الشام فقط بل في كل العالم. قد يعتقد البعض أن في الأمر مبالغة أو عنصرية ولكن الحقائق التاريخية الدامغة تدفع لتأكيد مثل هذا الاعتقاد حتى ولو لم يهتم أبناء الجبل به. إن مساحة جبل عامل لا تزيد كثيراً عن الفي كيلومتر مربع. وعدد سكانه لم يكن ليجاوز نسبة واحد من مائة وعشرين من عدد الشيعة في العالم في التاريخ الإسلامي منذ بدء انتشار الإسلام وحتى العصر الحديث. وهي نفس النسبة التي كان كنعانيو منطقة صور وصيدا يساوونها في زمن الأمبراطورية الفارسية القديمة، وهي نفس النسبة تقريباً التي كانت لسكان المنطقة بالنسبة لمملكة سلوقس ولاحقاً للأمبراطورية الرومانية. ورغم ذلك فإن أي إحصاء لما قدمته هذه المنطقة للحضارة الإنسانية وعدد أسماء المشهورين منها يؤكد تفوق هذه البلاد. ورغم أن الجدل في مثل هذه الأمور لا يوصل إلى إثبات علمي حقيقي، ولكن المقارنة توضح ذلك كما أوضحت في الزمن الحاضر تفوق هذه المنطقة الصغيرة في أي ميدان خاضت

فيه قياساً لمجموع العرب والمسلمين في العالم مع أن النسبة تتشابه مع النسبة في الماضي.

وقناعة بهذا الوصف فإن الحديث عن تاريخ جبل عامل يجب أن يستهدف التأريخ للشعب العاملي بكل مكوناته ومقوماته. لم يكن الجبل العاملي إمارة لأحد ولا محمية لعائلة ولا مربط فرس لبيك أو وجيه أو من يشبههم، ولم يحكم من أمير ولا من بيك ولا من وجيه، جبل عامل في أسوأ أيام التسلط العثماني المتخلف كان يحكم من «جمعية بني متوال» التي يتمثل فيها كل وجهاء العائلات باعتبارهم ممثلين لعائلاتهم. ومن علماء الدين الكبار باعتبارهم يمثلون المرجعية الدينية. وكان لا بد أن يبرز من جمعية بني متوال أسماء قادة وأبطال ورجال حرب كما برزت أسماء علماء وفقهاء وأدباء. فلم يدّع أحد أن شيخاً من مشايخ العائلات قد تسلط بالقوة على أحد كما كان يحدث في جبل الَدروز مثلاً (الشوف وما حوله). ولم يذكر أحد لا من المحبين ولا من المعادين أن حاكماً ما فرض خوة على أبناء الجبل أو ساعد جلاوزة الباشاوات على جمع مال بالقوة من أهل بلده. ولا يذكر أحد في التاريخ (الحقيقي وليس الافتراضي) أن أحداً من وجوه العائلات في جبل عامل قد قاد جيشاً للسلب والنهب في جبل عامل. ما يذكره الكتاب الذي نقلوا صوراً حقيقية عن أهل الجبل هو ذلك التضامن والتآلف ووحدة المصير والواقع والتشابه في المعيشة فلا قصور للأمراء خارج القلاع والأبراج التي استعملت للإدارة والدفاع (رغم ادعاء البعض غير ذلك). لقد كان جبل عامل حديقة لأبناء الجبل يدافعون عنه إذا ما اعتدي عليه. وكان شوكاً في أشداق باشاوات الدولة العثمانية يرونه صغيراً فيظنونه ضعيفاً حتى إذا ما واجهوا الواقع انقلبت الصورة عندهم ففروا عنه بالخيبة. وفي زمن الضيق الأشد أيام حكم أحمد باشا الجزار لولاية صيدا (١٧٧٦ ـ ١٨٠٤) كان علماء الدين يديرون شؤون الشعب بصبر فيجمعون ما فرضه الجزار على أهل البلاد ويدارون الأمور حتى تمكنوا بصبر وجلد أن يتجاوزوا مدة ذلك الطاغية واستعادوا ما خسروه في مدة بسيطة. بينما فشلت مناطق فلسطين ودمشق والبقاع وجبل الدروز في ذلك، وخرجت من حكمه محطمة مهشمة تغيرت فيها الوقائع وتعرضت الجماعات المختلفة إلى أشد أنواع الاضطهاد والتنكيل بغض النظر عن معتقداتها. لكن الذين ارخوا للحالة افترضوا

أن الجزار قد اضطهد جماعة وعفا عن أخرى، وأن ما فعله كان عداءً لطائفة بذاتها أو قهراً لجماعة بعينها. مع أن الوقائع تثبت أن الجزار كان أعدل الظالمين، فلم يترك باباً من أبواب التنكيل إلا واستعمله بحق كل من تمكن منه، الشيعة كما السنة كما الدروز كما المسيحيين، الفلاحين كما التجار كما الكتبة والمحاسبين، أصحابه، مماليكه، جنوده... لم يسلم من بطشه أحد إلا بحبل من اللّه.

بعلبك والبقاع في العهد العثماني: اختلف وضع مدينة بعلبك وما حولها في العهد العثماني عن جبل عامل من حيث الإدارة ومن حيث السكان. ففي مدينة بعلبك كانت غالبية السكان من غير الشيعة وأكثرهم يتبعون مذاهب السلطان، فيما تولى حكم المدينة بالوراثة أمير شيعي ينتمي إلى أسرة آل حرفوش التي تمكنت ببراعة من المحافظة على الإمارة طيلة قرون أربعة رغم محاولات دؤوبة من ولاة دمشق لإزاحتهم عنها. وقد تسبب ذلك بكثير من الحروب حتى خربت معظم المنطقة حيث كان الباشا العثماني في كل معركة يقدم على حرق وإتلاف المواسم وعلى قطع الاشجار ونهب المحاصيل وسلب البهائم. وقد اضطر الأمراء الحرافشة في ردات أفعالهم على تصرفات الباشا إلى تهجير السكان أكثر من مرة وتحويل الإمارة إلى أرض محروقة لا يمكن الاستفادة منها مما يضطر الوالي إلى إعادة تكليف الأمير الحرفوشي بإدارة الإمارة والتزام جبايتها حتى لا تحرم خزينة الولاية من عائداتها.

وفي بعض المواقف الساذجة كان أحد أمراء بعلبك يطلع إلى تلة الشيخ عبد اللّه ليراقب المدينة ونموها ثم يأمر بهدم ما يستجد من أبنية فيها حتى لا تصبح مطمعاً للباشا فيعين عليها نائباً عثمانياً. وهذه الطريقة التي تبدو ذكية برأي البعض قد منعت من نمو المدينة لمدة طويلة. كما تعاون المرض والجراد والجوع على تحجيم مدينة بعلبك وما حولها حتى تدنى عدد السكان بشكل مخيف في نهاية القرن الثامن عشر وأصبحت المدينة التي كانت تعد حوالي مائة ألف ساكن أيام الأيوبيين لا تزيد عن خمسة آلاف ساكن عند نهاية القرن الثامن عشر. وتحولت أريافها الخصبة إلى أراضٍ جرداء يقصدها بعض البدو في مواسم الرعي ثم يغادرونها.

لقد تعرضت بعلبك في العهد العثماني إلى مجموعة من النكبات كان من أخطرها

تلك التي وقعت اثناء حكم الأمير فخر الدين بن معن لجبل الدروز حيث قام هذا الأمير بهجوم سنة ١٦٢٣ على منطقة البقاع فدمر ما تمكن من تدميره وقضى نهائياً على كرك نوح إحدى أهم مراكز الشيعة في بلاد الشام والتي لم تقم لها قائمة بعدها. كما حاول تدمير قلعة بعلبك الاثرية لكنه لم يتمكن بسبب عظمة الصخور المبنية منها. كما أمر رجاله من جبل الدروز بنهب ممنهج لمنطقة البقاع مما أفقر السكان لمدة طويلة فلم تعد لإمارة بعلبك قدرة على جباية الإلتزام المالي للسلطان مدة سنوات. لقد كان ما فعله الأمير فخر الدين بن معن كارثة فظيعة لم تمس الوجود الشيعي في البقاع وبعلبك بقدر ما مست الطوائف غير الشيعية، وكان من عواقب ذلك أن السلطان حين حاكم الأمير فخر الدين ذكّره بتخريب بعلبك وحكم عليه بالإعدام نتيجة جريمته هذه.

جبل لبنان في العهد العثماني: ليست تسمية «جبل لبنان» في العهد العثماني متساوية أو متناسبة مع ما يدعى اليوم «جبل لبنان» فما كان يعرف ب «جبل لبنان» في العهد العثماني كان يشمل مناطق كسروان وبلاد جبيل بما فيها جبة بشري والزاوية وجبل عكار حتى المرقب. وقد سكن هذه المناطق في فترات مبكرة من التاريخ الإسلامي جماعات من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية إلى جانب بقايا السكان البلديين الذين عاشوا في الجبل قبل مجيء المسلمين. وهؤلاء البلديون هم بقايا لشعوب متعددة الأعراق جلهم من الساميين الذين عاشوا في البلاد السورية قبل الإسلام وهم بمجملهم متحدرون من بقايا الكنعانيين والأراميين وعرب إيطوريا لكنهم اتحدوا في بيئة ثقافية مشتركة فاستعملوا اللغة الأرامية (السريانية) في كتاباتهم ودانوا بالمسيحية منتمين إلى كنائس مختلفة فكانت تقع بينهم خلافات وحروب محدودة. وعندما دخل الإسلام في المعادلة انتقل عدد من أبناء القبائل العربية ليستوطن في مناطق الجبل خاصة في الأراضي الزراعية المروية. وعندما وصل العثمانيون إلى حكم البلاد كان في جبل لبنان عدد من الأسر الشيعية الكبيرة لا زال أحفادهم إلى اليوم ينتشرون في مناطق الهرمل وبلاد جبيل وفي البقاع البعلبكي. وقد تمكن هؤلاء من حكم المنطقة بقوة الأمر الواقع مدة طويلة بزعامة أسرة حمادة. لكن هذا الحكم لم يؤد إلى قيام كيان سياسي مستقل أو قابل للتطور بل احتفظ الحماديون والعشائر الجبلية بنفس المقومات الحضارية التي عرفوها منذ استيلائهم على

الجبل. لقد أدت الحروب المتواصلة وانتقام الباشاوات وأتباعهم من حكام جبل الدروز إضافة إلى عوامل الطبيعة القاسية من أمراض ومجاعات إلى تخريب المنطقة وهجرانها من سكانها بالتدريج ليحل مكانهم سكان آخرون مهاجرون من المناطق السورية جلهم من المسيحيين فأدى ذلك إلى تحول جذري في تركيبة السكان الديموغرافية وتحول جبل لبنان ليصبح في منتصف القرن التاسع عشر إلى أغلبية مسيحية. وقد ساهم ضعف الدولة العثمانية وتواطوء القناصل الأجانب مع بعض الفعاليات الناشئة في الجبل إلى تهجير قسم كبير من الذين بقوا في موطنهم الأصلي فانتقلت أسر وعشائر بكاملها أو بأغلبيتها إلى منطقة بعلبك.

الفصل العاشر

جبل عامل في العهد العثماني

١ - تعريف جبل عامل ولمحة من تاريخه

٢ - الأسر العاملية المشهورة

آل سودون

آل شكر

آل علي الصغير

آل منكر

آل صعب

١ - تعريف جبل عامل ولمحة من تاريخه:

يتفق كتاب ومؤرخو جبل عامل على تحديده بالمنطقة الممتدة من نهر الأولي (إلى الشمال من صيدا) شمالاً إلى وادي نهر القرن (قرب رأس الناقورة) جنوباً. ومن أعالي الجبال المطلة على أغوار الحولة وطبرية شرقاً إلى شاطىء البحر المتوسط غرباً. وهذا التحديد الجغرافي لا يبدو دقيقاً لاستبعاده منطقة البقاع الغربي وما فيه من قرى وبلدات عرف أبناؤها تاريخياً بانتمائهم العاملي. كما أن كثيراً من أسماء علماء الدين المنتسبة إلى جبل عامل كانت تنتمي إلى البقاع وبعلبك وكسروان فيما لم ينتسب إلى جبل عامل أبناء القرى غير الشيعية في منطقة صيدا وجزين. لذلك فمن الأكيد أن النسبة إلى جبل عامل التي حددت الموقع والمكان بالتلازم مع الإنسان هي حقيقة دينية عقائدية مذهبية. فالعامليون شيعة إماميون آمنوا بهذا المذهب واعتقدوه منذ أن وجد التشيع في العالم، وربما كانوا أسبق أهل الأرض للإيمان بإمامة علي والأئمة من ذريته كما يعتقد معظم علمائه. واتخذوا من التشيع الإمامي وسيلة للتعبد وطريقة للعيش ومارسوا معتقدهم في أدق علاقاتهم الاجتماعية والسياسية لم يحيدوا عنها ولم يغيروها رغم عداوة الدول وجور الحكام الذين لحكمة ما لم يكونوا شيعة إلا في فترات محدودة جداً. فكان العامليون يعيشون التجربة الكبرى، وصبروا في كل المراحل، وقاوموا في كل العصور. ولم يثبت في مدار الزمن عليهم أنهم مالؤوا كجماعة سلطاناً جائراً ولم يعطوا الدنية في دينهم ودنياهم. وخاضوا حروباً ومعارك في مواجهة جيوش أكثر منهم عدداً وعدة فما استكانوا ولا ضعفوا. وكان الفرج يأتيهم في أصعب الظروف حتى صدقت رواية حديث ينسب لأحد الأئمة «ما أراد أحد بجبل عامل شراً إلا قصم اللّه ظهره». وقد جرت في فترات الشدائد تجربة هذا الحديث ومدى صدقه فتبين أنه حق ولو كان راويه ضعيفاً.

لكن جبل عامل لم يعرف الاتحاد السياسي في تاريخه، بمعنى أنه لم يتوحد في إدارة سياسية واحدة بل بقيت مقاطعاته الثلاث وفي بعض الأحيان أربع تدار كل واحدة من

حاكم أو ملتزم. وربما توارث أبناء جبل عامل هذه المشكلة من العهود القديمة يوم كانت الممالك الفينيقية المدينية تحكم باستقلال ذاتي. فلم تقم في هذه البلاد حكومة واحدة متحدة في التاريخ.

لقد تقسم جبل عامل بالتبعية السياسية إلى ولايات وعواصم مختلفة بحيث لم يكن هناك ما يمكن تسميته «حكومة جبل عامل» أو «إمارة جبل عامل». وهذه النقطة سيكون لها أهمية قصوى عند الحديث عن سلطة أو نفوذ بعض زعماء أو وجهاء الأسر العاملية. لأن ورود كلمات أو تعابير عن «حكم جبل عامل» أو «إمارة جبل عامل» هي خيال لا حقيقة له.

في العهود العربية الأولى كانت منطقة جبل عامل الجنوبية (بلاد صور) تتبع لولاية الأردن وعاصمتها مدينة طبرية. بينما كانت مناطق الشقيف وصيدا وجزين تتبع ولاية دمشق. واستمر هذا التقسيم قائماً طيلة العهد العربي حتى سنة ١٠٩٩ حين استولى الأوروبيون (الصليبيون) على الساحل السوري (بما فيه لبنان) فأصبحت الإدارة في جبل عامل مختلفة قليلاً عن العهد العربي إذ أصبحت صور وتبنين منطقتين منفصلتين في القسم الجنوبي من جبل عامل بينما تبعت منطقة الشقيف وصيدا لحاكم مدينة صيدا فيما احتفظت جزين وما حولها باستقلال ذاتي كان يقوى أو يضعف حسب قوة الحكومات الإسلامية في دمشق.

وعندما بدأت جيوش المسلمين تستعيد السيطرة على البلاد التي احتلها الصليبيون ابتداءً من سنة ١١٨٧ وتحديداً بعد معركة حطين سقطت المنطقة الجبلية من جنوب جبل عامل أي منطقة تبنين بيد المسلمين ومعها قلعة هونين، وكذلك سقطت قلعة شقيف أرنون، فأصبحت هذه القلاع الثلاث حاكمية عسكرية تولاها عدد من قادة جيش الأيوبيين. أما مدينة صور وما حولها فقد لبثت مع الصليبيين بعد استعادة تبنين لمدة تزيد عن قرن. فيما تم تحرير مدينة صيدا مدة محدودة عاد الصليبيون واستردوها بعد بضع سنوات. فأصبح الساحل العاملي بيد الصليبيين ومقسوماً إلى قسمين صور وصيدا. أما الجبال فأصبحت مع المسلمين. فيما حافظت جزين على استقلالها. وتمكن الصليبيون على مرحلتين من استرداد القلاع الجبلية تبنين وهونين وأرنون باتفاقيات صلح مع الحكام الأيوبيين الذين

كان حكمهم وبالاً وشراً على البلاد التي حكموها لحروبهم المتصلة فيما بينهم من أجل الزعامة والتسلط.

في عهد المماليك (أي من سنة ١٢٦٠ إلى سنة ١٥١٦) عادت الأوضاع القديمة إلى ما كانت عليه. فأصبحت بلاد صور ساحلاً وجبلاً والتي ستعرف في القرن الخامس عشر ببلاد «ابن بشارة» تابعة لصفد واستبدل اسم «جبال صور» ب «جبال صفد». وصارت قلاع تبنين وهونين وأرنون تابعة لمملكة أو نيابة صفد. بينما تبعت جزين وصيدا لولاية دمشق. وبعد أن استولى العثمانيون على البلاد أعادوا رسم الحدود الإدارية في البلاد السورية فاصبحت دمشق عاصمة الولاية التي يتبعها لأول مرة كل جبل عامل. لكن الباشوية قسمت هذه البلاد إلى سناجق والسنجق إلى نواحي يتولى التزام كل ناحية منها حاكم مختلف مما فرض حال من عدم الاتحاد السياسي أو الإداري ضمن الباشوية. فوجود «حكومة جبل عامل» أو «إمارة جبل عامل» أو «أمير جبل عامل» أو ما يشبه هذه التعابير غير حقيقي ولا يمكن الأخذ به. لذلك سيكون نقاش دور زعماء الأسر العاملية في الفترة العثمانية يستند في جزء أساسي منه إلى هذه الحقيقة التاريخية.

مع انتهاء العهد المملوكي انتهى الوجود السياسي لأسرة بشارة بشكل غامض. فما كانت كتب الحوليات وكتب السير تتحدث عنه في عهد المماليك عن أفعال آل بشارة وقدرتهم ومراتبهم... لا يظهر مثله عن أي زعامة بشارية صغيرة كانت أم كبيرة. لقد اختفت عائلة بشارة عن المظهر السياسي الذي عاشت فيه طيلة قرن ونصف من الزمن. كما لم يعد لرجالهم أي ذكر في كتب التاريخ المعاصر.

لم يبق هناك حاكم أو أمير أو ما يشبهه كما كان الحال مع بني بشارة، بل تعيّن ملتزم بشروط الولاة، أي مجرد جابي عادي يلتزم جمع الضرائب من الناس بالقوة في أكثر الأحيان فتقع مظالم كثيرة على الناس دون أن يكون هناك أي أمل في تغيير الوضع القائم. فلا وجهاء الأسر كانوا على مستوى من القوة ليغيروا الواقع، ولا كانت لهم أصلاً رغبة في التغيير ما دامت السلطة القائمة تؤمن لهم بعض المصالح المحدودة. فتحول بعض شيوخ الأسر الحاكمة إلى قوة غاشمة ظالمة للناس. وفي هذه الحالة لا يمكن الحديث عن ظلم السلطان العثماني أو الباشا ورد السبب في ذلك للانتماء المذهبي، بل يمكن تحميل جزء

كبير من المسؤولية لأولئك الحكام المحليين الذين مالؤوا الولاة وساعدوهم على ظلم أبناء بلدهم.

أما الكلام عن «حكومة في جبل عامل» في القرن السادس عشر فهو ضرب من الخيال، فليس الجبل وحدة سياسية لها إدارة واحدة ونظام قائم، بل ثلاث مقاطعات مقسمة بهذا الشكل لتسهيل الجبايات وجمع الإتاوات. فأهل جبل عامل الشيعة يتساوون ويشتركون مع كل القاطنين في المناطق المحيطة بهم من السنة والدروز والمسيحيين...إلخ. وما كان يقع في تبنين وعيناثا وأنصار كان يقع مثيله في عكا وغزة وعجلون، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى. كما لم تشتهر أسماء كثيرة من بين رجال جبل عامل لعدم وجود أحداث كبرى يقوم بها رجال كبار، وليس السبب في ذلك هو تجاهل للتاريخ العاملي كما يحاول كثيرون التلميح إليه، ولكن لعدم وجود ما يكتب في ذلك التاريخ الافتراضي.

لقد اشتهر وجود بعض الأسر العاملية التي كان لها دور محلي ليس في الحكم، بل في تنفيذ ما يطلبه الملتزم منهم. يلاحظ في هذا المجال أن أحداً من جبل عامل طيلة القرن السادس عشر ومعظم السابع عشر لم يلتزم أي منطقة حتى في الجبل العاملي ذاته، وهو الالتزام الذي يؤدي بالملتزم للحصول على اللقب الرسمي (أمير أو آغا أو....) ربما يعزى السبب للتمييز المذهبي، وربما لأسباب أخرى. ما يعرف من تاريخ جبل عامل في القرن السادس عشر سيظل محصوراً بتلك الحفنة من علماء الدين وبعض الشعراء الذين استطاعوا أن ينتجوا إرثاً حضارياً أهم وأكبر بكثير من بعض الأثر السياسي الذي كان يمكن أن يتركه أمير أو آغا أو أفندي، فيما لو وجد.

أدى سقوط دولة المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ إلى سقوط رجالاتها ونظمها وأمرائها الذين كانوا يحكمون البلاد. وقد تم هذا السقوط بالتدريج وليس دفعة واحدة. لقد وصف المعاصرون لتلك الأحداث الطريقة التي سيطر فيها الجيش العثماني على المدن الشامية والتي تشبه عملية احتلال أجنبي مقيت لم يتقبله جمهور السوريين واللبنانيين عموماً، ولكنهم لم يستطيعوا مقاومته لاسباب كثيرة من أهمها تردي أحوال البلاد في الفترة الاخيرة من حكم المماليك حيث قضت الأوبئة والمجاعات والحروب المتلاحقة بين الأمراء على إمكانية قيام أي حركة عسكرية قادرة على مواجهة الدولة

الجديدة التي بدأت منذ اليوم الاول لوصولها إلى ممارسة أقسى ما يوصف من العسف والظلم بحق كل الرعايا.

كانت الإدارة الجديدة إدارة سياسية - مالية غير مستقرة اعتمد فيها مبدأ الإلتزام كشرط أساسي ليتمكن (الملتزم) من ممارسة إلتزامه والذي يتحدد بأمرين أساسيين وهما: تأمين جمع المال من السكان موضوع الالتزام. وثانياً تأمين أعداد من الرجال يكونون مستعدين للالتحاق بميادين الحرب حين الطلب وعند الحاجة. وعليه فإن النظر إلى وجود حكام محليين في المقاطعات والنواحي هو صحيح بالإسم وغير صحيح بالفعل. فمن يسمى حاكماً كان ينفذ أوامر الوزير أو الباشا أو الصدر الأعظم أو السلطان مهما كانت تلك الأوامر جائرة.

لقد استعان الملتزمون بمساعدين لجمع مال الالتزام كانوا عادة من وجهاء القرى وشيوخ العائلات الذين تابعوا الطرق التي كانت متبعة في عهد المماليك حول تقسيم الأراضي بين الأسر الذي كان يتم كل ثلاث سنوات أو حسب الظروف الطارئة كانتشار الاوبئة. فكان وجيه العائلة أو شيخها (إذا كانت كثيرة العدد) يشرف على توزيع الأراضي الزراعية ويحدد أراضي الرعي ومناطق الأوعار للحطب.... واستمر هذا التقليد متبعاً حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما شرّعت الدولة العثمانية الطابو وجرى مسح وتمليك الأراضي.

لقد أدى هذا النظام إلى بروز مجموعة من وجهاء الأسر العاملية الذين اشتهرت أسماؤهم لقيامهم ببعض المهمات في الدفاع عن قراهم وأسرهم وكان الأكثر قوة بينهم يعرف بشيخ المشايخ والذي لم يكن يحصل بسبب ذلك على أي امتيازات إضافية.

لم يكن في جبل عامل إقطاع فالدولة العثمانية لم تقم عائلة بذاتها في مقاطعة تجعلها فيها بشكل مستمر. ورغم إصرار كثير من كتاب جبل عامل على الحديث عن إقطاع وإقطاعية في الجبل إلا أن الوقائع تدحض هذه الفرضية. فالبلاد كانت أصغر من أن تقتطع كما أنها كانت تقع تحت أعين الباشاوات مباشرة منذ سنة ١٦٦٠ وحتى قيام ولاية بيروت. أما الحديث عن إقطاعية في جبل عامل فهو محاولة من بعض الكتاب لتقليد

كتاب جبل الدروز حيث وجدت إقطاعيات متوارثة منذ عهد المماليك. أما الحديث عن الأسر العاملية وعن حكمها وحكم جبل عامل فقد عُرض بكثير من المبالغة عند كتاب جبل عامل ونسب إلى بعض وجهاء القرى من الأمور ما لا يمكن قبوله عقلاً. لقد كتب مؤرخو جبل عامل في القرن العشرين فحاولوا جاهدين إضفاء صورة من الاستمرارية التاريخية لبعض زعماء الشيعة في الدولة اللبنانية. فاصطنعوا لهم تاريخاً افتراضياً ليس فيه من التاريخ إلا الإسم، فمعظم الأشياء التي تحدثوا عنها يظهر الخطأ فيها واضحاً لا لبس فيه. وحتى أسرة مشهورة في جبل عامل مثل أسرة علي الصغير صَعُبَ على مؤرخين عامليين عاشوا في زمن قريب من أصحاب الشأن من تحديد نسب لبعض أشهر الزعماء، رغم اهتمام من يكتبون ب «علم الأنساب». ثم تبين أن الخطأ قد بدأ من اعتمادهم على مصادر لا تعرف المادة التاريخية التي تكتب عنها. ومن أمثلة ذلك الحديث عن الأمير بشارة الذي يفترض أنه عاش في الحقبة الصليبية فتصبح حكايته شبيهة بسيرة عنترة ابن شداد رغم ان عنترة حقيقي وبشارة افتراضي. فقط وجدوا إسم أمير من بني بشارة فأحبوا أن يجعلوا له نسباً يناسب معتقداتهم فجعلوه عربياً يمنياً مسلماً شيعياً إمامياً مجاهداً... إلخ. ثم تبين أنه لم يعش في كل تلك الفترة أمير بهذا الإسم ولا بهذه المواصفات. فكان صعباً أن يمحوها من التاريخ الذي اصطنعوه وكان أصعب الاستمرار في هذه البدعة الخطيرة. لذلك فكل حديث تاريخي يكون عن الأسر العاملية سيكون مأخوذاً بحذر ويخضع للمناقشة والتشريح للتأكد من صدق ما يروى عنه من أخبار.

٢ - الأسر العاملية المشهورة

ينتمي النظام الاجتماعي في المناطق اللبنانية إلى النظام العربي الشائع والمعروف تاريخياً بأنه نمط من التلاحم الأسري والعشائري حيث تعتبر العائلة نواة المجتمع. وتتآلف مجموعة العائلات التي ترتبط برابطة النسب فيما بينها لتشكل أسرة كبيرة واسعة بشكل عشائري شاع في المجتمعات العربية قديماً وحديثاً. ما يجعل هذا النظام قوياً ومستمراً هي مجموعة المنافع والمصالح التي تحصل عليها كل عائلة. فهذا النظام يؤمن الحماية الذاتية للعائلات وعناصرها حيث يتضامن الجميع في الدفاع عن وجودهم، كما يتجمعون لمؤازرة الضعيف ومناصرة بعضهم البعض. من هذا النظام الاجتماعي نشأت

مسألة الثأر العشائري الذي لا زال شائعاً على طريقة عرب الجاهلية حيث تلجأ الأسر للثأر من أي شخص من أسرة معادية حتى لو كان بريئاً، فيضطر كل فرد من الجماعة للاحتماء بجماعته في كل حين.

يتزعم التجمع الأسري أو العشائري حسب الطريقة العربية التقليدية شيخ الأسرة الذي هو بالضرورة الأقدر على مواجهة الأزمات التي تحيق بجماعته بما يجتمع لديه من أقرباء أشداء يشكلون عصب قوة الأسرة (العشيرة). هذا الشيخ يكون هو الزعيم والقائد وصاحب الرأي الفصل وإليه يعود جميع رجال الأسرة - العشيرة في حل مشاكلهم. أما مجموع العشائر والأسر فإنها تجتمع في تحالفات وفدراليات أسرية تكون الزعامة فيها للأسرة الأكثر عدداً أو الأغنى مالاً حيث يكون الجاه مرتبط عادة بالغنى وعديد الرجال.

هذا النظام يبدو ثابتاً من الخارج متغيراً من الداخل. فهو نظام إجتماعي مستمر عند العرب منذ التاريخ المعروف وإلى الآن. فهو ثابت في الشكل، أما في الداخل فيتغير بتغير قوة الأسرة المتزعمة بين فترة وأخرى، ويكون هذا التغيير مرتبطاً بمدى استمرار قوة القبيلة المتزعمة. فارتباط الجاه بمقدار ثروة القبيلة وعدد رجالها المحاربين يعطي الفرصة لبروز وتقدم عائلات جديدة على حساب قديمة فقدت في ظروف معينة ثروتها أو تقلص عدد رجالها. وكثيراً ما كان يحدث مثل هذا التغيير بعد الحروب أو المجاعات أو الأوبئة، بحيث تبرز أسماء جديدة على حساب قديمة. يمكن أخذ أمثلة عن عائلات بسطام والشاعر ومستراح وداغر وشكر ومنكِر وصعب وعلي الصغير وسودون وحمادة وحرفوش... التي سادت حيناً من الزمن ثم ضعفت فحل محلها أسر أخرى.

أما قضية أنساب الأسر الشيعية في لبنان فمسألة إفتراضية لا صحة لها ولا يمكن الأخذ بها وقبولها كما هي. حتى الأسر التي تدعى انتماءها للأشراف. فقد ثبت في كثير من الكتابات التاريخية أن كثير من الناس كانوا يشترون شجرة عائلة مزيفة بمبلغ من المال (أربعون ديناراً في عهد المماليك البرجية). كما فعل ذلك كثيرون في العراق حيث كانت تباع شجرات أنساب بمبالغ أقل، حتى أصبح سكان بعض المدن بكاملهم ينتمون إلى أسر شريفة. بالإضافة إلى أن الحروب الكثيرة التي لم تتوقف في المنطقة قد نالت من صفاء الأنساب حيث كانت النساء تتعرضن للاغتصاب فكانت الولادات الناتجة عن

ذلك تضاف إلى أنساب الأزواج الشرعيين وليس إلى المغتصبين. ويكفي التذكير بأن ثورة الزنج في البصرة في القرن التاسع لم تترك امرأة حرة ولا بكراً في جنوب العراق. كما فعل المغول والتتار طيلة ثلاثة قرون فظائع حتى اختلطت الانساب واختفت أسماء قبائل عربية بكاملها. فمن أصل أسماء عشرات القبائل العربية القديمة لا ينتسب أدعياء الأنساب إلا إلى بضعة أسماء فقط، وفقط لربط إسم المنتسب لجد من الأمراء أو الزعماء أو الاشراف وكأن هؤلاء فقط تركوا أنسالاً بينما عجز الناس العاديون عن ترك من يحمل أسماءهم، وفي ذلك صورة غير صحيحة عن الواقع.

لقد تعمد بعض من كتب عن تاريخ الشيعة في لبنان إلى اجتراح شجرات أنساب وكتب أسماء لا حقيقة لها وأثبت زيف هذه الأنساب من التناقض بين نسب أشخاص مع أقرباء لهم فجاءت الشجرات مختلفة ومتناقضة. لذلك سيكون الحديث عن أي أسرة شيعية تمكنت من الوصول إلى الزعامة غير مرهون بنسبها المزعوم، بل بما فعلته أثناء توليها مهمة ما، ومدى نجاحها في هذه المهمة.

إن دراسة دور العائلات في إدارة جبل عامل لا يعني البحث عن جذور تاريخية لبعض زعماء العصر الحديث بقدر ما يعني البحث في الواقع التاريخي الاجتماعي والسياسي لأهل الجبل العاملي. فالعامليون عرب عقلاً وتاريخاً ومجتمعاً يشبهون كل العرب في المشرق العربي بتكويناته الاجتماعية العائلية والعشائرية، ولم يدع أحد أن هؤلاء العرب العامليين كانوا في زمن ما أمة مختلفة أو شعباً مغايراً للواقع الشعبي القائم في بلاد الشام والعراق ونجد والحجاز واليمن. ولولا الفروقات في اللهجات الشائعة بين العرب في الشرق العربي لأمكن القول أن كل هذه «الجماعة» تشكل أمة واحدة بثقافة واحدة وعقلية اجتماعية واحدة.

وبناءاً على ما تقدم يمكن الحديث عن مجموعة من الأسر الشيعية العاملية اشتهرت في فترات محددة وكان لبعض زعمائها دورٌ بارز في الأحداث التي جرت في زمانه. وترك بعض هؤلاء الزعماء تراثاً من الحكايات الشعبية غلبت في مجملها عن الواقع التاريخي بحيث أصبحت الحكاية المحكية على ألسنة العامة هي الرواية التاريخية البديلة والبعيدة عن الواقع. ومن أهم الأسر العاملية التي لعبت دوراً في تاريخ جبل عامل في العهد العثماني:

آل سودون:

يكتنف الغموض تاريخ منطقة جبل عامل (منطقة صيدا والشقيف وبلاد بشارة) طيلة القرن السادس عشر وتحديداً من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٦٠٠ حيث لا يرد في المصادر التاريخية المعروفة أي ذكر مهم لأي حادث قد يفيد في رسم صورة للواقع الذي عاش فيه الشيعة في جبل عامل في تلك الحقبة الزمنية.

تتحدث معظم المصادر عن أمير مغامر يدعى منصور بن فريخ أصبح أميراً يفرض سيطرته بقوة على منطقة البقاعين وبعلبك وصيدا. ولأنه حكم هذه المنطقة فقد كان في تماس مباشر مع السكان الشيعة القاطنين فيها فمن هو هذا الأمير؟ يقول المحبي صاحب كتاب «خلاصة الأثر» أنه «الأمير منصور المعروف بابن الفريخ البدوي أمير البقاع العزيزي بعد أولاد الحنش. كان في أول أمره بدوياً من عرب تلك البلاد وكان يتكسب بالرجادة ثم انتهى أمره إلى أن حاز الإمارة وتظاهر بقتل المناحيس وأهل الزعارة والشطارة وكان يبغض اللصوص والقطاع ويعاملهم إذا قبض عليهم بالقتل والتمثيل وكان يحب أهل الشجاعة حتى عظم أمره فولي حكومة البقاع ثم أعطي حكومة نابلس وانحاز إليه جماعة من جند دمشق واشتهر وأخاف الدروز ثم شن الغارات عليهم. وكان هو السبب في أخذ ابراهيم باشا أحد الوزراء في عهد السلطان مراد بن سليم (٩٨٤-١٠٠٣/ ١٥٧٦-١٥٩٤) إليهم وقد جاء من نيابة مصر ثم كان قيدومه حتى أثّر فيهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. واختفى منه أميرهم الأمير قرقماس بن معن حتى مات في اختفائه. ثم جمع له بين حكومة نابلس وصفد وعجلون والبقاع وأضيف إليها إمارة الحاج والتزم مالاً عظيماً على صفد ونابلس وجعل نابلس باسم ولده وعجلون باسم واحد من جماعته يقال له دالي علي وصفد باسمه والبقاع يحكم من قبله. وسافر بالحج مرتين في سنة ثمان وتسعين وتسعماية / ١٥٩٠ وفي التي بعدها ثم زاد عتوه وتمرده وخرّب بلاداً كثيرة وقتل خلقاً كثيراً... وكان مع ما هو فيه من التعدي ملازماً للصلوات محباً للسنة وأهلها مبغضاً للرافضة والدروز والتيامنة (أهل وادي التيم) شديداً على المفسدين»[1].

(١) المحبي، خلاصة الأثر ج ٤ ص ٤٢٦-٤٢٧.

ما يهم في ما نقل عن منصور بن فريخ هو الجملة الأخيرة أي بغضه للرافضة (الشيعة) وللتيامنة (سكان وادي التيم). وبما أنه كان قد تولى ولمدة طويلة حكم بلاد صفد والبقاع العزيزي فقد كان سيفاً مسلطاً على رقاب الشيعة في بعلبك وجبل عامل. ولهذا السبب لم يرد في المصادر التاريخية المعروفة اي ذكر لحكام أو أمراء أو شيوخ عشير في بلاد بشارة والشقيف كما كان الحال في دولة المماليك. يمكن أن تكون هناك فرضية أخرى أكثر واقعية وهي انتماء الأمير منصور بن فريخ للمذهب الشيعي مع إظهاره للسنة تقية. وهذا هو السبب الحقيقي لقتله فيما بعد. فما فعله الأمير منصور بن فريخ بالدروز مشهور ومأثور ويرد في نصوص تاريخية بعكس ما فعل للشيعة. وعندما تولى الأمير فخر الدين ابن معن حكم جبل الشوف سنة ١٥٩٠ حاول جاهداً التقرب من الوزير مراد باشا نائب الشام الذي مر في مدينة صيدا فخدمه الأمير فخر الدين ابن معن «خدمة سنية، وأطمعه بكل جزئية وكلية، فعمل مراد باشا على قبض الأمير منصور»[(١)]. فجرى القبض عليه في دمشق وسجن في قلعتها حتى جاء أمر من السلطان بقتله فأعدم في ١٣ ربيع١ سنة ١٠٠٢/ ١٥٩٣) تاركاً عشرة أولاد لم يشتهر منهم إلا الأمير قرقماس الذي كان يقيم في قرية بوارج في البقاع فقصده الأمير فخر الدين بالدروز والتيامنة ففر منهم إلى الأمير ابن سيفا في كسروان فمنعه من المرور في بلاده عند ذلك بدأت أتباعه بتركه فترك كسروان إلى جهة مجهولة حيث لم يعرف أين ذهب وانقطعت أخباره[(٢)].

تبدو سيرة الأمير منصور بن فريخ ونهايتها نموذجاً لقيام وزوال الأمراء في المنطقة خصوصاً الغرباء منهم، أما أبناء البلاد فلهم شأن مختلف. فالأمير منصور قد ورث بشكل ما الإمارة التي أنشأها ابن الحنش في نهاية دولة المماليك وبعد مقتله (ابن الحنش) بأمر من العثمانيين انتقلت إمارته إلى أكثر من حاكم محلي حتى وصلت أخيراً إلى ابن فريخ الذي رغم القول ببغضه الصريح للروافض (الشيعة) لم يصطدم مع الأمراء الحرافشة في بعلبك لا بل إن الأمير علي بن موسى الحرفوشي الذي عاصر ابن الفريخ قد ألقي القبض عليه في فترة سابقة مع الأمير منصور بن فريخ وأرسلا إلى الأناضول ليحاسبا ثم أفرج

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر باختصار.

عنهما فعاد كل إلى إمارته. وعندما أمسك مراد باشا الأمير منصوراً أمسك الأمير علي الحرفوشي وخنقه في قلعة دمشق فكان شريكاً لأبن الفريخ في الحياة والممات. وهذا ما يزيد القناعة في تشيع الأمير ابن الفريخ.

وتبدو الأحداث والأسماء التي ترد عن بعلبك والبقاع مقطوعة عن الوجود في ذكر جبل عامل مما يدل على استقرار الأوضاع في ظل سلطة القهر العثماني. فيما يستدل من أمور أخرى على هذا الواقع من هجرة عدد جم من علماء الطائفة الشيعية من جبل عامل إلى إيران والعراق حتى لم يتبق في جبل عامل في القرن السادس عشر من العلماء إلا قلة قليلة اتخذت من التقية غطاءاً لوجودها كما أغلقت الحوزة الدينية الأخيرة في في أعالي جبل عامل في قرية ميس (الجبل) أبوابها وفر أساتذتها وطلابها خارج البلاد.

في مثل هذا الواقع ظهر عند بعض المؤرخين العامليين المعاصرين تصور خيالي لتاريخ بعض الأسر يشبه الخرافات التي تحكى في ألف ليلة وليلة مثل الحديث الذي كتبه محمد جابر صفا عن أسرة «سودون» العاملية التي وجدت في المنطقة كقوة أسرية تعمل في كنف الدولة العثمانية حسب أنظمة وتشريعات «الالتزام» الشائعة في تلك الأيام. فكان الباشا (حاكم الولاية) يكلف أحداً ما ب»التزام» منطقة من المناطق على مبلغ محدد فيقوم الملتزم بتكليف وجهاء وشيوخ العائلات بجباية المال المطلوب عن طريق توزيعه على السكان فكان يحدث بسبب ذلك بعض المظالم. فالجباية تتم بإشراف جند مسلحين ويترافق عادة مع عمليات نهب منظم في نفس المنطقة. وكان كثير من الناس يضطرون إلى ترك بيوتهم والهجرة إلى أماكن أقل ظلماً مما أدى في كثير من الأحيان إلى خراب القرى والمزارع وعدم ثبات الناس في مكان واحد أو الإقامة المستمرة فيه. كما كان بعض الأهالي يقاومون في بعض الاحيان العسف والقهر فيتحول عدد من الرجال إلى متمردين وقطاع طرق وطيّاح (ثوّار) في مواجهة الجباة وليس تمرداً وثورة على السلطان والدولة العثمانية كبنية سياسية.

في مثل هذه الظروف ورد ذكر آل سودون في جبل عامل في نهاية القرن السادس عشر حيث ذكر في بعض المصادر أن فخر الدين ابن معن تسلم إيالة صيدا وسكن في صيدا سنة ١٦٠٠/ ١٠٠٩ «إلا ان آل سودون حكام بلاد بشارة زحفوا على بلاد صيدا بنحو ألفي

رجل ونزلوا عند النهر (سينيق أو الزهراني) فخرج إليهم الأمير فخر الدين بخمسماية رجل فوقعوا في المائة خيال الذين كانوا قد بعثوها لينهبوا سابقة صيدا فكسروهم ثم اجتمعت عليهم الرجالة وكسروا جماعة الأمير»[1]. ويبدو هذا الخبر غير واقعي إلا جزئياً فإيالة صيدا لم تصبح إيالة إلا بعد سنة ١٦٦٠ ويمكن أن يقصد بتولي فخر الدين ابن معن (إيالة صيدا) هو التزام الجباية في منطقة صيدا وما حولها التي كانت تتبع ولاية دمشق. أما آل سودون الذين وصفوا بأنهم حكام البلاد فلا يبدو أنهم كانوا يحكمون خارج سلطة الباشا وإنما كانوا جباة يؤدون ما يجمعون من إتاوات لمن تلزّمه الباشوية في دمشق. وقد أصبح فخر الدين ابن معن بناء على التزام من والي دمشق ملتزماً في صيدا ثم توسع التزامه ليشمل مناطق أوسع سنة ١٦٠٣ عندما التزم سنجق صفد الذي كانت بلاد بشارة والشقيف تابعتين له. وهذا الوضع ظل مستمراً بأشكال مختلفة معظم فترة وجود أمراء الشوف المعنيين وكذلك في عهد ورثتهم الشهابيين.

آل سودون في هذه الحالة لم يمثلوا حكومة ولم يكن لهم التزام في أي منطقة. ولا يرد في أي نص تاريخي معتبر ما يثبت مثل هذا الالتزام إذا ما وجد، وبالتالي فإن وجودهم السياسي يكتنفه غموض كبير. وربما هذا الواقع هو الذي أوحى للمؤرخ محمد جابر صفا أن يروي حكاية خيالية عن أصل هذه العائلة فيقول أن «أسرة سودون هي من بقايا المصريين (المماليك). وأن جد العائلة «سودون بك» وهو من الأتراك أو الجراكسة وكان من أهل التقوى، اختار العزلة في بيته وعكف على العبادة وله ولدان من أهل الشجاعة والبأس أحدهما يدعى ذا الفقار والثاني قاسماً. وزار السلطان سليم هذا «الأمير» في بيته وشهد اعتكافه وصلاحه وورعه فأكرمه وأحسن إليه وأعجب ببسالة ولديه فأنعم عليهما بإقطاع بعض الأراضي وجعل كلاً منهما رئيساً لفرقة من الجند»[2].

من الواضح أن هذه الحكاية محض خيالية فلا السلطان سليم «ياوز شاه» زار جبل عامل ولا كان يهمه كثيراً وجود رجل منقطع للعبادة. ولو حصل مثل هذا الأمر لذكره مؤرخو السلطنة، وما أكثرهم. كما أن السلطان لا يمكن أن يسلم إقطاعاً ما لأبناء هذا ال

(١) علي درويش جبل عامل ١٥١٦-١٦٩٧ نقلاً عن تاريخ الأزمنة للدويهي ص ٤٥٥.

(٢) محمد جابر ص ٣٧

«سودون بك» الشيعي بعد حروب السلطان الطاحنة ضد الشيعة في اصفهان وتبريز وفتكه الوحشي بعشرات الألاف من الشيعة.

ويورد المؤرخ محمد جابر صفا أيضاً رواية خيالية حول «آل سودون» ينسبها إلى مصدر مجهول يدعوه «مؤرخ عاملي في مخطوطة له» يقول فيها: «أن أسرة سودون بقيت في البلاد بعد زوال حكومة المصريين (المماليك) وحكمت جبل عامل في عهد الترك العثمانيين وكانت تنازع آل علي الصغير (؟) الحكم تظاهرها أسرة ثانية تدعى أسرة مشطاح»[1]. وحسب هذه الرواية التي تكيل المديح لأسرة آل علي الصغير (قبل أن تنوجد وتظهر) وكأن الراوي تقصّدها لتمجيدهم فإن الشيخ «حسين بن علي الصغير وكان هذا في أواخر القرن العاشر للهجرة والسادس عشر للميلاد تولى الحكم بعد أبيه وكان شديد الوطأة على الشعب سفّاكاً للدماء شأن أكثر أمراء ذلك العهد فنفر الناس منه وتفرق أنصاره من حوله، وأصبحوا يكيدون له ويدسون الدسائس لخلعه. وحدث خلاف بين الشيخ حسين الصغيري والأمير فخر الدين المعني. وشدد المعني الخناق على الشيخ حسين لما يعلمه من انفضاض أعوانه عنه وكره الشعب له ففر الشيخ إلى البادية لائذاً بقبيلة بني عمّه السوالم وهم فخذ من عنزة (اسم قبيلة) وأقام بينهم بضع سنين. وقد حاول الرجوع إلى منصة الأحكام في جبل عامل بعد انتهاء الخلاف بينه وبين الأمير المعني فلم يتم له الأمر لتألب أعيان البلاد عليه وكرههم لحكومته ومناصرتهم للحكومة السودونية. ورأى أن الأسرتين اللتين حكمتا البلاد آل سودون وآل مشطاح، وكان الحاكم العام من الأولى والمدير من الثانية، في صولة ومنعة وجند وأنصار فأدركه اليأس وفارق البلاد ثانية إلى جبال نابلس وأقام متنكراً في منازل آل طوقان مروضاً لخيولهم «مير ياخور». وكان حزبه القليل في البلاد يسعى جهده لاستمالة الأعيان، ووضع العثرات في سبيل حكومة آل سودون ومشطاح. ولما حانت الفرصة وبدأ جانب الضعف في الحكومة السودونية، وقوي حزب الصغيري بعث (أي الحزب الصغيري) وفداً منه للبحث عن الشيخ حسين في جبال نابلس والبلقاء ولما عثروا عليه في نابلس وشاهدوه بين حشم الزعيم الطوقاني وأتباعه، سلموا عليه سلام الأمراء، ووقفوا بين يديه وقفة الاحترام والتعظيم. ولما علم

(١) محمد جابر ص ٣٩.

الزعيم النابلسي بالأمر استدعاه وخلا به مستوضحاً حقيقة حالته. فأخبره بأمره. فلامه على كتمان أمره وأكرمه إكراماً وافراً وأنزله منزلاً رحباً. فأقام في ضيافته أياماً ثم جهّز له حملة مؤلفة من خمسماية فارس من أبطال نابلس الشجعان. فسار بهم قاصداً جبل عامل لمهاجمة آل سودون. وكان يسير ليلاً ويكمن نهاراً ولما وصل إلى بنت جبيل وكانت قاعدة حكومتهم طوق منازلهم بخيوله وقتل رجالهم وهزم جندهم وشتت أنصارهم من آل الشامي وآل مشطاح وتم له استلام حكومة البلاد»[1].

ويضيف محمد جابر صفا منتشياً ببطولة حسين بن علي الصغير وحكومته وفرسانه النابلسيين الشجعان: «وروى مؤرخ آخر (غير الأول وهو مجهول أيضاً) رواية تقرب مما ورد آنفاً غير أنه يقول: «إن الحاكم من آل سودون ومدبره من آل مشطاح فرّا من بنت جبيل قبل أن تدهمهما الخيل. فتعقب الشيخ حسين الحاكم ابن سودون في طريق خربة سلم وأدركه عند العين المعروفة ب «عين بو سودون» فقتله واحتز رأسه وأطلق هذا الإسم على العين منذ تلك الواقعة. وتعقبت فرقة ثانية من جنده المدبر ابن مشطاح بطريق «القصير» وقد تحصن بمكان كثير الصخور فقتلوه عند شقيف هناك لا يزال يدعى للآن ب «شقيف مشطاح». وتتبع الشيخ حسين الصغيري آثار السودونيين وغيرهم من أخصامه فأفناهم قتلاً وتشريداً. ولم يقم لهم بعدها قائمة ثم أعاد النجدة النابلسية مصحوبة بالهدايا للزعيم الطوقاني»[2].

يمكن مناقشة بعض الأمور في هذا النص المتهالك ليس لاثبات الصواب والخطأ فيه، فكل النص حديث خرافة لا قيمة تاريخية له ولا حقيقة فيه سوى أسماء الأسر. ويبدو أن محمد جابر صفا هو نفسه واضع هذا النص حيث يمكن فهم ذلك من قوله أن مركز حكومة آل سودون كان في بنت جبيل التي كانت في ذلك العصر (نهاية القرن السادس عشر) مجرد سوق أسبوعي وفي جانبه بعض البيوت التي تستعمل مخازن للباعة المنقطعين. وكان يعيش فيها بضع عائلات منهم آل أبو شامة (وليس آل الشامي المنتسبين إلى مدينة دمشق الشام) ومشطاح. بينما كانت القرية الكبيرة عيناثا الملاصقة لبنت جبيل

(١) المصدر السابق ص ٣٩- ٤٢

(٢) المصدر السابق.

هي البلدة الأكبر والتي كانت تستوطنها عائلة (آل شكر) القوية والكثيرة العدد والتي تمكن زعماؤها من البروز في نفس الفترة التي يتحدث عنها الراوي.

كذلك يتحدث الراوي (المجهول) عن عائلتين كبيرتين (سودون ومشطاح) كانتا موجودتين بقوة وتحكمان البلاد كما يدعي دون أن يذكر اسم أي واحد من رجالهما. بل فقط آل سودون وآل مشطاح. فهل يعقل أن تحكم عائلة بهذا الحجم ولا يبرز إسم واحد من أبنائها؟

ويذكر الراوي أن حسين الصغيري قد استقدم خمسمائة فارس من «رجال نابلس الشجعان» وهم عامة من أتباع المذاهب السنية الذين لا يمكن أن يقدموا مساعدة لشيخ شيعي إلا إذا كان خائناً لبني قومه، أو أن يعدهم ويمنيهم بالغنائم والأسلاب التي يمكن أن يحصلوا عليها عنوة من أهل بلده. وهؤلاء الفرسان «الشجعان» لم يجروء أحد من أهل جبل عامل على مقاومتهم (حسب رواية الراوي المجهول) بل دخلوا إلى بيوت خصوم الشيخ حسين فقتلوهم ونكلوا بهم دون أي ذكر لأي مقاومة. وطاردوا من فرّ منهم حتى قتلوه دون مقاومة أيضاً. وأما من تحصن من الفارين فقد أدركوه وقتلوه واحتزوا الرؤوس دون شفقة ولا رحمة.

مثل هذه الأمور لا يمكن أن تمر عند العامليين هكذا، ولا تشبه بشيء أخلاق العامليين الأشداء أصحاب النخوة والكرامة والجرأة على عتاة الأعداء. فكيف لشرذمة من فرسان نابلس أن تفعل كل هذه الأفعال مع العامليين؟ لم يعرف أحد في تاريخ المنطقة جماعة أشد بأساً ولا أصبر على المكاره من أهل جبل عامل، ولم يدون أحد حتى من أعدائهم، وما أكثرهم، أن العامليين رضوا بظلم أو خنعوا في مواجهة عدو مهما تجبّر. فكيف أجاز الراوي لنفسه أن يثبت أنهم أذلاء وجبناء وخانعين وراضين بما يقوم به بعض الخونة بدعم من فرسان غرباء يقتلون وينهبون دون أن يردعهم أحد؟

يقول الراوي أيضاً أن حسين الصغيري وفرسان نابلس «الشجعان» كانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً. ولو حُسبت المسافة بين بنت جبيل (التي افترض الراوي أنها كانت موجودة بحجم كاف لتبرز بين القرى العاملية) وبين نابلس وهي ١١٠ كلم تقريباً، لتبين

أن الماشي يقطعها في ثلاثة أيام بينما يقطعها الفارس المجد في يومين، والمنطقة جميعها من نابلس إلى بنت جبيل عامرة ومأهولة لا يمكن أن يختبىء فيها عن أعين الناس فرسان بهذا العدد (خمسمائة)، فكيف كانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهارا؟

ويبدو أن الراوي كذلك لم ينتبه إلى أن لقب «بو سودون» لا يعني انتماء صاحبه إلى أسرة «سودون» فألقاب ال «بو» أو «أبو» مشهورة عند العرب ويحملها أي رجل مثل بو علي وبو حسين...إلخ. فلا يعني الإسم الثاني إسماً للعائلة بل للابن البكر عادة. وأما تسمية شقيف «مشطاح» بهذا الاسم فليس بالضرورة نسبة لآل مشطاح بل يمكن أن يكون لأي رجل يسمى أو يلقب ب «مشطاح». وفي بلاد بشارة وجبل عامل وربما في عموم بلاد الشام والعراق تتخذ الأرض أسماءها من أشخاص عملوا فيها أو عاشوا عليها أو تركوا فيها أثراً معيناً. وهذا الأمر شائع جداً ومعروف بين عامة أهالي جبل عامل.

يمكن الاستنتاج من هذه الرواية أمراً واحداً كحقيقة تاريخية وهو أن أسرة «سودون» وأسرة «مشطاح» كانتا من الأسر العاملية البارزة في القرن السادس عشر، وقد ورد في أعيان الشيعة ذكر لبعض العلماء الذين ينتمون إلى أسرة سودون وينتسبون إلى قريتي تبنين وميس الجبل كالشيخ عز الدين حسين بن علي بن محمد بن سودون الشامي العاملي الميسي، نسبة إلى ميس (الجبل)، والذي كان حياً سنة ٩٧٤/ ١٥٦٦[١]. والعالم العاملي حسين التبنيني المشهور بابن سودون التبنيني الذي عاش في نفس الفترة[٢]. مما يدل على أن هاتين القريتين اللتين كانتا عامرتين في القرن السادس عشر هما مكان وجود هذه العائلة التي كان وجهاؤها ينفذون التزامات المتسلمين في الجباية والتجنيد لمصلحة الباشوية. بينما لم يعثر على إسم أي شخص من آل سودون ينتسب إلى قرية بنت جبيل ولو اشتهر منهم واحد فقط لتسامع به الناس في جبل عامل ولذكروه.

لقد برزت أسرة سودون العاملية التي كان لها اليد الطولى في إدارة البلاد العاملية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، واستمرت هذه الأسرة في إدارة البلاد والقيام

(١) أعيان الشيعة، ج ٦ ص ١٢٧.
(٢) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥١.

بالتزامها أمام ممثلي السلطنة. أما نهاية هذه الأسرة فيعزى إلى رغبة باشا دمشق أو الوجهاء المحليين (حسب الرواية السابقة) بالتخلص منها. تماماً كما كانت السلطنة تتخلص من كل من يمكن أن يتهدد وجودها وهيبتها أو مصالح بعض رجالها. وقد تهيأ لمواجهة أسرة سودون تحالفٌ ضم أمراء الأسرة المعنية في مقاطعة الشوف في جبل الدروز بقيادة الأمير فخر الدين بن معن، وأسرتي شكر وعلي الصغير العامليتين وأسرة طوقان النابلسية. وتمكن الحلفاء من الفتك بعدد من زعماء آل سودون وأرغموا الناجين منهم على الجلاء عن جبل عامل حيث اختفت هذه الأسرة بعد ذلك من الوجود في جبل عامل، ولم تشتهر لهم بقية تحت أسماء مختلفة.

كانت نهاية آل سودون نهاية كارثية على جبل عامل وأهله لأنها فتحت الباب واسعاً لاستعمال السيف وسفك الدماء بين الأسر العاملية، كما أن إلغاءها عنى إلغاء القوة العاملية التي كانت قادرة على صد التسلط على جبل عامل وأهله. وبانتهاء آل سودون أصبح الجبل ضعيفاً ومفتوحاً أمام المعنيين الدروز وسواهم يغيرون على البلاد فينهبون ويسلبون ويقتلون إذا قدروا على ذلك.

لقد حدث الهجوم على آل سودون قبل سنة ١٦١٣ وهي السنة التي أرغم فيها الأمير فخر الدين ابن معن على الفرار من مقاطعة الشوف إلى أوروبا، وأصبح آل منكر هم الحكام الأكثر نفوذاً خصوصاً في أقليمي التفاح والشومر، ربما لأنهم بقوا على الحياد أثناء الهجوم الذي استهدف آل سودون. بينما برزت إلى جانبهم وإن بمستوى أقل، أسرتي آل شكر وآل علي الصغير في بلاد بشارة وأسرة صعب في بلاد الشقيف.

آل شكر:

كما مرت الحكاية التي ذكرت عن آل سودون هناك كذلك روايتان مرتا عن آل شكر وعن صراع مميت مع آل علي الصغير ليس فيهما من الحقيقة إلا الأسماء. إعادة النص لا يزيد في معرفة تاريخ هذه الأسرة في جبل عامل كثيراً، لكن تلمس الواقع الذي وجدت فيه ممكن استناداً إلى بعض المراجع.

ليس في المصادر الشيعية اللبنانية ما يفيد كثيرا عن حال هذه العائلة سوى تلك التي

ذكرها محمد جابر صفا نقلاً عن مصدر مجهول وفيه الكثير من الذم، كالحديث عن بقر بطون الحوامل وقتل آل علي الصغير...إلخ. أما ما فعلته هذه العائلة في وجه جلاوزة الباشوية فلا ذكر له من قريب ولا من بعيد.

أول ذكر حقيقي لهذه العائلة ورد في تاريخ الأمير فخر الدين للشيخ أحمد الخالدي الصفدي حيث يذكر عملية غزو قام بها خيالة من أتباع الأمير فخر الدين ابن معن أمير جبل الدروز.كان الخيالة يقيمون في قلعتي بانياس (الصبيبة) وقلعة الشقيف أرنون «فعيّن (حسين اليازجي حاكم الصبيبة) من عنده ٣٠٠ رجّال وأرسلهم إلى طويل حسين بلوكباشي (حاكم قلعة أرنون) بقلعة الشقيف فعين الطويل من عنده أيضاً نحو مائتين (مائتي) رجل فتوجه الجميع وكبسوا قرية عيناثا من بلاد بشارة وكان قد جاهم (جاءهم) النذير فجمعوا ناقلي العدة إليهم من القرايا القريبة منهم ووقع بينهم القتال فقتل علي قول أوغلي سردار السكمانية المعين عليهم وانكسروا وعادوا إلى مواضعهم فتبعهم أولاد شكر وجماعتهم إلى قرية عين الدقيقة من الحولة وفقد منهم عشرون رجلاً وجرح منهم مجاريح فعند ذلك عملت الطايفة التي في القلاع والميدان على البلوكباشية الحاضرين الوقعة وعدتهم ست(ة) أنفس على وجه السرعة طووا بيارقهم وأعادوهم إلى حزب النفر»[1]. (أي خفضوا رتبهم إلى أقل رتبة بسبب الهزيمة).

جرت هذه الواقعة سنة ١٠٢٣/ ١٦١٤ أثناء فرار الأمير فخر الدين بن معن إلى أوروبا (١٦١٣-١٦١٨). ويبدو من وقائعها أن عائلة شكر المقيمة في قرية عيناثا كانت مستعدة تماماً لمواجهة أي اعتداء وقد استنفرت من أجل ذلك القرى المجاورة، فلم يتمكن المعتدون من الوصول إليها. ولا استطاعوا الفرار سالمين لأن الشكريين العامليين لاحقوا عصابة اللصوص المعنية إلى سهل الحولة، وتمكنوا من قتل عدد ليس بالقليل منهم (٢١ قتيلاً بينهم سردار السكمانية). ولم يأبهوا لرد فعل المعنيين المتحصنين في قلعتي أرنون وبانياس. كما لم يرد ذكر لعائلات أخرى شاركت في عملية الصد والملاحقة.

(١) تاريخ فخر الدين: ص ٣٢

من هذه المعركة تظهر قوة شكيمة الشكريين وتأهبهم الدائم للحوادث الطارئة فكيف ساغ لمن روى عنهم أنهم كانوا يعكفون على الملذات ويتلهون بإقامة الأعراس حتى هاجمهم علي الصغير دون أن يقاوموه.

ما يذكر عن آل شكر أيضاً أنهم لم يستنكروا تولي حسين اليازجي التزام سنجق صفد وكانت بلاد بشارة تتبع له، بل أعلنوا قبولهم به. ينقل الخبر الخالدي الصفدي بقوله: « سنة ١٠٢٧/١٦١٨ وكتب (حسين اليازجي) لجميع مشايخ بلاد صفد يعلمهم أنه صار سنجقاً عليه فبعض مشايخها المذكورين لم يطابقوا على ذلك والبعض وافقوا مثل بين منكر وبيت شكر وبيت علي الصغير[١]. وفي هذا النص على صغره إثبات صريح على وجود ثلاث أسر في بلاد بشارة في وقت واحد (منكر وشكر وعلي الصغير) ما يدل على أن ائتلاف هذه الأسر واجتماعها على رأي واحد يثبت تحالفها أو خضوعها لواقع الحكم القائم. كما أن وجود آل علي الصغير سنة ١٦١٨ يكذب الرواية التي تحدثت عن أن علي الصغير ابن حسين الوائلي الذي سيولد سنة ١٦٢٩ (لأنه كان في العشرين عندما هاجم آل شكر سنة ١٦٤٩). بينما حسب قول الصفدي ما يثبت أن أولاد أو أحفاد علي الصغير كانوا موجودين سنة ١٦١٨.

لقد انتهت ولاية حسين اليازجي على سنجق صفد بمعركة بينه وبين أتباع الأمير المعني مما أدى إلى مقتله وتفرق أتباعه عنه. ولأنه كان حاكم صفد فإنه قد استجمع قوته من البلاد بما فيها جبل عامل حيث أن رجال آل شكر وآل منكر وآل علي الصغير كانوا يناصرونه، وطبيعي أنهم حاربوا معه ضد جماعة الأمير المعني. وعندما قتل الشيخ حسين اليازجي اضطر زعماء شكر ومنكر وعلي الصغير للاختفاء من المنطقة. فلجأوا إلى الأمير يونس الحرفوش الذي أمّن لهم الحماية الكافية وبدأ يفاوض الأمير المعني حول سلامة هؤلاء الزعماء. وكان فخر الدين ابن معن قد أقدم على اعتقال ناصر الدين ابن منكر حال عودته من أوروبا. ولم يكن الاعتقال لسبب سياسي. بل يتبين مما كتبه الخالدي الصفدي أن المسألة مالية يقول الصفدي: « ثم إن الأمير يونس ابن الحرفوش

(١) تاريخ فخر الدين: ص ٩٩.

أرسل حسين الشارب مع كتخداه إلى عند الأمير فخر الدين ليتكلما في مصلحة الحاج ناصر الدين ابن منكر الذي مسكه في عكا حين طلع من البحر لأن أخوه..... فعملوا على الحاج ناصر الدين ١٢ ألف غرش وكفلها الأمير يونس واحتال بها على أرباب الديوان الشوام وصحت (أحواله).......الحولة بواسطة الكفالة فأطلق الأمير فخر الدين سبيل الحاج ناصر الدين بعد أن أخذ التمسك من ابن الحرفوش على المنوال المذكور..... وفي ذلك الوقت طاحت مشايخ بلاد بشارة بيت منكر وأولاد علي الصغير وكلهم راحوا إلى عند الأمير يونس ابن الحرفوش وكذلك. فلما بلغ الأمير فخر الدين هجاج مشايخ بلاد بشارة أرسل هدم بيوت أولاد شكر في عيناثا والحاج علي ابن أبا شامة في بنت جبيل وفرحات ابن داغر في قرية انصار والحاج ناصر الدين ابن منكر في قرية الزرارية وولده في قرية حومين الفوقا وضبط جميع غلتهم[1].

يلاحظ أن أوامر فخر الدين لم تشمل بيوت آل علي الصغير مع أن وجودهم في المنطقة ومشاركتهم في أحداثها في ذلك الوقت وتأييدهم للشيخ حسين اليازجي واقع معروف، فلماذا لا يرد في النص هدم بيوتهم حيثما كانوا كما حدث مع الأسر الأخرى؟

بعد هذه الحوادث التي جرت سنة ١٦١٨ -١٦١٩ لم يعد يرد أي ذكر لآل شكر عند الخالدي الصفدي وأصبح الكلام عن شيوخ «بني متوالي» في بلاد بشارة والشقيف وصيدا تشمل عائلات أخرى. فهل كان «هجاج بني متوالي» هو انتقال كلي لعائلة شكر إلى البقاع حيث لا زال أحفادهم يعيشون إلى اليوم؟ وهل هدم بيوتهم وبيوت بعض الأسر العاملية هو أصل الحدث وليس اختلاف وحرب بين العائلات العاملية؟ يمكن استقراء الأحداث المرتبطة بهذه الواقعة ليبنى عليها أن أمير الدروز فخر الدين ابن معن قد أرسل قوة عسكرية كبيرة بموافقة الباشوية فعملت على القضاء على حسين اليازجي وفي طريقها قضت على نفوذ أسرة شكر انتقاماً منها لما فعلته برجاله سنة ١٦١٤. فالتجأ الشكريون إلى الأمير يونس الحرفوش في بعلبك. وعندما حاول ابن الحرفوش حل هذه المسألة وما يرتبط بها تمكن فقط من الإفراج عن الحاج ناصر الدين ابن منكر بينما لم يتمكن من إعادة الشكريين إلى

(١) تاريخ فخر الدين ص ١٢٤-١٢٥

بيوتهم في عيناثا. فجرى لاحقاً (بعد قرنين من الزمن) نسج رواية خيالية عن أن تهجيرهم قد تم بعد حرب وقتال مع آل علي الصغير. مع وجود احتمال كبير بأن يكون آل علي الصغير قد وقفوا في صف الأمير المعني عندما أمر بهدم بيوت آل شكر وسواهم. فإذا كانت حملة فخر الدين ابن معن قد حوت في صفوفها عدداً كبيراً من أهالي نابلس لأصبحت الصورة الفعلية هي أن الذي هدم بيوت آل شكر وأخرجهم من ديارهم هم المعنيون الدروز بقوة عسكرية مؤلفة من فرسان جبل الشوف وجبل نابلس وبعض العامليين الذين تواطؤوا معهم. فنهاية وجود آل شكر السياسي في جبل عامل قد جرى سنة ١٠٢٩/ ١٦٢٠ على يد المعنيين وليس سنة ١٦٤٩ على يد خصومهم المفترضين من آل علي الصغير.

آل علي الصغير:

كثير من المصادر الشيعية اللبنانية روت ما أصبح ثابتاً في عقول الكثيرين حول أصل عائلة «علي الصغير». ورغم أن هذه الرواية لم تثبت علمياً ولا يمكن الأخذ بها إلا أن إيرادها من مصادرها ومناقشتها يصبح أمراً لا مفر منه، ليس بقصد إثبات بطلان الوجود السياسي لهذه العائلة، بل لاثبات بطلان الخرافة التي نسجت حول أصلها وقوتها.

كتب علي درويش في أطروحته ناقلاً عن شبيب (باشا) الأسعد دون مقدمة أو تعليق أو تنبيه أن آل علي الصغير ينتسبون «إلى محمد بن هزّاع الوائلي القحطاني من رؤساء قبائل عنزة الذي جاء بجيش من أعراب بوادي قبائله إلى بلاد جبل عامل بالديار الشامية زمن صلاح الدين الايوبي ودخل جبل عامل وكان يحكمها يومئذ الامير بشارة بن مقبل القحطاني فجرت واقعة بين الوائلي وبشارة انتهت بالغلبة على بشارة فاستولى محمد بن هزّاع الوائلي على البلاد وحكمها وتزوج بنت بشارة. وبعد وفاة محمد بن هزّاع ورث الحكم من بعده أبناؤه وأحفاده وكانوا قد اتخذوا من قلعة تبنين مركزاً لحكومتهم واستمرت حكاما حتى أفضت الحكومة إلى أحمد بن مشرف الوائلي (خلاف مشرف الثاني الذي توفي سنة ١٧٠٠) الذي توفي وزوجته بحال الحمل. وكان تزوجها من بني عمومته بنو سالم المعروفون بالسوالمة فخذ من أفخاذ عنزة، فجاء إخوتها وقومها وحملوها إليهم وكانت منازلهم يومئذ بأطراف بادية الشام مما يلي نجد فولدت غلاماً. وحيث كان لها أخ اسمه علي وكان غائباً إذ ذاك بديار اليمن لأمر من مهمات شؤونهم ولم تره منذ جيء بها. وقد طال

غيابه ولها شغف به فسمت ابنها علياً وعرف عنه بالصغير للفرق بين اسمه واسم خاله. فكان يقال له «علي الصغير». فشب الغلام وامتاز بالنجابة عن أقرانه وما صار في الخامسة عشرة من عمره حتى صار له مقام بحل المشكلات بين القبائل. وقد بلغ أشده ووقف على حقيقة أمره وأمر أبيه الذي كان «حاكم بلاد جبل عامل». وأنه توفي عن والدته وهي بالحمل. وقد أنبأته أمه أنه بعد أن خلت البلاد منهم تمرد جماعة من وجوهها يقال لهم بنو شكر وأصبحوا يتصرفون بالأحكام بها. وأن سيرتهم قد ثقلت في البلاد لما سلك به من الجور والتعسف. وأن العموم هم لخلو البلاد من حكم هذا البيت، في غاية التأسف. ويتمنون كما أخبرته والدته «بلوغك من العمر منزلة يعينك على العودة لحكومة أبيك وجدك وانقاذهم من جور الظلمة المتسلطين عليهم. فحركته الأريحية والشهامة هنالك، وسألها عن الذين كان لهم قرب وحظوة وخلوص انتماء لدى أبيه فأخبرته عن رجلين من وجوه البلاد فجهز قوماً من بين رحمه ونهض بهم وسار قاصداً تلك البلاد إلى أن دخلها وأرسل الخبر إلى ذينك الرجلين. فعندما وافاهما خبره هاما على وجهيهما لاستقباله فرحين. ولما لقياه قصّا عليه ما هي عليه حالة البلاد من الضنك والتلهف على لقائه وأن العموم ما انفكوا يتذكرون أيام أبيه ومن سلف من هذا البيت. وأخبراه أن هؤلاء الجماعة في هذه الأيام مشغولون بأعراس وأفراح منعقد قسم منها بنفس تبنين وآخر بقانا فتقرر أمره أن ينقسم جمعه إلى فرقتين كل فرقة تفاجيء موقعاً من الموقعين. وقد كان اجتمع إلى جموعه جمهور من البلاد بطريقه ففعلوا ذلك وقد قابلوا أولئك الجماعة ففاجئتهم هذه. فدارت عليهم الدائرة واستولى على البلاد وقطع بيد معونة اللّه منها دابر الفساد وما زال بحكومتها وعنه تلقاها بنوه[١].

هذه الحكاية كان قد أخذ بها محمد جابر صفا كما هي ونقلها لكنه أضاف إليها قصة أخرى مشابهة في أكثر الوجوه ربما لاكتشافه الخطأ البالغ فيها أو الأخطاء الكثيرة الفاحشة والتي لا تستند لا إلى واقع ولا إلى حقيقة. وحتى الأسماء الواردة فيها يمكن الشك بوجود أصحابها. وللإفادة من مقارنة النصوص سيكون للرواية الثانية كما نقلها محمد جابر صفا أهمية خاصة. وهذه غير تلك التي رواها نفس الكاتب في حكايته عن تصفية آل سودون. يقول محمد جابر صفا نقلاً عن «ملخص أقوال الرواة والمؤرخين العامليين

---

(١) علي درويش ص ٦٣-٦٤ نقلاً عن شبيب الأسعد ص ١٦-١٨.

؟» إن «آل شكر وكانوا ذوي صولة ونفوذ يتحفزون للإيقاع بآل نصّار الوائليين أجداد الصغيريين وانتزاع الحكم من أيديهم حتى إذا سنحت لهم الفرصة وكثر أنصارهم وآنسوا الضعف بالحكومة الوائلية شهروا عليها حرباً عواناً أسفرت عن فوز آل شكر. فقتلوا زعيم آل نصار الأكبر الشيخ حسين بن أحمد النصار وأجهزوا على سائر أفراد أسرته شيوخاً وفتياناً. ولم يسلم منهم إلا امرأة حامل هي زوجة الشيخ حسين نفسه وكانت من بني عمه بني سالم العشيرة المعروفة بالسوالمة إحدى فروع قبائل عنزة والرولة والشعلان. احتملها أهلها إلى منازلهم في البادية فأقامت بينهم وولدت غلاماً أسمته علياً الصغير تذكاراً لأخ له اسمه علي مات طفلاً أو لأخ لها مات غريباً عن أهله.

ونشأ علي الصغير في البادية تحت ذلك الجو الصافي بين أخواله السوالمة وشب فارساً مغواراً شديد البأس عظيم الهمة وافر المروءة. ولما بلغ العشرين من سنيه ونبه ذكره وذاعت شجاعته بين القبائل. تحدثت إليه أمه عن نسبه وعشيرته وحكومة أبيه وما جرى لها في جبل عامل، وكان لا يعلم من أمره شيئاً، فاستطار لبه واشتد غضبه وهاج به حب الانتقام والأخذ بالثأر ممن قتل أباه وشتت شمل عشيرته. فأصبح يستطلع الأخبار ويترقب الفرص، وعمل على الاتصال بأنصار أبيه وأحزابه في جبل عامل وعلم سيرة الحكومة الشكرية وتذمر الناس من ظلمها وشدة وطأتها. فجهز حملة من فرسان السوالمة وانضم إليهم جماعة من الناقمين على بني شكر وداهمهم في عقر دارهم في عيناثا وقانا وهم لاهون بالأعراس منغمسون بالملذات فقتل رؤساءهم وأفنى أنصارهم وشرّد من بقي منهم في انحاء البلاد وتم له الفوز والظفر والأخذ بالثأر واستعاد حكومة آبائه وأجداده. وبعد وفاته تعقب ولده حسين بن علي (الصغير) من بقي منهم فلم تقم لهم بعدها قائمة وكانت مدة حكمهم عشرين سنة[1].

وفي مكان آخر يقول محمد جابر صفا أن «محمد بن هزّاع الوائلي القحطاني من رؤساء عشيرة عنزة كان معاصراً للأمير بشارة أو لأحد أعقابه وصهراً لهم وإليه انتقلت «الإماة في جبل عامل» بعد انقراض سلالة بشارة. وابن هزّاع هذا هو الجد الأول لآل علي الصغير

(١) محمد جابر صفا ص ٤٣.

يتصل نسبه ببني تغلب القبيلة الوائلية المعروفة وأول من قدم من بادية نجد إلى الديار العاملية في عصر الدولة الصلاحية وحط رحاله ونصب خيامه على الجبل الجنوبي بقرب قرية عديسة وأسس هناك بناية لم تزل آثارها ماثلة كما ذكر بعض أفراد الأسرة[١].

أما محسن الأمين العاملي فيحدد بالأرقام تاريخ فترة حكم الأسرة الوائلية بأنه بدأ حوالي سنة ٧٠٠/ ١٣٠٠ إلى سنة ١٢٨١/ ١٨٦٤ أي بنحو خمسمائة سنة لم يتخللها إلا «ملك» الشكريين ولا يصل إلى عشرين سنة، بل دونها. و«ملك» الجزار من سنة ١١٩٧/ ١٧٨٣ إلى سنة ١٢١٩/ ١٨٠٤ وهو نحو ٢٢ سنة، ثم عاد الوائليون بعد ذلك التاريخ إلى حكم «إمارتهم». ويؤرخ الأمين الوقعة بين علي الصغير والشكريين فيقول: «فهاجم رجاله الشكريين في البلدين عيناثا وقانا حال اشتغالهم بالأعراس وجرت بينهم حرب كانت فيها الغلبة على الشكريين فقتلهم وأبادهم وأخذ ثأره منهم وعادت أفراحهم أتراحاً واستولى على البلاد. وكانت الوقعة سنة ١٠٥٩/ ١٦٤٩ وأبلى في هذه الوقعة أبو شامة العاملي مع علي الصغير وهو جد الطائفة المعروفة بآل الشامي في بنت جبيل وعيترون»[٢]. ومع ذلك فإن الأمين يعرض بحكاية استيلاء الوائليين على الحكم من الأمير(؟) بشارة فيصفها بأنها نوع من الأقاصيص. يقول الأمين: «وأصلهم من عرب عنزة من بني سالم المعروفين بالسوالمة جاء جدهم إلى جبل عامل وتحضر واتصل بالحكام وحارب معهم وصارت له عندهم مكانة انتهت إلى الامارة في تلك البلاد. إلا أن اسمه ومبدأ امارته فيها لا يزال مجهولا. أما ما يقوله بعض أفراد هذه العائلة من أن اسمه محمد بن هزاع وانه جاء إلى بلاد عاملة والأمير عليها بشارة بن مقبل من قبل صلاح الدين الأيوبي وهو الذي تنسب اليه بلاد بشارة فحاربه هزاع وغلبه وتزوج ابنة بشارة وأجرى عليه معاشا حتى مات، فلا يستند إلى مأخذ وما هو إلا نوع من الأقاصيص التي تخرجها المخيلات. والذي يظن كما قال بعضهم أن حكمهم بعد بني سودون الذين كانوا من جهة نواب دمشق المنصوبين من ملوك مصر المماليك الأتراك حوالي سنة ٧٠٠»[٣].

(١) محمد جابر ص ٢٨.
(٢) الأعيان ج ٤ ص ٢١.
(٣) المصدر السابق.

لقد ورد في الحديث عن آل سودون حكاية مشابهة للحكايتين عن علي الصغير ابن أحمد الوائلي وعلي الصغير ابن حسين الوائلي وفي تلك كذلك يقوم علي الصغير بالهجوم على أعدائه ويسترجع «ملك « آبائه وأجداده ويقضي على اعدائه ويبيدهم ويستأصلهم من البلاد. القصص الثلاث التي تتحدث عن رجل واحد عاش في ثلاثة أزمنة مختلفة ومتباعدة تدل على أنها أخذت عن قصة خيالية واحدة تمجد البطولة وتجسدها في شخصية رجل مظلوم يقوم بالثأر من الظالمين ويظهر جميع القهر الذي يحمله المجتمع العاملي ضد القوة الغاشمة (الحكومة) للدولة العثمانية وجلاوزتها من الملتزمين. يجب البحث في المحور الأساسي للقصة وهو «حكم إمارة جبل عامل» غير الموجودة في الواقع لا في زمن الراوي ولا ما قبله، بل أصبح ذلك تعبيراً عن حلم جماعة بإقامة كيان خاص بهم. ويستمر الحلم من جيل إلى جيل فتتجدد الرواية بنفس اسم البطل الذي يجسد الحلم بينما تختلف أسماء الظالمين لتتناسب مع زمان الرواة الجدد لنفس الرواية.

أما في الواقع التاريخي فهناك ثغرات كثيرة في الرواية حتى لو جسدت أشخاصاً حقيقيين وليس رموزاً لجماعة. فكما مر لم يكن في جبل عامل إمارة بحدود الجبل، ولم تقم فيه حكومة تحكمه ككيان سياسي متحد، ولو في حكم المقاطعة. أما الخطأ الفادح والفاحش الذي وقع فيه كل هؤلاء الرواة ولم ينتبهوا له رغم ادعاء بعضهم المعرفة الواسعة في الأنساب. الخطأ هو في نسبة علي الصغير إلى القبيلة التغلبية والقول أنه ينتسب إلى محمد بن هزاع الوائلي القحطاني. وقد كرر النقلة هذه النسبة دون مناقشة. فالقبيلة الوائلية عادة ما كان ينسب آباؤها إلى الفرعين الرئيسيين فيها وهما بكر وتغلب. وقلة في التاريخ العربي من انتسب إلى وائل مباشرة. والنقطة الثانية الأخطر والأكثر توغلاً في الخطأ هي أن وائل إحدى بطون ربيعة، وربيعة هي قبيلة عدنانية وليست قحطانية. لا بل تساوي الجزء الأكبر من قبائل عدنان فتزيد أو تتساوى مع قبيلة مضر أختها الكبرى. القبائل العدنانية أربع وهي مضر وربيعة وأنمار وأياد. وعامة أنمار وأياد قد توزع في القبائل المختلفة بينما ظلت مضر وربيعة أهم القبائل العدنانية. وهذه الأمور معروفة ومشهورة عند من يملك معرفة بسيطة في أنساب العرب، فكيف مرت على (السيد) محسن الامين مثل هذه الغلطة القبلية وهو الخبير الكبير في الانساب خاصة الانساب العدنانية؟ كان من

الأجدى لواضع الرواية (وهو بالتحديد شبيب الأسعد) أن يقول أن جده هو «محمد بن هزّاع الوائلي العدناني». لكانت انطلت الرواية - الخرافة على بعض القرّاء.

أما الحديث عن أن محمد بن هزّاع قد جاء في الدولة الصلاحية إلى جبل عامل فهذا كلام لا يستقيم واقعاً ولا مضموناً، فالدولة الصلاحية لم تحكم في جبل عامل الأعلى سوى ست سنوات (١١٨٧-١١٩٣) حتى عقد الصلح مع الصليبيين قبيل وفاة صلاح الدين ثم انتقلت الدولة للأبناء والأخوة يتحاربون فيما بينهم فلم يكن من الممكن أن تنتقل قبيلة من القبائل خلال ست سنوات ثم تستوطن في بلد يحكمه أمير يدعى بشارة(؟). كأن جبل عامل خارج الكون وفيه إمارة لا يسمع بها الأيوبيون ولا الصليبيون. إمارة يحكمها بشارة أين؟ في تبنين؟ لقد مر تفصيل بأسماء حكام قلاع تبنين وهونين وأرنون في الفصل المخصص للحديث عنهم. ولا يوجد لا بينهم ولا من جاء بعدهم اي أحد يحمل اسم بشارة. اما في الجهة الصليبية فإن وثائق مملكة أورشليم التي لم تترك شيئاً إلا وتحدثت عنه حتى اسعار السلع في تلك الأيام إلا ودونتها ولم يرد في مدوناتها اسم عربي أو صليبي يحمل اسم بشارة يحكم في منطقة صور أو تبنين. ثم تأتي قبيلة ما من مكان مجهول في زمن مجهول فتستولي على (الإمارة الوهمية) فتحكم وتتملك(؟) فهذا موجود في حكايات ألف ليلة وليلة وليس في منطقة محدودة المساحة ومحكومة بصراع دول وسلاطين لا يتركون صغيرة ولا كبيرة تمر دون معرفتهم. فكيف وتلك الدول والسلطنات كانت معادية للطائفة التي ينتمي أبناء هذه المنطقة (بلاد بشارة) إليها. ثم لم يخبر أحد من مقلدة شبيب (باشا) الأسعد إذا كان (الأمير) محمد بن هزّاع الوائلي (القحطاني) شيعياً وأن القبيلة التي انفصل عنها من بني عنزة هم أيضاً شيعة، أم أنه كان يحارب «الروافض» على طريقة القبيلة ذاتها (عنزة) التي كانت موجودة على أطراف جبل عامل أثناء حكم المعنيين وقد شاركت في تخريب ونهب ما وصلت أياديها إليه في جبل عامل.

يمكن رسم الصورة الواقعية لآل علي الصغير كما لكل العائلات والأسر العاملية وهي وجود جماعة من الفلاحين من سكان القرى انتمت بالولاء أو بالنسب إلى رجل يدعى «علي الصغير» حيث تشكل كلمة «آل» جماعة موالية لأحد الزعماء على الطريقة المملوكية (مقابل كلمة بني فلان على الطريقة العربية في الأنساب). وقد تمكن أحد وجهاء «آل» علي الصغير

من قيادة أسرته ومن يواليها ليكون وكيلاً عن الملتزم العثماني حسب الطريقة العثمانية الشائعة في إدارة البلاد. ولأن هذا الزعيم الصغيري ينتمي إلى الطائفة الشيعية فقد واجه بلا شك احتقار أو جشع أو ظلم الملتزمين المعادين بلا هوادة للشيعة حسب فتاوى الشيخ نوح وموافقة المفتين والسلاطين والأمراء. فكان لزاماً عليه أن يقف بحزم أمام أعداء العامليين ويدافع عن جماعته وأتباعه بالتحالف والتضامن مع عموم الأسر العاملية وهذا ما شكل اتحاداً أسرياً في جبل عامل عاش واستمر حتى اليوم. وربما كان موجوداً في أزمنة سابقة لأنه حلقات إجتماعية متكاملة تظل موجودة وقوية ما دام هناك أخطار تواجه الجماعة. وهذا ما كان موجوداً باستمرار وبتعاقب الحكومات منذ نهاية الصليبيين(١٢٩١) وحتى مجيء الفرنسيين(١٩١٨). أما ما نسج من خرافات حول أصل هذه الأسرة وغيرها من الأسر فلا يثبت في الواقع ولا برهان عليه، لا بل يناقض أدنى المعارف التاريخية الثابتة والمشهورة في تاريخ المنطقة.

آل منكر:

إحدى العائلات العاملية التي برزت في نهاية القرن السادس عشر. لقد مارست هذه العائلة بالتوافق والتضامن مع العائلات الكبرى عملية قيادة العامليين ضمن تحالف الأسر العاملية التي كُلّف وجهاؤها بتأمين الإلتزام لمتسلمي المناطق.

يمكن الشك بما نظّر له بعض الكتّاب حول نسب مفترض لهذه العائلة يرجع إلى قبيلة بني تميم وتحديداً إلى قيس بن عاصم المنقري. وقد ربط بهذه الطريقة بين منكر ومنقر وهما أمران مختلفان. كما اختلف في تهجأة الكلمة بين منكَر ومنكِر والثاني هو الأرجح. ومنكِر يعني الذي يرفض الاعتراف بأمر ما بينما المنكَر يعني الباطل والمحرّم.

من المرجح ، كما كل الأسر العاملية، أن أسرة منكِر هي تطور أسري طبيعي حيث تتحول أي أسرة إلى قوة لها أهمية كلما ازداد عدد الرجال فيها قياساً إلى العائلات الأخرى. وهذا الأمر هو نفسه الذي كان يعطي أهمية في تاريخ القبائل العربية لنفوذ وقوة كل قبيلة، أي عدد الرجال فيها. لقد نمت هذه الأسرة وازداد نفوذها مع ازدياد عديد رجالها حتى تمكن وجهاؤها من البروز بعد انتهاء دور الأسرة السودونية.

يبدأ الحديث عن أسرة «منكر» في إجتماع جرى في قرية عيناثا لوجهاء الأسر العاملية

في نهاية القرن السادس عشر وفي الفترة التي أصبح فيها أمير جبل الدروز فخر الدين بن معن متسلماً لمقاطعات جبل عامل الثلاث صيدا والشقيف وبلاد بشارة. مما استدعى اجتماع وجهاء العائلات لتنسيق مواقفهم أمام الواقع الجديد. حيث أن العداوة القديمة والمتأصلة بين الشيعة في جبل عامل (وقبلاً في كسروان) وبين الدروز كانت عميقة جداً وخطيرة. فاقتضى الأمر المستجد معرفة سبل مواجهة هذا الواقع. لم يذكر من أسماء الذين شاركوا في الاجتماع سوى الحاج علي بن منكر وأخوه الحاج ناصر الدين حيث اعترف المجتمعون بزعامة الحاج علي بن منكر على كل الأسر وفوضوا إليه التصرف بما يراه مناسباً.

في المصادر التاريخية التي أرخت للأمير المعني يذكر أسماء العائلات الثلاث الكبرى في جبل عامل أي منكر وشكر وعلي الصغير بالإضافة إلى عائلات أصغر أو أقل شأناً. وورد في النصوص كيف قام أتباع الأمير فخر الدين بن معن بالهجوم على قرية الكوثرية حيث جرى نهب القرية وقتل عدد من الأهالي. كما هاجم الأمير المذكور قرية انصار مركز أسرة آل منكر ونهبها.

وعندما عاد الأمير فخر الدين من هروبه إلى توسكانة كان أول عمل قام به هو اعتقال الحاج ناصر الدين ابن منكر وهو جاء للترحيب به. فغدر به وقيده وفرض عليه غرامة ١٢ ألف غرش تعهد بسدادها الأمير يونس بن الحرفوش أمير بعلبك والبقاع (كما مر آنفاً) فاضطر الأمير فخر الدين إلى إطلاق الحاج ناصر الدين.

اتسع نفوذ أسرة منكر قبل سنة ١٦٦٠ وتمكنوا من السيطرة العائلية على منطقة أقليم التفاح التابع لصيدا كما سيطروا على أقليم الشومر أي المنطقة الساحلية الممتدة من مصب نهر الزهراني إلى مصب نهر القاسمية. ولبثوا في طليعة العائلات في هاتين المنطقتين طيلة القرنين التاليين.

آل صعب

ينسبون أنفسهم إلى السلطان صلاح الدين الايوبي، وأنهم من نسل الملك الأفضل نور الدين الأيوبي. وحسب رواية يتناقلونها شفاهة أن أول من جاء منهم إلى جبل عامل

كان جدهم بهاء الدين الذي توطن قرية دير عجلون، الواقعة إلى الشرق من قرية كفر رمان[١].

ورغم محاولة البعض التشكيك بهذا النسب فإن إنكاره أو إثباته لم يتم بطريقة علمية تماماً كالقول به. والأصح أن هذه الأسرة أيضاً كالأسر الأخرى قد أوجدت لنفسها نسباً وأصولاً ملكية دون إثبات. وهي كالأسر الأخرى أيضاً قد نمت وكبرت في جبل عامل وتمكن بعض رجالها من التحول إلى وجهاء في الدولة العثمانية، والتزموا جباية الضرائب من الأهالي القاطنين في مقاطعتهم التي كانوا فيها.

لقد تمكنت أسرة آل صعب من السيطرة على قلعة أرنون أهم القلاع العاملية في منتصف القرن الثامن عشر، أي في الفترة التي تحالف فيها العامليون مع الشيخ ظاهر العمر متولي سنجق صفد. وكان لهم دور بارز ومهم جداً في الدفاع عن جبل عامل في الحروب المتلاحقة التي خاضها الجبل ضد أمراء المعنيين ثم الشهابيين في جبل الدروز. وقد اشتهر منهم عدد من المشايخ (الوجهاء) كالشيخ سلمان الصعبي الذي وقف إلى جانب الأمير ملحم المعني أثناء هجومه على بلاد بشارة سنة ١٧٣٢. كما اشتهر الشيخ فارس الصعبي الذي ظل متحصناً في قلعة الشقيف بعد استشهاد الشيخ ناصيف سنة ١٧٨١ واضطر إلى تسليمها لأحمد باشا لجزار والي صيدا مقابل شروط معينة التزم بها الجزار ونقضها الشيخ فارس. وبعد وفاة الجزار عاد آل صعب إلى جبل عامل دون أن يحصلوا على امتيازاتهم القديمة حتى سنة ١٨١٩ عندما حصلوا على بعض المكتسبات في أقليم الشومر أسوة بأسرتي علي الصغير ومنكِر. وبعد استيلاء ابراهيم باشا المصري على سورية (ولبنان) تلقى سكان جبل عامل ضربات قاسية جداً من جيش الأمير بشير الشهابي الذي حارب الأهالي بطريقة وحشية لحساب ابراهيم باشا، فكان سبباً في قتل عدد من وجهاء الأسرة الصعبية التي اختفى اسمها القديم عن مسرح الأحداث، وتحولت كما تحول غيرها من العائلات الكبرى، إلى مجموعة من الأسر الصغيرة التي تحمل اليوم أسماء مختلفة.

---

(١) محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص ١٣٤

الفصل الحادي عشر

جبل عامل والمعنيون

١- جبل عامل في القرن السادس عشر

٢ - حكم الامير فخر الدين بن معن في جبل عامل

٣ - معركة عنجر

٤ - جبل عامل بعد فخر الدين

٥ - مذبحة أنصار الأولى والتاريخ الافتراضي

١ - جبل عامل في القرن السادس عشر

لقد أصبح واضحاً أن الواقع الاجتماعي لأهل جبل عامل يشبه الواقع الاجتماعي في المشرق العربي بكل أشكاله العائلية والدينية والثقافية بما فيها من مفاهيم أخلاقية. أما في الواقع السياسي فإن تبدل السلاطين وانتقال الدولة من المماليك إلى العثمانيين قد خلق واقعاً جديداً يختلف في كثير من الوجوه عن العهد البائد.

كان أول الأمراء الذين تمكنوا من السيطرة على جبل عامل كله هو الأمير ناصر الدين ابن الحنش الذي استمر من العهد البائد في حكم منطقة البقاع (دون بعلبك) وامتدت سيطرته على منطقة صفد فأصبحت بلاد ابن بشارة تحت سلطته بعد أن كان قد عجز عن السيطرة عليها في سنة ٩٠٩/ ١٥٠٢. لقد أدى زوال سلطة المماليك إلى زوال سلطة آل بشارة ووجودهم السياسي.

وقد ذكر ابن طولون المؤرخ الذي عاش أحداث انتقال الحكم من المماليك إلى العثمانيين في دمشق أن ناصر الدين ابن الحنش قد استمر في التعامل مع الوالي العثماني الأول (الغزالي) بنفس الطريقة من الكيد التي كان يتعامل بها في عهد المماليك حيث طلب من الغزالي أن يقضي على أحد خصومه المسجونين. يقول ابن طولون: «وفي هذا اليوم (٢٠ شعبان سنة ٩٢٢/ ١٧ أيلول ١٥١٦) جاء ابن الحنش إلى المزة في جماعات من الخيل حين طلبه الغزالي، وقد كان الغزالي مسك المقدم علاء الدين ابن العماد المقدسي الشهير بابن علاق قبل ذلك ونهب بيوته وأودعه في الحبس. فأرسل ابن الحنش يقول للغزالي إن قطعت رقبة ابن علاق العدو الأكبر لي فأنا أدرك أمر ملك الروم من بلاد حماة إلى بلادي. على أن توليني نيابة حمص. فأمر (الغزالي) بقطع رأس ابن علاق في الحبس، وأرسل إليه إلى المزة. ويقال بأنه أرشا الغزالي على ذلك. ثم جاء ودخل دمشق فألبسه الغزالي خلعة وولاه ما طلبه (أي سنجق حمص) ثم ألبس الغزالي أيضاً بعد ذلك

خلعة لصهر ابن الحنش ابن جانباي البدوي أمير الشام ودركه بلاد حوران والمرج...»[١].

ولم يقف طموح ابن الحنش عند حدود حمص بل تمكن من اقناع السلطان بتوليته مساحة أكبر. لكن ولاية ناصر الدين محمد ابن الحنش لم تدم طويلاً، فالسلطان العثماني لم يكن راضياً عنه منذ البداية. لقد وصف ناصر الدين ابن الحنش قبلاً بأنه كان كثير التمرد على السلاطين المماليك ورغم ذلك فقد كلفوه بالدفاع عن دمشق، فلما وصلت طلائع جيش العثمانيين إلى القابون بالقرب من دمشق قاومهم ابن الحنش وجرت مقتلة عظيمة بين الدمشقيين وجيش السلطان سليم حتى تدخل خير باي واقنع ابن الحنش بالصلح مع السلطان[٢]. ويبدو أن هذا الخبر غير صحيح في الجزء الأهم منه، أي معركة القابون، فما نقله كرد علي مأخوذ من رواية للمؤرخ المصري ابن اياس الذي عاصر الأحداث فيقول بأن «جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان حماة الأمير ناصر الدين ابن الحنش بلغه أن ابن عثمان أرسل جاليش عسكره (مقدمة الجيش) وصحبتهم ابن سوار الذي كان تعصب له. فلما وصلوا إلى القابون بالقرب من دمشق لاقاهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة مهولة قتل فيها منهم جماعة وأطلق عليهم المياه من أنهر دمشق حتى صار كل من دخل في تلك المياه يوحل بفرسه فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان...»[٣]. هذه الرواية ساقها ابن إياس في مجموعة من الأخبار راجت كالإشاعات بين المصريين وتحدثت عن ضعف الجيش العثماني واقتراب هزيمته واحتمال استعادة سلطان المماليك للحكم في الشام وكل ذلك لم يكن صحيحاً فناصر الدين ابن الحنش قد عاد إلى دمشق ولم يدخلها بل لبث في المزة وطلب من الوالي الجديد في دمشق جان بردى الغزالي الذي نودي به نائباً على الشام من بعض الأمراء، أن يقتل أحد السجناء ويكون تبعاً له كما مرّ آنفاً. ولم تستقم الأمور في دمشق للغزالي إلا بضعة أيام واضطر بعدها للفرار منها إلى مصر وفر معه معظم الأمراء الشاميين مع بقايا الجيش المملوكي الذي انهزم في معركة مرج دابق وأصبحت دمشق خالية من الأمراء

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان ص ٣٣٦.
(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ٢١٣.
(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥ ص ١٠٦.

فسيطر على أحيائها جماعات من الزعر وقطاع الطرق والحرافيش وبات أهل دمشق في خوف عظيم. وفي يوم الخميس ٢٨ شعبان ٩٢٢/ ١٥١٦ وصل متسلم ملك الروم (السلطان سليم العثماني) إلى القابون الفوقاني واسمه مصلح ميزان ليكشف هل ستسلم دمشق أم تقاتل فاجتمع الناس «في المصلى بميدان الحصى واتفقوا مع مشائخ الحارات على تسليم البلد»[١]. أما ناصر الدين ابن الحنش فإنه تقرب من جماعة السلطان سليم العثماني وأصبح معهم فيذكر ابن طولون وهو شاهد عيان: «ثم مررت على المقدم ناصر الدين بن الحنش، فإذا به قد ألبسه باشاوات الخنكار (السلطان العثماني) خلعة، وأعطوه سنجقاً، وزادوه على التقدمة إقطاع الأمرية الكبرى بالشام، وإقطاع نوى، وإقطاع ذخيرة ابن السلطان، وألزموه بإحضار العرب فالتزم ذلك»[٢].

وبعد أن مهد السلطان سليم إدارة البلاد وجعل ولاية دمشق تمتد من المعرة إلى عريش مصر، أعطى الحكم في معظمها لناصر الدين ابن الحنش. لكن بعد سنة ونصف عزله السلطان وولى الأمير محمد بن قرقماز. يقول ابن طولون: «الأحد ١٨ ذح ٩٢٣: وفي يوم الأحد ثامن عشره أعطى الخنكار للأمير محمد بن قرقماز النيابة على بيروت وعلى صيدا والتقدمة على بلاد البقاع وما والاهما وما هو في تقدمة الأمير ناصر الدين بن الحنش وما كان زاده للأمير ناصر الدين المذكور على ذلك من إقطاع الإمرية الكبرى وذخيرة ابن السلطان وإقطاع نوى. وشاع أن الخنكار عزم على التوجه إلى البلاد البقاعية للقبض على الأمير ناصر الدين (بن الحنش) المذكور وعلى من عنده من الجراكسة الفارين. وفي يوم الاثنين تاسع عشريه توجه الخنكار من جهة القبيبات ليلاً على الشمع الموكبي بيد الانكشارية ولحقه غالب عسكره وأربع عربات للقبض على الأمير ناصر الدين بن الحنش»[٣]. ويبدو أن ابن طولون الذي تابع وصف كثير من الأحداث التي رآها عياناً في دمشق قد توقف عن متابعة قضية ناصر الدين ابن الحنش الذي أكمل قصته المؤرخ ابن إياس حيث يقول عنه: «.... وأشيع بين الناس أن نائب الشام جان بردى

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان ص ٣٣٧.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٧.

الغزالي تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأغوار والبقاع وغير ذلك من جهات دمشق فلما تحايل عليه وتمت حيلته قتله وقتل شخصاً آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش. وكان ناصر الدين بن الحنش كثير العصيان على نواب الشام بل وعلى سلاطين مصر أيضاً، وكان لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع حتى المقابلة له، فتحايل عليه جان بردى الغزالي حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش وأرسل رؤوسهما إلى ابن عثمان بحلب فعد ذلك من جملة سعد ابن عثمان ولولا تحيل الغزالي على ابن الحنش وقتله بحيلة صعدت من يده لما قدر على قتل ابن الحنش أبداً وقد عجزت عن ذلك سلاطين مصر الأقوياء»(١).

بزوال ابن الحنش بدأت مرحلة جديدة في إدارة ولاية دمشق حيث جرى تقسيمها إلى سناجق وعين على كل سنجق متسلم تكون مهمته جمع الأموال المفروضة وجمع الرجال المقاتلين زمان الحرب وحين الطلب.

وقد خضعت إدارة السناجق التي يتبع لها شيعة جبل عامل إلى عدد من الملتزمين الذين كانوا يتبدلون باستمرار بحيث لم يثبت في القرن السادس عشر من شخصية ذات قيمة تاريخية سوى الأمير منصور بن فريخ (مر الحديث عنه في معرض الكلام عن أسرة سودون). لكن هذا الوضع أصبح اكثر جلاء ووضوحاً مع تسلم أمير جبل الدروز فخر الدين ابن معن لالتزام صيدا ومنطقتها ثم بالتدريج التزم منطقتي الشقيف وبلاد بشارة فخضع للأمير المعني كل شيعة جبل عامل لمدة طويلة. واستمرت بعد وفاته بشكل جزئي حتى نشوء ولاية صيدا سنة ١٦٦٠ فأصبح لباشا صيدا دور مباشر في إدارة جبل عامل.

٢ - حكم الامير فخر الدين بن معن في جبل عامل

استناداً إلى ما كتبه الدكتور سعدون حمادة فإن أول مرة استعمل تعبير جبل الدروز كان في حملة أحمد الحافظ باشا التي جرت سنة ١٥٨٥ حيث قضى هذا الباشا على أمير

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥ ص ٢٥٢-٢٥٣.

جبل الشوف وقتل عدداً جماً من مشايخ الطائفة الدرزية بعد أن غدر بهم. يقول سعدون: «.... قام ابراهيم باشا كعادة الباشاوات العثمانيين في مثل هذه الظروف بمجزرة عامة راح ضحيتها المئات من عقال الدروز ووجهائهم وجمع منهم أموالاً وأسر بعض أمرائهم وحمل الجميع معه إلى دار السلطنة وقبل أن يعود إلى بلاده عين ابراهيم باشا (الأميرَ علي بن موسى) الحرفوش قائداً أعلى للدروز ومنحه لقب باشا. فكان اول حاكم على «جبل الدروز» ولم يكن هذا المنصب موجوداً قبل ذلك»[1].

انطلاقاً من هذا الواقع نشأ جبل الدروز كوحدة إدارية أو كإمارة جمع فيها أربع مقاطعات هي الشوف والجرد والغرب والمتن. وأصبح الأمير المعني الذي هو أمير الشوف أصلاً، أميرَ جبل الدروز بالاتفاق. فالحديث عن أمير جبل الدروز يعني هذه المقاطعات الأربع. وقد عرف الأمير فخر الدين بن معن عند المؤرخين الذين كتبوا في فترة لاحقة في ظروف وجود متصرفية جبل لبنان عن أن الأمير فخر الدين بن معن هو «أمير لبنان» وهذا تعبير خاطىء. فلبنان لم يكن يعرف بهذا الإسم إلا للتعبير عن جزء جغرافي تماماً كالحديث عن جبل حرمون وجبل الألب...إلخ. أما استعمال تعبير «جبل لبنان» بالمفهوم السياسي فلم يظهر تاريخياً إلا بعد سنة ١٨٤٣ على لسان وزير خارجية الأمبراطورية النمساوية مترنيخ. ولم تستعمل كلمة «لبنان» بدون كلمة «جبل» إلا حديثاً، ما كان يسمى «جبل لبنان» في القرن السادس عشر هو المنطقة التي تشمل النواحي الممتدة بين نهر الكلب جنوباً والمرقب شمالاً. فاستعمال الأسماء عند مؤرخي المتصرفية لا يعبر عن حقيقة الواقع التاريخي بل عن رغبة هؤلاء في انتاج تاريخ ل «لبنان» يتناسب مع أحلامهم وطموحاتهم. وعند حديث هؤلاء كالدويهي والمعلوف والشدياق عن الجيش اللبناني وجيش لبنان في مواجهة المتاولة في بلاد جبيل أو جبل عامل فإن التعابير تكون عشوائية تخدم هدفاً عشوائياً وتعبر إلى حد بعيد عن حلم طائفي ما بدأ في منتصف القرن الثامن عشر وتحطم كلياً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

يصف المؤرخ الشيخ أحمد الخالدي الصفدي الأمير فخر الدين بأنه «أمير لواء

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ص ١٠٥.

صفد»[1]. ومهما كان مدى صحة هذا اللقب متناسب مع الدور الذي لعبه الأمير فخر الدين بن معن فإن الحقائق التاريخية تثبت أن الأمير المعني قد التزم منطقة صفد معظم أيام حكمه. فأصبح بحكم هذا الالتزام يحكم منطقتي الشقيف أرنون وبلاد بشارة العامليتين. كما التزم منطقة صيدا وتوابعها في فترة مبكرة من توليه إمارة الشوف.

يتكلم المؤرخ الصفدي في أكثر من مكان عن «الطائفة» كقوله «نهبت الطائفة» أو «عملت الطائفة» بما يوحي أنه درزي وليس هو الشيخ السنّي أحمد الخالدي الصفدي صاحب بعض المؤلفات. ربما يتشابه الإسمان فقط، أما أحمد الخالدي مؤرخ الأمير فخر الدين فهو مما يبدو من كتابته ليس سنياً ولا يستعمل المفردات الشائعة في لغة شيوخ السنة. مع ملاحظة أن اللغة التي يستعملها ركيكة وتستند في كثير من الأحيان إلى مفردات عامية لا يكتب بها علماء الدين الذين يفترض بهم أن يكونوا حجة في اللغة. معظم ما كتبه الصفدي يثبت انتماءه إلى مذهب الموحدين (الدروز) وربما ينتمي إلى جماعة درزية كانت تعيش في نواحي صفد. استناداً إلى ذلك سيعتبر كلام المؤرخ الصفدي هدفه تمجيد سيرة الأمير فخر الدين وإضفاء صبغة أسطورية عليه بحيث يظهر في بعض الأوصاف بأنه أكبر من الباشاوات، وحتى أكبر من الوزراء، وقد نازعته نفسه بالوصول إلى السلطنة. وهذا لا يعدو كونه أضغاث أحلام المؤرخ المتحمس. من هذه الناحية أي كتابة يذكرها الصفدي حول الشيعة في لبنان ستكون موضع شك في صدقيتها لاحتمال تزييف الحقائق بما يخدم سيرة أميره فخر الدين.

الأمير فخر الدين شخصية تاريخية هامة جداً في تاريخ لبنان. ورث إمارة أقليم الشوف عن أبيه الأمير قرقماز ابن معن الذي ورثها بدوره عن أبيه عثمان (ت ١٥٤٤) الملقب بفخر الدين (ابن يونس الذي توفي سنة ٩١٧/ ١٥١١) ابن فخر الدين عثمان (ت سنة ٩١٢/١٥٠٦).

تتفق المصادر اللبنانية على أنه (أي فخر الدين عثمان) كان أميراً في جبل الشوف عند وقوع معركة مرج دابق. وحسب النظام المملوكي كان يفترض بأي أمير سواء كان من

---

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأأمير فخر الدين، ص ٩.

أمراء العشرات أو المئات أن يلتحق مع فرسانه ورجالته بالوالي الذي يتبع له. وحسب هذا النظام التحق الأمير فخر الدين عثمان بوالي الشام سيباي، وكذلك فعل أمراء المناطق اللبنانية مثل أمراء الغرب التنوخيين وأمراء بلاد بشارة والأمير ناصر الدين ابن الحنش وأمير بعلبك ابن الحرفوش...إلخ. كانت نتيجة المعركة وبالاً على الدولة المملوكية حيث هزم الجيش المملوكي بسبب خيانة عدد من الأمراء الكبار. وقتل (أو مات حتف أنفه) السلطان قانصوه الغوري سلطان المماليك في المعركة. كما قتل عدد من كبار قادة الجيش كان منهم نائب الشام. بعد المعركة وانتصار العثمانيين كان من الطبيعي أن تختار الدولة الجديدة لإدارة البلاد حكاماً ينفذون سياستها ويلتزمون طاعتها. فجرى تعيين الأمير فخر الدين عثمان في جبل الشوف. يلاحظ ابتداءاً من هذا التاريخ تغيراً في معنى كلمة «أمير» التي كانت في العهد المملوكي تمنح للمحاربين وتترافق مع إقطاع يناسب الإمرة. أما في الدولة العثمانية فقد أصبح ثابتاً ووراثياً ولا يتلاءم مع المعنى العسكري للإمرة. فلم يكن الأمير عثمان بن معن أمير عشرة أو مائة أو أي شيء بل أصبح أمير جبل الشوف. فصار لقب ال «أمير» يعني الحاكم الذي يمثل السلطان في مقاطعته التي تنتقل بالوراثة لأبنائه مع اللقب.

تولى الأمير فخر الدين بن قرقماس بن فخر الدين عثمان بن معن إمارة الشوف سنة ١٥٩٠ بعد حوادث كبيرة في جبل الشوف والمناطق المجاورة. كان الأمير فخر الدين قائداً فذاً حكيماً وشجاعاً استطاع بحنكته وجرأته أن يبسط نفوذه على مناطق واسعة في المنطقة. وأن يحكم معظم المقاطعات التي تشكل منها ما يعرف حاليا ب «لبنان» مدة طويلة لأول مرة في التاريخ دون أن يتمكن من أن يجعل من «لبنان» كياناً سياسياً موحداً. بل ظلت المناطق اللبنانية تخضع لتقسيم الإدارة العثمانية حيث تلحق كل ناحية بسنجق مختلف. وأكثر المناطق اللبنانية التي خضعت لحكم الأمير فخر الدين بشكل متواصل هي مناطق صيدا والشقيف وبلاد بشارة إضافة إلى جبل الشوف وكسروان والغرب والبقاع (دون بعلبك). فأصبح عدد كبير من شيعة لبنان في ذلك العهد خاضعين لحكم أمير درزي دون أن يظهر إلى العلن أي تنازع ديني أو مذهبي طيلة عهد فخر الدين رغم صبغ بعض عمليات النهب التي جرت في البقاع تلميحاً بطابع مذهبي.

ورغم محاولة كثير من مؤرخي وكتاب الشيعة في لبنان رسم صورة مختلفة عن صراع وحروب بين المعنيين الدروز والعامليين الشيعة، أو تصوير الأحداث بصورة المظالم المتعمدة ضد الشيعة من قبل الأمير الدرزي، إلا أن الواقع يثبت بطلان هذا التصور. لا بل يثبت أن ما كان يواجهه الشيعة عموماً من اضطهاد هو بدرجة ما أقل مما كان يواجهه الدروز تحت حكم الأمير فخر الدين نفسه. فلا هؤلاء ولا أولئك كانوا يملكون من السطوة والقوة ما يكفي لاضطهاد بعضهم البعض. وهذا ما يجعل إدراك ذلك الخضوع العجيب والانقياد السهل لأهالي بلاد بشارة والشقيف للأمير فخر الدين أثناء وجوده، ولأخيه يونس وابنه علي أثناء غيابه.

أول ذكر تاريخي لتولي الأمير فخر الدين صيدا وتوابعها كان في سنة ١٠٠٩/ ١٦٠٠ حيث تذكر بعض المصادر أن والي دمشق نزل في مدينة صيدا أثناء قدومه من البحر متوجهاً إلى مركز ولايته «فواجهه الأمير فخر الدين وقدّم له التقادم والذخاير فطيّب خاطره وكتب عليه إيالة صيدا وأقاليمها. وسكن الأمير في صيدا فحسدوه بيت سودون حكام بلاد بشارة وقرايبهم بيت ظريفة القاطنين في قلعة بانياس، فزحفوا على بلاد صيدا بنحو ألفين رجّال ونزلوا عند النهر (الزهراني؟)...»[1]. هذا النص المنسوب للدويهي في تاريخ الأزمنة لا يستقيم مع الأحداث التي جرت في نفس الحقبة التاريخية. فصيدا لم تصبح إيالة (باشاوية) حتى سنة ١٦٦٠ كما أن الحكاية نفسها مروية بأشكال مختلفة عن اتصال الأمير فخر الدين المعني بالوزراء والباشاوات وتقديمه المال لهم رشوة واتقاءً لأفعالهم فكان يسترضيهم مقابل الحصول على التزامات جديدة فتوسعت سلطته وازداد نفوذه.

ولعل فخر الدين ابن معن هو الزعيم الوحيد في بلاد الشام في القرن السابع عشر الذي تصرف كرجل دولة وكانت له طموحات كبيرة جداً فأنشأ جيشاً نظامياً (السكمان) واستولى على القلاع الأساسية التي تشكل السيطرة عليها قوة واستقراراً للحاكم. كما أنه أنشأ مالية حكومية تصرف فيها في مصالح إمارته حتى أصبح، وهو في الأصل أمير على

(١) علي درويش، جبل عامل (١٥١٦-١٦٩٧) ص ٧٠ نقلاً عن تاريخ الازمنة للدويهي.

منطقة الشوف فقط، حاكماً على منطقة كبيرة واسعة. وامتلك قوة فاقت قوة الباشا في دمشق وطرابلس. فهل كان يمكن لهذا الأمير أن يحكم كل هذه المنطقة لمدة ثلاثين سنة تقريباً دون رضى العائلات والقبائل وعموم الشعب فيها؟ وهل حدث في هذه المناطق أي تمرد أو وقعت مواجهات غير تلك التي قام بها حكام القلاع لنهب قرية عيناثا أثناء غيبة فخر الدين؟

يمكن أن يكون التزام الأمير فخر الدين بن معن لمنطقة صيدا قد حصل قبل سنة ١٦٠٠ لا بل سنة ١٥٩٨. صحيح أنه لا يوجد نص يحدد بدقة متى تم التزام صيدا أول مرة لكن ما ورد من ذكر للأحداث خاصة اصطدام الأمير فخر الدين بآل سودون سنة ١٦٠٠ وتراجعه أمامهم مؤقتاً قد يثبت مثل هذه الفرضية. كانت منطقة صيدا تشمل في ذلك الحين أقليمي التفاح والشومر حيث يشكل الشيعة غالبية السكان فيهما فأصبح التزام هؤلاء مع الأمير فخر الدين أمراً طبيعياً كلما تحرك جيش الأمير يتحركون في ركابه.

في سنة ١٦٠٣ حصل الأمير فخر الدين بن معن على التزام سنجق صفد الذي كان يشمل منطقتي بلاد بشارة وبلاد الشقيف (أرنون) فأصبح شيعة جبل عامل كلهم يخضعون لسلطة الامير فخر الدين في الجباية والتعبئة. وسيظل فخر الدين أو من ينوب عنه، طيلة حياته يسيطر على هذه المناطق بشكل متواصل حتى سنة ١٦٣٣ باستثناء فترات قصيرة ومحدودة.

ولا يبدو أن الامير فخر الدين ابن معن قد خاض في منطقة جبل عامل صراعاً دينياً أو مذهبياً أو مناطقياً. فشيوخ جبل عامل وزعماء العائلات الكبرى وقفوا مع الملتزم الجديد دون أدنى مقاومة. وكانوا بذلك يثبتون خضوعاً واضحاً للدولة العثمانية التي كانت بلا شك تترقب منهم اي تصرف معادٍ للانتقام منهم وهذا ما لم يحصل. فالسلطنة كانت في حرب ضروس مع الدولة الإيرانية في العراق وبلاد الأرمن وقد وقعت معارك ضارية بين الطرفين أدت إلى استيلاء الإيرانيين الشيعة على بغداد. في هذه الفترة بالذات استخدم في المصادر التاريخية كلمة «قزلباش» التي كانت تعبر عن أمراء الجيش الإيراني الصفوي. وتعود التسمية إلى حيدر الصفوي الذي قاد جماعة من المحاربين كان أفرادها يعتمرون قبعات حمر باثني عشر علامة كدليل على الولاء للائمة الاثني عشر، وقد دعاهم الأتراك

بـ «قزلباش» أي القبعات الحمر. فيقال عن الشاه اسماعيل بن طهماسب أنه تعين بإجماع «أمراء قزلباش» عليه[1].

في هذه الفترة تولى حسين باشا جانبولاد ولاية حلب على شرط أن « يعطي للسلطنة كل سنة ست كرّات، كل كرّة مئة ألف ذهباً، وعلى أن يسافر مع سنان باشا إلى حرب قزلباش بخمسة آلاف مقاتل»[2]. فلم يكن أمام الشيعة في جبل عامل وفي كل بلاد الشام من وسيلة للعيش بسلام في بلادهم إلا إظهار طاعتهم للسلطنة ولمن تعينه ملتزماً في بلادهم.

في ذات الوقت كان الأمير المعني على علاقة وطيدة مع أمير البقاع البعلبكي الأمير يونس الحرفوش الشيعي وقد أمده بعسكر لمحاربة باشا دمشق حافظ باشا سنة ١٦٠٦[3]. وهذا التصرف من الأمير فخر الدين كان بعيد النظر لأن دعمه لأمير خارج حدود سلطته يعني أنه أصبح قوة معتبرة لها شأن في صراعات المنطقة. ولأنه شعر بهذه القوة تجرأ على رفض أوامر نصوح باشا الصدر الاعظم عندما طلب منه أن يقتل الأمير يونس بن الحرفوش، بالإضافة إلى أوامر أخرى أشد قسوة أصدرها الباشا سنة ١٦١١ أهمها تسليم وهدم قلعتي بانياس وشقيف أرنون، وفضّ السكمانية (الجنود النظاميين). بما يعيد فخر الدين إلى مستوى الأمير الضعيف الذي يحكم إمارة الشوف الصغيرة فقط. كما طلب نصوح باشا من الأمير فخر الدين تقديم مبلغ كبير من المال على سبيل الخدمة (الرشوة) للسلطان ولنفسه[4]. فوافق الأمير على دفع المال لكنه رفض الأوامر المتعلقة بالسكمان وبالقلعتين المذكورتين، فكان ذلك سبباً للحرب التي أعلنها الحافظ أحمد باشا سنة ١٦١٣ على الأمير فخر الدين مما اضطره للفرار من البلاد إلى أوروبا تاركاً لأخيه الأمير يونس ولابنه الأمير علي المحافظة قدر الإمكان على قوة الإمارة الفتية.

في هذه المرحلة طلب الحافظ أحمد باشا من أهالي بلاد الشقيف وبلاد بشارة الالتحاق

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٧١.
(٢) البوريني، تراجم الاعيان ج ٢ ص ٥٧.
(٣) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٣٩.
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٠.

بجيشه لمحاربة الأمير فخر الدين المتمرد على أوامر السلطان، فالتحقوا بالباشا دون أن يظهر من أحد من زعمائهم أي تردد، فهم يخضعون لمن يتولى سنجق صفد. وربما لهذا السبب هاجم الأمير فخر الدين قبل سفره إلى أوروبا بمدة قصيرة قرية الكوثرية (غرب النبطية) ونهبها دون أن يقدم على قتل أحد من أبنائها. حيث تفيد المصادر التاريخية حول هذا الحدث بأسلوب غامض أن الأمير فخر الدين حين كان «أسفل قلعة الشقيف شكا إليه أناس أن جماعة مشايخ قرية الكوثرية مخرقوا في البلاد فنهض إليهم بعسكره إلى القرية فنهبها»[١]. ومع أن هذه الحادثة ينقلها علي درويش عن أحمد الخالدي الصفدي بصيغة مختلفة قليلاً وهي في حوادث سنة ١٦١٣/ ١٠٢٢ في تلك السنة عاد فخر الدين من «طبرية وبات في قرية سعد بن أبي وقّاص بمن معه من العسكر، ورحل منها إلى تحت قلعة الشقيف وأناخ هناك للاستراحة. فجاء إليه أناس واشتكوا من أولاد علي (؟) مشايخ قرية الكوثرية بأن جماعتهم شلحوا أناساً، وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية. فركب عليهم بخيله ورجله. فما وجدهم بالقرية بل كانوا غايبين في جمعية بني منوالي، وصار كبيرهم الحاج علي وأخوه ناصر الدين ولدي منكر. فنهب جميع أرزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم قرية الكوثرية المذكورة. وأخذ ما لكل واحد منهم من الدواب وغيرها ليتأدب غيرهم. وعاد إلى خيامه تحت قلعة الشقيف وأقام يومين»[٢]. كما ينقل نفس التهمة عن تاريخ حيدر الشهابي نحو أولاد «علي الصغير» وليس أولاد منكر. وليس في هذه الحادثة أي تحد للمعنيين ولا لأميرهم فخر الدين، لكن إجتماع بعض زعماء العائلات العاملية في «جمعية مشايخ بني متوالي» الذي ربما تم بمناسبة دينية أو اجتماعية وليس لهدف سياسي. فما بدر من العامليين أي تصرف يثبت ذلك العداء المفترض. إن قيام فخر الدين بنهب قرية الكوثرية بالذات يثبت أن الحدث موجه ضد أشخاص معينين بالخصوص وليس ضد جبل عامل لأنه لم تنهب أي قرية أخرى رغم وجود عدد منها على الطريق من أرنون إلى الكوثرية. وكذلك يثبت أن الأمير أراد توجيه رسالة إلى الحافظ أحمد باشا أن المعنيين هم القوة الوحيدة القادرة على فرض الأمن والاستقرار في المنطقة.

---

(١) ١٥ المصدر السابق ص ٢٤٢.

(٢) علي درويش، جبل عامل (١٥١٦-١٦٩٧) ص ٩٣ نقلاً عن الصفدي ص ١٦.

وبغياب هذه القوة قد تتحول المنطقة إلى الفوضى. كما يلاحظ أن الخبر عن هذه العملية لا تذكر وقوع ضحايا لأن فخر الدين اكتفى بنهب أرزاق المنكريين «.... وأخذ ما لكل واحد منهم من الدواب وغيرها ليتأدب غيرهم بهم». وهذا ما يؤكد أن هذا الحدث ليس حرباً بين الشيعة والمعنيين، بل حركة عادية كثيراً ما كان يجري أمثالها في ذلك العهد. يؤكد ذلك مجموعة أخبار وروايات عن أعمال مشابهة في أكثر من منطقة. فلا يجب أن يفهم من ذلك أن الأمير فخر الدين كان معادٍ للشيعة في جبل عامل على أساس مذهبي، وأن الشيعة العامليين كانوا يتحينون الفرص للتخلص من ظلم المعنيين، كما يصف بعض الكتاب العامليين في العصر الحديث. بل بسبب الصراع المتواصل مع الباشاوية ورغبة الأمير المعني في إظهار قوته التي تتيح له الصلح مع الباشا من موقع قوي.

بعد سفر الأمير فخر الدين إلى أوروباً فاراً من وجه الحافظ أحمد باشا سنة ١٦١٣ استمر أخوه الأمير يونس وابنه الامير علي في إدارة الأمور بما فيها مواجهة حملة الحافظ أحمد باشا الذي سارع إلى مهاجمة منطقة الشوف معقل الأمراء المعنيين. فأرسل عسكراً يهاجمهم والتقى الطرفان عند نهر الباروك، فتمكن المعنيون من الانتصار عليه في تلك المعركة. لكن جيوش الحافظ أحمد باشا تقدمت من أكثر من مكان حتى استولت على دير القمر العاصمة الجديدة التي استقر بها الأمير يونس بعد سفر فخر الدين فنهبت جيوش الباشا دير القمر وأحرقت منازل آل معن التي فيها. واجتمع أنصار المعنيين في مرج بسري إلى الشرق من صيدا فأرسل الحافظ أحمد باشا جيشاً لمهاجمتهم فتمكن المعنيون من هزيمته. فاستعان الباشا بنجدة قدمت من طرف يوسف باشا سيفا والي طرابلس مما اضطر الأمير يونس بن معن شقيق الأمير فخر الدين للانسحاب نحو قرية الجرمق في بلاد الشقيف ومن هناك توجه إلى قلعة بانياس واحتمى فيها.

وقبل وصوله إلى القلعة كانت المؤنة فيها قد قلّت كما قلّت في قلعة أرنون بعد مواجهات بين جيش الحافظ باشا وأنصار المعنيين. وقد لجأ رجال من القلعتين إلى النهب من القرى المجاورة للحصول على المؤن. لكنهم أخطأوا التقدير كثيراً عندما هاجموا إحدى القرى العاملية. فمسألة الولاء للملتزم وتنفيذ أوامر السلطنة شيء، والخضوع لأعمال السلب والنهب شيء آخر. وأهل جبل عامل ليسوا لقمة سائغة ولا

ضعفاء في وجه الغزاة. لقد كان لرجال جبل عامل الموقف البطولي في الدفاع عن قراهم دون أن يتركوا للنهّابين الحرية في تنفيذ أفعالهم القبيحة.

ويسجل لأسرة آل شكر التي كانت في طليعة العائلات العاملية في الدفاع عن البلاد في ذلك العصر موقفها البطولي وسرعة استجابة رجالها لمواجهة طوارق الحدثان. وهو ما لم يعترف به بعض مؤرخي جبل عامل حين يصفون أسرة آل شكر بكثير من الأوصاف المبتذلة فقط ليمهدوا لفكرة حق عائلة أخرى في «حكم» جبل عامل.

في العام التالي ١٦١٤ عُزل الحافظ أحمد باشا عن ولاية دمشق وحل مكانه جركس باشا الذي سرعان ما أرسل ينادي بالأمان مما أتاح للفارين من أهل الشوف العودة إلى بيوتهم وقد انتزعت صيدا وصفد من التزام المعنيين وسلمت لوالٍ جديد سارع إلى مفاوضة الأمير يونس على حل للأزمة فتم الاتفاق بعد حين على دفع مبلغ من المال للسلطان وتسليم جزئي لقلعتي الشقيف وبانياس. وحصل الأمير يونس بن معن على سنجق صيدا وبيروت ومعاملاتهما. وفي خضم هذه الأحداث برز ذلك الولاء الغريب لرجال بلاد بشارة والشقيف للأمير المعني علي بن فخر الدين. فرغم أن هذه البلاد لم تعد في التزام الأمير المعني الذي لم يسيطر إلا على صيدا وبيروت ومعاملاتهما إضافة إلى قلعتي بانياس والشقيف فإن اجتماع جيش للمعنيين شارك فيه رجال بلاد بشارة والشقيف بإمرة الأمير علي الشهابي الموالي للمعنيين قد تم في مواجهة جيش جمعه يوسف باشا سيفا وشارك فيه معه الأمير شلهوب بن الحرفوش البعلبكي (الذي تمرد على نسيبه الأمير يونس الحرفوش) كما شارك في هذا الجيش الأميران أرسلان وموسى الكرديان. والتقى الطرفان في حارة الناعمة (سنة ١٦١٥) حيث جرت معركة كبيرة انتصر فيها المعنيون وحلفاؤهم انتصاراً كبيراً كان من نتائجه نهب قرى المقاطعات الدرزية الثلاث الجرد والغرب والمتن وإحراق بيوتها رداً على نهب وحرق الشوف سنة ١٦١٤[1]. وهذا العمل، أي النهب والحرق، كان أمراً عادياً في حروب الأمراء والباشاوات فلا يفترض أن يفهم ذلك على أنه حرب مذهبية أو دينية، تماماً كما لا يفهم نهب أرزاق آل منكر في الكوثرية قبل ذلك بسنتين على أنه لأسباب مذهبية.

---

(١) باختصار من الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ، ص ٢٥١.

في أعقاب هذا النصر استعاد المعنيون معظم الالتزامات التي كانوا يتمتعون بها سنة ١٦١٣ حيث سلّم الأمير علي بن فخر الدين عمه الأمير يونس مقاطعة الشوف وبلاد بشارة وكسروان. وولى الأمير منذر التنوخي بيروت وناصر الدين التنوخي مقاطعة الغرب والجرد وولى حسين اليازجي بلاد صفد وبلاد الشقيف. وأبقى على ولاية (مقاطعة) صيدا طويل حسين بلكباشي[1]. ولما لم يلتزم الأمير يونس وحسين اليازجي بشروط الالتزام أقدم الأمير علي على سلخ بلاد بشارة عن عمه وسلمها لحسين اليازجي وأمره أن يؤدي مالها للدولة. هكذا أصبح الشيخ حسين اليازجي هو المسؤول عن جبل عامل (دون صيدا ومعاملاتها) وأصبح على الرجال فيه تنفيذ أوامره وهو ما حصل سنة ١٦١٧ عندما طلب الأمير علي بن فخر الدين من الشيخ حسين اليازجي أن «يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف ويحضر بهم إلى صيدا». ثم توجه بهم شمالاً لمهاجمة عكار حيث أمر بنهب قرى الحمادية والشاعرية وحريقها[2]. مع العلم أن الحمادية كانوا من الشيعة. لكن وقوفهم مع يوسف باشا سيفا جعلهم في موقع المعادي لرجال بلاد بشارة والشقيف، وهم من الشيعة، الذين يوالون أو يخضعون للأمير علي بن فخر الدين.

يمكن متابعة هذا الشكل من العلاقة بين الأمير فخر الدين بن معن أو من ينوب عنه، وبين أهل بلاد بشارة والشقيف ومعاملة صيدا من العامليين حيث يكونون تبعاً لمن يتولى سنجق صفد أو صيدا وبيروت. وأبسط مثل على ذلك ما حدث سنة ١٠٢٦ / ١٦١٧ قبيل عودة الأمير فخر الدين بن معن عندما حصل الشيخ حسين اليازجي على التزام سنجق صفد من باشا دمشق. يقول أحمد الخالدي الصفدي مؤرخ الأمير فخر الدين أنه في سنة ١٠٢٦/ ١٦١٧ «.....وكتب (الشيخ حسين اليازجي) لجميع مشايخ بلاد صفد يعلمهم أنه صار سنجقاً عليه، فبعض مشايخها المذكورين لم يطابقوا على ذلك، والبعض وافقوا مثل بين منكر وبيت شكر وبيت علي الصغير»[3]. أسماء الأسر الثلاث المذكورة في بلاد

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص٢٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٩٩.

بشارة (شكر وعلي الصغير) والشقيف (منكر) هو تأكيد لولاء أهالي جبل عامل التابع لسنجق صفد للملتزم الجديد دون الاهتمام بشخصيته ومذهبه.

اعتبر الأمير علي بن فخر الدين بن معن تصرف الشيخ حسين اليازجي خيانة له ولأبيه لأنه كان من أتباع الأمير وتوجه إلى دمشق بطلب من الأمير علي لمفاوضة الباشا فيها على بعض المسائل. فأرسل الأمير علي مدبره (كتخدا) مصطفى، وطويل حسين (بلوكباشي) والسكمان ورجالاً من بلاد صيدا وبعض مشايخ الشوف بخمسماية مقاتل إلى صفد. وعزم على النهوض بنفسه برجال الشوف والغرب والجرد والمتن[١]. فتحرك جنوباً «وباتوا تلك الليلة على بركة تبنين. وفي اليوم التالي قاموا منها إلى قرية سعد بن أبي وقاص فوجدوا حسين اليازجي سبقهم إلى صفد بليلة.... وفي تاني يوم أرسل حسين اليازجي قاسم بن شبل أحد أعيان الشام ليفاوض مصطفى كتخدا وطويل حسين بلوكباشي. وفي يوم الجمعة ٤ جمادى ١ (سنة ١٠٢٦/ ١٠أيار ١٦١٧) وبعد صلاة الصبح ركب من صفد ومعه نحو مائتي نفر فسار إلى الوعرة التي فوق الوقّاص. والتقى بجماعة المعنيين فاشتبكوا نحو ساعتين «فأعطى اللّه النصر لعسكر ابن معن وانهزم حسين اليازجي. وصادف حين انهزامه شقيفاً كبيراً عارضه قدّامه فما أمكن أن تسلكه الفرس فنزل عنها واختبأ في سرّيسة وجلس. وجاء الشيخ هاشم برو وجماعته وهم من كفرحونة يبحثون عنه دايرين الوعر على المكاسب فصدفوه (الشيخ حسين اليازجي) فقام على حيله وركض على الشيخ هاشم فكان الشيخ هاشم أقدر منه وأقوى فقتله وقطع رأسه في نهار الجمعة ٤ جمادى١ وأخذه إلى صيدا[٢].

في هذه الأحداث لا يبدو أن لرجال بلاد بشارة والشقيف أي دور في المعركة نظراً لاستعجال الشيخ حسين اليازجي الخروج إلى الحرب قبل استكمال استعداده لها، أو لأنه توقع أن تنتهي الأمور بالصلح مع أميره الذي كان يعمل لمدة طويلة معه.

المهم أن نهاية المعركة بانتصار المعنيين قد فتح الباب لمواجهة جديدة تختلف عن

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٥٤.
(٢) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين، ص ١٠١.

السابقة. وهي ظهور خلافات خطيرة مع أمير بعلبك القوي الأمير يونس بن الحرفوش الذي تدخل لدى باشا الشام ليحصل على التزام سنجق صفد لعلي بن فخر الدين. وكان الأمير أحمد بن الأمير يونس الحرفوش متزوجاً بابنة الأمير فخر الدين فارتأى في هذا الوقت أن ينتقل للسكن في قرية مشغرا وشرع يبني داراً فيها. «وكتب إلى مشايخ بلاد بشارة المتاولة أن يتقربوا إليه. فأنف الأمير (علي بن فخر الدين) من ذلك وكتب إلى والده (الأمير يونس بن الحرفوش) إلى بعلبك أن يمنعه عن السكنى في مشغرا[(١)]. ويفصل الصفدي مؤرخ الأمير فخرالدين هذه الحادثة بما يوحي ببدء ظهور العداء والتنافس بين الإمارتين إمارة بعلبك وإمارة جبل الدروز. وكل أمير فيهما كان يبحث عما يرضي طموحاته. يقول الصفدي: «وقبل هذه الأحوال (اي قضية حسين اليازجي وصفد) كان صار نصيب للأمير أحمد ابن الأمير يونس ابن الحرفوش في مصاهرة الأمير فخر الدين ابن معن وعقد عقد نكاحه على كريمته. فأغرّه الطمع بتدبير والده وحيله فجاء وسكن قرية مشغرا، واسس بها بنياناً ليعمر فيها مسكناً فيه يقيم. وصار يراسل ويكاتب بني متوالي من المشايخ المتعينين. فطلع إليه من شيعته وملته بهدايا أولاد داغر وأولاد علي صغير وابن منكر الحاج ناصر الدين بحجة أنهم يسلمون على قرابتهم الحاج علي ابن منكر لكونه كان نازحاً عنهم من (منذ) رجع الأمير علي إلى البلاد وحكمها، ونازلاً عند ابن الحرفوش الأمير يونس. فلما رأى الأمير علي ذلك وعلم أن مجيء الأمير أحمد المذكور إلى مشغرا مبني على فساد، وأنه ما مراده بالمجيء إلى هذه القرية إلا استمالة بني متوال إليه، واجتماعهم عليه، وإن كان ظاهره أن مراده بالبني (البناء) في مشغرا أن يسكن بشقيقة الأمير علي بها. فأرسل الأمير علي لأبيه الأمير يونس ابن الحرفوش مع السيد نور الدين من قرية جبع يذكر له انكان (إن كان) مرادكم محبتنا وصداقتنا فامنعوا ولدكم الأمير أحمد من البنا في قرية مشغرا، ومن السكن بها أيضاً. فإنه لا يتأتى من ذلك إلا العداوة بيننا والبغضاء. فأرسل جواباً يوهم (أنه) صحيح وقال نحن ما مرادنا إلا التقرب إلى جنابكم بالمليح وأن الذي خطر في بالكم لم يخطر ببالنا وذكر أعذار (اً) على هذا المنوال غير مقبولة وغير معقولة. فأرسل الأمير علي مرة ثانية مع السيد نور الدين المذكور أنه لا بد

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٥٥.

من منع ذلك إن قصدتم صداقتنا على اليقين. وإن كان لكم خاطر ونية غير ذلك عرّفونا بها لنكون على بصيرة[١].

كانت نتيجة هذا التحذير المعني الظاهري هو استجابة الأمير يونس (الحرفوش) الذي طلب من ابنه الأمير أحمد أن يتوقف عن البناء ويترك مشغرة. لكن الأمير يونس بن الحرفوش أدرك مرامي الأمير المعني الذي يخشى وجوداً مذهبياً مغايراً له يمكن أن يستعمل ضده في أي مواجهة في المستقبل. كما فهم الامير الحرفوشي أن ما ينطبق على الأمير الدرزي في جبل الشوف ينطبق كذلك على الأمير الشيعي في بعلبك والبقاع. لذلك أمر بمنع إقامة الدروز في منطقته، كما منعهم من العمل في المزارع التي تخضع لسلطته. الفارق بين الأمير المعني والأمير الحرفوشي هو أن الأمير المعني قد وجد من يكتب له سيرته وتاريخه (مثل الشيخ أحمد الخالدي الصفدي)، بينما لم يهتم أمير بعلبك بكتابة التاريخ والسير. وسيتبين هذا الأمر عندما يختلف الأميران فيما بعد.

لقد واصل الأمير يونس بن الحرفوش الاتصال بالمشايخ الشيعة الذين أصروا على إقامة علاقات قوية مع الأسرة الحرفوشية لاعتبارات مذهبية أو لأسباب أخرى من أهمها طلب الحماية عند أمير قادر عليها. ووجد الشيخ علي ابن منكر شيخ أسرة آل منكر في الحرافشة سنداً وملاذاً بعد أن وقف إلى جانب حسين اليازجي عندما تعيّن ملتزماً لسنجق صفد. ولهذا السبب فرّ إلى الشيخ أحمد ابن الحرفوش كما يصرح بذلك المؤرخ الصفدي. أما أخوه الشيخ ناصر الدين ابن منكر الذي بقي في جبل عامل فقد اضطهد على أيدي المعنيين حيث كان اعتقاله وسجنه أول عمل قام به الأمير فخر الدين بن معن بعد عودته.

عاد الامير المعني إلى البلاد سنة ١٦١٨ بعد غياب دام خمس سنوات ونزل في عكا حيث استدعى إليه الأمراء والأعيان والمشايخ فوصل إليه «أخوه الأمير يونس واجتمع في عكا هو وإياه وكذلك جميع مشايخ بلاد صفد وبشارة والشقيف وبلاد صيدا حضروا

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين ص ١٠٥.

إلى عكا وقبلوا أياديه»[١]. وبعد أن استعرض الوافدين للسلام عليه من مشايخ الشيعة في بلاد بشارة والشقيف وصيدا. «وكان قد بلغ الأمير فخر الدين أحوال مشايخ بني متوالي ومقابلتهم لابن الحرفوش في قرية مشغرا فحين وقعت عينه على الحاج ناصر الدين ابن منكر مسكه لأنه من أعيانهم»[٢].

الذريعة التي يقولها المؤرخ الصفدي يمكن أن تكون حجة زائفة لأمر مختلف. فالمشايخ الذين ذهبوا للسلام على الأمير كانوا كلهم من الأعيان وليسوا من العامة، فهم مشايخ معينين أي أصحاب نفوذ. أما لماذا اعتقل الشيخ ناصر الدين فقط فللأمر علاقة بمال قديم كما يصرح الشدياق في تتمة الخبر حيث أن الأمير يونس ابن الحرفوش قد أرسل «مدبره يلتمس له من الأمير اطلاق الحاج ناصر الدين منكر وكفل الأمير يونس عنه اثني عشر ألف غرش يدفعها لأرباب الدَّيْن الذين في دمشق فأطلقه»[٣].

عودة فخر الدين إلى حكم المناطق التي كان يحكمها بالالتزام قبل سنة ١٦١٣ طرح مشكلة خطيرة عليه وهي مطالبة الدولة له بدفع الأموال المتراكمة عليه لمدة طويلة (على الأقل ثلاث سنوات) «فتوجه بنفسه إلى عكا وفرق المحصلين بطلب الأموال عن خمس سنين من حين ذهابه إلى البلاد الافرنجية إلى حين إيابه. فنزحت مشايخ بلاد بشارة بنو منكر وبنو علي الصغير إلى بلاد بعلبك إلى الأمير يونس الحرفوش. وفر من صفد الشيخ أحمد الجلالي وأقاربه إلى الجولان. ولما بلغ الأمير ذلك هدم مساكنهم وضبط غلاتهم. ثم فر شيخ ساحل عكا...»[٤]. هذا يثبت أن سبب فرار مشايخ الشيعة في جبل عامل إلى بعلبك ليس بسبب حرب مذهبية أو طائفية، وليس لأن الأمير المعني تقصدهم بالأذية لأنهم يختلفون عنه دينا أو مذهباً، ولكن لظلم حاق بهم بسبب تعسف جلاوزة الأمير أو الباشا المكلفين بجباية أموال ظلماً. والأمير المعني كان ينفذ أوامر الباشا الذي ينفذ

(١) المصدر السابق ص: ١٢٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٧.

أوامر السلطان. لقد وقع تحت هذا الظلم الشيعي في جبل عامل والسني في عكا وصفد والدرزي في جبل الشوف...إلخ.

بعد أن تمكن الأمير فخر الدين من جمع المال ظلماً بدأ سلسلة حروب ومعارك طموحة تجاوزت كل الذي كان مألوفاً قبله، وفتح الباب لكل أمير طموح أن يتمرد على السلطان إن استطاع ذلك. أول حروبه كانت ضد يوسف باشا سيفا الذي كان سابقاً يحكم ولاية طرابلس فعزل عنها بعمر باشا الكتنجي الذي أوعز إلى فخر الدين أن يهاجم ابن سيفا في عكار وأنه سوف يدعمه ويحميه إذا ما احتجّت السلطنة على ذلك. فتحرك الأمير فخر الدين فوراً وجمع رجال الشوف والغرب والجرد والمتن (مقاطعات الدروز الاربع في جبل الدروز) وكسروان. وكتب «إلى ولده الأمير علي أن يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا (مقاطعات الشيعة الثلاث في جبل عامل) ويذهب بهم إلى غزير. وكتب إلى الأمير علي الشهابي أن يوافي برجال وادي التيم ولده علياً إلى غزير. وكتب إلى الأمير يونس الحرفوش (الحليف القوي) أن يضبط ما لآل سيفا من المواشي والغلال في القيرانية والهرمل»[٥]. بملاحظة أسماء المناطق واجتماعها على حرب ابن سيفا تظهر أن فخر الدين سنة ١٦١٨ كان يحكم فعلياً معظم الخريطة اللبنانية بما فيها من طوائف ومذاهب. أو أنّ راوي الخبر المؤرخ الشدياق أراد أن يعطي صورة تاريخية عن وجود لبنان تاريخي تحت حكم الأمير المعني. وفي الحالتين فإن الأمير الطموح كان يسعى لقيام كيان سياسي دون أن يقصد إقامة كيان مذهبي أو طائفي معين. وقد ثبت في الأحداث التي جرت بعد ذلك على أنه لم يكن يهتم كثيراً بدين أو هوية الرجل بقدر ما كان يهتم بولائه له حتى فهم من حركة الأمير فخر الدين بن معن وكذلك خلفائه من بعده أنه يسعى «لإقامة كونفدرالية للقبائل الجبلية في سورية للجم الباشاوات»[٦]. لقد تمكن الأمير فخر الدين من هزيمة يوسف باشا سيفا في عدة معارك في عكار واستولى على عدة قلاع وأبراج في المنطقة فقام بهدم بعضها. ولم تنته الحرب حتى تعهد يوسف باشا سيفا بدفع مبلغ كبير من المال (٣٠٠ ألف غرش). وانتقم الأمير فخر الدين من عدد من

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٨.

(٦) قسطنطين بازيلي سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٤٠.

الرجال والشيوخ الذين شاركوا في الهجوم على الشوف سنة ١٦١٣ مع حملة الحافظ باشا كما هدم بعض قصور آل سيفا رداً على هدم بيوت المعنيين في دير القمر.

وقد عاود الأمير فخر الدين بعد سنتين (١٦٢٠) مهاجمة طرابلس حيث تفيد المصادر التاريخية أن الذين كانوا يدافعون عن أبراج المدينة هم آل حمادة الشيعة حيث دافعوا عن طرابلس دفاع الأبطال واضطروا في النهاية للانسحاب والتحصن في القلعة والدفاع عنها حتى وصول قبوجي باشا ومعه أوامر برفع الحصار عن المدينة فاستجاب الأمير المعني وانسحب مع جيشه عائداً إلى دير القمر.

في سنة ١٦٢٢ بلغ الأمير فخر الدين بن معن من القوة ما دفعه لمناكفة حليفه الشيعي الكبير الأمير يونس ابن الحرفوش. ما بدأه الأمير علي سنة ١٦١٧ عندما منع الأمير أحمد الحرفوش من السكن والبناء في مشغرة أصبح أكبر من ذلك سنة ١٦٢٢ . لقد تأكد للأمير المعني فخر الدين أن طموحاته السياسية والعسكرية لا يمكن أن تستمر إلا إذا قضى على كل سلطة تجاوره أو تشاركه مهما كانت أهميتها ومهما كان حجمها. لقد كانت معركة طرابلس وعدم قدرة السلطنة على منعه منها إيذاناً بقدرته على القيام بتمرد شامل على الباشاوات. ومن الطبيعي أن يخوض الشيعة الخاضعين له في جبل عامل الحروب إلى جانبه باعتبارهم أتباعاً ورعايا في مناطق خاضعة له.

بدأ الأمير فخر الدين توسعه بافتعال حادثة مع الأمير يونس الحرفوش الذي كان في ذلك الحين أحد أهم وأقوى الأمراء في سورية مع التذكير بأن أسرة آل حرفوش هي الأكثر أهمية في تاريخ الأسر الشيعية في لبنان بعد بني بشارة. لا بل تزيد عليها أهمية. ومن خلال أهمية هذه الأسرة يتبدى ذلك الارتباط التاريخي الكبير بين الحرافشة وبين الأمير فخر الدين بن معن من خلال المصاهرة مرتين وكذلك بالمشاركة في حروبه ومعاركه الكثيرة، وتقاسم المصالح بين الطرفين كشريكين مخلصين. لكن هذه العلاقة انتهت نهاية كارثية للأمير يونس الحرفوش رغم استعادة الحرافشة لإمارتهم بعد ذلك. كما كانت خاتمتها وبالاً على الأمير المعني الذي أعدم فيما بعد وكانت إحدى التهم الموجهة إليه هي تخريب ونهب مقاطعة بعلبك.

٣ - معركة عنجر

أصبحت الأزمة بين الأمير فخر الدين وبين الأمير يونس بن الحرفوش أكبر بكثير من خلاف بين أميرين محليين. فالأمير فخر الدين لم يكن معه حلفاء ولا مناصرين من رجال الدولة الكبار في الولايات الشامية. وليس معه إلا رجال المناطق التي يحكمها في المقاطعات الدرزية الأربع (الشوف والجرد والغرب والمتن) ومقاطعات جبل عامل الثلاث [بلاد بشارة والشقيف وصيدا (أقليمي التفاح والشومر)] بالإضافة إلى رجال وادي التيم مع آل شهاب. ويظهر ترتيب الأمير فخر الدين لجيشه قبل المعركة هذه الحقيقة التي وحدت بين طوائف ومذاهب وجماعات مختلفة دون أن يظهر أي تمرد مهما كان صغيراً في جبل عامل رغم أن الظروف كانت تسمح لمن يريد أن يلجأ إلى الجهة المقابلة حيث احتشد جيش عرمرم مؤلف من جيش بشالك دمشق بقيادة مصطفى باشا بيكلربيكي الشام نفسه. يقول الصفدي أن الأمير فخر الدين: «قسم الرجال والناس فجعل طايفة السكمانية الجديدة وطايفة سيف بلوكباشي الذين جاؤوا من عند الأمير مدلج مع رجال بلاد الغرب والمتن كومة واحدة مع حضرته. والطايفة القديمة السكمانية وأهل الجرد كومة واحدة مع ولده الأمير علي. وأهل الشوف مع أخيه الأمير يونس كومة واحدة. والرجال الموجودين من بني متوالي مع مصطفى كتخدا. ومشيوا من قب الياس ضحوة النهار أربع ألايات وعدة الجميع اربعة آلاف رجل غير رجال أولاد الشهاب وكان مقدارهم ألف رجل. وأما عسكر الشام لما وصل إلى نبع عنجر علقت الكاينة (المعركة) بينهم وبين رجال أولاد الشهاب. فمشى عليهم العسكر أزلام السكمانية وملك (عمر) ابن سيفا و(يونس) ابن الحرفوش البلد. وفي يوم الاربعاء ٨ محرم من السنة المذكورة (١٠٣٣/ ٣١ تشرين الأول ١٦٢٣) وعلموا بوصول الأمير فخر الدين فتراخت عزايمهم....»[1].

بعد ساعات قليلة من بدء المعركة بدأ جيش الباشا بالتفكك وسارع عدد من رجاله إلى الفرار تاركين الباشا مع عدد قليل من خاصته. فوقع أسيراً بيد رجال الأمير فخر الدين. يقول الصفدي: «وأما مصطفى باشا بيكلربيكي الشام فما أمكنه الانهزام مع المنهزمين

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٢١٠.

فمُسك قبضاً باليد. وأما الأمير يونس ابن الحرفوش والأمير عمر بن سيفا ورجالهما وكرد حمزة بلوكباشي فكلهم ما باتوا تلك الليلة إلا في مدينة بعلبك منهزمين. وفي الحال توجه الأمير يونس (ابن الحرفوش) وأولاده وعياله إلى حصن اللبوة بعد أن أبقى سكمانيته بقلعة بعلبك...»[1].

إن ملاحظة الأسماء التي شاركت في تلك المعركة تظهر أن الأمير فخر الدين قد أصبح على مستوى من القوة بما يكفي لمواجهة الباشاوات، طبعاً بدعم من وزراء وباشاوات آخرين، وليس تمرداً من ذاته على السلطنة. وهذا يعني القدرة على التحرك حين يشاء ما دامت جيوش ولايتي دمشق وطرابلس أصبحت عاجزة عن ردعه، إلا إذا كان كل تحركه يتم تحت أنظار السلطنة ليصل إلى نتائج مهمة في المنطقة. فما حصل بعد المعركة من تخريب وتدمير ونهب وقتل....إلخ يثبت أن تصرفات الأمير المعني كانت تستهدف تغيير الواقع السياسي في منطقة البقاع التابع لولاية دمشق حتى لو أدى ذلك إلى اقتلاع جماعة بكاملها من أرضها والقضاء على وجودها. ولا يمكن أن يتم ذلك إلا برضى وزراء كبار في الدولة دعموا تحركات الأمير المعني.

على هامش هذه المعركة الكبرى وأهميتها تبرز أهمية الدور الذي لعبه الشيعة في المعركة. فرجال جبل عامل الشيعة كانوا في جيش الأمير فخر الدين وكانوا في طليعة القوات التي هاجمت جيش الباشا دعماً لرجال وادي التيم. وأثبتوا أثناء المعركة ليس فقط تلك البسالة التي اشتهر بها أبناء جبل عامل ولكن أيضاً ذلك الإخلاص للأمير فخر الدين بما ينفي تلك المحاولة التي دأب عليها كثير من الكتاب العامليين لاثبات عداوة ما بين العامليين الشيعة ودروز المقاطعات الجبلية الأربع. وفي المقابل وقف رجال الأمير يونس ابن الحرفوش ومعظمهم من أهل البقاع الشيعة بالإضافة إلى السكمان النظاميين مع أميرهم ابن الحرفوش دون أن تبدر منهم بادرة على التذمر أو التمرد استياءً من ظروف الهزيمة. فانسحاب هؤلاء من أرض المعركة قد تم بهدوء حيث عمل الأمير يونس على تنظيم دفاعاته في مدينة بعلبك وقلعتها وكذلك في حصن اللبوة.

(١) المصدر السابق ص ٢١١.

كانت النتائج الأولية لانتصار جيش الأمير المعني في عنجر أعمال النهب المنظم والحصول على الغنائم الكثيرة جداً من أملاك آل حرفوش بالإضافة إلى حرق للقرى والمزارع الخاصة بهم. فقد هاجم الجيش المنتصر منطقة بعلبك وأحرق قرية كرك نوح وقتل فيها ٣٠ إلى ٤٠ من رجال ابن الحرفوش. كما أحرقت قرية سرعين وكانت كل بساتينها لآل الحرفوش. ينقل الشدياق في أعيانه أن الأمير فخر الدين «... في اليوم الثالث بعد الوقعة نهض إلى قرية تمنين ومعه الوزير (مصطفى باشا) والأمير أحمد الشهابي ولما بلغ الأمير يونس (الحرفوش) قدومه فر من اللبوة بأولاده وعياله إلى قلعة الحصن ومعه كرد حمزة. ثم نهض الأمير (فخر الدين) إلى مدينة بعلبك وأذن بنهب غلال الحرافشة فنهبها الدروز والبقاعيون والكسروانيون والجبيليون وغيرهم من وادي التيم وعرب الفضل. ثم توجه أناس من جماعة الأمير إلى اللبوة وجبة عسال فنهبوا من معزى الحرافشة اثني عشر ألفاً. وأما الأمير يونس الحرفوش فتوجه من قلعة الحصن إلى حماة وولده الأمير حسين أقام في حمص. وحينئذ قدم الأمير شلهوب الحرفوش إلى الأمير (فخر الدين) نزيلاً فطيب خاطره ثم توجه الأمير يونس (الحرفوش) وكرد حمزة إلى حلب وقدما شكوى إلى اسلامبول[1]. أما جيش الأمير المعني فقد تابع عملياته العسكرية بقصد القضاء نهائياً على سلطة آل حرفوش. يقول الصفدي: «... ونزلوا في قرية تبنين (المقصود تمنين) ومنها رحلوا إلى مدينة بعلبك ودخلوا في نهار الأحد تاني عشر من شهر محرم الحرام من سنة ١٠٣٣/ (٤ تشرين الثاني ١٦٢٣). فلم يجدوا من أمرايها (أمرائها) ولا سكانها غير السكمانية الذين انحصروا في قلعتها وكانوا تسعة من البلوكباشية ومعهم أزيد من مايتين نفر تفكجية وسردارهم أحمد بلوكباشي ابن حرب أصله القديم من قرية الدوير من معاملة بلاد الشقيف فنزل مصطفى باشا في دار الأمير شلهوب والأمير فخر الدين وولده الأمير علي في دار الأمير يونس ابن الحرفوش والأمير احمد ابن الشهاب والأمير سليمان ابن سيفا في دار الأمير أحمد المتأهل ببنت الأمير يونس ابن الحرفوش وتلك غير الحواصل التي وجدت لهم باقية في قرايا بعلبك والبيادر فجاء الدروز إلى أهالي بلاد كسروان وجبل البترون وبشري في نقل الغلال

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

وكذلك أهل البقاع وصاروا يزقونها بالليل والنهار حتى أهالي وادي التيم....»[1].

ولم تطل الأيام حتى صدر أمر باعتقال الأمير يونس ابن الحرفوش وكان قد وصل إلى معرة النعمان فاعتقل ونقل سجيناً إلى قلعة سلمية ليفرج عنه لاحقاً حيث قضى نحبه سنة ١٦٢٥ تاركاً الإمارة لأحد أبنائه.

أما الأمير فخر الدين فإنه طيلة الأعوام العشرة التالية تحول إلى قوة أقليمية خطيرة ومهمة، وتحركت قواته بحرية وبدعم الباشاوت في المنطقة الممتدة من بادية تدمر إلى جبل الكرمل. لكن السلطان العثماني لم يلبث أن أمر في سنة ١٦٣٣ بالقضاء عليه وتحجيم الدور الذي يمكن لأي سلطة في جبل الدروز وجبل عامل أن تهدد مصالح السلطنة في الشام.

٤ - جبل عامل بعد فخر الدين

بقدر ما كان الأمير فخر الدين طموحاً وذكياً فقد كانت أخطاؤه المميتة سبباً في نهايته بعد أن حارب بلا سبب ولا جدوى حكام غزة من آل طربيه وغيرهم من العشائر العربية في مناطق نابلس وعجلون. لقد تراجعت إمارة فخر الدين المعني إلى المقاطعات الأربع الأصلية (المتن والجرد والشوف والغرب) ليحكمها الأمير علي علم الدين اليمني بتكليف من وزير دمشق الذي كانت إمارة جبل الدروز تتبع له حينذاك. بينما فر من تبقى من أسرة فخر الدين باتجاه بلاد بشارة حيث لوحق الأمير يونس بن معن شقيق الأمير ومعه ولداه حمدان وملحم إلى برج دوبية في بلاد بشارة حيث قبض عليهم جيش الكجك. وقد وعد الأمير يونس بتسليم مبلغ كبير من المال مقابل الإفراج عنه فأطلق ابنه الأمير ملحم وتوجه ليحضر المال لكنه لم يرجع خوفاً من الباشا. فكان نتيجة فعله ذاك أن عُذِّب الأمير يونس وابنه حمدان حتى ماتا تحت التعذيب.

إن سيرة الأمير ملحم المعني تثبت مرحلة من عدم الاستقرار في الإمارة بمقاطعاتها الأربع. فبعد فترة من التخفّي تسلل الأمير ملحم المعني إلى جبل الشوف سنة ١٦٣٥

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٢١٣-٢١٤.

حيث التحق به أتباعه من الحزب القيسي و«حشد جموعه لقتال علي علم الدين اليميني متسلم الشوف والتقى الطرفان في أرض القيراط قرب مجدل المعوش»[١]. فانتصر الأمير ملحم وفر علي علم الدين. ويعزو بعض المؤرخين أن هذه المعركة كانت السبب الذي دفع السلطان ليأمر بقتل الأمير فخر الدين بن معن الذي كان مسجوناً في اسطنبول كما قتل معه أولاده الثلاثة. ولا يمكن مناقشة مثل هذا الاحتمال نظراً لعدم وجود ما يكفي من الأدلة عليه. الثابت الوحيد والواقعي هو أن الإمارة المعنية قد عادت إلى ما كانت عليه قبل حادثة جون عكار أي أنها تراجعت لتصبح إمارة المقاطعات الأربع. مع فارق أنها كانت متضامنة ومتحدة في الماضي أما مع الأمير ملحم فإن الفتن في الإمارة والحروب والقتل لم يتوقف بعد أن تحول الصراع إلى حالة من التنافس القيسي - اليمني وانحصرت الأحداث بتقاتل بين بعض الوجوه المحلية الضعيفة.

كما لم تشهد هذه المرحلة اتساع حدود الالتزام خارج المقاطعات الأربع إلا مرة واحدة سنة ١٦٥٤ عندما تسلم الأمير ملحم التزام سنجق صفد. وقد مات الأمير ملحم اثناء توجهه لجباية أموال صفد سنة ١٦٥٨ تاركاً الإمارة لولديه أحمد وقرقماس اللذين سرعان ما اضطرا للفرار بسبب مطالب كثيرة مرهقة من الباشا.

في سنة ١٦٦٠ تحولت صيدا إلى ولاية عثمانية جديدة فأصبح الباشا الجديد موجوداً في جبل عامل وليس على أطرافه. كما أصبح على مقربة من دير القمر. وراح يتدخل في كل شاردة وواردة في البلاد فوقع بسبب ذلك كثير من المنازعات أدت في إحداها إلى مقتل الأمير قرقماس وجرح الأمير أحمد جرحاً بليغاً سنة ١٦٦٢ بعد أن غدر بهما والي صيدا محمد باشا[٢]. وظل الأمير المعني متوارياً حتى عزل محمد باشا سنة ١٦٦٤ فعاد إلى الشوف ليخوض صراعاً دموياً ضد الحزب اليمني استمر حتى سنة ١٦٦٦ عندما وقعت معركة كبرى قرب برج بيروت انتصر فيها القيسيون فسيطر الأمير أحمد المعني على الشوف دون أن يكون له أي التزامات في صفد.

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٩٤.
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧.

في هذه الظروف المستمرة بين سنة ١٦٣٣ وحتى نهاية حكم المعنيين لجبل الدروز سنة ١٦٩٧ لم يخضع جبل عامل بالالتزام لأحد من أمراء المعنيين إلا تلك المدة المحدودة في أيام الأمير ملحم والتي سيكون ضمن حكاياتها مذبحة انصار.

٥ - مذبحة أنصار الأولى والتاريخ الافتراضي

إن الحديث عن مجريات الصراع الكبير بين أهل جبل عامل الشيعة وأمراء المعنيين تشبه الحكايات الشعبية التي نسجت بطريقة خرافية لاثبات بعض الأمور. قد تكون هذه الحكايات في جزئياتها صحيحة لكنها ليست مثبتة كحدث شامل. فما تقدم من سيرة الأميرين المعنيين ملحم وأحمد والصراعات الحزبية في جبل الدروز لا تعطي صورة عن قوة عسكرية يقودها هذا الأمير أو ذاك ويهاجم بها جبل عامل فيقتل وينهب ويسلب. ما هو معروف من سيرة الأميرين ملحم وأحمد والمنقولة من مصادر متحمسة للمعنيين لا تساعد على تصديق القصص التي نقلها بعض المؤرخين العامليين.

في هذه الفترة (١٦٣٣-١٦٩٧) عاشت مقاطعات جبل عامل الثلاث بلاد بشارة والشقيف وصيدا (اقليمي التفاح والشومر) حالة من الاستقرار النسبي. وليس هناك من إثبات على أن ملتزمي الجباية كانوا من أبناء الأسر العاملية الكبرى، لا بل إن بعض أسماء الملتزمين تثبت أنهم من خارج الجبل. فقد تسلم أحمد (آغا) الشمالي سنجق صفد سنة ١٠٤٦/ ١٦٣٧ كما تسلم الأمير ملحم المعني سنجق صفد سنة ١٠٦٥/ ١٦٥٥ (أو ١٦٥٤ كما في بعض الروايات) ليعطى الالتزام في السنة التالية بشناق محمد آغا. وفي سنة ١٠٦٩/ ١٦٥٨ أعطي الالتزام للأمير ملحم فمات أثناء الجباية. وفي السنة ١٦٦٠ أصبحت صيدا باشوية فكان علي باشا الدفتردار أول حكامها.

لكن أمراً آخر يتدخل في التاريخ العاملي ليصنع منه حدثاً، ذلك ما أنتجته الروايات الشعبية المفتعلة عن حرب دموية بين عائلة علي الصغير وعائلة شكر التي يفترض أنها وقعت في بلاد بشارة سنة ١٠٥٨/ ١٦٤٩ والتي أدت حسب مخيلة الذين كتبوها إلى انتصار آل علي الصغير على آل شكر بما يشبه تلك الحروب بين القيسية واليمنية في جبل الدروز.

فقد نقل عن مجموعة اللغوي الشيخ علي سبيتي التي نشرها في مجلة العرفان م ٥ ص ٢١ أن «الشيعيين في أوائل حكم الأتراك العثمانيين وقعت بينهم وبين الطوائف المجاورة عدة معارك كانت الحرب فيها سجالاً فمنها معركة أنصار سنة ١٠٤٨/ ١٦٣٨ مع الأمير ملحم بن معن. ومعركة عيناثا سنة ١٠٧٠/ ١٦٥٩. ومعركة النبطية سنة ١٠٧٧/ ١٦٦٦ ومعركة وادي الكفور سنة ١٠٧٨/ ١٦٦٧. ومعركة أنصار الثانية سنة ١١٤٧/ ١٧٣٤ مع الأمير ملحم ابن الأمير حيدر الشهابي. ومعركة ميس ومرج قدس سنة ١١٥٦/ ١٧٤٣ مع سليمان باشا العظم ومعركة أنصار أيضاً وأيضاً في السنة ذاتها مع الأمير ملحم الشهابي. ومعركة مرجعيون في سنة ١١٥٧/ ١٧٤٤ ومعركة رأس العين سنة ١١٧١ / ١٧٥٧. ومعركة طير سمنا مع ظاهر العمر سنة ١١٨٠/ ١٧٦٦. ومعركة دير قانون سنة ١١٦٣/ ١٧٥٠ مع الأمير ملحم الشهابي ومعركة في فلسطين سنة ١١٧٩/ ١٧٦٥ مع علي الظاهر»[١].

إن تعداد هذه المعارك الافتراضية لا يعني وقوعها حقيقة، لقد أراد اللغوي والشاعر (وليس المؤرخ) السبيتي أن يمتدح الشيعة وقوة بأسهم في لبنان، فخرج بما يفترض أنه استجمعه من مصادر تاريخية. ما يستوقف في هذا المقام هو الحديث عن معارك في الإمارة المعنية ١٦٣٣ ـ ١٦٩٧ والتي كانت منهكة ولا قدرة لأمرائها على الاستقرار في حكم بلادهم فكيف بخوض حروب خارجها؟ وطبعاً دون أن يحسبوا حساباً لرأي الباشا في دمشق. يكمل الكاتب كلامه حول هذه النقطة فيقول: «إن الحرب كانت سجالاً وإن كفة النصر في معظمها كانت أميل إلى الشيعيين منها إلى جهة أخصامهم. خلا المذبحة التي وقعت في قرية أنصار وهي القرية المعروفة في شمالي جبل عامل وكانت مقر حكومة آل منكر في سنة ١٠٤٨/ ١٦٣٨ وفيها دخل الأمير ملحم بن معن قرية انصار بحجة التفتيش عن خصمه الأمير علي علم الدين. دخلها دخول مسالم ولما استأمن القوم أمر بهم فذبحهم عن آخرهم في المرج المعروف للآن بمرج الدجاج وكان عدد القتلى ١٦٠٠ قتيل وأباح البلدة ثلاثة أيام»[٢].

---

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٨١

(٢) المصدر السابق ص ٨٣.

يمكن التوقف عند هذه الحكاية للبحث في أسماء أبطالها الغير مدونة لسبب ما، فالأمير ملحم الذي يلاحق خصمه علي علم الدين في بلاد الشقيف يذهب بجيشه مستأمناً. وهذا الكلام سخيف حسب الأعراف التي كانت شائعة في حينه، فلا يمكن لجيش (غير المتسلط بقوة السلطنة) أن يدخل إلى منطقة «مستأمناً» ليفتش البيوت. هذا يعني وقوع هذه المقاطعة تحت سلطة ابن معن وخضوع آل منكر وغيرهم له، وهذا ما لم يكن صحيحاً. والأهم أن الأمير ملحم وعلي علم الدين مشهوران يذكران بإسميهما، أما الشيخ المنكري فلا إسم له ولا ذكر خاص، ورغم ذلك فعنده حسب هذه الرواية، مقر للحكم. فكيف تستقيم هذه الرواية؟ إن ما يذكر عن وقوع مذبحة في انصار سنة ١٦٣٨ هو محض خيال لم يذكر في أي مصدر موثوق. لقد تناقل بعض مؤرخي جبل عامل ما ذكره السبيتي دون تحقيق وبالتالي فإن الحديث عن هذا «العجز العاملي» عن مقاومة شراذم القيسية من جماعة الأمير ملحم المعني لترتكب مذبحة بهذا الحجم ثم تنسحب دون أن يراق لهم دم فهذا ازدراء بعقول العامليين الذين كانوا يهبون بسبب جريح منهم فما بالهم يذبحون ولا يتحركون؟ والأهم في هذا الأمر أن الأمير ملحم المعني قد فر من الشوف سنة ١٠٤٧/ ١٦٣٨ فلم يكن له لا حكم ولا سلطة فكيف تمكن من التحرك بجيش «مستأمن» وهو مطارد هارب من أعدائه. ومن المثير للعجب أن الشيخ الفقيه صاحب كتاب جبل عامل في التاريخ قد نقل الخبر عن فرار الأمير ملحم سنة ١٠٤٧/ ١٦٣٨ ثم نقل في الصفحة التالية الخبر عن مذبحة أنصار «الأولى»[(١)]. وقد نقل الفقيه مادته من مقالة للشيخ أحمد رضا وذكَر أن الكاتب لا يعرف إلام استند فيما كتبه. كما ذكّر بأن الأمير حيدر الشهابي المؤرخ لم يذكر شيئاً عن المذبحة.

خيال شاعر رسم صورة لاضطهاد مفترض يعاني منه الشيعة في كل زمان ومكان رغم تكذيب الوقائع لمثل هذا الاضطهاد. لقد حدثت مذبحة في انصار بعد قرن من الزمن أي في زمن الشهابيين (يأتي الحديث عنها) ولكنها لم تمر كما افترض السبيتي دون مقاومة المعتدي ومن ثم معاقبته.

---

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٧١ - ١٧٢.

أما الحديث عن معارك أخرى غير معركة انصار هذه مثل معركة عيناثا ومعركة النبطية ووادي الكفور فتلك مناوشات حدثت مع الباشا نفسه وليس مع أمراء جبل الدروز الضعفاء.

ففي سنة ١٠٧١/ ١٦٦٠ «قدم علي باشا إلى صيدا وهو أول من تولاّها من الباشاوات وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة»[1]. الخبر بذاته غامض ومنقول عن أحد المصادر المعادية للشيعة. ورغم ذلك فقد حاول بعض كتاب التاريخ العاملي تحويله إلى حدث مع التصريح بأن كل ما يكتب حول الموضوع مجرد استنتاجات غير موثوقة مبنية على تصور خيالي، حتى اضطر الشيخ الفقيه للقول مستنتجاً أن «الواقعة عظيمة ولا نعرف ماذا أعقبته... وأن وقوعها في عيناثا يؤذن ببقاء زعامة بيت شكر إلى هذا التاريخ لأننا لا نجد في مستحضراتنا من المستندات ما يدل على أن غيرهم من الزعماء استوطنها[2].

استنتاجات الفقيه صحيحة لأن وقوع الأحداث في عيناثا دون ذكر زعامة بعينها يؤدي إلى القول أن ما كان في الماضي قد استمر دون تغيير كما يؤكد أن الأساطير التي نسجت عن انقلاب العائلات على بعضها وحروبها ليست في الحقيقة إلا أحداثاً صغيرة جداً أدت إلى ازدياد نفوذ بعض الوجهاء على حساب تناقص عدد الرجال في عائلات أخرى ما أدى إلى إضعاف نفوذها. كذلك لم يرد أي ذكر لأحداث سنة ١٠٥٩/ ١٦٤٩ رغم اهتمام المؤرخين الشيعة اللبنانيين الكبير بسيرة بعض العائلات، فقد مروا على هذا الحدث الافتراضي مرور الكرام. معركة وهمية كبرى في عيناثا وقانا يقتل فيها آل شكر ويقضى على نفوذهم ووجودهم في بلاد بشارة ولا يسمع بها أحد من المعاصرين للأحداث. فالشيخ السبيتي اللغوي الذي عدد أسماء معارك في جبل عامل مر مرور الكرام على سنة ١٠٥٩/ ١٦٤٩ بما يعني أنه لم تكن هناك لا معركة ولا مذبحة، فكيف يمكن أن تقبل رواية من روى عن هذه «المعركة» الوهمية؟

أما ما يسمى وقعة النبطية الأولى التي حدثت سنة ١٠٧٧/ ١٦٦٦ ووقعة الكفور

(١) المصدر السابق ص ١٧٦ نقلاً عن حيدر الشهابي.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦.

فالحديث عنهما لا يزيد عن العنوان الغامض حيث ينقل الفقيه عن أوراق مجموعة للشيخ علي مروة الذي عاش في فترة قريبة من الأحداث يقول فيها: وسنة ١٠٧٧ كانت وقعة النبطية، وانتصر المشايخ وسنة ١٠٧٨ كانت وقعة وادي الكفور»[١]. وهذا الموجز لا ينفي وقوع الحدث لكنه لا يعطي صورة كاملة عنه. الشيء المهم هو ما بعد الخبر بذاته حيث يذكر الكاتب أن البلاد «استراحت من الحروب إلى سنة ١١٠٩/ ١٦٩٨.

يذكر الكاتب (الشيخ علي مروة) أنه «في سنة ١٠٨١/ ١٦٧٠ صار موت عظيم». وهذا الخبر على صغره قد يكون أكثر أهمية من أخبار الحروب والمعارك، فوقوع الموت العظيم يعني تناقص في عدد السكان وبالتالي تناقص في الانتاج بينما كانت الضرائب تبقى على حالها. وبسبب هذا «الموت العظيم» جرى تبدل وتغيير في أسماء الأسر الأساسية البارزة في الجبل بحيث ان الفناء والنقص في أعداد الرجال الذي أصاب بعض الأسر قد أدى إلى تفوق غيرها أي تلك التي احتفظت بعدد أكبر من الرجال، فتقدم وجهاؤها في الجمعية. وهذه الكلمة «الجمعية» قد جرى استعمالها عند بعض المؤرخين بطريقة غامضة، وهي تعني اجتماع وجهاء الأسر الكبرى في البلاد لتقرير الأمور التي تهم عامة الناس. وهذا العرف قد استمر إلى اليوم في جبل عامل حيث يتداعى وجهاء القرى والعائلات إلى الإجتماع لبحث أحوال البلاد وطرق مواجهة الأزمات. وآخر ذكر تاريخي موثق لمثل هذه الاجتماعات جرى في وادي الحجير سنة ١٩٢٠.

منذ نهاية الأمير فخر الدين بن معن وحتى تسلم الشهابيين للحكم في جبل الدروز استقرت الأحوال في جبل عامل ولولا هذا الذكر الخجول لبعض الأحداث لاعتبرت الفترة بكاملها فترة استقرار وسلام. لكن الملفت هو أنه لا يوجد ذكر ولا شهرة لأي إسم عاملي طيلة هذه الفترة. فقد تذكر العائلات دون أن يذكر أسماء شيوخها، وقد يسمع الناس بآل منكر وآل شكر وآل علي الصغير... ولكن لا يسمعون بإسم أي شيخ مشهور أو قائد كبير.

(١) المصدر السابق ص ١٧٧.

الفصل الثاني عشر

بين العامليين والشهابيين

١ - جبل عامل: حكم الشهابيين وحركة الشيخ مشرف

٢ - مذبحة أنصار حقيقة أم خيال؟

٣ - معركة مرجعيون ونتائجها

٤ - الحلف العاملي - الصفدي

٥ - الشيخ ناصيف النصّار

١ - جبل عامل: حكم الشهابيين وحركة الشيخ مشرف

تاريخ المرحلة الشهابية في جبل الدروز وما واكبها في التاريخ العاملي هي المرحلة الأقسى والأخطر في تاريخ جبل عامل كما هي بنفس القسوة في تاريخ آل حمادة في جبل لبنان والأمراء الحرافشة في إمارة بعلبك.

بدأت المرحلة بتسلم الأمير بشير الشهابي حكم الإمارة الدرزية (وهو سني المذهب) بعد أن شغر منصب الأمير بوفاة آخر أمير معني دون ولد ذكر يرثه. ما ينسج من حكاية تطبيق الشرع الإسلامي ومبادىء التوريث على الإمارة هو اصطناع أسباب فقط. فالباشا كان قد عين علي علم الدين أميراً سنة ١٦٣٣ ثم عزله كما عين ابنه أحمد بن علي علم الدين في فترة لاحقة دون أن يهتم لمبادىء الدين التي تشرع للإرث والوراثة. وفي تاريخ المعنيين الكثير من هذه الصور التي كان يتم تعيين الأمراء في جبل الدروز من الباشا دون العودة إلى نص شرعي ودون التمسك بأي من المسائل الدينية المتعلقة بمسألة التملك. مع العلم أن الحكم ليس مادة وراثية في الشرع الإسلامي. فلا يطبق على حكم البلاد حكم التملك. ولو حدث مثل ذلك لتقسمت البلاد بين الورثة وقضي على وجود الدول بمجرد وفاة أي أمير. لكن الطريقة اللبنانية الحديثة في كتابة التاريخ قد توصلت في كثير من الأحيان إلى كتابة تاريخ افتراضي وليس حقيقياً حول بعض الأسماء وأحجامها وإمكانياتها وهو ما لا يمكن الأخذ به دون مناقشة. وابتلي المؤرخون العامليون المعاصرون بهذه الآفة فكتبوا كذلك، بما يشبه الرد على كتّاب المتصرفية، تاريخاً لجبل عامل فيه الكثير من الأحداث الافتراضية وليس الواقعية.

يبدأ التاريخ العاملي بالتبلور بأسمائه ورجاله بشكل خاص بعد أن أصبحت صيدا باشوية ومركز حكم لولاية تمتد من حدود ولاية طرابلس أي من نهر الكلب إلى عريش مصر ومن أعالي جبال السلسلة الغربية للبنان بامتدادها الجغرافي مع جبل عامل وجبال فلسطين إلى شاطىء البحر المتوسط.

من حيث المساحة ليست ولاية صيدا بهذا الحجم المتسع وكذلك من حيث الموارد المالية. وليس في هذه الولاية عدد كبير من السكان بما يسمح بتجييش الجيوش والتحرك العسكري في أماكن الأزمات. لذلك بقي اعتماد هذه الولاية على باشا دمشق وباشا طرابلس قائماً ومستمراً حتى تغيير النظام الإداري للولايات الشامية بعد سنة ١٨٦٤.

إذاً، أهمية ولاية صيدا لم تكن في الموارد البشرية والمالية لكن أهميتها تنبع من أمر آخر وهو وقوعها في نقطة وسط بين الولايات التي كانت تتعرض لضغوط أجنبية مستمرة ولقيام حركات تمرد مرتبطة بالخارج. كانت التجربة الكبرى التي خاضتها الدولة العثمانية أثناء حكم الأمير فخر الدين بن معن قد أوصلت إلى هذه النتيجة وربما جرى بسبب ذلك اختيار مدينة صيدا القريبة من جبل الدروز لتكون عاصمة هذه الولاية. لكن هذا الاختيار وهذا التصرف الإداري قد جعل جبل عامل بمقاطعاته الثلاث (بلاد بشارة وبلاد الشقيف وساحل صيدا أو أقليمي الشومر والتفاح) يقعان على أبواب العاصمة وفي اتصال مباشر مع تحركات جيش الباشا ذهاباً وإياباً مما أدى إلى وقوع الكثير من الأعمال العثمانية (السلب والنهب والقتل والحرق... هي صفة عامة للأعمال العثمانية طيلة القرون السوداء الأربعة). فشكل ذلك خطراً مداهماً لا يمكن التعايش معه إلا إذا كان للسكان قوة قادرة على مواجهة جيش الباشا والدفاع عن نفسها وهذا ما تأتى لأبناء جبل عامل الذين عرفوا كيف يستمرون وجودياً بشكل أسطوري مع محافظتهم على تواصل حضاري قل نظيره في مقاطعات الدولة العثمانية المتهالكة.

أول ذكر لأحداث مهمة في جبل عامل في هذه الحقبة كانت مع الأمير بشير بن حسين الشهابي. من المهم تتبع ما ترويه المصادر المختلفة حول كل حدث حتى تتكون صورة واقعية لما جرى. وستكون المقارنة بين النصوص بأرقامها وأسمائها ذات أهمية بالغة في تحديد الواقع من الخيال.

يقول قسطنطين بازيلي وهو دبلوماسي روسي خدم في الاسكندرية وبيروت في أواسط القرن التاسع عشر: «...ما إن دخل أول شهابي لبنان حتى قام إرضاءً للباشوات بحملة مدمرة على قبائل المتاولة التي تشغل منحدرات جبل لبنان الجنوبية وصور وبلاد صفد. وقبض على الشيوخ وسلّمهم إلى أرسلان باشا الذي كافأه بأن عهد إليه بإدارة

جبل صفد والنواحي المتاخمة لممتلكاته(عام ١٧٠٠). عين الأمير حاكماً على صفد ابن أخيه الشاب منصوراً تحت إشراف شيخ ضليع من السكان المحليين وهو عمر بن أبي زيدان[1]. في الهامش: في عام ١٧٠٦ بعد وفاة الأمير منصور عيّن الأمير بشير الأول عمر بن أبي زيدان حاكماً على منطقة صفد.

نشر قسطنطين بازيلي كتابه حول سوريا وفلسطين سنة ١٨٦٢ ولم يكن اسم «لبنان» قد أصبح شائعاً بشكله السياسي. وإنما كان يستعمله الدبلوماسيون من سفراء وقناصل أجانب بعد أن استعمله لأول مرة وزير خارجية النمسا مترنيخ سنة ١٨٤٣ في مؤتمر حول الأحداث الطائفية في «جبل لبنان». كما أن بازيلي يقع فيما وقع فيه بعض المؤرخين الذين يثبتون عداءهم لمن يؤرخون عنه. فحقد الروس على الدولة العثمانية في ذلك العهد كان كبيراً وأراد بازيلي أن يثبت ذلك من خلال الحديث عن لا وجودية السلطنة. فالأمير الشهابي يعين من يشاء في صفد دون معرفة الباشا الذي عينه أصلاً في منصبه. أما في حديثه عن جبل عامل وبدء الصراع مع الشهابيين فإن ذلك يشبه تلك الحوادث المتكررة التي كانت تحدث بين الأمراء ومن حولهم بسبب خلافات معظمها حول الجبايات المالية.

بالعودة إلى المؤرخين المحليين وما ذكروه عن حرب بين الأمير بشير بن حسين الشهابي وأهل جبل عامل فإن نقل الصورة سيكون مختلفاً حسب ميول كل مؤرخ.

يقول الشدياق في أعيانه: «.... سنة ١٧٠٠ خرج الشيخ مشرف بن علي الصغير المتوالي اليمني صاحب مقاطعة بلاد بشارة عن طاعة أرسلان باشا وقبض على بعض غلمانه وقتلهم. فاستنهض الوزير المذكور الامير بشير (ابن حسين الشهابي) لقتاله وأطلق له ولاية صفد مع مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي مقاطعة بلاد بشارة ومقاطعة أقليمي الشمار والتفاح ومقاطعة الشقيف. فجمع الأمير من رجال القيسية ثمانية آلاف مقاتل وزحف بهم إلى قتال مشرف اليمني فالتقى به في قرية المزيرعة من بلاد بشارة. واصطف للقتال ولم تضطرم نار الحرب بينهم إلا قليلاً حتى انكسرت رجال مشرف

(١) قسطنطين بازيلي [سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٤٠.

وهلك منهم خلق كثير. وقبض على مشرف وأخيه الحاج محمد ومدبرهما الحاج حسين المرجي فأرسلهم الأمير إلى أرسلان باشا. فقتل الوزير الحاج حسيناً وسجن مشرفاً وأخاه. وولى الأمير (بشير حسين الشهابي) من صفد إلى جسر المعاملتين. وجعل تحت يده أبا ظاهر عمر بن أبي زيدان العمر المشهور شيخاً على تلك الديار لأنه قيسي. وحضر إلى الأمير بنو منكِر المتاولة أصحاب أقليمي الشومر والتفاح وبنو صعب المتاولة أيضاً أصحاب مقاطعة الشقيف ودخلوا في خاطره فقررهم على مقاطعاتهم. ورجع إلى دير القمر معتزاً[١]. وهذه أول مرة يرد في نص إثبات واضح على تولي وجهاء الأسر العاملية «لمقاطعاتهم» لذلك بدأت تظهر أسماؤهم في النصوص التاريخية مع الألقاب المناسبة (الشيخ) بمدلوله الأسري وليس «الأمير» بمدلوله السياسي الذي استعمله بعض مؤرخي جبل عامل. كما أنه يرد توصيف حقيقي لوضع الشيخ عمر بن أبي زيدان حاكم صفد بأنه جعله «تحت يده» وهو تعريف قريب من واقع تلك الايام وليس كما ذكر بازيلي الذي يقول بشيء من الجهل بالواقع: «في عهد هذا الأمير انفصلت صفد والمناطق الجنوبية عن إمارة لبنان(؟) وكان باشا صيدا قد عيّن ضاهر بن عمر حاكماً على صفد[٢] (قرابة ١٧٠٧). فبالإضافة إلى استعماله كلمة غير موجودة وهي «إمارة لبنان» كذلك الحديث عن فصل صفد والمناطق الجنوبية عنها، بما يوحي أن إمارة مستقلة (أسمها إمارة لبنان) كانت قائمة ثمّ تشققت في ذلك الزمن وانفصل جزء عنها في الجنوب وصفد، وهذا تاريخ افتراضي غير حقيقي.

لا يكتفي الشدياق بذكر «انتصار الأمير بشير» ضد الشيخ مشرف اليمني (بن علي الصغير) بل أضاف له انتصاراً آخر ضد شيوخ مجهولين في معركة افتراضية في النبطية كما يزعم يقول الشدياق: «... ثم عُزل أرسلان باشا عن إيالة صيدا وتولى عوضه أخوه بشير باشا فسلخ المقاطعات التي أضافها أخوه إلى الأمير بشير. ولما تولى بنو علي الصغير على مقاطعاتهم أخذوا يمخرقون في بعض أطراف بلاد الأمير وانضم إليهم المناكرة والصعبية. وكان ظاهر العمر الزيداني والي عكا وصفد يود الأمير لأنه قيسي

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣١٢.

(٢) قسطنطين بازيلي سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٤١.

مثله. ثم ان الأمير التمس من بشير باشا ولاية بلاد بشارة فأجابه إلى ذلك. فلما تولى جمع عسكراً وسار إليها للاستيلاء عليها ولقتال المتاولة المذكورين. وسنة ١٧٠٧ لما بلغ الأمير إلى قرية النبطية التقاه المتاولة خارج القرية واصطف الفريقان فحمل الأمير عليهم وصدم جيوشهم فأخرقها ومر بصفوفهم فمزقها ولم تمر ساعة حتى انكسرت المتاولة وولوا مدبرين فهلك منهم خلق كثير ودخل جماعة منهم إلى القرية المذكورة (النبطية الفوقا أم التحتا؟) وتحصنوا فيها. فغار عليهم الأمير بفرسانه فأهلكهم جميعهم. وانجلى بنو علي الصغير عن بلاد بشارة. واستولى الأمير على تلك الديار ووضع محمود أبي هرموش الدرزي نائباً فيها من قبله وأمره بجباية المال المرتب عليها. ثم رجع إلى دير القمر معتزاً[1].

لقد ذهب الشدياق بأحلامه بعيداً، فهو يتحدث عن جلاء بني علي الصغير عن بلاد بشارة وعن قضاء جيش بشير الشهابي على المتاولة جميعاً في النبطية وهو حلم راود دولاً وسلاطين ولم يبلغوه، ولن يبلغوه إلى نهاية الكون.

في المصادر العاملية لا ذكر لهذه المعركة بل الحديث يبقى عن المعركة التي حدثت بين الامير بشير حسين الشهابي (المدعوم من الباشا) وبين الشيخ مشرف بن علي الصغير. للمعركة مبرراتها عند المؤرخين العامليين. فالشيخ الفقيه يرسم صورة للشيخ مشرف بن علي الصغير كما تصورها: «ذلك أن مشرفاً رأى نفسه ذات يوم يفرض سلطته على من يريد وينفذ رغائبه حسبما يشاء ووجد حوله آلافاً من الفتيان فاستشعرت نفسه العظمة وحدّثته نفسه بالتمرد والاستقلال فبنى داراً على قمة جبل...وهو مدّن مشرف واتخذها عاصمة وهي لا تزال ترمز إلى عظمته....»[2]. من الواضح أن الشيخ الفقيه يتصور الشيخ مشرف وكأنه يعيش في زمن يتحدث فيه الناس عن الاستقلال والحرية، وهذه المفاهيم هي بنت هذا العصر وليس في مطلع القرن الثامن عشر. ثم ما علاقة أحلام الشيخ مشرف بالاستقلال وبنائه بيتاً على تلة في المزيرعة التي عرفت باسمه «مزرعة مشرف»؟ ولا يخبر الشيخ الفقيه أين كان يعيش الشيخ قبل بنائه بيته الجديد؟ لقد بنى الشيخ مشرف بيتاً

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣١٢.

(٢) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٨٦.

كبيراً (وليس قصراً للإمارة كما وصفه أحدهم) وبقايا هذا البيت قائمة إلى اليوم في مزرعة مشرف حيث نقش على أحد جدرانه بيتان من الشعر للتأريخ وهما:

قسماً بما أحاطت أباطح مكةٍ ومنى وآيات الكتاب المنزل
لم ابنها طمع الخلود وإنما هي زينة الدنيا لأهل المنزل

المدينة التي تحدث الشيخ الفقيه عنها وعن «تمدينها» هي إلى اليوم مزرعة صغيرة وليس فيها ما يدل على ذلك العز المفترض. لا يعني ذلك عدم أهمية الشيخ مشرف، ولا ينتقص من قيمته التاريخية الهامة جداً، ولكن المبالغة في بعض المسائل لا تزيد في حجم الذي يؤرخ له بقدر ما تخفض من أهمية الكتابة التاريخية عنه. لأن ما بعد الوصف الأول يذكر الفقيه: «هنا شمخت القرية، وناطحت السحاب، وجرّت ذيل الكبرياء... إلخ». لكنه يعود وينقل الحدث كما يراه وكما قرأه في مصدر معادٍ للشيعة ومتحمس للأمير الشهابي فيقول عن الشيخ مشرف: «وثارت في رأسه نزوات الكبر فاعتدى على أعظم سلطة في عصره وقتل بعض رجال الدولة العثمانية لسبب لا يزال مجهولاً. فاستنجد قبلان باشا والي صيدا في ذلك العهد بالأمير بشير الشهابي حاكم بلاد الشوف فجمع الشهابي ثمانية آلاف مقاتل وباغتوه، فما أفاق على نفسه إلا وهو في أيدي خصومه الألداء فسلموه إلى قبلان باشا فوضعه في السجن مع أخيه الحاج محمد بعد أن قتل الحاج حسين المرجي. واستولى قبلان باشا على بلاده وأجّرها على الأمير بشير فوضع فيها متسلماً من قبله[1]. وأصل هذا الخبر منقول عن رواية المؤرخ حيدر الشهابي حيث يقول كما نقله الفقيه: «في سنة ١١١٠/١٦٩٨ تولى إيالة صيدا قبلان باشا وكان الشيخ مشرف ابن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال الدولة وقصد العصاوة. فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوه في مكان يقال له المزيرعة فقبض عليه الأمير بشير وعلى أخيه الحاج محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم إلى الباشا فأمر الباشا بشنق حسين المرجي ووضع مشرفاً وأخاه في السجن وأعطى الأمير بشير إيالة صيدا من طرف صفد إلى جسر المعاملتين، وصار له إسم عظيم... وبعد أن

(١) المصدر السابق ص ١٨٧.

قبض قبلان باشا على الشيخ مشرف واخيه أجّر الأمير بشير بلادهما وأقام عليها متسلماً من قبله الشيخ محمود أبا هرموش»[١].

الشيخ مشرف المذكور والمشهور جداً في التاريخ العاملي يختلف المؤرخون حول نسبه، وهذا يثبت أن مسألة النسب الأسري لم تكن بذات بال عند الناس في ذلك العهد، أو لم تكن مثبتة بشكل يدعو إلى التفاخر، أو لأن تلك الأنساب تعود إلى أسر عادية وأسماء عادية فسكت أصحاب الشأن عن الكلام فيها. فالشيخ مشرف هو حسب المنقوش على باب داره هو: «أشاد هذا البناء وأعلاه وأحسن النظر لو كافأ بنّاه الشيخ الكبير الملقب بالصغير شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته سنة ١١٠٨». هو ابن نصار الصغيري ولا مزيد. بينما يرد في بعض المصادر نسب متصل لشخص آخر اسمه مشرف من نفس الأسرة مع عدد من الأسماء يثبت بسهولة زيفها بمقارنة التاريخ الذي يذكر فيه.

مات الشيخ مشرف النصار في السجن سنة ١١١٤/ ١٧٠٢دون أن يظهر اسم الشيخ الوريث بما يثبت ضعف الوجود السياسي الأسري العاملي. يقول الكاتب الشيخ علي مروة كما نقل الفقيه: «وفي سنة ١١٠٩ ركب الأمير بشير على بلاد بشارة ومسك مشرف من المزرعة وبنى عين الدروز قرب جويّا. وعين الجنان قرب بافليه وعين الراموح مشهورين. وقتل حسين العمرو وصفا له الحكم في بلاد بشارة بعد أن خرّب ونهب. وفي سنة ١١١٣ ألقي القبض على علي منصور ومحمد بزيع وجدوهم في انطاكية. وبقي مشرف في الحبس خمس سنين حتى توفي سنة ١١١٤. وسنة ١١١٧ صارت زلزلة عظيمة أياماً متعددة...»[٢].

لقد تحولت بلاد بشارة تحت حكم الامير الشهابي إلى حالة من الاستقرار بما يثبت عدم وجود العداء المفترض، وقد أقدم الامير الشهابي على الاهتمام ببعض المصالح العامة في بلاد بشارة فرمم بعض العيون وأصلح بعض الآبار في نفس الوقت الذي كانت تتعرض فيه بلاده الأصلية (وادي التيم) إلى هجوم من سليمان باشا والي دمشق فأحرق

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق هامش ص ١٨٨.

ونهب ودمر (على الطريقة العثمانية الشائعة) بما يزيد في القناعة أن مسألة العداء والانتقام لم تكن مرهونة بطائفة ضد طائفة ولا بمنطقة ضد منطقة.

قتل الامير بشير حسين الشهابي بالسم دسّه له بعض أقربائه من أجل نقل الإمارة كما قيل للأمير حيدر الشهابي. ولما كان الأمير لا يصبح أميراً إلا بتكليف من الباشا في صيدا فإن الشك يتطرق إلى مسألة «نقل الإمارة» فلولا موافقة الباشا على القضاء على بشير لما وصل الأمير حيدر إلى الحكم.

كان حكم الأمير حيدر في البداية ضعيفاً ومضطرباً وقد بدأ حياته العملية بتنفيذ الحلم الشهابي التقليدي وهو القيام بغزو جبل عامل. يقول حيدر الشهابي المؤرخ في أحداث سنة ١٧٠٨: «ركب الأمير حيدر لغزو بلاد المتاولة لأن المشايخ بني علي الصغير بعد وفاة الأمير بشير كانوا قد تولوا بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الأمير حيدر حكم بلاد الشوف وكسروان فغزاهم الأمير حيدر برجال بلاده...»[(١)].

بين وفاة الأمير بشير حسين الشهابي وتولي الامير حيدر لا يوجد بون زمني فاستلام الإمارة تم بعد دفن بشير بوقت قصير وهذا لا يسمح ليقوم شيوخ آل علي الصغير بتولي «بلادهم» من الباشا الذي ربما يكون قد اتصل بهم لإعادتهم إلى التزام مقاطعاتهم فأسرع حيدر الشهابي بتحريض من محمود أبي هرموش (اليمني) الملتزم من أيام غزوة مزرعة مشرف إلى إرسال جيش إلى بلاد بشارة لإثبات سلطته فيها وولى الشيخ محمود أبو هرموش عليها. وقد أثار هذا العمل بشير باشا والي صيدا الذي لم يتوانَ عن الثأر من حيدر الشهابي بأن عزله عن الإمارة وكلف محمود أبو هرموش بها بعد أن استحصل له على رتبة الباشوية ولقب مير ميران (أمير أمراء). ففر الأمير حيدر إلى الهرمل حيث استعان بالأمراء الحرافشة الذين أعانوه بجيش تمكن به من استعادة إمارته سنة ١٧١١.

كانت فترة حكم الأمير حيدر الشهابي في جبل الدروز فترة جيدة للعامليين الذين ظهر فيهم عدد من الشيوخ (الحكام) العظماء الذين تمكنوا من صنع التاريخ العاملي البطولي والذي بدأت ملامحه وتكويناته الأساسية بعد سنة ١٧١١ حيث يعتبر هذا التاريخ فاصلاً

(١) حيدر الشهابي، تاريخ حيدر الشهابي ص ٧٥١.

بين أن يقوم أي أحد من أي مكان بغزو جبل عامل أو أن يقوم الرجال العامليون بفعل استباقي ومحاربة أعدائهم حيث هم.

يتفرد التاريخ العاملي عن تاريخ كل المنطقة بمن فيها من جماعات وقبائل وطوائف بأنه تاريخ كل الشعب، بينما التاريخ في المنطقة هو تاريخ أشخاص بينهم وبين الشعب الذي يحكمون تباعد وربما عداوة. ما يشتهر في التاريخ العاملي هو بعض الأسماء لأشخاص عاشوا بين الناس تماماً كوجهاء العائلات في الزمن الحديث، ليس في ذكرهم سوى تبيان للزمن الذي عاشوا فيه. أما البطولة والشهامة والذب عن الوطن فهي صفات اشترك فيها الشعب العاملي عموماً وتفاخر بها الناس جميعاً، لذلك قل اشتهار الأسماء الكبيرة بينما كبرت شهرة الأحداث. ولولا ظهور أسماء بعض الشيوخ لارتباطها بتحالفات ومعارك لما انتبه أحد لأسمائهم. وكذلك لو لا ظهور بعض علماء الدين الأفذاذ الذين مشوا أمام الشعب في الأحداث لما اشتهر أحد بذاته ولسقطت الأسماء من التداول.

كان لموت الشيخ مشرف في سجن الباشا وقع خطير على العامليين الذين اعتبروا أن الباشا كائن من كان هو في الحقيقة وجه من وجوه الذل المفروض عليهم. كما وجد الشعب العاملي نفسه منساقاً إلى إثبات وجوده وحماية وطنه بقوة السلاح دون الاهتمام برأي الباشا أو من ينوب عنه في الجباية. في هذه الأجواء لا يظهر من أسماء شيوخ العامليين ما يمكن الركون إليه سوى اسم الشيخ منصور بن علي الصغير الذي ذكره المؤرخ حيدر الشهابي في أحداث سنة ١١٢٤/ ١٧١٢: «في سنة ١١٢٤ حكم الأمير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا على بلاد بشارة من يد والي صيدا وأنشأ بها مظالم وقبض عثمان باشا قبل عزله على الشيخ منصور بن علي الصغير وقتله»[(١)]. ولا يذكر الشهابي المؤرخ حدوث اي رد فعل على ذلك. ولا يوجد عند المؤرخين العامليين ما يثبت رد فعل ما على هذا العمل. كما لم يصدر أي رد فعل قوي على حدث أكثر فظاعة وهو قتل الشيخ يونس النباطي بأمر من حيدر الشهابي سنة ١١٣٠/ ١٧١٧ الذي ذكره المؤرخ علي مروة: «وسنة ١١٣٠ قتل الشيخ يونس النباطي من العلماء قتله الأمير حيدر»[(٢)]. ورغم أن

(١) المصدر السابق ص ٧٥٥

(٢) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٨٨.

مثل هذا الحدث قد وقع في الماضي للشهيد الاول فازدادت شهرته تألقاً بينما لا اهتمام جدي عند مؤرخي الشيعة وكتابهم لاستشهاد العالم يونس النباطي. فما ذكره السيد محسن الأمين العاملي (ره) يدل على عدم اهتمام بهذا الحدث الجلل. يقول الامين: « الشيخ يونس العاملي: قتل سنة ١١٢٠ مذكور في بعض تواريخ جبل عامل المخطوطة قال المؤرخ الشيخ علي السبيتي العاملي في بعض مخطوطاته: فيها قتل الشيخ يونس من العلماء قتله الأمير حيدر. انتهى. وهذا هو الأمير حيدر بن موسى الشهابي تولى امارة الشوف وتوابعها بعد الأمير بشير الأول وكان للأمير بشير حكم الشوف وكسروان وبلاد بشارة فلما مات بشير تولى المشايخ بنو علي الصغير بلاد بشارة من يد الأمير حيدر (؟) فغزاهم وتجمعت الشيعة أهل جبل عامل في النباطية فأوقع بهم فيها وظفر بهم وقتل منهم مقتلة ورجع إلى بلاده وكان الشيخ يونس هذا من جملة من قتل ولا نعلم من أحواله شيئا غير ذلك[1]. لقد كتب السيد الأمين ما وجده مقبولاً عند نفسه وليس الحقيقة. فسنة ١١٢٠/١٧٠٨ قام الأمير حيدر بغزوته الأولى ضد بلاد بشارة (وليس بلاد الشقيف حيث تقع النبطية). وهي الغزوة الوحيدة التي قام بها الامير حيدر ضد العامليين ولم يوفق فيها إلى مبتغاه. أما الشيخ يونس النباطي العاملي فقد أمسك سنة ١١٣٠ أي بعد عشر سنوات على تولي حيدر الشهابي إمارته وجرى إعدامه عمداً ولم يكن قتله في ميدان المعركة. ولو صدقت رواية الأمين أن الشيخ يونس قد قتل في معركة فذلك يعطيه أهمية أكبر ويثبت أن قيادة الشعب في الحروب العاملية لم تكن حكراً على شيوخ آل فلان أو فلان بل تولاها أحياناً علماء الدين عندما لم يكن لشيوخ الأسر رغبة أو قدرة في الدفاع عن بلادهم.

لقد توصّل الأمراء الشهابيون الذين كانوا يتولون التزام جبل عامل بمقاطعاته الثلاث أو بعضها إلى توافق مع بعض شيوخ الأسر مما سهل لهم الاستمرار في استيلائهم على الجبل. فقد تنازل الأمير حيدر عن الحكم لابنه ملحم سنة ١١٤٣/ ١٧٣١ ومات بعد ذلك بسنة واحدة (سنة ١٧٣٢). فسعى الأمير ملحم لالتزام بلاد بشارة من يد وزير صيدا بموافقة الشيخ سلمان الصعبي شيخ مقاطعة الشقيف: «وقبض (الأمير ملحم)

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ١٠ ص ٣٢٦.

على الشيخ نصّار بن علي الصغير، وباغت أخوته في قرية جويّا فهربوا إلى بلاد القنيطرة. وقتل ثلاثة عشر قتيلاً من قبيلتهم. ونهبت الدروز تلك البلاد. ثم رجع أولاد نصار وفكوا أخاهم واستأجروا بلادهم من الأمير ملحم وكان في تلك السنة موت عظيم وتوفي الشيخ سلمان الصعبي»[1].

أما هذه الحادثة فلها تفصيل أوفي عند المؤرخ الشدياق الذي لا يحدد مصدره فيقول: «... سنة ١٧٣٢ .... وفيها بلغ الأمير (ملحم) أن بني علي الصغير أصحاب بلاد بشارة أظهروا الشماتة بموت والده فخضبوا ذيول خيولهم بالحناء سروراً فكتب إلى أسعد باشا العظم والي صيدا يلتمس منه ولاية بلاد بشارة فولاه فنهض إليها فمال إليه سمعان الصعبي صاحب مقاطعة الشقيف فأمنه وأبقاه كما كان (لاحظ «صاحب مقاطعة» دليل على تغير المصدر الذي نقل منه الكاتب). ثم دهم بني الصغير للقتال فالتقى بهم في أرض قرية يارون من تلك الديار فظفر بهم وكسرهم وأهلك منهم خلقاً وقبض على مقدمهم نصار ففر إخوته إلى قرية جويا من تلك الديار فسار خلفهم فانهزموا إلى القنيطرة فظفر بجماعة من غلمانهم فأهلكهم ونهب تلك الديار ثم قفل راجعاً إلى لبنان(؟) ومعه نصار الصغيري معتقلاً. ثم بعد أيام حضر اخوته واستماحوا منه إطلاق أخيهم وقدموا له مالاً فداء عنه فأخذه واطلق لهم اخاهم وأعادهم إلى بلادهم ولاة من قبله[2].

يتبين من ذكر هذه الحوادث أن اولاد نصار بن علي الصغير كانوا لا يزالون يقيمون في منطقة جويا التي يمكن أن تكون هي مقرهم قبل أن يبني الشيخ مشرف بن نصار بن علي الصغير بيته الكبير في المزرعة التي لا تبعد عن جويا اكثر من مسير نصف ساعة على الأقدام. وقد تكرر ذكر جويّا وهي القرية الأكبر في تلك الناحية في كل مرة كانت تقع حوادث بين أمراء الشهابيين وآل علي الصغير. وبالتالي فإن الحديث عن نصّار وإخوته في جويا توحي بأن نصّاراً هذا هو إبن أو حفيد الشيخ مشرف أو يمت له بصلة قرابة وثيقة لكن لا إثبات على ذلك. كما أن موافقة الشيخ سلمان الصعبي على حركة الأمير ملحم قد لا تكون إلا من باب الدعاية للأمير ملحم. كما يلفت النظر اعتراف الشدياق المؤرخ بأن

(١) حيدر الشهابي، تاريخ حيدر الشهابي ص ٧٦٦.

(٢) الشدياقاً أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣١٧.

المشايخ أولاد علي الصغير هم أصحاب مقاطعة بلاد بشارة وكذلك أن المشايخ الصعبية هم أصحاب مقاطعتهم.

٢ - مذبحة أنصار حقيقة أم خيال؟

لقد حرّضت الجولة التي قام بها الأمير ملحم الشهابي الباشا على القيام بنفسه بغزوة يحصل فيها على بعض المكاسب. ففي سنة ١١٥٢/ ١٧٣٩ كبس وزير صيدا بلاد الشقيف وقتل الشيخ أحمد فارس وأولاده وهرب أخو الشيخ حيدر إلى بلاد الشوف واحتمى عند الأمير ملحم[1]. ولا شك أن باشا صيدا قد استعذب القيام بغزوات ضد مقاطعات جبل عامل ما دام لم يجد القوة الرادعة التي تقف في وجهه وتمنعه من تنفيذ أهدافه العثمانية. وهذا ما نبّه الأمير ملحم الشهابي إلى تضاؤل دوره، فأراد أن يستعجل العمل ضد الشيعة في جبل عامل ليلفت نظر الباشا، فحرك ما لديه من عساكر نحو صيدا ومنها صعداً نحو أقليم التفاح ومنه إلى النبطية فقرية أنصار التي كانت مركز المشايخ الصعبية الذين كانوا قبل حين حلفاءه. أما الحجة التي يذكرها المؤرخون فهي تشبه الحجج التي كانت الغزاة تقولها في كل مرة: «... وسنة ١٧٤٣ أظهر المتاولة الشيعية أصحاب جبل عامل الخروج عن طاعة سعد الدين باشا العظم والي صيدا وامتنعوا عن أداء الأموال الأميرية وشرعوا يعوثون مفسدين في جوارهم وتطاولوا على أقليم التفاح التابع ولاية الأمير. فكتب الوزير المذكور إلى الأمير يستنهضه عليهم ويحرضه على قتالهم. فلباه ونهض من دير القمر بجحفل جرار حتى بلغ جسر الأولي. ولما بلغ المتاولة ذلك داخلهم الخوف والرعب ووجهوا رسلاً بهدايا إلى الوزير يلتمسون منه الصفح على أنهم يدفعون المال الأميري ومالاً آخر غيره. فقبل ذلك منهم وكتب إلى الأمير مخبراً إياه وأمره أن يرجع إلى بلاده فأبى الرجوع عنهم. وأخذ في نفسه على الوزير بأنه كيف يرضى عنهم بغير علمه. وللوقت نهض بجيشه إلى قتالهم فأدرك قرية نصار وفيها المناكرة والصعبية وعندهم جميع الأحزاب الشيعية فخرجوا لملتقاه بجيش عرمرم واصطف الفريقان في صحراء القرية فحمل الأمير بالرجال وهجم عليهم كالأسد الرئبال فانكسروا وولوا الأدبار. فأخذ

(١) حيدر الشهابي، تاريخ حيدر الشهابي ص ٧٦٩.

اللبنانيون(؟) أعقابهم وغنموا أسلابهم. ودخل جمع منهم تلك القرية يتحصنون فهجم عليهم الأمير فظفر بهم وقتل منهم ألفاً وستماية قتيل. وقبض على أربعة من مشايخهم ونهب القرية وأحرقها ثم رجع بعسكره إلى دير القمر بعز تام ومعه المشايخ الأربعة الأسرى. فوضعهم في السجن وكتب إلى سعد الدين باشا يخبره ويبشره....»[1].

عدد القتلى المرتفع جداً يدعو إلى التساؤل إن كان العامليون قد وقفوا في وجه جيش ملحم الشهابي أم سلموه رقابهم للذبح؟ أم أن الخبر بكامله من خيال أحد الرواة بناه على حركة للأمير الشهابي؟ إن وصف هذه المعركة بهذا الشكل لا يدل على وقوع حرب بل وقوع مذبحة فقط. وفي بعض المصادر الأخرى وصف مشابه ما يثبت الأخذ عن مصدر واحد أو راوٍ واحد: «... وسنة ١٧٣٤م (الصحيح ١٧٤٣) انتفض المتاولة أصحاب جبل عامل وقصدوا الخروج عن طاعة سعد الدين باشا العظم والي صيدا وامتنعوا عن دفع الأموال الأميرية وعاثوا في البلاد مفسدين في جوارهم حتى سطوا على أقليم التفاح التابع للأمير ملحم الشهابي فاستصرخ الوزير الأمير ملحماً فجمع عسكراً جراراً... فبلغوا جسر الأولي عند صيدا فاستمال الثائرون الوزير واسترضوه بهدايا فاخرة ولا سيما عندما رأوا كثرة الجيش اللبناني(؟) وخشوا سطوته. فحنق الأمير ملحم لتجديد علاقاتهم مع الوزير بعد انقطاعها وهجم على بلادهم إلى قرية نصار وفيها بنو منكر وبنو صعب فخرجوا إليهم برجالهم فدحرهم اللبنانيون وقتلوا منهم نحو ألف وستمائة قتيل وقبضوا على أربعة من مشايخهم ونهبوا القرية وأحرقوها وعادوا بالأسرى إلى دير القمر فزجوا في السجن وكتب الأمير إلى الوزير يخبره بظفره فشكر له همته واعتذر عما فرط منه وأرسل إليه نفقات العسكر وتوسط الشيخ علي جنبلاط أمر الأسرى فأطلقوا وشرط عليهم أن يدفعوا كل سنة ستة آلاف غرش وفرسين من جياد الخيل ثم أعاد عليهم الأمير ملحم الكرة سنة ١٧٤٤ في انصار وقتل كثيرين منهم وأعادها ثالثة ولا سيما على بني منكر منهم»[2].

يلاحظ في آخر الخبر أن ذكر الشيخ علي جنبلاط في الأمر مفتعل وكذلك ذكر الفدية

(١) الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣١٨-٣١٩.

(٢) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٠٤.

(ستة آلاف غرش وفرسين كل سنة...) هي نفسها ذكرها الكاتب المعلوف مرتين من قبل وفي الحالات الثلاث لا تبدو صحيحة لأن سياق الاحداث لا ينتهي بهذا الشكل المبسط.

تعتبر سنة ١٧٤٣ أسوأ ما مر في التاريخ العاملي من أعوام فقد تعرضت البلاد قبل ذلك لغزوات وحوادث وحروب ومعارك، لكن أعداد القتلى لم تصل ولا مرة إلى هذا الرقم. ولا يجد الباحث في أسباب ذلك حجة مقنعة. فالعدو يتحدث عن حرب اجتمعت فيها الأسر العاملية الأساسية الثلاث المناكرة والصعبية والصغيرية كما وجد حشد شعبي عاملي كبير واستعداد للمواجهة فلماذا وقعت مثل هذه الكارثة؟ ربما يكون عدد القتلى كما ذكره مؤرخو المتصرفية مبالغ فيه، لكنه بقي في أحسن الأحوال ألف قتيل من الطرفين تقريباً كما ذكر الشيخ الفقيه نقلاً عن تاريخ مروة[1]. وإذا صدقت رواية مروة، وهو صادق في أكثر ما ذكر من حوادث، فإن معركة انصار كانت مذبحة على الطرفين وليس على العامليين فقط. إن سكوت مؤرخي المتصرفية عن خسائر الأمير الشهابي واضحة وبيّنة فلم يذكر عدد القتلى بل فقط النصر الذي عاد به إلى (لبنان ؟) معتزاً. وبما أن تسمية لبنان قد جرى استعمالها اعتباطاً لأن اسم الإمارة في ذلك الحين كان «إمارة جبل الدروز» فإن احتمال استعمال أرقام وهمية تضليلية وارد جداً. ما يقوله الشيخ مروة يعيد رسم الصورة بطريقة أوضح، فقد تحرك جيش الأمير ملحم الشهابي من جبل الدروز باتجاه صيدا بناءً على طلب الباشا. وعندما عبر جسر الأولى أُبلغ بأن الباشا قد توصل إلى اتفاق مع العامليين وحلت المشكلة. وقد فهم أن العامليين قد اطمأنوا إلى أن صلحهم مع الباشا ينطبق أيضاً على أتباعه مثل الأمير ملحم. وعندما رأوا تحركات جيش الأمير ملحم باتجاه أقليم التفاح تنادوا على عجل للتصدي له. فجمعوا ما أمكن من مقاتلين وتصدوا له بعد وصوله إلى قرية أنصار. وبعد معركة دموية خسر فيها الطرفان حوالي ألف قتيل اضطر الامير الشهابي إلى التراجع نحو جبل الشوف حاملاً معه أربعة مشايخ أسرى أو رهائن اضطر لاحقاً لإطلاق سراحهم بعد تلقيه مبلغاً من المال.

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٩٤

لقد حركت هذه الأحداث باشا دمشق الذي تدخل أكثر من مرة ليلفت نظر باشا صيدا أيضاً أنه القوة الكبرى في بلاد الشام. ليس هناك من أسباب خارج هذا الواقع، فباشاوات الدولة العثمانية كانوا يتحركون في كثير من الأحيان ويهاجمون مناطق في ولاية أخرى فيغزون وينهبون ويحرقون ويقتلون (على الطريقة العثمانية المتوحشة) ثم يعودون إلى ولايتهم ليحتفلوا بالنصر. لقد أقسم سليمان باشا والي دمشق سنة ١١٥٦/ ١٧٤٣ أن يحرق بلاد بشارة وزحف بالجيوش الكثيرة العدد والعدة ونزل في مرج قدس أول قرى جبل عامل المطلة على بحيرة الحولة. وفي الليل أصابه عارض فمات. فرجع جيشه بجثته إلى دمشق.

ويبدو من بعض المصادر أن غزوة سليمان باشا الفاشلة قد وقعت قبيل غزوة الأمير ملحم الشهابي بقليل حيث يذكر مروة أنه: «في سنة ١١٥٦/ ١٧٤٣ صارت وقعة مرج قدس مع سليمان باشا العظم وأقسم أن يحرق بلاد بشارة فتوفي الباشا قبل الحرب وكفى اللّه المؤمنين القتال وقيل في ذلك تاريخ:

قالـــت الدنيـــا الغـــرورة　　مـــات ســـليمان النجيـــب
قلـــت فـــي التاريـــخ كفـــى　　موتـــه فـــرج قريـــب

(المجموع يساوي ١١٥٦)

وفيها (أي بعد غزوة سليمان باشا) ركب الأمير ملحم على أنصار ثانياً وقتل من الفريقين أكثر من الف قتيل»[1]. المقصود بالوقعة الأولى للأمير ملحم تلك التي حدثت بعيد توليه الإمارة سنة ١١٤٤/ ١٧٣٢.

أحد الذين عاشوا في دمشق في تلك الآونة كتب عن حركة سليمان باشا ومعركة انصار بشيء من الاقتضاب الذي يفيد جزئياً بمعرفة حقيقة الأحداث يقول: «... سنة ١١٥٦/ ١٧٤٣: ثم سار «سليمان باشا» بتلك الجموع وحط على مرج قَدَس في بلاد المتاولة وأرسل طلب الامير ملحم (الشهابي) فجاءه ومعه مائتا خيال. وبعد مدة جاء

(١) المصدر السابق ص ١٩٥.

خبر لدمشق بأنه وقع قتال بين الدروز والمتاولة فقتل من المتاولة أكثر من ألف وحرقت الدروز بلادهم ونهبت أموالهم. ثم صالت المتاولة على الدروز فقتلت من الدروز نحو خمسماية رجل وكان معهم الأمير حيدر صاحب قلعة دير القمر فنهاهم الباشا فاعتذروا له فتركهم وشأنهم. ثم رحل حضرة سليمان باشا طالباً قلعة دير حنا وأخذ معه شيخ المتاولة نصّار ونحو من أربعمائة انسان. ورجع الدروز ولم يرض معاونتهم. وكان في قلعة دير حنا أيوب أخو الظاهر عمر(١). وهذا الوصف لحقيقة الوقعة هو أكثر النصوص واقعية باعتبار المؤلف معادٍ للشيعة كما للدروز ولا يهمه أي الفريقين انتصر أو انهزم فقد سمع أنه قتل ألف وخمسماية من الطرفين ولم يتدخل الباشا لوقف الحرب وهذا صحيح.

لقد أصبحت الصورة واضحة، الباشا الدمشقي جاء ليحرق بلاد بشارة وملحم الشهابي تحرك بناء على طلبه. مات الباشا في قدس دون أن يبلغ هدفه أما ملحم الشهابي فقد وصل إلى قرية أنصار حيث وقع اشتباك مع بعض المدافعين عن القرية فقتل من المدافعين عدد كبير، لكنهم تمكنوا بعد وصل نجدات لهم من صد المعتدي وتكبيده أكثر من خمسماية قتيل. وفي هذه الحالة لا يمكن القول بوقوع مذبحة، لأن الذين تحدثوا عن معركة أنصار تحدثوا عن قتل ألف وستماية عاملي ذبحاً كالدجاج دون مقاومة ولا دفاع وهذا يناقض الحقيقة.

٣ - معركة مرجعيون ونتائجها

لقد استنهضت معركة أنصار همم العامليين الذين أبوا أن يتقبلوا نتائج تلك المعركة التي يتحمل غدر باشا صيدا المسؤولية عنها لذلك تداعوا للثأر. وبدأ الصوّات يطوف القرى داعياً الرجال للسير إلى الحرب والثأر من الأعداء. في نفس الوقت كان الأمير ملحم الشهابي قد أدرك أنه وقع في ورطة يصعب عليه الهروب منها، فأرسل يطلب مساعدة الشهابيين في وادي التيم. فاجتمع هؤلاء وأولئك وقرروا البدء بالتحرك من وادي التيم جنوباً حيث احتشد العامليون في السهل الواقع جنوبي مرجعيون والتقى الطرفان في معركة ثأرية استبسل فيها العامليون مظهرين عزيمتهم على تأديب الشوفيين. وبعد وقت

(١) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٤٢ - ٤٣

قصير من بدء المعركة بدأ التيامنة والشوفيون يفرون من الميدان تاركين وراءهم أكثر من ثلاثماية قتيل. وقعت هذه المعركة سنة ١١٥٧/ ١٧٤٤ وشعر شيوخ العامليين بالفخر لما حققوه. بينما لم يقتنع العوام منهم بهذا الإنجاز وأصروا على مهاجمة جبل الشوف. فسارع والي صيدا إلى تخفيف الأزمة وأغرى العامليين ببعض المكاسب فتوقفوا عن إكمال هجومهم.

كان انتصار العامليين بيناً وحاسماً حتى أوقعوا الرعب في قلب الوالي العثماني وجيشه. يقول مروة مختصراً ذلك: «...وفي سنة ١١٥٧ كانت وقعة مرجعيون بين الدروز والشيعة وكانت الغلبة للشيعة. وكان بينهم أيام أفراح وشدة بأس حتى أن العسكر العثماني يسير من بيروت إلى عكا على شاطىء البحر لا يخشى إلا من هجوم شبّان الشيعة يسمّونهم المتاولة أو العلويين»[1].

٤ - الحلف العاملي - الصفدي

تركت معركة مرجعيون آثارها على عمل الولاة المجاورين وخصوصاً الشيخ ظاهر العمر الزيداني أحد أهم الزعماء السياسيين في جبال صفد المجاورة لجبل عامل.

كانت صفد منذ أيام المماليك عاصمة للمنطقة التي يقع فيها جبل عامل وظلت كذلك حتى إنشاء ولاية صيدا سنة ١٦٦٠ فضعفت أهمية هذه المدينة لنفس العوامل العثمانية المعروفة. فإن كثرة الحروب والغزوات التي استهدفت منطقة صفد طيلة القرنين السابقين، بالإضافة إلى الأوبئة والمجاعات، قد جعلت المنطقة شبه خراب ولم يعد لها تلك الأهمية السابقة. وعندما التزم الأمير بشير حسين الشهابي بلاد صفد اضطر إلى تكليف زعيم محلي هو الشيخ عمر بن أبي زيدان للحلول محله في الجباية، فقام بمهمته خير قيام حتى وفاته سنة ١٧٠٦ ليتولى مكانه ابنه الشيخ ضاهر العمر.

تمتع الشيخ ضاهر بمزايا القائد والزعيم الذي استطاع بحنكة ومهارة أن يحول صفد وما حولها إلى منطقة تعج بالحركة. ثم ما لبث أن تمدد نحو ساحل البحر حيث استولى

---

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٩٦.

على عكا وكانت قرية شبه خربة ومهجورة، فحولها في زمن قياسي إلى مدينة عامرة ومحصنة انتقل إليها واتخذها مقراً لحركة كبيرة شملت كل جنوب سوريا. ومن عكا اتصل الشيخ ضاهر العمر بحاكم مصر علي بيك الكبير وأقام معه حلفاً قوياً لمواجهة الدولة العثمانية. فبدأت القوى الشامية بالالتحاق بأحد طرفي الصراع أي مع ضاهر العمر وعلي بيك المصري أو مع باشاوات الشام ومن خلفهم السلطان العثماني.

في هذه الأوضاع برزت القوة العاملية الفتية التي استطاعت أن تقهر جماعة الباشا من الشهابيين في معركة مرجعيون، وظهرت كقوة أقليمية يعتد بها. فاتجه ضاهر العمر إليها وتحالف معها.

في التاريخ العاملي الذي تحدث عن هذا الموضوع تظهر الصفة الحكواتية عند المؤرخين. فالعامليون بدأوا علاقتهم مع ضاهر العمر بمواجهة عسكرية لأسباب تافهة حصلت بعد سنة ١١٦٣/ ١٧٥٠ وهي السنة التي استملك شيوخ الأسر العاملية الكبرى القلاع والأبراج القائمة في جبل عامل وكان أكثرهم نفوذاً شيوخ أسرة علي الصغير التي استولت على الأبراج والقلاع في بلاد بشارة.

الحديث عن مواجهة عسكرية بين العامليين والشيخ ظاهر العمر سنة ١٧٥٠ قد تكون مجرد نزاعات عادية يتسبب بها لصوص وسرّاق من هنا وهناك. فالعامليون جيران ضاهر العمر منذ تسلم صفد من الباشا العثماني، واحتمال الصراع ووقوع الغزوات بين الطرفين أمراً مألوفاً وشائعاً حيث يختلف الصفديون والعامليون في الانتماء المذهبي، ومدى ولاء كل جماعة للوالي العثماني أو من ينوب عنه. أولى المناوشات بين العامليين يقودهم مشايخهم وبين الشيخ ظاهر بن عمر بن أبي زيدان حاكم صفد وقعت سنة ١١٣٣/ ١٧٢٠ ذكر الشهابي أنه: «في سنة ١١٣٣/ ١٧٢٠ كانت الفتنة بين مشايخ المتاولة والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد. وجرى بينهم قتال شديد، فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير. ثم خرج عثمان باشا بالعسكر إلى بلاد صفد وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل وقتل البشناق أولاد مشايخ صفد»[1]. ويخبر البديري الدمشقي عن

---

(١) حيدر الشهابي، تاريخ حيدر الشهابي ص ٧٥٦.

بعض الأحداث المشابهة التي وقعت فيما بعد بين جيش باشا دمشق والشيخ ضاهر العمر تثبت أن العلاقة بين هذا الحاكم وما حوله لم تكن على ما يرام. يقول البديري: «... (سنة ١١٧٣/ ١٧٦٠)...وقبيل شهر رجب سار عثمان باشا (والي دمشق المعين حديثاً فيها) إلى الدورة وفتح فيها قلعة طرطورة. وكانت تلك القلعة بيد الظاهر عمر وقتل كذا. ولما رجع عنها عثمان باشا أخذها الظاهر عمر بقوة جيشه بلا محاصرة[١].

لقد بدأ التقارب العاملي الصفدي في فترة مبكرة. ولا يوجد أي سند موثوق يؤرخ لبدايتها رغم أن بعض الحكايات التي يرويها محمد جابر صفا قد تعطي وصفاً شعبياً لتلك العلاقة. فالصفديون سنّة من أتباع مذهب السلطان، والعامليون شيعة يتعرضون بسبب أو بدونه للتمييز من باشاوت وآغاوات الدولة. فكانت الخطوة الأولى هي محاولة التخفيف من التعصب بين الجماعتين. يروي محمد جابر صفا رواية عن رجل عجوز أدركه حياً اسمه «الشيخ جهبز» من قرية الناقورة على حدود بلاد عكا الذي أخبره: «أن أحد الباعة من أهالي جبل عامل ذهب يبيع عنبه في سوق البصة وكانت تابعة لفلسطين(؟) وحاكمها الشيخ ظاهر العمر. فاختلف بائع العنب مع بعض أهالي البصة. وشتم الفلسطيني مذهب البائع العاملي وعيّره بأنه متوالي. واتصل الأمر بالزعيم العاملي الشيخ ناصيف النصار فركب في يوم السوق التالي ومعه مائة فارس إلى البصة فأحاطوا بسوقها من جميع أطرافه، وأمر الشيخ بالقبض على المعتدي وحاكمه مع خصمه محاكمة علنية. ولما ثبت اعتداؤه أمر بشنقه في ساحة السوق قصاصاً وعبرة لأمثاله. ثم صرف خيله وسار في حاشية صغيرة إلى عكا. فقابله الشيخ ظاهر العمر بالحفاوة والترحاب. ولما بسط الشيخ ناصيف قضية البصة وما أجراه صوّب عمله وأصدر منشوراً عاماً يعلن فيه اتحاد الطائفتين السنة والشيعة وينذر من يخالف بالعقاب الشديد[٢].

هذا الاتحاد الذي بلغ هذا المبلغ من تفاهم الفريقين أو الشيخين الكبيرين قد سبقه عداوة أيضاً تتخذ طابع قصص الحكواتية كتلك التي يرويها أيضاً محمد جابر فيقول: «لما أخضع ظاهر العمر البلاد (عكا وصفد والناصرة وطبرية...) ودانت له سورية

(١) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ٢٣٢.

(٢) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٩٦-٩٧.

الجنوبية حول وجهه إلى جبل عامل يريد أن يخضعه لسلطته. غير أن جبل عامل في ذاك الوقت كان أمنع من عقاب الجو. كانت الطائفية والفوارق المذهبية في ذاك العصر من أكبر الدواعي لإثارة الفتن واشتعال الحروب الأهلية ونال الشيعة قسطاً وافراً منها لوقوع بلادهم في محيط يختلف عنهم عقيدة ومذهباً. فأصبحوا.... تحرش ظاهر العمر بناصيف النصّار عميد عشائر جبل عامل وكتب إليه أن يتخلى عن قريتي البصة ومارون بدعوى أنهما تابعتان لفلسطين. وأدرك العميد الغاية فرد رسوله ردّاً عنيفاً وأصدر أمره حالاً بالتأهب للحرب وذهب الصوّات يجوب أنحاء البلاد للنفير العام. وبلغ ظاهر العمر جوابه فطرد عمّال ناصيف من القريتين. ونهض لاكتساح بلاد عاملة. فصدته خيول ناصيف عند الحدود ونشبت بينهما حرب ضروس وانتصر ناصيف في عدة معارك أخصها معركة دولاب وطربيخا...»[١]. وتأكيداً لصحة هذه الرواية يضيف الكاتب أبياتاً من الشعر لشاعر عاملي يدعى الشيخ ابراهيم الحاريصي ارسلها لشاعر فلسطيني اسمه عبد الحليم النابلسي تشبه مفاخرات الشعراء العرب في العصر الجاهلي. وفيها يتحدث الشاعر عن استنجاد ظاهر العمر بناصيف أكثر من مرة وأنه لولاه لكان خسر صفد وعكا. وبعد هذه «المعارك» توصل الطرفان إلى صلح ثم إلى تحالف تأكد في الميادين عند الامتحان وهذا هو المهم في الموضوع.

يذكر البديري أنه: «في سنة ١١٦٣/ ١٧٤٩ حصلت وقعة عظيمة بين الدروز والمتاولة ومع المتاولة أيضاً أولاد الظاهر عمر حاكم طبرية وقتل من الفريقين، وحصروا قتلى الدروز فكانوا نحواً من تسعمائة قتيل وهي فتنة كبيرة»[٢].

فإذاً، تعمد الحلف الصفدي العاملي في الواقع الميداني وأصبح الطرفان يواجهان أعداءهما في الميادين، فقلبا المعادلات القديمة وتمكنا معاً من خلق واقع سياسي جديد ظل قائماً حتى نهاية حياة ظاهر العمر.

بعد هذه الموقعة -الفتنة التي تحدث عنها البديري سنة ١١٦٣/ ١٧٤٩ حدث أمر أكثر

---

(١) المصدر السابق ص ١١٦ -١١٨.

(٢) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص ١٥٠.

خطورة في جبل عامل وهو استملاك ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل وأقربائه للقلاع الموجودة في بلاد بشارة، بينما سيطر شيوخ آل صعب على قلعة الشقيف واستملكوها، فيما استولى شيوخ آل منكِر على قلعة جباع وقلعة ميس قرب قرية دير دغيا دون أن يربأوا بمواقف الباشا. وقبل الحديث عن هذه الخطوة يجب التعريف بالشيخ ناصيف النصّار.

٥ - **الشيخ ناصيف النصّار**: يتفق المؤرخون العامليون وعلماء الدين أن الشيخ ناصيف النصار هو أهم شخصية في تاريخ جبل عامل. اكتسب هالة أسطورية للانتصارات الرائعة التي تحققت أيام زعامته على بلاد بشارة. وربما تعود شهرة آل علي الصغير له دون سواه لما حققه أثناء توليه للأمور في بلاد بشارة. قبل الشيخ ناصيف لا وجود لزعامة حقيقية لآل علي الصغير، فما ذكر عن الشيخ مشرف والشيخ أحمد والشيخ نصار لا يعطي تلك الصورة الناصعة لزعيم عاملي. أما مع الشيخ ناصيف فالأمر بدأ ناصعاً وامتد لسنوات طويلة بنفس الشكل من القوة. زعامة الشيخ ناصيف زعامة أسرية عربية عادية، يتقدم جنوده في الميدان ويدافع عنهم كما يدافع عن نفسه، ولا يتخلف عن معركة، كما لا يتباهى بما فعل لتواضعه الكبير. يحمل هموم عامة الناس ويسعى لحل مشكلاتهم ويزور بعض البيوت ويجلس بين الناس يستمع إليهم ويعرف أحوالهم. وكأي زعيم عاملي ينحني باحترام لعلماء الدين ويخضع لأحكام المراجع ولا يخالفهم في صغيرة ولا كبيرة. ومن هذه الصفة كان الشيخ ناصيف رجلاً شيعياً إمامياً متديناً يحضر صلاة الجمعة في جامع شقرا، ويؤدي فروضه الدينية العادية أسوة بأبناء الشعب العاملي. كما ينفق على الفقراء والمساكين ويدفع مساعدات لطلبة العلوم الدينية في مدرسة شقرا. لهذا اكتسب الشيخ ناصيف تلك الهالة التاريخية المجيدة والتي فاق من سبقه من الزعماء ولم يأت بعده من هو في حجمه حتى نهاية الدولة العثمانية. من المأثور الذي لا يمكن أن يمحى من ذاكرة الشعب أن الشيخ ناصيف قد ختم حياته شهيداً وهو يدافع عن الجبل، وكفى بهذا رفعة في عيون الشعب العاملي.

كل ما ترويه مخيلة العامليين من كتاب ومؤرخين وشعراء وأدباء تلتقي جميعها على تمجيد هذا البطل العاملي الذي يختصر بحياته المثل العليا للعامليين فاستحق كل تكريم من أهل الجبل.

لقد حصلت أسرته، آل علي الصغير، على ذلك التكريم غير المحدود بسبب انتساب من جاء بعده منهم إليه أو تقربهم من نسبه بالأعمام وأبناء الأعمام.

ولد الشيخ ناصيف على وجه التقريب سنة ١١٢٥/ ١٧١٣. ورغم كل ما يحكى عنه لا يوجد مصدر واحد يحدد مكان وزمان ولادته. ولو كانت أسرة علي الصغير قبل ناصيف بهذا المجد لما جُهِل مكان إقامة شيوخهم وقادتهم. المهم أن الشيخ ناصيف عاش في بيت عرف الزعامة في بلاد بشارة منذ زمن، وخاض آباؤه وأجداده معارك في الدفاع عن وجودهم وزعامتهم فيه. ورغم ذلك فهناك اختلاف بيّن عند المؤرخين (والنسّابين) حول نسبه الصحيح الذي يبدو مضطرباً بما ينفي صحته. فأسرة نصار تنتسب إلى نصار بن أحمد المنتسب بدوره إلى آل علي الصغير. ليس هناك شجرة أنساب يعتمد عليها في تقرير عدد الأجيال بين حسين بن علي الصغير وبين مشرف بن علي الصغير، كذلك لا يوجد ما يمكن اعتباره سنداً موثوقاً لمعرفة عدد الأجيال بين الشيخ مشرف والشيخ نصار. لقد ناقش الشيخ محمد تقي الفقيه هذه المسألة، ورغم إعجابه الشديد بأسرة نصار وولائه لزعمائها إلا أنه وجد نفسه ينكر على شبيب (باشا) الأسعد وهو ينتسب إلى هذه الأسرة، كيف وضع نسباً لأجداده فيه الكثير من المغالطات التي لا يمكن تبريرها[١].

يمكن معرفة مدى الاضطراب في تحديد نسب آل النصار فيما كتبه محمد جابر صفا حول رجال مشهورين من هذه الأسرة، فهو ينسب ناصيف النصار بأنه ناصيف بن نصار الأحمد[٢]. ويعود فينسبه بأنه ناصيف بن نصار بن محمد بن مشرف[٣].

ويمكن تلمس بعض المنطق في نسبة آل النصار وحكام مقاطعات بلاد بشارة في سنة ١٧٥٠ كما يلي: بلاد بشارة ثلاث مقاطعات يحكمها ثلاثة شيوخ وهي مقاطعة جبل هونين ويحكمها الشيخ قبلان بن حسن بن أحمد بن مشرف. ومقاطعة جبل تبنين يحكمها الشيخ ناصيف بن نصار بن أحمد بن مشرف ومقاطعة ساحل صور (أو ساحل

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٣٦٩ - ٣٨٤ باختصار.

(٢) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٥١.

(٣) المصدر السابق ص ٩٢.

قانا وقلعة مارون، أو ساحل معركة) ويحكمها الشيخ عباس بن علي بن أحمد بن مشرف. أي أنّ أبناء أحمد بن مشرف ثلاثة وهم حسن ونصار وعلي. أما المعروفون من أبناء الشيخ نصار بن أحمد فثلاثة أولاد وهم ناصيف ومحمود (أبو حمد) ومراد (أبو ظاهر) وكان لعلي بن أحمد ثلاثة أولاد على الأقل وهم محمد وعباس وحمزة. ولم يكن لحسن الأحمد من الأبناء المشهورين إلا الشيخ قبلان حاكم جبل هونين.

لا يمكن التسليم بكل هذه التفاصيل والاعتقاد بأنها صحيحة مائة في المائة، ما يمكن التسليم به هو أن الطريقة التي تعالج مسألة النسب هي بمجملها مبتذلة وتحاول إعطاء صفات التفوق لأي شخصية تاريخية مع التلويح بأنها موجودة ومستمرة ولها جذورها القديمة المتوارثة، وهذا ما لا يستقيم مع الوقائع التاريخية. لقد كتب المؤرخون وأصحاب الرجال من العامليين واخترعوا شجرات أنساب يبدو فيها الوهن جلياً. وقد وضعت مثل هذه الشجرات لتكريم وتمجيد بعض الزعماء كالشيخ ناصيف الذي بدأ اسمه بالظهور سنة ١١٦٣/ ١٧٤٩. وربما يكون له دور كبير في المعركة التي وقعت في مرجعيون قبل ذلك ببضع سنوات، فيما لا يذكر أحد من الزعماء العامليين بإسمه في تلك المعركة رغم أهميتها.

الفصل الثالث عشر

حروب الشيخ ناصيف

١ - شيوخ الأسر يستولون على القلاع

٢ - الشوفيون يستولون على جزين

٣ - حركات الشيخ ناصيف المحلية

٤ - معركة البحرة وانتصار العامليين

٥ - معركة كفر رمان المجيدة

٦ - معركة الحارة وسهل الغازية

١ - شيوخ الاسر يستولون على القلاع

تحدثت بعض المصادر التاريخية عن اقتسام القلاع في بلاد بشارة بين الشيخ ناصيف النصار وأقربائه سنة ١١٦٣/ ١٧٤٩ تقريباً. وهذه القلاع هي تبنين وهونين ودوبيه وشمع ومارون (قرب دير كيفا). بينما سيطرت العائلة الصعبية على قلعة الشقيف (أرنون) قبل ذلك بعقدين من الزمن على الأقل، أي أصبحت في موقع الحاكم الفعلي لإقليم بلاد «الشقيف» ابتداءً من سنة ١١٤٣/ ١٧٢٩. كما سيطر آل منكِر على قلعة ميس قرب قرية دير دغيا وعلى بعض الحصون الأخرى خصوصاً في قلعة جباع، فسيطروا فعلياً على أقليمي الشومر والتفاح.

القلاع الموجودة في جبل عامل بنيت في فترات زمنية متعاقبة، ويعود تاريخ معظمها إلى أزمنة موغلة في القدم، ربما منذ أن عرفت المنطقة الحضارة والصراع العسكري. مواقع هذه القلاع لا زال يُظهر آثاراً لحضارات متعاقبة حيث كانت كل دولة تسيطر على المنطقة تعيد ترميم أو بناء القلاع في مواقعها الاستراتيجية الهامة.

وقد عرفت القلاع في جبل عامل خاصة بلاد بشارة فترة ازدهار عمراني وعسكري أثناء الحروب الصليبية حيث قام الصليبيون ببناء أو إعادة بناء وتحصين لمعظم القلاع القائمة في جبل عامل، وبعضها كانت مهملة منذ زمن طويل. هكذا بنى الصليبيون مثلاً قلعة تبنين على مقربة من القلعة العربية القديمة التي كانت قائمة هناك، كما أعادوا بناء قلعة مارون قرب دير كيفا، وأعادوا بناء وتحصين قلعة الصرفند، كما رمموا قلعة ميس قرب دير دغيا في مكان قلعة أبي الحسن الفاطمي.

بنهاية الحروب الصليبية لجأ الأيوبيون ثم المماليك، كما مر أثناء الحديث عن الحروب الصليبية، إلى تدمير معظم القلاع والحصون، وعندما تنبهوا إلى الخطأ الفادح الذي ارتكبوه بهدم بعض القلاع الاستراتيجية، عادوا يبنونها من جديد على أسس القلاع القديمة مستخدمين نفس الحجارة، حتى ظن كثيرون فيما بعد أن هذه القلاع هي ذات

القلاع الصليبية. كما بنوا بعض القلاع والأبراج على خطوط المواصلات الأساسية مثل قلعة شمع جنوب مدينة صور، وبرج دوبيه (أو دُبَيْ) إلى الشمال الغربي من ميس الجبل التي تسيطر على الطريق التي كانت تربط صفد ببلاد الشقيف.

لكن هذه القلاع أهملت في العهد العثماني إهمالاً كبيراً ولم تراعَ لها أهمية تذكر حتى أخذت بالانهدام والخراب تدريجياً. وكان الأمير فخر الدين بن معن عندما سيطر على بلاد بشارة وجبل عامل قد أعاد ترميم قلعة الشقيف أرنون وجعلها مخبأً لرجاله وحاشيته. كما أمر ببناء بعض الأبراج في المنطقة بعد عودته من أوروبا سنة ١٦١٨. وربما يكون برج دوبيه قد بني أو رمم في هذه الفترة وجُعل مخبأً لبعض حاشية الامير. وقد اختبأ فيه الأمير يونس بن معن وولديه حمدان وملحم، فهاجم جيش الكجك البرج وأخذهم أسرى (مر الحديث عن ذلك).

كانت هذه القلاع والأبراج بحاجة إلى ترميم وإعادة بناء دون أن يمنع أحد من الولاة فعل ذلك. فتهيأت هذه الظروف بعد معركة مرجعيون عندما أصبح للعامليين قوة عسكرية كافية بدعم من الشيخ ظاهر العمر حاكم صفد، فقام زعماؤهم بخطوة رائدة في هذا المجال وانتقل الشيوخ للسكن في القلاع وكأنها ملك خاص لهم، دون أن يثير ذلك اعتراض أحد من العامليين الذين وجدوا في ذلك حلاً مثالياً لمكان عيش المشايخ. خاصة وأن هؤلاء قاموا بإعادة بناء المهدم من القلاع.

تسلّم الشيخ ناصيف قلعة تبنين، والشيخ ظاهر بن مراد قلعة دوبيه، و(مدينة) صور للشيخ عباس العلي، بينما حصل الشيخ قبلان الحسن (بن أحمد المشرف) على قلعة هونين وجبلها. وبسبب ذلك نافس فيما بعد الشيخ ناصيف على زعامة بلاد بشارة.

هناك إثبات على أن الشيخ قبلان قد أقام في قلعة هونين منذ ما قبل سنة ١١٥٠/ ١٧٣٥. وإذا ما صح ذلك فإن تحرك الشيخ قبلان هو الذي أوحى للشيخ ناصيف بأن يستولي على القلاع والانتقال للسكن والعيش فيها. أما الشيخ ظاهر بن مراد فقد مات عندما انتهى من ترميم قلعة دوبيه حيث ذكر أنه صعد إلى السطح ليرى منه القلعة فهوى إلى الأرض

ومات يوم الأحد ٢٤ ربيع الأول سنة ١١٦٤/ ٢٤ شباط ١٧٥١[1]. ويذكره السيد الأمين باختصار شديد: «الشيخ ظاهر بن نصار الوائلي العاملي من أمراء جبل عامل توفي سنة ١١٦٣. ويظهر أنه أخو الشيخ ناصيف النصار. وفي هذه السنة بنى المترجم قلعة دوبيه ولما أتم بناءها صعد إلى أعلاها ليشرف على مناظرها فسقط إلى الأرض فمات»[2]. يكفي التذكير بأن ظاهر هو ابن مراد بن علي الصغير فيما يذكر الأمين نفسه أكثر من مرة أن ناصيف هو ابن نصار فهما ليسا أخوين. وكذلك فإن برج دوبيه كان موجوداً آخر أيام الأمير فخرالدين بن معن (سنة ١٦٣٣) ولم يبنه الشيخ ظاهر المراد بل استملكه كما استملك أقرباؤه الأبراج والقلاع في جبل عامل. أما كون ظاهر المراد من «أمراء» جبل عامل فهذه مبالغة في الوصف تحيزاً لآل علي الصغير. فلم يبلغ أحد من آل علي الصغير رتبة «أمير». وأقصى ما بلغوه كان رتبة «شيخ» أو أن بعض الأنصار نادوا بعض المتأخرين منهم ب «بيك» على الطريقة العثمانية.

لا يوجد ذكر في أي مصدر عن مآل هذا البرج (دوبيه) بعد الشيخ ظاهر المراد، لقد بقي البرج ورحل الرجل. ولم يكتب أحد من مؤرخي وكتاب جبل عامل المتحمسين ل «آل علي الصغير» أي خبر يفيد بانتقال هذا البرج إلى أحد. إن تملك الأبراج والقلاع قد جرى كما مر بعد واقعة مرجعيون. وقد حدث كل ذلك دون تدخل أحد من رجالات الدولة العثمانية سواءً الباشا في صيدا أو في سنجقية صفد. وهذا يعطي صورة أن أحد الطرفين (الباشا أو السنجق بيك ظاهر العمر) كان موافقاً على هذا العمل. يورد الكاتب محمد جابر صفا حكاية خيالية عن خلافات بين آل علي الصغير حول اقتسام القلاع وتملكها فيقول: «كان الشيخ قبلان بن الشيخ حسن بن الشيخ أحمد بن الشيخ مشرف الكبير (؟) بن محمد بن حسين بن علي الصغير زعيماً قوياً سديد الرأي وافر التدبير انتهت إليه رئاسة العشائر ومشيخة المشايخ بعد وفاة والده سنة ١١٥٠/ ١٧٣٥»[3]. وينقل الكاتب عن الكاتب الفرنسي إدوار لاكروا قوله عنه: «وهناك شيخ اسمه قبلان لم يكن يتداخل في

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٠٢.
(٢) أعيان الشيعة ٦/ ٤٠٤.
(٣) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، هامش ص ٩١.

الحروب. وتصوره مراسلات القناصل فيلسوفاً حكيماً لأنه عرف كيف ينال رضا السلطان بارسال الميرة إليه أربع مرات في السنة فكانت العواصف تمر فوق رأسه دون أن تمسه. وكان هؤلاء الشيوخ يسكنون القصور المحصنة أحسن تحصين». ويصل الكاتب إلى توضيح الطريقة التي توصل بها المشايخ إلى سكن القلاع فيقول: «نقل الشيخ قبلان مركز حكومته(؟) من مزرعته (مشرف) إلى قلعة هونين واستأثر بحكومة جنوبي جبل عامل أو بلاد بشارة الجنوبية كلها لأنه كان رأس العشيرة وأكبر زعمائها سنّاً وأعرضها جاهاً. وكان بقية أفراد الأسرة فتياناً حديثي السن. وفي سنة ١١٦٤/ ١٧٥٠ نشأ خلاف بينه وبين أبناء عمه على حكم المقاطعة انتهى بتحكيم الشيخ ظاهر العمر وكان صديقاً لزعماء جبل عامل فانقسمت المقاطعة إلى ثلاثة أقسام: الأول قبلان والثاني عباس بن محمد بن مشرف والثالث ناصيف بن نصار بن محمد بن مشرف. وعقد اجتماع حافل برياسة الشيخ ظاهر وقسمت اقطاعات بلاد بشارة إلى ثلاثة أقسام فكان سهم الشيخ قبلان جبل هونين. وسهم الشيخ ناصيف جبل تبنين والبلدان الجنوبية كلها. وسهم الشيخ عبّاس مقاطعة قانا ومقاطعة شحور ومقاطعة الشعب. وأعطيت صور للشيخ قبلان فرفض قبولها بحجة أنها بلد خربة لا يوجد فيها إلا مصنع للملح. فأعطيت للشيخ عباس. فاستلم عباس صور وبنى فيها داراً للحكومة لم تزل عامرة إلى اليوم (١٩٣٥) وموقعها على باب المدينة. وشاد فيها مسجداً وكنيسة وسوقاً ودوراً كثيرة...»[(١)]. طبعاً هذه الحكاية خيالية وفيها ضعف بيّن فليس في التاريخ شيء اسمه «بلاد بشارة الجنوبية» بل فقط بلاد بشارة وهي المنطقة المعروفة بحدودها الجغرافية والطبيعية والتاريخية جنوب نهر القاسمية حتى وادي القرن. وأما صور فقد كانت مدينة صغيرة منذ زمن أبعد بكثير من زمن الشيخ عباس وحتى قبل أن يسمع بآل علي الصغير. وللتذكير فإن ابن بشارة قد رد هجوماً افرنجياً على «مدينة» صور في منتصف القرن الخامس عشر. كما أن الأمير يونس بن معن بنى في صور قصراً وتقصّد الباشا زيارته فيه للتثبت أنه ليس حصناً. كذلك ورد في بعض الكتابات التاريخية للكنيسة المارونية ما يفيد أن المطران جبرائيل عواد أسقف عكا قد كتب سنة ١٧٤٠ رقيماً كنسياً يعين فيها لخدمة موارنة صور وقرية علما الشعب الخوري ابراهيم اسحاق من قرية

(١) المصدر السابق.

دبل (شمال غرب بنت جبيل)[1]. أي أن صور كانت موجودة وممدنة قبل أن يولد الشيخ عباس ولم تكن مهجورة أو أنه ليس فيها إلا ملاحة. لقد أثبت المؤلف ذلك سهواً في تتمة الخبر عندما تحدث عن غزوة قام بها الشيخ قبلان الحسن على صور حيث «نهب دورها ومتاجرها وحتى حلي نساءها وأسر الشيخ حمزة أخا الشيخ عباس....إلخ). فلا يعقل أن يكون قد تشكل في صور دكاكين وأسواق ومتاجر بين ليلة وضحاها. ربما ظلت صور صغيرة لأنها واقعة على طريق العساكر العثمانية التي تعبر من بيروت إلى عكا فقل عدد سكانها خوفاً من تحركات الجيش العثماني الفوضوي. لكن صور كانت قائمة. ما يهم من كل ما ذكر المؤرخ العاملي هو وساطة الشيخ ظاهر العمر الذي عمل على تأكيد تقسيم بلاد بشارة إلى ثلاثة اقسام أو ثلاث مقاطعات وهي جبل هونين وجبل تبنين وساحل معركة. وكان مركز كل قسم قلعة يقيم فيها أحد المشايخ (هونين وتبنين ومارون).

بعد اقتسام القلاع واتخاذها مساكن لمشايخ الأسر العاملية النافذة عمل كل شيخ على أن يجمع في قلعته أكبر عدد ممكن من الرجال لكي يكون مستعداً لمواجهة الأخطار التي قد تناله، وليس فقط للدفاع عن البلاد كما قد يبرر بعض المؤرخين. فلم يكن للمفهوم الوطني ذلك الأثر في نفوس مشايخ العائلات الذين دأبوا على غزو بعضهم البعض وكان كل شيخ يقوم اثناء الغزو بنفس الأعمال التي دأبت الدولة العثمانية على ارتكابها من قتل ونهب وتخريب وتدمير.

لكن الوجه الإيجابي وفروسية بعض المشايخ وخاصة الشيخ ناصيف النصّار قد حرّكت في المشايخ المتخاصمين والفوضويين روحاً معينة للدفاع عن الجبل ككتلة اجتماعية واحدة، وقد سعى بجد لإقامة ائتلاف بين المشايخ يمكن الجميع من خوض حرب دفاعية ضد أي عدو يتقصد جبل عامل بالأذية. وبسبب قرب المسافات بين القلاع فقد أصبحت حالة النفرة التي تحدث في أي قلعة تنتقل فوراً إلى القلاع المجاورة فيستعد الجميع ويواجهون العدو جماعة واحدة وبقوة. وربما هذا ما أوحى لبعض الكتاب أن يذكر أن إطلاق النار في الهواء كان يعني طلب النجدة فيسرع كل من يسمع صوت البارود

(١) مجلة المشرق عدد ١٨ تاريخ ١٥ أيلول ١٩٠٧ م ١٩٠٧ ص ٨٠٨.

إلى حمل سلاحه والتوجه فوراً نحو مصدر النار. وعندما أطلق ناطور ناره على ثعلب على ساحل صور ظن السامعون أن عدواً قد دهم المنطقة فتسارعوا نحو الساحل ولم تشرق الشمس إلا وعشرة آلاف مقاتل متأهبون في مزرعة الرجل. هذه الصورة الحماسية صورة حقيقية رغم ما فيها من مبالغة. فشعور الشيعة في جبل عامل أنهم هدف لكل موتوري السلطنة العثمانية من باشاوات وأمراء وحكام ورجال طوائف قد جعلهم متأهبين للدفاع عن وجودهم في كل حين. ما كان ينقصهم قبل معركة مرجعيون هو القائد الذكي الحكيم وهذا ما اختصره الشيخ ناصيف النصّار مفخرة تاريخ جبل عامل، الذي جمع في شخصه ما كانت تحتاج إليه الجماعة منذ آخر أمير عاملي من بني بشارة. أما ما حيك من أخبار عن أسرته ونسبه وورثته فهي أمور ثانوية استغلت ذكر الشيخ ناصيف لمآرب أخرى.

٢ - الشوفيون يستولون على جزين

يذكر الشدياق في تاريخه ما يمكن أن يسمى انتصاراً افتراضياً لأمراء جبل الدروز في حرب مع أهالي جبل عامل. ولأهمية هذا الحادث يجب إيراده من وجهتي نظر متعارضتين. يقول الشدياق: «... وسنة ١٧٥٠ تطاولت المناكرة الشيعية على بعض أقليم جزين وقتلوا رجلين من أصحاب الشيخ علي جانبلاط فعظم ذلك على الأمير فجمع الجموع وحشد لقتال المتاولة المذكورين وسار إلى جزين ومنها إلى جباع الحلاوة التي كان فيها بنو منكر. فالتقى الجيشان واصطدم الفريقان فظفر بهم الأمير وأهلك منهم ثلاثماية رجل وفر الباقون إلى مزار هناك فتحصنوا فيه. فوجّه إليهم الأمير كتيبة من جيشه صحبة الأمير مراد اللمعي والشيخ ميلان الخازن فغاروا عليهم فظفروا بهم وأهلكوهم جميعاً. ثم شن الأمير الغارة على باقي تلك الديار ورجع إلى دياره مؤيداً»[1].

في القصص العاملي يحكى عن وقوع معركة مشابهة حين تعرض رجلين من جبل عامل للاعتداء أثناء قيامهم ببيع العنب في منطقة باتر التابعة لجبل الشوف فسعى العامليون للثأر من أهل باتر وقتلوا أربعة رجال. فأدى ذلك إلى وقوع حرب مع جيش الشهابيين. ما يقوله الشدياق هو نفس الحكاية من وجهة نظر أهالي جبل الدروز. أما ما

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣٢١.

ذكره البديري الشامي عن هذه المعركة التي وقّتها سنة ١١٦٣/ ١٧٤٩ وأنها حصلت بين الدروز والمتاولة الذين حصلوا على مساعدة الشيخ ظاهر العمر حاكم طبرية. حيث هزم الدروز فيها وتركوا في الميدان حوالي تسعمائة قتيل[١]. لقد رجح ميزان العامليين جداً بتحالفهم مع الشيخ ظاهر العمر وانتقلوا للمواجهة الأكبر وهي قيام الحلف المصري الصفدي، وانضم إلى هذا الحلف الأسطول الروسي الذي كان يخوض غمار حرب بحرية متصلة للقضاء على الأسطول العثماني.

يذكر أحد الكتاب اللبنانيين وقوع معركة سنة ١٧٥٧ يسميها معركة «جل الشوك» يقول أنها وقعت بين الدروز بقيادة الامير يوسف الشهابي والمتاولة وعلى رأسهم المقدم علي محمد الخزرجي والشيخان جهجاه برو وعلي الجواد. انهزم فيها المتاولة وأدت إلى انحسار وجودهم في جزين[٢]. وهذا الخبر مركب وهو غير صحيح من حيث التاريخ فالأمير يوسف لم يكن قد تسلم إمرة جبل الدروز سنة ١٧٥٧. كما أن وجود الشيعة في جزين قد بدأ ينهاوى أيام المعنيين ليس بانتصارات عسكرية وهمية ولكن بسبب الأوبئة والمجاعات. لقد تناقص عدد السكان في منطقة جزين بشكل كبير في النصف الثاني من القرن السابع عشر وخلت مدينة جزين منهم وأصبحت مهجورة تماماً بعد أن ظلت لقرون قاعدة الشيعة الأساسية في بلاد الشام. وما تبقى من السكان الشيعة في منطقة جزين - مشغرة لم يكن له القدرة على خوض حرب عسكرية ضد مجاوريهم. أما وجود بقايا مقدمي جزين (وهو اللقب الذي كان يستعمل في أيام المماليك) وما حولها (كفرحونة ومشغرة...) فممكن على أنه يعني القرى الصغيرة القريبة من جزين وليس البلدة القديمة. لقد أصبحت جزين وما حولها من قرى بعد سنة ١٧٤٩ أو حولها تابعة لحكم أمراء جبل الدروز الشهابيين لتضاف بعد حين إلى المقاطعات الخمس التي تتكون منها إمارة جبل الدروز (الشوف والمتن والجرد والغرب وكسروان). ولم يحاول العامليون استرداد هذه المنطقة بسبب النقص الفادح في عدد السكان الذي تناقص باستمرار أثناء الحكم العثماني حتى قدر عدد سكان جبل عامل كله سنة ١٧٥٠ بحوالي خمسين الفاً فقط.

---

(١) البديري، حوادث دمشق اليومية ص ٥٥

(٢) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج ١ ص ٢١٦ نقلاً عن الحركات لأبي شقرا ص ١٥١-١٥٢.

٣ - حركات الشيخ ناصيف المحلية

في السنوات التالية (١١٦٣-١١٨٠/١٧٤٩-١٧٦٦) وقعت مجموعة حوادث يمكن أن تحسب على أنها مجموعة غزوات متفرقة خاض فيها الشيخ ناصيف ومشايخ جبل عامل حروبهم الصغرى في مواجهة الأعراب النازلين في مرج رميش أو مواجهة الدروز في آبل القمح في سهل الحولة أو مواجهة حملة محدودة لباشا صيدا إلى أنصار. كما وقعت غزوات بين شيوخ العائلات بعضهم ضد بعض، وهذا عرف عربي جاهلي مستمر ويعمل به في كل التاريخ العربي القديم والحديث. فقد هاجم محمود النصار أقليم الشومر وقبض على الشيخ سليمان الصعبي. وهاجم الشيخ حسين منصور الصغيري قرية الغازية وخرب أقليم التفاح. وهاجم ناصيف وابن عمه عباس أقليم الشومر. كما استولى محمود النصار (أبو حمد) على مواشي الشيخ عباس في طيرفلسيه...إلخ.

يمر مؤرخو جبل عامل وكتّابه مرور الكرام على هذه الحوادث غير المفهومة وغير المبررة التي تدل على عدم وجود فكر سياسي جامع أو هدف سياسي واضح، فالمشايخ يتصرفون كشيوخ قبائل في العصر الجاهلي لكن دون أشهر حرم. المؤرخون العامليون ومن حذا حذوهم ونقل عنهم يهتمون فقط بكتابة ما يتوهمونه أو يعلمونه من انتصارات. أما الجاهليات المتجددة من صراع على المغانم وغزو العشائر بعضها لبعض، واتباع الأسلوب العثماني في تدمير الأمة (القتل والنهب والحرق والتدمير) فلا يؤتى على ذكره حتى لا تتلوث سمعة الزعماء الذين وضعت معظم كتب المؤرخين العامليين لإثبات زعامتهم «التاريخية» لجبل عامل. ما يلفت في هذه الفترة هو قيام أسعد باشا العظم والي صيدا بهجوم على قرى بلاد بشارة حتى وصل إلى رأس العين قرب صور فاشتبك مع خيالة الشيخ ناصيف النصار والشيخ قبلان الحسن فقتل في المعركة أكثر من ثمانين رجلاً. وقبل وقوع المعركة طبق الباشا الطريقة العثمانية المعتادة، فنهب وأحرق قرى الساحل.

على أن الأخطر في كل تلك الحوادث هو الحرب التي وقعت بين الحليفين أي ظاهر العمر والشيخ ناصيف. إذ يذكر المؤرخون العامليون أن ظاهر العمر أراد التوسع فاستولى على قرية البصة (قرب الناقورة) وهي داخلة في المقاطعات التي يحكمها الشيخ ناصيف

النصار ولم يلق الظاهر مقاومة من العامليين فقرر الاستيلاء على قرية طربيخا من قرى منطقة الشعب فأرسل خيالته إليهاأ وعبدما وصل الخبر إلى قلعة تبنين التي تبعد ساعة واحدة للفارس سارع الشيخ ناصيف بمن حضر من الفرسان لنجدة طربيخا حيث اشتعلت المعركة بين الطرفين وانجلت عن نصر حاسم للعامليين الذين تمكنوا من الوصول إلى ظاهر العمر نفسه. لكن الشيخ ناصيف عفا عنه وأعاد له فرسه واسمها «البريصة» وقال له الكلمة المشهورة: «لا حاجة لنا بالبريصة بعدما رجعت لنا البصيصة» تصغيراً لاسم البصة[1]. ما يؤكد هذه المعركة وانتصار الشيخ ناصيف والعامليين فيها ما قاله الشعراء المعاصرون فيها ومنهم الشاعر الشيخ ابراهيم يحي والشيخ ابراهيم الحاريصي. ومنها بيت حماسي:

وأعجب شيءٍ أن خمسين فارساً تُمَزِّق ألفي فارس بالقواضبِ

وقد قيل بأن عدد قتلى الصفديين في هذه المعركة أكثر من مائة وخسر العامليون خمسة وعشرين رجلاً.

تعرف هذه المعركة كذلك بمعركة «الدولاب» وكان من نتائجها العسكرية الاعتراف للعامليين بحكم مناطقهم ومعاملتهم معاملة ندية في الأمور السياسية التي تهم المنطقة.

لقد سعى الشيخ ظاهر العمر للوصول إلى تحالف حقيقي مع كل حكام المنطقة للوصول إلى استقلال حقيقي لبلاد الشام أو على الأقل للمناطق الساحلية وحاول جاهداً إقناع الأمراء والحكام المحليين بالانخراط في حركة شاملة للوصول إلى هذا الهدف. من أجل ذلك سارع إلى توقيع اتفاق للتفاهم والتحالف مع الشيخ ناصيف النصار في رجب سنة ١١٨١/ ١٧٦٧. كما سعى مباشرة لإقامة مثل هذا التحالف مع أمراء الشهابيين في جبل الدروز فالتقى من أجل ذلك مع الشيخ علي جنبلاط صاحب النفوذ الواسع في منطقة الحكم الشهابي. وكان اللقاء في صور بحضور الشيخ عباس المحمد النصار. وقد نبّه الدبلوماسي الروسي بازيلي إلى محاولة ظاهر العمر هذه ونتائجها فكتب: «وأقام ظاهر (العمر) تحالفاً وثيقاً مع المتاولة، واتفق مع الباشا على أن يدفع الإتاوة عنهم.

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٠٧ نقلاً عن مصادر مختلفة.

وهكذا اتسعت دائرة أعماله وكان يسعى على أثر فخر الدين إلى هدف عظيم، إلى إقامة كونفدرالية عامة للقبائل العربية تستطيع أن تساعد على إقامة دولة مستقلة... وكانت القبائل اللبنانية تتعاطف مع الشيخ المقدام، وكانت مستعدة للتعامل معه. وكان هذا كافياً لتفلت سورية من الحكم التركي، ولكن حزازات الشهابيين العائلية أعطت مصير هذه القبائل اتجاهاً آخر»[1].

اكتمل المشهد الذي سعى لتنفيذه الشيخ ظاهر العمر، تحالف قوي مع الحاكم المصري علي بيك الكبير المتحالف مع الروسيا الذين يعينونه بأسطولهم. وتحالف أقوى وأشد مع الشيعة العامليين. فكان لا بد من وقوع الحرب الكبرى التي كان لنتائجها أن تغير وجه المنطقة.

بدأ جيش مصري عدده عشرة آلاف جندي حركته من مصر باتجاه الشام بقيادة المملوك اسماعيل بيك فاحتل غزّة والرملة دون مقاومة تذكر. وما أن علم والي دمشق عثمان باشا بالأمر وكان يجبي الخراج من بعض نواحي فلسطين حتى عاد سريعاً إلى عاصمته وراح يتجهز لقيادة بعثة الحج إلى الديار المقدسة تاركاً ولاية دمشق تحت رحمة اسماعيل بيك وحلفائه. في هذا الوقت انضم الشيخ علي ابن ظاهر العمر مع وحدة من الفرسان إلى اسماعيل بيك المصري وقادهم إلى عكا مستولياً على كل الساحل الفلسطيني دون مقاومة. وازدا عدد جيش الحلفاء إلى عشرين الفاً بعد انضمام أتباع الشيخ ظاهر إليه وتوليه بنفسه قيادته، مما أثار حفيظة اسماعيل بيك ومن معه من مماليك الذين كانوا ينظرون إلى العرب ومنهم الشخ ظاهر، نظرة ازدراء. فرفضوا تنفيذ أوامره بالإستيلاء على مدينة دمشق. عند ذلك رفع الشيخ ظاهر العمر الشكوى إلى علي بيك الكبير الذي سارع إلى إرسال جيش كبير قوامه أربعون ألف جندي بقيادة صهره محمد أبي الذهب لمؤازرة الجيش الأول ولحل الخلافات المستجدة بين قيادات الجيش في الشام. بوصول نجدة محمد أبي الذهب إلى عكا اكتمل عديد الجيشين ستين ألفاً متحدَّين في جيش واحد بقيادة أبي الذهب الذين سار إلى دمشق دون أن يلقى في طريقه مقاومة جدية. كان الباشا

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٥٢-٥٣.

قد عاد من الأراضي المقدسة وجمع جيشاً من الولاية على عجل، وانضم إليه جيش ولديه واليا صيدا وطرابلس، فبدت الصورة وكأن جيش مصر يواجه جيش سورية حيث انتصر الجيش المصري وسحق جيش عثمان باشا قرب دمشق. وفر الوالي مع ولديه خارج المدينة التي فتحت أبوابها لجيش علي بيك الكبير. وأعلن الأمان لكل سكان دمشق باسم علي بيك، واتهم عثمان باشا بالكفر والمروق من الدين بسبب تضييقاته على الشعب. لكن بيان الفاتحين لم يشر بكلمة واحدة إلى السلطان وحكومته[١]. كانت نتيجة المعركة واعدة ومبشرة لأهل الشام ولمصر، وكأن العصر المملوكي عاد من جديد واتحدت مملكتي مصر والشام ثانية، وتلقى الفاتحون المصريون ولاء عدد من حكام المناطق ومنهم الأمير منصور الشهابي أمير جبل الدروز، بالإضافة إلى حلفهم القائم مع الجليليين والعامليين.

لم يلبث محمد أبو الذهب واسماعيل بيك أن خانا بعد تلقيهما رشوة كبيرة من أحد موظفي السلطان ووعد بالعفو عنهما عندما يبدأ جيش السلطان بهجوم مضاد للقضاء على المتمردين. فسارعا أبو الذهب واسماعيل بيك للإنسحاب من دمشق أمام ذهول الأهالي وعادوا مع قواتهما إلى مصر تاركين الشيخ ظاهر العمر وحلفاءه مكشوفين، ووجهاً لوجه مع باشاوت الدولة في دمشق وصيدا وطرابلس. وكان باشا دمشق عثمان قد جمع جيشاً كبيراً في حمص وانطلق به جنوباً ودخل دمشق دخول المنتصرين في نفس الوقت الذي تمكن أبو الذهب واسماعيل بيك بعد عودتهما إلى مصر من الانقلاب على سيدهما علي بيك. ففر منهما إلى حليفه ظاهر العمر ومعه عدد من جنوده الأوفياء، فاستقبلهم الشيخ ظاهر بالترحاب. وبقي مخلصاً لحليفه إلى النهاية.

٤ - معركة البحرة وانتصار العامليين:

بعد أن تمكن عثمان باشا من استعادة دمشق كان لا بد له أن يقوم بحملة تأديبية ضد الذين ساعدوا جيش المصريين. فقاد بنفسه جيشاً تعداده اثنا عشر ألف مقاتل وتوجه به جنوباً نحو طبرية وجبل عامل. وكما كان يفعل ولاة دمشق في السابق، كان جيش الباشا

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤.

الكبير يحوي معه آلاف المرتزقة الباحثين عن الغنائم. هؤلاء كانوا يتعقبون الجيوش المتحركة حيث يعيثون فساداً في الارض بعد انتهاء المعارك وبموافقة ورضى الباشاوات.

بعد عبور جيش الباشا لنهر الشريعة (الأردن) قرب بحيرة الحولة أمر الباشا بإقامة مخيمه على شاطىء البحيرة الغربي على أن يتابع زحفه في اليوم التالي. وما كاد يستقر به المقام حتى فاجأه مئات من فرسان العامليين بقيادة الشيخ محمود النصار شقيق الشيخ ناصيف بهجوم صاعق، أصيب قادة الجيش بالذهول وشرعوا يفرون مع سيدهم عثمان باشا نحو البحيرة حيث كانوا يلقون أنفسهم بأثقالهم فيها. وفي خلال وقت قصير قضى على معظم جيش الباشا غرقاً. وتمكن عثمان باشا من النجاة بنفسه سباحة على ساعدي اثنين من عبيده. لقد ساعد جيش الباشا عدوّه على نفسه بسبب وجود ذلك الحشد من المرتزقة والنهّابين الذين سارعوا إلى الفرار مسابقين لجيش الباشا المصدوم والمحبط، ثم انقلب بعضهم على الفارين فنهبوهم وقتلوا عدداً من الناجين حتى تحطم جيش الباشا بكامله تقريباً. ولم ينج من هذه المذبحة إلا الباشا وبعض العبيد المرافقين له.

تسمى هذه المعركة في التاريخ العاملي معركة «البحرة» وتعتبر إحدى مفاخر التاريخ العاملي حيث ينسب معظم المؤرخين العامليين النصر في هذه المعركة لأنفسهم دون مساعدة من أحد بينما ترد أوصاف هذه المعركة عند المؤرخين الآخرين بصور خيالية تخدم هدفهم من كتابة التاريخ.

ورغم حجم هذه المعركة الكارثية على الباشا والعظيمة للعامليين إلا أن استثمارها تاريخياً جاء دون المطلوب، فتطور الأحداث كان يتجه من هذه المعارك المتلاحقة إلى معركة حسم أساسية تقرر مصير المنطقة برمتها.

بالنسبة للدبلوماسي الروسي بازيلي فإن معركة البحرة هي ضربة حظ للشيخ المسن ظاهر العمر وليس للعامليين الذين خاضوها بسيوفهم وبنادقهم. يقول بازيلي عنها: «وما لبث الحظ أن ساعد الشيخ المسن بعد فرار المصريين. فقد انقض انقضاضا الصاعقة على معسكر عثمان (باشا) الواقع عند بحيرة الحولة، خلف جبال لبنان الشرقية، فبعثر أكراده وأغرقهم في المستنقعات واستولى على مدافعه وكل حاجياته. وأفلت الباشا

نفسه بصعوبة عابراً البحيرة سباحة على أكتاف زنجيين. هذا الخبر أثار هلع باشا صيدا درويش بن عثمان باشا وقد استعد المتاولة في الجوار لمهاجمته في صيدا. ترك درويش باشا مدينته وبحث عن ملجأ في الجبال عند الأمير يوسف فأرسل الأمير من عنده لرعاية الحامية في صيدا الشيخ علياً جنبلاط مع ميليشيا العقّال»(١).

أما خبر هذه المعركة عند مؤرخي المتصرفية فهي تبسط لتبدو وكأنها حدثٌ عادي لا أهمية لها، فيوردها المعلوف كما يلي: «وفي هذه السنة (١٧٧١) كانت الموقعة التي حدثت بين عثمان باشا الصادق والي دمشق وبين الشيخ ظاهر وجيش المتاولة المتحدين معه. فانتشب بينهم القتال في بحيرة الحولة فأوقع جيشهم بجيش الباشا وقتلوا منه كثيرين وغرق عدد في الماء. وكان والي صيدا إذ ذاك درويش باشا ابن عثمان باشا المذكور فانهزم هو ووالده بقليل من العسكر إلى دمشق. ثم عاد درويش إلى صيدا فعصى عليه مشايخ المتاولة الذين أثارهم ظاهر العمر فأرسلوا يتهددونه ليخرج من صيدا فكتب والده عثمان إلى الأمير يوسف الشهابي أن يقوم بعسكره اللبناني (؟) ويردع المتاولة. فنهض من دير القمر بنحو عشرين ألفاً وذلك سنة ١٧٧٢ فاعتصب عليه المتاولة والشيخ ظاهر وخانه بعض رجاله فلم ينجح بهذه الحملة بل عاد إلى لبنان مدحوراً. وسنة ١٧٧٣م أنعمت الدولة العلية على ظاهر بولاية صيدا وعكاء وحيفا ويافة والرملة ونابلس وإربد وصفد وما إليها وذلك بتقليد»(٢).

أما من الجهة العاملية فلهذه المعركة أهمية خاصة وادعاء بأن العامليين وحدهم قاموا بها وبعدد محدود جداً من المقاتلين. يقول محمد جابر صفا حول هذه المعركة: «... اشتد أزر ظاهر العمر بمحالفته لزعماء الشيعة، واعتز جانب الشيعيين وطمحت نفوس الفريقين للاستقلال الناجز. فخلعوا نير السلطة التركية(؟) وأبوا دفع الضرائب.

وأوجس رجال الدولة خيفة من هذه المحالفة التي تلت محالفة ظاهر العمر وعلي بك

(١) المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٧٣ - ٢٧٤

الكبير حاكم مصر فانتدبت عثمان باشا الصادق والي الشام يعاونه والي صيدا على رأس ثلاثين ألف مقاتل لاخضاع جبل عامل وبلاد فلسطين وهدم سلطة المتاولة وظاهر العمر. قام عثمان باشا بجيشه في ٣٠ آب سنة ١١٨٥/ ١٧٧١ من دمشق قاصداً مهاجمة بلاد الشيعة من الجهة الجنوبية الشرقية. وصل إلى بحيرة الحولة فضرب خيامه على ضفافها بعد أن اجتاز نهر الأردن على جسر بنات يعقوب وهو المكان الذي فاجأ فيه نور الدين «الشهيد محمود بن زنكي» في سنة ١١٥٦ بودوان الثالث ملك أورشليم في الحروب الصليبية. وقيل إن جيش الظاهر والمتاولة داهموا جيش عثمان باشا زحفاً على بطونهم من أربع جهات وكان جيشه مؤلفاً من عشرة آلاف رجل واثني عشر مدفعاً وأربعة مدافع لدك الحصون. وأن ناصيف النصار قطع بسيفه رأس قائد مارديني ظناً من أنه عثمان باشا. وأن هذا الباشا فر ناجياً بنفسه وفقد خيمته وسلاحه وخيوله وأركيلته. وأما الجيش فقد فني عن آخره ومن سلم من القتل رمى بنفسه في البحيرة فمات غرقاً. هذا ما أورده الوزير الفرنسي إدوار لاكروا في كتابه المسمى تاريخ أحمد باشا الجزار أو سوريا ومصر في أواخر القرن الثامن عشر الذي استقاه من تقارير قناصل فرنسا في صيدا ومن سجلات وزارة الخارجية الفرنسية.

أقول (محمد جابر) أن هذه المعركة تعرف بمعركة (بحيرة الحولة) وقعت في ٥ محرم سنة ١١٨٥/ و٣٠ آب سنة ١٧٧١م. ويقول المؤرخون العامليون أن حملة عثمان باشا على الشيعيين لما نبذوا طاعة ولده درويش باشا والي صيدا ورفضوا دفع مال الميري المقطوع فجهز عثمان باشا لحربهم وعسكر الشيخ ناصيف النصار بجنوده في جوار مقام النبي يوشع الواقع في الشرق الجنوبي من جبل عامل. وعقد مشايخ الشيعة ديوان مشورة ورتبوا خطة بالهجوم وتضرعوا إلى اللّه أن ينصرهم على العدو الباغي. وكان مقام النبي يوشع بناية....وانتدب ناصيف فرقة من أبسل جنوده وأوفرها شجاعة لا تزيد عن خمسماية فارس فبيتت العدو وزحفت ليلاً فأحاطت به من جهات ثلاث وأعملت فيه السيف. ولم ينج من القتل إلا من ألقى نفسه في البحيرة ولم يقتل من المهاجمين جندي واحد. وفر الوالي عثمان باشا منهزماً لا يلوي على شيء.... وتكلم عن هذه المعركة الأمير حيدر الشهابي في تاريخه ج ١ ص ٨٩ بقوله: «إن أبطال المتاولة بعد تلك الكسرة

الهائلة شاهدوا درويش باشا والي صيدا وهو ابن عثمان باشا والي الشام فخاف على نفسه وكان جباناً ففر منها»[١].

يمكن ملاحظة ذلك الاضطراب فيما كتبه محمد جابر تماماً كالاضطراب الموجود في كتابة المعلوف. فمحمد جابر حدد عدد الجيش بثلاثين ألفاً ثم انتبه على ما يبدو إلى أن ذلك كثير فخفض العدد ليصبح عشرة آلاف وقد فني على زعمه كله لم ينجُ منه إلا عثمان باشا وقليل من الأتباع وفقد خيمته ومدافعه و«أركيلته». كما أن تاريخ المعركة الذي حدده في ٥ محرم سنة ١١٨٥ يوازي التاريخ ٢٠ نيسان سنة ١٧٧١ وليس شهر آب. أما ذكر مقام النبي يوشع وأن الشيخ ناصيف قد نذر بناء المقام وأن عدد الجنود هو فقط ٥٠٠ مقاتل لم يقتل منهم أحد، كل ذلك إضافات لا مبرر لها سوى مديح القائد المؤمن والحكيم ناصيف النصار -وهو حقاً كذلك- ليكون النصر في المعركة مكافأة من اللّه للشيعة على جهودهم وإيمانهم. كما يستخدم محمد جابر كلمة «التركي» للدلالة على الدولة العثمانية وهذا خطأ تاريخي كبير فلم تكن الدولة العثمانية دولة تركية. هذا التعريف استعمله الأوروبيون ولم يكن يعبر عن حقيقة الدولة العثمانية التي كانت تجمع عدداً كبيراً من القوميات منها التركي والعربي والكردي والالباني والبشناقي....إلخ. وما التعبير بـ«التركي» إلا تعبيرٌ عدائيٌ من الأوروبيين، جاراهم فيه بعض الكتاب اللبنانيين بعد سقوط الدولة العثمانية.

من الواضح أن تاريخ معركة البحرة هو سنة ١٧٧١ دون ذكر الشهر واليوم. وأن من نتائجها الأولى فرار باشا صيدا، وهو ابن عثمان باشا الصادق من ولايته، ولجوئه إلى دمشق التي أمرت أمير جبل الدروز (يوسف الشهابي) بالتحرك بعسكره لمحاربة المتاولة. وهذا سيعني وقوع المعارك التالية في أواخر سنة ١٧٧١ أو في سنة ١٧٧٢. لكن المؤرخين المضطربين قد اختلفوا في ترتيب الحرب التالية التي هي نتيجة حتمية لمعركة البحرة، ولخيانة البيكين (مثنى بيك) محمد أبو الذهب واسماعيل بيك، ولفرار علي بيك المصري. فالحرب بين الدولة العثمانية وظاهر العمر وحلفائه هي انتقام السلطنة من الذين هاجموا أولاً دمشق وتحالفوا مع الدولة الروسية.

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٢٢-١٢٤.

٥ - معركة كفر رمان المجيدة

كان لا بد للدولة العثمانية أن تحاول استعادة هيبتها التي ضربت بشدة أثناء احتلال دمشق من قبل أبي الذهب واسماعيل بيك وجاءت معركة البحرة لتزيد من تدهور صورة الدولة وجيوشها في الشام. لذلك استعجل عثمان باشا والي دمشق الطلب من الأمير يوسف أمير جبل الدروز الحاقد بلا سبب على الشيعة أن يهاجم جبل عامل. فلم يتردد الأمير النزق وبدأ على عجل بتجميع قواه العسكرية بكل طاقتها فاجتمع لديه أكثر من عشرين ألف رجل زحف بهم مباشرة نحو جبل عامل سالكاً الطريق المعتادة التي كان أمراء جبل الدروز يسلكونها. أي ينزلون من جبالهم نحو صيدا فيعبرون نهر الأولي ثم يتجهون شرقاً نحو أقليم التفاح ومنه ينطلقون نحو بلاد الشقيف ثم بلاد بشارة.

منذ البداية بدأ الامير يوسف يثبت أن المقصود بالانتقام هم شيعة جبل عامل بما يعطي فرضية أن العامليين هم أبطال معركة البحرة وليس لظاهر العمر كبير دور فيها لأن أحداً من المؤرخين المتحمسين للأمير يوسف أو المتحمسين للعامليين وحتى بازيلي الروسي يجمعون على أن وجهة جيش الأمير يوسف الشهابي كانت جبل عامل وليس صفد أو عكا. يقول بازيلي: «.... وسلّح عثمان باشا حسب تكتيك الأتراك (العثمانيين) المألوف، الدروز ضد المتاولة. وبإيعاز منه شنّ الأمير يوسف مع ٢٠ ألف جبلي حملة جائحة على بلاد المتاولة، فأحرق القرى وخرّب المزارع. وعبثاً حاول الشيخ السمح علي بن ظاهر (العمر) إقناع أمير لبنان(؟) بالتخلي عن الأتراك وعرض عليه شرف تولي قيادة كونفدرالية الجبليين ليتخلص الجميع من مكائد الباشاوات. ولما كان أنصار عمه منصور يرغبون في القضاء على يوسف فقد حرضوه على متابعة العمليات الحربية لجعله مكروهاً من الشعب أكثر وأكثر. ودعوا في الوقت نفسه المتاولة إلى مهاجمة الأمير. وفي الواقع هاجم خمسمائة من المتاولة الحانقين قوات الأمير في النبطية ، قرب صيدا. إن الدروز الذين قاموا بهذه الحملة لصالح الباشا عن غير رغبة لم يصمدوا أبداً وتفرقوا في اتجاه جبالهم. فلاحقهم المتاولة طويلاً وأراقوا الكثير من الدماء. وغادر الأمير إلى دير القمر مجللاً بالخزي. ألف وخمسمائة أرملة «كأسراب الغربان» حسب تعبير المدونات العربية، ملأن الجو على ذرى جبل لبنان بالعويل واللعنات. أما العقّال الذين كانوا يحتلون

صيدا فتراجعوا بذعر إذ علموا بهزيمة الأمير. وعلى أثر ذلك استولى ظاهر (العمر) على البشالك هذه وعين متسلماً عليها أحد ضباطه وهو الأفريقي الشجاع دنغيزلي»[١].

هذا اختصار لتاريخ معركة النبطية (كفر رمان) كما سمعها بازيلي أو قرأها من المدوّنات العربية كما صرّح، وفيها اعتراف واضح بأن المحاربين الشيعة كانوا خمسماية فقط، أما جيش العدو فأكثر من عشرين ألفاً وكذلك يصرح بعدد القتلى «ألف وخمسمائة أرملة» يعني ألف وخمسمائة قتيل متزوج. أما العدد الحقيقي للقتلى فهو أكثر من ذلك على اعتبار أن القتلى من العزّاب كان عددهم أكثر في جيش الأمير يوسف.

المؤرخ الشدياق متحمس جداً للأمير يوسف وقد بحث عن تبرير لهذه الهزيمة فكتب سيرة المعركة كما يشاء مخففاً ما استطاع من أثرها، مُوَقِّتاً المعركة سنة ١٧٧٠ وهي نفسها السنة التي تولى فيها الامير يوسف الحكم في جبل الدروز. كما أن هذا التاريخ يجعل هذه المعركة قبل معركة البحرة وليست نتيجة لها. يقول الشدياق: «... وفيها (سنة ١٧٧٠) هاجت متاولة جبل عامل ونبذوا طاعة درويش باشا (والي صيدا) وجعلوا يمخرقون في قرى مرجعيون والحولانية وأظهروا الشحناء للأمير (يوسف) بسبب توليه مكان عمه الأمير منصور لأنهم كانوا يميلون إليه. وكان أكثرهم هياجاً الصغيرية والصعبية. فلما بلغ الامير خبرهم فداخله الغيظ منهم لتحرشهم بالديار المذكورة لأنها تحت ظل حمايته لوقوعها في ولاية خاله أمير حاصبيا فجمع الأمير الجموع من لبنان(؟) وكتب إلى خاله أن يجمع رجاله ويلاقيه بهم إلى جبل عامل لقتال الشيعية. ونهض من دير القمر بجحفل زهاء عشرين ألفاً فرساناً ومشاة فسار وخيم عند جسر صيدا. وأرسل الشيخ علي جنبلاط برجاله لأجل محافظة صيدا من عسكر لبنان(؟). وفي اليوم الثاني قام الأمير بعسكره قاصداً قرية جباع الحلاوة فأحرق جميع قرى أقليم التفاح إلى أن بلغ جباع المذكورة فهرب منها بنو منكر أصحابه (أصحاب أقليم التفاح) وتعصبوا للصغيرية وللصعبية. فخافوا جميعاً واستدعوا إليهم الشيخ ظاهر العمر الزيداني صاحب عكا. فقدم إليهم بعسكر من الزيادنة أصحابه. وكان عمل الامير يوسف مكيدة من الشيخ عبد السلام العماد. لأن الشيخ علي

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٥٧ -٥٨.

جنبلاط كان يحب بني منكر. فلما بلغه ذلك اغتاظ جداً وعلم أنها مكيدة من الشيخ عبد السلام ونكاية به وأضمر في نفسه الشر فبعث رسولاً إلى العسكر أسرّ لجميع أحزابه أنه إذا حصلت المصاف يولون الأدبار إلى الديار وحرّضهم على ذلك جداً. ثم إن الأمير بعد أن نهب جباع وقطع أشجارها وأحرقها وهدم أماكنها وبات فيها ليلتين قام إلى صحراء نبع المأذنة. وعند الصباح قدم إليه رسول بكتاب من خاله الأمير إسماعيل يخبره أنه قادم إليه برجاله وأنه حضر إليه رسل من عند متاولة جبل عامل بكتاب من الشيخ ظاهر العمر يطلب به الصلح على أن المتاولة يدفعون له مالاً وأنه هو الكفيل ملتمساً منه أن يتربص في مكانه إلى أن يقدم إليه ويفهمه مشافهة. وأرسل إليه كتاب الشيخ ظاهر العمر فلما قرأه أبى المسالمة ونهض طالباً الحرب والنزال ولم ينتظر قدوم الأمير إسماعيل فأدرك قرية كفر رمان فأحرقها وبقي سائراً حتى أدرك أطلال قرية النبطية وهناك التقت قوادم جيشه بعيون المتاولة وطلائعهم. فلما رأت المتاولة ذلك وتأكدوا عدم إجابته للصلح فعزموا على القتال. فتجمعوا نحو من أربعة آلاف وانضم إليهم الشيخ ظاهر حنقاً على الأمير يوسف لعدم ارتضائه بالصلح عن يده ولما التقى الجيشان وتصادمت الفرسان انفضت رجال الجانبلاطية وولوا الأدبار حسب إرادة الشيخ علي. ولما انفصلوا عن العسكر تقلقلت الصفوف وخافوا. فهجمت عليهم المتاولة والزيادنة فانكسروا وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة رجلاً ولم يزالوا مولين الأدبار إلى أن وصل إليهم الأمير إسماعيل بجيشه. فالتقى الجيوش ببأس قد من حديد فكسر عزمهم عن اللحاق. وكان الشيخ كليب يمانع عن الأعقاب. فارتدت المتاولة والزيادنة وذهب الأمير إسماعيل والشيخ كليب إلى حاصبيا واستمرت الهزيمة على الأمير يوسف وعسكره إلى أن دخلوا جبل لبنان. فخاف درويش باشا وفر إلى دمشق وفر معه الشيخ علي جنبلاط برجاله إلى البلاد فأخذ الجميع يلومون الأمير على تلك الفعلة. أما المتاولة ففوضوا أمرهم إلى الشيخ ظاهر المذكور وانضموا إليه فاشتدت عزيمتهم. ولما علم ظاهر العمر بنهوض درويش باشا من صيدا سوّلت له نفسه الخروج والعصيان وطمعته على المدن والبلدان فأرسل واحداً من خواصه يلقب بالدنكزلي بجماعة من غلمانه إلى صيدا فاستولى عليها وصار نائباً من قبله فيها. فطفقت المتاولة يتجاوزون الحدود ويتحرشون بأقليم جزين وأقليم الخروب المتصلين بولاية الأمير. فأرسل لهم الشيخ كليب النكدي إلى أقليم الخروب لصدهم

عن المظالم. فنزل قرية برجا وأشهر سيف الحماية. وفي بعض الأيام التقى بجماعة من المتاولة في قرية علمان فغار عليهم وظفر بهم. واستقرت العداوة بين الأمير وظاهر العمر وأحزابه المتاولة ودام الأمر بينهم إلى أن صدر الأمر السلطاني إلى الأمير بالقيام لقتال الشيخ ظاهر المذكور وأتباعه المتاولة وطردهم عن صيدا.

وأنعم السلطان على الأمير بترك مال بلاده سنة. وكان ذلك بوسيلة عثمان باشا والي دمشق. ثم توفي عثمان باشا هذا فركدت همة الأمير عن الاهتمام بأمر حرب ظاهر العمر[١].

لقد هيأ المؤرخ الشدياق الحجج والذرائع لتبرير الهزيمة المنكرة لجيش الأمير يوسف الشهابي، فحركته ليست بأمر من الباشا بل مؤامرة من الشيخ علي جنبلاط أو الشيخ عبد السلام العماد. تحريك جيش عدده أكثر من عشرين ألف للسيطرة على منطقة صغيرة يتم بالاتفاق الخياني بين الشيخ علي جنبلاط وأتباعه في الجيش للفرار من المعركة التي لاحقهم العامليون في نهايتها وقتلوا منهم عدداً كبيراً وهذا لا يمكن أن يكون حقيقة ما حدث. كما يذكر الشدياق أن أمير حاصبيا الذي استدعي لنجدة ابن أخته الأمير يوسف قد تباطأ عليه وكتب له رسالة يدعوه إلى الموافقة على الصلح. وعندما بدأت المعركة تركه يواجه مصيره وعاد بأتباعه إلى حاصبيا.

ولتكتمل الصورة وجب أن يكون الجيش المقابل كبيراً جداً فالزيادنة أتباع ظاهر العمر يجب أن يكونوا هم القوة الضاربة التي يمكن أن تهزم جيش الأمير وليس العامليون الشيعة. وهناك ملاحظة مهمة يوردها الكاتب حول أطلال «النبطية» فالمقصود بذلك هو موقع مدينة النبطية الحالية التي لم تكن موجودة بشكلها الحالي. بل كان في مكانها سوق أسبوعي يُقام يوم الإثنين (لا يزال قائماً إلى الآن) أنشيء سنة ١١٧٩/ ١٧٦٥ بديلاً عن سوق عديسة الواقعة مقابل سهل الحولة. وقد تحول هذا السوق بسبب نجاحه التجاري إلى مدينة عامرة. أما النبطية الأصلية فهي بلدة صغيرة نسبياً لا تزال قائمة وتعرف باسم النبطية الفوقا. فعن أي أطلال يتحدث المؤرخ؟

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣٢٩-٣٣١.

أما المؤرخ المعلوف الذي صرح أكثر من مرة في تاريخه أنه يكره ويحقد على المتاولة وأن عائلته تحاربهم بلا هوادة، فقد ذكر هذه المعركة على طريقته محاولاً التخفيف من وقعها جاعلاً تاريخها سنة ١٧٧٠ بما يدل أنه استقى مادتها من نفس المصدر الذي أخذ منه الشدياق يقول المؤرخ المعلوف: «...وهكذا كان المتاولة يعيثون في البلاد لأن الأمير يوسف جد في استئصال شأفتهم ففي سنة ١٧٧٠ شقوا عصا الطاعة وناهضوا درويش باشا والي صيدا وانحازوا إلى الشيخ ظاهر العمر الزيداني فصاروا يمخرقون في البلاد ويلقون الدسائس ويزرعون الفتن حنقاً من الباشا الذي ولى عدوهم الأمير يوسف عوض حليفهم عمه الأمير منصور في شهر آب من تلك السنة (١٧٧٠) مع أن ابن عمه تنازل له عن حقوق الولاية. وهكذا تمادوا بعملهم هذا واتصلوا بحاصبية وكان أكثرهم هياجاً وأشدهم عيثاً الصغيرية والصعبية فاشتد غيظ الأمير منهم وأراد التنكيل بهم فنهض من دير القمر في أول تشرين الأول بزهاء عشرين ألفاً بين فرسان ومشاة (وقد روى القس روفائيل كرامة أن عدد جيشه كان ثلاثين ألفاً) وأرسل إلى خاله الأمير إسماعيل والي حاصبية ليوافيه برجاله إلى جبل عامل. وبعد أن كاد العسكر ينال النصر ويظفر بأعدائه ارتد بعض الجنبلاطيين والأمراء على أعقابهم في إبان المعترك فأثر ذلك في العسكر وانهزم. فطمع بهم المتاولة وكان ظاهر العمر قد أمدهم بنجدة كبيرة فتأثروا اللبنانيين وأصلوهم ناراً حامية فهجموا عليهم وقتلوا منهم نحواً من ألف وخمسمائة قتيل من دروز ونصارى. وروى القس كرامة المذكور آنفاً أن عدد القتلى كان أكثر من ألف رجل منهم بشير بن صعب كساب من صليمة كاخية الأمير عساف اللمعي. والمتناقل على ألسنة الشيوخ أنه قتل مائتا زوج أخوة في تلك المعركة من لبنان(؟) وكان بين القتلى من كفرعقاب وما يجاورها من عسكر اللمعيين ستة عشر زوج أخوة معظمهم من المعلوفيين. وما زالوا يعملون السلاح في أقفيتهم إلى أن وصل الأمير اسماعيل الشهابي خال الأمير يوسف بعسكر جرار من حاصبية فالتقاهم ودحرهم عن اللحاق ثم تفرق العسكر ودخل الأمير يوسف جبل لبنان مدحوراً وقد هلك من رجاله من هلك. واستثأر المتاولة منه لقاء ما فعل بهم سلفه الأمير ملحم سنة ١٧٣٤م.

وقد عرفت هذه الموقعة بحادثة الجرمق أو الزهراني وعلى أثر هذا الفشل هرب الباشا من صيدا فولى ظاهر العمر عليها الدنكزلي الخائن عوضه[١].

يبدو أن المصدر هو القس روفائيل كرامة، وما يفرق بين الشدياق والمعلوف ليس عدد الجيش، ولا عدد القتلى، ولا نتيجة المعركة وخيانة بعض الأمراء، بل وصول الأمير اسمعيل إلى الميدان ودحره للمتاولة عن اللحوق بالجيش المهزوم، وهو أمر مشكوك فيه جداً. لأن تمكن الأمير اسماعيلٍ من «دحر» المتاولة كان يمكن أن يقلب نتيجة المعركة.

الصورة الحقيقية للمعركة تتبدى فيما نقله المؤرخ المتحمس جداً محمد جابر صفا والذي زعم أنه استقى مادته من بعض شهود العيان من المعمرين. حدثت المعركة سنة ١٧٧٠ ومحمد جابر ولد في حدود سنة ١٨٧٥ في النبطية فيمكن أن يكون قد أدرك بعض المعمرين الذين شاهدوا المعركة مباشرة أو سمعوها ممن شارك فيها. يقول المؤرخ جابر: «... خسر عثمان باشا معركة البحرة ولم يقدر الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان (؟) على انجاده رغم إعلانه الصوت العام (النفير العام) وإرساله المنادين إلى مرتفعات الجبال وسماع الناس نداءهم تردده أصداء الأودية مجسماً قائلين»إلى الحرب إلى الحرب، احملوا بنادقكم، احملوا طبنجاتكم ايها المشايخ الكرام، اركبوا خيولكم تقلدوا رماحكم وسيوفكم يا غيرة اللّه يا غيرة الحرب». ولم يمض شهران على معركة البحرة حتى ثارت معركة ثانية تدعى معركة النبطية كفرمان في الخامس من ربيع الأول سنة ١١٨٥ و٢٩ ت١ ١٧٧١ م وأما أسبابها فقد سمعتها وأنا غلام يافع من الشيوخ والمعمرين يرويها أحدهم عن أبيه عن جده ممن شهد المعركة بنفسه فيصفها وصفاً دقيقاً كأنك تراها. ويذكر الأماكن التي حصل العراك فيها والهجوم والدفاع وأسماء القواد الذين أبلوا بلاء حسناً فيها. وملخص الرواية التي استقيناها من أوثق المصادر هو: «ان مكاريين من قرية كفرمان وهي على بعد ميلين من النبطية مرّا بعنب لهما بقرية نيحا الشوف فاعتدى عليهما بين الكروم بعض أهالي نيحا وسلبوهما وضربوهما ضرباً أليماً قضى على حياتهما. فشكى أهل القتيلين أمرهما إلى الشيخ علي بن أحمد الفارس

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٠٧ - ٢٠٩

عميد آل صعب وحاكم المقاطعة وكان مقيماً في قلعة الشقيف. فكتب إلى الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان(؟) يومئذ يطلب منه إرسال المعتدين لمحاكمتهم، وذكر له أسماءهم. فكتب إليه الشهابي بعدم إمكان القبض على الجناة، وعرض عليه دية القتيلين توزعٍ على أهالي نيحا. وأصر الصعبي على طلبه وكتب للأمير يوسف كتاباً شديد اللهجة قائلاً: «إن الشيعة لم تعتد بيع دماء أبنائها بمال، ونحن نعرف كيف نثأر لبني قومنا».

واقتحم بعض الشيعيين قرية نيحا فقتلوا أربعة من أهلها بين الكروم في المكان الذي ضرب فيه الرجلان الشيعيان. واتصل الأمر بالأمير يوسف فاحتدم غيظاً. وكان الحقد يغلي في صدره لارتفاع شأن الشيعة واستفحال أمرهم، وتطاولهم على أطراف الشوف ووادي التيم، وانذارهم لدرويش باشا والي صيدا منذ انتصارهم في معركة البحرة وهزيمة عثمان باشا التي تلكأ الأمير يوسف عن نجدته فيها.

فزحف الأمير يوسف لاكتساح جبل عامل بجيش كثيف يزيد على أربعين ألف مقاتل مؤلف من طوائف شتى كما ثبت من تقارير القناصل. ولما دخلوا البلاد من جهة صيدا بدأوا يحرقون القرى ويدمرون المزارع ويقطعون الأشجار ويقتلون من يقع في أيديهم من السكان الآمنين ولا يعفون عن شيوخ ولا صبية ولا نساء. وكتب الشيخ علي الفارس إلى الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل يبسط له القضية ويستنجده للدفاع عن البلاد وحماية الطائفة. فهب ناصيف للنجدة وأرسل الصوّات لجمع الجنود وكتب إلى حليفه ظاهر العمر الزيداني صاحب فلسطين يطلب النجدة. وكان جيش الأمير يوسف يسير في أربع فرق. فالفرقة الأولى وهي المقدمة وفيها الأمير يوسف في أول الجيش. والفرقة الثانية وهي الجناح الأيمن كانت تسير في طريق جباع فحومين فحبوش فالنبطية والفرقة الثالثة وهي الجناح الأيسر كانت تسير في طريق العرقوب فالميذنة فالجرمق فكفرتبنيت فالنبطية. والفرقة الرابعة وهي القلب كانت تسير في طريق جرجوع فعربصاليم فالنبطية.

وكانت قوى الشيخ علي الفارس وأخيه الشيخ حيدر الفارس (الذي كان في بدء الخلاف مقيماً في جباع فوافى أخاه إلى النبطية للاشتراك في الدفاع) مؤلفة من فرقتين فرقة الفرسان وعددها خمسماية من الأبطال المجربين. كانت تقيم معه في قلعة الشقيف

وفرقة المشاة وعددها ألف مقاتل من الشبان المتمرنين على تسديد الرماية جمعها من النبطية وضواحيها وعسكر الشيخان بجيشهما في الضاحية الشرقية الشمالية من البلدة في أرض تسمى (قلادش) التي دعيت بعد المعركة بعريض القهوة ولم تزل تعرف بهذ الاسم إلى اليوم لأن جيش الشيعة شرب فيها قهوة النصر والظفر.

ولما وصلت طلائع الجيش المهاجم إلى جبع وأحرقتها وقطعت أشجارها، بعث الشيخ على الفارس رسولاً آخر إلى الشيخ ناصيف النصار يخبره بحركة العدو وما فعله من الفظائع ويستعجل قدومه. وأرسل كشافاً يستطلع طلائع الجيش المهاجم ويرقب حركته ويقدر قوته. وعاد الكشاف يهول بكثرة المهاجمين ووفرة معداتهم فانتهره الشيخ وصاح به: «اسكت قطع اللّه لسانك». وأمر بسجنه. وأرسل كشافاً آخر ورجع هذا وقد تعلم الأمثولة يهون الخطب ويزري بالعدو وبسيره غير المنتظم. وأن قسماً منه غير مسلح رافق الجيش للنهب والسلب. وأن الفوز سيكون حليف الشيعيين حتماً. فأثنى عليه الشيخ وأمر له بخلعة. وعقد الشيخ علي الفارس ديوان مشورة من خواصه وكبار رجاله وخيّرهم بين التسليم والحرب، بل بين الموت الذليل والحياة العزيزة. بين حرب مجزية أو سلم مخزية وراءها سبي النساء والاستعباد وأخيراً دمار البلاد. فاختاروا الحرب والدفاع إلى آخر نسمة من حياتهم، وصلوا جميعاً صلاة الموت (؟) ودعوا اللّه أن ينصرهم ويخذل العدو الباغي عليهم. وبدأ الاستعراض ودب الحماس في النفوس وارتفعت الأصوات بالحداء الحربي.

ووصلت مقدمة المهاجمين صباحاً إلى النبطية وفيها الأمير يوسف الشهابي فاحتلت الضاحية الغربية من البلدة ونصب الأمير سرادقاً كبيراً على البيدر الأعلى قرب الجبانة ولم تكن الدور والأبنية اتصلت بالجهة المحتلة كما هي اليوم. وإنما كانت البلدة تشغل بقعة ضيقة متلاصقة البيوت شرقي دار الحكومة وأصبح الناس يرون مخيم الأمير وفي أعلى السرادق كرة من الذهب تشع في نور الشمس، واجتمعت فرق الجيش كله في كفر رمان واتخذتها مركزاً.

ولما انفرد الأمير الشهابي عن الجيش وسار في المقدمة وآوى إلى سرادقه آمناً مطمئناً كأنه يسير في نزهة معتزاً بكثرة جيشه، غير حاسب لأخصامه حساباً مما يخالف أبسط القواعد الحربية ويدل على الغرور وضعف الرأي.

رأى القائد الصعبي وهو الباسل المحنك أن الفرصة سانحة فعوّل على الهجوم بالفرسان بعد أن كانت الخطة دفاعية كما سبقت الإشارة. وخشي بادرة الحماس من الشبان المشاة فأمر بحجزهم في خان الميري الواقع في جوار بيت آل الفضل في النبطية. وأمر قائدهم الشيخ دندش بن أحمد الفارس أن يوصد الأبواب ولا يدع أحداً يتحرك إلا باشارته. لأنه لم يكن على ثقة أن جيشه القليل يفوز على ذلك الجيش العرمرم. وعبأ خيالته تعبئة حربية محكمة فأحاطت بفرقة الأمير من جهات ثلاث من الغرب والشرق والجنوب تاركاً جهة الشمال ليسهل طريق الفرار والانسحاب وبدأت المعركة باطلاق الرصاص فذعر الأمير يوسف ورأى الخطر المحدق به فارتبك وتشوشت جنوده وضيق المهاجمون الحلقة فالتجأ إلى الفرار راكباً بغلة لا يلوي على شيء وكانت الأوامر أن لا يقطعوا عليه الطريق ولا يمس بسوء.

ولما سمع الشباب المحصور بالخان أزيز الرصاص اشتد هياجه فنقب جدران الخان الشمالي ولم تزل آثار النقب إلى اليوم، وتعقب العدو فاشتبك معه في ساحات ثلاث في الجزائر شمالي البلدة ووادي أبو نعيم شرقيها وبين زيتون كفرمان. وكان جيش الشيخ ناصيف المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل قد وصل إلى قرب قرية شوكين وهناك التقى بكشاف يصيح: «علق الشر، علق الشر». أي دارت رحى الحرب. فأسرع برجاله سالكاً طريق زبدين ودخل البلدة من الجهة الغربية ليدهم مقدمة الجيش المخيمة غربي البلدة كما قدمنا وتنكب عن طريق نبعة حبيب لأنها مضيق واقع بين جبلين فخاف الكمين. وسار بخيله خبباً إلى ساحة العراك. ورأى الحرب قائمة على قدم وساق، فهجم هجوم المستميت ولم يلبث العدو أن لوى عنانه متقهقراً إلى كفر رمان. ولما مالت الشمس إلى الغروب تحاجز الفريقان وأسدل الليل سدوله فانتشر جيش الشيعة على تلك االروابي والتلال يوقد نار الحرب ويهزج بالعتابا والأغاني الحماسية.

وفي صباح اليوم التالي دارت رحى القتال بشدة، وكان جيش العدو قد فقد حماسته وخمدت جذوته فانسل من حيث أتى راضياً من الغنيمة بالإياب. وثبتت قليلاً بعض الفرق بقيادة المشايخ النكديين. وهجم الشيعيون بالسلاح الأبيض فانهزم الجيش كله انهزاماً تاماً يصعدون في جبل العرقوب وروابي سجد المطلة على سهل الميذنة وعقبة

جرجوع وحراب الشيعة تعمل في أقفيتهم وتذبحهم ذبح النعاج. ومات أكثرهم خوفاً وتعباً. وكان إذا علق رداء أحدهم بغصن أو جب شجرة طرح سلاحه ووقف كالمذهول حتى يأتي من يقبض على حياته. وشاعت عنهم الكلمة التي سارت مثلاً يتداولها الناس إلى اليوم وهي قول العالق بأغصان الشجر: «يا شيخ جب ارخيني خذ القبق والسكيني».

ويقول المؤرخ العاملي الشيخ علي رضا: إن الشيخ ناصيف تعقب بنفسه الأمير يوسف الشهابي فأدركه في عقبة جرجوع فقنّع رأسه بالرمح وأنزله عن ظهر بغلته الى الأرض وألبسه الفرو مقلوباً وقال له: «عفوت عنك رأفة بشبابك واحتراماً لأسرتك وأنا ابن نصار». فأجابه الأمير يوسف: «قدها أولاد أم علي». أي أنكم أهل للعفو. وأولاد أم علي لقب يطلق على الشيعة وكانوا يفخرون به.

أما عدد القتلى فيقول الأمير حيدر الشهابي في تاريخه إنه ألف وخمسماية قتيل. وأن الأمير يوسف لما وصل إلى كفرمان أحرقها وسار إلى النبطية فالتقى بطارش عسكر المتاولة بنحو خمسماية خيال فانكسر عسكر الدروز كسرة عظيمة ولم يكن في الزمان انكسر مثل تلك الكسرة. ولولا ثبات الشيخ كليب نكد ووصول الأمير اسماعيل الشهابي لاجهز المتاولة على الجيش كله لأنهم كانوا كالغنم بين أيدي الذئاب.

وحدّثت شيخة هرمة من آل الحاج علي تدعى الدرويشة وكانت ممن شهد المعركة قالت كانت الفتيات تمد عسكر الشيعة بالماء والزاد وتسير زرافات من فرقة إلى فرقة تثير نخوة المقاتلة وحميتهم بالزغاريد والأغاني الحماسية كقولهن: «وين راحوا اولاد أم علي ، وين بني متوال يا عز الرجال». وأن فرسان الشيعة كانت تطلق طلقاً واحداً من بنادقها ثم يضع كل بندقيته وراء ظهره ويهاجم العدو يقاتله بالسلاح الأبيض.... ولبس الشوف ثياب الحداد[1].

بهذا الوصف الشامل والحماسي كتب المؤرخ محمد جابر ما جرى في معركة كفر رمان. لكن توجد بعض الملاحظات لا بد من ذكرها تعقيباً على كلامه. فمثلاً قوله إن الشيخ الصعبي كان يقيم معه في قلعة الشقيف خمسمائة فارس بشكل دائم. وهذا غير

---

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٢٥ - ١٣١

ممكن لأن القلعة في أحسن أيامها في العهد الصليبي كانت تستوعب ثمانين خيالاً وبعض المشاة فكيف تمكن الشيخ الصعبي الذي رمم بعض أجزاء القلعة وسكنها أن يضع فيها هذا العدد من الفرسان؟ النقطة الثانية هي مسألة طلب النجدة من الشيخ ناصيف النصار المقيم في قلعة تبنين، والذي لم يلبِّ النداء من الصوت الاول. والسبب في ذلك هو تلك الشحناء التي كانت بين المشايخ الصعبية وآل علي الصغير والتي أدت قبل سنة واحدة من معركة كفرمان إلى هجوم الصغيريين على بلاد الشقيف وتخريبها. ولا شك أن آثار تلك المشاحنات كانت حية في النفوس. إن المسافة بين قلعة تبنين والنبطية لا تزيد عن مسير أربع إلى خمس ساعات للفارس. والمؤرخ يخبر أن الشيخ ناصيف قد وصل راكباً مع فرسانه الثلاثة آلاف فلماذا تأخر عن نجدة الصعبيين؟

ولا شك أن المؤرخ متحمس جداً فتصور أن الشيخ الصعبي ملك من ملوك ألف ليلة وليلة «يخلع» على فلان ويحرم ويأمر بسجن فلان. كما أن سوق النبطية أصبح له ضواحي حيث لم يكن في المكان سنة ١٧٧٠ سوى خان وزرائب للبهائم وبعض المخازن المحيطة بساحة السوق وبعض بيوت قليلة شرقي السوق في مكان سوق الخضار الحالي، فصار الحديث عن ضاحية غربية وربما ضواحي مختلفة. بالإضافة إلى كل ذلك يلاحظ تكرار الرقم خمسمائة في المعركتين. ففي معركة البحرة اختار الشيخ ناصيف خمسمائة من نخبة الفرسان، وفي معركة كفرمان كان مع الشيخ الصعبي خمسمائة من الفرسان.

من حيث النتائج تعتبر معركة كفر رمان أهم معركة في تاريخ لبنان الحديث بأثرها ونتائجها المباشرة وغير المباشرة. وللأسف فإن المؤرخين اللبنانيين عموماً سواءً العامليين أو جماعة المتصرفية يمرون على حدث كهذا الحدث باستخفاف، ودون الانتباه للنتيجة التاريخية الخطيرة وهي انقلاب الميزان البشري في جبل الدروز بعد المعركة لصالح المسيحيين. وبالتالي كانت هذه المعركة هي الضربة القاضية لإمارة جبل الدروز بمقاطعاته الأربع القديمة والثلاث المضافة إليه. إن عدد القتلى المرتفع جداً والذين كانت غالبيتهم من الدروز قد تركت نقصاً كبيراً في عدد الرجال في جبل الدروز فكان التعويض عنهم بمحاربين مسيحيين حتى تحول جيش جبل الدروز إلى جيش جبل لبنان المسيحي ابتداءً من سنة ١٧٧٠. عدد القتلى باعتراف مؤرخي المتصرفية هو ألف

وخمسماية بينما يعلن العامليون أن العدد هو ثلاثة آلاف. وبحساب بسيط لأعداد الشبان في جبل الدروز في تلك الآونة يثبت أن نقصان هذا العدد الجم من الشباب قد أثر على التوازن بين الدروز والمسيحيين خاصة بعد أن استدرج الأمير يوسف لخوض معركة ثانية قرب صيدا كانت الخسارة فيها أيضاً كبيرة أمام جيش العامليين. فكان ذلك إيذاناً بانتهاء إمارة جبل الدروز.

٦ - معركة الحارة وسهل الغازية:

لم تنته الحرب رغم وقوع المعركتين الكبيرتين في البحرة وكفر رمان فالأطراف المتحاربة الموجودة خارج المنطقة كانت تتهيأ وتستعد لمواجهة كبرى. لقد تمكن محمد أبو الذهب وشريكه في الخيانة اسماعيل بيك من الاستيلاء على مقاليد الأمور في مصر بالإنقلاب على طريقة المماليك الذين كانت بقاياهم موجودة ومستمرة في مصر منذ سقوط حكمهم سنة ١٥١٧. فرّ علي بيك الكبير والتجأ إلى حليفه الوفي ظاهر العمر مؤملاً أن يتمكن معه من حشد قوى كافية لاستعادة مصر. وقد جاء معه عدد من جنوده ومماليكه الأوفياء. فتكون منهم ومن حليفه ظاهر العمر والشيعة العامليين جيشٌ قويٌّ يزيد على عشرة آلاف مقاتل بينهم سبعمائة من خيرة المماليك. وألف من المشاة المغاربة، وهم من المماليك المقربين من علي بيك. أما القوة الباقية فكانت من فرسان ظاهر الصفديين ومتاولة الحليف ناصيف النصّار[1].

لقد فر درويش باشا والي صيدا على أثر هزيمة والده عثمان باشا الصادق في معركة البحرة، فولى الشيخ ظاهر العمر على صيدا متسلماً من قبله. أما عثمان باشا فقد كان للهزيمة أثرها الكبير عليه حيث توفي بعد وقت قصير ليحل مكانه في بشالك دمشق والٍ يحمل نفس الإسم (عثمان باشا المصري) ويحمل في نفس الوقت لقب سرعسكر (قائد جيش) كل منطقة جزيرة العرب، وتكليفاً من السلطان بإعادة السلام إلى بلاد الشام مهما كلّف الأمر سواءً بالحرب أم بالمفاوضات.

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٥٧.

بدأ الباشا الجديد حركته بمحاولة استعادة صيدا من أيدي الزيادنة وحلفائهم، وكلّف من أجل تحقيق هذا الهدف الأمير يوسف المهزوم حديثاً في كفر رمان. فسيّر معه عسكراً وسلّمه مدفعية الجيش المخصصة للميدان وللحصار. فتقدم الأمير يوسف بالجيش العثماني وأغلق الطرق على صيدا وحاصرها. فهرع ظاهر العمر وحلفاؤه الشيعة لنجدتها. ووقعت المواجهة الكبرى بين القوتين في منطقة حارة صيدا وفي مدخل قرية الغازية. يسمي المؤرخون العامليون هذه المعركة بمعركة الحارة (حارة صيدا) أو معركة الغازية. بينما يصفها مؤرخو المتصرفية بأنها معركة صيدا.

يقول بازيلي وهو يصف هذه المعركة: «كان جيش الحصار (العثماني مع الأمير يوسف) قد اصطف في نسق قتالي على طول الساحل من الناحية الشمالية للمدينة. وقاتل الجانبان بعناد، وحتى بشيء من التكتيك. أربكت المدفعية التركية المتاولة أول الأمر، لكن المماليك انقضوا عليها بسيوفهم الملتوية وصدوا المدافع. وهرعت أيضاً فرقاطة روسية مع قوارب المدفعية واكتسحت جيش الباشا بقذف من البحر. فرّ الدروز لا يلوون على شيء، ثم احتلوا الشعاب والممرات الجبلية وأخذوا ينهبون فصائل حلفائهم من المشاة والخيالة الأتراك الذين لم يصلوا إلى دمشق إلا بشق النفس»[1]. هذه صورة المعركة كما يراها دبلوماسي روسي معادٍ جداً للسلطنة العثمانية لكنه غير متحمس لأعدائها، فهو يصف طريقة المحاربين العامليّين والمماليك بشيء من السخرية المبطنة «...وحتى بشيء من التكتيك...» وينسب الانتصار لمدفعية الأسطول الروسي وفي ذلك الكثير من المبالغة. فالمنطقة التي وقعت فيها المواجهة كانت خارج مرمى المدفعية الروسية. كما كان الجيش العثماني يملك مدفعية قادرة على ضرب زوارق الأسطول إذا ما اقتربت من الشواطىء. ما حصل في معركة الحارة هو انتصار لجيش الحلفاء العامليين والزيادنة وجيش علي بيك الكبير. ولعل ما كتبه الشدياق فيه واقعية أكثر مما كتبه بازيلي. يقول الشدياق: «... وفيها (سنة ١٧٧٠) قدم عثمان باشا المصري الوكيل والياً على دمشق فكتب إلى الأمير (يوسف) أن يجمع عساكره وينهض لقتال ظاهر العمر وأحزابه. ووجّه إليه خليل باشا الدالي والي القدس وكان (أحمد) الجزار معه، وأصحبه بوالي مدينة كركوت ومعهما

(١) المصدر السابق ص ٥٨.

ألف فارس، وأردف بالعلائف والآلات الحربية. ولما وصل كتاب عثمان باشا إلى الأمير جمع رجاله وقام من دير القمر إلى عين السوق عند السمقانية فورد عليه خليل باشا ومن معه فنهض الأمير إلى صيدا بجحفل جرار نحو عشرين ألفاً لرفع يد ظاهر العمر عنها. فنزل خارج المدينة وأقام عليها الحصار سبعة أيام نهاراً وليلاً. وفي اليوم الثامن لما همّ الدنكزلي على التسليم ظهر في البحر تجاه المدينة سفن مسكوبية حربية خمس منهن كبار والأخر صغار قد أرسلها ظاهر العمر من عكا لمعونة الدنكزلي لأنه كان متحداً مع الدولة المسكوبية. ولما قربت السفن أطلقت المدافع والقنابل على العساكر فتحولت الجيوش إلى الحارة (حارة صيدا) التي في السفح وحصل الفرج للدنكزلي ومن معه في المدينة.

أما ظاهر العمر فأرسل كتاباً إلى الأمير ليرجع بعسكره إلى جسر نهر صيدا (الأولي) ومن هناك يراسله بالصلح وإلا فيحضر إليه بعسكره ومعه نزيله علي بك المصري بعسكر الغز وكانوا عشرة آلاف من غز وزيادنة ومتاولة. فأبى الأمير الرجوع إلى الجسر وكتب إليه جواباً خشناً. ولما ورد الكتاب إلى ظاهر العمر نهض بعساكره قاصداً قتاله. ولما وفد إلى سهل الصباغ (سهل الغازية) فوق صيدا من جهة جبل عامل التقاه الأمير بجيوشه وتقابل الجيشان وثار القتال وانقسمت جيوش ظاهر العمر قسمين قسم رجّالة أتى على الجبل الذي ينفذ إلى الحارة فالتقاهم قسم رجالة من عسكر الأمير فزحف عليهم فأزاحهم من مواقفهم وقهقرهم وقسم فرسان أتى في السهل تحت ذلك الجبل فالتقاه فرسان الأمير وخليل باشا وفرسانه فثار بينهم القتال وازدحمت الشجعان والأبطال فتقدم خليل باشا وفرسانه بالمدافع وشدّدوا الحرب وتعاظم الطعن والضرب فأخذت الحمية علي بك الطنطاوي مملوك علي بك وغار على الوزير بفرسان الغز واقتحم كتيبته وصال فيها حتى أدرك محل المدافع واختطف عمالها. وفعلت باقي الفرسان الغز كفعاله وداروا في ذلك الجيش فمزقوه. فانكسرت حينئذ فرسان خليل باشا وقهقروا من كان خلفهم من فرسان جبل لبنان فانكسر الجميع ولحقتهم الغز وأوسعوا فيهم القتل والسلب. وعند كسرة الفرسان انكسرت الرجال. ولم يزل الجميع منهزمين حتى ولجوا جبل لبنان وفر خليل باشا بمن معه إلى دمشق وهلك من عسكره خمسماية فارس ومن عسكر ظاهر العمر نحو الف رجل[1].

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص٣٣٢.

يلاحظ أن الشدياق لا يأتي على ذكر ما فعل جيش الأمير يوسف بجيش العثمانيين المهزوم من سلب ونهب رغم أن عدداً من المصادر التي جاءت على ذكر هذه الوقعة تحدثت عن غدر الأمير يوسف وجيشه بمن يفترض أنهم حلفاؤه. من بين الذين تعرضوا للسلب والقهر الضابط العثماني أحمد الجزار الذي أتيح له أن يصل إلى بيروت ويستولي عليها منتزعاً المدينة من أيدي الشهابيين. فهدم بيوتهم وبنى من حجارتها سوراً لحماية المدينة وقد ظلت صورة أفعال جيش الامير يوسف حاضرة في وجدانه حتى تمكن من الانتقام من أهالي جبل الدروز ومن الأمير يوسف ذاته فيما بعد. كما يبالغ الشدياق في عدد قتلى العامليين فيفترض أنه ألف مع أن أكثر المبالغين من العامليين يتحدثون عن رقم صغير بين الخمسة عشرة والمائة، وهذا هو واقع نهاية المعركة بالشكل الذي انتهت إليه حيث كان يسقط العدد الأكبر من القتلى عقب انتهاء المعركة وتنزل الخسائر بالجنود المهزومين الفارين الذين يقعون فريسة المنتصر أو ضحايا النّهابين.

أما المؤرخون العامليون فيتحدثون بفخر عن معركة الحارة وسهل الغازية باعتبارها إحدى معاركهم المظفرة التي حققوا فيها النصر الأكيد على عدوهم التقليدي أمير جبل الدروز. يقول محمد جابر في وصف هذه المعركة: «في ١٠ حزيران سنة ١٧٧٢/ ٧ ربيع الأول ١١٨٦ بعد انهزام جيش الأمير يوسف وفشله في معركة كفررمان - النبطية انضم إلى جيش عثمان باشا والي الشام الذي انهزم في معركة البحرة. واتحدوا على حرب ظاهر العمر وحلفائه المتاولة. وكان عدد جيش الأتراك ثلاثين ألفاً، وجيش الظاهر والمتاولة عشرة آلاف حملوا على ذلك الجيش فانهزم حالاً وبدأت المذبحة بعد المعركة حسب المألوف. ولكن الدروز هذه المرة هم الذين يذبحون حلفاءهم بعد انقلاب الجيش. ولأن خيالة عثمان باشا يملكون سلاحاً جميلاً وثياباً موشاة بالذهب وسروجاً مصفحة بالفضة. فارتمى الدروز عليهم لينهبوهم وكانوا لا يقدرون أن يدافعوا عن أنفسهم. وعند سقوطهم على الحضيض يسحقون رؤوسهم بأعقاب بنادقهم أو يذبحونهم بالخناجر، فلم ينج منهم إلا القليل. وعاد المتاولة إلى بيوتهم وذهب الظاهر بالصفديين والمماليك إلى يافا[1]». يقول محمد جابر أنه نقل هذا الخبر بكلماته عن المؤرخ الفرنسي ادوارد لاكروا ثم ينسب

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٣٢.

روايات مختلفة يقول أنه جمعها عن مؤرخين عامليين وفيها أنه: «لمّا انتصر الشيعيون في المعارك السابق ذكرها تهددوا والي صيدا درويش باشا ابن عثمان باشا وأرغموه على الهرب، فأخلى المدينة ملتحقاً بوالده. واحتلها الظاهر وحلفاؤه، وعين لها حاكماً (أحمد آغا الدنكزلي). وجهز عثمان باشا حملة بقيادة خليل باشا والي القدس فسارت إلى صيدا أولاً وحاصرتها لكي بعد سقوطها في أيدي المحاصرين يستأنف الهجوم إلى جبل عامل لسحق الشيعيين وأنصارهم.

واجتمع في النبطية قوّاد الشيعة وحكّام المقاطعات وعزموا على مداهمة العدو ليلاً والفتك به. فاختاروا من رجالهم خمسمائة فارس ولفّوا حوافر خيولهم باللبّاد لكي لا يسمع لسنابكها صوت عند المسير ودهموا عسكر العدو في ضاحية صيدا قرب قرية الحارة وكانوا يحاصرون المدينة فألجأتهم قنابل الأسطول الروسي أن يتقهقروا للضواحي فوقعوا بين نارين. وأحاطت خيل الشيعة بهم في ليلة حالكة السواد وهم نيام فأصلوهم ناراً حامية فهبوا مذعورين يفتك بعضهم ببعض واختلط الحابل بالنابل لشدة الظلام وهلك منهم خلق كثير. وفي الصباح نشبت المعركة الفاصلة في سهل الغازية وانجلت عن فوز الشيعيين وانهزام العدو. وأجهز عليه الدروز كما سبقت الإشارة فلم يبق منهم أحد»[١].

لا شك أن ما كتبه محمد جابر حول معركة الحارة لا يشبه التاريخ في شيء. وصف لغير المعركة ولغير الناس الذين شاركوا فيها. لقد غاب بالكامل دور جيش علي بيك المصري وحليفه الشيخ ظاهر. والمعركة جرت في ليلة حالكة والقوم نيام رغم قنابل الأسطول الروسي التي لم تنجح أصواتها على ما يبدو في إيقاظ النائمين. أما الشيعة فكالعادة انتخبوا خمسمائة من فرسانهم ليبيتوا العدو بعد أن لفوا سنابك الخيل باللباد. وهذا نفس العدد الذي استخدمه الشيخ ناصيف في البحرة واستخدمه الشيخ علي الفارس الصعبي في النبطية. وقد استخدم قبل ذلك في أسطورة انتقام علي الصغير حسب روايات هذا المؤرخ.

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٣-١٣٤.

لهذا لا يمكن الأخذ برواية محمد جابر المصطنعة والتي لا تستند إلى أي مصدر تاريخي ولا حتى إلى أي راوي حكايات. بل فقط نوع من الحديث الخيالي عن معركة سمع المؤرخ عنها فكتب ما شاء دون بينة.

من كتب من مؤرخي جبل عامل بصدق عن هذه الوقعة كان رضا الركيني أحد الذين أرخو بإيجاز لجبل عامل في قرن. والركيني كان حياً عند وقوع هذ المعركة فكتب: «في عاشر صفر سنة ١١٨٦/ ١٣ أيار ١٧٧٢..كان الظاهر العمر متجهاً إلى بلاد الشقيف للاجتماع بعسكر الشيعة المتوجه إلى حرب الأمير يوسف في أرض صيداء. فاستطرق (ظاهر) على الحولة ونهب مواشيها وبات على عين الذهب وعبر جسر خردلة إلى بلاد الشقيف وجاءت المراكب في البحر إلى ملاقاتهم وفي يوم الخميس ٩ ربيع أول صارت وقعة عظيمة بين مشايخ الشيعة الشيخ ناصيف وبقية المشايخ والشيخ ظاهر وغز مصر وبين الدروز والدالي خليل وقتل من الدروز أكثر من ألف وخمسمائة رجل وغنموا غنيمة عظيمة منها مدافع الدروز والدولة[١]. كما ينقل الفقيه عن المؤرخ مروة قوله: «وفي سنة ١١٨٦ صارت الوقعة في صيدا بين المتاولة والدروز وقتل من الدروز ثلاثة آلاف ومن المتاولة ١٥ رجلاً وكان مع الدروز الدالي خليل والجزار[٢].

أما ما جرى في هذه المعركة فيمكن إيجازه بأن باشا دمشق تلقى أمراً من السلطان ليسترجع مدينة صيدا مركز الباشالك ويعيد واليها إليها بأي طريقة. لذلك استعان بكل القوى الممكنة من حوله، فاستجاش والي حلب ووالي طرابلس وسنجق بك القدس وأمير جبل الدروز[٣]. كان منسق الاتصالات بين الأمير يوسف الشهابي وباشا دمشق أحمد بك الجزار الذي سيبدأ من هذا التاريخ بالظهور على مسرح الأحداث في ولايتي صيدا ودمشق حيث يقع جبل عامل. وهو أحد الذين عملوا قبل ذلك في خدمة علي بيك الكبير في مصر وكان يعرفه جيداً، وقد نفذ بناء على أوامره عمليات قتل واغتيال كثيرة لقّب بسببها ب «الجزّار». ثمّ فر من مصر خوفاً على نفسه بعد أن علم صدفة أن الوالي

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، هامش ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢.

(٣) حسن محمد صالح، تاريخ تبنين ، ص ١٦٦.

علي بيك يريد القضاء عليه. فغادر مصر واتصل بعثمان باشا الصادق ثم بدأ يعمل بشكل يثبت أنه مرسل من قبل الدولة العثمانية.

بعد معركة كفر رمان وسقوط صيدا بيد ظاهر العمر تحرك أحمد بك الجزار ومعه مملوكَيْه سليم وعبده أبو الموت إلى دير القمر ولبث فيها أياماً حتى أقنع الأمير يوسف بالدور العسكري الذي سيناط به. كان الأمير يوسف لا زال يعيش تحت وطأة الخسارة العسكرية الفادحة التي حلت به في كفر رمان وكان من الصعب عليه أن يجمع جيشاً جديداً يكون قادراً على تحريكه للهجوم على العامليين وهو واثق من قدرتهم عليه، لذلك كان بقاء الجزار أياماً في دير القمر هي لإغرائه بالمشاركة كلفيف للجيش السلطاني في الحرب ضد العامليين والصفديين، أي ستكون مهمته حماية مؤخرة الجيش، لا المشاركة في الحرب مباشرة التي ستتولاها عساكر الباشاوات. فلم يجد الأمير يوسف بداً من الموافقة وشرع يجمع جيشاً جديداً على عجل.

في نفس الوقت أرسل باشا حلب بعضاً من جيش ولايته بقيادة الوزير الدالي خليل(أي خليل المجنون) عدد جيش حلب لم يزد على ألف مقاتل، لكنه كان يصطحب معه عدداً من المدافع وأدوات الحصار، وكان أحمد بك الجزار معه أثناء تحركه، مما يعني أن أحمد بك الجزار قد أصبح منسق عام الجيش العثماني الزاحف على صيدا. وبانضمام الوحدات العسكرية القادمة من دمشق أصبح عدد الجيش المهاجم عشرين ألفاً شكل جيش جبل الدروز قسمه الأكبر. ورابط جيش الأمير يوسف قرب جسر الأولي إلى الشمال من صيدا، ليكون خطاً خلفياً مسانداً، فيما تقدم باقي الجيش العثماني قرب الشاطىء نحو مدينة صيدا.

في هذه الأثناء ظهرت مراكب روسية في البحر مقابل شاطىء صيدا وقامت باطلاق قذائفها نحو الجيش العثماني الذي كان قد اصطف في نسق قتالي إلى الشمال الشرقي من مدينة صيدا[1]. فانسحب هؤلاء إلى جنوباً ليتفادوا مدافع الأسطول المعادي، حتى وصلوا إلى حارة صيدا فاتخذوا من تلك النقطة مركزاً

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٥٨.

أمامياً للصدام. بينما بقي جيش الأمير يوسف الشهابي في مواقعه في الشعاب الجبلية القريبة من جسر الأولي.

تحرك جيش الصفديين والعامليين الذي كان يرابط قرب قرية الغازية المجاورة لحارة صيدا وعدده حوالي عشرة آلاف مقاتل على أقل تقدير معظمهم من العامليين، وعلى رأسهم الشيخ ظاهر والشيخ ناصيف النصار مدعومين بعدد من مماليك علي بك الكبير بقيادة مملوكه علي بك الطنطاوي، وهو قائد عسكري فذ وشجاع شارك بقوة في معركة الحارة.

تقدم الجيش العثماني يوم الخميس ٩ ربيع الأول ١١٨٦/١٢ حزيران ١٧٧٢ بادئاً الهجوم، فأطلق قذائف مدافعه على الجيش العاملي فأسقط فيه حوالي مائة قتيل، فارتبكت صفوفهم ولكنهم حافظوا على مواقعهم ولم يتراجعوا. عندئذ قام مماليك علي بك الكبير بقيادة علي بك الطنطاوي بهجوم مباشر على المدفعية العثمانية وقضوا على سدنتها واستولوا عليها ووجهوها نحو باقي الجيش العثماني الذي سرعان ما تفككت صفوفه بعد ضربات المدفعية الأولى. وتراجع الجيش العثماني منهزماً بشكل مريع. كان الفرار من الميدان يؤدي بالجنود للتوجه نحو جسر الأولي حيث كان يرابط جيش الأمير يوسف على مقربة منه في مكان يبعد عن مرمى مدفعية الأسطول الروس. وعندما علم هؤلاء بهزيمة حلفائهم تراجعوا نحو الشعاب المجاورة في أقليم الخروب حيث راحوا من هناك يهاجمون الجنود العثمانيين فيقتلون من يقع في أيديهم ويستولون على ثيابه وسلاحه. «كان الدروز هذه المرة هم الذين يذبحون حلفاءهم بعد انقلاب الجيش لأن خيالة عثمان باشا كانوا يملكون سلاحاً جميلاً وثياباً موشاة بالذهب وسروجاً مصفحة بالفضة، فارتمى الدروز عليهم لينهبوهم»[1].

خسائر العامليين والصفديين كانت قليلة مقارنة بخمسماية قتيل من العدو في الميدان، لم تزد إلا قليلاً عن مائة قتيل. لكن ما غطى على هذه الخسارة هو النصر المؤزر الذي حازه العامليون والصفديون، حيث تأكد للشيخ ظاهر العمر، الحاكم العام، أن صيدا أصبحت ملك يديه.

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٩٢.

أما الباشا والأمير يوسف المهزومان فقد كانت تلك المعركة وبالاً عليهما، خصوصاً على الأمير يوسف الذي أصبح متهماً بخيانته للدولة وباشاواتها، ونُظِرَ إليه على أنه غادر لا يمكن الوثوق به، وقد حقد عليه القائد المنسق أحمد بك الجزار وانتقم منه عندما أصبح والياً على صيدا بعد سنوات معدودة من هذه المعركة.

يحاول بازيلي أن يثبت أن النصر العاملي – الصفدي المبين في حارة صيدا كان الفضل فيه لتدخل الأسطول الروسي، كما يصف أن المعركة وقعت شمال مدينة صيدا وفي الحالتين يبدو المزاج الشخصي لبازيلي هو المتغلب وليس الحقيقة العلمية. فالمعركة وقعت في حارة صيدا إلى الجنوب الشرقي من مدينة صيدا أو في أول سهل الغازية كما يصفها مؤرخو جبل عامل، والمكانان أي حارة صيدا وسهل الغازية هما بقعة واحدة من الأرض تقع إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وبعيدة عن شمال صيدا وعن جسر الأولى مسافة ليست قصيرة. كما أن المدفعية الروسية البحرية كان لها دور عندما كان الجيش العثماني يتحرك قريباً من الشاطىء، أما في الداخل فلم يكن للأسطول الروسي أي دور يذكر.

بعد معركة حارة صيدا تمكن أحمد بك الجزار من الانسحاب ومعه عدد من الجنود الخاصين به وبعض أعوانه الذين عملوا معه في أوقات سابقة فتوجه بهم إلى بيروت حيث تعهد لباشا دمشق بأنه سيقوم بحمايتها من هجوم محتمل للأسطول الروسي. وكانت بيروت في حينه قرية غير ذات بال ويقيم فيها عدد من أمراء الشهابيين وقد منحها باشا صيدا قبل وقت قصير للأمير يوسف ضماناً، أي أنها لم تكن من أملاك الشهابيين كما تصور بعض مؤرخي المتصرفية. كان من العرف أن يتبع أحمد بك الجزار الأمير يوسف بصفته ضامنها. لكن الجزار سرعان ما راح، بتأييد بيِّن من الباشا، يحصن المدينة فبنى سوراً حولها لحمايتها وهدم من أجل ذلك عدداً من بيوت الشهابيين لأخذ حجارتها واستعمالها في بناء السور، ولم يأبه لتعليمات الأمير يوسف ولم يعره اهتماماً. عند ذلك وجد الأمير يوسف نفسه مهدداً فلجأ لمحالفة الشيخ ظاهر العمر والعامليين. هكذا تحول أعداء الأمس إلى حلفاء، واشتركوا معاً في الهجوم على بيروت. يصف بازيلي التقاء عدوا الأمس في جبهة واحدة ضد عدو مشترك في بيروت وعن دور الأسطول

الروسي في ذلك فيقول: «في ربيع سنة ١٧٧٣ وحينما كانت الميليشيات المتحدة للدروز والمتاولة تطوقان المدينة (بيروت) من جانب البر قذفتها الفرقاطات والمراكب الصغيرة (الروسية) من البحر. واستمر الحصار أربعة أشهر، ودافع الجزار مع عصابته عنها دفاع المستميت... وأخيراً اضطر المحاصَرون إلى أكل الجيف والكلاب، واستسلم الجزار (أخيراً)، ونقلته سفينة روسية إلى ظاهر (العمر) في صيدا. لم يكن الجزار يثق بأمير لبنان، ولكن كان عنده ثقة تامة بشيخ الجليل[١].

في هامش الصفحة التي تحدث فيها بازيلي عن عمليات الأسطول الروسي في بيروت، يقول ناشر الكتاب أن العمليات الحربية البحرية قامت بها سفينتان روسيتان بالإضافة إلى عدد من السفن العربية التابعة لعكا، وهذا يثبت أن الشيخ ظاهر كان قد أعد العدة لبناء قوة بحرية، ولكن تلك السفن لم تصل إلى مرحلة من القوة تمكنها من القيام بعمليات حربية بنفسها. وربما تكون المساعدة التي طلبها الشيخ ظاهر من الروسيا كانت تشمل تدريب رجال أسطوله على الأعمال العسكرية البحرية.

وبعد أن أنهت القوات الدرزية والشيعية المتحالفة معركة بيروت وعاد كل منها إلى بلاده، تحركت جيوش باشا دمشق عثمان باشا المصري قاصداً الانتقام من الأمير يوسف لما فعله بجيشه في معركة الحارة. وصل جيش الباشا إلى منطقة البقاع فجمع الأمير يوسف جيشاً يساوي من حيث العدد جيش الباشا وانتقل للمرابطة في قرية المغيثة في جبال الشوف.

حدثت بعد ذلك مناوشات بين الجيشين في أماكن متفرقة لم يستطع أي منهما تحقيق انتصار بيّن عند ذلك أرسل الأمير يوسف إلى الشيخ ناصيف النصار يستنصره، فتحرك الشيخ ناصيف بجيش عاملي حتى وصل إلى قرية القرعون. وعندما علم الباشا بالأمر فر مع جنوده ليلاً تاركاً في المعسكر المهجور مدافعه وذخائره وخيامه[٢]. وهذه المعركة المحدودة التي تثبت التحالف الدرزي- الصفدي- الشيعي ذكرها الشدياق في تاريخه

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٦٢.
(٢) حسن محمد صالح، تاريخ تبنين ، ص ١٨٣ نقلاً عن مذكرات الركيني.

لتأكيد أن استنصار الأمير يوسف لم يكن من الشيخ ناصيف وحده بل مع الشيخ ظاهر العمر أيضاً. يقول: «... وسنة ١٧٧٣ ظهرت النفرة بين الأمير (يوسف) وعثمان باشا (والي دمشق) فأتى الوزير بعسكره إلى البقاع وخيم في صحراء بر الياس... فكتب الأمير إلى ظاهر العمر والمتاولة يستنجدهم فأجابوه. فقدم الشيخ علي بن ظاهر المذكور والشيخ نصيف النصار كبير بني علي الصغير بجيش وافر ونزلوا في قرية القرعون. ولما بلغ عثمان باشا قدوم العساكر دخله الهلع والرعب وتقلقل عسكره ففر هارباً تلك الليلة إلى دمشق تاركاً المدافع والخيام والعلائف في المنزلة[1].

وهكذا تأصل الحلف بين العامليين والشوفيين لأول مرة منذ أيام الأمير فخر الدين بن معن حيث يذكر حيدر الشهابي بأنه «صار بينه (الأمير يوسف) وبين الشيخ ناصيف وبني متوال محبة عظيمة وزالت من بينهم الأحقاد القديمة وأخذوا بعضهم على بعض العهود والمواثيق»[2].

تحول الولاءات من جهة إلى جهة، وتغيّر التحالفات كانت سمة عامة، ولا يمكن في كثير من الأحيان الركون إلى القراءات التاريخية إلا إذا كانت القراءة تتحدث بلغة ذلك العصر، حيث لا وجود حقيقي لبعد قومي أو فكر وطني قطري جامع. إن مئات بل آلاف القتلى والدماء الغزيرة التي سفكت بين أهل الشوف وأهل جبل عامل لم تمنعهما من التحالف مع الروس أعداء الدولة العثمانية، كما لم يمنع الحصار والحرب والدماء الغزيرة التي سفكت بين أحمد الجزار وظاهر العمر من لجوء الجزار إليه منتقلاً على ظهر مركب روسي، كان يقوم بقصف بيروت قبل مدة قصيرة.

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣٣٥.

(٢) حيدر الشهابي، تاريخ حيدر الشهابي ص ٨١٩.

الفصل الرابع عشر

عهد الجزار

١ - نهاية ظاهر العمر

٢ - جبل عامل تحت حكم أحمد باشا الجزّار

٣ - معركة يارون واستشهاد الشيخ ناصيف

٤ - ثورة المشايخ وحرب الطّيّاح

٥ - ثورة شحور

٦ - عهد ما بعد الجزار

١ - نهاية ظاهر العمر:

بعد انتصار الحلفاء في معركة الحارة تبدلت مواقف الأمير يوسف الذي أصبح في موقع العدو اللدود لباشا دمشق بسبب ما فعله بجيشه من سلب ونهب وقتل. وفي نفس الوقت كان أحمد بيك الجزار قد أخذ منه بيروت (وكانت لها ضماناً وليست من جبل الدروز). فلم يبق أمام الأمير يوسف من طريق آمن سوى التحالف مع الشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف. وحصل الأمير يوسف على دعم أقربائه في وادي التيم، وتوجه الأمير إسماعيل الشهابي أمير حاصبيا وخال الأمير يوسف إلى عكا لمقابلة الشيخ ظاهر العمر فتم الاتفاق بين الطرفين وأصبح الأمير يوسف بحكم هذا التوافق في صف أعداء باشا دمشق. وطيلة السنوات الثلاث التالية كان الحلفاء يتهيأون للمعركة الكبرى القادمة. وكان الخطر الأكبر يأتي إليهم من مصر حيث جمع واليها محمد أبو الذهب جيشاً كبيراً وعبر به شبه جزيرة سيناء للاستيلاء على عكا. كان هدف الحملة المصرية واضحاً وهو القضاء على الشيخ ظاهر العمر لمصلحة السلطان العثماني. عندما علم علي بيك الكبير وحلفاؤه بحركة محمد أبي الذهب استجمعوا قواهم وتوجهوا لمحاربته قبل بلوغه مدينة غزة. والتقى الطرفان قريباً من المدينة فوقعت معركة كبيرة انتهت بهزيمة الحلفاء أمام المصريين وأصيب علي بيك بجرح بليغ في وجهه، كما قتل قائد مماليكه علي بيك الطنطاوي. وأخذ علي بيك أسيراً إلى مصر حيث حاول صهره أبو الذهب أن يعتذر منه وأمر بمعالجته، ولكن الأطباء الذين عالجوه دسّوا له السم في العلاج فمات. أما الصفديين والعامليين فإنهم ارتدوا نحو عكا وتبنين بعد أن خسروا عددا من الرجال منهم الشيخ صليبة بن ظاهر العمر.

كانت نهاية علي بك إيذاناً بتفرد محمد أبي الذهب بالأمور في مصر، فراح يرتب أمورها وهو يراقب الأوضاع في الشام ويحلم بالاستيلاء عليها، وحانت له الفرصة سنة ١٧٧٥ عندما استحصل على تفويض من السلطان بالزحف على عكا والقضاء على ظاهر العمر.

في شهر آذار سنة ١٧٧٥ دخل محمد بك أبو الذهب بلاد الشام بجيش قوامه ٦٠ ألف جندي مدججين بالسلاح ترافقهم قوافل طويلة من الجمال حاملة المؤمن. أعلن محمد أبو الذهب باسم السلطان، خيانة ظاهر العمر واستعداده لاعدامه[١]. بوصوله إلى يافا وجد أن حاميتها بقيادة الشيخ كريم الأيوب التابعة للشيخ ظاهر العمر مصرة على القتال، وقد أغلقت أبواب المدينة واستعدت للحصار. حاصرها أبو الذهب ستين يوماً حتى سقطت بيده، عندئذ أمر جنوده بقتل كل حي فيها، فأعملوا السيف في رقاب أهلها صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، حتى الغرباء النازلين فيها لاقوا نفس المصير ثم جمعت الرؤوس وكومت على شكل هرم كبير. كان أبو الذهب يريد أن يرمي الرعب في قلوب سكان المدن الأخرى التي تفكر في مقاومته[٢].

بعد أيام من مذبحة يافا تحرك أبو الذهب شمالاً نحو مدينة عكا، هنا سيبرز شكل من الأشكال المبهمة لتصرفات زعماء المناطق وحكام الأقاليم، لقد أرسل الشيخ ظاهر العمر يستنجد بحليفه الشيخ ناصيف النصار وبالأمير يوسف الشهابي فاعتذرا، كل منهما على طريقته، ربما لخوفهما من التورط في معركة خاسرة ونتائجها محسومة سلفاً[٣]. عند ذلك لم يجد الشيخ العجوز ظاهر العمر بداً من ترك عكا، فأوكلها لرجله الأول أحمد آغا الدنكزلي مع رجاله المغاربة، وغادرها متوجهاً إلى قلعة هونين حيث كان يحكمها الشيخ قبلان بن الحسن (آل علي الصغير)، الشيخ الصغيري الذي يحسد قريبه الشيخ ناصيف على ما بلغه من عز وجاه. واجتمع الشيخ ظاهر هناك بزعماء جبل عامل ليبحثوا سوياً في الطريقة المثلى للدفاع عن البلاد. في تلك الأثناء وصل محمد أبو الذهب إلى عكا ودخلها دون مقاومة تذكر حيث أعلن أحمد الدنكزلي ولاءه للمنتصر.

إن الاجتماع الذي حصل في قلعة هونين وشارك فيه الشيخ ظاهر العمر وعدد من أولاده ومشايخ جبل عامل بمن فيهم الشيخ ناصيف النصار لتقرير الخطوة التالية قد أعطى للشيخ قبلان الحسن اعترافاً بتفوقه على الشيخ ناصيف النصار أو التساوي معه،

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٦٥.

(٢) حسين محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق.

وهو حلم كان يراوده منذ تم اقتسام القلاع. وكان الشيخ قبلان الحسن يخفي حقده على الشيخ ناصيف، ولم يشارك في الحرب في البحرة ولا في كفر رمان. وكذلك كان غائباً عن معركة الحارة بما يثبت ذلك البعد الكبير بينه، ومعه أقليم جبل هونين الذي يشكل قسماً هاماً من بلاد بشارة، وبين الشيخ ناصيف ومن يسانده من أقربائه من شيوخ آل علي الصغير.

وأثناء وجود أبي الذهب في عكا وصل إليه الشيخ ناصيف النصار وأصحب معه عشرين حصاناً من جياد الخيل فقدمها له معلناً ولاءه للحاكم الجديد الذي عينه السلطان، فطيب أبو الذهب خاطره وأمره أن يقيم عنده حتى وصول باقي زعماء جبل عامل إلى عكا، لغاية في نفسه، فأقام ناصيف فيها مجبراً. ثم أرسل محمد أبو الذهب جنوده إلى صفد فخربوها وخرب مدينة صور[1].

ورغم التشكيك بنية محمد أبي الذهب نحو ناصيف حسب هذه الرواية (لغاية في نفسه) فإن ما كتبه الركيني في مذكراته أكثر مصداقية حيث يقول: «وفي نهار السبت رابع ربيع ثاني سافر الشيخ ناصيف إلى عكا للإجتماع بأبي الذهب فأكرمه إكراماً زائداً. وكانت شفاعته لديه ماضية في كل ما يريد. ثم توجه الشيخ قبلان لمواجهة أبي الذهب في عكا. وبينما الناس منه في وجل عظيم وإذا به صريع القدر وكان ذلك في ليلة الجمعة عاشر ربيع الثاني سنة ١١٨٩فتنادى عسكره بالرحيل وحملوا جثمانه محنطاً ورجع الشيخ قبلان والشيخ ناصيف سالمين غانمين»[2].

لقد أدرك الشيخ قبلان أن ما حصل عليه من وجاهة في اجتماع قلعة هونين قد تبدد بما نتج عن زيارة الشيخ ناصيف إلى عكا ومقابلته أبو الذهب، فأسرع يحاول اللحاق به لكن لم يدرك ما أمل من ذلك، فبقي في نفسه من ناصيف ما يكفي ليغدر به بعد حين.

كل الزعماء في المنطقة تقريباً قد أعلنوا ولاءهم للقائد الجديد إلا الشيخ ظاهر العمر الذي كان مطلوباً للقتل، ففر من مكان إلى آخر. وترك قلعة هونين متجهاً شرقاً حتى التجأ

(١) المصدر السابق ص ٢٠٤.

(٢) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٤٠ نقلاً عن الركيني.

إلى عرب الطيار في بادية الشام بناء على نصيحة الشيخ ناصيف. وهنا يجب التساؤل عما إذا كانت العلاقة بين الشيخ ناصيف النصار والشيخ ظاهر العمر هي علاقة صداقة وتحالف أم علاقة ولاء واعتراف بسيادة وسلطة؟ من الواضح جداً أن علاقة الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ بلاد بشارة وزعيم شيوخ جبل عامل بظاهر العمر كانت علاقة تحالف ما دام ظاهر العمر حاكماً باسم السلطان. وعندما أعلن السلطان خيانته لم يتورع الشيخ ناصيف عن تركه لمصيره مع استثناء بسيط وهو أنه نصحه بالفرار إلى مكان آمن ريثما تنجلي الأمور. لقد أطاع الشيخ ناصيفُ ظاهرَ العمر متسلم صفد من قبل السلطان لأنه يمثل السلطان، وحارب معه، ودفع له الالتزامات الضرائبية، ولم يحاول الشيخ ناصيف التفلت من هذا الولاء حتى أنيط حكم عكا بمتسلم جديد هو محمد أبي الذهب، فانتقل ولاء الشيخ ناصيف من تلك الشخصية إلى هذه. وقدم الهدايا لأبي الذهب مع محافظة على علاقة صداقة مع الشيخ ظاهر وعائلته.

بعد دخوله إلى عكا تحول محمد أبو الذهب إلى قوة أقليمية كبرى في وقت قصير وقياسي، وكان عليه أن يخطو خطوة واحدة نحو دمشق ليوحد بلاد الشام ومصر، لقد بدا هذا الحلم التاريخي لحكام المماليك في مصر منذ أيام شجرة الدر، لا بل قبل ذلك منذ أيام صلاح الدين وربما منذ أيام ابن طولون والأخشيد، ما من حاكم قوي في مصر إلا وكانت عينه على الشام، وما من حاكم حكم مصر والشام إلا وتحول إلى سلطان يملك دولة عظمى، فما الذي ينقص أبا الذهب ليكون سلطاناً؟

لكن الأقدار لم تكن معه، لقد توفر لهذا الرجل كل ما يريد لتنفيذ أحلامه إلا الحياة المديدة، فقد أصيب بصرع غريب ولازمته الحمى، ولم تطل به الأيام حتى توفي، فنسب العامة ما جرى له إلى قوى غيبية بسبب هدمه لدير في جبل الكرمل، أو بسبب هدمه لمزار للنبي الخضر بقرب دير مار الياس في الكرمل، حيث نبهه شيخ إلى الخطر المحدق به إذا ما مس المقام فلم يأبه لنصيحته.

بعد وفاة أبي الذهب عادت الأمور إلى سابق عهدها، واجتمع العامليون واتفقوا على مهاجمة أحمد آغا الدنكزلي الذي تسلم صيدا من أبي الذهب «ثم أرسلوا المشايخ سرية قليلة إلى عند السنجق (الدنكزلي) إلى صيدا حتى يخرجوه منها طوعاً أو كرهاً،

فحاصر فيها وقتل منهم خمسة رجال. وقال لهم لا أخرج منها إلا بأمر سلطان»[١]. ثم عاد الدنكزلي وأعلن ولاءه لسيده السابق الشيخ ظاهر الذي عاد إلى عكا ليواصل حكمها وقد استرد روعه، ولكنه لم يسترد قوته السابقة، خاصة أن الدولة العثمانية قد حركت جيوشاً جرارة من الشمال هذه المرة وبمواكبة الأسطول العثماني الذي عاد إلى العمل شرقي المتوسط بعد سحب الأسطول الروسي. كانت مهمة جيش السلطنة التخلص من ظاهرة الشيخ ظاهر العمر.

بدأ الهجوم العثماني الأساسي من البحر، فقد تحركت عمارة بحرية بقيادة حسن باشا غازي إلى يافا في جمادى الثانية سنة ١١٨٩/ آب ١٧٧٥، وبوصوله إليها أرسل إلى الشيخ ظاهر العمر فرماناً يشتمل على المطالبة بالأموال المتأخرة، وإعطاء الأمان، وإبقاء الإيالة كلها بيده كما كانت من قبل[٢].

في هذا الوقت العصيب برزت أراء مختلفة من أصحاب الحل والعقد من مستشاري ومساعدي الشيخ ظاهر العمر، فأمين ماليته أصر على الحرب، بينما وقف الدنكزلي حاكم صيدا موقف المسالم. في ذلك الوقت وصل جيش عثماني من البر بقيادة محمد باشا العظم والي دمشق، واقترب أسطول حسن باشا في البحر من عكا حيث أخذ يطلق قنابله على الأسوار، فأصدر الشيخ ظاهر أوامره إلى الحامية بالرد على سفن الأسطول، لكن سدنة المدافع ومعظمهم من المغاربة، رفضوا تنفيذ أوامره والتزموا بطاعة أوامر سيدهم أحمد آغا الدنكزلي الذي أعلن ولاءه للسلطان وجيشه. فأدرك الشيخ ظاهر أنه خسر المعركة وحاول الفرار من عكا، لكن أحد المغاربة أطلق عليه النار وهو يخرج من باب المدينة فأرداه قتيلاً، فأخذ الدنكزلي رأسه يتقرب به عند الباشا، الذي اكتشف عند ذلك مدى خيانة الدنكزلي، لأنه كان قد فاوضه باسم الشيخ ظاهر وكذب أمامه في أمور أدت إلى الهجوم على عكا، عند ذلك أمر بشنقه على ساري إحدى السفن انتقاماً لظاهر[٣]. أو

(١) حسين محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٢٠٨.

(٢) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٤٠.

(٣) حسين محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٢٣٦.

قتله بدس السم له في فنجان قهوة بينما شُنِقَ أمين الخزينة وليس الدنكزلي[١].

بعد القضاء على الشيخ ظاهر العمر (أواخر آب ١٧٧٥) لبث القبطان حسن باشا مع أسطوله في عكا دون أن يبدو أي ذكر لما ستؤل إليه الأحوال في بلاد صفد، خاصة وأن مدينة عكا أصبحت أهم مدينة عسكرية واقتصادية على ساحل المتوسط الشرقي، وأصبح من الضروري وضع حاكم مخلص للسلطنة فيها. في تلك الأثناء وصل إلى عكا أحمد بك الجزار (١٩ أيلول ١٧٧٥) فقام القبطان حسن باشا بتسليمه إدارة المرفأ وجعله حاكماً على المدينة، كما عين حسن باشا بنفسه محمد ملك باشا والياً جديداً على صيدا.

٢ - جبل عامل تحت حكم أحمد باشا الجزّار:

بعد مقتل الشيخ ظاهر العمر جمع ولده الشيخ علي الظاهر من تأشب إليه من الرجال المخلصين فشكل منهم جيشاً صغيراً عسكر في قرية علما في منطقة الشعب (علما الشعب).

في هذا الوقت كانت الخلافات تعصف بين القادة العثمانيين المنتصرين في عكا حيث كان حسن باشا قائد الأسطول قد عيّن محمد باشا والياً على ولاية صيدا وعين أحمد بيك الجزار حاكماً على مدينة عكا، فجاءت أوامر من العاصمة بتعيين أحمد الجزار باشا على صيدا دون استشارة حسن باشا قائد الاسطول.

يذكر المعلوف تولي أحمد باشا الجزار بمقطع صغير كأنه لا يريد أن يذكره يقول: «وسنة ١٧٧٦ م جاء أحمد باشا الجزار ليتسلم زمام أمور تلك الجهات فدخل صيدا في شهر آذار ثم عاد إلى عكا وواقع علياً ابن ظاهر العمر الذي كان محاصراً في حصن دير حنا فقتل من عسكر الجزار عدد كبير»[٢].

وفي هذه الأثناء وصلت مجموعة من الجنود العثمانيين الفارين يعرفون بـ «قبسيس» من فرقة تدعى لاوند ولجأوا إلى الباشا الجديد فقبلهم وشكل منهم جماعة من الجند ظلوا أوفياء له في الأحداث الكثيرة التي جرت معه بعد ذلك.

---

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٦٧.

(٢) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٧٣.

أمر أحمد باشا الجزار جيش الولاية بمطاردة الشيخ علي الظاهر فاصطدم به قرب علما (علما الشِّعب إلى الشرق من الناقورة). لكن جيش الباشا سرعان ما فر مهزوماً فتقدم الشيخ علي عند ذلك نحو «ديشوم» القريبة من صفد وهي منطقة كانت توالي أباه وجده منذ أكثر من نصف قرن. وفي ديشوم تعرض للغدر من جماعة القبسيس فقتل وقتل معه ولداه الحسن والحسين. وبعد هذا العمل قام الشيخ ناصيف بنقل جثته إلى قرية عيناثا العاملية ودفنه هناك وفاءً للصداقة التي تربط بينهما.

جرت هذه الحادثة سنة ١١٩١/ ١٧٧٧ بعد أشهر من سقوط عكا، وكان من نتائجها انفراط ما تبقى من قوى في منطقة صفد وفي بلاد بشارة والتي كانت قادرة على وقف ما بدأ أحمد باشا الجزار بتنفيذه في ولاية صيدا التي ستصبح بوجود الجزار ولاية عكا وصيدا. لقد بدأ الجزار خطة ممنهجة للقضاء على كل أشكال التمرد في المنطقة التي حكمها متبعاً خطى السلاطين العثمانيين في إهلاك الحرث والنسل دون اهتمام بدين أو قوم أو عرق. بدأ مذابحه الأولى بالهجوم على مدينة صيدا فنهبها ثم كبس أقليم الخروب ووصل إلى جون وروم ونهب دير المخلص. وارتفعت الأسعار حتى وقعت المجاعة الأولى في عهده والتي ستتكرر طيلة أيام وجوده في عكا ثم في دمشق.

واستخدم الجزار ما لدى الشيخ ناصيف النصار من قوى من فرسان ورجّالة حيث سيّرهم لغزو عرب الطيارة وهم أصدقاؤه قبل ذلك. كما أمرهم أن يهاجموا الدروز على أطراف البقاع. وحاول الشيخ ناصيف أن يتفادى الجزار عندما تحالف مع بعض القبائل العربية المقيمة في الجولان وحوران والذين استنصروه في بعض حروبهم فأنجدهم. لكن الحرب كلّفت العامليين عدداً كبيراً من القتلى منهم الشيخ أبا حمد محمود النصار شقيق ناصيف بطل معركة البحرة المشهور. فكان لمقتله وقعه الكبير على معظم رجال بلاد بشارة الذين بقوا مع الشيخ ناصيف. وفي هذه الفترة يختفي ذكر المشايخ الصعبية والمناكرة رغم وقوع أحداث كبيرة في مناطقهم ومنها مقتل ثلاثة رجال من الشيعة واحد من جباع واثنين من بلاد الشقيف قتلهم الدروز سنة ١١٩٤/ ١٧٨٠ دون أن يذكر صاحب هذه الرواية أن حكام الشقيف أو حكام جباع قد ثأروا أو ردوا على العدوان كما فعلوا قبيل معركة كفر رمان.

لكن الملاحظة الأهم هو ذلك الاتصال الكبير الذي جرى بين الشيخ ناصيف النصار والأمراء والشيوخ الشيعة في باقي مناطق لبنان. فقد انتقل الشيخ صليبة الحمادي أحد شيوخ الحمادية في جبل لبنان إلى مدينة صور برعاية الشيخ ناصيف وشيوخ آل علي الصغير الذين فرضوا على الأهالي أن يسخروا له دواب القرى «والذي لم يرسل دابته يؤخذ منه مقدار كراها والقرية التي لم ترسل دوابها يؤخذ من أهلها قرشين أو ثلاثة ويستأجر بها»[١].

لكن العلاقة الأهم مع شيعة المناطق اللبنانية جرت بين الشيخ ناصيف والأمراء الحرافشة أمراء بعلبك لقد حدث ذلك سنة ١١٩٥ حيث يذكر أنه «صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والأمير محمد الحرفوش في الطيبة في بلاد عاملة. وركبت خيل الشيخ ناصيف مع الأمير محمد الحرفوش إلى بعلبك»[٢]. وربما تكون هذه العلاقة المستجدة هي التي نبهت أحمد باشا الجزار إلى الخطر الذي قد يمثله الشيخ ناصيف وفرسانه الأشداء في المستقبل. وجاءت الأحداث التالية لتثبت للجزار هذا الخطر الكبير. فقد طلب أحمد باشا الجزار من الشيخ ناصيف أن يسير بعسكره إلى دير القمر لإعادة الأمير يوسف إلى حكم جبل الدروز. «وفي يوم السبت ١٤ من ربيع الأول (١١٩٥/ ٩ آذار ١٧٨١) ركب الشيخ ناصيف والشيخ حمد العباس مع الجزار والأمير يوسف على الشوف. وبمجرد وصول الخبر إلى أهالي الشوف فرّوا هاربين حذراً من سطوة الشيخ ناصيف. وجعل الأمير يوسف يهدم الدور والقصور في المختارة وبعدران. أما أولاد الشيخ علي جنبلاط فقد نجوا بأنفسهم وتركوا جميع أثقالهم وفروا إلى الريحان ورجعوا خفية إلى عند فقهاء بيت الحر في جباع ليتشفعوا لهم عند الشيخ ناصيف فأجابهم الشيخ ناصيف بأن هذا الأمر يرجع للدولة ووعدهم ببذل المجهود. ولما راجع الجزار في ذلك أجابه لما يريد بشرطين أولهما دفع ألف وخمسماية كيس وثانيهما إسكانهم في المكان الذي ترغب فيه الدولة»[٣].

---

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٤٧ نقلاً عن الركيني.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٨ نقلاً عن الركيني.

إذا صحت هذه الرواية، وهي على ما يظهر صحيحة، فهي تعني أمرين مهمين. الأول وصول قوات ناصيف النصار إلى دير القمر لأول مرة غازية. والثاني شروع الأمير يوسف المتنصر حديثاً بتهجير العائلات الدرزية من جبل الدروز، وهو الشرط الذي افترض قبول أولاد علي جنبلاط به. وهذه ستكون البذرة التي بدأت تنبت فتناً وتهجيراً بين الدروز والمسيحيين في جبل الدروز لتتحول فيما بعد إلى صراع مستميت. بالنسبة للنقطة الاولى ينقل الشيخ الفقيه عن الركيني وصفاً لدخول جيش ناصيف إلى دير القمر فيه الكثير من الغطرسة والتشفي فيقول: «.... وصل العسكر إلى جزين فحين وصل الخبر إلى أهالي الشوف بوصول عسكر الذين قلوبهم بحب اللّه مشغوف زعق في الشوف غراب البين ونادوا بأجمعهم إلى أين إلى أين. ووقع فيها الرحيل والشتات وخرجت المخدرات في البراري هائمات والرجل يفر من أمه وأبيه وأخيه وصاحبته وبنيه خوفاً من المنية تلتقيه....وأرسل الأمير يوسف إلى الشيخ ناصيف المؤيد المسدد نطلب من اللّه العظيم وشعيب النبي الكريم إن رأيتم لائقاً في غيرنا غير مأمور على جنابكم الشريف تكفوا العسكر عن القتل والنهب....إلخ»[1].

لم يكتف الشيخ ناصيف وفرسانه باستعراض القوة في جبل الدروز بل قاموا بعد ذلك بأشهر (٢٠ ربيع الثاني سنة ١١٩٥/ ١٤ نيسان ١١٨١) بمناصرة الأمير اسماعيل الشهابي أمير حاصبيا على باشا الشام. كما شارك بعد ذلك مباشرة في الحرب بين الأمير يوسف الشهابي وأخيه الأمير سيد أحمد منتصراً للأمير يوسف.

إن استعراض هذه القوة الكبيرة قد جعلت الجزار يخشى على ولايته ونفوذه من الشيخ ناصيف وأنصاره من أهل بلاد بشارة وعموم جبل عامل، فصادف هواه هوى الشيخ قبلان الحسن (آل علي الصغير) وهو الشيخ العجوز القابع في قلعة هونين منتظراً الفرصة المناسبة لتنفيس أحقاده الدفينة على أبناء عمه أولاد نصار.

٣ - معركة يارون واستشهاد الشيخ ناصيف:

كان الجزار لا يثق أبداً بأبناء البلاد، لذلك اصطنع حرسا وجنوداً من الأفاقين والقتلة

(١) المصدر السابق.

الذين استطاع أن يجمعهم من كل أنحاء السلطنة، وتدفق عليه أعداد من البوسنيين والألبان والمغاربة والفرسان الدالاتية، فشكلوا نخبة قواته، ثم انضاف إليهم أولئك الفارين من جماعة اللاوندية[1]. وهؤلاء كانوا من فرقة من الفرسان العثمانيين غضب عليهم السلطان وأمر بالقضاء عليهم ففر ستماية خيال منهم وانضموا إلى قوات الجزار، وعرفوا بالقبسيس. كانت قوات الجزار تعيث في الأرض فساداً، ولم تترك أمراً سيئاً إلا ارتكبته. وراح الجزار ينفذ انتقامه من أهالي جبل الدروز وأميرهم يوسف بظلم فظيع، حتى أثخن البلاد بكل مكروه، لكنه حتى ذلك الوقت لم يقم بأي حركة تظهر حقده على العامليين.

لقد تمكن الشيخ الفذ ناصيف النصار من انقاذ الأوضاع في جبل عامل أطول مدة ممكنة، ولبى دون تأخير ما طلبه الجزار، كما أظهر ولاءً للباشا شبيهاً بذلك الولاء الذي كان يقدمه للشيخ ظاهر العمر. ففي الثاني من ربيع الأول سنة ١١٩٠/ ١٧٧٦ التقى الشيخ ناصيف بالباشا في صور عند حاكمها الشيخ عباس العلي حيث أظهر ولاءه له، وفي وقت لاحق من نفس السنة سار الشيخ ناصيف على رأس رجاله، بأمر من الجزار، لقتال ابن حليفه السابق الشيخ علي الظاهر الذي فر قبل وصول الشيخ ناصيف إليه، وبعد شهر قام الشيخ ناصيف بهجوم آخر استهدف الشيخ علي الظاهر ففاته أيضاً. والأرجح في هذه الحالة أن الشيخ ناصيف، ووفاءً منه لذكرى صديقه الشيخ ظاهر، كان يبعث لعلي الظاهر خبراً بحركة المطاردة فيفر قبل أن يدركه الطلب. كما شارك الشيخ ناصيف جيش الباشا في الهجوم على جيش باشا دمشق محمد باشا العظم سنة ١١٩٤/ ١٧٨٠. وكذلك ساهم الشيخ ناصيف وشارك مع الباشا في الهجوم على جبل الشوف في محاولة لإعادة الأمير يوسف إلى الحكم بالقوة بعد أن أبعد عن دير القمر عاصمته بسبب اختلافه مع إخوته على السلطة ، طبعاً بإيعاز من الجزار.

لكن الجزار لم يكن يريد حلفاء، ولا أعواناً أحراراً، ولا يطيق أن يرى أحداً من أبناء البلاد له شأن. لقد كان الجزار عبداً يحب العبيد، جزاراً سفّاكاً للدماء، وكان مَنْ حوله من

(١) قسطنطين بازيلي| سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٧٠.

الأنصار من صنفه وفصيلته، لذلك لن يستمر متعايشاً مع شيخ الأحرار الشيخ ناصيف ولا مع عشاق الحرية من أهالي جبل عامل.

ويبدو أن الفرصة حانت للجزار عندما تمكن قبل أن يقوم بأي حركة، من إقناع الباب العالي بأهمية عمل عسكري ضد جبل عامل. فوصله بعد حين فرمان من الأستانة يأمره بالسير على جبل عامل لتأديبه. العلل والأسباب وما أكثرها، كلها من الماضي. كتمرد أهله أيام ظاهر العمر، ومشاركتهم في الحملات على والي دمشق، وغزواتهم على منطقة دمشق، وامتناعهم عن دفع الميري رغم تعهدهم السابق بدفعها[١].

وبالطبع كان الجزار ينتظر مثل هذه الفرصة، فجهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل بقيادة معاونه سليم وأوكل إليه مهمة اجتياح جبل عامل بالحيلة. كان الشيخ ناصيف ومعه العامليون يتوقعون أن يقوم الجزار بعمل ما ضدهم وقد استعدوا لمثل هذا الحدث، فشحنوا قلاعهم بالمقاتلين وبالمؤن.

في سنة ١١٩٥/ ١٧٨١ تحرك جيش سليم من عكا وهو يدعي قصد وادي التيم، فكانت طريقه على جبل عامل حكماً. وصل إلى قرية يارون حيث التقاه الشيخ ناصيف ومعه ألفاً من رجاله في ٥ شوال سنة ١١٩٥/ ٢٣ أيلول ١٧٨١، حيث جرى قتال بين الفريقين قتل فيه ثلث الجيش العكاوي وثلث الجيش العاملي وكان الشيخ ناصيف بين القتلى.

يتفق مؤرخو جبل عامل على أن الشيخ ناصيف قد كبا به جواده فسقط به عن صخرة عالية قرب قرية يارون تعرف إلى اليوم باسم صخرة ناصيف، وربما يكون قد أصيب بالرصاص قبل سقوطه أو بعده فقتل.

ينظر الدبلوماسي الروسي بازيلي إلى هذا الحدث من زاوية مختلفة فيقول: «صانت قبائل المتاولة الجبلية بين صيدا وعكا نفسها من الجزار حتى ذلك الحين. وقد حكمها بهدوء تام شيوخها الذين كانوا يدفعون الإتاوة عنها إلى الجزار. وكان الجزار يرغب منذ زمن بعيد الانتقام منها بسبب تحالفها مع ظاهر. في عام ١٧٨٥، (الصحيح ١٧٨١) وبعد

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٦٤ نقلاً عن مقالة لحسين سليمان.

أن زاد الجزار جيشه إلى خمسة عشر ألفاً من الأفّاقين الجدد الذين كانت شهرته تجذبهم إلى سورية من كل مكان، شنّ حملة على بلاد المتاولة. دافعت هذه القبائل عن نفسها بشجاعة تحت قيادة شيخها ناصيف نصار زميل ظاهر. وقد سقط هذا المحارب المسن في المعركة، أما زمر الجزار فاخترقت الجبال واستولت على الحصون وبقيت قرابة السنتين تعذب السكان التعساء[١].

قد يكون هناك تأويلات كثيرة لنهاية الشيخ ناصيف بهذا الشكل، ولكن بعض الروايات تلمح إلى وجود خيانة ما، أو مؤامرة اشترك فيها الشيخ قبلان الحسن حاكم قلعة هونين مع أحمد باشا الجزار، قال بهذه الرواية الشيخ السبيتي في تاريخه المختصر لحوادث سنة ١١٩٥ حيث ذكر أنه: «...في سنة خمسة وتسعين أرسل الجزار عساكراً إلى حاصبيا فجاء إلى يارون فظن أهل بلاد بشارة أن العسكر يريدهم، فحضر ناصيف وصارت وقعة ناصيف وخربت البلاد وقيل إن عسكر الجزار حضر البلاد بواسطة صاحب قلعة هونين وصار قتل ناصيف بواسطته وظن أن البلاد تصفى له فلم يبق على أحد منهم»[٢].

وكان الشيخ قبلان صاحب قلعة هونين قد توجه إلى عكا بعد أن أصبح الجزار والياً عليها وتفاوض معه على ترتيب بعض الأمور بما فيها دفع الميرة المتوجبة على البلاد والتي بلغت ٤٥٠ كيس (الكيس يساوي خمسمائة قرش) مقسطة على دفعات يتم إيفاؤها قبل نهاية سنة ١٧٧٧ وقد وفى الشيخ بهذه الاتفاقية.

بعد مقتل الشيخ ناصيف فرّ من تبقّى من رجاله، وتفرقوا واختفوا في البلاد حيث لم يبق لهم قائد يجمعهم. وتقدم جيش سليم المملوك للاستيلاء على القلاع العاملية الكبرى في تبنين وهونين ويارون وشمع وميس وصربين وجباع، وتروج روايات عن أفعال عثمانية أمر بها الجزار حيث قام جيشه بإحراق بعض القرى وقتل وتشريد ونهب وسلب كل من وما تمكن من الوصول إليه مطبقاً الأسلوب العثماني الموصوف. كما ذكر البعض أن جيش الجزار قد أخذ النساء والأطفال سبياً فبيع الولد بقرش والمرأة بقرشين

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٧٣.
(٢) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٤٥٢.

في أسواق عكا[١]. وأنه فرض على الأهالي غرامة مالية ضخمة كان من العسير على الأهالي متضامنين أن يجمعوها، وقد قام المرجع الشيخ علي الخاتون بالدوران على القرى العاملية ليجمع الأموال للجزار طالباً من الفلاحين اعتبار تلك الإتاوة من الزكاة، وكان يسجل ما يحصل في دفتر خاص[٢].

وتفرق مشايخ الجبل خصوصاً وجهاء الأسر الكبرى فراراً من وجه الجزار، فوصل بعضهم إلى بعلبك ولجأوا عند آل الحرفوش، بينما لجأ آخرون عند محمد الأسعد المرعبي في عكار. يقول المعلوف حول ذلك: « وفيها (١٧٨٢) انتقلت وزارة دمشق إلى أحمد باشا العظم. وكان بعض متاولة بلاد بشارة قد هربوا من وجه الجزّار الذي قتل كبيرهم ناصيف وقبض على ابنه وضبط بلادهم وفتك بكثيرين منهم وسبى رجاله نساءهم حتى باعوا المرأة بعشر مصاري (قيمة المصرية بارة) فجاؤوا إلى بلاد بعلبك ولاذوا بحمى الحرافشة فاتصل خبرهم بالوزير وتوسّط أمرهم عند الأمير مصطفى (الحرفوش) الحاكم فأعطاهم قريتي القاع وراس بعلبك اللتين لوالدة السلطان ونزع الهرمل من يد الأمير يوسف الشهابي وولى عليها الشيخ قبلان (الحسن) المتوالي أحد الفارين من وجه الجزار أيضاً»[٣].

أما في بلاد الشقيف التي لم يشارك شيخها حيدر الفارس الصعبي في معركة يارون فقد احتمى هذا الشيخ في قلعة الشقيف أرنون ومعه، حسب بعض المصادر، ستماية من رجاله من أقليم الشقيف. ولم يتمكن جيش الجزار من الاستيلاء على تلك القلعة المنيعة إلا بعد حصار شهر كامل حيث وافق الشيخ حيدر على الاستسلام للباشا شخصياً، مع ضمان سلامة الرجال والعائلات التي كانت معه، فجاء الجزار وتسلم القلعة. وصدر عن باشا صيدا أوامر صارمة إلى كل أتباعه بعدم أذية أي ممن كان في قلعة الشقيف كما أقطعهم أراضٍ ليعملوا فيها ولتستمر الحياة على طبيعتها في المنطقة[٤]. لكن الشيخ حيدر

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٩.
(٣) المعلوف ، دواني القطوف ص ٢١٧-٢١٨.
(٤) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ص ٢٦٥.

الفارس عاد بعد حين وفر من المنطقة ولجأ إلى باشا دمشق العدو اللدود لأحمد باشا الجزار.

وكذلك لم يشارك ورثة الشيخ عباس العلي حاكم مدينة صور في المعركة. ورغم ذلك فقد خشي أهلها أن يتعرضوا للإذلال والقهر والنهب كما كانت قوات الجزار تفعل دائماً، ففروا عنها وتركوها خالية، مما اضطر الجزار إلى إذاعة منشور في طول البلاد وعرضها يدعو أهل صور للعودة إليها ويبذل لهم الأمان، فرجع كثير منهم. لكنهم بعد أقل من سنة عبروا عن رغبتهم في التخلص من حكم الجزار فأمر الباشا باعتقال شيخ صور وزجه في السجن وصادر أمواله وأموال أنصاره حتى اضطر أبناؤهم ونساؤهم إلى الاستعطاء.

ولم يتعرض سكان القرى التابعة لجبل هونين لأي اضطهاد فوري كما لم يرسل الجزار من يتولى قلعة هونين قبل مرور وقت على معركة يارون. ولكن ذلك لم يستمر كذلك طويلاً واضطر شيخ هونين إلى الفرار إلى بعلبك واللجوء إلى آل الحرفوش.

المنطقة الأكثر تضرراً من جرائم الجزار كانت منطقة جبل تبنين ومنطقة الشِّعب حيث ذاق الأهالي كل أصناف العذاب والتنكيل. وبعد أقل من سنة ، وحيث لم يبق في الجبل قوة فعلية تدافع عن أهله، انساح زبانية الجزار في طول الجبل وعرضه يفعلون كل منكر على الطريقة العثمانية وفي بعض الأحيان بمعاونة بعض الخونة الذين حصلوا على بعض المنافع من الطاغية.

واستبدل الجزار مشايخ المقاطعات الثلاث الذين فروا من البلاد بمتسلمين مؤقتين من قبله وزودهم بوحدات عسكرية قادرة على السيطرة بفعالية على القرى، وعامل هؤلاء المتسلمين رعاياهم بقسوة لانتزاع الأموال التي قد تكون معهم[١].

كانت لعملية الجزار العسكرية في جبل عامل صداها في الأستانة حيث عبر السلطان عن رضاه عن الباشا، وأرسل إليه هدية هي عبارة عن سيف وخلعة ثمينة، مع مطالبة له بتأدية ما يترتب عليه من حساب عن الثروة التي استولى عليها في هذه الحملة[٢].

---

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق.

بعد القضاء على الشيخ ناصيف توجه الشيخ قبلان من هونين إلى دمشق لمقابلة واليها محمد باشا العظم، وقد اصطحب معه الشيخ عقيل بن ناصيف النصار، في محاولة على ما يبدو للحلول محل الشيخ ناصيف، لكن خطته هذه باءت بالفشل نظراً لابتعاد الناس عنه.

كانت الخسارة الكبرى هي الكنز الحضاري الذي دأب العامليون على جمعه واقتنائه لقرون وهو الكتب التي توارثوها أو استنسخوها والتي جمعت كل مجالات العلوم التي قامت في أزمنة سابقة. لقد جمع الجزار وزبانيته هذه الكتب ونقلوها إلى عكا حيث جرى إحراقها في الأفران. أما العلماء الكبار الذين كانوا ينتشرون في البلاد فقد اضطهدوا أيما اضطهاد وقتل من وقع منهم بيد زبانية الطاغية. ومن تمكن من الفرار فقد لاذ ببلاد بعيدة حتى وصل بعضهم إلى إيران بل وأبعد من ذلك إلى الهند، فاستفادت تلك البلاد من علومهم بينما حرم العامليون من ذلك.

ويبدو أن ما بدأه الجزار من اضطهاد لأهل بلاد بشارة قد وصل إلى كل ناحية في جبل عامل بما في ذلك جبل هونين. وفر الشيخ قبلان الحسن إلى بعلبك حيث حصل على تكريم الأمراء الأوفياء من آل حرفوش. كما حاول الجزار النيل من الهاربين واللاجئين في البقاع وبعلبك وعكار وطلب من الحاكمين في تلك النواحي أن يبعدوا أو يعتقلوا المطلوبين الفارين فرفض الحرافشة ذلك وقاوموا حملة للجزار، وكذلك رفض آل مرعبي في عكار. لكن الأمير يوسف الشهابي خان الأمانة وغدر بضيوفه. يقول بازيلي: «.... إن شيوخ المتاولة الذين استضافوا في أوقات مختلفة الشهابيين المنقوم عليهم ذهبوا يبحثون عن الحماية لدى الأمير يوسف. وكان يوسف حينذاك في قطيعة الجزار وفيما بعد حينما عقد صلحاً مع الباشا سلّموا إليه غدراً بطلب منه. هذا الانتهاك لحقوق الضيافة المقدسة أحدث في عقول الناس انطباعاً أشد سوءاً من ذاك الذي أحدثه قتل أخويه اللذين ضرّج يديه بدمائهما»[١].

وقد أورد المؤرخ الشدياق قصة غدر الأمير يوسف باللاجئين إلى منطقة يسيطر عليها

(١) المصدر السابق.

فقال: «سنة ١٧٨٦: وفيها حضرت ولاية دمشق إلى الجزار فسار إليها ومعه الشيخ سعد مدبر الأمير (يوسف). ولما عزم على النهوض بالحج وضع الشيخ سعداً في القلعة وكتب إلى الأمير أن يعتقل أولاد الشيخ علي الصغير الشيعية الذين في مشغرا ويرسلهم إلى نائبه سليم باشا في عكاء فأرسل الأمير (يوسف) رجالاً إلى مشغرا فقبضوا عليهم فأرسلهم الأمير إلى عكاء وقد نكث بهم ونقض عهده لهم. ولما رجع الجزار من الحج أمر بقتلهم[1].

وهكذا انطوت الصفحة المشرقة التي كان بطلها الشيخ ناصيف النصار بامتياز وهو بهذه الصفات فخر جبل عامل وأحد أهم فرسان العامليين التاريخيين والذي يكرم في ذاكرتهم ليس بنَسَبِهِ المفتعل ولا بحسبه المختلق، ولكن بما أنجزه وعمله خدمة لأبناء بلاده حتى استشهد وهو يدافع عنهم.

٤ - ثورة المشايخ وحرب الطّيّاح

يكاد معظم مؤرخي جبل عامل يجمعون على أن العامليين قد واجهوا حكم أحمد باشا الجزار بالثورة والتمرد. دون أن يدعي أحد منهم أنه يعرف كيف عبر العامليون فترة حكم تزيد على أربع وثلاثين سنة بعد مقتل الشيخ ناصيف دون أن يتغير الواقع السكاني للبلاد كما حدث في نفس الفترة في جبل لبنان (الجبة وجبيل والبترون) حيث تبدل الوجود السكاني المذهبي بشكل جذري. يمكن الحديث عن فترة حكم الجزار بموضوعية بعيداً عن التعصب المذهبي الذي طبع مؤلفات كتُّاب جبل عامل. فالجزار كان حالة عثمانية خاصة لكنه لم يرق إلى المستوى الذي يوصف به عند أعدائه.

كان جبل عامل حتى وصول الجزار إلى السطة قد مر بمرحلة سياسية وعسكرية مستجدة بمعنى أنه لم يكن لها (لهذه المرحلة) شبيه في تاريخ جبل عامل السابق. فمشايخ العائلات الثلاث الكبرى علي الصغير وصعب ومنكِر قد وضعوا أيديهم على القلاع واستملكوها وحولوها إلى مساكن خاصة بهم وبأسرهم. ولم يكن لقوة في ذلك

(١) الشدياقاً أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣٤٨.

الزمن أن تجليهم عنها فهم يملكون القوة العسكرية الضاربة المتعاونة والمتحالفة مع الشيخ ظاهر العمر الذي كان على معرفة تامة بالإستيلاء على القلاع والأبراج، والتي كانت موجودة في جبل عامل منذ أزمنة مديدة وبموافقته الشخصية. وعندما تمكن الجزار من السيطرة على ولاية صيدا بدأ يستعيد ما اعتبره حقوقاً للدولة. في البداية طالب بسداد الأموال المستحقة على بلاد بشارة والمقدرة بستماية كيس فوفى المشايخ بها وانتظمت الأمور. لمدة خمس سنوات تقريباً لم يذكر أحد من الكتاب العامليين أنه جرت أي إشكالات أو خلافات مع الباشا. ولم يظهر فيها أن الجزار شخصية غامضة أو غير عادية. لقد بدا كأي باشا عثماني لكنه أكثر وفاءً لسلطانه ودولته، فما تلقى أمراً من السلطان إلا ونفذه بدقة رغم الظروف الصعبة جداً التي كانت تحيط بالدولة بعد الحرب الروسية وبعد تمرد المماليك في مصر ابتداءاً من فترة حكم علي بيك الكبير. صحيح أن الجزار يبدو ظالماً عاتياً لكنه في نفس الوقت يتساوى في هذا الظلم والعتو مع جملة الباشاوات العثمانيين، فليس هو حالة مختلفة وقد ذاق منه فلسطينيو الجليل ونابلس وطبرية أكثر بكثير مما قاسى منه بعض سكان بلاد بشارة.

تبدأ الأحداث أساساً من استيلاء مشايخ الأسر الكبرى على قلاع وأبراج جبل عامل سنة ١١٦٣/ ١٧٤٩ بالقوة واستملاكها ثم اتخاذها مقرات للحكم والتسلط لهؤلاء المشايخ. ليس فيما يعرف من أخبار من الذي أعطى الحق لهؤلاء بهذه الخطوة لأن عواقبها أصبحت مرهونة بأخلاق شيخ القلعة. فمن استملك القلعة بدون وجه حق يمكنه أن يستملك أراضي الفلاحين ويستولي على ممتلكاتهم بالقوة بنفس الطريقة التي استعملها العثمانيون، وهذا ما حصل بالفعل في مناطق جبل عامل بعد سنة ١٧٤٩. لقد كان شيوخ العائلات مع من استطاعوا تجنيده من أبناء البلاد يغزون بعضهم البعض فيقتلون ويدمرون وينهبون ويحرقون مقلدين العثمانيين في كل شيء. وفي موجز بسيط للأحداث يذكر خراب بلاد الشقيف سنة ١١٦٩/ ١٧٥٥ ومسك الشيخ عيسى فارس في قلعة الشقيف. وفي سنة ١١٧١/ ١٧٥٧ ركب محمود (أخو ناصيف) إلى أقليم الشومر ومسك الحاج علي سليمان بن أبي صعب. وفي سنة ١١٧٢/ ١٧٥٨ سجنوا الحاج محمد حيدر أبي بشير وولديه محمد وحسين في البئر ومات الحاج حيدر وولده محمد وقلعوا

عيني حسين في قلعة بلاد الشقيف. وفي سنة ١١٧٧/ ١٧٦٣ كبس الشيخ حسين منصور قرية الغازية وخرب أقليم التفاح وتضعضعت أحوال الناس. وركبت خيل ناصيف إلى بلاد الشقيف وخيل قبلان وعباس إلى أقليم الشومر. وفي سنة ١١٧٩/ ١٧٦٥ كُبست الغازية وركب الشيخ أبو حمد (محمود النصار) إلى قرية طيرفلسية وأخذ معزة عباس العلي وبعض جمال وخيل وسلبوا بعض الناس. وفي سنة ١١٨٠/ ١٧٦٦ أمسك الشيخ عباس الشيخ قبلان وقتل خمسة رجال ثم أدركته الخيل...إلخ.

إن هذه الحوادث المتلاحقة لا تعطي صورة طيبة عن حكام القلاع، ما كان يدفع العامليين إلى احترام المشايخ هو الإنتصار العسكري الكبير الذي جرى في معارك البحرة وكفر رمان وحارة صيدا والذي جرى بالتحالف مع ظاهر العمر وعلي بيك الكبير. فنسبه العامليون إلى قيادة شيخهم ناصيف مما جعل له مكانة مرموقة في عقول عامة العامليين. فلم يعد من الواقع أن يتحدث أحد عن تجاوزات وغزوات وتحصيل جبايات.

فماذا جرى بعد استشهاد البطل المغوار الشيخ ناصيف؟ لقد استوعب الأهالي ما جرى وراقبوا بتحسر فقدان تلك العزة التي كانت موجودة بقيادة الشيخ ناصيف، لكن أحداً لم يحرك ساكناً في مواجهة الجزار، ليس بسبب عجزهم، ولكن لأن المواجهة أصبحت خاصة وليست عامة. فالجزار يستهدف المشايخ فقط وليس عموم الأهالي. وعمليات النهب التي تمت استهدفت أملاك المشايخ وأسَرهم نساءً ورجالاً دون أن يظهر على الأهالي أي رد فعل عنيف، وهذا مستغرب ويبدو غير مفهوم ولا مقبول من شعب تمرس الحرب مدة طويلة. فالذين يجتمعون بعشرات الآلاف بسبب طلق ناري أطلق خطأً على واوي، أصبحوا لا يبالون وهم يرون رجالاً يقتادون للإعدام، ونساءً يؤخذن سبايا للبيع في أسواق النخاسة. هناك شيء لا شك غامض في هذه الأحداث استوجب إعادة قراءة النصوص التي تحدثت عن هذه المرحلة مع ترك الجوانب العاطفية جانباً.

بالعودة إلى فترة حكم الجزار وتبدل المواقف فقد اجتمع الجزار سنة ١٧٧٦ بعيد تكليفه بالولاية مع الشيخ حمد بن عباس العلي حاكم منطقة ساحل معركة (بما فيه مدينة صور) وأعطاه التطمينات على استمرار الاوضاع كما هي. ثم اجتمع معه بوجود الشيخ ناصيف الذي أصبح لمدة خمس سنوات متتالية يسير كما يريد الجزار دون مشكلات،

ولم يحدث في أثناء ذلك أي تعد من جيش الجزار لا ذهاباً ولا إياباً. ولم يُسمع بأن أتباع الجزار المجمّعين من شذّاذ الآفاق قد ارتكبوا أي عمل ضد العامليين وهم مجاورون لهم وعلى طريقهم كيفما اتجهوا. كما شاركهم العامليون في حروبهم وغزواتهم ضد بعض مناطق فلسطين وضد والي الشام ومن معه من حكام جبل الدروز ووادي التيم. كانت إحدى المشكلات الأساسية الطارئة هي مسألة دفع الميري للدولة، وكان قد اتفق على دفعها بشروط عادية. ومرت سنوات دون تعديل ذلك حتى وقعت بعض الأحداث التي لها علاقة مباشرة بسلطة المشايخ. فقد توفي الشيخ محمود النصار (أبو حمد) شقيق الشيخ ناصيف في معركة في الجولان سنة ١١٩٣/ ١٧٧٩ وكان له تأثير بالغ في سير الأعمال السياسية والحربية للشيخ ناصيف. كما توفي الشيخ عباس العلي سنة ١١٩٥/ ١٧٨١ وكان على علاقة طيبة بالجزار. في نفس الوقت الذي كان فيه الشيخ قبلان حاكم قلعة هونين يشعر بأنه أهين لاستبعاده من الاجتماعات التي كانت تحصل بين الجزار ومشايخ بلاد بشارة، مما دفعه للقيام بحركة ما للقضاء على نفوذ الشيخ ناصيف.

وسواءاً كان الجزار قاصداً القضاء على الشيخ ناصيف أم لا فإن الحادث وقع وقتل الشيخ ناصيف، وعند ذلك تحركت قوات الباشا للسيطرة على القلاع، فتسلمتها دون حوادث ولا مقاومة باستثناء قلعة الشقيف. وأخرجت عائلات المشايخ من هذه القلاع ووضعت فيها حاميات عسكرية تابعة للباشا مباشرة. أما الضرائب التي كان يجبيها المشايخ فقد أصبحت تجبى بواسطة المتسلم التابع للباشا فخسر المشايخ وعائلاتهم كل المكاسب التي حصلوا عليها سنة ١٧٤٩ دفعة واحدة. واضطروا إلى الفرار خوفاً أو طمعاً إلى أماكن خارج سلطة الجزار من أجل طلب العون لاستعادة امتيازاتهم المفقودة. فاتجهوا أولاً إلى باشا دمشق ومنهم من أقام في مشغرة بانتظار الفرج. بينما التحق بعضهم لاجئاً في بعلبك أو في عكار. وفي أثناء ذلك لم يظهر من أهالي جبل عامل عامة وبلاد بشارة خاصة أي حركة تمرد أو عصيان على حكم الجزار. وكانوا يدفعون الميري في قلعة تبنين أو هونين مباشرة. وأكثر من ذلك فقد أعطى الجزار الأمان للعالم السيد محمد بن موسى الأمين جد آل الأمين ومنحه رتبة «مفتي بلاد بشارة» فتكفل بطاعة البلاد للجزار

ووضع أحد أبنائه رهينة عنده في عكا[١]. وقد حصل المفتي محمد الأمين على مكاسب مادية مقابل ذلك. إن وجود منصب «مفتي بلاد بشارة» لعالم دين شيعي جعفري هو من الأمور التي تقلب الصورة عن حكم الجزار والدولة العثمانية وما قيل عن ممارسة الاضطهاد المذهبي للشيعة. ولا يمكن فهم بعض ما حدث من جور واضطهاد إلا على أساس مختلف، فالدولة العثمانية عانت من تخلف عقائدي واجتماعي منذ نشأتها والتزام سلاطينها وأمرائها العمل كزعماء قبائل الأتراك الغز الذين عاشوا حياة القسوة في كل تفاصيل حياتهم في تركستان قبل رحيلهم غرباً في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي هرباً من التتار. فاستمروا في نفس الطريقة من العيش الذي ألفوه. وقد يبدو جلياً أن الاضطهاد قد مارسه العثمانيون على كل الشعوب والطوائف والمذاهب التي حكموها حتى داخل عاصمتهم اسطنبول، وكثيرة هي أخبار الفتن والحروب بين العناصر المدنية والعسكرية العثمانية التي كانت تنتهي بمذابح وتخريب وسلب وسبي... بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللون فقد تتساوى كل الشعوب العثمانية وتشترك معاً في تلقي الظلم.

لقد أدى الاستقرار النسبي الذي ظهر بعد مدة من نهاية حكم المشايخ في جبل عامل إلى حالة من الأمان العام ولم يكن ذلك بحال من الأحوال في مصلحة عائلات المشايخ التي فقدت امتيازاتها فتحرك بعض الوجهاء يدعون إلى عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل مقتل الشيخ ناصيف، وقد أدت هذه التحركات إلى اشتعال حرب عصابات قاسية عرفت عند العامليين بحرب الطياح التي أدت إلى الكثير من الخراب والظلم يرتكبه طرفي الأزمة الطيّاح وجيش الجزار.

يعتبر عهد الطياح، كما عرف عند بعض مؤرخي جبل عامل، من أسوأ العهود وأكثرها ظلماً في التاريخ العاملي، وقد امتدت الحرب فيها طيلة ثلاث وعشرين سنة ذاق فيها الأهالي الأمرين ووقعوا بين نارين، نار عساكر الجزار ونار الطياح. كان الطياح يطلبون من القرى الميري والذخائر فالقرية التي تدفع المطلوب منها تسلم من أذيتهم وشرهم والتي تتردد في ذلك أتوا إليها ليلاً ونهبوها وقتلوا مشايخها ثم يختفون بسرعة قبل قدوم العساكر.

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٩ ص ٦١.

كان على الجزار أن يواجه مثل هذه الحركة بحركة مضادة خاصة بعد أن صارت هذه الحركة تشكل خطراً على الجباية، عند ذلك أنشأ الجزار فرقة من الجند من رجاله الخاصين ومن أبناء جبل عامل، عرفت هذه الفرقة ب «السردلة» وأنيطت بها مهمة قمع الطياح والقضاء عليهم. كانت فرقة السردلة تفرض على القرى تموينها كما كانت تسخر الرجال في بعض المهمات الخطرة، فيما كان الطياح يراقبون تحرك رجال هذه الفرقة فيبقون على حذر منها، ويختفون من طريقها في الأحراش والأودية. وصار الأهالي يدفعون الميري والذخائر للمتسلمين والعساكر السردلة الذين كانوا يدعون بأنهم يحافظون عليهم من التعديات. هذا إلى جانب ما كانت تعانيه البلاد التي يمر عليها هؤلاء من أعمال السخرة ومصادرة الغلال والمواشي والدواب، كما كانوا يدفعون الميري والذخائر للمشايخ المذكورين (الطياح) بحجة أن البلاد بلادهم وأهاليها عبيدهم[1].

كان الجزار بعيد سيطرته على جبل عامل قد جعل مقر الحكم فيه في مدينة صور حيث أقام فيها مملوكه سليم، كما أرسل متسلماً أقام في قلعة تبنين حاكماً عسكرياً مطلق الصلاحية. وبعد أن لاحظ تراجع الجباية من المنطقة بسبب توقف الحركة التجارية وتعطل الزراعة خصوصاً في مدينة صور وما حولها راح يتودد لشيخ صور حمد العباس حتى أقنعه بالعودة إليها، وبعد أن دخل في طاعته منحه التزام قرى بالقرب من صور مقابل ألفي قرش كرسم سنوي[2]. لكن هذا الشيخ ظل مع سكان إقطاعه المستحدث (ساحل صور أو ساحل معركة) يترقب الفرصة المناسبة للعودة إلى ما كان عليه في الماضي من امتيازات بعد التخلص من الجزار، والعودة إلى حكم منطقته بحرية. وظن أن حلمه بات وشيك التحقيق حين انتشرت إشاعات في البلاد تزعم أن الباب العالي سيرسل حملة بحرية وبرية للقضاء على الجزار. وفي الثامن من أيار سنة ١٧٨٢ مرّت في أعالي ساحل صور البارجة الفرنسية أورور (Auror) برفقة سبعة عشر مركباً تجارياً فظن أهالي صور أن الحملة العثمانية المنتظرة قد وصلت. واندفع الشيخ حمد بحماس يعبىء أنصاره في صور للإنقضاض على قوات الجزار ويتهيأ لمعركة فاصلة قريبة. لكن أنباء تحركات

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ص ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨.

الشيخ حمد سرعان ما وصلت إلى الجزار فتحركت قواته على الفور. وفيما كان الشيخ حمد ينتظر الفرج إذا بقوات الجزار تداهمه، فاعتقل واعتقل معه أخوه حسين وعددٌ من أتباعه واقتيدوا إلى عكا حيث وضعوا في أحد سجونها.

٥ - ثورة شحور

تحولت حركة الطيّاح في سنة ١١٩٧/ ١٧٨٤ إلى حركة عسكرية شاملة، فقد استغل المشايخ الأزمة بين أحمد باشا الجزار والأمير يوسف الشهابي للقيام بأعمال عسكرية قتالية في جبل عامل. ولا يستبعد أن يكون للأمير يوسف يد في تحريك جماعة الطيّاح ومدها بالسلاح والذخائر لإعاقة أعمال الجزار الذي كان قد بدأ يحشد جنوده للهجوم على جبل الشوف. كما يمكن أن يكون لوالي دمشق يد في ذلك إذ أن عدداً من المشايخ قد عاد من دمشق وتجمعوا في جبل عامل مشكلين قوة قوامها ستماية فارس، كانت هذه الجماعة بقيادة الشيخ عقيل ناصيف النصار، يعاونه القائد مرعي فتوني.

في نفس الوقت تحرك الشيخ علي الزين الشحوري (نسبة إلى قرية شحور) وهو عالم دين بارز، ودعا أبناء البلاد إلى اجتماع عام في شحور لبحث الوضع القائم في البلاد الذي لم يعد يطاق، فاستجاب لدعوته حوالي ألف من الفلاحين الناقمين والمسلحين تسليحاً بدائياً، والظاهر أن هؤلاء فقط هم الذين تجرأوا على الاستجابة لدعوة الشيخ علي الزين، أو أن هؤلاء كانوا من أنصار المشايخ فلبوا النداء. فيما ظل أكثر أهالي البلاد بعيدين عن هذه الحركة. اقترح الشيخ علي الزين تشكيل قيادة أسرية من أولاد المشايخ وارتأى أن يقدّم المجتمعون عليهم الشيخ حمزة محمد النصار، الذي لم يظهر من تصرفاته تلك الحكمة التي كان يتمتع بها الشيخ ناصيف وأخوه الشيخ محمود النصار. إذ سرعان ما حرّك الشيخ حمزة أتباعه دون تبصر بالعواقب ودون استعداد جدي لمواجهة جيش الجزار المسلح والمدرب والموجود على مسافة غير بعيدة عن شحور. أمر الشيخ حمزة أتباعه بالاستعداد لهجوم عام على جنود الجزار لتخليص البلاد منهم.

وجرى الاتصال بين جماعتي الثورة أي الشيخ علي الزين وحمزة النصار من جهة والشيخ عقيل ومرعي فتوني من جهة ثانية للقيام بهجوم في وقت محدد.

كان جيش الجزار حينئذ يستعد للقيام بهجوم على جبل الدروز وقد احتشد في صيدا بكامل عدده وعتاده وتحرك في ٢ حزيران سنة ١٧٨٤ من صيداً صعداً نحو أقليم الخروب قاصداً جبل الشوف لمحاربة الأمير يوسف. بينما لبث الجزار في صيدا وهو يراقب الأوضاع عن كثب، فوصلته الأخبار عن حركة حمزة النصار والشيخ علي الزين في شحور على مسافة أقل من مسير يوم من صيدا. فأرسل يطلب من جيشه الزاحف على الشوف بالعودة سريعاً، ثم وجهه نحو جبل عامل.

بدأ الشيخ عقيل الناصيف هجومه على تبنين، وتمكن من اجتياح قلعتها وقتل المتسلم فيها، وأباد أكثر رجال الحامية ومعظمهم من المغاربة، ، بينما هرب الكاتب (وهو من بيت الأيوب) بالدفاتر منها إلى صيدا.

في ٤ حزيران، أي بعد يومين فقط، وصلت قوات الجزار وبدأت فوراً بالهجوم على شحور وعلى أربع قرى قريبة منها، حيث قامت مدفعية الجزار بتدمير هذه القرى تدميراً تاماً، وهُزِم الفلاحون العامليون بعد أن سقط منهم أكثر من مائتي قتيل وأسر عدد كبير منهم من بينهم الشيخ حمزة النصار واقتيدوا إلى مدينة صيدا مع رؤوس القتلى التي علقت خارج أبواب المدينة، واحتفل الجزار وجنوده بالنصر المبين الذي أحرزوه، وأمر بأعدام الشيخ حمزة على الخازوق في واحدة من طرق الجزار الكثيرة للتشفي من أعدائه.

شعر الأهالي بالخوف من جيش الجزار الذي استباح البلاد بعد معركة شحور، فراح الوجهاء يفرون نحو دمشق، كان على رأس الفارين أولاد ناصيف النصار واقرباؤه الذين وصلوا إلى العراق والتجأوا عند بعض القبائل هناك، وكان هؤلاء قد عادوا من منافيهم في دمشق ومشغرة قبل حين، أو كانوا باقين في جبل عامل ولم يغادروه. لكنهم اضطروا بعد معركة شحور إلى الجلاء. أما الشيخ علي الزين الشحوري فقد فر نحو العراق ثم انتقل إلى إيران ومنها إلى الهند حيث يقال بأنه بلغ بها مرتبة عالية عند أحد ملوكها المسلمين.

وفر الشيخ عقيل من جديد إلى دمشق ثم ارتحل مع نسيبه الشيخ قبلان إلى العراق حيث ذكر أن الشيخ قبلان توفي بعيد وصوله إلى بغداد سنة ١١٩٩/ ١٧٨٤ وهي نفس السنة التي تولى فيها الجزار ولاية دمشق.

كانت معركة شحور معركة فاصلة بين العامليين والجزار، كان انتصار الجزار فيها حاسماً فلم يسمع بعدها بأي حركة للعامليين ضد الجزار. لقد أصبح المتسلمون جميعهم غرباء عن البلاد، واستكان الفلاحون العامليون للأمر الواقع أو رضوا به قانعين طيلة العشرين سنة التالية.

مما لا شك فيه أن الوضع السياسي في جبل عامل قد وصل إلى الحضيض، ولم تبق فيه زعامة سياسية وإن بشكل عرضي، يمكن أن تتولى بعض الأمور الداخلية، حتى جباية الإتاوات التي كان يفرضها الجزار على الأهالي لم تعد تجد من الوجهاء من يقوم بها خاصة بعد أن قضى الجزار على معظم الرجال الذين كان يظهر عليهم أنهم يتمتعون باحترام وإن صغير، من الأهالي. مما اضطر علماء الدين للقيام بهذا الدور كما مر عند ذكر الشيخ علي الخاتوني[١]. وحتى هذا العالم جرى اضطهاده لاحقاً لأنه اعتبر ممثلاً لشكل من أشكال الزعامة السياسية، فصودرت مكتبته الضخمة التي كانت تضم آلاف المخطوطات والكتب العاملية وجرى إحراقها وإحراق مكتبات أخرى كثيرة.

استحصل الجزار أثناء حكمه لمملوكيه سليم وسليمان على رتبة الباشاوية من السلطان، فعملا له واليين على بعض الاماكن أو اثناء غياب الجزار خصوصاً مع قافلة الحج التي قادها بضع مرات، وكان هذان القائدان يراقبان ما يجري دون أن يبدو أنهما في وارد تغيير الواقع الذي فرضه الجزار المتمتع بتأييد لا حدود له من السلطان.

كان الواقع مظلم، لا أفق فيه ولا يبدو له نهاية، وأهل جبل عامل أكثر الجماعات التي تحملت أعباء اضطهاد الطاغية، تنتظر الفرج من أي جهة جاء. وفي سنة ١٧٩٨ بدأت رياح التغيير تهب على المنطقة انطلاقاً من أوروبا، فبوصول القائد الفرنسي نابليون بونابرت إلى مصر اهتزت الصورة التاريخية للسلطنة العثمانية، وفقدت هذه الدولة ذلك البريق القديم الذي يختزل قروناً من الفوضى والظلم المتراكم.

وفي شباط سنة ١٧٩٩ دخلت قوات نابليون بلاد الشام من جهة الجنوب واستولت على العريش في ٢٠ شباط ثم انطلقت منها نحو المدن الفلسطينية الساحلية. بدا للحظة

(١) المصدر السابق ص ٢٧٩.

من الذهول أن هذا القائد الذي يسير جيشه بنظام على قرع الطبول قد جاء ومعه الحرية المنتظرة للمعذبين. واستفاق العامليون على واقع جديد، لكنهم كانوا عاجزين عن التحرك بسبب عدم وجود قائد يمكنه تجميع الناس من حوله، لذلك حاول العامليون تقديم المساعدة للفرنسيين بأشكال فردية، وعبروا عند تعاملهم التجاري معهم عن ترحيبهم بنابليون وجنوده، أو عن حقدهم على السلطنة وباشاواتها.

يقول بازيلي حول ما جرى: «كانت القبائل (الجماعات الطائفية والقبلية) تنظر بفضول بارد إلى الحرب بين الجزار ونابليون، أو حتى أنها كانت تتعاطف مع الفرنسيين إن لم يكن حباً بهم فنكاية بالجزار. وحتى أن متاولة صفد الذين عانوا فظائع الطاغية أكثر من الجميع أتوا إلى معسكر الفرنسيين تحت قيادة الشيخ صالح أحد أحفاد ظاهر العمر الذي كان مشهوراً بموهبته الشعرية أكثر مما هو مشهور ببسالته الحربية، والشيوخ الآخرون الأكثر موهبة لم ينجوا من ملاحقات الجزار. إن القبائل السورية لا تستطيع بطبيعتها التحرك بدون الشيوخ ولهذا فإن قبائل المتاولة مع كل استعدادها للانضمام إلى أي كان للتخلص من طاغيتها كانت أشبه بالمشلولة ولم تستطع تقديم عون يذكر للفرنسيين»[1].

وصل نابليون إلى ظاهر عكا في ١٨ آذار ١٧٩٩ ففرض عليها الحصار من جهة البر، وكانت مدفعية الاسطول الإنكليزي تساعد الجزار من جهة البحر مما حرم نابليون من فرصة ثمينة للانتصار. وبعد سبعين يوماً من الحصار، وبعد أن ظهرت إصابات عديدة بالطاعون بين الفرنسيين، اضطر نابليون للتراجع عن عكا في ٢٠ أيار سنة ١٧٩٩.

كان ذلك نصراً مبيناً للجزار، وكارثة مروعة للعامليين الذين انصبت عليهم نقمة الطاغية، حيث ذكر الشيخ السبيتي أنه: «لما رأى الجزار أهالي البلاد من بلاد عكا وجبال عاملة يحضرون الحطب والدجاج والبيض وسائر الأمتعة للإفرنج كفر بهم بعد ذهاب العسكر، وأهلكهم قتلاً وحبساً مع الأعمال الشاقة من حفر وبناء حتى أهلك الحرث والنسل، ومع ذلك كان يعذبهم في الحبوس بتسليط الكلاب والقطاط والمكاري

(١) قسطنطين بازيلي: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٧٧ -٧٨.

وضرب مقامع الحديد. وكان لهم معذبون كراد (أكراد) عليهم رئيس يسمى طه يزيدي يقول بروح الشر وأن العظم هو الشيطان ويسبوا من سمعوه يسب الشيطان ولا سيما وهو كلمة خفيفة على ألسنة العامة. وكان من يأمر الجزّار بقتله لا يقتل بدون عذاب حتى تزهق نفسه»[١]. وفر بعض العامليين نحو جبل الدروز علهم يجدون الأمان والحماية عند الأمير بشير الشهابي لكنهم وجدوا بشيراً وأهل إمارته يعانون الويلات من سيف انتقام الجزار المسلط عليهم[٢].

وازداد الجزار غطرسة عندما حصل على بشالك دمشق مرة أخرى سنة ١٨٠٣ متكفلاً قافلة الحجاج لذلك العام، فعهد بالقافلة إلى مملوكه سليمان باشا. وكان سليمان باشا قد وقع تحت غضب الجزار بسبب فضيحة الحريم التي اتهم بها مع عدد من المماليك والخدم، مما اضطره للهروب، حيث قضى بضع سنوات يتنقل في مضارب البدو حتى حصل على عفو الجزار ورضاه.

وفي نيسان سنة ١٨٠٤ توفي الجزار فتنفس الناس الصعداء، من حماة إلى دمشق إلى جبال لبنان إلى نابلس، كان موت الجزار موتاً لحقبة تاريخية وبداية لحقبة جديدة مختلفة.

ربما يعزو البعض التغيير الذي حصل في تلك الآونة إلى الحملة الفرنسية، وفي ذلك كثير من الواقع، لكن الجزار نفسه كان جزءاً مهماً من أسباب التغيير، فقضاؤه الغاشم على زعماء تاريخيين في المنطقة قد فتح الباب واسعاً لبروز زعماء جدد لا يحملون ذلك العمق التاريخي الذي كان يستند عليه الحكام السابقون، مما كان يعني إعادة بناء سياسي واجتماعي فيه كثير من الاختلاف عن الماضي. وحتى في بعض الأحيان التي استند فيها بعض الوجهاء الجدد إلى أرومات تاريخية، فإن زعامتهم، خصوصاً في جبل عامل، ظلت محصورة في مناطق محدودة لا تساعد أصحابها على بلوغ الدور الريادي الذي بلغه الزعماء العامليون قبل عهد الجزار.

---

(١) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٤٥٣.

(٢) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٨٣.

ملاحظات حول التأريخ لعهد الجزار:

يكاد الكتّاب والمؤرخون الشيعة يجمعون على ذم المرحلة التي حكم فيها الجزار ويصفونه بأبشع الصفات باعتباره الطاغية والقاتل والمخرب وناهب القرى، وهم في ذلك بالإجمال على حق. فالجزار عثماني أصيل ووفي للشريعة العثمانية التي دأب فيها الباشاوات طيلة فترة حكم الدولة العثمانية على اتباعها. فالجيش بمختلف تشكيلاته (إنكشارية، قباقول، لاوند، سردلة...إلخ) كانت تتبع نهجاً واحداً في التعامل مع رعايا السلطنة مهما كان دينهم أو لونهم أو عرقهم. لكن بعض الكتابات عن عهد الجزار لا تبدو مستقيمة مع الأحداث ويمكن أن يكون لها شكل مختلف عن ما نسب إلى الجزار. من الأمثلة على ذلك ما قيل عن حرب «الطيّاح» أو ما يسميهم البعض ب «الثوّار». وما وقع فيها من مظالم على العامليين من أولئك الطيّاح الذين ظهرت منهم قسوة وظلم ضد الأهالي أسوأ مما أظهره جيش الجزار «السردلة». فلمن كان هؤلاء «الثوار» يعملون؟ ولمصلحة من ظلموا أبناء بلدهم؟ يروي بعض المؤرخين عن أحداث تلك الحقبة: «عانت بلاد عاملة كثيراً من هجمات أولئك الطيّاح لأنها وقعت بين نارين نار متسلمي الجزّار وجنوده ونار الثوّار. فكان الباشا يرسل متسلميه وجنوده السردلة لملاحقة العصاة، فيعيثون في البلاد فساداً ويضيقون على السكان. ويغير الثوّار على القرى فيسلبون وينهبون ويحرقون ما يصادفهم من أمتعة ثم يفرون في بطون الأودية أو يعتصمون في قمم الجبال»[(١)]. إن تصوير الأحداث بهذا الشكل يعني أن الثورة لم تكن ثورة الشعب العاملي بل حركة عصيان وتمرد لبعض أولاد المشايخ وأزلامهم وهذا ما أدى إلى فشلها.

جملة خطيرة نقلها بعض المؤرخين تثبت أن الطيّاح وزعماؤهم كانوا أشد فتكاً بالأهالي من جيش الجزار وقد نقل الفقيه عن دراسة للدكتور حسين سليمان هذه الجملة بقوله: «وكان الأهالي يدفعون الميري والذخائر للمتسلمين والعساكر السردلة الذين كانوا يدّعون بأنهم يحافظون عليهم من التعديات، هذا إلى جانب ما كانت تعانيه البلاد التي يمر بها هؤلاء من أعمال السخرة ومصادرة الغلال والمواشي والدواب. كما كانوا (الأهالي)

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٧٠.

يدفعون الميري والذخائر للمشايخ المذكورين وأتباعهم بحجة أن البلاد بلادهم وأهاليها عبيد لهم»[١]. وهذا التعبير «أهاليها عبيد لهم» لا يستقيم مع الواقع العاملي. فأهل جبل عامل الذين امتدحهم الكاتب كثيراً لتعلقهم بالحرية وعشقهم لها قد كتب تعبيراً خطيرا في اعتبارهم عبيداً لبعض مشايخ العائلات الفارين. وربما، بسبب هذا الفهم للعلاقة بين الشعب والمشايخ قد ابتعد جمهور العامليين عن المشايخ واستكانوا لحكم الجزار الذي بدا أقل وحشية من «استعباد» المشايخ لهم.

وقد تبدو هذه الأمور بهذا الشكل مفهومة إذا ما اقترنت ببعض الحقائق التاريخية. فبعض المصادر تذكر أنه قد: «خشي المشايخ من حركة الجزار ففروا بعيالهم. وشعر والي صيدا (الجزار) أنه لن يستفيد من أهمية هذه البلاد الاقتصادية ما لم يبادر إلى إعادة سكانها ، فأذاع في صور وفي كل الامكنة التي لجأوا إليها أن بامكان جميع الذين خرجوا العودة إلى صور دون خشية أو خوف سواء منه أو من أي شخص آخر[٢].

كما أن الباشا حين حاصر قلعة الشقيف رفض الشيخ حيدر الفارس تسليمها إلا إلى الجزّار مباشرة، فجاء وتفاوض معه وأعطاه الأمان له ولمن معه، وقد شدد الجزار فيما بعد على الوفاء بالأمان وأذاع بذلك منشوراً. لكن الشيخ حيدر الفارس عاد فانتقل إلى الشام ثم إلى مكان آخر طلباً للمعونة لاسترجاع امتيازاته التي حرم منها.

كذلك يلاحظ أنه بعد هجوم عقيل الناصيف على تبنين وقتله المتسلم وثورة حمزة المحمد والعالم علي الزين الشحوري قام جيش الباشا بالهجوم على شحور حيث تمكن من اعتقال حمزة المحمد ومعه أكثر من تسعماية رجل وحال وصولهم إلى صيدا أمر الباشا باعدام الذين قتلوا بعض جنوده وحرضوا على الثورة، وهم ثلاثة أشخاص بينهم حمزة المحمد النصار. ثم أمر بالإفراج عن باقي الأسرى.

أما حادثة بيع النساء والأطفال فهي حادثة وحيدة وقعت في مدينة صور عندما تحرك مشايخ المدينة ومعهم بعض الأنصار في ثورة ضد الباشا دونما سبب واضح ورغم

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٦ نقلاً عن حسين سليمان.

التعهدات السابقة بالمحافظة على الأمن. فقد سمع مشايخ صور إشاعات بأن الباشا سيعزل من منصبه وأن الأسطول العثماني قادم إلى عكا لهذه الغاية. وحين رأوا بعض السفن التجارية الفرنسية تمخر البحر مقابل صور ظنوا أنه الأسطول العثماني القادم لعزل الجزار فتحركوا للثورة. وكانت نتيجة ذلك قيام جيش الباشا باعتقال عدد كبير من المتآمرين جرى إعدامهم لاحقاً على فوجين في عكا بينما أخذت نساؤهم وأولادهم سبايا. وَمَن فرّت منهن اضطرت إلى الاستعطاء للعيش.

وفي مظهر آخر من مظاهر عهد الجزار وما جرى فيه من أحداث يمكن التساؤل عن السبب والمغزى من تعيين مفتي شيعي جعفري في بلاد بشارة. فقد ذكر السيد محسن الأمين أن جده الملقب بالأمين وهو «السيد» محمد بن موسى (ت ١٢٤٢/ ١٨٢٦) «تقلد منصب الفتوى من قبل الدولة العثمانية بعنوان مفتي بلاد بشارة ، وكان لهذا المنصب إقطاع من قبل السلطان أعطي لكل من تقلد منصب

الفتوى من أولاده[1]. ولو أخذ بعين الأعتبار أن السلطنة العثمانية كانت تحارب أو تضطهد الشيعة لما سمحت بوجود مفتي في بلاد بشارة يقيم مذهبهم. وهناك بعض الوثائق التي ذكرها الأمين حول ذلك الإقطاع الملحق بهذا المنصب والذي يشمل قسم من أراضي قرية شقرا إضافة إلى قرية الصوانة[2]. وقد تعاون المفتي محمد الأمين مع الباشا وأخلص له «وتكفّل طاعة البلاد للجزّار فإنه بعد قتل (الأمير) ناصيف بن نصّار في وقعة يارون المعروفة بين العامليين والجزّار...إلخ»[3]. ورغم أن السيد محمد بن موسى الأمين كان من سكان بلاد بشارة وقريته شقرا تتبع مباشرة لقلعة تبنين (أي للشيخ ناصيف) أي أنه قد رأى ما فعله جيش الجزار بعد معركة يارون، فإنه بلا شك وجد حجة لمساعدة الجزّار على حكم البلاد. وهذا يثبت أحد أمرين: إما أن محمد الأمين قد خالف ما أجمع عليه أهل بلاد بشارة من العداوة للجزار ومقاومته وهذا يعني الخيانة، وهذا مستبعد جداً من عالم جليل كالسيد محمد الأمين. وإما أن ما قيل عن الجزار وجيشه كان مبالغاً فيه وأن

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٩ ص ٦٢-٦٣.

(٢) المصدر السابق ج ٩ ص ١٣١-١٣٢.

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٩ ص ٦٣.

ما جرى كان يستهدف فقط المشايخ الذين استولوا على القلاع والأبراج دون باقي الناس. فلم يبالِ أحد بما جرى، واستمرت الأمور عادية حتى ظهور الطيّاح وهذا هو الأرجح.

على أن ذلك لا يمكن أن يعني أن الجزار لم يكن عثمانياً أو لم يمارس الأخلاق العثمانية بكل صورها. فهو أمر بالقتل والنهب والتخريب والتحريق... إلى آخر المنهج العثماني التقليدي ومن صوره تلك التي ذكرت عمّا فعله بأهل جبل عامل سنة ١٢٠٨/ ١٧٩٩ ردّاً على الطيّاح فقد « فتك الجزار بأهالي بلاد بشارة وقتل منهم جماعة خنقاً في الحبس ومنهم سلمان البزي وكفل البلاد لأهلها»[١]. وكثير من هذه الصور أيضاً قيلت عن الجزار في دمشق ونابلس وحماة. فلاقى هؤلاء ما لاقى أولئك من عسف وظلم واضطهاد.

٦ - عهد ما بعد الجزار:

في سنة ١٢١٩/ ١٨٠٤ هلك الجزار وخلفه سليم باشا أحد مماليكه، فالتاث عليه الجند وقتلوه ونصبوا مكانه سليمان باشا» هكذا اختصر الشيخ السبيتي أحداث سنة ١٢١٩/ ١٨٠٤. حيث تنفس الناس في جبل عامل وباقي المناطق الشامية الصعداء، فالجزار كان جزاراً حقيقة، ليس بسبب تعصب ديني أو مذهبي، ولا بسبب وفائه للسلطان، وإن كان حقيقة وفياً له.

وفي الخبر الذي نقله السبيتي خطأ في الأسماء، فالذي تولى السلطة مباشرة بعد موت الجزار هو مملوكه الشاب إسماعيل باشا وليس رفيقه القديم سليم باشا. كان الجزار قد غضب على مملوكه إسماعيل فأمر به إلى السجن. وتوفي الجزار وإسماعيل سجيناً، ثُمَّ أخرج بسعي من خازن الجزار حاييم وعين والياً على عكا.

في تلك الأثناء وصل والي حلب على رأس جيش ولايته إلى دمشق، فانضم إليه واليها سليمان باشا العائد من الديار المقدسة مع قافلة الحجاج، كما تحرك الأسطول العثماني في البحر بقيادة القبودان باشا، فيما هرع مبعوث خاص من قبل السلطان يدعى راغب أفندي لحجز خزائن الجزار المتخمة بالأموال.

---

(١) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٤٥٣.

تمكن المبعوث راغب أفندي من الاستحصال على فرمان بتعيين سليمان باشا الذي كان ينتظر في الناصرة، حيث تمكن في مدة انتظاره من أن يجذب إليه قبائل المتاولة العامليين وجبليي نابلس[١].

لقد تمكن سليمان باشا بخبرته التاريخية من التقرب إلى أبناء جبل عامل وحصل على دعمهم وتأييدهم لولايته وهم يستبشرون بنهاية السنوات العجاف التي قضوها تحت حكم الجزار. فَتَحْتَ حُكْمِ سليمان باشا استراح الشعب قليلاً من المحن القاسية التي عاناها زمن الجزار[٢].

بعد أن تسلم سليمان باشا ولاية صيدا رسمياً استعان بثلاثة رجال أحدهم حاييم اليهودي الصراف، والآخران حسن آغا البلارسان وعلي باشا، فاستبد هؤلاء الثلاثة بالأمور إلى حد بعيد.

كانوا ينظرون إلى مناطق ولاية صيدا خاصة جبل عامل، وما أصابها من خراب، فيدركون أن استمرار الأوضاع على ما هي عليه معناه خسارة خزينة الولاية لمبالغ كبيرة يمكن الحصول عليها فيما لو استقرت البلاد. لذلك كان من المهم الاتصال بزعماء الطيّاح بقصد التخلص من حركتهم وإلجائهم إلى السلم والاستقرار. وقد اختصر السبيتي ذلك ببضع سطور فقال: «فاستبد الثلاثة (حاييم وحسن آغا وعلي باشا) بتدبير البلاد ، فكان أول أمرهم أن صانعوا أولاد العشاير وأرضوهم وعوضوهم عن أملاكهم المغصوبة التي اغتصبها (الجزار) وردوهم إلى أوطانهم بعد التشريد، فبذلك استراحت البلاد من فسادهم (أولاد العشاير) أيام تشريدهم، ومن فساد عساكر الجزار. وهدأت الحال أيام سليمان باشا وعمرت البلاد عمراناً زائداً ونمت نمواً فائقاً فعمرت الأبنية وغرست الأشجار، وسار سيرة حسنة إلى سيرة حسنة إلى أن هلك»[٣].

لقد جرى الاتصال بزعماء الطيّاح بعد هدوء الأحوال، إذ أن هؤلاء كانوا ينتظرون

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٩١.
(٢) المصدر السابق ص ٩٢.
(٣) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٤٥٤.

ليروا ما ستؤول إليه الأمور. استدعى سليمان باشا الشيخ فارس الناصيف النصار ومحمد المحمود النصار وأظهر لهما الإكرام والعناية والرعاية، فاطمأنا له وطلبا منه إعادة البلاد إلى المشائخ كما كانت في عهدها الأول لأنهم توارثوها سالفاً عن سالف، ومدنوها وأوجدوا فيها المشاريع الحيوية المتعارفة في ذلك الزمان، كالقلاع والحصون والمرابط والقناطر والمعابد والبنيات والأسواق والآبار والمطاحن والأغراس، ومنها جفتلك رأس العين وقسم كبير من بساتين صيدا[١]. ويظهر من تركيب الخبر عند الشيخ الفقيه محاولة لاثبات استمرارية تملك شيوخ آل علي الصغير للبلاد، فليس هم من مدّنها ولا من عمّرها ولم يملكونها أصلاً ليتوارثوها «سالف عن سالف». وهذا الكلام يعود للكاتب وليس للشيخ فارس الناصيف ولا لابن عمه محمد المحمود، لان المطالبة ب»إعادة البلاد إلى المشائخ» هو تعبير غير واقعي فالبلاد كانت لأصحابها أهالي جبل عامل وليس لـ«المشائخ».

ويبدو أن الشيخين فارس ومحمد كانا يعتقدان بأنه يمكن العودة إلى الوراء، لكن الزمن كان قد تجاوز مرحلة وجود شيخ يحمل مواصفات كتلك التي حملها الشيخ ناصيف النصار. فالعلاقة بين أهل جبل عامل والمشايخ لم تكن دائماً ودية، ولم تكن الأسر الصغرى ترضى بأن تكون تحت وصاية شيوخ الأسر الكبرى، لقد اعترفت كل الأسر تقريباً بزعامة الشيخ ناصيف النصار، لأنه كان يحمل صفات الزعامة العربية التي لم تظهر إلا نادراً عند باقي الشيوخ والزعماء. بينما لم يعترف العامليون بزعامة الشيخ قبلان قريب الشيخ ناصيف، كما لم يتفقوا على زعامة أي من الشيخين حمزة النصار وعقيل الناصيف، ومن الواضح أن عامة العامليين هم من كان يختار الزعماء بطريقة الانتخاب أو الإختيار أو المبايعة على طريقة وجهاء العائلات وليس بسبب الوراثة أو ما يشبهها. فمن يعترف به العامة زعيماً يصبح هو الزعيم وليس من يفرض عليهم من أسرة معينة أو من قرية محددة، هذا إذا كان مبدأ الفرض قهراً ممكن في جبل عامل. وهذه الظاهرة استمرت في الشعب العاملي تاريخياً منذ أن عرف التاريخ العاملي فلا زعامة تقليدية أو وراثية بل زعامة مختارة لخصائل محددة يجب أن يمتاز بها من يريد أن يصل إلى هذا المقام. لقد

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٨٧.

كان من المحال العودة إلى الأوضاع التي سادت في عهد الشيخ ناصيف النصّار لأنه لم يكن هناك شخصية تشبه شخصية الشيخ ناصيف وتحمل صفاته، لقد كان ومضة تاريخية مضيئة نادراً ما تتكرر.

كان ما عرضه سليمان باشا على فارس الناصيف وابن عمه محمد المحمود هو أقليم الشومر فقط، وليس كل جبل عامل، وليس لآل النصار فقط، بل للأسر الثلاث الكبرى صعب ومنكر وعلي الصغير. واشترط عليه أن يقوم باقتسام قرى الأقليم بين تلك الاسر بشكل منصف، كما منع الزعماء الجدد من القيام بأي تحرك في بلاد بشارة (جنوب الليطاني) رغم أن هذه المنطقة هي بالذات منطقة زعامة ناصيف السابقة.

لقد نص الاتفاق الذي جرى بين الباشا وبين الشيخين فارس الناصيف ومحمد المحمود على إعطاء المشايخ مقاطعة أقليم الشومر على أن تستثنى منه قريتي الصرفند وانصار وقلعة ميس القريبة من الصرفند، (وليس في ميس الجبل كما قد توهّم البعض) على أن تعفى هذه المقاطعة من الضرائب المفروضة عليها. وتقدم خزينة الباشا مائتي كيس سنوياً (يساوي الكيس خمسماية قرش ذهبي) كما تدفع للزعماء الجدد ذخائر مرجعيون. وفي مقابل ذلك يتعهد الزعماء بتقديم ألفي مقاتل للباشا عند الحاجة.

يبدو الاتفاق كأنه منحة سخية من الباشا لهدف يسعى إليه، وهو عمران الولاية على عكس سلفه، وقد نجح سليمان باشا في ذلك نجاحاً بيناً وعندما توفي سنة ١٨١٨ ترك بلاداً عامرة عمراناً زائداً ونامية نمواً فائقاً كما مر ذلك منقولاً عن السبيتي. لكن أيضاً، ترك الباشا جبل عامل وقد خمل ذكر الزعماء فيه، فقط عادة الزعامة الأسرية في بعض القرى على شكل وجهاء عاديين، خاصة وأن القسم الاكبر من جبل عامل في بلاد بشارة وبلاد الشقيف وأقليم التفاح ظل يعيش في ظل متسلمين يعينهم الباشا مباشرة، ويتصرفون تصرف الموظفين الحكوميين الذين ينفذون ما طلبته الحكومة منهم، وقد استمر هذا النظام كما وضعه الجزار في عهد سليمان باشا دون أن يذكر وجود ظلم أو فساد في هذه المقاطعات طيلة عهده.

الملفت أيضاً في عهد سليمان باشا الذي امتد ١٤ سنة أنه لم تقع حروب مهمة ولا

غزوات، وكأن البلاد كلها في عهده قد جنحت للسلم. فقط يذكر سنة ١٨١٠ وقوع مواجهة بين سليمان باشا والي صيدا ويوسف باشا الكنج والي دمشق وقد حصلت تلك المواجهة بناء على طلب مباشر من السلطان الذي أوعز إلى سليمان باشا بمحاربة والي دمشق الذي تمرد على السلطان ورفض أوامره. وقد تمكن سليمان باشا الذي اصطحب في جيشه المتاولة والدروز (جبل عامل وجبل الشوف) من إرغام يوسف الكنج على الفرار ومعه خزائنه إلى انطاكية، ومن هناك انتقل إلى مصر والتجأ إلى محمد علي باشا، على أمل أن يساعده في الحصول على رضا السلطان لكنه توفي في مصر تاركاً خزائنه لمحمد علي[1].

كان سليمان باشا قد سعى في حياته للحصول على رتبة باشا لمملوكه علي الذي كان مقرباً منه جداً، ويقود جيش الولاية، وتوفي علي باشا تاركاً ابنه عبد اللّه في عهدة الباشا المسن، حيث تمكن عبد اللّه المذكور من انشاء حزب من المماليك، ساعده لاحقاً في الوصول إلى كرسي الولاية بالاتفاق مع الصيرفي حاييم الذي قدم للباشا الجديد كل الامكانيات المادية والسياسية التي ساعدته في المحافظة على سلطته.

كان عبد اللّه باشا فوضوياً لا يستقر على حال في سياسته، وارتكب أخطاءًا كبيرة وخاض حروباً كثيرة كان أخطرها تلك التي شنها مع تابعه الأمير بشير الشهابي ضد والي دمشق درويش باشا، مما اضطر السلطان لتوجيه جيش كبير لقمع عبد اللّه باشا وعزله، وقد تمكن هذا الجيش من محاصرة عكا، فطلب الباشا العفو من السلطان، وتعهد بأمور كثيرة فانسحب الجيش الذي كان يحاصر عكا ليعود عبد اللّه باشا إلى ألاعيبه القديمة، مما اضطر الباب العالي لإرسال جيشه للمرة الثانية لمحاربته. هذه المرة تدخل والي مصر محمد علي باشا حيث كان لوساطته أثرٌ على الأحداث اللاحقة، لأن النزاع مع عبد اللّه باشا سيكون الذريعة التي دخل الجيش المصري فيها إلى الشام.

(١) قسطنطين بازيلي اسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٩٣

الفصل الخامس عشر

الحملة المصرية ونتائجها

١ - حملة ابراهيم باشا المصري

٢- اصلاحات ابراهيم باشا

٣ - مقاومة الوجود المصري

٤- حركة حسين شبيب النصار

٥ - نهاية الحكم المصري

٦ - الشيخ حمد المحمود

٧ - الشيخ علي الأسعد المحمد

١- حملة ابراهيم باشا المصري

بعد خلافات بين عبد اللّه باشا والي عكا (ولاية صيدا) ومحمد علي باشا القابض بقوة على مصر تحرك جيش مصري باتجاه فلسطين. ففي أواخر تشرين الأول ١٨٣١ عبرت صحراء سيناء قوة خيالة نظامية تضم تسعة آلاف فارس وبطاريتان لمدفعية الميدان وألف بدوي. كانت هذه الحملة بقيادة كوجوك ابراهيم باشا ابن شقيق محمد علي باشا. وفي نفس الوقت أبحر إلى شواطىء الشام أسطول مصري من سبع فرقاطات وثلاثة وثلاثين مركب حربي وقوة إنزال من سبعة آلاف جندي. كان القائد العام لهذه الجيوش ابراهيم باشا ابن محمد علي ومعه عدد من الضباط الذين اكتسبوا خبرات قتالية في جزيرة العرب وفي جزيرة المورة في اليونان. ورافقه الضابط النابليوني سليمان باشا الفرنساوي (الكولونيل سيف). كان حاكم مصر قد حصل على وعد من الباب العالي باعطاء ولاية دمشق لابنه ابراهيم لقاء مساعدة الدولة في القضاء على تمرد في جزيرة المورة. وبعد أن أنهى الباشا مهمته في جزيرة المورة انتظر أن تفي الدولة له بما وعدت فلم تفعل. عند ذلك تذرع محمد علي بالأموال التي كان قد دفعها عن عبد اللّه باشا والي عكا أثناء وساطة بينه وبين السلطان وأمر جيشه بالاستيلاء على عكا.

استقبلت المدن الفلسطينية المصريين كمنقذين فسقطت غزة ويافا دون مقاومة حتى وصلت الحملة إلى حيفا فالتقت بالحملة البحرية ليتشكل قوة اقتحام كبيرة اتجهت تواً إلى عكا وفرضت عليها الحصار. وفي غضون ذلك تحركت قوات مصرية باتجاه صور وصيدا وبيروت وطرابلس فاستسلمت جميعها دون مقاومة. وهكذا سقطت مناطق جبل عامل بيد المصريين قبل أن تسقط عكا.

ربما تكون هذه الحملة العسكرية أهم حدث عسكري وسياسي في القرن التاسع عشر في سوريا بكاملها لما أفرزته من تطورات وأحداث هي في مجموعها تساوي العوامل التي أسهمت في تحول البلاد الشامية إلى منطقة للصراعات الدولية لا تزال مستمرة إلى

اليوم. وكذلك لما قدمته هذه الحملة من إصلاحات تنظيمية وإدارية في البلاد تركت آثارها البيّنة في التغيرات اللاحقة في الدولة العثمانية.

كانت أولى تحركات ابراهيم باشا السياسية هو ذلك المرسوم الشهير الذي ألغى بموجبه الرسوم والضرائب الكثيرة والمختلفة الأسماء على الأديرة والكنائس وأماكن العبادة لغير المسلمين، مما فسّر على أنه رغبة أكيدة عند ابراهيم باشا لإقرار نظام المساواة بين الرعايا دون الالتفات إلى المعتقدات الدينية، وهذا بحد ذاته يشكل بشرى للأقليات الدينية والمذهبية التي عانت كثيراً طيلة قرون من التفرقة.

بوصول الجيش المصري إلى ضواحي عكا يؤازره الأسطول المصري من جهة البحر، واجهه جيش الولاية الذي جمعه عبد اللّه باشا من كل الولاية بما فيها أبناء جبل عامل الذين شاركوا في معركة الدفاع عن عكا في موقعة البهجة، وهي حديقة أنشأها عبد اللّه باشا وجعلها بستان نزهة قرب المدينة.

كانت المعركة منذ البداية غير متكافأة فالقوات المصرية النظامية كانت تسير بنفس النسق النابليوني الذي جرب قبل ذلك في نفس المكان قبل أكثر من ثلاثين سنة. وبعد أن أطلقت المدفعية المصرية طلقات كثيفة نحو جيش الولاية بدأ رجال عبد اللّه باشا بالفرار، قسم منهم دخل إلى عكا، ولاذوا وراء الجدران والحصون القوية فيها، فيما تفرق رجال جبل عامل عائدين إلى قراهم وقد أدركوا سلفاً أن الحرب قد حسمت لصالح ابراهيم باشا المصري الذي دخل عكا دخول الفاتحين.

كانت الدولة العثمانية مترددة منذ البداية في مواجهة ابراهيم باشا وقد ردّت على استنجاد باشا عكا بأنه لا يجوز لعبد اللّه باشا أن يتوقع مساعدة عاجلة نظراً لعدم تمتعه بحظوة لدى الديوان»[1]. وهذا كان يعني ان السلطنة اعتبرت أن ما يفعله الغازي المصري شكل من أشكال الحروب والغزوات التي عادة ما تحدث بين الباشاوات وهو أمر قد ألفته السلطنة، لذلك تأخرت الجيوش العثمانية في التحرك حتى أن والي دمشق الجديد

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ١١٢.

علي باشا الذي حل محل سليم باشا وصل إلى دمشق دون جيش وبحاشية صغيرة[١]. وبعد وقت غير قصير كلفت السلطنة محمد باشا والي حلب ومنحته لقب سرعسكر العرب، وأمرته بجمع القوات. كما أمر باشاوات قيصرية ومرعش وسيواس بأن يسرعوا بالانضمام إلى باشا حلب، كانت أكثرية المحتشدين في هذا التجمع العسكري من الباش بوزق (أي الفرق غير النظامية) فكانت امكانية صمودهم أمام جيش ابراهيم باشا غير واقعية. وفي ١٣ حزيران سنة ١٨٣٢ استولى ابراهيم باشا على دمشق. وكان الأمير بشير الشهابي أمير جبل جبل الدروز قد انضم لابراهيم باشا مما جعل ولايتي عكا (صيدا) ودمشق بكاملهما تحت سلطة ابراهيم باشا. وفي أقل من سنة واحدة بعد ذلك استولى ابراهيم باشا على ولايتي حلب وطرابلس ووصل في فتوحاته حتى قلب الأناضول حيث وقع معاهدة في كوتاهية في ٤ أيار سنة ١٨٣٣ أتاحت له اعتراف السلطان بحكم سوريا.

٢- اصلاحات ابراهيم باشا

ومنذ دخوله إلى بلاد الشام شرع ابراهيم باشا بإعلان مجموعة من الإصلاحات راح يطبقها في المجالات الإدارية والسياسية في طول البلاد وعرضها. لكن الاصلاحات الإبراهيمية لم تكن لتروق في أعين أعيان البلاد من أبناء شيوخ العشائر لما لهم من امتيازات. قامت الإصلاحات في الأساس على إلغاء الإقطاعية وبالتالي حرمان زعماء القبائل والأسر من حقها في تجنيد وقيادة الجيوش الخاصة. كما حرم الإقطاعيين من مواردهم التي كانوا يجبونها من فلاحي إقطاعاتهم، ومن الرسوم التي تفرض على التجارة والعابرين، لذلك كان لا بد للاقطاعيين أن يواجهوا الاجراءات التي تحد من نفوذهم.

يمكن إعتبار أن الاصلاحات الرئيسية لتنظيم سوريا (بلاد الشام) الداخلي تكمن في لجم حقوق الإقطاعيين التي بقيت بلا مساس وتأصلت في ظل حكم الباشاوات السابقين. لكنها لم تعد تناسب أو تلائم الوضع الحكومي الذي يسعى ابراهيم باشا لتحقيقه، فتحول نظام الضرائب وتقديم هذه الضرائب إلى الخزينة مباشرة، ووجود جيش (ودرك وشرطة) نظامي مستعد دائماً للتدخل لدعم السلطات المدنية مما يبقى الشعب في حالة خضوع تام

(١) المصدر السابق ص ١١٩.

للنظام العام، قد حد بشكل كامل من ثقل طبقة الإقطاعيين وانتزع منهم كل مكتسباتهم الموروثة.

كان الأمراء في المناطق اللبنانية الذين يديرون مناطق بالوراثة كما في جبل الشوف، يحتفظون بزمر من الفرسان لاضطهاد الشعب بناءً على مشيئة الباشاوات والباب العالي. وعادة ما كان الباشا يطلب من أتباعه الشيوخ والأمراء الأشياء ذاتها التي يطلبها السلطان منه، أي دفع الإتاوة بانتظام وابقاء المنطقة في حالة خضوع دون البحث في الوسائل التي انتزعت بها الإتاوة وضمنت بها طاعة الشعب. ومن ناحية أخرى كان الباشا يستخدم إزاء أتباعه الوسائل نفسها التي يستخدمها الباب العالي الذي كان يعاقب الباشا المتمرد بباشا آخر أو تعيين خلف له مع تكليفه بمحاربته والاستيلاء على الولاية بالقوة. وكان الباشا بدوره يلجم الأتباع المتمردين الواحد بالآخر فكان بذلك يوقع حرباً أهلية دائمة في ولايته. وأمثلة ذلك كثيرة في قتال الشهابيين لبعضهم البعض وقتال القيسية واليمنية في بلاد الشام.

لكن جبل عامل قد فقد هذه الميزة أثناء حكم الجزار حيث اختفى شيوخ الأسر الكبرى من البلاد ولم يتبق لهم من ثقل سياسي إلا عبر جماعة الطيّاح. وعندما أجرى سليمان باشا المصالحة مع الشيخ فارس الناصيف وأتباعه لم يقدم لشيوخ العائلات الثلاث الكبرى (علي الصغير وصعب ومنكر) إلا أقليم الشومر بدون الصرفند وانصار. وبالتالي فإن ما كان ينطبق على أمراء وزعماء المناطق اللبنانية لم يكن يسري على جبل عامل.

في غضون أشهر معدودة من استيلاء ابراهيم باشا على سوريا تمكن من قمع الوجود الإقطاعي وأرسى البناء لقيام دولة مركزية سورية حديثة. لكن الأخطاء التي وقع فيها ابراهيم باشا كانت أمضّ وأقسى على الناس من الوضع الاقطاعي السابق مما استوجب قيام حركات تمرد كانت البذرة الطبيعية لحرب طائفية أمر وأدهى من حروب الباشاوات.

في البداية لم يستطع الإقطاعيون الناقمون القيام بأي حركة مسلحة ضد الباشا المصري الذي اكتسب تعاطفاً شعبياً قوياً على الأقل في العامين الأولين من حكمه، بعد أن رأى الناس انضباط الجيش المصري مقارنة مع الفرق التركية، لكن الأمور بدأت تسوء شيئاً فشيئاً حتى أدت إلى الانفجار والثورة في أماكن متفرقة من البلاد.

لقد انعكست التنظيمات الإدارية في العهد المصري وأشكال الضرائب التي فرضت على الأهالي على الحركة السياسية العامة اللاحقة. كان الباشا قد جمع الولايات السورية الأربع حلب وطرابلس ودمشق وصيدا مع بشالك أضنة في آسيا الصغرى في يدي حاكم واحد هو شريف باشا الذي اتخذ من دمشق مقراً له. وكان يحكم كل مدينة أو ناحية متسلم يكون تحت رئاسة الحاكم العام المباشرة، لكن تعيين هؤلاء المتسلمين كان يتم بأمر من محمد علي باشا مباشرة، أو من ابراهيم باشا الذي تولى باسم أبيه صلاحيات حاكم عسكري ومدني مطلق الصلاحية في كل بلاد الشام وأضنة[1]. لقد أنشيء كذلك في كل مدينة مجلس للأعيان كان أعضاؤه يختارون من الرجال الذين يتحلون باحترام وتقدير معظم الأهالي ويتحلون بصفات أخلاقية طيبة، ولم يكن اختيار هؤلاء يرتبط بوضعهم القبائلي أو الأسري أو الديني أو المذهبي، كانت الأخلاق والجدارة فقط تؤهل الرجل للاشتراك في مجلس مدينته مع شرط أساسي آخر وهو ولاء عضو المجلس المديني للحكم المصري دون تحفظ. ومن الملفت وجود أشخاص غير مسلمين في مجالس المدن لأول مرة في تاريخ المنطقة العربية الإسلامية. كان المجلس، الذي يشبه كثيراً المجالس البلدية في هذا العصر، يجتمع برئاسة المتسلم، ويدرس القضايا التي تهم المدينة، وكان عليه أن يتخذ القرارات الحاسمة بشأنها مع التنبيه إلى أنه لم يكن يحق للمتسلم أن يتخذ أي قرار مهما كان بسيطاً دون موافقة هذا المجلس.

كان يحكم القرى شيوخ ومخاتير يتبعون مباشرة المتسلمين في النواحي، فقد استحدث في عهد ابراهيم باشا منصب المختار الذي يمثل السلطة في القرى، وقد ألغي وجود المختار بعد رحيل المصريين ثم أعيد العمل به في نهاية القرن التاسع عشر. كما أنشيء نظام للدرك والشرطة شبيه بالنظام الذي كان يعمل به في فرنسا في ذلك الحين، فكان رجال الدرك أو الشرطة في المدن يسهرون على حفظ النظام ولا يطلبون تدخل الجيش إلا في حالات التمرد والإخلال بالنظام العام.

لقد تمكن ابراهيم باشا بواسطة النظام الإداري الجديد من تركيز السلطة الحكومية في

(١) المصدر السابق ص ١٤٩.

يديه بشكل كامل، لكنه، ربما بسبب إدمانه المفرط في شرب الكحول، قد قام بتصرفات غير محسوبة العواقب دون أن تكون هناك سلطة تحاسبه على تصرفاته الحمقاء، مما أدى إلى فشل كل مشروعه السياسي في سوريا.

لم يكن للجانب الاقتصادي في عهد الباشاوات العثمانيين السابقين أي نظام محدد وكان يخضع لأهواء الباشاوات ودرجة نفوذهم. لكن في ظل الإدارة المصرية الجديدة تحول إلى شكل قانوني شبيه بالإدارة المدنية والعسكرية، فقد عين في دمشق إلى جانب الحاكم العام مدير خاص بالإدارة المالية وهو حنا البحري المصري القبطي، ووظف إلى جانبه عدد من المحاسبين المهرة مهمتهم الإشراف على الخزينة العامة. كذلك عين في كل مجلس مدني في المدن الكبرى كاتب مختص لتسجيل الصادر والوارد في خزينة المدينة، كما جرى استحداث نظام ضرائبي واحد مشابه للأنظمة الأوروبية. كانت مداخيل الخزينة في العهود السابقة تتأتى من مصادر متعددة أهمها:

١ ـ الميرة أو إتاوة الأرض.

٢ ـ جزية الرؤوس المفروضة على غير المسلمين (اليهود والمسيحيين).

٣ ـ رسم الجمارك على التجارتين الداخلية والخارجية والرسوم المفروضة على الحرف.

٤ ـ الاحتكارات المفروضة على بعض المواد الغذائية.

٥ ـ الضرائب والغرامات الكثيرة التي كان يجبيها الباشا (أو الحاكم، الشيخ أو الأمير) حسب الظروف.

في عهد ابراهيم باشا جرى إلغاء بعض هذه الضرائب كجزية الرؤوس التي استعيض عنها بضريبة الأنفس التي فرضت على الأفراد بشكل تصاعدي دون تمييز بين المسلمين وسواهم، فكانت الضريبة السنوية على كل بالغ (بين ١٦ و٦٠ سنة) تتراوح بين ١٥ قرشاً عن كل فرد للفقراء وتصل حتى ٥٠٠ قرش عن الأغنياء.

كما ألغيت بنود الإلتزام الجمركي ودخلت الجمارك في إدارة الخزينة مباشرة، وبقيت الضريبة المفروضة على الأراضي الزراعية، مع فارق أنها صارت تدفع إلى الخزينة مباشرة لا إلى الحكام المحليين.

لقد شجع النظام الجديد للضرائب دورة الانتاج الاقتصادية حيث اتسعت المساحات المزروعة وازداد الانتاج خصوصاً القمح والذرة كما ازداد عدد رؤوس الماشية خصوصاً الخيول لاستخداماتها العسكرية.

٣ - مقاومة الوجود المصري

في ظل هذا الاصلاح الواسع للنظام والإدارة في البلاد الشامية كان المتضررون من الحداثة يتربصون منتظرين تحرك السلطنة ليبدأوا هجماتهم على الحكم المصري. لقد قدم ابراهيم باشا لهؤلاء خدمات مهمة تسهل مهمتهم بحيث جعل الثورة على نظامه تبدو كحركة وطنية شاملة. لقد كان لنظام التجنيد الإجباري الذي فرض في العهد المصري، ونظام السخرة والإهانات التي وجهت إلى بعض وجهاء القرى والأسر أو رجال الدين، أثراً سيئاً جعل جمهور الناس في الولايات الشامية يتحرك في محاولة للعودة إلى النظام القديم رغم كل سيئاته.

أولى الثورات بدأت في منطقة الهرمل التي قام بها المتاولة (الشيعة) ضد الحكام المصريين، حيث قمع تحركهم بشدة. ثم انتقل التمرد إلى جبل النصيرية حيث تعرض الأهالي هناك لانتقام جيش الباشا العنيف.

لكن التمرد الذي كان ذا أثر كبير على الوجود المصري في الشام هو التمرد الدرزي الذي حصل في حوران بقيادة الشيخ المسن عنتش والقائد الشاب شبلي العريان سنة ١٨٣٧ . سبب التمرد كان طلب الحكومة في دمشق من دروز حوران إثنين وسبعين مجنداً وعندما ذهب الشيخ عنتش يلتمس من شريف باشا أن يمدد إعفاء التجنيد الذي كان قد منح للدروز في حوران سنة ١٨٣٣ رفض الباشا مقابلته، وتعرض الشيخ عنتش للإهانة من الحرس، فعاد إلى حوران ليبدأ ثورة دموية ضد الجيش المصري حيث تمكن الثوار من إبادة جيشين للباشا، فاستعان أخيراً بالأمير بشير الشهابي الذي لم يتردد في إرسال

جيشه لدعم المصريين. وقد أقدم جيش الأمير بشير على تسميم مياه الآبار في حوران التي كانت المصدر الوحيد للشرب في المنطقة، مما أدى إلى كارثة رهيبة بين الدروز، فتساقط رجالهم موتى بالمئات. وقد تركت هذه الحادثة آثاراً فظيعة على العلاقات الدرزية-المسيحية بسبب ما راج من إشاعات في حينه أن جيش الأمير بشير كان من المسيحيين. وكانت المذبحة التي أصيب بها الدروز في حوران السبب الأساسي للحرب الأهلية فيما بعد في جبل لبنان. كان عدد الموتى بين الدروز كبيراً جداً مما أدى بقائدهم شبلي العريان للتوجه إلى معسكر الباشا واستسلامه له دون شروط. لكن الباشا الذي خسر الكثير من رجاله في حروبه مع الدروز أكرم أسيره ومنحه حق قيادة فيلق محلي يتألف من الدروز فقط يكون مستعداً لمؤازرة الجيش النظامي عند الحاجة. وسيكون لهذا الفيلق دور مهم جداً في الحرب الطائفية فيما بعد بين الدروز والمسيحيين خصوصاً في البقاع.

كان نظام التجنيد قد ازداد تعسفاً بمرور الوقت، كان هم الحكام المحليين (المتسلمين) تلبية طلبات الحكومة بأخذ المجندين، وعندما راح الرجال يفرون من وجه الحكومة صار الجنود النظاميون بأمر من القيادات المحلية، يتحينون الفرص المناسبة للانقضاض على القرى والمدن لاصطياد العدد المطلوب للتجنيد دون نظام أو قاعدة، فكانت فصائل الجنود تهجم على الأسواق والمساجد وأثناء أعمال الحقول. وبما أن الناس قد ألفوا مثل هذه التصرفات فقد وجدوا أن الحل الأمثل هو في الاختباء قدر المستطاع. وهكذا كانت القرى تقفر والأسواق تغلق ويقبع الناس ينتظرون بقلق، ومن وجد من الناس باباً للفرار بعيداً عن منطقته فعل، حتى اضطر أناس كثيرون إلى البداوة بسبب انتقالهم إلى مناطق في البادية، وحتى قيل بأن ١٠٠ ألف شامي (سوري) قد فروا من قسوة الحكم المصري من أصل عدد السكان البالغ ٩٠٠ ألف، فيما كان أغلب الباقين ينتظرون قيام السلطان بتحريرهم.

بعد سيطرة ابراهيم باشا على المنطقة وشروعه في إصلاحاته الإدارية والسياسية، عهد إلى الأمير بشير الشهابي أمير جبل الشوف بالسيطرة على منطقة جبل عامل بقسميه بلاد الشقيف وبلاد بشارة بما في ذلك المدينتين الساحليتين صيدا وصور، فعين بشير ابنه ملحم على صيدا ونسيبه حسن أسعد الشهابي على صور. وفي سنة ١٢٤٩/ ١٨٣٣

صدرت أوامر الباشا إلى بشير بجمع السلاح من بلاد صفد وساحل عكا ففعل ثم جاء إلى رأس العين وأمر بجمع سلاح صور والمتاولة (بلاد بشارة) وتلك المقاطعات فجمعها وأرسلها إلى عكا[١].

ويذكر الشيخ السبيتي في تاريخه المختصر في حوادث سنة ١٢٥١/ ١٨٣٥ أن ابراهيم باشا أمر بأخذ عسكر النظام (التجنيد الإجباري) من دون نظام ولا قرعة. وسلط الأمير بشير الشهابي على بلاد بشارة فجرى من عسكر اللبنانيين ما جرى وخربت البلاد[٢].

تصرفات جيش الأمير بشير ضد أبناء بلاد بشارة وجبل عامل كانت تتسم بكثير من العداوة والبغضاء والحقد، وكل العامليين الذين تحدثوا عن تلك المرحلة تحدثوا بمرارة عن تلك الأعمال المشينة التي قام بها جيش بشير الشهابي. لكن يمكن ملاحظة أن منطقة جبل هونين ومرجعيون قد نجت من أحقاد بشير الشهابي بسبب صداقة متينة كانت تربطه بحاكم جبل هونين.

أثناء حكم المصريين انفصلت مقاطعة جبل هونين ومرجعيون التي تمتد من المالكية شرقي قرية عثرون إلى سوق الخان على مجرى نهر الحاصباني شمالاً عن مقاطعة جبل تبنين، وهي كانت كذلك أثناء حكم أحمد باشا الجزار وسليمان باشا وعبد الله باشا حيث كان يدير هذه المقاطعة شيخ من آل نصار يقيم في قلعة هونين. وفي عهد ابراهيم باشا تعين على هذه المقاطعة الشيخ حسين سلمان النصار المتحدر من آل علي الصغير من أسرة تلتقي بالنسب مع الشيخ ناصيف النصار عند الجد المشترك نصار الأحمد. ويوصف الشيخ حسين السلمان بأنه كان صديقاً للأمير بشير الشهابي. وظل الشيخ حسين السلمان يحكم مقاطعة هونين ومرجعيون بعد رحيل المصريين، كما أضيف إليه ساحل قانا. وقد أقام الشيخ حسين السلمان في بنت جبيل ودفن فيها. وبعد وفاته انتقل حكم المقاطعة لابنه تامر الحسين الذي توفي في ميس (الجبل) أثناء مروره مجتازاً بها إلى هونين فدفن فيها إلى جانب الطريق الدولي الذي كان يربط هونين بطبريا وهونين بعكا.

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٩٢.

(٢) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ص ٤٥٦.

لقد حافظ حسين السلمان وابنه تامر على الصداقة التي كانت تربطهما بالمصريين ورجالهم حتى بعد انقضاء عهدهم في الشام، واستفادا من تلك الصداقة في صراعهما اللاحق على الزعامة في بلاد بشارة مع أقربائهما من آل النصار المقيمين في تبنين. وتمتعت هذه المقاطعة باستقرار نسبي أكثر من باقي مقاطعات بلاد بشارة والشقيف. وظلت هادئة أثناء تحركات الجيش العثماني المندفع في أثر الجيش المصري المنسحب من لبنان وسورية.

كانت مقاطعة جبل هونين قد بدت منذ زمن مبكر في العهد العثماني منفصلة كلياً عن حاكم تبنين، ففي عهد ناصيف النصار مثلاً ظل الشيخ قبلان الحسن حاكم جبل هونين بعيداً عن تحركات الشيخ ناصيف، ولم يشارك بقواته في الحروب التي خاضها ناصيف إلى جانب الشيخ ظاهر العمر ولم يظهر أي وجود أو مشاركة للشيخ قبلان الحسن في معركتي كفرمان والحارة رغم أهمية هاتين المعركتين بالنسبة لسكان جبل عامل. لذلك ليس من المستغرب أن الشيخ حمد ابن الشيخ محمود النصار، الذي أصبح «شيخ مشايخ بلاد بشارة»فيما بعد، قد وجد في حاكم ووجهاء جبل هونين معارضين يسعون بكل جهدهم لابعاده أو إضعافه.

٤- حركة حسين شبيب النصار

في تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ قاد الشيخ حسين بن شبيب النصار (آل علي الصغير) حركة عصيان ضد الوجود المصري في جبل عامل. لم يكن من الواضح منذ البداية إذا كان الشيخ حسين يرفض وجود المصريين رغبة في عودة السلطان العثماني، ولا إذا ما كان يطالب باستقلال جبل عامل عن السلطة المصرية، ولا إذا كان يريد أن يرفع الظلم والحيف الذي لحق بسكان جبل عامل. العريضة التي رفعها الشيخ حسين لم تطالب بشيء عام بل بمطالب خاصة به نفسه، رغبة منه في الحصول على حكم أو سلطة تشبه ما كان يتولاه بعض الشيوخ قبل عهد الجزار. لقد انحصرت مطالبه برفع المتسلمين من «بلاده» وإعادة الحكم إليه كما كانت الحالة في عهد والده(؟). متعهداً بدفع الأموال وتقديم الغلال وبصيانة الأمن والعدل في ظل الحكومة المصرية.

ورد في المحفوظات الملكية المصرية تفاصيل وافية عن حركة حسين الشبيب. ففي رسالة من محمد شريف باشا والي سورية إلى ابراهيم باشا مؤرخة في ٢٣ شعبان ١٢٥٥/ ٣١ تشرين الأول ١٨٣٩ يقول: «...وإن حسين شبيب أحد أشقياء المتاولة الذي ظهر في بلاد بشارة والأشقياء الذين معه قد أخذوا يفسدون في تلك الديار وقد كتبنا إلى عبدكم الأمير بشير بأن يلزم مشايخ المتاولة الذين بأقليم شومر تدميرهم وأن يساعدهم عند الحاجة إلا أننا لم نقطف ثمرة من ذلك. أما بقية فرسان عبدكم أحمد آغا الدارنلي فقد سبق أن رحلوا إلى عكا. ولعل عبدكم المدير سيرسل أولئك الفرسان إلى حيث يقيم الأشقياء المذكورون معززين بعدد كاف من الفرسان. إلا أني أرى أنهم لن يأتوا بفائدة نظراً لحال الآغا المشار إليه وأحوال فرسانه فإن كان يقضي أمركم السامي بإعادة عبدكم الأمير مجيد (ابن الامير بشير) مع أنفار الجبل إلى أوطانهم فنرجو أن توافق ارادتكم السامية على إرسال المشار إليه مع خمسمائة منتخبين من جنوده إلى الشقي المذكور ببلاد بشارة قبل أن يعودوا إلى أماكنهم والأمر فيه وفي كل شأن لمولانا»[1].

وبعد أقل من أسبوعين على هذه الرسالة كتب محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٥ رمضان ١٢٥٥/ ١١ تشرين الثاني ١٨٣٩: «كنت بلغت أعتابكم السامية في عريضتي المكتوبة في ٢٣ من شعبان سنة ٥٥ أن بقية فرسان عبدكم أحمد آغا الدارنلي قد ذهبوا عند مدير صيدا لأجل تدمير الشقي الذي يقال له حسين شبيب واستأذنت في إرسال عبدكم الأمير مجيد وأنفار الجبل الذين معه وانتدابهم لتلك المهمة إذا وافقت عليه إرادة دولتكم ولقد جاء من عبدكم مدير إيالة صيدا كتاب يقول فيه أن الأشقياء الملتفين حول الشقي المذكور قد بلغ عددهم حتى الآن مائة وخمسة وثلاثين شخصاً وأن الخيالة لا يصلحون لقتالهم إذ أنهم مقيمون بأرض ذات حجارة. وأن مصالح بلاد بشارة قد تعطلت بسبب أولئك الأشقياء ويلتمس ارسال الجنود السكبانية. وقد قال يوسف قرداحي في الكتاب الذي أرسله من صيدا إلى عبدكم بحري بك إن مصالح بلاد بشارة قد تعطلت بسبب شقاوة الشقي المذكور. أما العساكر السكبانية الموجودون لدينا فإن أكثرهم أتوا من جبل عجلون قبل أيام كما أن الذين قدموا من قبل باتوا متعبين وقد مرض أكثرهم

---

(١) المحفوظات الملكية المصرية، ج ٤ ص ٢٥٨

فضلاً عن عدم معرفتهم ببلاد بشارة. وأما الأمير مجيد وأنفار الجبل فهم خبيرون بتلك الديار وقد رأينا أن نرسله في خمسمائة جندي إلى تلك الجهة مسرعين ليقضوا على مفاسد ذلك الشقي فأرسلناه إلى بلاد بشارة»[1].

لقد أصبح واضحاً أن الثائر المتمرد على السلطة المصرية يدعى حسين شبيب دون تحديد أي أمر إضافي أو أي معلومات عن سبب تحركه وثورته. لكن رسالة ثالثة تتحدث عن محاولة لانهاء تمرده عن طريق بعض الوسطاء فيتبين فيها مطالبه الحقيقية بوضوح. ففي رسالة من الشيخ محمود عبد الهادي إلى محمد شريف باشا والي سورية مؤرخة في ١٠ رمضان سنة ١٢٥٥/ ١٦ تشرين الثاني ١٨٣٩ يقول: «يشرّف العبد بالأمر الكريم المؤرخ في ٥ رمضان سنة ٥٥ عدد ٣٥٤ يشير مفاده السامي جواباً عما أعرضه لدولتكم بخصوص مطاولة الشقي حسين شبيب ومن معه وأنعمتم على عبدكم بأنه صدر أمر دولتكم بإرسال الأمير مجيد الشهابي وصحبته من عسكر الجبل ما ينيف عن خمسمائة نفر ومقدار ستون خيال باشبوزق أكراد وأتراك لضرب الشقي المذكور ومن معه وتنكيلهم وأمرتم بإجراء المساعدة من الأمير المومى إليه ونعرض لسعادتكم عما يتم معهم بأوقاته وحسبما أمرتموه ورسمتموه صار قرين إذعان عبدكم فنعرض لسعادتكم أنه بتاريخ ٧ الحاضر إذ كنت عبدكم موجود بقرية طرشيحا من أعمال الجبل لنجاز مطلوب الميري ففي تلك الليلة الساعة أربعة من الليل حضر لطرف عبدكم الشيخ سعيد عبد العال وبيده تحرير وارد له من الشقي المرقوم وضمنه تحرير لعبدكم وعند مطالعته وجد يلتمس الأمان من الطرف الأشرف السرعسكري بحيث يصير رفع متسلمين بلاد بشارة والشقيف وجباع وهو يقوم بالخدامات المرضية ما عدا النظام ويكون الأمان على دمه وسلاحه والذي يخصه ولا يدخل البلاد غريب ومظهر الميل لدخوله تحت نير الطاعة فبوقته عبدكم عجبت من خسافة عقله بتطلباته الخارجة عن الطريقة ولاح لعبدكم لربما المذكور ملتمس هكذا أشياء أملاً للحصول على الأمان فقط حيث محقق عند الجميع سطوة سيف دايم السعادة المعظم خصوصاً على من هو نظير هذا الخبيث الخاسر فبالحال عبدكم حررت له جواب نصيحة وطمناه للاستجلاب وأملته باحسانات ولي النعم وعرفته إذا

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٧-٢٥٨.

كان لا يمكن إلا بالأمان من طرف دولته يفيدنا لكي نسترحم بطلب الأمان وبالاستحسان صار ارسال الجواب المذكور صحبة الشيخ أحمد مفتي الفايسية وأحد خيالة الميري مع المعتمدين الواردين من طرفه بالمكاتيب وجل المقصود بارسال المعتمدين هو لأجل الاطلاع على حاله ومقدار الأشقياء الموجودين معه وكيفية أمره وقد تنبه عليهم أن يتجسسوا عن فعل المرقوم وكيفية منشأ هذا الفساد والتعصب الحاصل منه ومقدار الأشقياء الموجودين معه ويحضروا يفيدوا عبدكم فالآن حضر المعتمد والخيال وبيدهم الجواب منه ومن مطالعته وجد تطلبه نظير الأول وقرروا أيضاً أنهم قد شاهدوا الأشقياء الموجودين معه فوجدوهم يبلغون مقدار ستمائة نفر منهم أربعمائة وخمسين نفر بالبندق ومقدار مائة وخمسين نفر من غير سلاح فقط مع الواحد منهم مثل فرد طبنجة وخنجر ويطقان والبعض بالعصي وأنه بتلك الساعة الذي كانوا بها عنده حضر لعنده سبعة عشر مسلحين من نواحي بعلبك ومعهم مكتوب له من الأمير خنجر من تعلقات الشقي الأمير جهجاه يخبره أنه مسك شبلي العريان بأطراف حماه وعلقه على عود وأنه وإن كان لازم له معونة من الرجال ليرسل له وأن المعتمدين المذكورين قد اطلعوا على المكتوب المذكور وشاهدوه عياناً كما وحضر لعنده واحد شقي يدعى درويش بعلبكي من بعلبك ومعه كام نفر وأنه من هذا الوجه صاير للمذكور جسارة على ارتكاب الفساد وقرروا المعتمدين أيضاً. إن المذكور بالبتدا كان منتسب معهم بالكلام فعند حضور المكتوب له مع أنفار بعلبك المتقدم الشرح عنهم قويت براعته وصار يتلفظ بأقوال خارجة عن الطريقة بقوله إذا كان لم يجاب لمسؤله وإلا يزداد شقاوة حتى يسري ضرره على النواحي الموجود بها الآن وخلافها فاقتضى اعارض ذلك لدولتكم وقد قدمت الأعراض للأعتاب السنية السرعسكرية بهذا الخصوص وعن صدور أمر سعادتكم بارسال الأمير مجيد الشهابي لضرب الشقي المذكور». وعلى ظهر الوثيقة إشارة محررة بالتركي ترجمتها: «لقد كتب إلى المدير بعدم التخابر مع الشقي المذكور لأنه في حالة المخابرة معه يتخذ الشقي ذلك سنداً فينشره على الملأ ويجمع الأشقياء»[1].

بعد أن أصبحت الصورة واضحة عن الثائر حسين الشبيب صار من المتوقع أن يقوم

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٠.

جيش الأمير مجيد بهجوم عليه للقضاء على حركته. كما كان يتوقع من الشيخ الثائر حسين أن يتصدى للعدو الشهابي بما اجتمع معه من ثوار مسلحين يساوي عددهم عدد جيش الأمير مجيد. تثبت رسالة أرسلها الامير مجيد عكس ذلك، فحركة جيشه لم تواجه بأي مقاومة فعلية. يقول الأمير مجيد في رسالته إلى محمد شريف باشا مؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٥٥ وهو نفس تاريخ الرسالة السابقة: «المعروض لأعتاب دولتكم أنه بحيب الأمر العالي قد وصل عبدكم إلى بلاد بشارة وبوصولنا إلى قرية ميس (ميس الجبل) تحققنا زيادة الشقاوة الحاصلة من حسين شبيب ومن معه وجميع مشايخ قرايا هذه الجهة تقدم له مهما طلب وقد كان بلغ جمهوره مائتين نفر وأنه تلك الليلة موجود بمن معه في قرية تدعى يارون مسافة ثلاث ساعات من قرية ميس المذكورة لزم توجهنا قبل الضو بثلاث ساعات كبسنا محل وجوده فلم نجده وكان قد توجه إلى قرية يارون فبالحاضر لحقنا خبره وعند وصولنا إلى القرية المرقومة وجدناه توعر بجبال هذه الجهات التي لم ننظر مثلها فدخلنا الجبال بالعسكر وبقينا مجدين السير بطلبه إلى أن حصلناه وأوقعنا عليهم القتال وبحوله تعالى وبسيف سطوة دولتكم قد وقع بهم النكال وشتتنا جمعهم وبقيوا مهزومين قدامنا مسافة ساعتين فقتل منهم من قتل وانهزم من انهزم ولم يبق سوى الشقي ومعه خمسة أنفار أوقاهم ظلام الليل والذين بقيوا ولا نعرف أسماءهم رجعوا ولا نعلم لمحلاتهم أم لا ثم ومن الجملة أخذ منهم مربوط وهو واصل والأمر به لدولتكم وأما من نحو الشقي ربما ما عاد يقر له القرار وعبدكم ما زلنا نفحص عنه بالجد والجهد وإن شاء اللّه تعالى وبتوجهات عواطف دولتكم نظفر به هذا ما وجب إعراضه لدولتكم أفندم وأما من نحو عبيدكم العسكرية الذين بمعيتنا مع اشراح خاطر دولتكم ما حصل عليهم تنقيص سوى بعض مجاريح بالسالم»[١].

قبل أن يصل جيش الأمير مجيد الشهابي إلى ساحة المعركة بيوم واحد اي في ٩ رمضان كتب حسين شبيب عريضة وأرسلها إلى السلطة المصرية وفيها: «سلطانم رفيع الجناب فسيح الرحاب حميد المزايا كريم الشيم أفندم المعظم أدام اللّه تعالى وجوده الشريفة. المعروض إلى أعتاب دولتكم تشرفنا بأمركم الكريم فحواه السامي يشير

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧١.

بما فاضت به مراحم دولتكم من الأمان ورأى من الطرف الأشرف أفندينا السرعسكر المعظم ويكون الأمان على جميع ما حصل منا من دم ومال وغيره والأمان لنا وإلى كل من يختص بنا على الدم والمال والسلاح ثانينا باعطاء الثلاث مقاطعات عهدتنا والمعاش الذي كان بيدنا سابق واعطاء المقاطعات عهدتنا حسب شرط نامات السالفة كأيام والدنا المرحوم الشيخ فارس الناصيف ورفع المتسلمين والمعاش الذي كان بيد المرحوم فوق معاشنا استحق يقيم بحالنا وحال أتباعنا وإني متعهد على موجب الأعراض الذي تقدم مني سابق بدفع الأموال والغلال بحيث أن لا يدخل إلى البلاد أحد غيري ومتعهد بكل ضغط يحصل في الطرقات وغيره مما هو ضد رضى هذه الدولة السعيدة وإني لأواجه دولة أبدن حيث رأينا الذي واجهو كيف جرى بحالهم وأما المطاليب من مال وأغلال فأنا متعهد بنجازها ودفعها تمام فهذا ما وجب اقتضى اعراضه لدولتكم أفندم»[1].

إذا كانت هذه العريضة صحيحة، وهي على الارجح كذلك، فإن الثورة لم تكن في الحقيقة سوى محاولة أحد بقايا شيوخ آل علي الصغير استعادة بعض المكاسب لنفسه. فهو مستعد حسب قوله أن يكون متزلماً للباشا المصري مقابل تعيينه متسلماً في مقاطعات جبل عامل وهذا أمر كان يستحيل أن يقبل به الباشا لأن بناء الدولة المصرية الحديثة قام على أساس إلغاء الإقطاع فلا يمكن أن يقدم الباشا لأي كان أي كسب يعيد الدولة إلى العهد البائد فكيف وحسين شبيب قد قرن مطلبه بتمرد عسكري؟ لقد أدت حركته إلى رد فعل انتقامي من قبل الأمير مجيد الشهابي الذي كان يحمل أحقاداً دفينة على جبل عامل وقد حل الويل حيثما حل جيشه أثناء ملاحقته لحسين الشبيب.

كما أن ثورة الشيخ حسين لم تؤدِ فعلياً إلى أي مضايقة للجيش الشهابي والمصري. ففي رسالة من محمد منيب أفندي المسؤول عن الجباية في جبل عامل إلى ابراهيم باشا يقول فيها أنه حصّل الغلال المفروضة على مقاطعة الشقيف تحصيلاً تاماً ، وأنه اغتنم فرصة قيام «سليمان باشا من صيدا لتأديب حسين شبيب فأرسل هذه المبالغ مع سليمان باشا إلى خزينة عكا وذلك نظراً لتسلط حسين المذكور على المارة والمسافرين».

---

(١) المصدر السابق.

في ١٦ رمضان ١٢٥٥ وصلت رسالة من الأمير مجيد الشهابي إلى ابراهيم باشا ذكر فيها أنه ضرب «الشقي» حسين شبيب وشتت شمله واضطره إلى الفرار وأنه جاد في تأثره لإلقاء القبض عليه. وفي ١٤ شوال ١٢٥٥/ ٢٠ ك١ ١٨٣٩وصلت رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا تفيد أن البحث عن «الشقي» حسين شبيب وأنه لدى تعقبه من قبل الأمير مجيد الشهابي فرّ إلى اللجاه. وفي ٢٨ شوّال/ ٣ ك٢ ١٨٤٠ تمكن جيش السلطة من القبض على حسين شبيب وعلى عشرة من أتباعه[١].

يروي المؤرخ محمد جابر صفا حول القبض على حسين الشبيب دون تحديد المصدر أن الشيخ حسين شبيب وأتباعه خرجوا من جبل عامل حتى تخف وطأة جنود الحكومة على الأهلين «واتصل خبرهم بشريف باشا المصري والي الشام بوشاية أحد مشايخ الدروز فأرسل عليهم فرقة من عسكره أحاطت بهم في منزل كانوا فيه. وكان حسين الشبيب مريضاً مدنفاً فأوعز لأخيه محمد علي (بيك) أن ينجو بنفسه فخرج من الدار وبيده القرابينه (سلاح يشبه الغدّارة) يهدد بالموت كل من يدنو منه فاخترق صفوف الجند وهم لا يعرفونه يتبعه جماعة من رجاله فيهم نصر اللّه نعنوع من المروانية وأيوب عليق ونصر اللّه زهنون من يحمر. ودخل الجند البيت فكان من السهل القبض على حسين (بك) لشدة مرضه، وبقي معه جماعة من رجاله وبينهم شاب وافر المروءة يدعى موسى قليط من قرية يعثر جنوبي جبل عامل. وسأل قائد الجند عن محمد علي (بك) بعد ان قبض على حسين (بك) وخشي موسى قليط أن يتعقبوه فقال «أنا هو» وكان يشابهه شكلاً فقبضوا عليه وساروا بهما إلى دمشق فأمر شريف باشا بشنقهما[٢].

وهكذا انتهت سيرة حسين الشبيب دون أن يحقق اياً من أهدافه، ورغم شهرته الكبيرة إلا أن مؤرخي جبل عامل لم يعطوه تلك الأهمية المتوقعة بل اختلفوا حتى على نسبه فأكثرهم جعل النسبة إلى آل صعب من مقاطعة الشقيف. ولولا أنه ذكر بنفسه أنه ابن الشيخ فارس الناصيف لظلت الصورة عنه أنه صعبي.

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٨٧.

(٢) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٤٨

وصف بعض المؤرخين حركة حسين الشبيب ب «ثورة عاملية» ضد المصريين، لكن المعروض الذي رفعه حسين الشبيب إلى الحكام لم تكن فيه مطالب عامة للعامليين بل كانت خاصة به.

يذكر المؤرخ محمد جابر صفا قيام «ثورة شيعية» على المصريين، ويضع اللوم فيها على إدارة الامير بشير الشهابي أمير جبل الدروز لجبل عامل بعد أن ضم إليه فيقول: «ولّى الأمير بشير الشهابي ولده الامير مجيد إدارة مقاطعات جبل عامل وكان شاباً غرّاً لم تحنكه التجارب، فصب غضبه على الشيعيين وأرهقهم ظلماً، وساق مئات منهم إلى السجون. فكان في محبسه في صور زهاء الألف رجل. وحقّر العلماء، فكان من نتيجة هذا ومن الضغط والشدة التي اتخذها بعض العمّال المصريين في جبل عامل وبعلبك أن ثار الشيعيون في البلدين بعلبك وجبل عامل. وكان قائد الثورة في بعلبك الأمير جواد الحرفوش وفي جبل عامل حسين بك الشبيب»[1]. لقد وضع المؤرخ كلمة«بيك» بعد إسم حسين الشبيب تمهيدا ليثبت تلك الزعامة الأصيلة في أسرة هذا الشيخ الذي يعرف عنه المؤرخ صفا بأنه: «حسين بك ابن الشيخ شبيب بن الشيخ علي الفارس من آل صعب، وأخوه محمد علي بيك...»[2]. أما تفاصيل أحداث الثورة حسب نفس المصدر فهي: «... فأرسل الأمير «بشير» إلى جبل عامل ولده الأمير مجيد وكان شاباً متغطرساً فاشتبك مع الثوّار في عدة وقائع فلم يظفر بهم ولما عجز عن إخضاعهم ضيّق الخناق على أهلهم وذوي قرابتهم. فاجتمع فريق من الوجهاء بزعيمي الثورة (حسين الشبيب وأخيه محمد علي) وعرضوا عليهما التسليم شرط حفظ حياتهما فأبيا وبارحا البلاد بأنصارهما إلى حوران وأرباض دمشق[3].

كذلك وصف المؤرخ محمد جابر صفا أسباب الثورة ومعاملة المصريين للناس بخبرين متناقضين فهو يقول: «مما أجمع عليه المؤرخون أن إدارة المصريين في سورية وما اتخذوه من الشدة في جمع الضرائب ومضاعفتها وجمع السلاح وتجنيد الشبان على

(١) المصدر السابق ص ١٤٧

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

غير قاعدة نظامية وبغير وقت معين وفرض السخرة وغير ذلك ،كان من الأسباب الداعية لسخط السكان واندلاع لسان الثورة...». لكنه يعود بعد صفحتين ويذكر خلاف هذا الوصف حيث يقول: «ومما أجمع عليه الباحثون أيضاً وسطّرته كتب التاريخ أن احتلال المصريين للأقطار السورية في سنة ١٨٣٢ قضى على الفوضى والأحكام الجائرة التي كانت سائدة في عهد آل عثمان فانتشر الأمن وعمّ العدل وتألفت المحاكم لتأمين الناس على حقوقهم»[١].

مما لا شك فيه أن الثورات وحركات التمرد قد اندلعت في كل البلاد السورية التي استولى عليها ابراهيم باشا، ولم تكن الأسباب واحدة فيها كلها. كان يجمعها قاسم مشترك وهو تدخل القوى الأجنبية وخاصة بريطانيا لمحاربة الدولة المصرية الناشئة والفتية وإبقائها بعيداً عن الشأن العثماني الذي كان يمثل مجالاً لطموحات الإنكليز في السيطرة. فلا يمكن والحالة هذه تبرأة أحد من الثوار والمتمردين من التعامل بسذاجة مع المشروع الإنكليزي الاستعماري والذي أدى كنتيجة أولية إلى وقوع حرب أهلية طائفية ومذهبية عمّت مختلف بلاد الشام ومهدت السبيل للدول الإستعمارية لتنفيذ برامجها وخططها.

يضاف إلى الشحن الإستعماري والتحريض على حكومة ابراهيم باشا رغبة عدد من ورثة الإقطاع والزعماء وشيوخ الأسر العودة إلى امتيازاتهم القديمة التي حرمهم منها نظام ابراهيم باشا العصري. فأعلنوا جهاراً رغبتهم في عودة السلطنة العثمانية إلى حكم البلاد متناسين الأهوال التي مرت بها هذه البلاد طيلة ثلاثة قرون ونيف تحت الحكم العثماني المتخلف.

قد يبدو من غير المألوف ولا المفهوم كيف يكيل الكتاب والمؤرخون الذم للعهد العثماني وتخلفه وحربه التدميرية المستمرة في البلاد التي حكمها، ثم يمتدحون الزعماء والشيوخ الذين أصروا على استعادة هذا العهد بكل سيئاته.

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٧ - ١٤٩

٥ - نهاية الحكم المصري

في شتاء سنة ١٨٤٠ بدأت رياح الثورة والتمرد تهب في المناطق المختلفة، انطلقت أولى حركات التمرد في جبال النصيرية والمناطق المحيطة بأنطاكية، ثم امتدت إلى منطقة الهرمل وبعلبك حيث انتفضت العشائر الشيعية فيها، وامتدت حركتهم جنوباً حتى جبل عامل حيث تشكلت فرق من العصابات أغلب رجالها من الشبان الفارين من التجنيد، وقد اتخذت معظم العصابات في جبل عامل محطات لها في وادي أرنون-القاسمية أي وادي مجرى نهر الليطاني، وبعض الأودية الصعبة مثل وادي السلوقي - الحجير ووادي عاشور في بلاد بشارة، كذلك بعض الأحراش والأوعار مثل وعر يارون. وقد برز في هذه الثورات الأمير خنجر الحرفوش البعلبكي الذي أشعل منطقة بعلبك والهرمل، وحقق انتصارات هامة ضد فصائل الجيش المصري.

لقد أدت ثورة الأمير خنجر الحرفوش مع حركات أخرى في طرابلس إلى حصول انتفاضة في جبال لبنان في ربيع سنة ١٨٤٠. لكن الأمير بشير الشهابي رجل مصر الأول في الشام، تمكن من قمع هذه الانتفاضة بقسوة، وتسبب في سفك الكثير من الدماء ليس بواسطة فرسانه، بل بواسطة فرقة الفرسان الألبانيين التابعة لابراهيم باشا، وجرى بعد قمع الانتفاضة تجريد أهالي كسروان وبلاد جبيل من السلاح، بينما فر قادة الانتفاضة وتواروا عن الأنظار.

في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ وقعت في لندن معاهدة بين الدول الكبرى روسيا وبروسيا والنمسا وبريطانيا والباب العالي اقتضت وضع حد لطموحات وتحركات محمد علي باشا، وعلى أساس هذه المعاهدة اقترح المجتمعون على محمد علي من الباب العالي أن يحكم مصر وراثياً ويدير مدى الحياة فلسطين وفق خط يمتد من الرأس الأبيض (رأس الناقورة) على البحر المتوسط إلى بحيرة طبريا على أن يوافق الباشا على هذا الاقتراح الذي أيده ممثلو الدول الكبرى في غضون عشرة أيام وأن يوجه خلال العشرة أيام هذه الأوامر إلى جيشه بإخلاء بقية سوريا[١].

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٢١٣.

كان هذا الإنذار في حال تنفيذه يعني أن كل جبل عامل سيعود إلى حكم الدولة العثمانية، وعليه فإن النظام الذي اعتاد عليه الشعب من حكم الباشاوات والمتسلمين الحكوميين وشيوخ الأسر سيعود للوجود وسيكون لهؤلاء الشيوخ دور متجدد خاصة وأنهم أعلنوا ولاءهم للسلطان. كذلك صار زعماء الأسر الذين مالئوا المصريين ووقفوا إلى جانبهم، مهددون بشكل واضح، بينما سيحظى الذين حاربوا أو قاوموا أو عارضوا الوجود المصري بوضع أفضل في ظل عودة النظام العثماني.

تسارعت الأحداث سنة ١٨٤٠ في الساحل الشامي خصوصاً في مدينة بيروت التي نزلت فيها وحولها طلائع القوات المتحالفة فيما كان الأسطول الإنكليزي يقوم بضرب التحصينات التي أقامها المصريون على الساحل. وبعد معارك قصيرة حسمت المعركة على طول الساحل الشامي وتراجع الجيش المصري في شمال سورية نحو حمص ومنها إلى بعلبك فدمشق.

في تلك الظروف المضطربة، أي حالة الانتقال بين حكومتين، أقدم الإنكليز على تنفيذ عملية غريبة كان لها فيما بعد أثر عميق على الأحداث اللاحقة، فقد وضعت خطة محكمة للعسكرية الإنكليزية تقضي بنشر السلاح في سورية ليصبح في متناول أيدي العامة من الناس. وكان تعليل ذلك الحدث يقول بأن الشعب المسلح في سورية سيهب للثورة على المصريين، وفي واقع الحال أن عملية التسليح قد جرت بعد تراجع المصريين مما يعني أن الإنكليز كانوا يهيأون ليس لمحاربة ابراهيم باشا بل إلى إشعال حرب أهلية سيترتب عليها إنهاك الدولة العثمانية المنهكة أصلاً، مما سيمهد الطريق لتدخل أوروبي تكون لبريطانيا فيه حصة الأسد من المكاسب السياسية والعسكرية.

لقد جرى التسلح بشكل عشوائي، وعوضاً عن تسليم كل شيخ على مسؤوليته كمية من السلاح والذخائر تناسب عدد الأشخاص الذين يستطيع تقديمهم إلى الحملة، وزعت الأسلحة في المعسكرات الإنكليزية بلا تمييز وبلا جردة أسماء على كل من يأتي. وفي الوقت نفسه كانت السفن الإنكليزية تجوب الشواطىء للاتصال بالقرويين وكانت ترسل

إلى الشواطىء ضباطاً شباناً لتسليم القرويين العابرين صناديق البنادق[1]. وفي فترة لاحقة حصل الشعب على أسلحة المصريين الذين خلفوا وراءهم لدى انسحابهم العاجل من الساحل الشامي كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر.

لقد تمكن عدد كبير من الرجال في جبل عامل من الحصول على البنادق الإنكليزية بالمجان وتكتلوا على الطريقة العشائرية في مجموعات مسلحة دون أن يكون لها قيادة تتحكم بمسارها فانفلتت الأمور من عقالها وأصبح استعمال السلاح بين الناس أمر محتمل وقائم.

كانت المجموعات المسلحة بلا قيادة عسكرية ولا زعيم يجمعها تحت لوائه، ولا راع يرعاها أو يوجهها، فنشأت قيادات أسرية بدت للوهلة الأولى وكأنها امتداد لوجهاء الأسر التاريخية، لكنها في حقيقتها كانت تمثل نفوذ وجهاء أسر قديمة وجديدة تملك أعداداً من الرجال المسلحين أكثر من سواها أو تتمتع بثروات مالية حصلت عليها إبان وجود المصريين أكثر من الأسر الضعيفة أو الفقيرة أو القليلة العدد.

٦ - الشيخ حمد المحمود

ليس هناك من ذكر لأي وجه عاملي بارز قبل سنة ١٨٤٠ باستثناء الشيخ حسين السلمان حاكم مقاطعة هونين ومرجعيون والشيخ حسين الشبيب وريث الشيخ فارس الناصيف والمتمتع بتأييد عدد من أهالي بلاد بشارة.

وبشكل مفاجىء، وفي الأشهر الأخيرة من وجود المصريين في لبنان، وأثناء زحف الجيش العثماني نحو عكا وفلسطين، بدأ يلمع اسم الشيخ حمد بن محمود النصار على مسرح الأحداث أثناء هجوم الحلفاء على ابراهيم باشا. كان الشيخ حمد المحمود سليل آل النصار، فأبوه محمود (أبو حمد) شقيق الشيخ ناصيف، وكان في أيامه أحد أولي البأس ومن الرجال المشهورين جداً وأحد أبطال معركة البحرة، لا بل يعزى النصر في هذه المعركة لجهوده وبسالته. فكان ذكره بين العامليين يعطي صورة جليلة عن الاحترام

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥١.

الذي عرف الشيخ حمد أن يسير في ظله. أما ابنه الثاني محمد المحمود شقيق حمد فقد ورد ذكره أثناء المفاوضات بين سليمان باشا والشيخ فارس الناصيف.

لا يعرف بالضبط السنة التي ولد فيها الشيخ حمد، فأبوه الشيخ محمود قتل سنة ١١٩٢/ ١٧٧٨ ولم يكن يعرف له من الأولاد إلا ابنه محمد مما جعل بعض الذين كتبوا عن الشيخ حمد يفترضون أنه ولد بعد أشهر من وفاة أبيه في سنة ١١٩٣/ ١٧٧٩ أي قبل استشهاد الشيخ ناصيف النصار بعامين. وقد اضطرت أسرته إلى ترك قلعة تبنين (قصر أبي حمد) إلى منطقة الشقيف.

وفي بلاد الشقيف انتسب الشيخ حمد المحمود إلى مدرسة الكوثرية التي أنشأها الشيخ حسن القبيسي في العقد الأول من القرن الثالث عشر/ التاسع عشر بعد وفاة الجزار. وعليه فإن الشيخ حمد قد التحق بتلك المدرسة وهو يافع قد تجاوز العشر سنوات من العمر. توقف الشيخ حمد عن التعلم في تلك المدرسة بعد حين لينصرف إلى الأعمال العادية حيث لا يوجد أي أثر يثبت أنه كانت له أو لأحد من أسرته أي مكانة خاصة في بلاد بشارة أو عموم جبل عامل حتى توقيع الصلح بين «الطيّاح» بزعامة الشيخ فارس بن ناصيف النصار وسليمان باشا والي عكا والذي منح بموجبه بعض الإمتيازات للعائلات الثلاث التي كانت تتحكم بجبل عامل أيام الشيخ ظاهر العمر، وهذه الامتيازات محصورة في إقليم الشومر وبشروط معينة جعلت من شيوخ الأسر الثلاث وجهاء عاديين. فتربى الشيخ حمد في هذه الأجواء دون أن يظهر أن له أي شهرة شعبية أو أهمية استثنائية في جبل عامل. ففيما كتبه المؤرخ حيدر رضا الركيني في مذكراته التي تنتهي سنة ١٢٤٧/ ١٨٣١ لا يوجد ذكر من قريب ولا بعيد للشيخ حمد، وكان لحمد حينذاك ٥٢ سنة من العمر. فلو كانت له أدنى شهرة لذكره ذلك الكاتب الذي تحدث في كثير من الأحيان عن أمور تبدو تافهة قياساً إلى أهمية ما سيذكر عن الشيخ حمد عند المؤرخين والكتّاب العامليين. وتبدو الرواية عن بدء صعود حمد التي رواها السيد عباس حسين ابراهيم وهو من الكوثرية أقرب إلى الواقع وفيها أن «حمد (البيك) قبل أن يتولى الحكم (؟) في جبل عامل كان فقيراً معدماً إلا من «كديشة» عجوز كانت

تقلّه من بلد إلى بلد. واتفق أنه نزل في أيام فقره عند مختار جويّا وطلب من أجيره أن يربط له الفرس (الكديشة) ويضع لها علفها. فدخل الأجير على معلّمه فسأله عن الضيف فقال هذا حمد، طلب مني أن أربط له الكديشة في البايكة..... وترى الحاج محمد فرحات هناك أيضاً فبقيا (حمد والحاج محمد) يتحدثان قبل النوم ويتذكران تقلبات الدهر وغيره. وبعد طول حديث نصحه الحاج محمد فرحات وهو تاجر أقمشة دوّار أن الدولة العثمانية بدأت تحرض الأهالي على الثورة ضد ابراهيم باشا وتوزع السلاح عليهم فما عليك لو جمعت إليك اليوم من يلبّي نداءك من الأهل والأصحاب والرجال الأشداء فعسى أن تبتسم لك الأيام بعد عبوسها فترضى عنك الدولة وترفع شنك. فذهب الشيخ بعد ذلك متحمساً يطوف البلاد ويحرض الأهالي ويجمع الأنصار»[1].

ولو أخذت هذه الحكاية على أنها صحيحة فإنها تثبت أن حركة الشيخ لم تتم أثناء وجود المصريين بقوة في جبل عامل. وقد تبيّن أن ثورة حسين الشبيب النصار، وهو ابن عم وقريب للشيخ حمد، قد قضي عليها بسهولة سنة ١٨٣٩ دون أن يأتي أحد على ذكر ثورة أو شبه ثورة يقوم بها أو يحرض عليها الشيخ حمد أو سواه من وجهاء بلاد بشارة أو جبل عامل.

ورغم كل هذه الشواهد فإن مؤرخي وكتّاب جبل عامل قد أعطوا للشيخ حمد أهمية استثنائية وجعلوه بمستوى زعامة الشيخ ناصيف النصار، بل أكثر منه أهمية وأبعد أثراً. وفي ذلك كثير من المبالغة غير المجدية.

يعرّفُهُ السيد محسن الأمين بـ«الأمير» حمد البك بن محمود بن نصار بن نصار من آل علي الصغير[2]. و«البك» التركية رتبة أقل بكثير من رتبة أمير كما هو معروف. الشيخ حمد لم يحصل أبداً على رتبة أمير وإنما كوتب من موظفي الدولة بـ«إفتخار العشائر الكرام حضرة متسلم بلاد بشارة بك» فرتبة «بيك» جاءت

(١) حسين محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٤٨٠ نقلاً عن مقالة بعنوان حمد البيك والثورة للشيخ علي الزين العرفان م ٥٧ سنة ١٩٧٠.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٦ ص ٢٣١

من هذه الرسالة أو من مثيلاتها. وقد أخذ السيد الأمين مادته نقلاً عن الشيخ علي السبيتي أو عن شبيب «باشا» الأسعد أو عن الشيخ محمد جواد مغنية وهم من المغالين في الحديث عن «آل علي الصغير» بحيث تبدو روايتهم عن الأحداث التي وصفت صعود الشيخ حمد المفاجىء خرافة لا يمكن الأخذ بها.

عندما بدأت الدولة العثمانية والدول الأوروبية الحليفة الهجوم باتجاه سورية لاسترجاعها من ابراهيم باشا المصري تحرك عدد كبير من شيوخ العشائر في لبنان وفلسطين لاثبات ولائهم للسلطان العثماني الذي بدأ يسترد بسرعة كل ما كان فقده في السنوات العشر الأخيرة. في هذه الحالة تحرك الشيخ حمد «البيك» بسرعة والتف حوله عدد من الشبان الذين تسلحوا ببنادق الإنكليز المجانية. ثم كبرت حركته بمن انضم إليها من الرجال الذين كانوا يبحثون عن قائد، وشارك معهم كقوات رديفة للجيش العثماني الذي كان يتحرك على طريق الساحل بين صور وعكا. وأدى دوراً في مراقبة الطرق وملاحقة بعض الوحدات المنسحبة من المصريين في حوادث متفرقة جرى تضخيمها على السنة الشعراء حتى صوّرت كأنها من معارك التاريخ الكبرى. ومنذ بداية الكتابة التاريخية عنه ينزلق الكتاب العامليون المتحمسون جداً لسيرته إلى المبالغة والتهويل في ذكره وهم في جميع الأحوال لم يكونوا بحاجة إلى ذلك لأن الشيخ حمد بلغ من الوجاهة والعزة ما يكفي للابتعاد عن المبالغات.

فمثلاً يروي السيد محسن الامين أن الأمير بشير الشهابي غضب على الشيخ عبد النبي الكاظمي وهو عالم دين عراقي كان ينزل في قرية جويا أثناء حكم المصريين، (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) لوشاية رفعت إليه. وأرسل في طلبه، فحضر حمد البك بنفسه من تبنين إلى جويا، ومنع من أن يصاب الشيخ بأقل أذى ولم يخرج من جويا حتى رجع الذين جاءوا بطلبه ورضي الأمير بشير عنه»[١]. والقصة بذاتها تحمل نقيضها لأن الشيخ حمد لم يكن قد انتقل إلى تبنين أثناء حكم المصريين وكان حاكم عسكري مصري يقيم في قلعتها. انتقل الشيخ حمد إلى تبنين سنة ١٨٤٢ بعد رحيل بشير الشهابي من بيت الدين بسنتين.

(١) المصدر السابق.

لقد أغدق مؤرخو جبل عامل على الشيخ حمد «البيك» ألقاباً وتكلموا عنه بمبالغات لا يمكن الأخذ بها دون مناقشة وتحقيق. كان المصدر الأساسي لتلك المعلومات هو ما كتبه شبيب «باشا» ابن علي الأسعد قريب الشيخ حمد المقرب، حيث وصفه ووصف قلعة تبنين وعدد الفرسان والمعارك التي خاضها الشيخ حمد بشكل مبالغ فيه جداً. حتى أن من يقرأ وصف المعارك المفترض أن حمد «البيك» قد خاضها وانتصر فيها يعتقد أن بامكان الشيخ حمد عزل السلطان وتعيين سلطان آخر. وعندما يصف شبيب «باشا» الأسعد ما أغدقته السلطنة على حمد من ألقاب وهدايا يتوقع أن تصل تلك الألقاب إلى رتبة ملك أو ما شابه ذلك، وأن تكون الهدايا على الأقل حكم بلاد الشام، ولكن بعد البحث يظهر أن أقصى ما حصل عليه (البيك) حمد هو لقب شيخ مشايخ بلاد بشارة، وأن الهدية الوحيدة التي تلقاها هي سيف مرصع. لقد ذكر شبيب الأسعد، وقلدّه بعض المؤرخين، معارك في مرج رميش غربي يارون، ووادي الحبيس وشفاعمرو في شمال فلسطين الحالية، وكانت كلها معارك مظفرة خاضتها «جيوش» حمد البيك ضد الجيش المصري[١]. ولا ريب أن هذه المعارك من خيال واضعيها. لقد قال عدد من مؤرخي جبل عامل أن الجيش العثماني لم يزد عدده على ثمانية آلاف جندي. وأن الشيخ حمد قد تلقى رسائل من «أحد القوّاد العثمانيين» جوقموش يطلب فيها منه أن يسرع ب«جيوشه» لضرب الجيش المصري عند جسر المجامع وجسر بنات يعقوب[٢]. وبمراجعة ما كتبه قسطنطين بازيلي أحد الدبلوماسيين الروس الذين شاركوا مباشرة في الأحداث فإن كثيراً من الحقائق تظهر بوضوح أن الجيش العثماني الذي كان يزحف جنوباً كان تعداده أكثر من سبعة وعشرين ألفاً مدعوماً بأساطيل الحلفاء. وكان هذا الجيش بقيادة عزت محمد باشا ثم انتقلت قيادته إلى أحمد زكريا باشا بعد إصابة الأول بقدمه. ثم تولى يوقموس (جوقموش) القيادة العامة للجيوش العثمانية وزحف بها نحو الحدود المصرية. أما جيش ابراهيم باشا فقد انسحب في

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٢٩٧ نقلً عن ديوان شبيب الأسعد ص ٣٣.

(٢) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٥١.

منتصف تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ من دمشق إلى المزيريب الواقعة على طريق درعا حيث تعرض لهجمات من جماعات البدو وبعض الدروز الناقمين وتمكن من صد المهاجمين وقتل أعداداً كبيرة منهم. في هذا الوقت انتقل يوقموس مع قيادة أركانه إلى حاصبيا في كانون الأول سنة ١٨٤٠ ليراقب من جبل لبنان الشرقي تحركات الجيش المعادي وأرسل وحدات خفيفة من الاكراد والبدو للإغارة على المزيريب فتمكن المصريون من ردهم. بدأ المصريون بعد ذلك بالإنسحاب جنوباً فانتقل يوقموس إلى جنين لمنع الباشا المصري من عبور نهر الأردن[١]. في تتمة الخبر أن الجيش المصري اشتبك في معركة قرب أريحا مع سكان محليين فأحرق البلدة وتراجع نحو الكرك فأحرقها انتقاماً من أهلها ثم تابع سيره جنوباً حتى وادي عربة فانتقل منها باتفاق عسكري مع الإنكليز إلى غزة حيث غادر براً وبحراً إلى مصر. وفي كل هذه السيرة لا يوجد ما يدل على وجود قوة عاملية لها دور في الأحداث. المصادر التي تحدثت عن الحرب بين الحلفاء والمصريين لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى وقوع معارك بين العامليين (حمد أو غيره) وبين المصريين المنسحبين شرقاً أو جنوباً. الأحداث العسكرية الوحيدة التي ذكرت في المنطقة العاملية هي تحرك فصيلة عثمانية عددها الفي مقاتل من منطقة صيدا وصور وسيطرتها على الرأس الأبيض (رأس الناقورة) تساندها ميليشيا المتاولة المجاورين[٢]. كذلك فإن هذه الحرب قد انتهت خلال أشهر قليلة وهي مدة لم تكن كافية لينشىء الشيخ حمد قوة عسكرية مقاتلة يصلح أن تسمى «جيشا» فكيف صار لديه «جيوش»؟

الأسوأ في كل تلك المبالغات هو ما نقله بعض المؤرخين ونسج على منوالهم بعض المعاصرين دون تمحيص عن أن الشيخ حمد قد شكل على نفقته جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل[٣]. وهو رقم يصعب على دول كبرى في تلك الآونة القيام بأعبائه فكيف تأتى لوجيه عائلة أن يشكل ويجند هذا الجيش؟ لقد وقع كثير من المؤرخين المعاصرين بتأثير

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ١٧٠-١٧١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤.

(٣) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان ج ١ ص ٥٣١.

الحماسة للطائفة أو المذهب في المبالغة التي تؤدي إلى تشويه التاريخ وتحويله إلى حكايات خيالية وليس تاريخاً يعتمد العقل والبحث العلمي.

أما مجمل الرسائل التي نقلت في بعض المصادر ونسبت إلى «جوقموش، أحد قادة الجيش العثماني»[١]. فلا يوجد أي إثبات على وجودها، فلا مصدر لها ولا مرجع يمكن العودة إليه للتأكد من صحتها. واللغة التي صيغت بها تبدو وضعية وهزيلة ولا تشبه الرسائل العثمانية إلا ببعض المفردات السطحية. والتي عنونت ب «حضرة متسلم بلاد بشارة بك» بما يوحي أن هذه الرسائل من اختراع بعض أتباع الشيخ حمد ليعطى المكانة العظيمة بين سكان بلاد بشارة، وليس في كل جبل عامل. وليصور على أنه زعيم مفوض من السلطنة للحكم والتصرف.

ولا يعني هذا في مطلق الأحوال الانتقاص من مكانة الشيخ حمد «البيك» الذي اعتبر أهم زعيم في بلاد بشارة بعد خروج المصريين، لا بل يمكن أن يذكر التاريخ بفخر للشيخ حمد تلك الأريحية العاملية التي جعلته يغدق العطاءات على الشعراء والأدباء مظهراً حساً عربياً وكرماً فياضاً. لقد تحول ديوان الشيخ حمد إلى ما يشبه النادي الأدبي الذي تبارى فيه الشعراء والكتاب في إظهار الصورة المثالية للشيخ حتى وصف في بعض القصائد بالملك والأمير. وكانت هذه اللفتة الأدبية البالغة الأهمية في ذلك الزمن باعثاً على تحريك العقل العربي العاملي الذي قضى أجيالاً في ما يشبه السبات. لقد أراد الشيخ حمد أن يضارع ما كان فعله أمير جبل الدروز بشير الشهابي، رغم فارق الإمكانيات بين الشيخ حمد، وهو لا يحكم إلا مقاطعة محدودة في بلاد بشارة (جبل تبنين)، وبين بشير الشهابي الذي كان يحكم معظم مناطق جبل لبنان وما حولها.

تمتع الشيخ حمد بكثير من الصفات الحميدة التي جعلته بلا منازع زعيم زعماء جبل عامل وشيخ مشايخه، مما فرض احترامه على مراكز النفوذ في الدولة العثمانية. وأسس بذكائه وحكمته لمرحلة جديدة جعل فيها من تبنين، مقر إقامته عاصمة للأدب والسياسة. ورغم إمكانياته القليلة إلا أنه تمكن بحكمة كبيرة أن يجمع في تبنين عدداً كبيرا من شعراء

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٥١.

وأدباء وكتاب تلك المرحلة الذين بادلوه اهتمامه بمدحه بعدد كبير من القصائد صورته أكبر بكثير مما هو حقيقة. وهو أول من لقب بلقب بك من آل علي الصغير ولبس الطربوش واللباس الفرنجي وكانوا قبل ذلك يلقبون بالمشايخ ويلبسون العمائم والأقبية والبنشات والجباب فلما خلع سلاطين آل عثمان العمائم ولبسوا الطربوش واللباس الفرنجي لبس آل علي الصغير وغيرهم مثلما لبسوا[1].

بعد خروج الجيش المصري من جبل عامل بسنتين انتقل الشيخ حمد سنة ١٢٥٨/ ١٨٤٢ إلى قلعة تبنين وأعاد ترميمها واتخذها مقراً ومسكناً له، مستعيداً الدور الذي قام به الشيخ ناصيف النصار. ولم تعترض السلطة العثمانية على ذلك بل غضّت النظر عن هذه القضية بضع سنوات قبل أن تستعيد القلعة وتجعلها مقراً لحاكم المنطقة.

كان الشيخ حمد الأجدر بين شيوخ الأسر بالحصول على إرث آل النصار المعنوي دون أن يجد منافساً فورياً له من نفس الأسرة باستثناء الشيخ حسين السلمان حاكم مقاطعة هونين (ومرجعيون) وساحل قانا. وقد حاول عدد من وجهاء بلاد بشارة في أيامه أن يقصوه عن منصبه باعتباره وظيفة حكومية فسعوا بوشاية عليه أمام الباشا حتى تمكنوا من عزله مؤقتاً. يقول السيد محسن الأمين عن ذلك: «لما كان (حمد البيك) في تبنين توجه الحاج قاسم الزين العاملي مع جملة من وجوه البلاد وشيوخها شاكين لوالي الشام حينما حضر لبيروت من حمد البك وقالوا ان العشائر على رأسهم رئيسهم حمد البك فضلا عن ظلمهم وتعديمهم على الفقراء والفلاحين قد أتلفوا المزروعات بالصيد والقنص. وحملوا معهم شيئا من الزرع المتلف وأروا الوالي إياه فصدر أمر الوالي بعزل حمد من المديرية وعرضتها الحكومة على سائر العشائر من الصعبية والمناكرة فما قبلها أحد احتراما لحمد. وكان رجل يسمى الشيخ حسين مروة في النبطية يتزيا بزي أهل العلم فلما سمع بذلك قبلها فأقيم مديرا مكان حمد ولكن الشيخ كان يتعمم بعمامة بيضاء على زي أهل العلم وكان الرسم انه إذا ركب الحاكم تضرب النقارات أمامه فعيب عليه في ذلك كثيرا وظهر منه ومن خيالته ظلم زائد. ثم إن حمدا ذهب لمواجهة الوالي ورجع

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٦ ص ٢٣٢.

ومعه البلوردي بتعيينه مديرا بعد ستة أشهر تولاها الشيخ حسين مروة وتوفي لما وصل حمد إلى حارة صيدا استقبل استقبالا حافلا من العشائر والوجوه[1]. ورغم اضطراب النص في المقطع الأخير في الخبر عن وفاة الشيخ حسين مروة إلا أنه أثبات على أن الشيخ حمد «البيك» كان موظفاً حكومياً يتلقى راتباً محدداً ولم يكن إقطاعياً. مع التذكير أن الشيخ حمد كان موظفاً في بلاد بشارة وليس له سلطة ولا نفوذ فعلي في بلاد الشقيف ولا في أقليم التفاح. والنص المار آنفاً يتحدث عن الشيخ حسين مروة في النبطية ومنطقة الشقيف بما يثبت أحد أمرين: إما أن النص بكامله وُضِع من أحد أنصار الشيخ حمد لتصويره زعيماً وحيداً في جبل عامل. وإما أن يكون النص وضع لهدف آخر وهو أن كاتبه بسبب حماسته لتاريخ جبل عامل، أراد أن يثبت أن الجبل وحدة سياسية موحدة يسيطر عليها زعيم واحد وهذا ينافي الحقيقة.

توفي الشيخ حمد (البيك) سنة ١٢٦٩/ ١٨٥٣ ودفن في مقام النبي يوشع في طرف جبل عامل الشرقي المطل على سهل الحولة. ولأنه كان عقيماً لم يترك نسلاً فقد أوصى قبل وفاته بأن يرثه حفيد أخيه علي بن أسعد بن محمد النصار.

٧ - الشيخ علي الأسعد المحمد

يبدو تاريخ جبل عامل بعد ابراهيم باشا، وربما منذ نهاية عهد الجزار، وحتى إنشاء ولاية بيروت، تاريخ صراع بين وجهاء الأسر، وليس فيه من صفات التاريخ السياسي أو الاجتماعي إلا القليل. ما كتبه مؤرخو جبل عامل عن تلك الحقبة مبالغ فيه جداً، ويبدو في كثير من الأحيان وكأنه تركيب خرافي. ومحاولة فرضه على الواقع لا ينطبق على أي صفة من صفات الإقناع العقلي. فالحديث عن حروب ومعارك لا تتعدى في أكثر الأحيان اشتباك بين رجال الأسر في القرى والبلدات أو غالباً بين رجال هذه القرية أو تلك بالعصي والحجارة على حقوق الرعي وملكية الأراضي الزراعية وحقوق الاحتطاب. كان أكثر ما ذكر عن «حروب» أو «معارك» بين علي (بيك) الأسعد حاكم مديرية تبنين وحامل لقب شيخ مشايخ بلاد بشارة بعد عمه الشيخ حمد (البيك) بن محمود النصار،

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٢.

وبين تامر (بيك) بن حسين السلمان حاكم مقاطعة هونين ومرجعيون. هذه «الحروب» و«المعارك» كانت اشتباكات بالعصي والحجارة في مرج دوبيه بين ميس الجبل وشقرا، وعند مدخل تبنين الجنوبي. وقد وقع بسبب ذلك بعض الجرحى من خدم الزعيمين. وعند وصف هذه الأحداث من قبل بعض المؤرخين العامليين يظن القارىء أن هذه «المعارك» لا تساوي أمامها المعارك الكبرى شيئاً، لا بل يجري الحديث عن خوارق ومعجزات سببت انتصار فلان أو فلان. ولكن نفس هؤلاء المؤرخين عندما تحدثوا عن الوضع الاجتماعي في جبل عامل في هذه الحقبة أفادوا عن عمد أو عن سهو أن الناس لم تكن تهتم بأولئك الزعماء كما اشتهى المؤرخون، إلا بالقدر الذي يؤدي إلى ابعاد الضرائب الجائرة وغير المشروعة التي ابتدعها الزعماء وجبوها من الأهلين بأساليب مختلفة. وفي إحدى المرات أقدم أحد الزعماء على جباية الميري الشرعية من الناس ثم ادعى أمام الباشا أن الأهالي لم يدفعوا له بسبب النقص الكبير في الانتاج.

لقد تبنى العثمانيون بعد عودتهم إلى بلاد الشام كثيراً من إصلاحات ابراهيم باشا خصوصاً في المجال الإداري وعليه اعتبر جبل عامل خمس مناطق أو مقاطعات وهي: مقاطعة بلاد بشارة، ومقاطعة هونين- ومرجعيون، ومقاطعة ساحل قانا الذي يشمل مدينة صور، ومقاطعة الشقيف (منطقة النبطية)، ومقاطعة أقليم التفاح والشومر. ومنذ البداية تصرف كل حاكم على هذه المقاطعات كإقطاعي على الطريقة العثمانية، وليس كموظفٍ مدني على الطريقة المصرية، أقله في علاقته بألأهالي الخاضعين له في مقاطعته. لقد فرضً الحكام «الإقطاعيون» على الأهالي مجموعة من الضرائب دون العودة إلى الباشا أو إلى قانون عثماني أو ديني أو عرفي. كان الحاكم خصوصاً في تبنين، يعتبر أن حكمه للناحية تعطيه صلاحية التصرف بها كيفما يشاء. لقد فُرِضَ على الأهالي مجموعة من الإتاوات غير الإتاوة الحكومية المقررة سلفاً للباشا، فكان الحاكم يستوفي من الناس أنواع من الضرائب تحت أسماء مختلفة منها: الفدنة وهي رسم على كل فدّان، وثمن فراء بزعم أن الحكومة تطلبه في أول كل شتاء. كما كانوا يأخذون من الناس ثمن أحذية على زعم أنها للعسكر[1]. وجبوا غصباً أعشار الغلال، وجعلوا فوق ذلك على كل قرية شيئاً

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٣٠٣-٣٠٤.

معلوماً من الحبوب يورده الأهالي للأنبار ويسمونه حصة العنبر. كانت البلاد في أكثرها قد خربت أثناء الحرب ضد المصريين وبتعاقب الثورات ضدهم، ولم تكن النفوس محصاة أو مسجلة في دفاتر الحكومة ومثلها الأرض لم تكن مسجلة. ولم يعترف الزعماء لأصحابها بملكيتها، بل كانوا يعتبرون أنفسهم أولى بملكيتها من أصحابها، فكانوا يجمعون أهالي القرى ويقدمون لهم البذار وبعض رؤوس الأبقار للحراثة ويسمون الأهالي شركاء، فكل قرية لها شريك تساوي حصته حصة كل أهاليها. وقد ألزم الحكام وجلاوزتهم من الأغنياء المتعاونين معهم الأهالي بفلاحة الأرض وزراعتها رغماً عنهم. وظل الحال كذلك حتى سنة ١٢٦٩/ ١٨٥٣[١]. وهي السنة التي مات فيها الشيخ حمد.

وأورد الرحالة الأميركي إدوارد روبنصون ملاحظات هامة حول الوضع العام في تبنين ومديريتها أثناء مروره في المنطقة في ربيع سنة ١٨٥٢ فقال أنه أخبر أن «الشيخ أو البيك كان يتلقى راتباً شهرياً مقداره ٧٥٠ قرشاً بصفته حاكماً للمقاطعة، وكان يساعده ثلاثة موظفين راتب كل منهم ٣٠٠ قرش. كما كان يحصل الشيخ فوق ذلك على ما يعادل ١٥٠٠ قرش ثمن أطعمة. ولم يكن الشيخ يملك أرضاً، فكل الأراضي تحت سيطرة الحكومة. أما الضرائب فتحسب على أساس الفدان، ففي قرية تبنين مثلاً ٢٤ فدان وهي تدفع ١٢٠٠٠ قرش كضريبة أرض. بالإضافة إلى ذلك هناك ضريبة رأس تقدر ب ٢١٠٠ قرش، كذلك هناك ضريبة ثالثة مقدارها ٢٣٠٠ قرش ألغاها السلطان ولا زال الشيخ يجبيها لنفسه...»[٢].

في ظل هذه الظروف التي أحاطت بالحكام في المقاطعات العاملية كان لا بد أن يقوم الوجهاء خصوصاً الذين لم يستفيدوا مباشرة من الجبايات غير الشرعية، بحركة ما ضد الحكام لدى الباشا. فتحرك الحاج قاسم الزين (منطقة الشقيف) مع جملة من وجوه البلاد وشيوخها وتوجهوا بالشكوى إلى والي دمشق حينما حضر إلى بيروت على الحكام خصوصاً الشيخ حمد (البيك) المحمود[٣]. ويبدو أن الشيخ حمد قد تعهد بالقيام

---

(١) المصدر السابق.

(٢) E, Robinson. Biblical researches in Palestine (and the adjacent regions p 59

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٦ ص ٢٣١.

بأشياء معينة أمام الوالي الذي كان يعالج مشاكل الولاية المتفاقمة بسبب الحرب الأهلية بين الدروز والمسيحيين وتهديد الدول الأوروبية بالتدخل في البلاد.

عند وفاة الشيخ حمد (البيك) سنة ١٢٦٩/ ١٨٥٣ توقف خليفته، حفيد أخيه، علي الأسعد المحمد المحمود(النصار) عن أخذ الإتاوات ربما بتعليمات صريحة من الباشا الذي وافق على تعيينه حاكماً لمديرية تبنين ومنحه لقب شيخ مشايخ بلاد بشارة. فواجه منذ بداية حكمه حركة من الوجهاء في قرى المديرية استهدفت الحد من نفوذه ومن ثم عزله. وقد تكتل ضده أقرباؤه من أولاد حسين السلمان خصوصاً الشيخ تامر الحسين ووجهاء مقاطعة هونين ومرجعيون بالإضافة إلى وجهاء قرى مديرية تبنين ورفعوا ضده معروضاً إلى محمد خورشيد باشا أثناء وصوله إلى صيدا مع فؤاد باشا المكلف بصلاحيات فوق العادة لاصلاح الأمور في سوريا سنة ١٨٦٠ إثر الأحداث الدموية في جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين (بدىء بعد سنة ١٨٤٣ باستعمال اسم لبنان للتعبير عن مناطق الشوف وكسروان وبلاد جبيل، ثم شمل الإسم مناطق أوسع شمالاً وجنوباً) فأمر الباشا باعتقال علي الأسعد وقريبه، شقيق زوجته محمد الأسعد الخليل (النصار) وهو من فرع آخر من آل النصار، حيث ينتسب محمد النصار إلى الشيخ ناصيف النصار (محمد بن أسعد بن خليل بن ناصيف النصار) بينما ينتسب علي الأسعد إلى محمود النصار (علي بن أسعد بن محمد بن محمود النصار).

يروي الشيخ محمد مهدي مغنية: «لما اعتقلت الدولة علي بيك الأسعد مدير مقاطعة تبنين وأخاه محمد مدير مقاطعة مرجعيون وجبل هونين في صيدا سنة ١٢٨١/ ١٨٦٤. ثمّ أخذتهما إلى سجن بيروت. حضر الباشا (محمد خورشيد) من صيدا إلى قلعة تبنين رأساً. وكان برفقته السيد محمد (الأمين) قشاقش إذ هو مفتي البلاد عموماً. ولما حضر الباشا، والسيد محمد الأمين كلّه بكليّته مصروف اهتمامه لجهة الباشا وأصبح من بطانته ومن جملة الداخلين في حوزته. فطلبني الوالي إليه وبحضور السيد محمد وسألني عن مسائل واهية بقصد جرّ الضرر على البكوات فتنصّلت منها. فقنع الباشا مني وما تكدّر بشيء لا قولاً ولا فعلاً». ويتابع الشيخ مغنية روايته: «فما شعرت إلا قبل ركوبه بقليل حضر أحد الجند الخاص بالباشا وقال يأمرك الباشا أن تأتي معه إلى بنت جبيل وخذ معك رئيس

مجلس المحاسبة الحاج حسين جابر فقلت ممتثلاً نعم. وصبيحة اليوم الثاني باكراً ضرب النفير وركب الباشا وركبنا جميعاً والسيد محمد الأمين (قشاقش) والشيخ حسن سبيتي وأنا والحاج حسين فرحات. وكان برفقة الباشا محمد أفندي الحسين والمفتي الطرابلسي مفتي صيدا وانطون أفندي نصرالله. ولما وصلنا إلى بنت جبيل نزلنا في بيت الحاج محمد بزّي السيد محمد وأنا والشيخ حسن وإذا بالسيد محمد الأمين والحاج محمد الحسين والحاج حسين فرحات انتحوا جنباً وعملوا ديوان مشورة بعيدين عني وطوّلوا. فنمت وتركتهم، وجعلت عليهم رقيباً من لا تخفى عليه خافية. وعند الصباح طلبني الباشا إلى السرايا التي كانت ملكاً إلى تامر بك الحسين، فدخلت عليه فوجدته هو والسيد محمد الأمين فابتدأني بالكلام وقال لي: «إن البقايا من الأموال الأميرية المتراكمة على بلاد بشارة، أهي حقيقة على البلاد أم على البكوات؟». فأجبته لا أعلم، لأني ما كنت متداخلاً معهما(علي بك ومحمد بك) في الأشغال. فنهض السيد محمد الأمين وقال لي: «عندك علم بكل شيء عن هؤلاء الجماعة». فما سمع الباشا كلامي بل أمر كاتبه رفّول العورة أن يقطع أمراً إلى متصرفية عكا بوضعي في اللومان (السجن) فخرجت من عنده وحسبت الدنيا بأجمعها صارت ظلام. وداخلني الخوف والوهم ثم طلبني الباشا وقال متهدداً إن خطيتك وخطية عيالك برقبتك. ولكني اعتذرت وأنكرت كل معرفة، ولكنه أحضر القيد والبغلة وختم أمر ترحيلي إلى عكا وسلّمه للجند. فقلت له: إن رئيس المجلس الحاج حسين جابر أدرى بالحقائق فأرجو أن يصدر أمر دولتكم بسؤاله. فأتوا بالحاج حسين. من حينما دخل أخذ يرجف. وما حملته رجلاه على الوصول قدّام الباشا. فابتدأه الباشا مسكّناً روعه. وقال له: لا بأس عليك، أنت رجل مغصوب على ما كنت تفعله سأسألك عن مسائل فتجيبني عليها لأنك أدرى وأعلم من الجميع وذلك لعدة وجوه. أولها: أنت رئيس المجلس وكل حق كان للخزينة أو للأهالي فهو موقوف على توقيعك وموافقتك. فأقر لي بالواقع لتسلم مني ، وإلا أرسلتك إلى عكا. فخاف الحاج حسين كثيراً فأمهله الباشا مجدداً حتى يسكن روعه واستنطقه مجدداً. فقال الحاج حسين إن كل المطلوب من جميع بلدات القضاء هي بذمة البكوات ولم تزل. فتهلل وجه الباشا. وقال له: اكتب ما أقرّيت به واختم. فكتب الحاج حسين إقراره وختم بختمه. فقال لي الباشا سمحت عنك. ثم

خاطبني قائلاً: إن الشقيين (علي ومحمد بك) يزعمان أن هناك جملة قرايا مضمحلة»[١].

إن ما نقله الشيخ محمد مهدي مغنية هي إفادة شاهد عيان من أنصار علي ومحمد الأسعد عن الأحوال التي سادت بلاد بشارة في جنوب جبل عامل أثناء تسلمهما لمقاطعتي تبنين ومرجعيون حيث يظهر أن مفتي بلاد بشارة العالم السيد محمد الأمين قشاقش وهو من أتباع الباشا قام بنفسه بنقل الشكوى على علي الأسعد إلى الباشا. وفي بنت جبيل استدعى الباشا عدداً من الوجهاء الذين كانوا يسعون للتخلص من علي ومحمد الأسعد كالحاج حسين فرحات من ميس الجبل والحاج محمد بزي من بنت جبيل وهما من المشاركين في التوقيع على عدد من البيانات التي تشكو من تصرفات علي بك وشقيق زوجته محمد الأسعد. وأقام خورشيد باشا في بيت تامر الحسين حيث أجرى تحقيقاً في مسألة الأموال المتراكمة على بلاد بشارة. وبدا من التحقيق أن علي الأسعد قد قدم للباشاوية عرض حال يعلن فيه أن البلاد لم تستطع دفع ما يتوجب عليها تلك السنة بسبب المحل الحاصل فيها. وعندما استعلمت الدولة من بعض الوجهاء، خصوصاً حسين فرحات ومحمد بزي، أعلنا أنهما دفعا الضرائب في أوانها وسجلاها في سجل المحاسبة في تبنين، ولديهما وصولات بذلك. فطلب الباشا من الحاج حسين جابر مدير الحسابات أمام كل الموجودين كشهود أن يقر بالواقع وخوّفه العواقب، فاعترف أمام الباشا بأن كل القرى والبلدات التابعة لمديرية تبنين قد دفعت المتوجب عليها في حينه وأن الأموال موجودة في ذمة علي الأسعد ومحمد الأسعد. وكتب الحاج حسين جابر إقراره هذا ووقعه وختمه بختمه وشهد عليه الشيخ محمد مهدي مغنية والسيد محمد الأمين قشاقش. بعد ذلك أمر خورشيد باشا بسجن علي الأسعد ومحمد الأسعد في بيروت حيث لبثا في السجن هناك سنة كاملة (١٢٨١ـ١٢٨٢/ ١٨٦٤ـ١٨٦٥). وذكر السيد محسن الأمين أن عرائض كثيرة رفعت ضد علي الأسعد ومحمد الأسعد[٢]. كانت واحدة منها موقعة من السيد محمد الأمين قشاقش والشيخ علي زيدان والحاج محمد بزي والحاج حسين فرحات ومحمد الجوني، وربما هذا المعروض بذاته هو الذي أدى إلى سجن الأسعدين.

(١) حسين محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٢٨٢-٢٨٥ نقلاً عن مجلة العرفان م ٦٣ ص ٨٣.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٨ ص ٣٦٤.

وكان وجهاء منطقة تبنين ومرجعيون-هونين قد بدأوا يكتبون بيانات الشكاية من علي الأسعد وقريبه بتهم مختلفة وترد نفس الأسماء التي استمع إليها محمد خورشيد باشا في بنت جبيل في محضر مرفوع ضد علي الأسعد قبل ذلك وقد أورده السيد محسن الأمين: «....وحدثني الحاج محمد مبارك وكان من أتباع آل علي الصغير قال: تقدمت مضبطة في الشكاية على علي بك ومحمد بك وقّع فيها السيد محمد الأمين والشيخ علي زيدان والحاج محمد البزي والحاج حسين فرحات ومحمد الجوني فأرسلها ولاة الأمور إلى البكوات وطلبوا منهم توقيع مضبطة من هؤلاء الجماعة بضدها فركب محمد بك من الطيبة ليلا وأخذني معه وكنت صغير السن فلما وصلنا شقراء نزل قريبا وأرسلني إلى دار السيد محمد الأمين وقال قل له يقول لك أخوك محمد بك وقع هذه المضبطة واختمها فقال لي وأين هو محمد بك قلت خارج القرية فأراد ان يذهب إليه فقلت إنه مستعجل ولا يرضى بذهابك إليه فوقّعها. وركب محمد بك وأنا معه قاصداً بنت جبيل حتى وصلنا وعرة بيتحون (بيت ياحون) فسمعنا حسا على الطريق فعدلنا عن الطريق وجلسنا بين الشجر وإذا بالحاج محمد بزي والحاج حسين فرحات ومحمد جوني فقال لي قم وادعهم فدعوتهم فحضروا وأخرج شمعة فأنارها وأمرهم بختم المضبطة فامتثلوا ومضوا لحال سبيلهم وعدنا إلى الطيبة فأرسل إلى الشيخ علي زيدان يدعوه ولم يعلم الشيخ لماذا دعاه فلما حضر طلب منه توقيع المضبطة وختمها فأبى وقال أنا لا أكذب نفسي فالح عليه[1].

في سنة ١٨٦٤ وبعيد اعتقال الزعيم التبنيني علي الأسعد وقعت حادثة دموية بين بعض أهالي بنت جبيل وهم شيعة، وبعض من أهالي عين إبل، وهم مسيحيون. وكان من نتيجة ذلك سقوط قتلى ووقوع أعمال سلب. فحضر الحكمدار واعتقل جملة من أهل بنت جبيل ونفاهم إلى بيروت وطرابلس وقلعة الحصن. وبعد مدة قصيرة أحرق الحكمدار بلدة طربيخا بكاملها لقضية وقعت بين واحد من أهلها وواحد مسيحي من بعض قرى صفد. وأمر باعتقال عدد من وجهاء المنطقة[2].

---

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) حسين محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٤١٩.

وبعد تصفح أسماء المعتقلين يظهر أنهم هم أنفسهم الذين وقعوا المحضر الذي اتهم علي الأسعد بأخذ أموال الجباية وعدم تسليمها لخزينة الولاية وهم الحاج حسين فرحات من ميس الجبل والحاج محمد بزي من بنت جبيل والمفتي السيد محمد الأمين قشاقش من شقرا والشيخ حسن سبيتي من كفرا، وهذا كان يعني أن إبعاد الزعيم التبنيني علي الأسعد قد أوجد حالة من العداء بين أنصاره وبين أبناء القرى التي تتبع الوجهاء فآثرت الحكومة استغلال حادث طائفي في المنطقة لتقوم بابعاد الوجهاء أيضاً. كانت مدة ابعاد هؤلاء الوجهاء عشرة أشهر وهي تقريباً نفس المدة التي سجن فيها علي الأسعد في بيروت، قبل أن ينقل إلى دمشق مع وعد بالإفراج عنه هناك.

وبعد عزل محمد خورشيد باشا وتسلم محمد رشدي باشا أعاد الاستماع إلى إفادة علي الأسعد ومحمد الأسعد ثم أفرج عنهما شرط عدم مغادرة بيروت. فبقيا منتظرين أوامر الباشا الجديد مدة حتى أطلقهما حرين فتوجها إلى دمشق ونزلا في بعض دور الشيعة فيها. ويبدو أن ذهابهما إلى دمشق كان قسرياً لأن باشا الشام منعهما من مغادرة المدينة والعودة إلى جبل عامل «وكان الوالي في كل يوم يقول لهما لا تذهبا لنا معكما مخابرة فإذا جاءا تشاغل عنهما إلى أن وقع الوباء فدعاهما هو وبعض رجال الدولة على مائدة فمات علي بيك. ثم أصدر الأمر إلى محمد بيك في اليوم الثاني وأمره بالإسراع لملاقاة شؤون علي بيك فمات في اليوم الرابع[(١)].

هناك مبالغات كثيرة ذكرها بعض المؤرخين العامليين للدلالة على سطوة وجبروت علي الأسعد فقد ذكر الشيخ محمد فقيه أن علي (بيك) الأسعد وفد على فؤاد باشا السياسي التركي المعروف ومعه «ما يزيد على ألف فارس من خيرة فرسان الشيعة وأبطالها. فأوكل إليه حفظ الأمن في ضواحي دمشق وحوران ووادي التيم وحماية منكوبي المسيحيين وتأمين نقلهم إلى الساحل ومطاردة الثوار الفارين...». كما يذكر في مكان آخر أنه: «كان علي (بيك) الأسعد إذا سار يواكبه خمسمائة فارس شاكي السلاح على خيول مطهمة قد تقلدوا السيوف المحلّاة أغمادها بالذهب والفضة والقرابينات الضخمة الواسعة الفم

(١) المصدر السابق نقلاً عن العرفان م ٦٣ ص ٩٦.

وبأيديهم الرماح...»[١]. ولتبيان الحقيقة يمكن التذكير بأن علي الأسعد كان موظف في مديرية تبنين في نفس الوظيفة التي شغلها قبله عمه حمد النصار براتب شهري قدره سبعماية وخمسين قرشاً. فمن أين كان ينفق على هذا الجيش العرمرم؟ وكيف تركت الدولة العثمانية المعادية للشيعة، حسب رأي المؤرخ الذي يكرره كثيراً، للبيك علي الأسعد حفظ الأمن والسيطرة على مناطق مثل ضواحي دمشق وحوران ووادي التيم؟ وقد ذكر نفس المؤرخ في صفحة سابقة أن علي بيك قد اشتبك في «حرب ضروس» مع تامر الحسين النصار حاكم مقاطعة هونين - مرجعيون في مدخل قرية تبنين فسقط بعض الجرحى. وهذا يثبت عدم وجود ذلك العدد من المجندين بل فقط وجود بعض الأنصار والمحازبين لهذا «البيك» أو ذاك.

كما يذكر المؤرخ محمد جابر العلامةَ الزعيم المفكر الشيخ علي الحر فيقول: من أشهر علماء وزعماء جبل عامل في العهد الأخير. اشتهر بأصالة الرأي وبعد النظر والكرم الحاتمي والغيرة على مصالح الطائفة ونزاهة القصد. وكان في المعاملات الرسمية الحكومية «التشريفات» يتقدم جميع زعماء جبل عامل. وله المواقف المشهورة لدى الوزارة والولاة يضيق المقام عن استيعابها لا سيما موقفه المعروف في حضرة فؤاد باشا في حوادث سنة ١٨٦٠. وأبوه الشيخ أحمد وجده الشيخ محمد الحر وأسلافهم من قبل كانوا يتولون القضاء في جبل عامل تحت اسم نائب البشارتين. والشيخ علي كان من رجال الحركة العربية وعضو مؤتمر دمشق في عهد مدحت باشا[٢].

فإذا كان الزعيم المفكر الشيخ علي الحر يتمتع بكل هذه المزايا وله عند السلطة هذا الاعتبار، فماذا بقي للزعماء الآخرين في بلاد بشارة مثل علي (بيك) الأسعد أو سواه؟

لم يطل الوقت بعد وفاة علي الأسعد ومحمد الأسعد حتى ألغت الدولة العثمانية الإقطاع وسنت قوانين وتنظيمات جديدة في البلاد حدت من سلطة زعماء الأسر ووجهاء القرى.

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٣١٩.

(٢) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٤٣.

في النظام الجديد أصبح جبل عامل تابعاً لولاية سورية التي شملت الولايات الأربع الشامية حلب ودمشق وصيدا وطرابلس[1]. وانتهى دور وجهاء الأسر وأصبح الموظفون الحكوميون يديرون جبل عامل الذي أصبح حسب النظام الجديد مقسوماً إلى ثلاثة اقضية وهي: صيدا وصور ومرجعيون. كما خضعت البلاد لنظام الضرائب العثماني الجديد الذي تفرضه الدولة على شكل قوانين. في نفس الوقت ظل نظام التعشير قائماً وهو نظام يفرض بموجبه على المزارعين دفع عشر انتاج الحبوب على جميع أنواعها للدولة. وجرى تقسيم الأراضي على الفلاحين وسجلت بأسماء من يزرعونها وكانت الأراضي قبل لك تعتبر خراجية وملكاً للدولة، وكان السلطان يلزمها للزعماء بمبلغ يتفق عليه.

في هذه الفترة أخضع الشباب في جبل عامل للتجنيد الإجباري وهو ما لم يكن قائماً قبل ذلك بل طبّق نظام القرعة بعد خروج ابراهيم باشا من سورية.

---

(١) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤ ص ٧.

الفصل السادس عشر

نهاية الدولة العثمانية

١ - الفتن الطائفية والمذهبية

٢ - عائلات جديدة ووجهاء جدد

٣ - جبل عامل في ولاية بيروت

٤ - الجمعيات العربية والمحكمة العرفية

١ - الفتن الطائفية والمذهبية

لا علاقة بين وقوع الفتن الدينية والمذهبية التي وقعت في لبنان بعد خروج القوات المصرية وبين نهاية السلطنة العثمانية، ولكن الأحداث تقاربت حتى ليعتقد الباحث أن نهاية الدولة كانت بسبب تلك الفتن الكثيرة التي اجتاحت البلاد والأقطار والصراعات العرقية والقومية والدينية.... وكان نصيب جبل عامل أن يرزح تحتها وإن بنسبة أقل مما وقع في جبل لبنان.

يمكن اختصار الأحداث التي أدت إلى وقوع الفتن الطائفية إلى تصرفات الأمير بشير الشهابي أثناء حكم المصريين لسورية حيث ارتكب جيشه أفعالاً إجرامية في بعض المناطق التي أمرته الدولة المصرية بالتدخل فيها. ففي صيدا تدخل جيشه بقيادة ابنه أمين فاعتقل وأهان علماء الدين السّنّة ثم قتل عدداً منهم بطريقة تدعو إلى الاستغراب وكأنه يستدعي ردة فعل دينية. وعندما تدخل جيشه في جبل عامل أثناء حركة حسين الشبيب النصّار تعمد في حركته تحقير الشيعة بطريقة تستدعي ردة فعل دينية ومذهبية. وكذلك فعل وزاد أثناء ثورة دروز حوران ضد ابراهيم باشا حيث وضع جيش بشير الشهابي السمّ في آبار مياه الشرب في حوران فقضى على أعداد كبيرة من الناس كباراً وصغاراً بالإضافة إلى قضائه على البهائم، مما اضطر الدروز للاستسلام لابراهيم باشا الذي لم يطل احتلاله بعد الثورة واضطر للجلاء عن سورية. فبدأ الدروز فوراً عملية انتقام ديني ضد المسيحيين امتدت إلى جبل لبنان واستغرقت أكثر من عشرين سنة من الحروب الثأرية انتهت بتدخل الدول الأوروبية الكبرى التي ضغطت على الدولة العثمانية حتى أنشأت «متصرفية جبل لبنان» لمصلحة المسيحيين. وفُرض على السلطان العثماني القبول بشبه استقلال لمتصرفية جبل لبنان مع ربطها باسطنبول مباشرة.

أثناء الحرب الطائفية بين الدروز والمسيحيين استيقظت الأحقاد القديمة القائمة بين أهل جبل عامل وأهل جبل الدروز منذ حقبات زمنية متطاولة، فتعاطف العامليون

الشيعة مع المسيحيين ووقفوا إلى جانبهم حيثما تمكنوا من مناصرتهم أو إسعافهم ومساعدتهم. وأخيراً وصلت الأحداث بين الطرفين الشيعة والدروز إلى حد الاصطدام والمواجهة المباشرة سواءً في البقاع البعلبكي أو في منطقة مرجعيون حيث وقع ما عرف باسم «حادثة الخيام» التي يختصر روايتها المؤرخ محمد جابر صفا بقوله: «...وصل الخبر إلى النبطية في خريف سنة ١٣١٢/ ١٨٩٤ أن الطائفة الدرزية في حاصبيا ووادي التيم جمعت جموعها ورفعت بيارقها وعزمت على مهاجمة قرية الخيام لحرق بيوتها والفتك بأهلها. وهي قرية كبيرة تقع في آخر الحدود الشرقية من جبل عامل، وفيها آل عبد اللّه الذين ينتسبون إلى التنوخيين وقد لعبت هذه الأسرة دوراً هاماً في تاريخ جبل عامل في عهده الحديث، وكان لها مواقف مشرفة. فوجم السيد (حسن يوسف مكي) ورأى أن لا مناص من العمل والإسراع لدفع الغوائل. فعقد في منزله مجلساً ضمّ علية القوم وأصحاب الرأي والتدبير. فأقروا إصدار منشور عام لأبناء الطائفة الشيعية في جبل عامل يدعوهم فيه للاجتماع في الخيام والدفاع عنها بقوة السلاح. وأن لا يتعدوا الحدود ولا يبدأوا أحداً بشر. وأرسل منادياً ينادي في الأسواق «هلموا لنصرة إخوانكم، هلموا للدفاع عن كرامة طائفتكم». ووضع نص المنشور في نسخ عديدة أرسلت مع السعاة لزعماء البلاد ووجهائها. وكان لهذه المناشير تأثيرها العظيم، فسار الناس إلى الخيام أفواجاً سراعاً دراكاً. ولم يمض اثنتا عشرة ساعة حتى بلغ عددهم خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألف مسلح. وكانت الرسائل ترد من زعماء «العشائر» إلى الزعيمين الحاج محمد والحاج ابراهيم عبد اللّه.... وتوالت الرسائل بين آل عبد اللّه والشيخ حمد قيس شيخ الطائفة الدرزية في حاصبيا وجوارها. وكان يتولى السفارة بينهما شيخ درزي يدعى أبا علي سباغة. وكانت رسائل الشيخ حمد تنطوي على رغبة صادقة لإنهاء المشاكل وحقن الدماء..... وحاول خمسمائة شاب مسلح من أهالي الخيام وعيثرون اشتد بهم الحماس واندفعوا للناحية الشرقية يريدون الهجوم على قرية المارية وبعض القرى الدرزية فردهم العقلاء وهدأوا ثائرتهم»[1].

أما أسباب الحادثة فهي ترد في نفس المصدر وتفيد بأن «رجلين من أهل الخيام ذهبا

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٥٧ -٢٥٨.

إلى جهة القنيطرة لبيع بطيخ ولما رجعا اعترضهما ثلاثة رجال مسلحين من دروز عين قنية قرب بانياس وأرادوا سلبهما فحدث بين الفريقين عراك أسفر عن قتل درزي وجرح خيامي. واتصل خبر الحادث بأقارب الجريح الخيامي فجاء من حمله إلى بلده وفي طريقهم اعترضهم درزي آخر فقتلوه. واستعظم الدروز أن يقتل منهم اثنان في جريح واحد. فحشدوا رجالهم في قرية المارية شرقي الخيام ونشروا البيارق وشرعوا بالأناشيد الحماسية فاحتشد أهل الخيام أيضاً في ساحات بلدهم يهزجون وينشدون. وخشي آل عبد اللّه أن يتفاقم الأمر بطيش الشباب»(١).

تبدو حادثة الخيام أمراً عادياً وطبيعياً ويمكن أن يقع شبيه لها في كل زمان ومكان دون أن يكون لذلك بعد مذهبي أو طائفي أو عشائري. ولكن هذه الحادثة بالذات كتبت لاثبات أمر خارج الحادثة وهو وجود زعماء أو وجهاء جدد خارج العائلات القديمة التي ادعى كثير من مؤرخي جبل عامل أنهم كانوا مستمرين في الزعامة منذ قرون. فظهور أسماء آل عبد اللّه في الخيام وربط نسبهم بالتنوخيين يمهد لإظهارهم وإظهار سواهم من الوجهاء على أنهم الزعماء البدائل في جبل عامل الحديث. وبما أن هذا الأمر لا يمكن أن يمر دون أن يذكر وجود لبعض ورثة الزعامة القديمة فأكمل المؤرخ الرواية باتجاه ذلك: «ولمّا أصدر السيد (حسن مكي) منشوره الآنف الذكر هبّ الناس إلى السلاح وساروا إلى الخيام زرافات زرافات. وكان أول من أسرع للنجدة من زعماء العشائر ناصيف (باشا) الأسعد النجل الثالث للمغفور له علي بيك الاسعد الزعيم الأشهر. وقد قدم النبطية في طريقه إلى الخيام على حصان أشهب في خيل كثيرة ورجال مسلحين»(٢). وهكذا اجتمعت أسماء السيد حسن يوسف مكي ومحمد وابراهيم عبد اللّه والحاج علي الزين الذي خرج من شحور في خمسين رجلاً ووصل إلى الخيام ومعه ألف رجل، كما وصل ناصيف باشا الأسعد. بينما لم يذكر من هو الوجيه الذي قاد الـ «خمسمائة» مسلح من أهل الخيام وعيثرون. فاجتماع خمسمائة مسلح لم يكن بالصدفة وتقريرهم الهجوم على قرية المارية لم يكن فردياً وقد ردهم الوجهاء عن فعل ذلك.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

إن رواية حادثة الخيام المثيرة للغرائز والمحرضة على الالتحام المذهبي في وجه عدو افتراضي هي الطريقة الأكثر شيوعاً في كتابة التاريخ العاملي. فتصبح الأحداث مهما كبرت أو صغرت أحداثاً طائفية أو مذهبية تدفع الناس دفعاً ليكونوا تحت جناح زعيم افتراضي. أما في واقع الحال فإن الحادثة هذه كما غيرها من الحوادث التي وقعت في تلك الفترة، قد انتهت دون وقوع أي عمل ثأري من الطرفين لأن الدولة العثمانية أرسلت «شرذمة من فرسان الدرك بقيادة ضابط قضاء مرجعيون محمد آغا قره شولي الكردي فرابطت في القرية». فلم يحدث أي حادث يعكر صفو الأمن. ولكن، ولأن السلطة تريد إثارة الأمور لهدف فقد أرسل والي سورية (رغم أن الخيام تتبع والي بيروت) أربعمائة فارس على رأسهم خسرو باشا، كما وصلت في اليوم نفسه إلى الخيام فرقة من فرسان الدرك، ثم فرقة من العسكر الشاهاني (سواري) من آلاي بيروت وعلى رأسهم البينباشي مصطفى بيك الكردي الدمشقي. وطلب القائد بعد وصوله من وجهاء المجتمعين في الخيام: أولاً فض الاجتماع. ثانياً: تشكيل لجنة من زعماء الشيعة والدروز للنظر في أسباب الخلاف وحله على طريقة العشائر أي أن لا تنظر فيه المحاكم القانونية. ثالثاً: الموافقة على اجتماع زعماء الطائفتين في مكان معين لعقد راية الصلح والوفاق»[(١)].

لم يرد بين المجتمعين إسم لزعيم يمكن أن يسمى زعيم البلاد أو زعيم جبل عامل وهذه ما انتبه لها المؤرخ. فأورد بعد كل ما جرى في الخيام وما أعقبه من تدخل الدولة بخيالتها ودركها من ولايتي دمشق وبيروت لمنع الفتنة والاقتتال أن المجتمعين في الخيام قد استمهلوا قائد العسكر (سواري) إلى صبيحة اليوم التالي لاعطائه الجواب والسبب هو رفع النتائج إلى «زعيم البلاد الأكبر» المغفور له خليل بيك الأسعد. وهذا الاستنتاج المتأخر لا يملأ الفراغ الأولي عندما لم يرد ذكر لهذا الزعيم أثناء وقوع الأحداث وحتى تدخل الدولة بعسكرها. ويضيف المؤرخ مستنتجاً أو مستنسباً الكلام «أن والي سورية كتب إلى الباب العالي ينسب إليه (خليل الاسعد) إثارة هذه الفتنة بممالأة والي بيروت. وأن ولده كامل بيك يتحفّز لخوض نيران القتال ومعه ألف رمّاح»[(٢)]. حسب رواية

(١) المصدر السابق ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق.

المؤرخ الذي ذكر أكثر من مرة أنه شارك في كل تلك الأحداث أن خليل بيك الأسعد قد وجّه باتخاذ الحكمة ومنع الإعتداء وأنه لا بأس بالصلح.

يلاحظ استعمال كلمة «ألف رمّاح» التي تعني «جنود يستعملون الرماح» وهذا تعبير يثبت بطلان الرواية لأن المجندين سنة ١٨٩٤ كانوا يستعملون البنادق. وقد بطل استعمال الرماح قبل ذلك بأكثر من نصف قرن.

في اليوم التالي أبلغ القائد العثماني بقبول وساطته للصلح فعقد الاجتماع عند رأس نبع الحاصباني قرب سوق الخان. وقد اعتذر خليل الأسعد عن الحضور وأناب عنه نعيم بيك الفضل. وانتهت الحادثة برفع الهتاف «بادشاهم جوق يشا» أي «ليعش مولانا السلطان».

٢ - عائلات جديدة ووجهاء جدد

لقد انتهت حادثة الخيام لتثبت نتيجة أساسية وهي عودة الزعامة في جبل عامل إلى عهدها العربي التقليدي. أي أن وجهاء الأسر الكبرى يتحولون من وجهاء أسر في القرى إلى زعماء محليين تزداد سطوتهم كلما ازداد عدد الرجال في أسرتهم أو كلما ازدادت ثرواتهم. أو كلما تلقوا دعماً سياسياً من الجهات الحكومية النافذة. وقد برز في هذا العهد انطلاقاً من حادثة الخيام ونتائجها عدد من الأسر الكبيرة في جبل عامل سيكون لها دور في الشأن السياسي والإجتماعي في جبل عامل حتى نهاية الدولة العثمانية وامتداداً إلى الانتداب والاستقلال حيث لا زالت هذه العائلات تتابع دورها التقليدي إلى اليوم. فبعد أن ارتاح جبل عامل ردحاً من الزمن من تسلط زعماء الأسر القديمة عليهم بدأت تظهر في البلاد الزعامات الأسرية الجديدة التي نمت وكبرت خلال النصف قرن السابق. ومن أهم الأسر التي برزت في جبل عامل منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر عائلتا الأسعد المتحدرتان من نسل نصار النصّار. وآل الزين (ومنهم آل الخليل)، وعسيران، وبزي وبيضون وعبد اللّه وفرحات....إلخ. إضافة إلى استعادة جزئية لورثة زعامات آل نصّار ومنكر وصعب لكن على نطاق ضيق وفي مناطق محدودة.

آل الأسعد: الذين يتحدرون من آل النصار من أولاد الشيخ مشرف آل علي الصغير.

أي أنهم من العائلات الأقدم من حيث استمرار زعامتها في جبل عامل طيلة القرنين الثامن والتاسع عشر وحتى زوال الدولة العثمانية.

وآل الأسعد عائلتان مختلفتان وليسوا عائلة واحدة رغم حملهم لنفس الإسم. الأولى تنتسب إلى علي الأسعد المار ذكره وهو علي بن أسعد بن محمد بن محمود بن نصار النصار. وقد ترك علي الأسعد ثلاثة أولاد هم شبيب (١٨٥٢-١٩١٧) ونجيب (١٨٤٩-١٨٨٤) وناصيف (١٨٥٨-١٩١٨).

أما العائلة الثانية فهم ينتسبون إلى أسعد بن خليل بن ناصيف بن نصار النصار. وقد ورث الزعامة منهم خليل شقيق محمد بن أسعد الخليل. فبعد موت أخيه محمد وصهره علي الأسعد سيطر على قلعة تبنين وحاول أن يجدد زعامة بيت ناصيف النصّار لكنه لم يدرك الهدف لأسباب كثيرة. وبقي زعيماً في منطقة جبل هونين من بلاد بشارة. وعُيِّن خليل الاسعد قائمقاماً على القضاء المستحدث «مرجعيون» الذي حل إدارياً محل جبل هونين وجعل مركزه في كفركلا قبل أن ينقل لاحقاً إلى جديدة مرجعيون. ثم عيّن متصرفاً للواء البلقاء ثم في لواء نابلس في عهد والي سورية حمدي باشا الذي اهتم جداً بإصلاح الأحوال في سورية كلها وخص جبل عامل بلفتة كبيرة فأنشأ مديرية النبطية لتتحول بعده إلى قصبة لمنطقة بلاد الشقيف. ونقل السيد محسن الامين أن خليل الأسعد قد عزل عن الوظائف بعد حمدي باشا وبقي بقية حياته عاطلاً من الولاية حتى توفي سنة ١٣١٤/ ١٨٩٦[١]. وقبل وفاته وقعت حادثة الخيام التي أعطي فيها خليل الأسعد وابنه كامل دوراً كبيراً مهد الطريق ليتحول كامل الخليل الأسعد إلى أهم زعيم في بلاد بشارة حتى نهاية العهد العثماني.

كان لخليل الأسعد ثلاثة أولاد كامل وعبد اللطيف ومحمود. وقد برز منهم كامل الأسعد الذي انتخب نائباً في مجلس المبعوثان. وفيما كتبه الشيخ أحمد رضا، وهو من الذين عاشوا في مطلع القرن العشرين، ما يوحي بأن انتخاب كامل الأسعد تم بإرادة الوالي وبدعمه. لقد تحول كامل الأسعد إلى زعيم أكبر للطائفة الشيعية في جبل عامل رغم منافسة بعض الأسر في بلاد الشقيف له خاصة آل الزين ومنهم آل الخليل وربما كان

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٦ ص ٣٤٨.

ذلك هو السبب الذي دفعه للوشاية بعبد الكريم الخليل لدى السفاح جمال باشا مما أدى إلى إعدامه. ويبرر المؤرخ محمد جابر صفا ما فعله كامل الأسعد بأنه «ناتج عن رغبته في ابعاد رضا الصلح عن شؤون جبل عامل، وأن كرهه لعبد الكريم الخليل ناتج عن ترشح الخليل للنيابة عن جبل عامل في البرلمان العثماني معتمداً على مساعدة بعض موظفي الدولة. ولأن كثيرين من أعيان الشيعيين يمت له بصلة الصداقة والنسب، ولأنه يدين بمذهب الشيعة الإمامية. وكان كامل الأسعد يحسب أن النيابة عن الشيعيين في جبل عامل حق من حقوقه لا تجوز لسواه مهما كانت هويته»[1]. وهذه التبريرات لا تلغي النتيجة. فالشهيد عبد الكريم الخليل دفع روحه ثمناً لتلك الوشاية.

استمر كامل الاسعد في زعامته حتى ما بعد نهاية الدولة العثمانية ومجيء جيش الاحتلال الفرنسي حيث واجه مشكلات جمة أدت به إلى ترك البلاد مؤقتاً. بقي كامل الأسعد يحظى بزعامة مرموقة في جبل عامل حتى وفاته سنة ١٩٢٤.

آل الزين: يقولون بأنهم ينتسبون إلى قبيلة الخزرج من الأنصار. كان لهذه الأسرة الدور الريادي في جبل عامل خصوصاً في ساحل صور ومنطقة الشقيف من منتصف القرن الثامن عشر وحتى نهاية الدولة العثمانية. برز منهم عدد من والأدباء والعلماء. كما تمكن بعض رجالهم من الوصول إلى زعامة منطقة الشقيف على حساب الأسرة الصعبية السابقة التي ضعفت جداً بعد سيطرة المصريين على سورية (١٨٣٢ـ١٨٤٠). أول من يذكر من رجالهم الكبار الشيخ علي الزين الذي قاد معركة التمرد العاملية ضد أحمد باشا الجزار والتي أدت إلى كارثة شحور بعد هزيمة المتمردين. ففر الشيخ علي الزين إلى دمشق ومنها إلى العراق فإيران. وقيل بأن هروبه انتهى إلى الهند حيث أصبح وزيراً عند أحد ملوكها. كما يشتهر منهم الشيخ حسين (أبو خليل) ابن سليمان الزين وأخوه اسماعيل والد حسين ويوسف الزين. كذلك اشتهر في منتصف القرن التاسع عشر الشيخ قاسم الزين الذي نافس الزعيم الشيخ حمد بن محمود النصار على زعامة جبل عامل وتمكن من اكتساب ولاء كثير من الأسر في منطقة الشقيف (النبطية وما حولها).

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢١٤-٢١٥.

آل عسيران: يقولون بأن أصلهم من بعلبك وهم يتحدرون من نفس العشيرة التي يتحدر منها آل سليمان وآل حيدر جاء جدهم عسيران إلى جبل عامل هرباً من الأمراء الحرافشة خوفاً على أمواله واستقر في صيدا. وتمكن في سنوات قليلة من شراء واستملاك عقارات كثيرة في قرى كفرفيلا وجباع والمطرية واللوبية وكفرحتى وكفربيت. وهناك سِجلٌ في المحكمة الشرعية في صيدا بتاريخ سنة ١١٢٧/ ١٧١٥ يثبت شراء عبيد بن علي المعروف بابن عسيران «من ماله لنفسه من حسن جلبي الدار الواقعة في محلة الخيمة والمعروفة الآن بمحلة رجال الأربعين بأربعة عشر قرشا من القروش الأسدية»[١]. وقد قام بعده ولده ابراهيم الذي عمل جاهداً في خدمة مصالح الشيعة في صيدا حتى وفاته سنة ١١٩٠/ ١٧٧٦ تاركاً ولدين هما حسين ومحمد. وقد أصبح حسين شاهبندر التجار على الإيرانيين في صيدا بطلب مباشر من الشاه الإيراني ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٥/ ١٨٤٩ بموجب فرمان لا تزال صورته محفوظة في سجلات المحكمة الشرعية في صيدا. وبسبب ذلك أصبحت له مكانة لدى الحكام بسبب الامتيازات التي كانت للأجانب وأصبحت له نفس مكانة القناصل الأجانب في المعاملات الرسمية. وقد ثبت ذلك اثناء استقبال الوزير كامل باشا للقناصل الأجانب في صيدا وكان بينهم الحاج حسين عسيران. ولما توفي الحاج حسين تعين مكانه ولده عبد اللّه عسيران.

لعب آل عسيران دوراً مهماً بين العائلات العاملية وأصبح منهم عدد من وجهاء منطقة صيدا في نهاية الدولة العثمانية لتستمر بعد ذلك في عهد الانتداب وبعد الاستقلال.

آل بزي: يعتقد بأنهم ينتمون بالإسم إلى قرية بزة في شمال غرب إيران لورود بعض أسماء علماء الدين بهذه النسبة. وقد سكن آل بزي بلدة بنت جبيل منذ إنشائها في القرن السابع عشر حول السوق الذي كان يقام فيها في تلك الآونة. أما أول رجل يرد اسمه في بعض المصادر التاريخية من آل بزي فهو صالح آغا بزي الذي يذكر كأحد الرجال الأشداء والمعتبرين أيام الشيخ ناصيف النصار. وقد يروي بعض آل بزي ما يفيد أن صالح آغا كان حياً سنة ١٧٢٩ قبل أن يشتهر الشيخ ناصيف في جبل عامل. أحد أولاد

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٢ ص ٤٩٨.

صالح بزي عمل جابياً في عهد أحمد باشا الجزار الذي عاد واعتقله ثم أعدمه في عكا سنة ١٧٨٧. كما أقدم الجزار على إعدام وجيه آل بزي سليمان سنة ١٧٩٩. واشتهر من العائلة الحاج محمد بزي الذي ورد اسمه سنة ١٨٦٤في المحضر الذي رفع لفؤاد باشا ومحمد خورشيد باشا ضد علي الأسعد فكان الحاج محمد بزي أحد ثلاثة وجهاء في جبل هونين الذين وقعوا المحضر. وفي نهاية القرن التاسع برز الحاج محمد سعيد بزي الذي أصبح عضو في محكمة مرجعيون وشارك في مؤتمر الحجير سنة ١٩٢٠ كما اشتهر في نفس الوقت محمود أحمد بزي أحد أعوان الشهيد أدهم خنجر، والذي شارك بفعالية في الثورة العربية ضد الدولة العثمانية كما شارك في الثورة السورية الكبرى.

آل عبد اللّه: يقولون أنهم ينتسبون إلى الأمير عبد اللّه التنوخي حيث لا زال فرع من الأسرة يعرف إلى اليوم بآل «تنوخي». وتنوخ اسم لقبيلة عربية يمنية مشهورة ينتسب إليها عدد كبير من العائلات الشامية في لبنان وسورية. أول من اشتهر من آل عبد اللّه كان الحاج محمد العبد اللّه الذي لعب دوراً بارزاً في الأحداث التي جرت سنة ١٨٩٤ بين شيعة جبل عامل ودروز حاصبيا والتي أدت إلى وقوع قتلى من الطرفين ثم انتهت الحوادث بالصلح.

واجه الحاج محمد عبد اللّه عداوة عدد من رجال بلدته الخيام بسبب الخلاف على ملكية الأراضي الزراعية في مرج الخيام (شرقي الخيام) وسهل مرجعيون (غربي الخيام). وقد ذكر الشيخ الفقيه هذه القضية بقوله: «في سنة ١٨٢٩/ ١٩١١ جرى نزاع بين آل العبد اللّه، وبين أهل الخيام أدى إلى خرابها، ثم احتكموا إلى الزعماء فرضي آل العبد اللّه بكل ما يحكم به كامل بيك الاسعد واشترط أهل الخيام اشتراك غيره من الزعماء»[١].

آل فرحات: حسب الشائع بينهم أن أصلهم من قرية فرحت إحدى قرى كسروان وربما كانت أسماؤهم تنسب إليها (آل فرحت) وهم إحدى العائلات التي ارتبطت بتحالف العشائر الحمادية في جبل لبنان. ثم استعمل الإسم بصيغة الجمع «فرحات». أما ما يشاع عن انتسابهم إلى أمير حمداني يدعى فرحات (وأنه عاش في أيام سيف الدولة) فهي

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٣٤٥.

أخبار لا إثبات عليها وليس لها مصدر موثوق يمكن الركون إليه. فالتشابه في الأسماء لا يثبت وحدة الانتماء. وإذا صدقت الروايات التي تنسب (آل فرحات) إلى الشيخ فرحات الحمدني فإن ذلك يثبت وجود أكثر من عائلة تنتمي إلى أصول مختلفة وتحمل نفس الإسم. مما لا شك فيه أن أسراً كثيرةً شيعيةً نزحت عن حلب ومنطقتها نحو جبل لبنان أثناء حكم المماليك وفترة الغزوات الكبرى التي قام بها التتار عليهم حيث وجدت هذه الأسر في لبنان الملاذ الآمن إلى جانب العشائر الحمادية.

في مطلع القرن التاسع عشر اضطر عدد من بيوت آل فرحات للانتقال من بلاد كسروان إلى جبل عامل بسبب المشاكل السياسية والاقتصادية التي عصفت بمنطقة كسروان أثناء حكم الشهابيين. فانتقل بعضهم جنوباً حيث استقروا في عدد من القرى من أهمها قرية عنقون في منطقة صيدا وقرية سجد في أقليم الريحان. ونزح أحدهم (الحاج محمد فرحات) من عنقون إلى جويا في ساحل صور فيما انتقل ابنه الحاج حسن ليقيم في برعشيت أما ابنه الحاج حسين فقد استقر في ميس الجبل بعد سنة ١٨٤٠. الأبرز من هذه الأسرة هو الحاج حسين فرحات (ت ١٨٩٢) الذي ورد اسمه في الصراع على الزعامة بين وجهاء جبل هونين. فهو من وقع المضبطة التي أدت إلى اعتقال علي الأسعد وشقيق زوجته محمد أسعد الخليل النصار كما اتهم في قضية الحوادث الطائفية بين الشيعة والمسيحيين في رميش. وأخيراً اتهم بتدبير ودعم مؤامرة للثورة على الدولة العثمانية.

كما اشتهر من هذه الاسرة سعد الدين حفيد الحاج حسين فرحات في قرية بليدا جنوب ميس الجبل والذي قتل غدراً بتحريض من بعض زعماء المنطقة سنة ١٩٣٤.

ظل نفوذ هذه العائلات محدوداً ومحصوراً في عدد من القرى التي ينتمي إليها هؤلاء ولم تصل إلى مستوى الزعامة الشيعية الثابتة والمهيمنة في جبل عامل.

٣ - جبل عامل في ولاية بيروت

بعد التدخل الأجنبي الذي حدث في نهاية عهد ابراهيم باشا في سورية انتشرت الفوضى في طول البلاد وعرضها، ولم تسلم منطقة في البلاد السورية من الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية. كان يغذي هذه الفتن الدولتان الأوروبيتان الإستعماريتان بريطانيا وفرنسا.

ولدى كل منهما أنصار ومحازبين يأتمرون بأوامرهما، حتى أصبح وجود الدولة العثمانية في سورية ضعيفاً لا يمكن معه استمرار الطريقة التقليدية القديمة في إدارة البلاد. عندئذ لجأت الدولة العثمانية إلى مجموعة من الإصلاحات بدأتها أثناء وجود الجيش المصري في سورية. وحرصت لذلك على تطبيق المبادىء الإصلاحية التي وردت في خط كلخانة ١٨٣٩ في بلاد الشام. فطلبت من عزّت باشا والي عكا (صيدا) وملحقاتها وسرعسكر برية الشام بأن «يبذل الهمة لاستحصال أسباب رفاهية واستراحة أهالي بلاد الشام لكي يصيروا متمتعين بنعمة أمنية الروح والمال كساير تبعة دولتنا الشاهنية»[١]. فنتيجة لهذه الإصلاحات أنشأت ولاية سورية سنة ١٨٦٤ مباشرة بعد إنشاء متصرفية جبل لبنان التي اقطعت من ولاية صيدا وألحقت باسطنبول مباشرة. وأصبحت ولاية سورية تضم ولايتي الشام القديمتين دمشق وصيدا (دون متصرفية جبل لبنان). ثم فصلت متصرفية القدس عن ولاية سورية سنة ١٨٧٣ ولحقت بها ولاية بيروت في ١٨٨٧ التي أصبح لها حق الاتصال المباشر بالباب العالي[٢].

لقد صدر عن السلطان العثماني مراسيم تحد من صلاحيات الولاة الذين كانوا لقرون طويلة سابقة يتمتعون بسلطات مطلقة. وحاول الوالي في سورية «إفهام الرعية أن السخرة والمظالم والمغارم والتكاليف الشاقة أصبحت ممنوعة وهو الذي كان يقتل ويستغل وينهب بل يسمح بذلك لأعوانه»[٣]. لقد كان للإصلاحات الجديدة نظرياً على الأقل وقع إنقلابي قد يسمح بتغير أسلوب الحكم العثماني برمته. ففي ١٣ كانون الثاني سنة ١٨٧٤ أصر السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) مراسيم تقضي بتأمين «حقوق الأهالي والتزام العدل في معاملة جميع الرعايا بدون استثناء وتنظيم إدارة الدولة»[٤].

بموجب نظام الولايات الذي صدر سنة ١٨٦٤ ونظام إدارة الولايات العمومية الذي صدر في سنة ١٨٧١ قسمت ولاية سورية إلى ألوية (سناجق) والألوية بدورها إلى

---

(١) (عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، ص ٢٣).

(٢) المصدر السابق ص٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ص ٣١.

أقضية والأقضية إلى نواح وقرى ومحلات ومزارع. وجاء التقسيم الإداري من الناحية الجغرافية لولاية سورية غير ثابت، فما ضم إلى دمشق سنة ١٨٦٤ بدأ بالانفصال عنها بالتدريج حيث انفصل لواء القدس ثم لواء طرابلس وبيروت وعكا واللاذقية ونابلس وكانت بيروت وصيدا وعكا ونابلس قد سلخت عن دمشق سنة ١٦٦٠ لتشكل ولاية صيدا.

أما ولاية بيروت فقد فصلت عن سورية سنة ١٨٨٧ وقد بررت الدولة العثمانية ذلك بأنه نتيجة لازدياد أهمية مدينة بيروت وحساسيتها. وتكونت ولاية بيروت تبعاً لذلك من ألوية بيروت وعكا والبلقاء وطرابلس الشام واللاذقية. وعين علي باشا والياً عليها[١]. وحسب هذه التقسيمات الإدارية الجديدة اعتبرت من توابع ولاية سورية (دمشق) مناطق بعلبك ويتبعها ٧٦ قرية. والبقاع ويتبعه ٦٠ قرية و١٥ مزرعة وناحية. وقضاء راشيا ويتبعه ١٧ قرية وقضاء حاصبيا ويتبعه ١٢ قرية. وجرت بعض التعديلات على هذا الوضع سنة ١٩٠٠ فجعل قضاء بعلبك ناحيتين وجعلت المعلقة قرب زحلة قاعدة لقضاء البقاع. بينما سلخت حاصبيا وقراها وأصبحت ناحية ملحقة بقضاء مرجعيون التابع لولاية بيروت.

شملت ولاية بيروت المنطقة الممتدة من خليج الأسكندرونة حتى رفح ساحلاً وجبلاً ، وقسم جبل عامل في الولاية الجديدة إلى ثلاثة أقضية هي قضاء صيدا وقضاء صور وقضاء مرجعيون.وألحق بقضاء صيدا ناحية النبطية، كما ألحق بصور ناحية تبنين وألحق بمرجعيون ناحية حاصبيا بعد أن سلخت عن ولاية دمشق.

إذاً، تكون جبل عامل إدارياً من ثلاثة أقضية وهي صيدا وصور ومرجعيون، كانت حدود قضاء صيدا تمتد من مصب نهر الأولي شمالاً حتى مجرى نهر القاسمية جنوباً وتمتد صعداً حتى أوائل أقليم التفاح حيث كانت عدة قرى تتبع متصرفية جبل لبنان. بينما كان حده الشرقي مجرى نهر الليطاني في وادي الخردلي.

تبعت منطقة الشقيف قضاء صيدا وقد تشكل منها مديرية جعلت بلدة النبطية التحتا قصبتها، كانت هذه المديرية تضم أربعين قرية وعدد سكانها ١٥ ألف نفس، غالبيتهم

(١) المصدر السابق ص ٧٢.

العظمى من المسلمين الشيعة. وكان سكان مدينة النبطية أربعة آلاف نفس كلهم مسلمون شيعة ما عدا ٢٠٠ نفس روم كاثوليك. ظلت مديرية النبطية كذلك حتى سنة ١٨٨٣ عندما زارها والي سوريا مدحت باشا حيث أقام في النبطية بضعة أيام وجال في أسواقها، وقد أعجب بها فوعد بتحويلها إلى قضاء مستقل عن صيدا، ثم أمر بنقل حاكمها رشيد أباظة إلى القضاء المستحدث في مرجعيون، وعين عليها الشخصية الصيداوية رضا الصلح. وفي عهد رضا الصلح تم بناء دار الحكومة (السرايا) في النبطية كما تشكل المجلس البلدي فيها، وكانت المجالس البلدية مقصورة على مراكز الأقضية دون النواحي، وتم تعيين موظفين في المالية والعدلية والعقارية والشرطة. ولم يستكمل مشروع ناحية النبطية إلى قضاء بسبب الفساد الإداري الحاد التي عانت منه السلطنة العثمانية كلها في تلك الفترة.

أما حدود قضاء صور فكانت تمتد من مجرى نهر القاسمية شمالاً حتى الرأس الأبيض ووادي القرن جنوباً بينما شكل مجرى نهر الأردن في أغوار الحولة حده الشرقي حتى سنة ١٨٨٣ عندما استحدث قضاء مرجعيون حيث ألحقت به بعض القرى في الأغوار الشمالية.

كان قضاء صور يتألف من ثلاث نواحٍ واحدة منها كانت ناحية تبنين التي تحولت لاحقاً إلى مديرية حملت نفس الإسم أي مديرية تبنين.

بلغ عدد سكان قضاء صور سنة ١٣٣٢/ أول سنة ١٩١٤، ٤١٢٤٠ نفساً غالبيتهم العظمى من المسلمين الشيعة. واستناداً إلى ما كتبه صاحبا كتاب «ولاية بيروت» كان يبلغ تعداد مدينة صور وحدها في السنة السابقة ٦٥٧٣ منهم ٣٧٤٩ مسلم (بينهم ٥٠٠ سنة والباقي شيعة) فيما بلغ عدد المسيحيين ٢٨٢٤ غالبيتهم من الروم الكاثوليك[1]. وهذا الرقم مشكوك بدقته لهدف غير واضح، فقبل تاريخ هذا الاحصاء بسنوات قليلة كان عدد سكان مدينة صور خمسة آلاف نفس تقريباً بينهم ٨٠٠ مسيحي[2].

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت، ولاية بيروت: القسم الجنوبي، ألوية بيروت وعكا ونابلس، ص ٢٨٥.
(٢) مجلة المشرق، مجلد ١٩٠٧، عدد ١٨، ١٥ ايلول ١٩٠٧.

ومهما كان الهدف من «تزوير» الرقمين المذكورين، فإنه لا بد من ملاحظة وجود عدد كبير من المسيحيين في المدينة قياساً إلى نسبة وجود غير الشيعة في المنطقة، ويرجع السبب في ذلك على الأرجح إلى تحول مدينة صور منذ عهد المصريين إلى مدينة تجارية مهمة. وكانت مدينة صور مهيأة لدور مهم جداً لولا وقوع الحرب العالمية الأولى التي قضت على أكثر من ثلثي سكانها بالجوع والوبأ والتجنيد.

في قلب مدينة صور كان المسيحيون يعيشون في القسمين الشمالي والشمالي الغربي من المدينة بينما يقيم المسلمون في الأقسام الباقية وكان المسلمون السنة يقيمون في حي واحد يدعى حارة المصاورة شرقي المدينة.

كان لمدينة صور سنة ١٩١٠ مجلس بلدي يشرف على الأمور البلدية في المدينة وقد بلغت واردته في تلك السنة ٥٥١٥٠ غرشاً (عثمانيا) وكان هذا المجلس ينفق وارداته على أمور مختلفة منها التدابير الصحية وتجهيز الأموات بالإضافة إلى مرتبات العمال والموظفين التابعين للبلدية.

ويمكن إضافة بعض المعلومات التي أوردها الخوري ابراهيم حرفوش الذي رافق الأب شكر اللّه الخوري في سياحة أسقفية في بلاد بشارة سنة ١٩٠٧ حيث يقول:»... أما اليوم فيبلغ عدد سكان صور ٥٠٠٠ ، النصارى بينهم ٨٠٠ ونصفهم بنيف موارنة أصلهم من لبنان (المتصرفية) استوطن بعضهم صور منذ أواسط القرن الثامن عشر كما يستدل من كتابة تاريخها ١٧٤٠ للمطران جبرائيل عوّاد أسقف عكا يعين فيها لخدمة موارنة صور الخوري ابراهيم اسحاق من قرية دبل....»[1].

يمكن مقارنة هذه المعلومات مع ما ذكره مؤرخو جبل عامل حول بناء مدينة صور على يَدَي الشيخ عباس المحمد النصار أو سواه سنة ١٧٥٠. كما يمكن ملاحظة أن عدد السكان كان سنة ١٩٠٧ أقل بحوالي ألف عن السكان سنة ١٩١٠ عندما وضع محمد بهجت ومحمد توفيق كتابهما عن ولاية بيروت، مع ملاحظة أن عدد المسيحيين في المدينة هو أقل بكثير مما ذكره هذان المؤلفان لأسباب مجهولة. فوجود ٨٠٠ مسيحي

---

(١) المصدر السابق.

باعتراف آباء الكنيسة من أصل ٥٠٠٠ نفس يثبت أن عدد المسلمين كان يزيد عن ٤٠٠٠ لم يكن بينهم من السنيين سوى بضع مئات (٤٠٠) والباقي شيعة.

أما تبنين الملحقة بقضاء صور، والتي تحولت إلى مديرية فقد بلغ عدد سكانها حوالي ٩٠٠ شخص في أول سنة ١٩٠٦ منهم ٦٠٠ مسلم (شيعة) و٣٠٠ روم كاثوليك وكان أبناء الطائفتين يقيمان في حيين منفصلين[١].

أما قضاء مرجعيون فهو قضاء مستحدث بقانون أصدره والي الشام مدحت باشا[٢]. وقد أنشيء القضاء الجديد من ناحية مرجعيون التي كانت تتبع ناحية النبطية في قضاء صيدا وتمتد حتى مجرى نهر الحاصباني شمالاً وشرقاً، ومن ناحية جبل هونين التي كانت تمتد من مجرى نهر الشريعة (الأردن) في غور الحولة شرقاً حتى وادي السلوقي - الحجير غرباً مع ضمّها منطقة الشِّعْب وهي بالتحديد المنطقة التي كان يحكمها تامر الحسين (آل علي الصغير) حتى سنة ١٨٦٤. وقد جعل مدحت باشا قرية كفركلا مركزاً لقائمقام مرجعيون. ثم نقل مقر القائمقامية إلى بلدة الجديدة (جديدة مرجعيون).

كان عدد سكان قضاء مرجعيون سنة ١٣٣١/ ١٩١٣ عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى ٣١١١٥ نفساً منهم ٢٢٠٣٥ مسلماً (غالبيتهم العظمى من الشيعة) وحوالي تسعة آلاف مسيحي أكثر من نصفهم من الروم الأرثوذكس. كما يوجد في القضاء ١٧٠ يهودياً في بعض القرى في غور الحولة.

أما الفساد الإداري والسياسي والاجتماعي في ولاية بيروت فانتشر كما في كل ولايات الشام، وصار سمة غالبة على كل ما هو عثماني في الولاية، وليس هذا تجن على السلطنة وإدارتها، فكل الشواهد تثبت ذلك. لقد بلغت الأمور من السوء حداً لا يمكن معه الافتراض أن السلطنة كانت قادرة على الاستمرار.

في ولاية الشام حاول الوالي المصلح مدحت باشا اصلاح الأوضاع العامة وكان هذا الباشا قبل حينٍ صدراً أعظم في السلطنة، وتمكن أثناء حكمه من خلع السلطان عبد

(١) المصدر السابق ص ١١٢٦.

(٢) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٧٢.

العزيز، كما خلع خليفته السلطان مراد الرابع، وساهم في تعيين السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٨٧٦. لكن السلطان الجديد شعر بثقل أحمد مدحت باشا فخلعه ونفاه إلى أوروبا. لكنه عاد بعد حين واستدعاه وعينه والياً على سوريا، فحاول أحمد مدحت باشا أن يستعيض عما فقده في اسطنبول بانشاء مملكة عربية سورية. ومن أجل تحقيق هذا الهدف أطلق حرية الفكر والقلم، وعمل على إصلاح الإدارة وراح يجول على الألوية والسناجق مثيراً عند أصحاب الفكر والرأي مسألة القومية العربية محرضاً على تبني فكرة الاستقلال عن السلطنة.

أمام تحركات مدحت باشا الإستقلالية النزعة كتب رستم باشا متصرف جبل لبنان للباب العالي محذراً من خطورة والي سوريا ومساعيه، فأمر السلطان عبد الحميد الثاني بنقله إلى إزمير. ثم لفقت له دعوى فحوكم وحكم عليه بالاعدام ونقل إلى مدينة الطائف في الحجاز حيث نفذ فيه الحكم[١].

بعد أحمد مدحت باشا عين على سوريا حمدي باشا الذي لم يكن ليقل عن سابقه رغبة في تطوير سوريا، ولكن عيون السلطان لم تمهله طويلاً فنقل من سوريا لتتفشى بعده أمراض الشيخوخة السياسية للدولة. كان الوالي الجديد ناشد باشا ينشد الفساد والرشوة فعشش الفساد في كل الإدارات واختل النظام العام في طول البلاد وعرضها، وشاع بيع الوظائف لمن يدفع أكثر. وقد ذكر أن محمد علي (بك) أمين الرسومات في ولاية بيروت قد اشترى منصب الولاية وأصبح والي بيروت بسبعة آلاف ليرة عثمانية ذهباً وهو آخر والٍ عثماني على بيروت في العصر الحميدي حيث فر بعد انقلاب ١٩٠٨ إلى جونية واعتقل بعد ذلك. كما يمكن ذكر أن ممتاز (بك) أحد ولاة بيروت اللاحقين قد تمكن من جمع ماية وعشرين ألف ليرة ذهباً في خلال ثلاث سنوات.

لكن ذلك لا يعني أنه لم تجرِ محاولات جادة للاصلاح والتطوير في ولاية بيروت حيث يمكن تلمس وجود بعض الإنجازات الحضارية التي كانت قبل ذلك ضرب من الخيال. فقد بدأت تظهر في جبل عامل مدارس تعمل حسب أنظمة تعليم عصرية في مراكز

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٠-١٧٢.

الأقضية. كان التعليم قبل ذلك حكراً على علماء الدين الذين توارثوا طريقة الكتاتيب التي لم يكن من الممكن أن يتخرج منها علماء أو أدباء بقدر ما كانت تؤمن تعليماً ابتدائياً للغة العربية والقرآن، تمهد المتعلم فيها للتوجه إلى إحدى الحوزات الدينية خصوصاً في العراق ويكون الهدف الاعلى لها تخريج علماء دين. لذلك كانت الأمية متفشية جداً بين الناس. يقول مؤلفا كتاب ولاية بيروت عن المدارس سنة ١٩١٠ أنه في كل قضاء صور كان يوجد ١٥ مدرسة فقط ١٢ منها للذكور و٣ للإناث. وكان عدد الطلاب في هذه المدارس ٤٠٠ منهم ٢٥٠ ذكور و١٥٠ إناث، لكن الملفت في هذه الإحصائية أن نسبة ٦٠ بالمئة من الطلاب كان من غير المسلمين، ولم يكن يرتاد هذه المدارس من أولاد الشيعة في جبل عامل إلا ما نسبته خمسة بالمائة فقط (حسب زعمهما).

في سنة ١٨٩٢ جرى في النبطية افتتاح مدرسة خاصة بإدارة حسن يوسف مكي لكن هذه المدرسة أغلقت بعد وفاته سنة ١٩٠٦. وربما كانت هذه المدرسة آخر مدرسة في النبطية أقيمت على طريقة الكتاتيب القديمة. وقد رممت في زمن لاحق سنة ١٩٢٣ وتحولت إلى مدرسة رسمية.

يمكن الاعتراف بالفضل للوالي مدحت باشا بأنه أول من من أسس المدارس الأميرية (الرسمية) وعني بنشر العلم وإصلاح التعليم، فأنشأ المدارس الرشدية (الثانوية) في مراكز الأقضية والإعدادية (المتوسطة) في مراكز الألوية والولايات. ولم تشمل هذه التنظيمات جبل عامل لاقتصارها على مراكز الحكومة على الساحل[(١)].

أما أول مدرسة رسمية حكومية مجانية تتبع مناهج التعليم العصرية في النبطية قد جرى إنشاءها سنة ١٨٨٣ برعاية الزعيم الوطني رضا الصلح الصيداوي عندما تولى إدارة ناحية النبطية. وقد استوعبت هذه المدرسة ستين تلميذاً فكان وجودها في تلك الحقبة فتحاً مبيناً بالنسبة لسكان جبل عامل.

لقد وصف مؤلفا كتاب «ولاية بيروت» الشيعة في مطلع القرن العشرين الذين يعيشون في قضاء صور بالانحطاط الاجتماعي لأنهم برأي المؤلفَيْن «مفطورون على الإنقياد

(١) المصدر السابق ص ١٦٨.

الأعمى لكبارهم، وبناء عليه فإنه لا يوجد فرق بين معيشة المتاولة في القرى ومعيشة المتاولة في صور (المدينة) فجميعهم آلات صماء في أيدي الكبراء»[1]. والمقصود بـ«كبارهم» الزعماء العاديين المتحالفين بطريقة مثالية مع علماء الدين الذين تسلموا في تلك الفترة مسؤولية التربية والتعليم في المدارس القليلة التي أنشئت في جبل عامل. ولا يمكن الركون إلى ما كتبه محمد بهجت ومحمد رفيق وهما يحملان حقداً أعمى على الشيعة والتشيع حيث ناقضا نفسيهما مراراً وتكراراً أثناء الحديث عن الشيعة في جبل عامل. لقد كانا يبحثان بدأب عن أي فكرة أو كلمة ترسم الشيعة بصورة مضحكة أو ساخرة حتى ولو كانت كذباً أو رسموها بصورة الكذب. فأثناء حديثهما عن زعماء الشيعة لم يذكرا مثلاً وجود اختلاف ما بين هؤلاء الزعماء الشيعة وأمثالهم من الزعماء السنيين في البلاد الأخرى في السلطنة. وعندما تكلما عن نسبة الخمسة بالمائة من أولاد المتاولة الذين يذهبون فقط إلى المدارس لم يذكرا نسبة أولاد السنيين في نفس القضاء أم في الأقضية الأخرى. لقد عابا على المتاولة جواز نكاح المتعة ورسما الأمر وكأنه طريقة من طرق الزنا، كما ذكرا أن الشيعي يجمع بين الصلاتين ولا يعقد يديه أثناء الصلاة ولا يصلي التراويح ، وليس عند الشيعي صلاة جمعة... الخ. وهذه الأمور قد جرى حولها جدل كبير بين أئمة المذاهب واعترف أكثر المتنورين من علماء السنة بأحجية الشيعة فيها.

ورغم قلة المدارس وضيق الأحوال المعيشية وقسوة النظام الحاكم والفساد السياسي الرابض فوق الصدور، رغم كل ذلك كان لجبل عامل السبق في نهضة أدبية وعلمية ودينية في كل الشرق رغم أن هذا الشرق قد وقف من العامليين موقفاً شبيهاً بموقف السلطنة في أيام عدائها للشيعة.

وبعد الهجوم المقذع على الشيعة (المتاولة) والقول فيهم بأقوال كثيرة، يصف مؤلفا ولاية بيروت الحالة الثقافية والأدبية للعامليين في مطلع القرن العشرين تحت عنوان «أدبيات المتاولة» فيقولان: «لا ننكر لطافة الأدبيات التي تنشأ في هذه الأنحاء فوق مسرات الطبيعة في صيدا وصور وملحقاتهما. ولكننا إذا أمعنا النظر نجد أن الشخصيات

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت، ولاية بيروت: القسم الجنوبي، ألوية بيروت وعكا ونابلس، ص ٢٩٣.

الرقيقة والناعمة التي يمكن أن تنشأ في هذا المحيط قد أثرت فيها بعض العوامل حتى تبدلت لدرجة أنها أصبحت لا تعرف، بل لا يشعر بوجود أقل علاقة جزئية بينها وبين هذا المحيط»[١]. وإذا قرىء هذا الكلام جيداً فإن آخره يناقض أوله، فكيف تكون اللطافة الأدبية موجودة ثم تتبدل وهي ثابتة لتصبح نقيض ما قيل عنها مع أنها هي هي. وهذا يظهر إلى أي مدى كان يجب أن يقال عن (المتاولة) أنهم ليس لهم نصيب في الأدب ولا في الثقافة، ويجب أن يلقى حولهم سور من التشكيك بما أنجزه أدباؤهم ومفكروهم.

يقول المؤلفان في تتمة هذا المقال: «إن الغاية المتبعة بين سكان جبل عامل هي المحافظة على كيان الدين ولا يمكن الحصول على ذلك طبعاً إلا بارشاد رجال الدين وتعاليمهم»[٢]. وهذا اعتراف بأن العامليين ظلوا محافظين على الغاية الإمامية الأصيلة بحفظ دين الإسلام رغم انحراف الدولة العثمانية عن هذا الدين وتحولها منذ مؤسسيها إلى دولة تشبه دول جاهلية الترك الغز الذين عاثوا قبل إسلامهم وبعده فساداً في بلاد المسلمين وساهموا عن عمد في تصحر العقل الإسلامي ليصبح المجتمع الإسلامي الذي حكموه طويلاً صورة للتخلف والجهل ويحتاج إلى زمن طويل لمحو آثار الهمجية العثمانية.

٤ - الجمعيات العربية والمحكمة العرفية

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية غمارها إلى جانب دولتي المحور النمسا وإلمانيا وجدت الجمعيات القومية التي أنشىء معظمها في أوروبا وبتمويل ومساعدة بريطانيا وفرنسا الفرصة سانحة للتحرك في الداخل وإثارة النزعات الإنفصالية عن صدق أو سوء نية، بدعوى السعي للاستقلال الوطني أو القومي عن السلطنة العثمانية. لذلك كان الحكام العثمانيون على استعداد للفتك بكل من تثبت إدانته بالانتماء إلى تلك الجمعيات، بتهمة الخيانة والتخابر مع العدو.

ومما لا شك فيه أن نفور الناس من الإدارة العثمانية قد بلغ الأوج قبيل اندلاع الحرب

(١) المصدر السابق ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق.

حيث كانت الرشوة والفساد والجور والقهر قد عمل عمله في نفوس الناس حتى لم يبق من يؤيد بقاء الدولة العثمانية إلا القليل. وقد اغتنم رجال الجمعيات العربية (القومية) هذا الوضع وأرسلوا إلى جبل عامل عبد الكريم قاسم الخليل رئيس المنتدى العربي في اسطنبول مندوباً لجمعية الثورة العربية التي اتحدت مع جمعية اللامركزية. وكان لعبد الكريم الخليل منزلة رفيعة بين أبناء جبل عامل بسبب مكانته الأدبية والعلمية وعلاقاته بفريق كبير من الأدباء والأعيان. وبوصوله إلى جبل عامل عمل على تأسيس فرع لجمعية الثورة العربية في صيدا، ثم أسس فرع آخر في النبطية كان من المنضمين إليه الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر صفا، كما انضم إلى الجمعية عدد من الرجال الذين كان بينهم بعض الخونة والجواسيس.

وبسرعة انكشف أمر هذه الجمعية عندما وشى بها عبد المنعم عاصي من قرية أنصار لرئيس بلدية صيدا مصباح البزري. وكان عبد المنعم عاصي قد سمع بأمر هذه الجمعية من العضو فيها السيد محمد ابراهيم. فأبلغ البزري الأمر للقائمقام الدركي التركي ضياء بيك. فكتب هذا إلى الوالي العثماني بكر سامي بيك. جرى بعد ذلك اعتقال الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان لعلاقته بالجمعية كما أخذ للتحقيق عبد المنعم عاصي والسيد محمد ابراهيم.

كان يمكن أن تنتهي قضية التحقيقات إلى لا شيء نظراً لعدم وجود أدلة ضد المتهم أو المتهمين، ولكن برقية وردت من قائد الفيلق الرابع جمال باشا المقيم في القدس غيرت مجرى الأحداث، فقد أمر جمال باشا باعتقال رضا الصلح وابنه رياض الصلح وعبد الكريم الخليل ومحمد جابر صفا والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وراشد عسيران والحاج عبد اللّه يحي خليل والحاج اسماعيل خليل وغيرهم بالإضافة طبعاً إلى عارف الزين. وأحيل الموقوفون إلى الديوان العرفي العسكري المنعقد في عالية في جبل لبنان(١). أما السبب الذي دفع بجمال باشا لارسال برقيته والأمر باعتقال من اعتقل فقد ذكره جمال باشا في مذكراته بأن كامل (الأسعد) ابن خليل الأسعد قد كتب للشيخ أسعد

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٥٦-٢٦٥.

الشقيري مفتش الجيش الرابع عن حركة صيدا وأنها بتدبير رضا الصلح وعبد الكريم الخليل[١].

ويبرر محمد جابر صفا ما فعله كامل الأسعد بأنه «ناتج عن رغبته في إبعاد رضا الصلح عن شؤون جبل عامل، وأن كرهه لعبد الكريم الخليل ناتج عن ترشح الخليل للنيابة عن جبل عامل في البرلمان العثماني معتمداً على مساعدة بعض موظفي الدولة. ولأن كثيرين من أعيان الشيعيين يمت له بصلة الصداقة والنسب، ولأنه يدين بمذهب الشيعة الإمامية. وكان كامل الأسعد يحسب أن النيابة عن الشيعيين في جبل عامل حق من حقوقه لا تجوز لسواه مهما كانت هويته»[٢]. وليس فيما كتبه محمد جابر من أعذار ما يخفف من وقع نتائج الوشاية، فجبل عامل لم يكن مستعبداً لأحد من الزعماء، ولم يكن مرسوماً لإسم بعض وجهاء العائلات يبيعون فيه ويشترون كيفما شاؤوا، حتى إذا بلغت الأفعال حد الخيانة اندفع بعض الكتّاب ليبرروا الخيانة لمرتكبيها.

بدأت محاكمة المعتقلين في عالية في ١٠ حزيران سنة ١٩١٥ واستمرت حتى ٢٨ تموز ١٩١٥. كانت هيئة المحكمة مؤلفة من الرئيس أدهم بيك قائمقام عسكري والبكباشي فتحي بيك ومن أعضائها اليوزباشي كمال بيك وكامل بيك البغدادي والملازم عبد اللّه الموصللي والمدعي العام صالح بيك عبد العال العكاوي والكاتب محمد النبهاني.

وكان المتهمون من (قضاء) صيدا رضا الصلح، عبد الكريم الخليل، محي الدين الجوهري، حسين الجوهري، بهيج وتوفيق الجوهري، بهاء الدين الزين مفتي صيدا، وأخواه بديع ومحمود الزين، حسن زنتوت، حسين المجذوب وتحسين الخياط.

من (قضاء) النبطية الشيخ عبد الكريم الزين، الشيخ أحمد رضا، الشيخ سليمان ظاهر، محمد جابر صفا، محمد الحاج علي ويوسف الحاج علي.

من (قضاء) مرجعيون الحاج نجيب بكار، حسين اليوسف، محمد سعيد بزي، مراد غلمية، اسكندر شديد، نصر عودة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٣

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤

من (قضاء) صور عبد اللّه يحي الخليل، الحاج اسماعيل الخليل[١].

أما الذين أتي بهم كشهود ضد هؤلاء فلم يكونوا في الحقيقة سوى المنافسين لهم على الوجاهة والزعامة. وكان الشهود في هذه القضية هم: عبد المنعم عاصي، السيد محمد ابراهيم من أنصار. الشيخ منير عسيران والشيخ محي الدين عسيران وراشد عسيران وتوفيق عسيران ويوسف الزين ومصباح وسعيد البزري، ورشيد القطب البكباشي والشيخ عارف الزين ويوسف الجوهري ويوسف الحناوي من صيدا.

وقد اعتقلت الدولة فريقاً من وجهاء صيدا وصور ومرجعيون وزجتهم في سجون عالية وطلبت من البعض الإدلاء بشهاداتهم فلم يرضوا. وقد رفض ثلاثة من الشهود الأصليين الشهادة ضد المتهمين وهم راشد عسيران والشيخ عارف الزين والشيخ محي الدين عسيران. وكانت نتيجة هذه المحاكمة إعدام الشهيد عبد الكريم الخليل.

بعد هذه المحاكمة جرى اعتقال ومحاكمة كثير من أعيان البلاد خصوصاً بعد وقوع وثائق كانت مخبأة في جدار في القنصلية الفرنسية في صيدا تبين علاقة المتهمين بالقنصلية وتلقيهم أموالاً منها، مما جعل اتهامهم بالخيانة قائماً على بينة.

كان من نتيجة إعدامات جمال باشا لأحرار العرب في سورية وبيروت انطلاق الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي في ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ التي ساهمت بقوة في قلب موازين القوى في الشرق الأوسط وساهمت في هزيمة الدولة العثمانية في الحرب مما أدى إلى تفككها وانهيارها.

لقد انتهت الحرب العالمية الأولى في تشرين الثاني سنة ١٩١٨ وقد خرجت ولايتا بيروت ودمشق منها محطمتان منهكتان وقد تناقص عدد السكان فيهما بشكل مريع مما سمح لقوتي الإستعمار بريطانيا وفرنسا أن تتحكما بالبلاد وتقسمها على هواها فأنتجت دولاً وكيانات أعطتها الأسماء التي وجدتها مناسبة دون أن تأخذ بعين الاعتبار تاريخ هذه البلاد وعلاقات أبنائها. فقد حرصت بريطانيا على الاستحواذ على العراق وشرق الأردن وفلسطين فأنشأت دولتين لأبناء الشريف حسين فيهما، بينما سلبت فلسطين وراحت

(١) المصدر السابق ص ٢١٦

تعمل على إسكانها بمهاجرين يهود أتوا إليها من مختلف أصقاع الأرض، حتى مكنت لهم بريطانيا أخيراً إقامة كيان سياسي وعسكري بقوة السلاح. أما فرنسا فقد استحوذت من الغنيمة على ولايات حلب ودمشق وبيروت فأنشأت منها كيانين مستقلين هما لبنان وسورية اللذين لم يلبثا أن حصلا على استقلالهما بعد أقل من ربع قرن على احتلالهما، مما أفشل مخططات المحتل الفرنسي وسرّع في طرده من البلاد.

الفصل السابع عشر

إمارة بعلبك

١ - آل حرفوش في بعلبك، أصلهم وإمارتهم

٢ - الأمير موسى بن علي بن الحرفوش

٣ - الأمير يونس بن حسين الحرفوش

٤ - صراع الأميرين يونس وفخر الدين

٥ - تخريب إمارة بعلبك

١ - آل حرفوش في بعلبك، أصلهم وإمارتهم

أثناء الصراع على النفوذ بين الأمراء المماليك في بداية القرن العاشر/ نهاية القرن الخامس عشر برز اسم الأمير ناصر الدين ابن الحنش وكيف واجه ابن بشارة وانهزم أمامه (بسبب المطر) في معركة شيحين. لكن الرجل كان يتلقى دعماً كبيراً من والي دمشق حيث جعله في البداية مقدماً في البقاع (ربما البقاع العزيزي لاتخاذ ابن الحنش مقراً له في قرية مشغرة).

ليس هناك ما يثبت أن ابن الحنش كان شيعياً، كل ما يقال حول هذا الموضوع يستند إلى سكن الأمير في قرية مشغرة بين سكانها الشيعة. وفي ذلك الحين بالذات كانت مشغرة إحدى القرى الهامة عند الشيعة، فليس من المعقول أن يستقر أمير طموح له كثير من العداوات في قرية أو بين سكان لا يتفق معهم في العقيدة. أما إثبات أنه سني المذهب لأنه من رجال الدولة المملوكية فإنها حجة ضعيفة، ففي رجال الدولة المملوكية خاصة في أواخر أيامها كان يوجد رجال من غير طائفة السلطان، والدليل ما مر عن تاريخ إمارة آل بشارة. لقد تمكن الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش من الحصول على لقب مهم من نائب دمشق وهو أمير صيدا والبقاعين وشيخ الأعراب[١].

في تلك الأحداث برز ذكر لأمير بقاعي بعلبكي آخر هو الأمير (ابن الحرفوش) الذي ذكره ابن طولون في تاريخه عرضياً في تمرد الدوادار آق بردى سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ «.... ولم يتمكن من البلد بشيء (الدوادار آق بردى المتمرد على السلطان محمد بن قايتباي) مع أنه التف عليه من المقدمين شيخ بلاد نابلس حسن بن اسماعيل ونائب بعلبك ابن الحرفوش ومقدم الزبداني وغيره ابن باكلوا وكبير المرج خالد الغزلاني ومقدم التيامنة

(١) محمد علي مكي، تاريخ لبنان في العصر الوسيط، ص ٢٧٤ نقلاً عن ابن اياس ، بدائع الزهور.

ابن بشارة وبالجملة فكان أكثر من معه طائفة اليمنية[1]. يلاحظ أن ابن طولون قد ذكر أسماء شيخ بلاد نابلس واسم كبير المرج، لكنه لم يذكر اسم ابن بشارة ولا اسم ابن الحرفوش. ومن الواضح أن الانتماء المذهبي وراء هذا الفعل لشدة تعصب ابن طولون. إن حصول (ابن الحرفوش) على نيابة بعلبك تجعله أميراً (على الأقل أمير عشرة مع أن نائب بعلبك كان عادة يكون أمير مائة وتقدمة ألف حسب الأعراف المملوكية). ما لا يبدو مستقيماً في الخبر هو عدم ذكر اسم هذا الأمير الحرفوشي وكأن ابن طولون لم يألف وجود أمير شيعي في نيابة بعلبك.

قبل ذلك بأكثر من قرن كان قد برز أمير حرفوشي في مشيخة العشير في بعلبك قبل أن يصبح هذا الحرفوشي أو أحدٌ من أنسبائه أميراً في بعلبك حيث يخبر صالح بن يحي صاحب تاريخ بيروت في حديثه عن حركة النائب منطاش الذي تمرد على السلطان برقوق (٧٩١ ـ ٨٠١/ ١٣٨٩ ـ ١٣٩٨) أنه: «... لما استقرت قواعد الدولة الظاهرية جردوا لمقاتلة تركمان كسروان علاء الدين ابن الحرفوش وعشران البقاع فقتلوا علي بن الأعمى وهزموا جماعته»[2].

وكان ابن الأعمى وتركمان كسروان من أنصار المتمرد منطاش. فمن هم آل حرفوش؟

تختلط الحقيقة التاريخية بالأسطورة تماماً كما في كل حديث عن أسرة تمكن أحد أبنائها من الوصول إلى منصب أو مركز مهم. فكثير من الحكام والأمراء قد اختلقوا لأنفسهم شجرات أنساب أعادت جذورهم إلى أسر شريفة أو خلفاء أو سلاطين أو أي إسم قديم قد يعطي لطالب النسب شرفاً قديماً يجعله جديراً بما حصل عليه في زمانه. ولا يقصد بهذا الكلام التشكيك بنسب أسرة حرفوش القريب، ولكن يمكن التشكيك بالرواية التي نسجت عنهم. فهم، حسب الشائع المشهور، ينتسبون إلى جد يدعى حرفوش الخزاعي، من خزاعة العراق. سار جدهم مع سرايا الفتوح (سنة ٦٣٥) وإستقر في غوطة دمشق. ولما توجه أبو عبيدة بن الجراح إلى بعلبك عقد للخزاعي راية بقيادة فرقة.

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان ص ١٦٣.

(٢) صالح بن يحي، تاريخ بيروت، ص ٢٤٨.

لا يبدو نسق هذه الرواية مستقيماً، فما دام «حرفوش» من خزاعة العراق فكيف كان مع أبي عبيدة في الشام؟ خاصة وأن خزاعة لم تستقر في العراق إلا بعد نهاية حروب الفتوح وبعد تمصير الكوفة والبصرة. بينما توفي أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧/ ٦٣٨ وحروب الفتوحات في أوجها، فليس من المعقول أن يعقد لخزاعي (عراقي) قبل أن ينشأ العراق العربي، وليس من المعقول أن يترك هذا الخزاعي جيش العراق ليكون مع أبي عبيدة في الشام. المصادر التاريخية العربية كثيرة جداً وكثير من رواتها شاركوا في الأحداث التاريخية الكبرى أثناء حروب الفتوحات. ولم يستند أحد من الذين أرخوا أو كتبوا عن آل حرفوش إلى أي مصدر تاريخي يعتد به. فالقول دائماً أنهم «ينتسبون إلى» هي طريقة كانت شائعة في العهد العثماني لإثبات نسب ما.

هناك أمر يلغي منطقياً وجود الأمير الحرفوشي الخزاعي في عهد الفتوح (سنة ١٤/ ٦٣٥) فكلمة حرفوش في اللغة العربية كلمة مستحدثة نشأت وشاعت في عهد المماليك، وتحديداً بعد سنة ٧٣٦/ ١٣٣٥ وكانت تعني «القبضاي» أو «حامي الحي». وتشبه صفات آل «حرفوش» صفات شباب الفتوة في العهد الزنكي، حيث كان شباب الفتوة يقومون باستعادة الحقوق لأصحابها من المتجبّرين أثناء فساد الحكم والأمراء. أوّل مرة استعملت هذه الكلمة (حرفوش) في المصادر التاريخية كانت في عهد المماليك حيث يذكر المقريزي في حوادث سنة ٧٣٦/ ١٣٣٥ هذه الكلمة بصيغة الجمع (الحرافيش): «.....وكان قد بلغ السلطان أن الأجناد عندهم غلال وهم يبيعونها بالويبة. فباع بعضهم بعد النداء وتهاون طائفة منهم فلم يبيعوا شيئاً. فنم عليهم جيرانهم حتى كان منهم من تهجم السوقة الحرافيش عليه وتنهبه، ومنهم من يغمز عليه فيأتيه الوالي...»[1]. كما يذكر المقريزي في موضع آخر في أحداث سنة ٧٤٢/ ١٣٤١ أنه «.... وفي يوم الأربعاء عشريه: سمر ثلاثة من الطواشية على باب زويلة في عدة من الحرافيش. وسبب ذلك أن قوصون لما نزل من القلعة ومضى إلى قبة النصر وقابلته المماليك أخذت الطواشية في الصياح على نسائه وأفحشوا في سبّهنّ»[2]. ويتكرر

(١) المقريزي، السلوك، ج ٣ ص ٢٠١

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٣.

الحديث بنفس المعنى عن الحرافيش في أحداث سنة ٧٨٣/ ١٣٨١ وأحداث سنة ٨٤١/ ١٤٣٧[١].

هناك على الأقل أمير واحد من أمراء الدولة المملوكية في القاهرة يحمل اسم «حرفوش» ويمكن أن يكون هو الجد الحقيقي لأسرة آل حرفوش البعلبكية. يذكر المقريزي أنه «في سنة ٧٦٦/ ١٣٦٤ ... استقر أسندمر حرفوش حاجباً عوضاً عن عبد الله بن بكتمر»[٢]. وقد ترقى الأمير اسندمر حرفوش في السنة التالية ليصبح أمير طبلخاناه. ثم تسلم الحجوبية ونيابة السلطان سنة ٧٧١/ ١٣٦٩ ورسم بجلوسه في الديوان مع السلطان وأصبح أمير جندار (قائد الجيش) قبل أن يرسم السلطان بنقله إلى الشام بعد أن أنعم عليه بإمرة مئة وتقدمة ألف في دمشق لكنه توفي بعيد وصوله إلى الشام. يقول المقريزي أنه «في سنة ٧٧٢/ ١٣٧٠ مات الأمير أسندمر حرفوش العلائي الحاجب بعدما أخرج إلى الشام وأنعم عليه بإمرة ألف في دمشق»[٣]. وقد كتب عنه ابن حجر العسقلاني في الدرر باختصار شديد: «.... أسندمر العلائي يعرف بحرفوش كان أمير جندار بالقاهرة ثم ولي الحجوبية ثم أعطي تقدمة بدمشق فتوجه إليها ومات في سنة ٧٧٢»[٤].

وليس من سبب واضح لهذا الاختصار مع أن المترجم له كاد أن يكون سلطاناً، فلا معلومات كافية عنه ولا عن أصله، وهو الأمير الوحيد في دولة المماليك الذي يشتهر بلقب «حرفوش» لا يبعد أن يكون هو نفسه الذي ينتسب إليه الأمراء الحرافشة.

أما انتساب آل حرفوش إلى قبيلة «خزاعة» فأمر ممكن. لا بل هو مقطوع به على الاتفاق. فلا يمنع أن يكون هذا الأمير (أسندمر) أو أحد أصحابه الخزاعيين قد حصل على رتبة «أمير» وهي رتبة عسكرية مملوكية. ومن المعروف أنه في عهد المماليك كان الانتساب أو الانتماء إلى أحد الأمراء أمر شائع وطبيعي ومتفق عليه. فتعريف ال «آل» تعني «الانتماء إلى» ولا تعني «الانتساب» بمعنى القرابة بالولاء لا القرابة بالدماء. فالقول

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١٠٦ و ج ٧ ص ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٩.

(٣) المصدر السابق ج٤ ص ٣٤١.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج ١ ص ٢٨٧ ترجمة رقم ٩٨٥.

مثلاً جكم العوضي تعني جكم من أتباع عوض[1]. فلا يبعد أن يكون أحد الخزاعيين قد انتمى إلى الأمير أسندمر حرفوش وأصبح بعده أميراً في بعلبك فأعطى إسمه ولقبه لمن جاء بعده من أولاده وأحفاده. فجاء الانتساب ب (أل التعريف) في أول الإسم (الحرفوش) وليس باسم الجد المفترض (حرفوش). فكان أول أمير ظهر بقوة في بعلبك هو الأمير علاء الدين الحرفوش سنة ١٣٨٨.

ارتباط نسب آل حرفوش بهذا الأمير (أسندمر حرفوش) لا يقوم عليه دليل عملي، فقط تقارب التاريخ والأسماء والأماكن هو ما يقارب بين الأمرين. فالأمير اسندمر حرفوش مات سنة ٧٧٢/ ١٣٧٠ وأول اسم لأمير حرفوشي في بعلبك (علاء الدين ابن الحرفوش) يظهر في سنة ٧٩١/ ١٣٨٨ وبعلبك إحدى مدن الشام الأساسية المرتبطة بدمشق مباشرة. فإذا سقطت هذه الفرضية لعدم وجود الدليل الثابت عليها فإن العودة إلى الاستنتاج الأولي يصبح حتمياً بمعنى أن أحد الرجال الأشداء من أهالي منطقة بعلبك قد قام بأفعال الشهامة والفتوة ليحمي أبناء بلده أو جماعته فلقبه الناس بالحرفوش. ومن المرجح أن يكون لهذا الرجل (جد آل حرفوش) نسب يمتد إلى قبيلة خزاعة العربية التي ينتشر المتحدرون منها في مناطق مختلفة من الشام والعراق. فربط بين ذلك عند العامة لتصبح إمارة «آل حرفوش» لها عمق تاريخي أسطوري تماماً كتلك الامتدادات الاسطورية لأصل زعماء الأسر في جبل عامل، وهو ما لم يقم عليه برهان علمي. دون أن يعني ذلك الانتقاص من الدور التاريخي الخطير والمهم الذي قام به آل حرفوش والأمراء منهم بشكل خاص على مستوى التاريخ الوطني والمذهبي في لبنان.

ما يهم في التاريخ الشيعي اللبناني هو أن الحرافشة قد بدأوا في الظهور كقوة أساسية في بعلبك في الربع الأخير من القرن الثامن/ الرابع عشر كشيوخ للعشير في المناطق المحيطة والقريبة من مدينة بعلبك. وكان سكان هذه المناطق من الشيعة عامة بينما كانت مدينة بعلبك مسكونة عامة من أهل السّنّة ويحكمها أمير أو متولٍ سني المذهب، حتى تمكن في النهاية أحد الحرافشة من تولي إمرتها ليتحول مسار تاريخ الشيعة في منطقة بعلبك منذئذٍ.

(١) أ. ن. بولياك، الاقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، هامش ص ٤٠.

لقد قدّر لأمراء آل حرفوش أن يلعبوا دوراً خطيراً ومؤثراً طيلة أربعة قرون ونصف أي حتى منتصف القرن التاسع عشر. وبرز منهم مجموعة من الأمراء الكبار الذين لم يظهر في تاريخ لبنان في العهد العثماني من يضاهيهم شجاعة وقوة. وسيكون لهم الذكر الحميد والدور الكبير في العهد العثماني بعد القضاء على دولة المماليك سنة ١٥١٦ وحتى زوال النظم العثمانية الإقطاعية ابتداءاً من سنة ١٨٤٠.

لا يوجد أثر تاريخي معتبر يحدد من هو أول من حصل على رتبة أمير من الحرافشة ومتى وكيف. ما تذكره المصادر الأسرية لا يبنى عليه تاريخ حقيقي. وإنما تأخذ المعلومات التاريخية أهميتها من مصادر تاريخية معتبرة.

أول قائد من آل حرفوش مشهور تاريخياً (كما مر آنفاً) ورد عند المؤرخ صالح بن يحي صاحب تاريخ بيروت. حيث يذكر أنه «... لما استقرت قواعد الدولة الظاهرية جردوا لمقاتلة تركمان كسروان علاء الدين ابن الحرفوش وعشران البقاع فقتلوا علي بن الأعمى وهزموا جماعته»[١]. ولا يذكر المؤرخ ابن يحي إن كان علاء الدين بن الحرفوش أميراً أو فقط شيخ عشير عادي، لأن رتبة أمير كانت تهبها السلطة المملوكية للمحاربين فقط وليس لشيوخ العشران. أما ابن الأعمى المار ذكره وتركمان كسروان فكانوا من أنصار المتمرد منطاش الذي تمرد على سلطان المماليك في القاهرة.

هذه الحوادث جرت سنة ٧٩١/ ١٣٨٨ وقد ذكرت في بعض المصادر التي تحدثت عن حروب الأسر التنوخية مع أهل كسروان وأمرائها من التركمان. فذكرها المؤرخ محمد كرد علي دون أن يأتي على ذكر الأمير علاء الدين ابن الحرفوش[٢].

يتوقف ذكر اي من أمراء الحرافشة بعد علاء الدين ابن الحرفوش لمدة طويلة. فالمدة الزمنية الفاصلة بين علاء الدين ابن الحرفوش (٧٩١/ ١٣٨٨) وذكر أمير حرفوشي عند المؤرخ ابن طولون تكاد تكون قرن من الزمان دون أن يرد في المصادر التاريخية اي ذكر

(١) صالح بن يحي، تاريخ بيروت، ص ٢٤٨.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ١٥٧.

لأمير حرفوشي آخر. فقط ما ذكره ابن طولون في الأحداث التي وقعت في دمشق سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ حيث يذكر مجيء عدد كبير من «الروافض» إلى عند العصاة في دمشق. كما يذكر مجيء عدد من الأمراء والمقدمين وشيوخ العشير إلى دمشق بسبب تلك الأحداث. فكان من المذكورين: «شيخ بلاد نابلس حسن بن اسماعيل، ونائب بعلبك ابن الحرفوش ومقدم التيامنة (سكان وادي التيم) ابن بشارة»(١).

البحث عن الأمراء الحرافشة بعد سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ يبدو صعباً لعدم اهتمام المؤرخين بأسماء تعتبر أقل أهمية في سير أحداث انتقال السلطة من المماليك إلى العثمانيين. حيث يرد عند ابن إياس ذكر لأمير حرفوشي قتله جان بردى الغزالي نائب الشام من قبل السلطان سليم العثماني. يقول ابن إياس: «... واشيع بين الناس أن نائب الشام جان بردى الغزالي تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأغوار والبقاع وغير ذلك من جهات دمشق. فلما تحايل عليه وتمت حيلته قتله وقتل شخصاً آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش. وكان ناصر الدين ابن الحنش كثير العصيان على نواب الشام بل وعلى سلاطين مصر أيضاً. وكان لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من المقابلة له، فتحايل عليه جان بردى الغزالي حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش وأرسل رؤوسهما (رأسيهما) إلى ابن عثمان بحلب»(٢). ونظراً للتقارب في التاريخ بين الأحداث في دمشق سنة ١٤٩٧ وبين نهاية ناصر الدين ابن الحنش فيمكن أن يكون الحديث عن هذا الأمر في الموضعين هو عن نفس الأمير الحرفوشي الذي حاول ابن إياس تصغيره بقوله «من مشايخ العربان» أي البدو. والذي يعتقد أن اسمه الأمير موسى بن أحمد ابن الحرفوش.

لكن أميراً من آل الحرفوش يبرز بقوة أثناء وجود الأمير منصور بن فريخ في البقاع وصفد وهو الأمير علي بن موسى بن الحرفوش. وقد وضع له المؤرخ نجم الدين الغزي صاحب «الكواكب السائرة» ترجمة مختصرة وهي: «علي بن موسى بن الحرفوش الأمير ابن الأمير ابن الحرفوش أمير بعلبك. دخل إلى دمشق يوم الجمعة ١٨ ذو القعدة سنة ٩٩٨ (١٧ أيلول ١٥٩٠) صحبة يانظ ابراهيم وجماعة من الينكجرية (الانكشارية)

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان ص ١٦٣.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٥٢.

فاجتمع بمحمد باشا ابن سنان باشا وهو يومئذ نائب الشام فأكرمه وهرعت إليه الناس للسلام عليه. ونزل في بيت يانظ ابراهيم ، ثم قبض عليه بعد عشرة أيام وحبس وعرض على الباشا فيه إلى أبيه وهو الوزير الأعظم يومئذ. وكان أبوه حين كان بالشام نائباً في سنة ٩٩٥/ ١٥٨٦ أراد القبض عليه فهرب منه فلما علم بامساكه أنهى إلى حضرة السلطان أنه من العصاة فأمر السلطان بقتله فضربت عنقه داخل قلعة دمشق بعد صلاة العشاء ليلة السبت ١٢ محرم سنة ٩٩٩ (٩ تشرين الثاني ١٥٩٠) وأرسل رأسه إلى التخت السلطاني[١].

وهذا الأمير ابن الأمير (علي بن موسى الحرفوش) من الأمراء الذين واكبوا حملة الجيش العثماني على جبل الشوف بقيادة ابراهيم باشا بعد حادثة جون عكار وسرقة خزينة الدولة التي اتهم فيها الأمراء العسافيون وأمراء جبل الشوف. وفي تلك الحوادث أقدم ابراهيم باشا على ارتكاب مجزرة كبيرة ذهب ضحيتها أكثر من ستمائة من عقال ومشايخ الموحدين الدروز بعد أن جمعهم الباشا وأمّنهم. ثم أقدم على إحراق القرى ونهب الأموال ومصادرة البهائم وهي الطريقة العثمانية المعتادة التي طبقت في بلاد الشام على مدى استيلاء العثمانيين على البلاد. يقول صاحب خطط الشام حول ذلك: «وفي سنة ٩٩٣/ ١٥٨٥ سرقت الخزينة السلطانية في جون عكار في طريقها من مصر إلى الاستانة فوجهت الدولة ابراهيم باشا وضربت على أيدي المعتدين وسار جعفر باشا حاكم طرابلس وأحرق أقليم عكار... وتقدمت الشكايات من حاكم طرابلس على الأمير محمد بن عساف وعلى أمراء الدروز بأنهم هم الذين سلبوا الخزينة فسار إليهم ابراهيم باشا ولما وصل إلى عين صوفر حضر إليه عقال الدروز فغدر بهم وقتل منهم نحو ستماية رجل[٢].

وقبل أن يغادر ابراهيم باشا المنطقة المنكوبة قام بتعيين الأمير علي بن موسى الحرفوش حاكماً على «جبل الدروز» ولم يكن هذا المنصب موجوداً قبل ذلك[٣]. حيث

---

(١) محمد بن محمد الغزي (نجم الدين) ، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، ج ٣ ص ١٧٤.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام ، ج ٢ ص ٢٢٩.

(٣) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج ١ ص ١٠٥.

جرى استعمال هذا الاسم لأول مرة ليعني المقاطعات الدرزية الأربع في جنوب جبل لبنان وهي الشوف والمتن والجرد والغرب. كما منحه لقب باشا فأصبح حاكماً على بعلبك وجبل الدروز.

لكن حكمه لجبل الدروز لم يستمر طويلاً. كما انتزعت منه بعلبك بمؤامرة خبيثة دبرها بعض الوجهاء في دمشق حيث أعطى الدفتردار في دمشق حكم بعلبك لرجل يعرف ب «ابن الأقرع» مقابل رشوة كبيرة فجاء هذا إلى بعلبك وتسلمها. ولكن الأمراء الحرافشة لم يخضعوا لهذا التدبير وتحركوا لاسترجاع حكم بعلبك بقوة السلاح. وحشد الأمير علي بن موسى الحرفوش قوة عسكرية أتى بمعظم رجالها من جبل الدروز حيث اصطدم بجيش ابن الأقرع الذي تمكن من الانتصار عليه بسبب فرار المقاتلين الدروز من المعركة. يقول صاحب الخطط: «وفي سنة ٩٤٤ (خطأ والصواب ٩٩٤) أراد جماعة من أقارب الأمير علي الحرفوش صاحب بعلبك أن ينتزعوا حكومتها من يد أبي علي الشهير بالأقرع ابن قنبر لأنه من غير أولاد الأمراء وحكومة بعلبك متوارثة لبني حرفوش. فعرف ابن الأقرع ما دبره له فجاءه ألفا رجل جمعهم بنو حرفوش من كسروان والشوف وعين داره وأرادوه على أن يخرج بعياله وبمن يلوذ به حيث يشاء فأبى إلا قتالهم. واستنجد بالأمير قرقماز بن الفريخ أمير البقاع وبغيره من التركمان والعرب. فولى الدروز هاربين فتبعهم أهل بعلبك يقتلونهم وقتلوا منهم ألفاً وثمانين قتيلاً. ولم يقتل من جماعته سوى شخص واحد»[1]. ويبدو أن عدد القتلى من الدروز مبالغ فيه جداً وكذلك مشكوك بالرقم حول قتلى ابن الأقرع.

لم ييأس الأمير ابن الحرفوش بل سارع ليثير حرباً جديداً ضد ابن الأقرع ليسترد إمارته متكلاً هذه المرة على حركة جرت في دمشق شارك فيها القضاة على المذاهب الأربعة في إضراب ربما يكون الأول من نوعه. فقد «أمر قاضي دمشق سنة ١٠٠٠/ ١٥٩١ مصطفى بن سنان بقيام النواب من المحاكم وإغلاق أبوابها فأغلقت أسواق البلد كلها وسبب ذلك أن الدفتردار محمود ارتشى من ابن الأقرع بخمسة عشر ألف دينار وولاه بعلبك

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ٢٣٠.

بدل ابن الحرفوش فأدى ذلك إلى خراب بعلبك ظاهرها وباطنها ورحل أكثر أهلها حتى تعطلت الأحكام الشرعية بها وعنا بها ابن الأقرع وأتباعه وصادر الناس مصادرة ليوفي بها المال الذي التزم به للسلطنة(١). شكلت هذه الحركة فرصة ذهبية للأمير علي بن موسى الحرفوش حيث تمكن من الوصول إلى ابن الأقرع وقتله. يقول صاحب الخطط: «... ثم قتل علي بن الحرفوش ابن الأقرع وندم على قتله. وأخذت الدولة بعد ذلك الأمير ابن الحرفوش إلى دمشق بالأمان وقتلته، وقتلت معه عسافاً الكذاب الذي ادعى انه ابن طرباي أمير اللجون(٢). ويبدو من سياق هذا الخبر أن السبب في قتل الأمير علي بن موسى ابن الحرفوش هو قتله لابن الأقرع.

٢ - الأمير موسى بن علي بن الحرفوش

الأمير الحرفوشي الأكثر أهمية في مطلع القرن السادس عشر هو بلا شك الأمير موسى بن علي بن موسى ابن الحرفوش. ذكره صاحب «خلاصة الأثر» فقال عنه بعد ذكر اسمه كاملاً: «الأمير ابن الأمير أمير بعلبك، ولي إمارتها بعد قتل أبيه وذلك بعد أن كان قبض على أبيه وأرسل هو والأمير منصور ابن الفريخ والأمير قانصوه إلى الروم ثم خلص هو وابن الفريخ ثم قبض عليه مراد باشا كما قبض على ابن الفريخ وخنقه في قلعة دمشق في سنة إحدى أو اثنتين بعد الألف»(٣). ويضيف صاحب الخلاصة متحدثاً عن الأمير علي بن موسى ابن الحرفوش وأسرته فيقول: «وهؤلاء القوم من الغلاة في الرفض خذلهم اللّه تعالى إلا أن صاحب الترجمة (الأمير موسى) كان أقرب أهله إلى التسنن».

إن تحديد هوية الأمير علي بن موسى بن الحرفوش المذهبية مع الدعاء إلى اللّه ب»خذلانهم» تعطي صورة واضحة عن احتمال أن يتنقص الكاتب من قيم الأمير الحرفوشي تعصباً عليه. ورغم ذلك فهو يضيف منتقلاً إلى الأمير موسى بن الحرفوش:

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣١.
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٠.
(٣) المحبي، خلاصة الأثر ج ٤ ص ٤٣٢.

«وكان بطلاً شجاعاً جواداً. وكان ركب على الأمير علي ابن سيفا في ناحية غزير...»[١].

وصف الأمير موسى بأنه رافضي لكنه أقرب «إلى التسنن» لا يبرر إعطاءه أو توليته إمارة بعلبك وحمص أي ما كان يحكم والده الأمير علي المقتول غدراً. ما حصل عليه الأمير موسى هو حقه المتوارث والمأخوذ بقوة السلاح وليس بالتقرب من التسنن. لقد بدأ الأمير موسى حركته السياسية والعسكرية في إمارة بعلبك بالتقرب من الأمير فخر الدين ابن معن الذي بدأ حكمه لجبل الدروز في هذه الفترة حيث يبدو أن وجود عدو مشترك لهما هو يوسف باشا سيفا والي طرابلس قد جعل منهما حليفين بالمصلحة خاصة بعد أن أثبت قوته حين تمكن من هزيمة الأمير قرقماز بن فريخ في معركة قرب دير زنون في البقاع والتي أدت إلى القضاء على ابن الفريخ الذي كان أيضاً عدواً للأمير فخر الدين بن معن. هكذا التقت مصالح الأميرين موسى الحرفوش وفخر الدين بن معن، فهاجما ابن سيفا وانتصرا عليه في معركة غزير قرب نهر الكلب. وفي سنة ١٦٠٢ هاجم الأمير موسى جبة بشري وهي تابعة لباشوية طرابلس فكان ذلك إعلاناً للحرب عليه. فجمع يوسف باشا سيفا قواته وهاجم مدينة بعلبك حيث اختفى الأمير موسى الحرفوش من وجهه. وعمل الباشا على نهب مدينة بعلبك (على الطريقة العثمانية الشائعة). ففر من بها من آل الحرفوش وأتباعهم إلى القلعة واعتصموا فيها. وحسب رواية آلوف صاحب تاريخ بعلبك فإن يوسف باشا سيفا: «أحرق قرية الحدث ثم نزل على بعلبك فنهبها وقتل وشتت أهلها فتحصن الحرافشة مع جماعة من أهل البلد في القلعة وكانوا نحو ألف رجل ما عدا النساء والأولاد فشدد يوسف باشا الحصار على القلعة مدة خمسين يوماً ثم دخلها وقتل جماعة من أعدائه وأطلق الأمان للباقين وعاد ظافراً[٢].

لقد جاء هجوم يوسف باشا سيفا على بعلبك انتقاماً لهزيمته في غزير وما أعقبها من هجمات على بعض القرى التابعة له. لكن أحداً لا يذكر أنه تواجه مباشرة في الميدان مع الأمير موسى الحرفوش الذي كان نجم معركة غزير وأهم المحاربين فيها حتى شاعت عنه روايات على ألسنة العامة يقول عن واحدة منها آلوف: «ويروى عن الأمير موسى

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٦٦.

وليس للرواية من سند تاريخي أنه نبذ طاعة الدولة العلية فأرسلت عليه الجيوش ووقفت له بالمرصاد. ولما رأى أن لا مناص من التسليم توجه خفية إلى الأستانة العلية. وكانت بلدة غزير قصبة كسروان عاصية وقد استفحل أمرها فاستأمن الأمير موسى للدولة وتعهد بفتح غزير والتنكيل بأهلها.... وعاد إلى بعلبك وجمع نحو خمسة عشر الف مقاتل وزحف بهم على غزير. وقد أنشده أحد الشعراء قبل ذهابه هذين البيتين:

غزيرُ طورٌ ونارُ الحربِ موقدةٌ وأنت موسى وهذا اليوم ميقاتُ
ألقِ عصاك ولا تخشَ لما أفكوا بأمرها وحبال القوم حياتُ

من الواضح أن هذا الشعر قد ارتبط بقرية غزير الكسروانية الصغيرة التي لم تكن بذاتها تشكل خطراً على الدولة ولا على الباشاوية. ولكن مهاجمتها ووقوع المعركة فيها أو قربها جعلها تشتهر وتصور على انها ذات أهمية بالغة. وفي هذه المعركة هزم يوسف باشا سيفا أمام تحالف ضم الأمير موسى الحرفوش والأمير مخر الدين ابن معن. والشعر هو للأمير أبي الفوارس أمير حماة وقد أرسله لصديقه الأمير موسى بن علي الحرفوش بعد معركة غزير وقد نقله موسى آلوف بتحريف بسيط. أما الأصل فهو:

غزيرُ طورٌ ونار الحرب موقدةٌ وأنت موسى وهذا اليوم ميقاتُ
ألقِ عصاك تلقفْ كلَّ ما صنعوا ولا تخف فحبال القوم حيّاتُ

«وبقي الأمير موسى في إمارة بعلبك حتى دخل الأمير علي بن جانبولاد بعلبك قاصداً دمشق فنهض الأمير موسى إلى نواحي حمص لاستقباله (مواجهته) مداراة ومحاماة عن أرضه، فتحادثا وتقاولا وتشاورا فيما صدر وتجاولا فقال الأمير موسى: هل تعطيني عهداً على الصلح وأنا أذهب إلى الشام وآخذ لك العهد الوثيق من الأنام. فقال اذهب سليما وكن يا موسى كليما. فحضر إلى الشام ورُمِيَ من عسكرها بغاية الملام وأوجعوه بغليظ الكلام ظناً من جهلائهم أنه عليهم وما كان ناوياً إلا سوق الخير إليهم. فلما حضر إلى أمير الأمراء بدمشق...»[٣]. ثم طرح شروط الصلح التي جاء بها لمنع وقوع الحرب في دمشق

(٣) المحبي، خلاصة الأثر ج ٤ ص ٤٣٢-٤٣٣.

وحولها. لكن محاولته فشلت وأدرك أن علي ابن جانبولاد سيهاجم دمشق، فتركه الأمير موسى واتجه إليها لينذر حاميتها. في هذه المرحلة برز الأمير يونس بن حسين بن موسى بن الحرفوش وهو ابن عم الأمير موسى. فالتحق بعلي ابن جانبولاد ومعه أولاد عمه من آل الحرفوش وقصد بعلبك فاستولى عليها ونهبها. يقول البوريني وهو مؤرخ عاش في تلك الفترة وشاهد بعض الأحداث بنفسه: «وكان في جانب ابن جانبلاذ (جانبولاد) الأمير فخر الدين بن معن وأحمد بن الشهاب مقدم وادي التيم ، ويونس ابن الحرفوش الذي صار آخراً أمين (أمير) بلاد بعلبك من جانب الباغين (المتمردين) لا من جانب السلطنة. وانضم إلى هؤلاء جموع من البقاع ومن بلاد صفد تبعاً لابن معن»(١). ويصف البوريني الأمير موسى بن علي بن الحرفوش بأفضل الصفات فهو يقول عنه في معرض حديثه عن حرب ابن جانبولاد مع باشا الشام: «ولنذكر في أثناء هذه الحكاية (التي) توجب غاية النكاية، وهي أن الأمير موسى ابن الحرفوش أمير الأمرا ودار الأماجد الكبرا فخر بني حرفوش بالاتفاق، بل هو فخر أمراء الشام على الإطلاق، كرم لا يباريه الغمام وعهد صادق العقدة في غاية الإبرام، وشجاعة فاقت على الأسود، وأصالت (أصالة) على كل ذي أصل يسود، نهض من بعلبك وهو حاكمها إلى نواحي حمص مستقبلاً لابن جان بلاط وجيوشه، مداراةً عن عِرضه ومحاماةً عن أرضه، فتحادثا وتقاولا وتشاورا فيما صدر وتجاولا....»(٢).

لقد كلفت الدولة العثمانية يوسف باشا سيفا بقيادة جيوش الولايات الشامية في مواجهة المتمرد علي باشا جانبولاد. فاستطاع الباشا أن يحشد معه عدداً من الأمراء والقادة الذين لم يجدوا في الحرب ضد ابن جانبولاد حلاً لبعض المسائل فترددوا في تلك المواجهة. وقد تمكن علي باشا جانبولاد من السيطرة على طرابلس حيث فر يوسف باشا منها بحراً إلى حيفا ومن هناك توجه إلى دمشق حيث قاد جيشه ضد ابن جانبولاد فكانت النتيجة هزيمة كبيرة له. لقد تمكن علي بن جانبولاد من الانتصار في المعركة ضد الجيش الشامي

(١) الحسن بن محمد البوريني، تراجم الأعيان في أبناء الزمان، ج ٢ ص ٢٧٥.

(٢) (من دراسة لعدنان البخيت: النص الذي مأخوذ من مخطوط تراجم الأعيان من أبناء الزمان، نسخة فينّا، رقم Cod. Arab، ١١٩٠، Mixt. ٣٤٦).

وسيطر على ولاية دمشق وأصبح الآمر الناهي يعين الأمراء والحكام في السناجق التابعة لدمشق وطرابلس. وعندما جرت المصالحة فيما بعد بينه وبين وجهاء الشام أصر على تعيين الامير يونس بن الحرفوش على بعلبك مكان ابن عمه الأمير موسى. وبذلك بدأت إمارة يونس ابن الحرفوش.

أما الأمير موسى بن علي الحرفوش الأمير الكبير الذي امتدحه صاحب خلاصة الأثر وصاحب تراجم الأعيان فإنه عاد إلى القيرانية في البقاع الشمالي وبدأ يجمع بعض العشير لاستعادة بعلبك من ابن عمه الأمير يونس لكنه مرض قبل أن يكمل استعداداته فتوجه إلى دمشق حيث توفي فيها في ٢٧ صفر سنة ١٠١٦/ ٢٢ حزيران ١٦٠٧.

٣ - الأمير يونس بن حسين الحرفوش

من الصعب جداً البحث عن أمير بحجم الامير يونس بن الحرفوش في مصادر معادية ومتحاملة عليه زعيماً وأميراً. المؤرخون الذين عايشوا الأمير يونس الحرفوش وكتبوا عنه هم من أعدائه الذين ما تركوا وسيلة لتصغيره إلا واستعملوها. لكن الأمير الكبير ظل أكبر من افتراءاتهم.

لا يوجد دليل تاريخي على مكان وزمان ولادة الأمير يونس بن الحسين رغم ترجيح أن يكون قد تربى في قرية سرعين التي تعتبر مقراً للأمراء الحرافشة.

بدء ظهور اسم الأمير يونس بن الحسين الحرفوش يترافق مع حركة علي باشا جانبولاد وتمرده على السلطنة حيث تحرك للإستيلاء على حماة وحمص وبعلبك وطرابلس ودمشق وقد تمكن من ذلك بسهولة ويسر يساعده الأعوان والأنصار كالأمير فخر الدين بن معن وأمراء آل شهاب في وادي التيم. كما سانده الأمير يونس بن الحسين الحرفوش. فكان انتصار ابن جانبولاد على الجيش الدمشقي يعني نهاية الأمير موسى بن علي الحرفوش وتولي الأمير يونس لبعلبك حيث بدأ من سنة ١٦٠٧ وحتى سنة ١٦٢٣ يلعب دوراً أساسياً في دورة الأحداث في ولايات الشام.

يدّعي المؤرخ الصفدي أن علي باشا جانبولاد عيّن يونس الحرفوش أميراً على

بعلبك بناء على نصيحة من أمير الشوف فخر الدين بن معن[١]. باستلامه الحكم في بعلبك بدأ الأمير يونس الحرفوش خطة عمل كبيرة للنهضة بإمارته. لقد استغل حالة الفوضى التي رافقت تمرد علي جانبولاد ومن ثمّ نهايته، فعرف كيف يستميل الباشاوات في الشام وحلب ليحصل على رضى الدولة. فحصل بالتالي على اعتراف الباشوية به أميراً على بعلبك وحمص وبذلك كان أول توسع لإمارته باتجاه الشرق والشمال ولتكون إمارته أوسع وأكبر من كل الإمارات التي عرفها تاريخ لبنان العثماني.

تقرب الأمير يونس بن حسين الحرفوش منذ بداية عهده من باشا دمشق والرجال النافذين فيها بدفع رشى لهم (كرد حمزة وكيوان). كما أنه سعى للتقرب من فخر الدين بن معن فأقام معه حلفاً قوياً وبموجبه ساند كل منهما الآخر. ومن أجل توطيد أواصر هذا الحلف عقدت مصاهرة بين البيتين بزواج الأمير أحمد بن يونس الحرفوش ببنت الأمير فخر الدين يقول الصفدي: «... كان صار نصيب للأمير أحمد ابن الأمير يونس ابن الحرفوش في مصاهرة الأمير فخر الدين ابن معن وعقد عقد نكاحه على كريمته»[٢]. ويدعي من كتب تاريخ الأمير فخر الدين بن معن أنه بالإضافة إلى أنه كانت للأمير فخر الدين اليد الطولى في تعيين يونس بن الحرفوش مكان ابن عمه موسى بن علي بن الحرفوش وانتزاع بعلبك منه. كذلك فإن الأمير فخر الدين قد تحمل تبعات غضب نصوح باشا بسبب مساندته القوية للأمير يونس الحرفوش. كما أعان الأمير فخر الدين الأمير يونس ضد حافظ أحمد باشا: «.... أن حافظ أحمد باشا لما كان في دمشق محافظاً ووزيراً وأراد الركوب على ابن الحرفوش أعان الأمير فخر الدين لابن الحرفوش»[٣]. وهذا التعبير يبدو ضعيفاً بمواجهة الوقائع التاريخية.

لقد تمكن الأمير يونس بن الحرفوش من إثبات نفوذه لدى الدولة العثمانية دون تدخل من فخر الدين المعني رغم ادعاء أحمد الصفدي بالعكس. فالأمير يونس قد أقصي عن

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الامير فخر الدين، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٢.

حكم بعلبك سنة ١٠٢٤/ ١٦١٥ أثناء غياب الأمير فخر الدين بن معن في أوروبا. فقد أقدم والي دمشق جركس باشا على تسليم بعلبك والبقاع للأمير شلهوب الحرفوش لقاء ١٢ ألف غرش وأمده بخمسماية فارس. فزحف شلهوب الحرفوش بهذا الجيش وحاصر قلعة قب الياس وفيها الأمير حسين بن يونس الحرفوش. وقد سارع لدعم الأمير شلهوب فريق يوسف باشا ابن سيفا والي طرابلس المعادي للأمير فخر الدين بن معن مثل أحمد الشهاب من وادي التيم والشيخ مظفر ومقدمي كفرسلوان وحسن آغا مملوك حسين باشا ابن يوسف باشا سيفا. واضطر الأمير حسين بن الحرفوش إلى ترك قب الياس والتوجه إلى قلعة بعلبك بينما عمل أبوه الأمير يونس على الاتصال بالوزير العثماني الصدر الأعظم محمد باشا في مدينة حلب وقدم له مبلغ أربعين ألف غرش ذهب ضمان بعلبك والبقاع فتقررت عليه. وأتى بالأوامر إلى محمد جركس باشا برفع الأمير شلهوب عن البقاع (دون بعلبك). وفي سنة ١٦١٦ أنعمت الدولة على الأمير يونس الحرفوش بسنجقية حمص.

بقية الخبر الذي نقله المؤرخ الصفدي فيه شيء من الاختلال حيث يقول: «.... وقدم الأمير شلهوب الحرفوش وبذل للأمير فخر الدين الطاعة فطيب خاطره وصرفه في أملاكه»[1]. مع ملاحظة أن الأمير فخر الدين في سنة ١٦١٦ كان لا يزال غائباً في أوروبا وليس له قدرة على تصريف أي أحد في أمور الإمارة وهو منفي عنها.

وبقي الأمير شلهوب الحرفوش حاكما في بعلبك. بينما قام الأمير يونس الحرفوش بتقديم هدية ثمينة إلى مصطفى باشا والي دمشق ووعده بثلاثين ألف قرش إذا قتل الأمير شلهوب فلما قبض مصطفى باشا المال قبض على شلهوب وضبط جميع مقتناه وقتله[2].

ثم سعى الأمير يونس بعد ذلك في مفاوضات مع الوزير لاعادة الأمراء المعنيين إلى حالتهم القديمة فاتفق مع الوزير على تسليم قلعتي بانياس وأرنون جزئياً للباشاوية مقابل إعادة الأمير علي بن فخر الدين إلى سنجق صفد. وكتب إلى حسين اليازجي مستشار آل معن: «ما تلاقوا وزير يعمل مصالحكم على زمانه أحسن من هذا الوزير لأن له ميل إلى

(١) المصدر السابق ص ٧٩.

(٢) محسن الأمين، اعيان الشيعة ج ٧ ص ٣٥٠.

بيت معن بزيادة عن غيره. وقد وعد الوزير محمد باشا الأمير يونس الحرفوش بسنجقية حمص إذا تم هدم القلاع»[١] (الشقيف وبانياس). وقد تم تخريب القلعتين المذكورتين في السنة التالية (١٠٢٥/١٦١٦) فحصل الأمير يونس على سنجقية حمص ومنها شنّ الغارات على حلفاء آل سيفا الذين حاربوه قبل ذلك.

وازدادت العلاقة بين الأمير فخر الدين بن معن والأمير يونس الحرفوش توثقاً بعد أن جرت المصاهرة بين العائلتين حيث تزوج أحمد بن يونس الحرفوش بنت الأمير فخر الدين بن معن. وبسبب من هذه المصاهرة انتقل الامير أحمد بن الحرفوش للسكن في قرية مشغرة في جنوب سهل البقاع حيث اتصل به (كما مر سابقاً) عدد من وجهاء الشيعة في جبل عامل من أسر منكر وداغر وعلي الصغير فأوجس علي بن فخر الدين خيفة من ذلك، وطلب من أحمد بن الحرفوش أن يترك مشغرة. فكان ذلك بداية الافتراق الكبير والخطير بين العائلتين. يقول المؤرخ الصفدي حول هذا الموضوع: «.... فأغرّه الطمع بتدبير والده وحيله فجاء وسكن قرية مشغرا، وأسس بها بنياناً ليعمر فيها مسكناً فيه يقيم. وصار يراسل ويكاتب بني متوالي من المشايخ المتعينين. فطلع إليه من شيعته وملته بهدايا أولاد داغر وأولاد علي صغير وابن منكر الحاج ناصر الدين بحجة أنهم يسلمون على قرابتهم الحاج عليٍ ابن منكر لكونه كان نازحاً عنهم من (منذ) رجع الأمير علي إلى البلاد وحكمها، ونازلاً عند ابن الحرفوش الأمير يونس. فلما رأى الأمير علي ذلك وعلم أن مجيء الأمير أحمد المذكور إلى مشغرا مبني على فساد، وأنه ما مراده بالمجيء إلى هذه القرية إلا استمالة بني متوال إليه، واجتماعهم عليه، وإن كان ظاهره أن مراده بالبني (البناء) في مشغرا أن يسكن بشقيقة الأمير علي بها. فأرسل الأمير علي لأبيه الأمير يونس ابن الحرفوش مع السيد نور الدين من قرية جبع يذكر له انكان (إن كان) مرادكم محبتنا وصداقتنا فامنعوا ولدكم الأمير أحمد من البنا في قرية مشغرا، ومن السكن بها أيضاً. فإنه لا يتأتى من ذلك إلا العداوة بيننا والبغضاء. فأرسل جواباً يوهم (أنه) صحيح وقال نحن ما مرادنا إلا التقرب إلى جنابكم بالمليح وأن الذي خطر في بالكم لم يخطر ببالنا وذكر أعذار(اً) على هذا المنوال غير مقبولة وغير معقولة. فأرسل الأمير علي مرة ثانية مع السيد

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الامير فخر الدين، ص ٧٩ - ٨٤.

نور الدين المذكور أنه لا بد من منع ذلك إن قصدتم صداقتنا على اليقين. وإن كان لكم خاطر ونية غير ذلك عرّفونا بها لنكون على بصيرة»[١].

كانت نتيجة هذا التحذير المعني الظاهري هو استجابة الامير يونس الذي طلب من ابنه الأمير أحمد أن يتوقف عن البناء ويترك مشغرة. لكن الأمير يونس بن الحرفوش أدرك مرامي الأمير المعني الذي يخشى وجوداً مذهبياً شيعياً مغايراً له يمكن أن يستعمل ضده في أي مواجهة في المستقبل. كما فهم الأمير الحرفوشي أيضاً أن ما يحق للأمير الدرزي في جبل الشوف يحق مثيله للأمير الشيعي في بعلبك والبقاع. لذلك أمر بمنع إقامة الدروز في منطقته، كما منعهم من العمل في المزارع التي تخضع لسلطته. الفارق بين الأمير المعني والأمير الحرفوشي هو أن الأمير المعني قد وجد من يكتب له سيرته وتاريخه (مثل الشيخ أحمد الخالدي الصفدي)، بينما لم يهتم أمير بعلبك بكتابة التاريخ والسير.

لقد بدا واضحاً للطرفين أن المسألة هي مسألة مذهبية بامتياز ولا يمكن فهمها خارج هذا الإطار. فالأمير المعني الذي يحكم المقاطعات الأربع في جبل الدروز (المتن والشوف والجرد والغرب) إنما يحكم حقيقة مقاطعات درزية والمنطقة برمتها تعرف بجبل الدروز. وهو متحالف بشكل وثيق مع آل شهاب السنّة الذين يحكمون وادي التيم بغالبيته الدرزية. فكان اتصال وادي التيم بجبل الدروز ضروري لبقاء إمارة المعنيين الدرزية. في مقابل ذلك كان الأمير يونس الحرفوش يحكم إمارة بعلبك ذات الغالبية الشيعية بينما ينتشر الجسم الأهم للشيعة في جبل عامل في جنوب جبل الدروز. فكان الاتصال بهم يشكل أهمية قصوى لاستمرار الإمارة البعلبكية الشيعية. لقد واصل الأمير يونس بن الحرفوش الاتصال بالمشايخ الشيعة الذين أصروا على إقامة علاقات قوية مع الأسرة الحرفوشية لاعتبارات مذهبية أو لأسباب أخرى من أهمها طلب الحماية عند أمير قادر عليها. ووجد الشيخ علي بن منكر شيخ أسرة آل منكر في الحرافشة سنداً وملاذاً بعد أن وقف إلى جانب حسين اليازجي عندما تعيّن ملتزماً لسنجق صفد. ولهذا السبب فرّ إلى الشيخ أحمد ابن الحرفوش في مشغرة. أما أخوه الشيخ ناصر الدين بن منكر الذي بقي

(١) المصدر السابق ص ١٠٥.

في جبل عامل فقد اضطهد على أيدي المعنيين حيث كان اعتقاله وسجنه أول عمل قام به الأمير فخر الدين بن معن بعد عودته من أوروبا.

نقطة التقاطع بين المشروع الدرزي والمشروع الشيعي هي منطقة البقاع الغربي وعاصمته الفعلية قرية مشغرة. لقد فكر كثير من الحكام السابقين في البقاع بالسكن والإقامة في مشغرة حتى يسهل عليهم التمدد جنوباً نحو صفد والجولان وقد فعل ذلك ابن الحنش ثم ابن الفريخ. وهذا ما دعا الأمير أحمد بن يونس الحرفوش إلى القيام بنفس الحركة معتقداً أن مصاهرته للأمير فخر الدين بن معن قد تبعد عنه نظر أمراء جبل الدروز. لكن الأمير علي سرعان ما تنبه لهذا الأمر وعمل عن طريق الوسطاء وبالتهديد على إبعاد أحمد الحرفوش عن مشغرة. لقد وافق الأمير يونس الحرفوش على أن يتخلى ابنه الأمير أحمد عن السكنى في مشغرة لكنه في مقابل ذلك منع أتباع الأمير المعني من الدروز من السكن والعمل في البقاع. يقول الشدياق نقلاً عن مصدر مجهول حول هذه النقطة: «.... لمّا قدم علي باشا جانبلاط إلى دمشق قبل تاريخه (١٦٢٢) بسبع عشرة سنة (١٦٠٧ ؟) وتقدم عنده الأمير موسى بن الحرفوش التجأ ابن عمه الأمير يونس إلى الأمير (فخر الدين بن معن) فوقاه من ضرر ابن عمه المذكور وتولى بلاد بعلبك بامداده. فلما اعتز منع أهل الشوف من الزراعة في أرض البقاع ومما اشتروه من زمن الأمير منصور فريخ وضبط للأمير علي (بن فخر الدين) تل النمورة الذي عند قب الياس فنهاه ولده الأمير حسين عن ذلك فلم ينته»[1]. لذلك كان الصدام حتمي في النهاية صحيح أن الأحوال قبل سنة ١٦٢٢ لم تكن تسمح للمعنيين للقيام بأي خطوة ضد الأمير يونس الحرفوش فسكتوا على مضض متحينين الفرصة المناسبة التي واتتهم سنة ١٦٢٢. فتحرك الأمير فخر الدين ضد حلفائه السابقين.

٤ - صراع الأميرين يونس وفخر الدين

يعتبر الصدام بين الأمير فخر الدين بن معن والأمير يونس بن الحرفوش هو السبب الحقيقي الذي أدّى إلى وقوع معركة عنجر الشهيرة سنة ١٦٢٣. يعزو المؤرخ الصفدي السبب في ذلك الخلاف إلى رسالة كتبها الأمير يونس بن الحرفوش إلى أحد النافذين في

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٧١.

دمشق وهو كرد حمزة أحد عسكريي الباشوية الكبار. ويشرح التفاصيل التي أوصلت إلى ذلك فيقول: «.... بالتقدير كان الأمير يونس ابن الحرفوش أرسل مكتوباً إلى كرد حمزة بلوكباشي يعلمه فيه بعزل ابن معن عن صفد وعما صار في جماعته في نابلس وعجلون وضبط الأمير بشير (بن قانصو) جميع الطرش والمواشي. وأظهر فيه البغض وشدّوا على كرد حمزة باغتنام هذه الفرصة لأنها في كل وقت لا تقع. فاختلط هذا المكتوب مع المكاتيب التي أرّدها كردحمزة وأرسلها للأمير فخر الدين لأن المذكور كان أمي (أمياً) لا يقرأ ولا يكتب. ولو علم بذلك لما أرسله. فلما اطّلع الأمير فخر الدين على ذلك تغير خاطره على بيت الحرفوش لأنه كان السبب في رفعتهم بعد أن كانوا رزلا (؟). وذلك لأنه لما جاء علي باشا ابن جنبلاط إلى مملكة الشام في أثناء سنة خمسة وعشرين والف وتوجه الأمير موسى ابن الحرفوش إلى دولة الشام وأفرق عنه ابن عمه الأمير يونس لعند الأمير فخر الدين وما معه سوى مقدار عشرة خيالة حتى قيل أن الأمير موسى كان يقسم على فدادينه التي كان يشدها في بلاد بعلبك والبقاع لو فات(؟) الأمير موسى بالشام لأنه لم تطل مدته بها. وبقي الأمير يونس حاكماً بالبلاد المذكورة، ومن ذلك الحين إلى هذا الحين وتقوّوا في شد الفدادين حتى قيل كان له ولأولاده مقدار ألف فدّان وأربعون قطيعاً من المعز، وتوسّعَتْ عليه الأرزاق ولم يشكر عليها المولى الرّزاق. وباع في سنة الغلا أغلالاً ما بلغ الأسعار فما رعى النعم التي كان فيها من قوة نفسه على ابن معن وغيره من أمراء أولاد العرب، وصار يمنع أهل الشوف من الزراعة في أرض البقاع، فأضر ذلك بالزراع. وأيضاً كانوا اشتروا بعض أملاك في تلك البقاع من زمن الأمير منصور ابن الفريخ ولم يمكنهم التصرف فيها وضبطها لنفسه. وكذلك كان للأمير علي ابن معن بعض تيمار من قب الياس يسمى تل النمورة فأرسل إليها مباشراً من قبله، فمنعه الأمير حسين ابن الحرفوش. فراجعه بمكتوبين بسببها فما أمكن. فلما ظهرت من بيت الحرفوش هذه الأحوال ركب الأمير فخر الدين من بيروت في أوايل شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة وصحبته بلوكباشيين بنفر بعضهم خيالة وبعضهم مشاة لأنه كان أرسل سكمانيته إلى صفد. فطلع الأمير حسين من حارة قب الياس واجتمع مع الأمير فخر الدين وعزمه إلى ضيافته فقبل منه وتوجه صحبته ومعه بعض السكمانية ودخل الجميع إلى حارة قب الياس فلما استقر بالأمير فخر الدين الجلوس في الحارة أبرز تمسكات وحجج وحكم

سلطاني بمشترى الأمير فخر الدين حارة قب الياس من تركة الأمير منصور ابن الفريخ وعرض ذلك على الأمير حسين وقال له: على موجب هذه الحجج الحارة ملكنا وأسكناك بها هذه المدة الطويلة. والآن احتجنا إليها وتوجه أنت إلى عند والدك بالأمان. فلما سمع الأمير حسين هذا الكلام تغيّر حاله وما أمكنه رد الجواب. وودع الأمير فخر الدين وراح إلى عند والده. ولما راجع الأمير حسين الأمير فخر الدين قال له قل لوالدك الأمير يونس لا تنافسونا على موضع نحن أدخلناكم إليه ولا مرادنا حكم بلاد البقاع وإنما قصدنا أخذ حارتنا وهدمها ونفس صداقتنا لكم أنفع من كل شيء»[1].

إن ما كتبه الصفدي يثبت أن الأمير المعني قد اتخذ قراره بالحرب الشاملة ضد آل حرفوش وإمارة بعلبك. فبمجرد أن زحف ومعه ذلك العدد من الجنود، والمنطقة التي قصدها توحي بأنه ذاهب، ليس لاستعادة أرض من صهره، بل لمحاربته. أما إلقاء الحجة على أن كرد حمزة كان أمياً فهذا أمر لا يمكن الركون إليه كون كرد حمزة المذكور كان أحد قادة الانكشارية في دمشق وهذا النوع من العسكر العثماني كان يلزم بتعلم القراءة والكتابة بنفس القدر الذي يتلقى فيه التدريب العسكري. فكيف إذا كان المقصود هو أحد قادة الإنكشارية؟ لكن ما لا يذكر عند مؤرخي ذلك العصر هو الجهة التي تدعم فخر الدين في تلك الحرب من باشاوات الدولة العثمانية. لأن الأمراء المحلّيين لم يكن بمقدورهم القيام بحروب محلية دون رعاية الباشويات، لذلك فمن الممكن أن يكون الأمير فخر الدين قد حصل على موافقة ودعم أحد الباشاوات (كباشا دمشق مثلاً) قبل أن يقدم على حربه الخطيرة.

لقد أعد الأمير فخر الدين عدته لمحاربة الأمير يونس الحرفوش وتوجه على رأس قواته إلى البقاع العزيزي في نفس الوقت الذي تحركت فيه قوات ولاية دمشق نحو المكان نفسه.

٥ - تخريب إمارة بعلبك

حسب ما أورده الصفدي: «.... فلما سمع السكمانية النازلين تحت حارة قب الياس

(١) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الامير فخر الدين، ص ١٩٤.

بالذي صار نهبوا البلد. وكان هذا المحل الحاج كيوان خاطر لخروجه من الشام بسبب ما صار بينه وبين عسكرها من منافرة الخواطر»[١].

استطاع الأمير يونس الحرفوش أن يدرك، بما يمتلك من حنكة وقدرة على فهم تصرفات حليفه السابق فخر الدين بن معن، أن ما يقصده فخر الدين ليس حارة قب الياس بل أكثر من ذلك بكثير. لذلك قرر أخذ جانب الحذر حيث نقل نساءه وأولاده إلى مكان آمن. يقول الصفدي: «.... وأما الأمير حسين ابن الحرفوش لما وصل إلى عند والده الأمير يونس وأعلمه بما صار ارتكب بحاله وجميع أهالي بلاده أخلوها وراحوا إلى الزبدانة وغيرها ولو كان الأمير فخر الدين قصد في ضررهم لمشى عليهم بالموجودين عنده في قب الياس ولكنه لم يقصد ذلك وإنما قصده هدم الحارة لأنها مشتراة كما علمت وأراد أيضاً توطية نفوسهم عما كانوا عليه. وأما أهل بيت حسين كريمة الأمير فخر الدين فاستمرت في الحارة عند ولدها وبعد ذلك أرسل الأمير فخر الدين كريمته إلى عند والدتها لصيدا»[٢].

إذا كان قصده فقط هدم الحارة لأنها مشتراة فلماذا أمر أتباعه من المقاطعات الدرزية فقط أن ينهبوا بلاد بعلبك؟ إن الأحداث التي أمر بها الأمير فخر الدين كانت واقعياً عملٌ انتقامي مذهبي الطابع سيترك أثره على العلاقات المستقبلية بين الدروز والشيعة في مختلف المقاطعات اللبنانية. يقول الصفدي في وصف ذلك: «... وأعطى (فخر الدين) إجازة لجميع أهل الشوف والجرد والمتن (دروز الجبل) من مشايخ ومقدمين وفلاحين بأخذ غلال بيت الحرفوش الذي في البقاع وبقوا شهر زمان ينقلونه ليلاً ونهاراً حتى خلّصوه لأن كان ذلك في أيام دراية البيادر وكذلك جميع طرشهم الذي كان عند عرب البقاع أرسل الأمير فخر الدين ضبطه وكان أزيد من ستماية راس من الجاموس وبقر غير الذي أخذه الناس وأرسل خلف المعلمين والقلاّعين من مدينة صيدا وبيروت وسعوا في هدم الحارة وفي ذلك جاء عشرة من الباباشية والبلوكباشية من دولة الشام إلى عند الأمير فخر الدين لقب الياس لأجل توقيف هذه الأحوال ولأخذ خاطر الحاج كيوان ورفع ما بينهم من السنان فتجه الحاج كيوان صحبتهم إلى

(١) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٢) المصدر السابق.

الشام وصار ديوان عظيم بحضور الباشا والأعيان وصارت مشاجرة بين.... وأما الأمير يونس الحرفوش لما بلغه توجه الأمير فخر الدين من قب الياس أرسل إلى كردحمزة بلوكباشي وأتى به من حمص واتفق معه وطلعا إلى الشام واجتمعا بمصطفى باشا الشام وباقي عساكرها وذلك بعد أن.... وبالتقدير توفي متسلم بستانجي باشا الذي كان جاء ليتسلم سنجق صفد فكتبوا سنجقها من عند باشا الشام على الأمير يونس ابن الحرفوش بزيادة ألف ذهب وألبسه الباشا خلعة وكتب عليه المقاطعة وأعطاه حكم التحويل...»[١].

يبدو من هذا الحديث أن ما حدث من هدم للحارة ونهب أغلال بيت الحرفوش ونهب البقاع قد جرى قبل أن تبدأ الأعمال العسكرية الأساسية. فحتى أثناء النهب لم تجر مواجهات عسكرية بين جماعة الأمير المعني وأتباع الأمير يونس الحرفوش. كما أن محاولة خجولة جرت لابرام صلح بين الطرفين لم تنجح دون تحديد الأسباب يقول الشدياق: «وأمر (الأمير فخر الدين بن معن) أهل الشوف والجرد والمتن جميعاً أن يأخذوا أغلال آل حرفوش التي في البقاع وضبط مواشيهم فبلغت ستماية من البقر والجاموس. وأمر بهدم الحارة في قب الياس. ثم أرسل الوزير (مصطفى باشا) أناساً للصلح فلم يتم[٢]. يمكن التساؤل عن السبب الذي يدفع بالأمير فخر الدين إلى هدم حارة قب الياس ما دامت له حسب ادعاء مؤرخي جبل الدروز؟

وينقل الشدياق ما جرى بعد هدم قب الياس أن: «.... الأمير يونس الحرفوش لما بلغه توجه الأمير من قب الياس استدعى كرد حمزة من حمص واتفقا وسارا إلى دمشق والتمسا من واليها سنجقية صفد للأمير يونس وخلع الوزير عليه. ودفع الأمير يونس ملاقاة الحج حسب العادة خمسة آلاف ذهب عن بلاد عجلون. ودفع عشرة آلاف ذهب سلفاً عن بلاد صفد. فلما بلغ الأمير ذلك كتب إلى وزير دمشق (مصطفى باشا) قايلاً (قائلاً) بلغني أن الأمير يونس الحرفوش زاد على سنجقية صفد ألف ذهب وقبلتم منه فأنا

(١) المصدر السابق ص ١٩٤.

(٢) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٧٢.

أزيد على بلاد بعلبك والبقاع مائة ألف. وكتب أيضاً إلى الدفتردار وكبير الانكشارية بمثل ذلك فلما وصلت كتب الأمير لم يعبأ أحد بها»[1].

عند هذا الحد بدا الانقسام واضحاً وكبيراً بين أمراء المنطقة وأصبح كل حاكم في مقاطعة أو إمارة يتخذ موقف المؤيد أو المناوىء إما مع الأمير يونس الحرفوش وإما مع أمير الأشواف. وقد جمع الأمير يونس فرسانه وسكمانيته ورجال بلاده. وجمع مصطفى باشا وزير دمشق: «.... عسكره وخيم ظاهر دمشق توهيماً وتحريكاً للفتن.... ولما بلغ يوسف باشا (سيفا) ذلك كتب إلى ولده عمر صاحب سنجقية حمص أن يجمع فرسانه وعشيرته ويوجههم إلى الأمير يونس الحرفوش. وكتب إلى والي ديركوشي من بلاد حلب أن يحضر إليه[2].

قد يكون ليوسف باشا سيفا كثيرٌ من الأسباب التي تدفعه لمناصرة الأمير يونس الحرفوش ضد عدوه التاريخي الأمير فخر الدين بن معن. ففي أحداث ١٦٠٧ وأثناء هجومه على الشام، وجّهَ علي باشا جانبولاد قواته إلى طرابلس واستولى عليها وقهر آل سيفا حكامها الذين فروا منها وتعرضوا لكثير من الأذى، وكل ذلك بدعم ومشاركة الأمير فخر الدين بن معن. كما أن الأمير علي بن فخر الدين حارب آل سيفا بإيعاز من والده في معركة الناعمة وانتصر عليهم. والأمير فخر الدين نفسه حاربهم مراراً حيث تمكن من تدمير قصورهم في عكار وقطع أشجارهم ونهب أرزاقهم. فكان آل سيفا يتحينون الفرص للإيقاع بالأمير فخر الدين، لذلك أعلنوا وقوفهم إلى جانب الأمير يونس الحرفوش.

في نفس الوقت وأثناء الاستعدادات بين الطرفين أقدم الأمير فخر الدين بن معن على عمل متهور بالزحف بجيش لجب على مناطق جنين ونابلس. ثم هاجم عرب الأمير أحمد بن طربيه ومعه عرب السوالمة وعمل على نهب أرزاقهم. فهاجموه وتمكنوا من هزيمته هزيمة منكرة قرب نهر العوجا في فلسطين. ثم لاحقوا فلول قواته حتى عكا حيث

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق.

هزموه مرة ثانية. فاضطر الأمير فخر الدين للانكفاء إلى جبل الشوف حيث حشد ما استطاع من قوة. وبدلاً من أن يعود ويواجه آل طربيه وحلفاءهم، وبخطوة لا تبدو مألوفة ولا مفهومة إلا إذا جرى الاتفاق عليها مع طرف أساسي في باشوية دمشق، توجه الأمير فخر الدين بن معن بجيشه شرقاً نحو البقاع حيث احتشد هناك جيش الباشوية وجيش الأمير يونس الحرفوش وقوات باشا طرابلس ابن سيفا. واتجهت قوة من جيش المعنيين إلى بلدة كرك نوح البلدة الشيعية المشهورة والتي كانت حتى ذلك الحين إحدى مراكز الشيعة الأساسية في بلاد الشام. فهاجمت القوة المعنية البلدة واقتحمت المزار المقدس وقتلت من وجدته بداخله ثم أمر الأمير فخر الدين جماعته بتدمير القرية بالكامل حيث لم تقم لها قائمة بعد ذلك. وعندما انتهى من فعلته تقدم الأمير فخر الدين بجيشه إلى قرية سرعين مقر الحرافشة فنهبها وأحرقها وأحرق القرى في طريقه في بلاد بعلبك[1].

استمرت عملية تدمير وإحراق ونهب قرى بلاد بعلبك مدة طويلة قبل أن يتحرك جيش الباشوية، الذي تتبع بلاد بعلبك لإمرته، إلى نبع عنجر حيث التقى الطرفان في معركة كانت وبالاً على جيش الباشا وحلفائه الحرافشة والسيفيين. لقد تمكن فرسان الأمير فخر الدين من أسر الباشا ومعه أكثر من مائة وثلاثين رجلاً بينهم ثلاثة من قادة جيشه. وقتل في أرض المعركة أربعماية بينهم خمسة من القادة بينما لم يخسر جيش الأمير فخر الدين سوى اثنين وثلاثين رجلاً.

لقد تحدث كثير من المؤرخين عن هذه المعركة التي اشتهرت باسم (معركة عنجر) ونقلوا التفاصيل الكثيرة عنها. وقد حاول البعض القول بأن باشا دمشق وكرد حمزة قائد الإنكشارية قد تآمرا مع الأمير فخر الدين واتفقا معه من خلال مستشاره الحاج كيوان، الذي قتله فخر الدين بعيد المعركة، لسبب تافه. لكن تبرير الهزيمة بالمؤامرة لا يثبت أمام الوقائع. فجيش إمارة بعلبك كان جاهزاً ومستعداً وقد تجمع من كل المنطقة التي يحكمها الأمير يونس إضافة إلى حليفه الكبير عمر بن سيفا.

إن أسباب الهزيمة لا تتعلق بمؤامرة باشا دمشق مع أحد من قادته، بل بسبب قيام الأمير

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٤

فخر بن معن طيلة خمس سنوات ببناء جيش منظم ومدرب ومسلح بأحدث الأسلحة التي كانت رائجة في أيامه حيث جرى استعمال البنادق بكثرة وبانتظام بينما كان جيش الشام وجيش الأمير يونس الحرفوش لا زال يولي الأهمية للسيوف والرماح التي عجزت عن وقف جيش الأمير فخر الدين.

في أعقاب معركة عنجر وهزيمة الباشا انسحب الأمير يونس الحرفوش ومعه الأمير عمر سيفا والقائد كرد حمزة إلى مدينة بعلبك حيث أبقى فيها الأمير يونس حامية من مائتين وعشرة أنفار، بينما تابع سيره شمالاً إلى حصن اللبوة الذي كان يبقيه جاهزاً للملمات الكبرى. ثم ترك فيها حامية صغيرة وانطلق منها إلى قلعة الحصن إلى الغرب من حمص ومعه في كل هذه الرحلة القائد كرد حمزة.

في اليوم الثالث للمعركة بدأ الأمير فخر الدين عملية هدم وتخريب منظمة لمنطقة بلاد بعلبك والبقاع في محاولة واضحة لاجتثاث الوجود الشيعي فيها. فهاجم قرية تمنين ومنها إلى مدينة بعلبك حيث أمر بنهب غلال الحرافشة. «... فنهبها الدروز والبقاعيون والكسروانيون والجبيليون وغيرهم من وادي التيم وعرب الفضل[١]».

وتكريماً له، أقدم الوزير مصطفى باشا على إعطاء الأمير فخر الدين بن معن مقاطعة غزة وسنجقية صفد وولاية البقاع (دون بعلبك) باسم ابنه علي وبسناجق عجلون والجون ونابلوس. في نفس الوقت كانت أوامره إلى أتباعه بهدم قلعة بعلبك قد أخذت طريقها إلى التنفيذ. وبدأ مائة وخمسون من البنّائين عملية الهدم، واستمر الفعلة في ذلك لكنهم عجزوا فتركوها بعد أن خربوا قسماً منها.

بقي الأمير يونس الحرفوش يتنقل بحثاً عن سند قوي من السلطنة حتى وصل إلى حلب حيث قدم شكوى على ما جرى لحاكمها مراد باشا. وعاد بعدها باتجاه حمص وبمروره على معرة النعمان اعتقل بأمر من مراد باشا ونقل إلى سجن السلمية. ثم نقل إلى حلب حيث فاوض الباشا على مبلغ كبير من المال لاطلاق سراحه وإعادته إلى بعلبك التي أصبحت مخربة تماماً فوافق الباشا وعاد الأمير يونس إليها. لكنه لم يتمكن من جباية

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٦.

الأموال التي كان يجبيها عادة، فاستدعي إلى دمشق سنة ١٦٢٥ حيث أعدم بأمر من الباشا لتطوى بذلك صفحة واحد من أهم أمراء لبنان.

بعد مقتله توجه ابنه الأمير حسين الحرفوش إلى الأمير فخر الدين بن معن مستشفعاً بالأمير علي الشهابي ليرد له زوجته ابنة الأمير فخر الدين التي أخذها منه بالقوة سنة ١٦٢٢ يوم مهاجمة قب الياس.

قد تبدو الرواية التاريخية حول ما بعد الأمير يونس الكبير غامضة وفيها الكثير من الاضطراب، فالباشا في دمشق قد أصبح ممالئاً للأمير فخر الدين بن معن وقد تغاضى عما يفعله في البلاد التي أصبح ملتزماً لها. لكن الباشا كذلك، ورغبة في إعادة إبقاء الأمور تحت سيطرتها أصدر أمراً بتلزيم إمارة بعلبك إلى الأمير حسين بن يونس الحرفوش مكان أبيه. وقد واجه الامير حسين بالتعاون مع أخيه الامير محمد الكثير من المشاكل لإعادة بناء الإمارة المدمرة دون أن ينسيا المسبب لهذا الدمار أي الأمير فخر الدين بن معن. لذلك لم يترددا في المشاركة بقوة في الحملة العثمانية للقضاء على فخر الدين بن معن سنة ١٦٣٣ والتي أدت إلى اعتقاله بعد أن اختبأ في مغارة شقيف تيرون في جبل نيحا. فنقل إلى الأستانة حيث جرى إعدامه خنقاً سنة ١٦٣٥ وكان من التهم الموجهة إليه تخريب بلاد بعلبك.

يقول آلوف صاحب تاريخ بعلبك أن الأمير يونس بن حسين الحرفوش قد بنى مسجداً للشيعة في بعلبك سنة ٩٦٢/ ١٥٥٤[1]. وقد جدد بناؤه سنة ١٩٠٣. ويبدو من التاريخ أنه قبل ولادة الأمير يونس الحرفوش. وعليه فإن الأمير الذي بنى مسجد بعلبك هو بلا شك الأمير علي بن موسى بن أحمد الحرفوش الذي عاصر ابن الفريخ.

(١) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ **بعلبك** ص٧

الفصل الثامن عشر

الأمراء الحرافشة بعد الأمير يونس

١ - الأمير عمر بن اسماعيل بن موسى

٢ - الأمير شديد بن اسماعيل

٣ - الأمير حسين بن اسماعيل

٤ - الأمير اسماعيل بن شديد

٥ - الأمير حسين بن اسماعيل بن شديد

٦ - الأمير حيدر بن اسماعيل بن شديد

٧ - الأمير مصطفى بن اسماعيل

٨ - الأمير جهجاه بن مصطفى

٩ - الأمير أمين بن مصطفى

١٠ - الأمير جواد بن سلمان

١١ - الأمير خنجر بن ملحم

١٢ - نهاية إمارة بعلبك

تولى الأمير حسين إمارة بعلبك بعد مقتل والده الأمير يونس سنة ١٦٢٦ لكن بعلبك لم تعد كما كانت بعد التخريب الكبير الذي حصل فيها. وليس فيما يذكره المؤرخون أي حدث مشهور في حياة هذا الأمير الذي توفي سنة ١٦٥٧ فتابع الحكم مكانه أخوه الأمير محمد حتى وفاته سنة ١٦٦٦.

١ - الأمير عمر بن اسماعيل بن موسى

بوفاة الأمير محمد بن يونس الحرفوش سنة ١٦٦٦ استعاد الأمير عمر بن اسماعيل الحرفوش ما كان في الأصل لجده الأمير موسى بن علي الحرفوش. ولا يظهر في المصادر التاريخية أي حدث مهم في هذه الفترة حتى سنة ١٦٨٠ حين حاول والي الشام أن ينقل إمارة بعلبك من أيدي الحرافشة إلى أمير شهابي هو الأمير فارس بن أحمد بن منصور أحد أمراء وادي التيم من الشهابيين فأحدث ذلك ثورة عند الشيعة في بلاد بعلبك وجبل لبنان. وانتقل الأمير عمر الحرفوش إلى جبل لبنان حيث آل حمادة مستعيناً بهم. وتمكن في مدة وجيزة من حشد قوة عسكرية هاجم بها الأمير فارس الشهابي في بعلبك وقضى عليه وعلى خمسين رجلاً من أنصاره، واستعاد إمارة بعلبك بالقوة. يقول الشدياق في وصف هذه الحوادث: «وسنة ١٦٨٠ تولى الأمير فارس بلاد بعلبك وسار إلى قرية نيحا التي فوق الفرزل في بلاد بعلبك. فجمع الأمير عمر الحرفوش بني حمادة المتاولة ودهم الأمير فارساً ليلاً فتفرقت جماعته عنه فقتل بلا عقب. وقتل من جماعته خمسون رجلاً»[١].

لم يكن من الممكن أن تمر هذه الحادثة ببساطة فالقتيل هو أمير سني معين من قبل باشا دمشق الذي يمثل السلطنة. وقتله يعني التمرد على السلطان. كما أن الأسرة الشهابية التي كانت تحكم وادي التيم منذ نهاية عهد المماليك، لم تكن تتوقع أن يستهين أمير

(١) الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص٤٦.

شيعي بنفوذها ويهاجم ويقتل أحد أمرائها بهذه الجرأة. لذلك بدأت تهيء نفسها وتحشد أتباعها لمحاربة الحرافشة الذين بدورهم تهيأوا لمواجهة التبعات.

بدأ الشهابيون تحركاتهم بمهاجمة بعض المزارع في البقاع بقيادة الأميرين موسى بن منصور بن قاسم (أمير حاصبيا) والأمير علي بن حسين بن بشير(أمير راشيا). كان الأمير أحمد بن يونس المعني أمير جبل الدروز وحليف الشهابيين يدرك معنى الحرب التي يمكن أن تلحق به وبحلفائه ضرراً كبيراً نظراً لقوة خصمه الحرفوشي فأقنع حلفاءه بالموافقة على صلح تعهد بموجبه آل حرفوش بدفع ديات القتلى مع بعض رؤوس الخيل. وفيما كتبه الشدياق شيء غير واقعي حول تمدد الدّية إلى سنوات من الدفع بما يخالف الأحكام الشرعية والأعراف الاجتماعية. فالدية تدفع مرة واحدة بعد عفو أصحاب الدماء والقبول بها. أما الهدايا فهي تعبير عن اصطلاح الحال. يقول الشدياق: «...ولما بلغ الأمير موسى (الشهابي) ذلك (مقتل عمه الأمير فارس) نهض برجاله من حاصبيا ونهض الأمير علي (الشهابي) من ريشيا (راشيا) قاصدين أخذ الثأر. فأخذوا يمخرقون (يخربون) هناك. ففر الأمير عمر من بعلبك واستغاث بالأمير أحمد المعني أن يجري الصلح بينه وبين الشهابيين. فتوجه الأمير أحمد إلى بعلبك وأجرى الصلح بينهم بشرط أن آل حرفوش يؤدون كل سنة لآل شهاب خمسة آلاف قرش وجوادين من جياد الخيل دية عن الأمير فارس»[1]. طبعاً لا يؤخذ بكلام المؤرخ الشدياق حول «فرار» الأمير عمر و«استغاثته» بالأمير أحمد المعني الذي كان أضعف بكثير من مواجهة حزب من الأحزاب الصغيرة في بلاد الشوف. وهذه التعابير التي استعملها الشدياق وغيره من مؤرخي متصرفية جبل لبنان (بعد سنة ١٨٦٤) لم تكن تعبر عن الواقع التاريخي بقدر ما كانت تعبر عن أحقاد أصحابها وضغائنهم وأحلامهم الصغيرة. وعدم رغبتهم في رؤية أي شخص كبيراً كان أم صغيراً من الشيعة أو من سواهم (كآل سيفا مثلاً) تكون له مكانة تاريخية يريدون اثباتها لأمرائهم الافتراضيين. فكتابة التاريخ من قبل هؤلاء هو محاولة عوراء للبحث عن أمجاد غير موجودة لأمراء معينين لخدمة الباشاوات، وعن إمارات هزيلة يصورونها بحجم أكبر بكثير من واقعها.

(١) المصدر السابق.

عاد عمر الحرفوش إلى بعلبك فواجه تمرداً من بعض أقربائه لم يتمكن من وقفه. فاضطر إلى اللجوء ثانية إلى آل حمادة في المقلب الغربي لجبل لبنان حيث لم يبق طويلاً ومات سنة ١٦٨٣ ودفن في طورزيا في جبل لبنان (الشمال).

وجدت الدولة العثمانية أنه آن الأوان لتوجيه ضربة لأمراء بعلبك بعد وفاة الأمير عمر فأصدر الباشا في دمشق تفويضاً بالتزام البقاع البعلبكي وتدمر ووادي التيم إلى ابن صدقة، وهي الأملاك والسناجق التي ظلت في أيدي الحرافشة مدة طويلة ولم يبق تحت حكمهم إلا مدينة بعلبك التي تولاها الأمير شديد الحرفوش شقيق عمر.

٢ - الأمير شديد بن اسماعيل

تنبه الأمير شديد الحرفوش إلى الحالة المستجدة في إمارته التي تقطعت أوصالها فحاول من خلال التحالف الطبيعي والمتين مع آل حمادة في جبل لبنان (الشمال) أن يجد قوة وسنداً يستطيع من خلاله استعادة إمارته ونفوذه.

كانت الحرب مستعرة ومتواصلة بين الحمادية في جبل لبنان (الشمال) وباشا طرابلس، فما تكاد تهدأ حتى تعود وتنفجر من جديد. وقد تمكن الباشا من أخذ عدد من أبناء مشايخ الحمادية وسجنهم في قلعة طرابلس كرهائن للضغط على ذويهم. فقام الحمادية يساندهم الحرافشة بقيادة الأمير شديد الحرفوش بهجوم كبير على قلعة طرابلس لتخليص الرهائن بعد أقل من سنة على تولى شديد الحرفوش لبعلبك أي سنة ١٦٨٤. فسكتت الدولة على مضض لعدم قدرة باشا طرابلس على مواجهة الحمادية. لكن بعد مرور سنتين تقريباً أي سنة ١٠٩٨/ ١٦٨٦ صدر الأمر من الباب العالي لباشا طرابلس علي باشا النكدلي أن يقتص من الأمير شديد الحرفوش لتخريبه قرية راس بعلبك وهدمه حصنها. فكتب (الباشا) إلى الأمير أحمد بن معن أن يوافيه بالرجال، فلجأ الأمير شديد إلى المشايخ الحمادية. فأحرق علي باشا قرية العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حمادة. ثم نزل عسكر الباشا على عين الباطية. فباغته ليلاً آل حمادة والحرافشة

وقتلوا منهم خمسة وأربعين رجلاً وانهزم العسكر[١]. وهذا النص منقول بحرفيته تقريباً من كتاب تاريخ بعلبك لآلوف[٢]. وينقل المؤرخ سعدون حمادة النص من الدويهي كما يلي: «جاء أمر من الباب العالي إلى علي باشا والي طرابلس مع عبد الله حلبي ابن ميخائيل الفرنجي بالرَّكْبة على الأمير شديد الحرفوش بسبب أنه أخرب عليه قرية راس بعلبك وأحرق قلعتها فنادى بالركبة عليه واجتمع إليه الأمير بشير بن الشهاب والمقدم قايتباي بن الشاعر ورعد شيخ الضنية وأصحاب الأغراض وساروا إلى بعلبك عن طريق الهرمل أما الأمير شديد فسار إلى بلاد جبيل واحتمى عند المشايخ بيت حمادة[٣]. أما المؤرخ الشدياق فينقل الرواية بطريقة تختلف في أسبابها ونتائجها عما ورد في النصين السابقين يقول أنه في سنة ١٦٨٦: «.... لما توجه علي باشا النكدلي لمحاربة عرب البكدلة هاجت الحمادية وقتلوا أبا داغر شيخ حردين وابن رعد شيخ الضنية وغيرهما فقبض المدبر (نائب الباشا) على اثني عشر رجلاً من أتباعهم ورفعهم على الخازوق. وفيها (١٦٨٦) هرب الأمير شديد الحرفوش من وجه علي باشا مستغيثاً بالحمادية فمرّ ذلك الباشا على العاقورة فأحرقها وأحرق أربعين قرية من مقاطعاتهم وقطع اشجارها وهدم حارة الشيخ حسين (الحمادة) في أيليج وقبر الأمير عمر (الحرفوش) في طورزيا. ولما كان العسكر نازلاً عند عين الباطية دهمته الحمادية ليلاً وقتلوا منه خمسة وأربعين رجلاً وغنموا أسلابهم. فانحدر الباشا إلى جبيل ونكبها (خرّبها ونهبها) ثم قفل راجعاً إلى طرابلوس. ولما انتشر خبر رجوعه انحدر حزب الحمادية فأحرقوا قلعة جبيل ونهبوا ما وجدوه في المدينة»[٤].

يفهم من وجود هذا التناقض في النصوص الثلاثة بين الأسباب والأهداف لحرب الباشا أن السبب ليس هجوم الامير شديد الحرفوش على قرية راس بعلبك وتخريبها وتخريب قلعتها. بل للرد على تمرد احدى العشائر العربية التي كانت تتحرك في أرض

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ٢٦٤-٢٦٥.
(٢) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٧٤ -٧٥.
(٣) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ٣١١ نقلاً عن اسطفان الدويهي ص ٥٤٧.
(٤) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٥.

ولاية دمشق وليس في ولاية طرابلس. وإذا كان الهجوم ضد قبيلة البكدلة فلماذا إحراق القرى في بلاد جبيل وقطع الأشجار؟ ثم لماذا نكب مدينة جبيل وهذه المناطق كلها تتبع إدارياً لوالي طرابلس ومنها يجمع الرسوم والضراب والخوات التي تفرض على الأهالي؟ وبالطبع لا يذكر الشدياق قضية وجود رهائن في قلعة طرابلس. بالنتيجة يمكن تلمس وجود تلك الهجمة المنسقة ضد إمارتي الشيعة في جبل لبنان وبعلبك في وقت واحد. فكانت الحجة في بعلبك تخريب قرية راس بعلبك، بينما كانت في الجبل هجوم بلا حجة. بل فقط هواية الباشا في الحرق والتدمير وتهجير السكان وقطع الشجر، وهي اللازمة العثمانية المألوفة. يقول صاحب خطط الشام في مقدمة كلامه عن حركة باشا طرابلس علي باشا النكدلي: «أما في جهات لبنان الغربي والشرقي فإن الوالي أو المتسلم أو المستبد إذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجره. ولذلك كان من الدعاء على الرجل في لبنان «اللّه يقطع رزقه» أي اشجاره. أو «يخرب زوقه» أي بيته والزوق البيت[1].

بعد هذه الواقعة الكبيرة عاد الأمير شديد إلى بعلبك واستمر يحكمها بقوة حتى وفاته سنة ١٦٩٣. ولا يوجد دليل يثبت وفاة الامير شديد في بعلبك، فسنة ١٦٩٣ كانت سنة الشؤم الكبرى في احداث جبل لبنان حين تمكن الباشا علي اللقيس من استدراج سبعة من أمراء الحمادية وقتلهم جميعاً. وهي نفس السنة التي مات فيها الأمير شديد. وهنا يبرز احتمال قوي جداً بأن يكون الامير شديد أيضاً احد ضحايا غدر الباشا.

٣ - الأمير حسين بن اسماعيل

عاصر الشيخ اسماعيل الحمادة حاكم جبل لبنان، وقد تنازل له الأمير حسين عن قرية العاقورة[2].

تكمن أهمية الأمير حسين الحرفوش في أنه لعب دوراً أساسياً في الصراع على السلطة والحكم في جبل الدروز أثناء الصراع بين القيسية واليمنية. كما يذكر أن الأمير حسين

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ ص ٢٦٤.

(٢) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٩٠.

الحرفوش استقبل الشيخ يوسف الدحداح الذي جاء إليه ملتجأً وصار له مكانة عظيمة عنده[1].

لقد تمكن الأمير حسين الحرفوش من توثيق علاقته مع الباشا في دمشق ولم تقع في أيامه أي حروب مهمة أو صراع مع الباشا. فازدهرت بعلبك أيام حكمه وكثرت موارد الإمارة مما أتاح للأمير حسين أن يساهم سنة ١٧١٩ في دعم حملة الحاج السامي التي يرأسها باشا دمشق، بوحدة عسكرية من الحراس المزودين بالبنادق مع ٢٠٠ جمل لمؤن القافلة.

قتل الامير حسين الحرفوش سنة ١٧٢٤ في أحداث غير واضحة. يذكر صاحب تاريخ بعلبك أن: «الأمير حسين الحرفوش قتل لثورة من أهالي بعلبك في جنينة اللطّامة في سنة ١٧٢٤ وخلفه ابن عمه الأمير اسماعيل ثم تولى بعده الأمير حيدر»[2]. وقد نقل الدكتور سعدون حمادة أن تاريخ هذا الحدث هو سنة ١٧١٢ استناداً إلى مصدر مجهول. كما أورد خبراً يفيد أن الأمير حيدر الشهابي حين كان مختبأً في مغارة فاطمة وطلب الحماية من الأمير شديد الحرفوش حليف الحماديين. وهو خطأ واضح لأن الأمير المقصود هو الأمير حسين الحرفوش. وتفصيل ذلك كما يرد في أكثر من مصدر أن الأمير حيدر الشهابي فرّ من دير القمر عندما تولى حكم جبل الدروز الأمير يوسف علم الدين ومحمود أبو هرموش الذي انتقل إلى دير القمر ليباشر الحكم فيها. وقد لجأ الأمير حيدر الشهابي ومعه عدد من نخبة أنصاره إلى مغر فاطمة أو مغارة عزرائيل في ناحية الهرمل. وظل الأمير وأصحابه مختبئين سنة كاملة قبل أن يطلب الحماية والعون من الأمير حسين الحرفوش أمير بعلبك. فوافق على حمايته وأمده بجيش من ألفين وخمسمائة مقاتل تمكن الأمير حيدر بمساعدتهم من العودة إلى جبل الدروز حيث انضم إليه أنصاره من الحزب القيسي في عين دارة سنة ١٧١١ حتى بلغ عدد المنضمين إليه ألف وخمسمائة فصار جيشه قرابة الأربعة آلاف. وبهذا الجيش تمكن الأمير حيدر وحزبه من الانتصار على جماعة الأميرين يوسف علم الدين ومحمود أبو هرموش. وقد نقل هذا الحدث قنصل فرنسا في صيدا في ذلك الحين بعد أيام من وقوع المعركة فقال: «طلب الأمير حيدر

(١) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٧٥.

(٢) المصدر السابق.

الحماية من شيخ بعلبك القوي جداً فمنحه حمايته وأعطاه نحو ألفين وخمسمائة رجل من خيرة محاربي هذا البلد. فجاء بسرية تامة مع هذا الجيش الصغير إلى بلاد الشوف حيث تكاثروا بالدروز القيسيين الذين انضموا إليه. وفي أيام قليلة بات تحت إمرته أربعة آلاف رجل[١].

وقد يبدو مستغرباً أن المؤرخ الشدياق صاحب تاريخ الاعيان لا يأتي على سيرة المساعدة التي قدمها الأمير حسين الحرفوش للأمير حيدر. فهو يذكر فرار الأمير حيدر ولجوئه إلى جهة الهرمل واختبائه في مغارة فاطمة مدة سنة وكأن المنطقة خالية لا يوجد فيها أحد، ثم عاد من فراره وحيداً ليحارب وينتصر[٢]. وهذه الطريقة في كتم الحقائق التاريخية شائعة كثيراً في كتابات مؤرخي المتصرفية.

لقد تمكن الأمير حسين الحرفوش أثناء حياته من القيام بأهم إنجاز تاريخي وهو ربط أحداث الصراع في المقاطعات والمناطق التي تألف منها لبنان الحالي وجعلها تبدو نموذج للدولة التي سيتألف منها لبنان لاحقاً. فما فعله الأمير فخر الدين بن معن كان صورة مقلوبة لتوحيد المناطق اللبنانية لأنه استعمل السيف والقهر دون أن يحقق الهدف الأهم وهو ارتباط هذه المناطق بشكل مصيري. بينما يعزى إلى الأمير حسين الحرفوش الفضل في ربط مسائل الصراع الكبرى في مناطق جبل الدروز وجبل لبنان وجبل عامل مع ما يجري في بعلبك ومحيطها. مما جعل تاريخ هذه المناطق التي يتألف منها حالياً لبنان منطقة تاريخية وسياسية واحدة.

٤ - الأمير اسماعيل بن شديد

قد تكون نهاية الامير حسين بن اسماعيل بن عمر الحرفوش بسبب ثورة أو فتنة شارك فيها بعض أقربائه، ولا يوجد ما يثبت أن للباشا العثماني يد فيما حدث رغم أن البعض يوحي بأن ذلك جرى ببعد مذهبي. ما حصل بعد مقتل الامير حسين هو تولي ابن أخيه الأمير اسماعيل بن شديد الحرفوش للإمارة حيث سعى لتوثيق تحالف قديم بين

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ١٣٣.
(٢) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ٢ ص ٣١٣ - ٣١٤.

الحرافشة والحمادية على جهتي جبل لبنان حيث عاصر الشيخ اسماعيل الحمادة فتعاهدا وتناصرا في السلم والحرب.

كانت أولى منجزات الأمير اسماعيل الحرفوش هي بناء دار للإمارة[١]. في محاولة لإنجاز أثر حضاري في إمارة بعلبك التي لم يجروء أحد من أمرائها على فعل ذلك سابقاً خشية قيام الدولة بالاستيلاء على المدينة وتلزيمها لحاكم غريب. فمدينة بعلبك ظلت طيلة القرنين السابقين من حكم السلطنة العثمانية أشبه بقرية كبيرة، ولم تنمُ أو تكبر تماماً كما حدث في المدن الشامية التي خضعت للعثمانيين والتي كان عديد سكانها يتناقص باستمرار بعكس الطبيعة. وكان أمراء بعلبك من الحرافشة لا يقدمون على أي عمل من شأنه إبراز بعلبك كمدينة مزدهرة حتى لا يطمع جلاوزة السلطنة بها فيقدمون على تخريبها بالنهب والخوات والحروب.

في عهد الأمير إسماعيل وقعت أحداث خطيرة في منطقة جبل لبنان بين المشايخ الحمادية بقيادة الشيخ اسماعيل الحمادة وبين الباشا في طرابلس تركت أثارها في قرار للسلطان بمحاربة الشيخ اسماعيل الحمادي الذي استعان بحليفه الأمير اسماعيل الحرفوش. وحرصاً على عدم ابتزازه وتهديده من قبل الباشا، أقدم الشيخ اسماعيل الحمادي على أرسال عياله وأقرباءه للاحتماء في بلاد بعلبك عند الأمراء الحرافشة فيما تابع هو وأتباعه تحركهم في مواجهة الدولة. وقد ترك استقبال الحرافشة للاجئين الحماديين غضباً عند السلطان الذي أرسل إلى ولاته في الشام سنة ١٧٢٢ أمراً بمعاقبة الأمير اسماعيل الحرفوش اتخذ صيغة مذهبية فجة. يقول السلطان في رسالة: «... ان اسماعيل حمادة تمرد ورفض تجديد عقد الالتزام على جبيل وأثار معظم رعيتها وأرسلهم إلى أراضي القزلباش اسماعيل الحرفوش في مقاطعة بعلبك»[٢]. لكن أوامر السلطان لم تنفذ على أرض الواقع لأن جيوش الباشويات لم تكن قادرة على محاربة المتمردين في بعلبك وجبل لبنان.

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ٣١٣ نقلاً عن المعلوف نقلاً عن نقولا الصايغ.

(٢) المصدر السابق ج ص ٣١٤ نقلاً عن أ.م.د ٤١٥: ١٣٠.

في سنة ١٧٢٩ تمرد أحد الحرافشة على الدولة وسطا على قافلة من عشرين جملاً وعشرين بغلاً قادمة من دمشق وأسر تجارها وحراسها وسجنهم في قرية مضايا في مقاطعة الزبداني فألقى والي صيدا اللوم على الأمير اسماعيل (الحرفوش) لتقصيره في حفظ الأمن في مقاطعته. وأرسلت الدولة إنذاراً خطيراً واتهمته بالاخلال بالأمن في بيروت وضواحيها وتقديم الحماية والمأوى إلى الخارجين عن القانون في سائر مدن الشام وعدم تنفيذ أوامر السلطان: «إن المبعوث الأمبراطوري جاء إلى بعلبك فوجد هذه العصابات هناك ولما أظهر للتو الأمر الأمبراطوري بطلبهم قلت بفظاظة: إنهم طلبوا الأمان تحت حمايتي. ولم تسلمهم إلى المبعوث وأعدته خالي اليدين. إنك سوف تحاسب على هذا الفعل وتؤنب عندما يصلك هذا الأمر الأمبراطوري سلمهم إلى مبعوثنا. إياك أن تحمي أو تستضيف اللصوص الهاربين من دمشق أو صيدا أو بيروت أو طرابلس أو حماه[١]. من يقرأ هذا الإنذار يعتقد أن جيوش السلطنة ستتحرك في اليوم التالي لمحاربة المتمرد الحرفوشي وتقضي عليه. لكن واقع الأحداث يثبت أن لا شيء من ذلك قد حصل. فالأمير إسماعيل الحرفوش ظل موجوداً في منصبه في بعلبك دون أن يمسه أحد بسوء. والإثبات على ذلك موجود في نص عقد زراعي حول قرية اللبوة محفوظ في محكمة دمشق الشرعية يعود إلى سنة ١٧٣١. وكان الأمر السلطاني الصادر بحقه بعد الإنذار إلى والي دمشق يأمر بوجوب عزله عن منطقة بعلبك وقتله لأنه رافضي المذهب[٢]. بعد أن يعدد مظالمه وجرائمه ووجوب عزله. كما وصل في نفس الوقت أمر آخر من السلطان إلى والي طرابلس يتضمن نفس الأحكام خوفاً من التجاء الأمير إسماعيل إلى حلفائه في هذه الولاية في جبل لبنان. ويشير الأمر إلى الفتوى الشريفة للشيخ أبي السعود أفندي التي تقضي بوجوب قتل الروافض والقزلباش وأن إسماعيل يجب أن يقتل لأنه شيعي هرطوقي[٣].

لم يكن تنفيذ الأمر السلطاني بالقبض على إسماعيل الحرفوش أو قتله مسألة سهلة على الدولة. لكن الباشا في دمشق لم يعدم الوسيلة الممكنة لتنفيذ ذلك. فراح يتودد

(١) المصدر السابق نقلاً عن أ.م.د ٢٤: ١٣٦.
(٢) المصدر السابق نقلاً عن أ.م.د ٢٢٦: ١٤٠.
(٣) المصدر السابق نقلاً عن أ.م.د ٣١١: ١٤٠.

للأمير ويعده ويمنيه ببذل الأمان، وأرسل الباشا إليه الوسطاء الذين أقنعوه بوجوب الذهاب إلى دمشق للحصول على أمان السلطان فانخدع ووثق بعهود باشا عثماني لا يرقب في مؤمن إلّاً ولا ذمة. وتمكن الباشا منه بهذه الخدعة فاعتقله حال وصوله وأمر بقتلته سنة ١٧٣٣.

لقد كانت نهاية الأمير اسماعيل الحرفوش بالغدر درساً للأمراء الحرافشة اللاحقين بضرورة عدم الاجتماع أو تصديق وعد أو عهد أي من باشاوات الدولة، خاصة وأن الدولة قد قتلت بنفس الطريقة من الغدر والخديعة عدة أمراء حرافشة قبل ذلك مثل الأميرين موسى الأول ويونس.

٥ - الأمير حسين بن اسماعيل بن شديد: ١٧٣٢- ١٧٥٠

تولى الحكم بعد أبيه الأمير اسماعيل فعمل بجهد وبقسوة على تحصين الإمارة بكل ما يمكن لتقف بثبات أمام تعنت الباشا العثماني الدمشقي. وكذلك مطامع الأمراء الشهابيين الذين أصبحوا في هذه الفترة على جانب من القوة لتلقيهم التأييد من السلطنة والباشاوات. كان الأمير حسين سفاكاً للدماء إذا ما شعر بأي خطر على الإمارة البعلبكية، وقد أقدم على قتل بعض الرجال مثل الشيخ مهنا آل الحج نعمة الذي ذكره الشدياق دون تفاصيل عن السبب في الحادث:» سنة ١٧٤٣ قتل الأمير حسين الحرفوش الشيخ مهنا من آل الحج نعمة[١].

المشكلة الأخطر التي واجهها الأمير حسين كانت في طمع أخيه الأمير حيدر بالإمارة وسعيه لها. وقد تسبب ذلك في كثير من المشاكل وفي تخريب المواسم واتلاف المزروعات. فاستغل والي دمشق هذه الأحداث وراح يرسل التقارير إلى اسطنبول بأن الأمير حسين بن اسماعيل الحرفوش قد تسبب في نقصان الجباية[٢].

وفي سنة ١٧٤٤ أمرت الدولة بانتزاع بعلبك من آل حرفوش وإعطائها لشخص آخر،

---

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٦٧.

(٢) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ٣١٥ نقلاً عن أ. م. د سجل ١٥٠ ص ٢٣٠.

لكن الأمر لم ينفذ. فاتهمت الدولة الأمير حسين الحرفوش بقيامه بعصيان كبير: «السفاح الأمير حسين بن اسماعيل حرفوش استمر في عصيانه بالرغم من صدور أوامر القضاء على شرهم ونصرة الحق عصى القانون المقدس والمراسيم الأمبراطورية معلناً كفره وزندقته. قتل يحي أفندي مفتي بعلبك لأنه رفض اصدار حكم لمصلحته فشنقه وصادر ممتلكاته»[1].

ربما تكون المرة الأولى في تاريخ الدولة العثمانية يقدم فيها أمير شيعي يحكم مقاطعة باسم السطان، على قتل رجل دين سني بجرأة وعدم اعتبار للسلطان وقوته. فرجل الدين المقتول هو موظف حكومي في بعلبك، ويمثل السلطان باعتباره «أمير المؤمنين» كما يمثل قوة ووجود جماعة السنة في مدينة بعلبك وما حولها. ويبدو من هذا التصرف أن الأمير حسين قد تعمّد القيام بهذا العمل رداً على اغتيال والده غدراً بفتاوى من بعض رجال الدين السنة. فقتل مفتي بعلبك السني فيه رد اعتبار لأسرة الحرفوش. كما أن هناك أمراً آخر أكثر أهمية كان الامير حسين يسعى له وهو تحويل مدينة بعلبك إلى مدينة شيعية. لقد لاحظ الأمير حسين ولا شك ما كان يحدث من هجمات ضد مناطق الشيعة في جبل لبنان (الشمال) حيث كان الأمراء الشهابيون في جبل الدروز، وبالتعاون الكلي مع ولاة طرابلس يسيطرون على المناطق بالتدريج فيقتلون الشيعة أو يهجرونهم. وطبعاً كانوا يستعملون الطريقة المثلى في العقل العثماني أي قطع الأشجار وهدم البيوت ونهب المؤن وسلب البهائم فيضطر من ينجو من السيف العثماني إلى الهجرة والفرار من البطش والتنكيل. وإذا ما بقي أحد من السكان في القرى والأرياف البعيدة عن الهجمات فإن الأوبئة والجوع كانا يتكفلان بالقضاء عليه. فيأتي بعد ذلك من يسكن مكان الهاربين من غير طائفتهم وملتهم. وهذا ما أدى إلى تحول ديموغرافي خطير في مناطق جبل لبنان حيث تناقص عدد الشيعة باستمرار لمصلحة جماعات من المسيحيين المهاجرين من البلاد السورية الداخلية. وانتقاماً من هذا الواقع عمل الأمير حسين الحرفوش على تهجير السّنة من بعلبك ومنطقتها بطريقة واضحة وصريحة، وكأنه يقوم برد انتقامي على قيام أمراء الشهابيين السنة بتهجير الشيعة من جبل لبنان. وهكذا تحولت منطقة بعلبك رغم

(١) المصدر السابق ص ٣١٤ - ٣١٥ نقلاً عن أ. م. د ١٥٢ ص ١٦٩-١٧٠.

كل ظلم الدولة وباشاوتها إلى منطقة شيعية بامتياز، وأصبحت مدينة بعلبك في أيام الأمير حسين الحرفوش مدينة شيعية رغم وجود السنة في بعض أحيائها.

إن قتل عالم دين سني على يد رجل شيعي كان يعتبر جريمة كبرى في الدولة العثمانية لا يمكن أن يسامح فاعلها. لذلك ثارت ثائرة رجال الدوائر الدينية في اسطنبول: «طالما هذا اللص وعائلته وأقاربه باقون في مركزهم في بعلبك فإن الناس لن يكونوا بأمان من ظلمهم وتحدياتهم... منذ الآن وصاعداً لا تعطوا المقاطعة لهذا اللص حسين حرفوش أو لأحد من أقاربه أو عائلته أو أتباعه أو السائرين على نهجه. اعطوها لشخص عادل[١]. عند هذا الحد وجد الأمير حسين أنه لم يعد قادراً على مواجهة السلطنة فتنحى عن حكم بعلبك لأخيه الأمير حيدر. ثم فر مختفياً عن أعين رجال الدولة الساعين بحثاً عنه. لكنه عاد بعد مدة قصيرة إلى الحكم بعد أن استعان بالأمير ملحم الشهابي الذي كان بدوره يعاني من مشكلات مع باشا صيدا. استغل الأمير حسين الحرفوش غياب باشا دمشق في الحج وشن هجوماً على بعلبك فاستردها من أخيه الأمير حيدر. يقول البديري: «بينما كان باشا الشام في الحج سنة ١١٥٨/ ١٧٤٥ أرسل الأمير ملحم الشهابي عسكراً إلى بلاد بعلبك لمساعدة الأمير حسين ضد حيدر. فخرب الدروز بلاد بعلبك وقطعوا أشجارها وطردوا حيدراً وأقاموا حسيناً مكانه»[٢].

ظل الأمير حسين في حكم بعلبك مدة أربع سنوات تقريباً وعاد مضطراً ليتنحى لأخيه الأمير حيدر. يمكن أن يكون تاريخ تنحيه الثاني قريباً من سنة ١٧٤٩ حيث يرد في نص عند الشدياق «وفي سنة ١٧٤٩ قتل رجال الأمير حيدر الحرفوش القس بطرس بن النمر في دير السيدة»[٣]. لكن الأمير حسين عاد وظهر من جديد بعد مدة قصيرة في البقاع ومعه جيش صغير من ٤٠٠ رجل تقريباً حيث هاجم قافلة قادمة من دمشق ونهبها. يُنْقل نص وثيقة عثمانية تؤرخ لهذا الحدث: «لم يهتم بأموره الخاصة (المقصود الأمير حسين الحرفوش) فهو جمع ثلاثمائة إلى أربعمائة من رجال العصابات وهاجم قافلة متجهة

(١) المصدر السابق ص ٣١٥ نقلاً عن أ. م. د ١٥٢ ص ٢٤٣- ٢٥٤.
(٢) البديري، حوادث دمشق اليومية ص ٧١.
(٣) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٦٧

من دمشق إلى بيروت فنهب مائة كيس من البضائع وهدم القرى وأحرق المؤن وهاجم المتجولين حول بعلبك[١]. ورغم كل ما فعلته الدولة وما اتخذته من اجراءات إلا أنها عجزت عن القبض عليه فوجد السلطان نفسه مضطراً لإصدار عفو عن الأمير حسين الحرفوش: «ان صاحب عقد التزام بعلبك ابن الحرفوش (لتزداد قوته) أرسل عريضة إلى مقامنا الشريف يقول فيها إنه دائماً يدفع الضريبة في مواعيدها ومع فوائدها واستلم الإيصالات وبرأ ذمته ولم يخالف القانون[٢]. «إن أبناء المفتي المتوفي في بعلبك يحي أفندي قدموا شكوى بحقه واتهموه بالقتل طالبين إعادة ممتلكات والدهم إليهم. أرسلت الدولة مأموراً، فهاجم حسين وسرق وبعثر كل أشيائه وحاجياته وكل ما ملكت يده وكان عليه أن يغادر فوراً إلى المنفى. أما اليوم فإنه وعائلته وقومه في حال يرثى لها ويستحقون التعاطف والخير. إن جريمته قد عفي عنها ولا يجب أن يتحمل المزيد من الشقاء»[٣].

ويبدو أن هذا العفو السلطاني قد جاء بعد غزوة كبيرة قام بها باشا الشام ضد بعلبك يذكرها البديري في حوادثه: « أحداث سنة ١١٥٩/ آذار ١٧٥٠: وفي آخر ربيع الثاني أرسل حضرة أسعد باشا العظم عسكراً عظيماً إلى مدينة بعلبك لقتل واليها الأمير حسين فلم يجد له أثر فدخلت الأعوان ونهبوا وسلبوا وفعلوا ما فعلوا ثم أتوا بثمانية رجال من أعيان بعلبك ومن جملتها مفتيها لدمشق الشام فشنق مفتيها المذكور وضربت أعناق الباقين»[٤].

وبعد صدور العفو السلطاني لم تنعم بعلبك بالهدوء لأنه جاء في الأيام الأخيرة لحكم الأمير حسين الحرفوش. ففي يوم ٦ جمادى الأولى سنة ١١٦٤ اغتيل الأمير حسين الحرفوش في أحد شوارع بعلبك وكان من الطبيعي أن يتهم أخوه الأمير حيدر بعملية الاغتيال حيث ينقل البديري خبر الحادثة: «وفي يوم الثلاثاء (١٤ جمادى ١ ١١٦٤/ ٩ نيسان ١٧٥١) جاء خبر إلى دمشق بأن ليلة الإثنين (٦ ج١/ ١ نيسان) قتل حاكم بعلبك

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ٣١٥ نقلاً عن أ.م.د. ١٥٣ ص١٢٠.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٥ - ٣١٦
(٣) المصدر السابق ص ٣١٦ نقلاً عن أ. م. د ١٥٣ ص ١٦٩.
(٤) البديري، حوادث دمشق اليومية ص ٢٥ -٢٦.

الأمير حسين وقد كان خارجاً من الجامع فاغتاله ثلاثة أشخاص ورموه بثلاث بنادق وفرّوا هاربين. وحمل إلى داره وفي اليوم التالي توفي. وقد قيل بأن القاتلين له أخوته حيث أن له من الأخوة سبعة واللّه أعلم[١].

يمكن الافتراض بأن القتلة هم رجال الباشا الذين كانوا يريدون القضاء على ابن الحرفوش لأكثر من سبب، أقله الأمر السلطاني السابق القاضي بقتله. وكان العثمانيون يقتلون غدراً كل من لا يقدرون على الوصول إليه بالحرب والمواجهة. وكذلك لأن الحرفوشي هو رافضي لا يستحق حسب العرف العثماني المتعصب أن يحكم بعلبك. وقد وجد الباشا الفرصة سانحة لاتهام إخوة الأمير حسين بقتله. لكن الأمير حيدر الذي أصبح الحاكم بعده قد عمل على الانتقام بقسوة من الذين اعتبرهم رجال الباشا والدولة بمن فيهم مفتي بعلبك.

لقد تراجعت مدينة بعلبك كثيراً جداً وتحولت في عهد الأمير حسين إلى قرية صغيرة لأسباب عديدة. فقد نقل صاحب تاريخ بعلبك (آلوف) عن رحلة للبريطانيين وود وديكنز وصفاً لمدينة بعلبك سنة ١٧٥١ وفيه أنهما قدما إلى بعلبك باذن سلطاني وكان وقتئذ الحاكم في بعلبك ومقاطعتها الأمير حسين (الحرفوش) وأنّ أخاه الأمير حيدر كان لم يزل في مقدمة عصابة وأنه دهم قرية عرسال قبل مرورهما فيها وخرّبها. وذكرا أيضاً أنه وجدا بعلبك بلدة صغيرة يبلغ عدد سكانها خمسة آلاف[٢]. ويبدو أن التناقص المستمر في عدد السكان كان سمة عامة في كل المقاطعات السورية في القرن الثامن عشر حيث ساهم الطغيان العثماني وعوامل الطبيعة على القضاء على أعداد كثيرة من الناس.

٦ - الأمير حيدر بن اسماعيل بن شديد

تمكن الأمير حيدر بن اسماعيل الحرفوش من تسلم إمرة بعلبك بضع مرات قبل أن يصبح الأمير الفعلي. ثم كان يضطر لإعادتها لأخيه الأمير حسين. فالأمير حيدر كان يحكم في بعلبك سنة ١٧٤١ باثبات ما نقله الشدياق: «وسنة ١٧٤١ ارتحل منصور

(١) المصدر السابق ص ٥٨.

(٢) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٧٦.

الشدياق بأهله إلى بلاد بعلبك فخدم الأمير حيدر الحرفوش واستأجر منه قرية الدير الأحمر لزرع أرضها فأخصبت تلك السنة ولما جمعوا السنبل إلى البيادر وقع فيها نار اتفاقاً فاحترقت تلك البيادر جميعها..... وكان الأمير (حيدر الحرفوش) يحب منصوراً أولاً لأنه سفير الصلح بين الأمراء الشهابيين والأمراء الحرافشة بعدما قتل الأمير عمر الحرفوش الأمير فارس الشهابي الملقب بالكبير أمير حاصبيا[١].

كما ينقل ناشر دواني القطوف خبر عن دور الأمير حيدر الحرفوش في أحداث سنة ١٧٤٩ تثبت دوره في بعلبك ومنطقتها فيقول: «... القس بطرس النمير الذي قتل سنة ١٧٤٩ قرب سيدة الراس أوقع به أتباع الأمير حيدر الحرفوش لما كان ينازع أخاه الأمير حسيناً حكم بلاد بعلبك»[٢].

ربما يكون ذلك بوجود أخيه الأمير حسين حيث كان يثبت نفوذه وهيمنته من خلال هذه الأعمال. أو من خلال الحكم المباشر بعد أن يترك الأمير حسين بعلبك مرغماً. لكن الأمير حيدر كان يجد نفسه مضطراً للابتعاد عن كرسي الحكم في ظروف مختلفة، فالأمير حسين كان يستعين ببعض القوى التي يمكن أن تقلب الميزان لصالحه. فقد استعان بالأمير ملحم الشهابي صاحب التاريخ الأسود في قتل الشيعة في جبل عامل. أما ما ينقله صاحب تاريخ بعلبك عن أن الباشا قد كلّف الأمير ملحم الشهابي أمور بعلبك فلا يستقيم مع الوقائع لأن إرسال جيش من قبله لمساعدة الأمير حسين الحرفوش لا يدل على أنه يريد أن يستولي على بعلبك لنفسه. لقد ذكر آلوف صاحب «تاريخ بعلبك» أن الوزير أسعد باشا العظم والي دمشق قد كلف الأمير ملحم الشهابي القيام بأمور بعلبك وإدارة شؤونها «ليكفي شر ثورات الحرافشة ويصون خراج البلاد. ولكنه (أي الباشا) ما لبث أن نقم على الأمير ملحم لتأخره عن دفع المرتبات الأميرية. فحاربه، وانضم إليه الأمير حيدر الحرفوش. وبعد ذلك سار أسعد باشا إلى الحج فانتهز الأمير ملحم فرصة غيابه فأرسل عسكراً إلى بلاد بعلبك فنهبها وأزاح الأمير حيدر عن الحكم وولى مكانه أخاه الأمير حسين. فلما عاد أسعد باشا من الحج بلغه ما فعل الأمير ملحم في بعلبك فأخذ يعبي العساكر للتنكيل به ولكن الأيام

(١) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١١٣.

(٢) المعلوف، دواني القطوف ص ٣٧٥.

خانته إذ نقمت عليه الدولة ونفذ الأمر السلطاني بضرب عنقه. فبقي الأمير حسين متولياً على بعلبك. وانسحب الأمير حيدر إلى بلاد القلمون شرقي بعلبك»[١].

بعد اغتيال الأمير حسين تفرّد الأمير حيدر بحكم إمارة بعلبك، فسعى للثأر من قتلة أخيه، رغم ادعاء من يدعي أنه يقف وراء الاغتيال. يمكن أن ترتبط الحوادث التالية بهذا المنحى. يقول البديري في حوادثه أنه: «في أوائل شعبان (١١٦٤/ حزيران ١٧٥١) وصل خبر إلى دمشق بأن ابن الحرفوش حاكم بعلبك المتوالي الرافضي المشهور قبض على المفتي وعلى أخيه وأحرقهم بالنار وهدم دارهم وقطع كرومهم. وقد كانت هذه العائلة الخبيثة الحرفشية لعنها اللّه قبل أعوام قتلت أيضاً الشيخ يحي مفتي بعلبك المشهور بالعلم والكرم[٢].

ان جرأة الأمير حيدر على إعدام مفتي بعلبك السني وأخيه كان يعتبر تحدياً صريحاً للدولة العثمانية. فأصبحت العلاقة بين رجال الدولة والأمير حيدر متوترة دائماً وتنذر بعواقب شتى. وقد تلقى الأمير حيدر إنذاراً من السلطان مباشرة بسبب تصرفاته: «إن الولاة الثلاثة في سوريا يتهمونك بالإغارة المستمرة على القرى بدل حمايتها. إن أعمالك اللاشرعية والغير مقبولة جعلت نار غضبي على وشك أن تلتهب[٣].

كان لا بد للسلطان أو من ينوب عنه في دمشق (اسعد باشا ابن العظم) أن يعزل الأمير حيدر تنفيذاً لتحذيره وإنذاره وقد جاء الأمر بذلك سنة ١١٦٨/ ١٧٥٤ حيث ذكر البديري في حوادث دمشق: «في هذه الايام (١١٦٨/ ١٧٥٤) عزلت الحكومة الأمير حيدر بن الحرفوش عن بلد بعلبك، فأبى الخروج منها وأمر جميع من فيها بالرحيل وكل من أقام بعد ثلاثة أيام ينهب ماله وعياله. فرحلوا بعدما حرق بيوتهم وكرومهم وطفشوا إلى البلاد والقرايا وأقام بها عاصياً. ثم ضمن الأمير حسين بن الحرفوش بعلبك ورجعت غالب أهل بعلبك بلا أدنى حادث»[٤].

(١) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٧٥.
(٢) البديري، حوادث دمشق اليومية ص ١٦٠.
(٣) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ٣١٩ نقلاً عن أ.م.د. سجل ١٥٧ ص ١٩٥.
(٤) البديري، حوادث دمشق اليومية ص ١٨٧.

هناك اضطراب واضح في هذا النص. فالبديري صاحب الحوادث قد ذكر أن الأمير حسين الحرفوش قد اغتيل سنة ١١٦٤/ ١٧٥١. وفي هذا النص يذكر أن الامير حسين (سنة ١١٦٨/ ١٧٥٤) قد ضمن بعلبك مكان الأمير حيدر. فلا بد إذاً من وجود أمير آخر يدعى حسيناً غير حسين شقيق حيدر. وهذا احتمال وارد فقد مر في ذكر عائلة حرفوش أميران يحملان اسم حسين في مدة قصيرة. وحسب هذا الافتراض فإن الأمير حيدر قد وجد أن الحل في تسلم نسيبه الأمير حسين الحرفوش الحكم في بعلبك وعدم السماح لأي حاكم أجنبي أو غريب أن يحكم المدينة بعد أن قاوم بشراسة عملية عزله وتمرد وأمر سكان بعلبك بمغادرتها. وكما يبدو فليس السبب في عزله أو نقله تدخل الأمير ملحم الشهابي. فما ذكره آلوف في تاريخ بعلبك ليس سوى أوهام العظمة التي افترضها المؤرخ لأمراء الشهابيين الذين كانوا أعجز بكثير عن القيام بعمل عسكري كبير في بعلبك. ناهيك عن قدرة الأمير ملحم على عزل وتولية هذا أو ذاك. فهو ذاته يحصل على تعيينه من باشا صيدا بشروط فيها كثير من الإذلال، فلا يمكنه أن يتدخل في أحوال أمراء ولاية دمشق إلا إذا تخيل بعض المؤرخين مثل هذه الأمور لاثبات عظمة مصطنعة للأمير الشهابي. كذلك فإن المؤرخ آلوف قد استطرد كثيراً في تصوير نهاية أسعد باشا العظم الذي ضرب رقماً قياسياً في عدد المرات التي قاد فيها قافلة الحج الشامي (١٤ مرة) وقد نقل من ولاية الشام إلى حلب حيث لبث فيها مدة عام حتى جاءه فرمان سلطاني بتعيينه والياً على مصر لكن أهالي حلب تمسكوا به ومنعوا تنفيذ الفرمان فتراجع السلطان عن ذلك وأبقاه في ولاية حلب[1]. فمن اين توصل المؤرخ آلوف إلى نتيجة أن السلطان قد أمر بقطع رأس أسعد باشا العظم فقط قبل انتقامه المفترض من الأمير ملحم الشهابي؟ لقد قتل أسعد باشا العظم سنة ١١٧١ كما يثبت البديري في حوادث دمشق[2]. لأسباب عادية في التاريخ العثماني، فالرجل كان قد جمع ثروة طائلة وأراد السلطان أن يستولي عليها فأمر بقتله ومصادرة أمواله وأموال أتباعه المقربين.

في السنوات التي حكمها الأمير حيدر بعلبك وحيداً أظهر قسوة كبيرة وتعصباً دينياً ومذهبياً حتى وصف بالظلم والجور. وقد ذكر أنه في سنة ١٧٦٨ ضبط الأمير حيدر

(١) المصدر السابق ص ١٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٩.

الحرفوش دير السيدة بداعي تنصير فتاة شيعية. وسنة ١٧٧١ تخاصم الأمراء الحرافشة على الحكم فخاف رهبان الدير وغادروه ثم عادوا إليه.

يذكر المؤرخ المعلوف أن الأمير حيدر الحرفوش تولى حكم بعلبك سنة ١٧٦٣ وهو يختلف مع ما ذكره حول أحداث شارك فيها الأمير حيدر الحاكم قبل سنة ١٧٦٣. يقول المعلوف: « فتولى الأمير حيدر حكم بعلبك من سنة ١٧٦٣ إلى قرب وفاته سنة ١٧٧٤م واشتهر بحبه للعدل ودماثة أخلاقه»[١]. وهذه الصفات التي يصفه بها المؤرخ تعاكس تلك الأوصاف التي تحدثت عن قسوة الأمير حيدر وتجبره وهجومه على بعض المسيحيين وقتلهم. فقد ذكر أن الأمير حيدر قد ضبط دير السيدة في بعلبك بداعي تنصير فتاة شيعية وذلك سنة ١٧٦٨. كما أن الخلافات بين الأمراء الحرافشة والتي اشتدت ابتداءً من سنة ١٧٧١ بعد أن ظهر أن الأمير حيدر قد أصبح هرماً وأنه لن يتمكن من الاستمرار طويلاً في الحكم.

ظل الأمير حيدر حاكماً على بعلبك وتوابعها حتى مرضه سنة ١٧٧٤ حيث أصبح هرماً وشبه عاجز عند ذلك تسلم الحكم بالوكالة عنه شقيقه الأمير مصطفى. توفي الأمير حيدر سنة ١٧٧٤ تاركاً تركة ثقيلة من الخلافات والنزاعات بين أبناء الأمراء الحرافشة أدت إلى بدء تفكك وضعف هذه الإمارة الشيعية البقاعية.

كانت الفترة التي حكمها الأمير حيدر الحرفوش في بعلبك قاسية جداً على المدينة وأهلها. «ففي ٣٠ تشرين الأول سنة ١٧٥٩ حدثت في بعلبك زلزلة هائلة دمّرت دورها وأبنيتها وأسوارها وأسقطت أعمدة هياكلها. وذكر المعاصرون أن الهزّات دامت إلى ٢٦ تشرين الثاني من تلك السنة...فانحطت بعلبك على أثر الزلازل والحروب انحطاطاً حال دون استرجاع ما كانت عليه»[٢]. وربما كان من آثار هذه الزلزلة المدمرة أن تغيّر الواقع السكاني حيث ارتحل إلى المدينة المخربة جماعات من الشيعة من القرى القريبة وكذلك قصدها جماعة من المهاجرين المسيحيين.

---

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢١٤.

(٢) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٧٦.

٧ - الأمير مصطفى بن اسماعيل: ١٧٧٤-١٧٨٤

هو الابن الثالث لاسماعيل بن شديد الحرفوش الذي يتولى حكم بعلبك ومنطقتها. بداية تسلم الحكم في بعلبك سنة ١٧٧٤ بالوكالة عن أخيه الأمير حيدر، فتصدى له ابن أخيه الأمير درويش بن حيدر الذي اعتبر نفسه أحق بحكم الإمارة من عمه. فنازعه السلطة وسيطر على قسم من بعلبك[١]. وفي نفس الوقت خرج أخوه الأمير محمد بن اسماعيل يطالب بالحكم وقد حشد من الأنصار ما يكفي لمحاربة أخيه الأمير مصطفى، وتمكن من الحصول على فرمان بحكم المدينة سنة ١٧٧٦. لكن مصطفى الذي أقام علاقات وثيقة مع المسيحيين في المنطقة خصوصاً أهل زحلة قد تابع مناكفته لتولي أخيه محمد الحكم. يذكر المعلوف أنه: «ارتفعت يد الأمير مصطفى الذي كان يميل للمسيحيين ولا سيما أهل زحلة بخلاف أخيه محمد الذي لم يكن يميل إليهم إلا تظاهراً لمآرب خاصة. فكانت هذه السنة (١٧٨١) أشد السنين هولاً لما كان بين ذينك الأميرين المذكورين من النفرة. وكان الأمير محمد قد شكى أخاه الأمير مصطفى أنه يحزب أهل زحلة ضده ويعيث في البلاد. فأرسل وزير دمشق عثمان باشا المصري الذي تولى الحكم نحو سنة ١٧٧١ ليقبض على مصطفى. فلم يجده لأنه فرّ هو وأهل زحلة، فحجزت غلالهم»[٢]. وكالعادة يدخل في تاريخ المعلوف وجود الأمراء الشهابيين ليكونوا جزءاً من الحدث. فيذكر استطراداً على قصة هروب الأمير مصطفى وأهل زحلة أنه: «كان الأمير سيد أحمد الشهابي في صليمة فاراً من وجه أخيه الأمير يوسف لأنه سعى بقتله فجاء زحلة ونزل في دير القديس الياس الطوق الذي كان رهبانه قد تركوه مع أهل البلدة ونهبه العسكر. فتعهد الأمير سيد أحمد للوزير أن يغرم الزحليين بعشرة أكياس. فدفعوها وعادوا إلى بلدتهم. ثم حضر رجل من الأستانة العلية يسمى الزبطجي وذهب إلى راس بعلبك والبقاع ورفع يد الحرافشة عنهما لأنهما من أملاك والدة السلطان. فعاد سكانهما إليهما بعد أن تركاهما لما سامهم الحرافشة من التحامل»[٣]. إن ما يذكره المعلوف حول «تحامل» الحرافشة

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢١٤
(٢) المصدر السابق ص ٢١٥
(٣) المصدر السابق.

نقيض لما ذكره قبل ذلك عن معاملة الأمير مصطفى لهم وقبل ذلك عن دماثة أخلاق الأمير حيدر وما ذكر مثله عن الامير حسين وأبيه الأمير اسماعيل. فكيف وجد أخيراً أن الدولة العثمانية قد خلصت سكان راس بعلبك والبقاع بابعاد آل الحرفوش عنهما وإثباتهما زوراً لأم السلطان؟

كان الأمير محمد الحرفوش لا زال يحكم بعلبك أثناء وقوع هذه الحوادث حين عصت عليه قبيلة عرب الشقيف، وهم جماعة من البدو كانوا يقصدون سهل البقاع صيفاً متجهين إلى جوار جبل تربل في جبل لبنان، ثم يترحلون شتاءً إلى الجولان. فكان يُفرض عليهم ضرائب محددة أثناء إقامتهم في سهل البقاع لصالح أمير بعلبك. وفي سنة ١٧٨٢ رفضت هذه القبيلة أن تدفع الضريبة المفروضة. وقد تم حل المشكلة بين الطرفين وعادت الأمور إلى طبيعتها. بينما يؤرخ المعلوف لهذا الحدث باعتباره إثباتاً لقوة عائلته «آل المعلوف» الخارقة والتي أدت إلى استسلام قبيلة الشقيف بدون حرب.

وفي شباط سنة ١٧٨٢ سار الأمير مصطفى الحرفوش إلى وزير دمشق عثمان باشا المصري الذي دعاه إليه وأعطاه الأمان. وبعد أن استقبله غدر به وزجه في السجن وصادره بمائتي كيس. فتشفع به بعض أصدقائه أن يدفع مائة كيس، فأطلقه وأعاده إلى بعلبك. ففر منها الأمير محمد إلى دير القمر طالباً مساعدة الأمير يوسف الشهابي فساعده بجيش وولى قيادته بعض أقربائه من الشهابيين حتى هاجموا بعلبك فخرج الأمير مصطفى منها إلى حمص التي كانت تتبع له فحشد فيها جيشاً وتوجه لمحاربة الجيش الشهابي حيث هزمه واستعاد حكم بعلبك. أما أخوه الأمير محمد فإنه فر هارباً إلى مجدل ترشيش حيث مات فيها سنة ١٧٨٦.

في هذه الفترة كان والي عكا أحمد باشا الجزار قد تمكن من السيطرة على جبل عامل في الجنوب حيث قتل الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ الجبل. واضطر عدد من زعماء جبل عامل إلى الفرار، ووجدوا ملاذهم في بعلبك في حمى الأمير مصطفى الحرفوش الذي سارع إلى إكرامهم وإيوائهم. وحرصاً منه على عدم امتهان كرامة أحد منهم لجأ إلى تفويض الشيخ قبلان الحسن (آل علي الصغير) حاكم جبل هونين بحكم قريتي القاع وراس بعلبك اللتين ادعت الدولة أنهما من أملاك أم السلطان. كما رفع يد الأمير يوسف

الشهابي عن قرية الهرمل وأعطاها للشيخ قبلان. يصف المعلوف تلك الأحداث بقوله: «... وفيها (سنة ١٧٨٢) انتقلت وزارة دمشق إلى أحمد باشا العظم وكان بعض متاولة بلاد بشارة قد هربوا من وجه الجزار الذي قتل كبيرهم الشيخ ناصيف (النصار) وقبض على ابنه وضبط بلادهم وفتك بكثيرين منهم وسبى رجاله نساءهم حتى باعوا المرأة منهن بعشر مصاري. فجاؤوا إلى بلاد بعلبك ولاذوا بحمى الحرافشة فاتصل خبرهم بالوزير وتوسط أمرهم عند الأمير مصطفى الحاكم فأعطاهم قريتي القاع وراس بعلبك اللتين لوالدة السلطان ونزع الهرمل من الأمير يوسف الشهابي وولى عليها جميعها الشيخ قبلان المتوالي أحد الفارين من وجه الجزار أيضاً[1].

لقد تصرف الأمير مصطفى بهذه الطريقة بطلب ورضى والي دمشق أحمد باشا العظم، وحيث أن الزحليين كانوا يوالون الأمير يوسف الشهابي لاعتبارات دينية فإنهم أبدوا عداءهم للأمير مصطفى بسبب الهرمل. يقول المعلوف أن الأمير مصطفى الحرفوش: «تغير على أهل زحلة وأراد مصادرتهم وتهددهم بالإغارة عليهم. فكتب الأمير يوسف الشهابي للأمير شديد مراد اللمعي أن يذهب بالزحليين وغيرهم ويهاجم بر الياس. فهاجمها ونهبها ثم نهب عسكره قرية النبي أيلا وقتلوا رجلاً من بني حمية فترك البقاعيون بلادهم وقد خربوا قلعة قب الياس. وقد انتهت المعركة كما مر آنفاً بهزيمة جيش الأمير الشهابي وأنصاره الزحليين. فاتصل الزحليون بباشا دمشق وطلبوا منه أن يردع عنهم الأمير مصطفى الحرفوش. فاستجاب الباشا لذلك واتفق مع والي عكا أحمد باشا الجزار على: «إخراج مصطفى من بعلبك وأرسل عسكراً لمهاجمته»[2].

ما ذكره المعلوف ليس بالضرورة صحيحاً في مبراراته فالدولة العثمانية كانت تعمل بمنهجية واضحة ولهدف محدد دون أن يكون للزحليين أو لسواهم ذلك التأثير على قرارات الدولة. ما جرى حقيقة هو اتفاق بين باشا عكا أحمد باشا الجزار ووزير دمشق محمد درويش باشا على الاستيلاء على بعلبك من الحرافشة والقضاء على وجودهم فيها. فهاجموا المدينة بغتة وتمكنوا من اعتقال الأمير مصطفى الحرفوش وخمسة من

(١) المصدر السابق ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٩.

إخوته ونقلوهم إلى دمشق حيث أقدم الباشا محمد درويش على شنق الأمير مصطفى وإثنين من أخوته وأودع الباقي السجن. وقد عيّن محمد درويش باشا على بعلبك أحد قادة الإنكشارية يدعى رمضان آغا سنة ١٧٨٤. لكن شريك محمد درويش باشا في الهجوم على بعلبك أحمد باشا الجزار لم يوافق على ذلك فراسل الصدر الأعظم واستحصل على خط شريف بفصل بعلبك ومنطقتها عن ولاية الشام وضمها إلى ولاية صيدا فأصبحت تحت حكم الجزار الذي عين عليها حاكماً من قبله هو مملوكه سليم آغا.

في غمرة هذه الأحداث وأثناء الهجوم على بعلبك واعتقال الأمراء الحرافشة تمكن ابن للأمير مصطفى هو الأمير جهجاه من التفلت من أيدي العساكر ففر من بعلبك. وسار إلى عرب خزاعة أبناء عم الحرفوشيين ليستعين بهم على عدوه وليسترجع إمارة بعلبك.

لقد كانت نهاية الأمير مصطفى الحرفوش فاجعة كبيرة للشيعة في لبنان بعد الفاجعة الأكبر التي وقعت في جبل عامل عندما قتل أحمد باشا الجزار شيخ مشايخ الجبل ناصيف النصار. وكانت المنطقة الشيعية في جبل لبنان التي يحكمها آل حمادة تتعرض في نفس الوقت لحرب ضروس من كل الأطراف المحيطة بها بحيث تبدو الصورة كأن الدولة العثمانية بكل ولاتها وأنظمتها وطوائفها ووجهائها تشن حرباً شعواء لاستئصال الشيعة في كل مكان من لبنان. فكانت هذه الفترة من اسوأ ما عرف التاريخ الشيعي في لبنان.

٨ - الأمير جهجاه بن مصطفى: (١٧٨٧-١٨١٧)

أهم أمير في تاريخ لبنان الحديث البطل المغوار والقائد الفذ الذي قلب الأمور في أسوأ الظروف التي عرفتها البلاد السورية إلى أفضل الممكن. وفي ظل أكثر فترات التاريخ سواداً للشيعة في الدولة العثمانية حين حاول ولاتها بصراحة ودون مواربة أن يستأصلوا الوجود الشيعي كلياً من لبنان. لكن أمنياتهم هذه لم تثبت جدواها ولم تنجح مراميها إلا في جبل لبنان وبنسبة محدودة حيث تعاونت قسوة الطبيعة مع جور الحكام المتخلفين ففتكت بمن تمكنت السلطنة من الوصول إليهم.

بعد إعدام الأمير مصطفى الحرفوش واثنين من إخوته فر ابنه الشاب جهجاه الحرفوش على وجهه نحو بادية تدمر. وظل يهيم على وجهه حتى تأكد أن عودته إلى

بعلبك مستحيلة في ظل الظروف السائدة، فيمم وجهه شرقاً وقصد العراق حيث تستقر إحدى بطون خزاعة. ولأن الحرافشة ينسبون أنفسهم إلى خزاعة ويُدْعَون مثل أولئك «خزاعل» فإن الأمير جهجاه الحرفوش التجأ إليهم واحتمى بهم وطلب منهم المساعدة بالمال والرجال ليتمكن من استعادة إمارة بعلبك بالقوة، وهو يدرك أن الدولة العثمانية وباشاواتها لا يمكن أن يعطوا حقاً لصاحبه إلا إذا كان أقوى من جبروتهم.

لم تكن قبيلة الخزاعل في العراق قادرة على تلبية هذا الطلب الكبير. فقبائل العراق لا قدرة لها على إعلان حرب على الدولة العثمانية. وفي نفس الوقت لم ترد القبيلة التخلي عن أحد أمرائها الشاميين البعلبكيين. لذلك وُعد الأمير جهجاه الحرفوش بالمساعدة العينية التي جاءت على شكل هبة سخية من المال بالإضافة إلى فرس أصيلة. يقول المعلوف في تاريخه: « فلم يلبوا طلبه (الخزاعل) بل اعتذروا ولكنهم أمدوه بمال كثير وأعطوه فرساً صفراء كريمة فعاد إلى بلاده سنة ١٧٨٦ »[١].

كانت الحرب التي شنتها الدولة العثمانية على إمارة بعلبك قد أنهكت البلاد والعباد وقد استولى على المدينة وما حولها جيش الشام وجيش عكا فعملا معاً بالطريقة العثمانية المعتادة والتقليدية أي القتل والسلب والنهب والحريق والاغتصاب... إلخ. ثم «تولى حكم بعلبك رمضان آغا من قبل وزير دمشق فركدت رياح الفتن وساد الأمان ورفعت المظالم»[٢]. إن كلام المعلوف لا يثبت سوى أمنياته وليس الحقيقة التي يكملها في نفس الصفحة بقوله: «وسنة ١٧٨٤ هاجم عسكر القبسيسيين ضيعة راس بعلبك فهرب الأهالي وخرب العسكر دير السيدة فيها». والقبسيس المذكور إحدى الوحدات العسكرية التي استخدمها أحمد باشا الجزار في قمع السكان في البلاد التي حكمها. ثم لم تلبث السلطنة أن ألحقت المدينة (بعلبك) وما حولها بأحمد باشا الجزار فقد «ورد خط شريف من الأستانة العلية بإلحاق بلاد بعلبك بحكم أحمد باشا الجزار فأرسل من قبله حاكماً اسمه سليم آغا سنة ١٧٨٤ فصارت تحت تصرف الجزار.... وفي السنة التالية ورد أمر سام بتقليد الجزار زمام أمور عكا والشام معاً فعم القلق أنحاء سورية. وكان الطاعون

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٧.

(٢) المصدر السابق.

يفتك فتكاً ذريعا والغلاء يذيب الأحشاء جوعاً فضويق السكان في أكثر الجهات»[١]. لكن الأمور لم تستقر على حال إذ أن السلطنة أعادت مدينة بعلبك ومنطقتها إلى حكم باشا الشام بعد مرور سنة واحدة من ضمها إلى ولاية صيدا. «وفي سنة ١٧٨٦م أرسل بطال باشا وزير الشام رجلاً زنجياً اسمه محمد آغا العبد حاكم البقاع متسلماً على بلاد بعلبك[٢]. عند هذا الحد بلغت قضية بعلبك مداها الأقصى حيث عاد في هذه السنة الأمير جهجاه الحرفوش من منفاه سراً إلى لبنان ليبدأ حرباً كبيرة بقصد استعادة إمارة بعلبك.

هناك أكثر من مصدر تاريخي يتحدث عن هذه المرحلة. وقد يظهر في الكتابة عن الأمير جهجاه بعض الأمور التي لا تستقيم مع سيرته الحقيقية.

يذكره السيد محسن الأمين في أعيانه ناقلاً الكثير مما قيل عن الأمير جهجاه دون تحقيق في المصادر، ففي البداية يعرف عنه أنه الأمير «جهجاه بن الأمير مصطفى الحرفوشي الخزاعي البعلبكي أمير بعلبك وتوابعها توفي حوالي سنة ١٢٢٥» (١٨١٠). ثم يذكر أنه: «تولى حكم بلاد بعلبك مدة بعد أبيه الأمير مصطفى حوالي سنة ١٢٠١ (١٧٨٦) وبقي في الحكم حوالي ٢٤ سنة»[٣]. ومن الطبيعي الاعتراض على هذا القول لأن الأمير جهجاه قد فر بعد مقتل أبيه إلى العراق وبقي هناك أكثر من سنتين قبل أن يتمكن من العودة وحيداً من العراق حيث سعى لتشكيل قوة عسكرية تمكنه من استعادة بعلبك.

يوصف الأمير جهجاه بأنه «كان شهما شجاعا عالي الهمة». وهذه الصفات قد اتفق عليها معظم من كتب عنه. فما قام به يشبه الحكايات الشعبية التي تمجد البطولة النابعة من رجل شهم يستنكف عن فعل المنكرات للوصول إلى الغايات. وهذا ما اتصف به فعلاً الأمير جهجاه الذي ذهب إلى العراق وحيداً وعاد وحيداً ثم بدأ مغامراته العسكرية بطريقة فذة. يقول المعلوف حول ذلك أنه في: «سنة ١٧٨٦ أرسل بطال باشا وزير الشام

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٤ ص ٢٥٠.

رجلاً زنجياً اسمه محمد آغا العبد حاكم البقاع متسلماً على بعلبك فجاء الأمير جهجاه ابن الأمير مصطفى الحرفوش من عند عرب خزاعة أنسبائه إلى زحلة وجمع مائة مقاتل. ولما تكامل عدد جيشه نعّل الخيل باللباد ودخل بعسكره ليلاً وقتلوا من التقوا به وتمكن العبد من الفرار إلى دمشق. وكان الوزير قد هم بالخروج إلى الحج فلم يستطع إرسال عسكر إلى بعلبك للاقتصاص من الأمير جهجاه. وكان عمه الأمير محمد قد التجأ إلى الأمير يوسف الشهابي في دير القمر فتوفي ودفن فيها وقيل أنه توفي في مجدل شمس (سنة ١٧٨٦) فصفا الجو لجهجاه»[١].

ليس فيما ذكره المعلوف وصف كبير لسير المعركة التي خاضها الأمير جهجاه مع حفنة من الجنود الذين لم يزد عددهم على المائة بينما كانت الظروف المحيطة بحاكم بعلبك الحكومي لمصلحته. لكن شجاعة الأمير جهجاه وقوة شكيمته قد قلبت موازين القوى وأدت إلى انتصاره الكبير، فاستعاد مدينته بحد السيف.

ويظهر من قصيدة للأمير جهجاه باللهجة العامية البعلبكية أرسلها إلى أخيه الأمير سلطان وصف للأحداث يقول فيها أنه قتل العبد حاكم بعلبك في غربي المدينة. والقصيدة حافلة باستعراض سريع ومختصر لكل ما جرى على الأمير جهجاه من لدن خروجه من بعلبك إلى العراق ومن ثم عودته ومحاربته للعبد وانتصاره عليه:

الا يا غاديا مني وسلم ... وسلم لي سلام بلا انقطاع
وسلم لي على الديرة وأهلها ... وباقية الامارة والتباع
تعتب لي عليهم بالملامة ... وذكرهم بأيام الشناع
انا لو كنت قاصد لأجفاكم ... بخلي جسامكم تجوي المشاعي
وبشوفكم انا بعض المراجل ... وبخلي خيولكم تغدي شلاعي
ولولا الخوف من أخت الامارة ... وحق البيت مع ابن الرفاعي
تا كان الرمم فيكم طرايح ... فرايس للطيور وللضباع
كفيت الشر وانطيهم قفايا ... رحمه الهم من حروب الخزاعي

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٢٠.

انـا ببغـداد مـا عنـدي علايـم بهـذا الأمـر مـا عنـدي اطـلاع
جاءنـي كتـاب خـط مـن يديهـا معلـم بالـورق روس السـباع
فعـرف عـن جميـع الضـار فيكـم فطـاش العقـل مـن حيـن استماعي
نهـرت العبـد هـات لـي المعنقيـة عليهـا اعتلـى رهـط الخزاعـي
وجيـت مطوحـا مـن فـوق حـرا سـريعة الجـري لينـة الطبـاع
ورمحـي مـن جبـل بغـداد جبتـه وسـاقي حربتـه سـم الأفاعـي
غطسـت وجيـت مـن بغـداد إليكـم تشـيل الضيـم عنكـم فـي ذراعـي
وعـود الـزان يرقـص فـي يمينـي وسـيفي مجـردة عاطـول باعـي
سـالت العبـد أيـن يكـون حاكـم قالـوا بالصفـا والـكاس داعـي
دعيتـه مرتمـي غربـي بعلبـك بحـد السـيف قطعتـه قطاعـي
وفصلتـه انـا قهـرا ورغمـا علـى البيـدا بقـي اربـع رباعـي[1]

وينقل السيد الأمين عن تاريخ الأمير حيدر الشهابي حول هذه الواقعة فيقول: «وقد أشار الأمير حيدر الشهابي في تاريخه إلى هذه الواقعة فقال في سنة ١٢٠١ (١٧٨٦)كان الوالي على دمشق حسين باشا بطال فبعد دخوله دمشق أرسل محمد آغا العبد الذي كان حاكما في البقاع متسلما على بلاد بعلبك وكان قد رجع الأمير جهجاه ابن الأمير مصطفى الحرفوشي - يعني من العراق - فجمع عسكرا وكبس محمد آغا في بعلبك وقتل جماعة من أصحابه وهرب محمد آغا إلى دمشق. وكان الوالي يومئذ قد هم بالخروج إلى الحج فلم يتمكن من ارسال عسكر إلى بعلبك»[2].

ويبدو أن قول الأمير جهجاه في قصيدته أنه قتل االعبد غير صحيح وسيكون لمحمد آغا العبد دور في معارك جرت بعد ذلك مما ينفي ذكر مقتله في معركة استعادة الإمارة.

كان على الأمير جهجاه أن يستعد للمعركة التالية مع باشا دمشق الذي اعتبر الهجوم

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٤ ص ٢٥١.
(٢) المصدر السابق.

على بعلبك وقتل جنود الباشاوية اعتداءاً عليه وعلى الدولة العثمانية. فكان لا بد أن يقوم بحملة لتأديب الأمير المتمرد وهذا ما جرى في السنة التالية رغم أن النتائج لم تكن كما أراد الباشا. في السنة التالية ١٢٠٢ (١٧٨٧) وبعد عودة بطال باشا من الحج أمر جيشه بالهجوم على بعلبك للإنتقام من الأمير جهجاه الذي تحدى هيبته وطرد وكيله.كان عديد الجيش المهاجم ألف ومائتي فارس عين عليه أحد قواده المنلا اسماعيل وكلّفه بالاقتصاص من جهجاه. وحين وصل الجيش الشامي قاصداً الأمير جهجاه ومن معه قرب مدينة زحلة اصطدم به ومعه قوة عسكرية متواضعة عدداً وعتاداً فوقعت معركة دموية هزم فيها جيش الباشا وارتد إلى دمشق. يصف المعلوف هذه المعركة بقوله: « فالتقاه (جهجاه) هذا هو وأخوه سلطان بأهل زحلة. فكمن بعضهم في مضيق زحلة إلى أن وصل إليهم العسكر فأطلقوا عليهم الرصاص والتحم الفريقان وتعاركا فتقهقرت عساكر المنلا وتبعهم رجال الأمير إلى قرية السلطان ابراهيم وأعملوا السلاح في أقفيتهم فلم يهلك من رجال الأمير سوى نفر قليلين. فعاد جهجاه إلى بعلبك وتولى الحكم»[١].

ويبدو أن هزيمة باشا الشام (بطال باشا) قد سرّعت في عزله ونقله من دمشق ليحل محله أظن ابراهيم باشا الذي سارع إلى إرسال التهديد والوعيد للأمير جهجاه بأنه سيقصده وينتقم منه لطرده محمد آغا العبد من بعلبك. أدرك الأمير جهجاه أن حجم القوة التي حشدها الباشا كبير جداً ولا طاقة له بمواجهته مباشرة. عند ذلك لجأ إلى خطة عسكرية ذكية تشبه عملية الأرض المحروقة. فقد أمر بإخلاء مدينة بعلبك من كل أهلها وتخريب اقتصادها حتى لا يبقى فيها شيء يمكن أن يستفيد منه العدو. يقول المعلوف: «... ففر جهجاه بأهل المدينة من مسلمين ومسيحيين وخرّب الطواحين وحمل الأهلين على مغادرة المدينة والقرى التي تتبعها ثم صعد إلى قرية صنبرة وحاصر فيها بجماعته. وكان وزير دمشق أظن ابراهيم المذكور قد دخل دمشق وأسند حكم بلاد بعلبك إلى الأمير كنج ابن الأمير محمد الحرفوش فأرسل كنج مغاربة ودالاتية لقتل ابن عمه جهجاه. فاستصرخ هذا الأمير يوسف الشهابي والأمير شديد مراد اللمعي فأرسلا إليه عسكراً. ولولا وصول تلك النجدة لقضي عليه وعلى جماعته. فما وصلت الرجال حتى استعاد جهجاه ورجاله

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٢١.

قوتهم وناهضوا عسكر ابن عمه الأمير كنج بقلوب قدت من الحديد فقتلوا أربعين رجلاً من المغاربة ودحروا الباقين إلى بعلبك. وكان هذا في التاسع من آذار يوم عيد الأربعين شهيداً فأوغر ذلك صدر الوزير غيظاً. ففاوض الأمير يوسف وبواسطة عباس التل حاكم الزبداني انفض المشكل وأعيدت الولاية إلى جهجاه وكان ذلك ليلة عيد البشارة فسر الناس وأطلقت البنادق وسر الناس ولا سيما الزحليين لأن سكانها كانوا على أهبة الرحيل[١].

لقد كان انتصار الأمير جهجاه الحرفوش كبيراً وخطيراً ضد طغاة الدولة العثمانية. ومن الطبيعي أن يشعر باشا دمشق بالحقد والغضب على الأمير جهجاه الذي أرغم الباشا على القبول به أميراً على بعلبك. فيما وجد الباشا في الأمير كنج الحرفوش العائد من المعركة مهزوماً نموذجاً ضعيفاً ليحمله مسؤولية ما جرى لجيشه. فصب جام غضبه عليه واستقدمه إليه وطالبه بنفقات العساكر التي أعانته وقدرها ١٥ كيساً فلما تعذر عليه دفعها زجه به في السجن ثم سار لتأدية فريضة الحج ليقضي الأمير كنج نحبه بعد مدة قصيرة في ظروف غامضة بما يوحي بأن الباشا قد تعجل في الخلاص منه، ربما إرضاءً لجهجاه حتى لا يقوم بمغامرة عسكرية أكبر. فما ينقله بعض مؤرخي ذلك العصر يفيد أن الأمير جهجاه قد اتصل بنائب الباشا أثناء غيابه وأغراه بقتل الأمير كنج فخنقه في السجن. وقد يكون السبب أمراً آخر، فالباشا الذي هزم جيشه أراد ستر أمر أخفاه عن أعين الباشاوات المجاورين الطامعين في حكم دمشق كأحمد باشا الجزار والي صيدا (عكا). وقد وجد الباشا المخرج من هذه الأزمة في القضاء على الأمير كنج أثناء غيابه في الحج. أما أحمد باشا الجزار الذي توقف الحديث عن تدخلاته في شؤون دمشق وسناجقها ومنها بعلبك أثناء هذه الأحداث. فقد كان يعاني من مصاعب جمة في ولايته. فقد اتهم عدد من مماليكه بإقامة علاقات مشبوهة مع بعض الجواري في حرمه، فدفعته غيرته إلى محاولة القضاء على عدد منهم وعلى رأسهم سليم آغا قائد جيشه وسليمان آغا أحد المقربين النافذين منه. وهجم عليهم فأطلقوا عليه الرصاص لكنه نجا بأعجوبة. وخرج سليم آغا والمماليك من عكا وتبعهم العسكر. وسار سليم آغا وسليمان آغا بالعسكر إلى صور وحضرت إليهم المتاولة (سكان جبل عامل) والصفدية وسلموهم أمر بلادهم. ثم رجع

(١) المصدر السابق ص ٢٢١ -٢٢٢.

سليم آغا بالعسكر إلى نواحي عكا لمحاربة الجزار وجرت بينهم وقعة انهزم فيها عسكر سليم آغا وهرب إلى دمشق بينما هرب سليمان آغا إلى دير القمر ومعه من المماليك حوالي ثمانمائة رجل. ثم أرسل الجزار عسكرا إلى البقاع برجال وادي التيم ومعهم محمد آغا العبد بمائة خيال من وجاق الدولة لقتال سليمان آغا والأمير يوسف الشهابي فاجتمعت عساكر المتحالفين أي الأمير يوسف الشهابي ومماليك سليمان آغا والأمير جهجاه الحرفوش. يقول الشدياق في أخباره: «... فلما وصلوا إلى قب الياس قدم إليهم الأمير جهجاه الحرفوش برجاله. ولما بلغ الأمير علياً (الشهابي والي حاصبيا) ذلك خاف ونهض راجعاً إلى قرية كامد (اللوز) فقصده عسكر الأمير (يوسف) فأدركه في وادي أبي عباد. فاصطف الفريقان للقتال فانكسر الأمير علي بعساكر الجزار وولى مدبراً إلى عكا يشكو للجزار، فتبعهم عسكر الأمير (يوسف) فأهلك منهم خلقاً كثيراً وجدّ في طلبهم إلى قرية خربة روحا....»[1].

كان انتصار الحلفاء مؤقتاً إذ سرعان ما أعاد الجزار إرسال جيش جديد بقيادة الأمير علي الشهابي أيضاً وعدده ألفي مقاتل. وقد وصل هذا الجيش إلى قرب جب جنين في البقاع حيث جرت معركة هزم فيها جيش الأمير يوسف وقتل منه خلق كثير.

كان النتيجة الأولى لهزيمة الأمير يوسف عزله عن الحكم بأمر أحمد باشا الجزار وتكليف الأمير بشير الشهابي (الثاني) بحكمها. فتحول جيش إمارة الشهابيين من حليف للامير جهجاه والبعلبكيين إلى عدو محارب بأمر من الأمير الجديد. وليس صحيحاً ما ذكره الشدياق[2] عن أن الامير يوسف جمع الوجهاء في جبل الدروز وأبلغهم عن رغبته في التنازل، فاختاروا بشير بن قاسم الشهابي ليصبح أميراً على دير القمر. فلم يكن في ولاية عكا (صيدا) التي يتبعها جبل الدروز من له الحق في اختيار الأمراء والحكام سوى الباشا الذي يعزل ويولي من يراه مناسباً. لذلك استدعى الجزار الأمير بشير و:»ولاه على الشوف وكسروان وأرسل معه عسكراً ألف...»[3].

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٣٤٩.
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٠.
(٣) المصدر السابق.

بعد عودته إلى بعلبك واجه الأمير جهجاه الحرفوش عداوة بعض أقربائه الذين ما انفكوا يحاولون القضاء عليه أو إقصاءه عن حكم بعلبك. فبعد وفاة الأمير كنج بن محمد الحرفوش برز حرفوشي آخر يطالب بالنفوذ والسلطة وهو الأمير قاسم ابن الأمير حيدر الحرفوش. بدأ هذا الأمير محاربة ابن عمه سنة ١٧٨٩ (٢١ حزيران) مستغلاً عزل الأمير يوسف حليف الأمير جهجاه عن حكم جبل الدروز، وطلب النجدة من الأمير بشير الشهابي فاستجاب الأمير بشير دون تردد خصوصاً وأنه اعتبر الفرصة سانحة للتوسع في البلاد المجاورة لإمارته. يقول المعلوف أنه»... في ٢١ حزيران سنة ١٧٨٩ استغاث الأمير قاسم ابن الأمير حيدر الحرفوش بالأمير بشير الشهابي الكبير أن يمده بعسكر لمحاربة ابن عمه الأمير جهجاه فأوعز الأمير الشهابي إلى الزحليين أن يساعدوه وإلى اللمعيين أن يشدوا أزرهم فزحف الأمير قاسم (الحرفوش) بنحو خمسمائة مقاتل بقيادة اللمعيين إلى تمنين حيث كان معسكر جهجاه فلاقاهم هذا برجاله إلى سهل أبلح وهناك اصطلت نيران الحرب فدُحِر الأمير قاسم ورجاله وتقهقروا إلى زحلة بعد أن سلبت خيولهم وأسلحتهم وقتل بعض مشاتهم وأسر الأمير شديد مراد اللمعي فأطلقه الأمير جهجاه ورد له أسلحته وجواده وأكرمه»[١].

كانت هذه الهزيمة لجيش الأمير بشير الشهابي مربكة ولم تتطابق مع مطامع الأمير الكبيرة لذلك جهز على عجل جيشاً جديداً وأسلم قيادته لأخيه الأمير حسن ومدبره ناصيف آغا فتوجه الجيش نحو بعلبك. ولما علم الأمير جهجاه بقدومهم أمر سكان بعلبك بالخروج عنها وتخريب كل ما يمكن أن يستفيد منه العدو فهرب السكان وأتلف ما في المدينة. وعند بدء المعركة قرب مدينة بعلبك وجد الأمير جهجاه أن قوة خصمه أكبر. فآثر التراجع والانسحاب إلى راس بعلبك فلحقوا به إلى هناك فاستدار على طريقهم وعاد يسبقهم إلى تمنين ورياق فأحرق في طريقه بيادرها ثم تابع إلى زحلة فأحرق بيادرها. في هذا الوقت كان الجيش الشهابي قد دخل بعلبك حيث أعلن الأمير قاسم الحرفوش أنه الحاكم الشرعي للإمارة البعلبكية.

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٢٤.

لم يتمكن الجيش الشهابي من البقاء طويلاً في بعلبك بلا مؤن، واضطر بعد أسبوعين فقط إلى الجلاء عنها. فهاجمها الأمير جهجاه وتمكن من استعادة السيطرة عليها. عند ذلك فرّ الأمير قاسم بن حيدر الحرفوش فكانت تلك هزيمته الثانية التي يمنى بها في مواجهة الأمير جهجاه.

لم ييأس الأمير قاسم، ولم يتغير موقفه من ابن عمه الأمير جهجاه. بل أرسل يطلب النجدة من أحمد باشا الجزار الذي لم ينس هزيمة جيشه في البقاع قبل حين. كان الجزار يتهيأ لمثل هذا العمل ضد الأمير الحرفوشي، لكن الأحداث سارت بشكل مختلف. فالأمير جهجاه المنتصر على باشاوات الدولة في دمشق وعكا قد تمرد وتوقف عن دفع المال الأميري. عند ذلك أمرت الدولة جيشها في حمص بمهاجمة بعلبك بقيادة الحاج اسماعيل الكردي الذي فاجأ الأمير جهجاه فلم يتمكن من الصمود أمامه واضطر إلى الانسحاب والتخفي، بينما واصل اسماعيل الكردي هجومه فدخل بعلبك وسبى حريم الأمير جهجاه الأربع ونهب ماله وأمتعته وتوجه إلى دمشق. عند ذلك عاد الأمير جهجاه إلى بعلبك ودخلها وأمر جميع السكان بتركها كما طلب ذلك من جميع سكان القرى التابعة لبعلبك. فعاد اسماعيل الكردي وهاجم بعلبك ثانية ودخلها وأقام فيها حاكماً عليها بينما فر الأمير جهجاه إلى فالوغا في جبل لبنان. حيث تمكن هناك من جمع عدد كبير من الرجال الذين تلاحقوا به من المناطق القريبة وتوجه بهم نحو زحلة. وحين علم اسماعيل الكردي بذلك أمر جيشاً من ستمائة فارس بمهاجمة الأمير جهجاه والقبض عليه. ووقعت المعركة في زحلة وحولها فانهزم جيش اسماعيل الكردي وفر من المعركة تاركاً حوالي مائتي قتيل ولم يقتل أحد من جيش الأمير جهجاه[1]. وقعت هذه المعركة في مطلع سنة ١٧٩٠ عاد بعدها الامير جهجاه إلى بعلبك مظفراً وبدأ عملية انتقام ضد الذين خالفوا أوامره حين أمرهم بإخلاء بعلبك. في ذات الوقت كان الباشا في دمشق قد أيقن أن الحل يكمن في استرضاء الأمير جهجاه وليس معاقبته ولا محاربته. وقد جرت الوساطة بين الباشا والأمير عن طريق حاكم الزبداني فأطلق الباشا حريم الأمير مقابل تعهد الأمير جهجاه بدفع أربعين كيساً للباشا ويرهن أخاه لقاء المال الأميري المتأخر. فحمل الباشا للأمير جهجاه خلعة الولاية.

(١) المصدر السابق ص ٢٢٥.

في هذا الوقت عاد الامير قاسم بن الأمير حيدر الحرفوش بنجدة الجزار وبما اجتمع له من الرجال وتحرك نحو بعلبك فالتقى بجيش الأمير جهجاه قرب رأس العين على مقربة من مدينة بعلبك ولم تستغرق المعركة طويلاً حتى انجلت عن مقتل الأمير قاسم وهزيمة وتمزق جيش الجزار.

كان هذا النصر الجديد للأمير جهجاه هزيمة غير مباشرة لباشا دمشق الذي كان في الحج. وبعد رجوعه أمر جيش الولاية بالتوجه إلى بعلبك والقبض على الأمير جهجاه في حركة تشبه ما فعله اسماعيل الكردي. فانسحب الأمير جهجاه إلى الزبداني ثم عاد سريعاً إلى بعلبك وليس معه من العساكر سوى مائتي رجل ففاجأ جيش الباشا وفتك بمعظم رجال ولم ينج من جيش والي الشام إلا القليل. ففروا عائدين إلى دمشق بينما دخل الأمير جهجاه السرايا معلناً انتصاره الجديد. وحاول الباشا إرسال جيش ثانٍ للانتقام فاستدرجهم الأمير جهجاه إلى قرب زحلة وأنزل بهم هزيمة جديدة فتراجعوا أمامه هاربين إلى القرعون حيث هاجموا بلدة صغبين فدافع أهلها عنها حتى ردوا جيش الباشا. في هذا الوقت (سنة ١٧٩٢) أراد أحمد باشا الجزار أن يتدخل فأوعز إلى جيش الشام الذي كان لا يزال قرب صغبين بمباشرة القتال وقد أرسل من عنده جيشاً لهذه الغاية. وحين وصل جيش الجزار كان الأمير جهجاه قد انسحب شمالاً نحو بعلبك. فهاجم (جيش الجزار) قرية الفرزل ونهبها وقتلوا بعض الرعاة فكان ذلك أقصى ما تمكن جيش الجزار من فعله قبل عودته إلى عكا.

لقد بلغ الأمير جهجاه قمة نفوذه وقوته ولم يكن يخشى قوة الباشاوات التي ثبت عجزها عن عزله، لكنه كان يخشى أقرباءه المتربصين به وكل منهم يعتبر نفسه أحق بحكم بعلبك منه. لذلك وقع الخلاف بين الأمير جهجاه وأولاد عمه الأمير ابراهيم فحاربوه سنة ١٧٩٤ لكنه انتصر عليهم وانتقم منهم بقسوة بالغة، حيث قتل بعضاً منهم وسمل أعين البعض الآخر. وبعد ذلك مباشرة هجم جيش دمشق على بعلبك (سنة ١٧٩٥) فأحرق بعض بيوتها ثم ارتد عائداً إلى دمشق دون أن يتمكن من تغيير الأوضاع فيها.

إن كثرة المعارك التي خاضها الأمير جهجاه طيلة السنوات العشر الأخيرة وانتصاره فيها جميعها جعلته أحد أهم أمراء الولايات الشامية وأكثرهم منعة وقوة. لذلك لم

يعد لأي من الولاة رغبة في تجربة الحرب ضد الأمير جهجاه فحدث لأول مرة منذ دهر طويل استقرار في بعلبك وما حولها مدة زادت عن عشر سنوات. في خلال ذلك جرت متغيرات كثيرة فقد توفي أحمد باشا الجزار وتولى الحكم في عكا سليمان باشا الذي كان حليفاً للأمير جهجاه يوم فر من الجزار. كما توطدت صداقة قوية بين الأمير جهجاه والأمير بشير الشهابي كان من نتيجتها أن قدم الأمير جهجاه للأمير الشهابي بلدة الكرك (كرك نوح) هدية سنة ١٨٠٧. والسبب في ذلك كما يقول المعلوف أن باشا دمشق الجديد قد قرر مهاجمة بعلبك على عادة ما كان الباشاوات السابقين يفعلون لكن وساطة الأمير بشير أثنت الباشا عن عزمه فأرسل الخلع للأمير جهجاه باستمراره في حكم بعلبك. وكانت قرية كرك نوح قد خربت على أيدي جيش الأمير فخر الدين المعني أثناء تخريبه للبقاع سنة ١٦٢٣ وقد قبل الأمير بشير الهدية واعتبر ذلك تحقيقاً لحلم قديم كان يسعى إليه.

إن استقرار الأحوال في بعلبك أعادت فتح شهية أقرباء الامير جهجاه للمطالبة بحكم الإمارة. في الماضي كان أهم أميرين مطالبين بالإمارة كنج وقاسم وقد انتهى أمر الإثنين وبقي الامير جهجاه حاكما. هذه المرة كان المطالب بالحكم أخوه سلطان الذي ظل طيلة فترة الحروب والصراعات سنداً ونائباً ومستشاراً للأمير جهجاه. لكنه بعد سنة ١٨٠٦ بدأ يطالب بحقه في حكم بعلبك مثله مثل جهجاه. ولما لم يشأ الأمير جهجاه أن يدخل في حرب دموية مع أخيه فقد آثر الانسحاب واللجوء إلى منطقة بعيدة عن بعلبك (عكار) تاركاً الإمارة لسلطان الذي حكم فترة من الزمن وحيداً ثم عاد واستدعى أخاه جهجاه ليعيد الحكم إليه. يذكر صاحب تاريخ بعلبك (آلوف) ذلك ليثبت دوراً مهماً ومتميزاً للأمير بشير الشهابي فيقول: «... وفي سنة ١٨٠٦ وقعت النفرة بين الأمير جهجاه وأخيه الأمير سلطان، فظاهر جمهور الحرافشة سلطاناً لاستبداد جهجاه فيهم. فحنق هذا ونزح إلى بلاد عكار وبقي هناك إلى أن أصلح ذات بينهما الأمير بشير الكبير سنة ١٨٠٧ فتولى جهجاه على بعلبك وأعمالها إلى أن توفي بعد سنين قليلة. وكان بطلاً شجاعاً ومقداماً مذكوراً فحكم بعده أخوه الأمير أمين»[1]. وكما يبدو من نص هذه الحكاية فإن الكاتب

---

(١) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٧٩ - ٨٠.

قد تناسى وجود باشا في دمشق له حق العزل والتعيين واعتبر أن القضية تحل وتربط عند الأمير الشهابي وفي ذلك ابتعاد عن الواقع.

في هذه الأحوال كانت عين والي دمشق على بعلبك ويرغب في رؤية نهاية حكم الحرافشة. لقد طلب أكثر من مرة أن يلتقي بالأمير جهجاه ليثبته أميراً دائماً على إمارته لكن الأمير رفض الاجتماع به وبأي باشا عثماني. كان غدر الباشاوات قد أثر به كثيراً وهو يتذكر غدرهم بأبيه وأعمامه. كان الأمير جهجاه يفضل ترك الحكم لأخيه سلطان حتى لا يلتقي بباشا دمشق بحجة اعطائه خلعة الولاية.

وفي ١٧ آذار سنة ١٨١٧ توفي الأمير جهجاه الحرفوش[١] بعد ثلاثين سنة من الحكم المتقلب والمعارك الدموية التي حمت نتائجها المظفرة إمارة بعلبك وسكانها الذين طغى عليهم الوجود المذهبي الشيعي.

يعتبر الأمير جهجاه أهم أمير حكم منطقة واحدة في تاريخ لبنان الحديث فهو استمر في السلطة مدة ثلاثين سنة في أصعب الظروف. وانتهى على فراشه وإمارته مستمرة. وبالمقارنة مع الأمير فخر الدين بن معن فإنه لم يحكم الإمارة بشكل مستمر إلا خمس عشرة سنة (١٦١٨ـ١٦٣٣) أما ما سبق ذلك فمنها خمس سنوات منفياً في توسكانة وقبلها خمس عشرة سنة حكم فيها مقاطعة الشوف والتزم بعض المناطق المجاورة. وأخيراً انتهى حكمه سجيناً ثم أعدم دون أن يتحرك أحد في الإمارة للدفاع عنه أو لحمايته. أما الأمير بشير الشهابي فإنه بقي تابعاً للجزار يعزله ويعيده حتى وفاة الجزار سنة ١٨٠٤ فحكم ست وعشرين سنة حتى مجيء الجيش المصري فأصبح ينفذ لهم رغباتهم. وانتهى حكمه بحرب أهلية بينما انتهى هو نفسه منفياً في مالطة حتى وفاته.

وليست هذه المقارنة بين هذين الأميرين والأمير الكبير جهجاه الحرفوش إلا من باب تذكير من يقرأون تاريخ لبنان أنهم يقرأون عن الصغار أكثر بكثير من قراءتهم عن كبار الأمراء فترسخ في عقول عامة اللبنانيين تاريخاً لأمراء لم يكونوا حقيقة سوى دمى في أيدي الحكام العثمانيين في ذلك الزمان، فيما يجهل عامة اللبنانيين ذلك الأمير الكبير

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة ج ١ ص ٣٣٤.

جهجاه الحرفوش ولا يذكره إلا قلة قليلة من المثقفين وبخجل. الأمير الكبير الذي يسجل التاريخ له ذلك النضال الدؤوب والتضحيات الجسيمة في سبيل حماية بلاده وأهلها من أحلام الطامعين. فكان ذلك سبباً في حماية بعلبك أرضاً وشعباً إلى الوقت الحاضر.

إضافة إلى ما تقدم من صفات الأمير جهجاه هناك صفة أخرى تمتع بها أكثر من سواه من الأمراء وهي قوله للشعر بلهجة شعبية تدل على طريقة تفكير الناس في زمانه. وقد قال قصيدة يعاتب بها أقرباءه وأخاه (الأرجح سلطان) على نكرانهم لفضله هي ذاتها القصيدة التي ذكرها السيد الأمين واعتبر أنها قيلت بعد عودة الأمير جهجاه من العراق. يقول الأمير جهجاه في قصيدته:

ما قال الخزاعي في بياتٍ ... يتمعّن بها من كان واعي
أبات من النوى في سوء حالٍ ... ودمع العين ع الخدين ساعي
على أمرٍ وقع ما بيه حيلة ... وحقي راح عند أهلي وضاعِ
على قوم ربيتهم وبيّا خانوا ... وراحوا كلهم صاروا سواعي
وفيهم كل صنديد مجرب ... وحق اللّه بالهوشي سباعي
ألا يا غادياً مني وسلّم ... عالكبار وعالصغار وعالنباعي
وسلّم لي على الديرة وأهلها ... إمارة مع شيوخ ومع رضاعي
وتعتّب عليهم بالملامة ... وذكرهم بأيام الشناعي
ويوم كان قيد العبد حاكم ... ولا يعدل بحكمه ولا يراعي
ولا يرحم كبيراً ولا صغيراً ... ولا يقبل دخول ولا شفاعي
وجيتُهْ مفرّعاً ع ظهر صفرا ... خفيفة جري مزينة الطباعِ
وشفتم همتي فيهم وفعلي ... وعاد السيف يتلامع لماعي
ووطيت الخشوم مع الشوارب ... وعادوا يجون ليَّ باختضاعي
وصرتم ورد بين الناس تزهوا ... وكترتوا السحوت مع الطماعي
وفيكُم ولد حيدر رام ضيمي ... وافتح لي فتوحاً ذو نزاعِ

دعّيتــه ميتــاً قِبلــي بعلبــك بحـد السـيف خلّيـه قطاعـي
وريـد الحـض منـك بالشـهادة وحاضـر يـا أخـوي ان كنـت واعـي
فـي ليلـة بعلبـك شـفت فعالـي ونهراتـــي كنهـرات السـباعي
وعفـت الـروح ع النامـوس خايـف دعيـت لشاشـهم مـن فـوق قـاعِ
عنـدي رمـح مـن بغـداد جبتُـه وسـاقي لحربتـه سـم الأفاعـي
أنـا قاصـدك يـا ربـي وإلهـي بجـاه البيـت واللـي ليـه سـاعي
بجـاه المصطفـى خيـر البرايـا تقبـل يـا إلهـي لاختضاعـي
وتعطينـي بمشـواري عليهـم سـيفاً مجـرداً عاطـول باعـي
لناخـذ حقنـا ويّـا الطلايـب وندعـي كل مـن واعـي وداعـي

هذه القصيدة التي تذكر أحداثاً بعينها كتمرد ابن الأمير حيدر الحرفوش أو كمعركة ليلة بعلبك ، أو كذكر حكم العبد... كل ذلك يؤكد أن الأمير جهجاه قد كتب هذه القصيدة في فترة ابتعاده عن الحكم سنة ١٨٠٦ . ويبدو أن صاحب تاريخ بعلبك قد اختار الأبيات التي تناسب المقام بينما اختار السيد الأمين الجزء الأهم من القصيدة مع أنّ الكاتبين قد بدآالقصيدة بنفس المقدمة المؤلفة من ثلاثة أبيات.

٩ - الأمير أمين بن مصطفى (ت ١٨٣١)

عندما مات الأمير جهجاه كان شقيقه الطموح سلطان موجوداً في المدينة فاعتبر نفسه الوريث الشرعي والطبيعي للإمارة. بينما تحرك أخوه الثاني الأمير أمين ليس طمعاً بالإمارة لنفسه ولكن ليطلبها لنصوح ابن الأمير جهجاه. فتوجه ومعه نصوح وعمره ١٢ سنة إلى مدينة دمشق طالباً خلعة الحكم فمنح الباشا الخلعة له واعترف به أميراً على بعلبك. فاضطر الأمير سلطان للخروج من المدينة إلى بلدة الهرمل حيث بقي في حماية الحمادية الذين كانوا يتولونها.

امتلك الأمير أمين الحرفوش تلك الصفات النبيلة التي تمتع بها شقيقاه جهجاه وسلطان، وتلك الأخلاق المثلى التي تميز بها معظم أمراء الحرافشة في تاريخهم رغم

محاولة بعض المؤرخين المعادين من تصويرهم بصور مغايرة. وقد ثبتت هذه الأخلاق وتلك الصفات عندما وصلت الحملة المصرية إلى بعلبك سنة ١٨٣٠. كان الأمير أمين قد عرف كيف يسيطر على إمارة بعلبك منذ سنة ١٨١٧ وتبع أوامر والي دمشق فطرد سنة ١٨١٩ بعض المشايخ النكدية الذين كانوا قد لجأوا إلى بعلبك. لكن ما لم يكن في قدرته على التهرب منه هو ابن أخيه الأمير نصوح الذي سعى لحكم الإمارة رغم صغر سنه. ويبدو مما كتبه آلوف أن الأمير بشير الشهابي كان يقف وراء تحرك الفتى الأمير فهو يذكر أنه: «... في سنة ١٨٢٠ سولت للأمير نصوح ابن الامير جهجاه نفسه الخروج على عمه الأمير أمين فاستنجد الأمير بشير على طرد عمه من بعلبك فأنجده بعسكر يرأسه الأمير ملحم حيدر شهاب»[١]. كان تدخل الجيش التابع للأمير بشير الشهابي إحتمال أن يحدث تدمير في بعلبك وخراب فآثر الأمير أمين الخروج منها، تاركاً المدينة لإبن أخيه. وقد اصطحب معه في هروبه أخاه الأكبر سلطان إلى بلدة الهرمل. ولم يطل بقاء الجيش الشهابي في بعلبك فانسحب الأمير ملحم تاركاً الأمير نصوح وحده، عند ذلك عاد الأمير أمين إلى بعلبك ففر الأمير نصوح إلى زحلة حيث عمل على تشكيل جماعة لمحاربة عميه أمين وسلطان. وقد قام الأمير نصوح بمفاجأة عمه أثناء وجوده في قرية بدنايل مع عدد قليل من الجنود ففر من أمامه عائداً إلى بعلبك. أدرك الأمير نصوح أن حربه مع عمه لن توصله إلى الحكم فجاءه مستسلماً طالباً المسامحة منه فرحب به. لكن بعد مدة قصيرة أقدم مكباشي درزي على خنق الأمير نصوح أثناء نومه وفر المجرم. وقد افترض البعض أن قتل الأمير نصوح هي عملية اغتيال يقف وراءها الأمير أمين ليستفرد بالحكم.

بعد مقتل الامير نصوح لم يقع في بعلبك أي حادث مهم حتى وصول الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا الذي بدأ بغزو البلاد السورية دون أن يلقى مقاومة كبيرة، خاصة بعد أن سقطت عكا بيده وكانت أمنع المدن الساحلية السورية في حينه. معظم أمراء ووجهاء المناطق والطوائف وزعماء البلاد رحبوا بالفاتح المصري أو سكتوا ولم يبدوا اعتراضاً على احتلاله إلا الأمير أمين الحرفوش أعلن أنه لا زال يوالي دولة السلطان وسيدافع عن بعلبك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقرر مقاومة

(١) ميخائيل موسى آلوف، تاريخ بعلبك ص ٨١.

الوجود المصري رافعاً راية الثورة باكراً ضد هذا الوجود الاحتلالي. وكان ذلك مثيراً لغضب ابراهيم باشا الذي لم يجد في سوريا من يعترض سبيله. عند ذلك زحف الباشا المصري بجيشه واستولى على بعلبك سنة ١٨٣١ ففر منها الأمير أمين ومعه ابنه الأمير قبلان وبعض المقربين والأوفياء من أصحابه.

أما الجيش المصري فإنه أقام ثكنة في بعلبك معتبراً المدينة مركزاً عسكرياً مهماً نظراً لموقعها المتميز في سهل البقاع. وأصدر ابراهيم باشا قراراً بتعيين الامير جواد الحرفوش حاكماً على بعلبك محاولاً أثبات مراعاته للتقاليد الشائعة في المجتمع السوري عامة.

أما الأمير أمين فإنه تابع تخفيه خاصة بعد أن شاع بين الناس بأن ابراهيم باشا رجل غادر لا يحترم كلمة ولا يوثق به. فيما كان الجيش المصري يتابع ملاحقته من مكان إلى مكان حتى أدركته كتيبة من فرسان الهنادي (إحدى فرق الجيش المصري) عددها حوالي أربعمائة فارس، في عين الوعول شمالي بعلبك بينما لم يكن مع الأمير أمين إلا ابنه الامير قبلان وإثني عشر فارساً فقام الأمير قبلان بمهاجمة كتيبة الهنادي وشاغلهم مدة من الوقت كانت كافية لوصول أبيه ومن معه من الحريم إلى مكان وعر لا تستطيع فرسان الهنادي اللحاق به. عند ذلك انعطف الأمير قبلان ورفاقه لاحقاً أثر أبيه بينما عادت كتيبة الهنادي بالخزي. وتابع الأمير أمين الحرفوش سيره فمر على أسرة الدنادشة وبينه وبينهم صداقة قديمة، فأودع حريمه لديهم. وسافر مع ابنه وأصحابه إلى اسطنبول حيث استقبل بترحاب شديد وبقي هناك حتى انتهى الحكم المصري للشام.

١٠ - الأمير جواد بن سلمان

مر أن ابراهيم باشا قد عين الأمير جواد الحرفوش حاكماً على بعلبك مراعياً التقاليد المعروفة في المدينة طيلة أربعة قرون ونصف على الأقل. لكنه لم يحفظ كلمته وأصدر قراراً بعد سنة بعزل الامير جواد عن بعلبك وتعيين أحمد آغا الدزدار، فكان ذلك سبب عصيانه على الدولة المصرية. و«أخذ يحرك الفتن عليها ويجول من مكان إلى

مكان حتى أدركه يوماً بقرب يبرود مايتا فارس من الأكراد أرسلهم عليه شريف باشا المصري»[١].

لم يكن الامير جواد الحرفوش جباناً ولا سهل الانقياد للحكام وعندما دهمته خيالة الأكراد لم يكن معه سوى ثلاثين فارساً بينهم أبناء عمه الأمراء محمد وعساف وعيسى وسعدون. فأنشبوا القتال مع العدو وهاجموه بشراسة «وأتى الحرافشة من ضروب الفروسية ما هو جدير بهم فارتد الأكراد وقتل منهم أحد أمرائهم عجاج آغا»[٢].

كانت تلك المواجهة إيذاناً بتوسع المطاردة ضده وقد أصبح حقد شريف باشا حاكم دمشق على الأمير جواد لا يحد. وبدأت الحلقة تضيق عليه وقد تفرق عنه أصحابه وأقرباؤه. واضطر الأمير جواد مرة لمواجهة حملة مطاردة وحده وتمكن من الإفلات منهم، لكنه عرف أن لن يستطيع الاستمرار في الهروب فلجأ إلى الأمير بشير الشهابي صديق ابراهيم باشا المفترض وطلب منه الحصول له على عفو الباشا فوعده خيراً وسعى في ذلك حتى حصل له على أمان من ابراهيم باشا الذي لم يكن يحترم وعداً ولا كلمة شرف. وحين وصل إلى الأمير بشير خان عهده وأمر باعتقاله وسلمه إلى الطاغية الحاقد شريف باشا الذي سرعان ما أمر بقتله. وتذكر فعلة الأمير بشير وغدره بالأمير جواد الحرفوش بعد لجوئه إليه بغدر نسيبه الأمير السابق يوسف الشهابي الذي غدر ببعض الفارين إليه من شيوخ بلاد بشارة في فتنة الجزار، حيث سلّمهم لعدوهم الذي شنقهم تماماً كما فعل شريف باشا بالأمير جواد.

ينقل السيد محسن الأمين في أعيانه بعض الامور التفصيلية عن الأمير جواد الحرفوش فيقول: «..... فحضر إبراهيم بعساكره إلى بعلبك سنة ١٢٤٨/ ١٨٣١م فملكها دون أدنى مقاومة وهرب منها الأمير أمين (الحرفوش) فولى عليها إبراهيم باشا الأمير جواد الحرفوشي ثم عزله وعين عوضه أحمد آغا الدزدار فكان ذلك سبب عصيانه على الدولة المصرية فأخذ يحرك الفتن عليها ويجول من مكان إلى مكان إلى أن أدركه

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق.

يوما بقرب يبرود مائتا فارس من الأكراد أرسلهم عليه شريف باشا حاكم دمشق من قبل إبراهيم باشا وكان مع الأمير جواد أبناء عمه الأمراء محمد وعساف وعيسى وسعدون وثلاثون فارسا فهجم بعضهم على بعض وحمي وطيس الوغى وأتى الأمراء الحرافشة من ضروب الفروسية ما هو جدير بهم فارتد الأكراد وقتل أحد أمرائهم عجاج آغا وذهب بعد ذلك الأمير جواد إلى بلاد حمص وقد تفرقت عنه أصحابه وبينما كان في محل يدعى الحريشة دهمته كتيبة من الهنادي تريد القبض عليه فملكت عليه جسر التل المنصوب على العاصي الذي لا بد له من المرور عليه للتخلص منهم فهجم عليهم هجمة قسورية ففرق جمعهم بحد الحسام وأفلت منهم بعد أن قتل بضعة فرسان. ولما رأى أن العصيان لا يجديه نفعا استأمن إلى الأمير بشير الشهابي وطلب منه أن يأخذ له الأمان من إبراهيم باشا. ولكن الأمير بشير كان يكرهه فخانه، وبئس السجية الخيانة، وسلمه إلى شريف باشا حاكم دمشق فقتله شر قتلة. ثم عزل أحمد آغا الدزدار وعين عوضه خليل آغا وردة ثم الأمير أحمد الحرفوش. وذكر هذه الحادثة بعض كتاب حكومة الشام المجهول الإسم بوجه أبسط وبما يخالف ما مر من بعض الوجوه فقال في المذاكرات التاريخية لحوادث الشام المطبوعة ان إبراهيم باشا لما فتح الشام أقام الأمير جوادا متسلما (حاكما) على بعلبك وكان فيه هوج وحدة فلم يتفق هو وزراع الدروز من لبنان فعزل من المتسلمية ونصب مكانه ابن عمه الأمير حمد، وكان حمد ذا عقل رصين وإدارة في الحكم حسنة. وسكن الأمير جواد في يبرود وجعل له إبراهيم باشا في كل شهر ١١٥٠ قرشا يقبضها وهو في بيته وذلك لقلة ذات يده وكونه من أشراف الناس. وبعد ذلك صدر أمر بتوقيف صرفيات الكتاب والمتسلمين والنظار لحصول الحرب مع السلطان وكثرة النفقات على خزانة الباشا فبقيت الصرفيات موقوفة ثمانية أشهر ولما كان الأمير جواد جوادا كإسمه وقلّت ذات يده، جمع اليه جماعة وحرك معه أولاد عمه الأمير خنجر والأمير محمد وصار يقطع الطريق. وصارت له شهرة عظيمة وهابه الناس ثم أرسل كتابا إلى رجل اسمه عبد القادر آغا خطاب بأن يأخذ له مرسوم الأمان من الوزير شريف باشا حاكم دمشق من قبل إبراهيم باشا فأخذ له ذلك المرسوم ثم كاتب الأمير جواد الأمير خليل الشهابي أن يحضر إلى دمر ليدخل معه لمواجهة الوزير فدخل دمشق وواجه الوزير شريف باشا وبقي في دمشق أياما وجعل يعين عنده خيالة وطلب شريف باشا إلى إبراهيم باشا أن يجعله (

سرسواري) رئيس خيالة فحضر أحمد آغا اليوسف وشمدين آغا إلى عند شريف باشا وذكرا له أن الأمير جواد كان أيام عصيانه قد قتل كرديا تاجر غنم بينه وبينهما نسابة وأخذ منه دفتره وجملة دراهم وانهما يريدان منه تسليم الدفتر. فأجاب الأمير خنجر بأنه لم يقتل الكردي وانما قتله جماعة من بيت نون ولا يعرف لهم الآن مقرا. وطلب مهلة ليفتش عنهم ويأخذ منهم الدفتر فلم يقبل ذلك منه شريف باشا وشدد عليه قليلا لكونه أبي النفس شجاعا، ركب وخرج خارج البلد. وبعث إلى أحمد آغا اليوسف أنه إذا كان له عنده حق فليخرج اليه ليتحاسبا على ذلك الحق. وكان بين أكراد الصالحية رجل يسمى عجاج آغا وهو متسلم جبل دروز حوران وهو من الرجال المشهود لهم بالفروسية فاستأذن الوزير وأخذ رجاله وتوجه إلى ناحية النبك فبلغه أن الأمير جوادا في دير عطية فلما بلغ الأمير جوادا حضوره ركب وخرج من القرية وصار الحرب بينهم وقتل عجاج آغا وجرح الأمير جواد. واشتد خوف الأمير جواد لكون أحمد آغا يخص الأمير بشير فتوجه الأمير جواد إلى عند بشير فقبل وصوله أرسل الأمير بشير جماعة فكمنوا له عند جسر القاضي وقبضوا عليه وأحضروه إلى الشام فأمر شريف باشا بقتله فقتل»[1].

هذه الرواية كما نقلها السيد الأمين تبدو مركبة على طريقة الحكايات الشعبية حيث لا يظهر وجود للدور السياسي للأمير جواد ولا لشريف باشا بل تتعلق القضية ببعض الأمور السطحية وهو ما لا يستقيم مع الواقع التاريخي الذي توجد تفاصيله في المحفوظات المصرية التي وثّقت تلك المرحلة. ففي رسالة بعثها شريف باشا إلى سيده ابراهيم باشا يفيد أنه: «عندما وصلت قافلة الجمال التي تحمل أحذية آلاي الغارديا المشاة الأول من دمشق إلى النبك علمت بوجود الأمير جواد (الحرفوش) وعصابته في تلك النواحي فخشيت أن تستمر في طريقها إلى حماه وأرسلت تعلمه بواقع الحال وأنه أرسل عندئذ قوة من الفرسان بقيادة عجاج آغا لإيصال الأحذية المطلوبة إلى حماه وأنه لدى وصول هذه القوة إلى النبك تيقنت أن الأمير جواد ورجاله في دير عطية فتابعت سيرها إلى هناك واشتبكت مع شرذمة الثوّار في قتال أسفر عن جرح الأمير جواد وقتل الأمير خنجر والأمير محمد والأمير فندي من الثوّار. وقتل عجاج آغا وأحد البلوكباشية والفرسان من جانب

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج٤ ص ٢٧٣.

السلطة. ويفيد أنه كتب عندئذ إلى الأمير أحمد (الحرفوش) متسلّم بعلبك ليتعقّب الأمير جواد والبقية الباقية من جماعته وأنه عيّن أخا عجاج آغا رئيساً على فرسانه في السويده». وقد ورد في ذيل هذه الرسالة: «لقد كتب إلى اسماعيل بك وخفتان بك وشريف باشا بالقبض على الأمير جواد توطئة لإعدامه. ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٥٥/ ٢٧ تموز ١٨٣٩»[١].

أما قضية غدر الأمير بشير الشهابي بالأمير جواد فموجودة في رسالة من إمضاء الأمير بشير الشهابي في غاية جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ موجهة إلى محمد شريف باشا وفيها: «نعرض أنه ليلة تاريخه الجمعة نحو الساعة الواحدة من الليل فلم نشعر إلى والأمير جواد الحرفوش حضر لمحلنا وقيعاً مترامياً. وحيث أننا لا محل لنا ولا وقيع إلا هو رضى الدولة السعيدة فحالاً وضعناه تحت الترسيم (الاعتقال) لكي نوجهه إلى أعتاب دولتكم ويكون الأمر به لسعادتكم وبعده سيصل محفوظاً. والآن لأجل إحاطة العلم السامي بذلك اقتضى تقديم هذه العريضة عجالة»[٢].

وبطبيعة الحال جرى تسلم وتسليم الموقوف الأمير جواد، حيث تذكر رسالة من اسماعيل عاصم بك صادرة عن بعلبك في ٢٧ جمادى الأولى/ ١٠ آب موجهة إلى السرعسكر تتضمن بيان الاجراءات التي اتخذها اسماعيل بك للقبض على الأمير جواد الحرفوش. ويستدل من مضمونها أن «اسماعيل بك قام من حمص إلى القصير ومنها إلى بعلبك متوجهاً إلى سرغايا والزبداني وأنه أرسل محمد بك خفتان آغاسي للغاية نفسها»[٣].

وفي رسالة من محمد شريف باشا مؤرخة في الخامس من جمادى الآخرة تنبىء بوصول الأمير جواد الحرفوش إلى دمشق وبإعدامه فيها وإعدام ستة من أعوانه أيضاً منهم رجل درزي من جماعة شبلي آغا العريان[٤].

---

(١) المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٨٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٨٧.

بإعدام الأمير جواد الحرفوش انطوت صفحة قاسية من تاريخ إمارة الحرافشة، فلم تمض بعد ذلك إلا بضعة أشهر حتى بدأت الدولة العثمانية تستعيد مناطق سورية منهية فترة حكم ابراهيم باشا عليها. وكان لفترة حكم ابراهيم باشا أثر خطير على إدارة البلاد فالتغيرات التي أحدثها كان من الصعب على الباشاوات إلغاؤها، لا بل سرعان ما تبنت الدولة العثمانية سلسلة من الإصلاحات الإدارية والسياسية أطاحت بشكل الإدارة القديم، وأنشأت أنظمة وقوانين جاء كثير منها متناسباً مع إصلاحات ابراهيم باشا الإدارية.

١١ - الأمير خنجر بن ملحم

بعد مقتل الأمير جواد الحرفوش اعتبر الأمراء الحرافشة المتبقين في بعلبك وما حولها أن الأمير خنجر الحرفوش هو الأمير الشرعي. وكان الأمير خنجر يعتبر عدواً لدوداً لابراهيم باشا المصري. وفي سنة ١٨٤٠ كان الجيش العثماني قد بدأ الزحف باتجاه المدن السورية فجمع الأمير خنجر وأخوه الأمير سلمان حوالي أربعماية فارس وانضموا للأمير علي اللمعي في الثورة ضد الحكم المصري. وبعد مناوشات مع الجيش المصري توجه الأمير خنجر إلى ذوق مكايل ليجمع الرجال للمشاركة في الثورة على المصريين، فلما وصل إلى المعاملتين وقع في كمين أعده له الأمير عبد اللّه شهاب حليف المصريين فاعتقله ومن معه وأودعهم السجن في بلدة غزير تمهيداً لتسليمهم للباشا المصري. فانتفض أهالي كسروان وهاجموا السجن وأخلصوا الأمير خنجر وأصحابه ثم اندفع الثوار إلى جونية حيث حصلوا على أسلحة وذخائر وانطلقوا منها إلى المكلس حيث وقعت معركة مع فرقة الأرناؤوط. فانهزم أتباع الامير خنجر واضطر للفرار إلى جرد العاقورة حتى تمكن بعد حين من الالتحاق بالجيش العثماني المتقدم بقيادة عزت باشا فكلفه هذا بقيادة فرقة من الجيش لمهاجمة الأمير مسعود الشهابي حليف المصريين.

ظل الأمير خنجر مخلصاً للدولة العثمانية فعين نائباً على بعلبك بعد خروج الجيش المصري مباشرة سنة ١٨٤٠.

وفي سنة ١٨٤١ عاد الأمير أمين وابنه الأمير قبلان من اسطنبول بحراً فنزلا في بيروت ومعهما أمر شريف بتعيين الأمير أمين والياً على بعلبك. وبوصوله إلى بيروت مات الأمير

أمين فذهب ابنه الأمير قبلان إلى دمشق ليصادق على الأمر المعطى له ولأبيه. ولبث في دمشق مدة إلى أن تم له لك. تقبل الأمير خنجر ما حصل وهذا نادر في التاريخ وحافظ على الهدوء. وكان أنصاره الذين حاربوا معه في الثورة ضد المصريين لا يزالون على ولائهم له فتحرك بهم، لا ليحارب نسيبه الامير قبلان بل ليتصدى لهجوم من الدروز ضد بلدة زحلة المسيحية أثناء وقوع الفتنة سنة ١٨٤١. وتمكن الأمير الحرفوشي من رد هجوم شبلي العريان الدرزي على المدينة مرتين. في هذه الأثناء أصيب الامير قبلان بالجنون فأقصي عن الحكم في هذه السنة (١٨٤١) وقد بقي الأمير قبلان بقية عمره مجنوناً حتى وفاته سنة ١٨٦٤ وعمره ثمانون سنة.

بعد إقصاء الأمير قبلان تولى الأمير خنجر حكم بعلبك من جديد. لكن الأمراء الحرافشة شكلوا وفداً منهم ضم الأمراء بشير وسعدون وشديد وفدعم توجه إلى دمشق وسعوا لدى حاكمها لاستصدار حكم بتولية قائمقامية بعلبك (حسب نظام الولايات الجديد) للأمير حسين بن الأمير قبلان الحرفوش. ولأن الأمير حسين هذا كان صغير السن فقد أقاموا عليه كفيلاً الأمير سعدون.

إن هذه الخلافات بين الحرافشة قد جعلت ولايتهم على بعلبك في مهب الريح. لقد توفي الأمير الصغير حسين سنة ١٨٤٢ فادعى الأمير حمد الحرفوش أحقيته بحكم بعلبك وحصل على فرمان بتوليها. عند ذلك سعى الأمراء الآخرون لدى باشا دمشق واستحصلوا على قرار بتولية الأمير محمد الحرفوش. فجاء هذا ومعه قائد من عساكر دمشق يدعى محمد آغا بوظو وأكثر من خمسماية فارس من الأكراد لمساعدته في السيطرة على بعلبك. لكن هذا الجيش هزم وانتصر الأمير حمد فحكم بعلبك ستة أشهر. وعاد الأمير محمد يطلب من باشا دمشق مساعدته فتدخل الأمراء خنجر وشديد ويوسف بن حمد وأقنعوا الباشا بالعدول عن موقفه. وأمام هذا الواقع ارتأت الباشوية تقسيم منطقة بعلبك وما حولها إلى مقاطعات صغيرة يتولى كل قسم منها واحد من الأمراء الذين حضروا إلى دمشق. فكان ذلك بداية نهاية الإمارة البعلبكية. من الطبيعي أن يؤدي تقسيم الإمارة إلى وحدات صغيرة إلى نهايتها لأن ما يعقب التقسيم عادة ما يكون التنازع والحروب بين الأمراء. يصف المعلوف نهاية الإمارة: «وسنة ١٨٤٥ كان الأمير حمد

الحرفوش متولياً حكم بعلبك فذهب ابن عمه الأمير محمد إلى دمشق وأحضر أمراً بعزله وأخذ الولاية. فأرفقه الوزير بمحمد آغا بوظو وألف وخمسمائة من الجند الأكراد فأتوا إلى قرية بر الياس من قضاء البقاع. فعلم الأمير حمد بهم وجمع جيشاً من بلاده فخيموا في تمنين السفلى (التحتا) ثلاثة أيام ومعهم الأمير حمد فخرج ابن عمه الأمير محمد من بر الياس إلى بعلبك فلاقاهم حمد برجاله إلى الدلهمية وهناك احتدمت نيران القتال فكانت ساعة لم يثبت فيها إلا البطل المدرب. فكادت فرسان الأمير حمد تتقهقر لولا إنجاد المشاة إياهم. فتم له الفوز وقتل من عسكر الأكراد نحو ستين ومن رجاله ثلاثة فقط فعاد إلى بعلبك ظافراً. وإذ ذاك وقعت الفتنة بين الحرافشة على الملك فرأت الحكومة السنية من الحكمة أن تجزىء بلاد بعلبك وشرقي البقاع إلى مقاطعات صغيرة يتولى كل منهم شؤون جهة منها إلى أن ارتفعت يدهم»[1].

١٢ - نهاية إمارة بعلبك

كان تقسيم إمارة بعلبك إلغاءً للإمارة وبالتالي إلغاءً لنفوذ أسرة حرفوش التي حافظت على المنطقة كواقع شعبي شيعي في ظل ظروف صعبة، لأن الأحداث التي جرت بعد ذلك لم تكن في الحقيقة سوى أعمال صغيرة ليس لها أي تأثير فعلي في مجرى الأمور في بعلبك.

في سنة ١٨٥٠ قرر الأمير محمد الحرفوش التحرك لاستعادة وحدة الإمارة، فاعتبر تحركه تمرداً على الدولة. وأرسل الباشا جيشاً لمحاربته، فحاصروه في منطقة معلولا بعد أن تفرق عنه معظم جيشه ولم يبق معه إلا عدد من أبناء عمه. وتمكن مصطفى باشا قائد الحملة العثمانية من القضاء على أكثر هؤلاء وأخذ الباقي أسرى وبينهم الأمير محمد. ثم تابع مصطفى باشا زحفه إلى مدينة بعلبك فاستولى عليها. وحين جاءه الأمراء الحرافشة فيها للسلام أمر باعتقالهم جميعاً. وهم الأمراء خنجر وحمد وابنه يوسف وسلمان وفاعور وشديد وسليمان. فنفاهم الباشا جميعاً إلى جزيرة كريت ومعهم الأمير محمد والأمير عساف. وتعين على بعلبك حاكم عثماني يدعى تيمور باشا.

---

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٦٧ -٢٦٨.

كان قد بقي من الأمراء الحرافشة الأمير محمود الذي تمرد حيناً ثم استسلم. وبعد مدة وجد مقتولاً فاتهمت الدولة ابن عمه سلمان بقتله وبدأت ملاحقته حتى استسلم بعد سنتين. فعين قائداً على وحدة من الجند عددها مائتي فارس هم عادة من رجاله. وظل سلمان مخلصاً للدولة حتى وقعت بينه وبين بعض الأعراب في منطقة حماة معركة فأعلن بعدها عصيانه على السلطة. وأرسلت (الدولة) حسني باشا لمحاربته ففر إلى زحلة فوشى به أهلها إلى حسني باشا فقبض عليه وسجن في دمشق وذلك سنة ١٨٦٠/ ١٢٧٦ هـ. وفي ردة فعل غاضبة جمع أخوه الأمير أسعد وابن عمه الأمير محمد جمعا من أتباعهما وهجما في إحدى الليالي عند طلوع الفجر على بيت القائمقام فارس آغا قدور يريدان القبض عليه فاختبأ. ولم يجداه فقتلا أربعة من أتباعه ونهبا ما عنده من السلاح والخيل والنقود وفرا إلى قرية نحلة. وأما فارس آغا فإنه ذهب إلى دمشق ورجع بخمسمائة جندي قائدهم حسن آغا اليازجي. ثم إن الأمير سلمان هرب من السجن بعد سبعة أشهر وطلب العفو من حسني باشا فأمّنه وطلبوا منه أن يذهب بفرسانه مع الجردة فأبى وخاف العاقبة. لذلك عاد وعصى على الدولة مع أخيه الأمير أسعد وذلك سنة ١٨٦٤/ ١٢٨٠. وما زال هو وأخوه الأمير أسعد فارين حتى سئم ذلك أسعد فأطاع وحده فنفي إلى أدرنة[1]. ويصف المعلوف آخر الأحداث فيقول أن الدولة تعقبت الفارين المتمردين من الحرافشة «إلى أن فتكت بهم سنة ١٨٦٦ فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة. ولن تزال منهم فئة قليلة في تمنين وسرعين وشعث وحربتة والنبي رشادة في بلاد بعلبك ويؤخذ عليهم الجور والاعتساف مدة حكمهم هذه البقعة أربعة قرون أما الذين نفوا إلى الأستانة فنشأ منهم نصرت باشا رئيس شورى الدولة (سنة ١٩٠٧).

كان آخر المتمردين إذاً الأمير سلمان الحرفوش الذي لجأ في فراره إلى قرية زيتا على مقربة من حمص حيث وشى به أحد الخونة فألقي القبض عليه وسجن في دمشق حيث اغتيل بعد ذلك بثلاثة أيام ليسجل بقتله أن أسرة آل حرفوش قدمت العدد الأكبر في تاريخ لبنان من أمرائها قتلى الغدر بيد الولاة العثمانيين.

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٣ ص ٢٩٩.

أما مدينة بعلبك وما حولها فقد أصبحت تحكم من قبل موظفين عثمانيين تبدلوا كثيراً خلال الأعوام التالية حتى قيام الحرب العالمية الأولى.

وصودرت أملاك الحرافشة، ووزعت على العائلات التي كانت تعمل بها ومنها كثير من الأسر المسيحية التي كانت تعمل بالمرابعة والضمان. وهكذا أسدل الستار على الوجود السياسي لأمارة الحرافشة في بعلبك.

رغم ما قدمته هذه العائلة من تضحيات ودماء لتحمي بعلبك وأهلها ومنطقتها إلا أن الظلم والجور الذي وقع عليها كان أشده في تناسي اللبنانيين عموماً والشيعة خصوصاً لهذه الأسرة ولدورها وتاريخها. فما يمجده كثير من اللبنانيين في تاريخهم لرجال وأمراء قد لا يساوي أكثرهم أهمية منزلة واحد من صغار أمراء الحرافشة. ولكن التاريخ الذي لم ينصفهم إلى الآن قد يجد من يعيد تسليط الضوء على تاريخ هذه الإمارة المشرف، ليس باختراع تاريخ افتراضي لشيوخ بعض الأسر تمهيداً لتمجيد بعض الزعماء زيفاً، ولا بذكر أمجاد لأمراء كانوا يخدمون باشاوات السلطنة ثم يصورون بصور الملوك والسلاطين، بل بإعادة كتابة سيرة الأمراء اللبنانيين الكبار الذين تركوا آثاراً هامة في تشكيل وبناء الكيان الوطني اللبناني.

إن حكم إمارة بعلبك لمدة تزيد على أربعة قرون ونصف لا بد أن تُدْرَسَ كنموذج لصمود جماعة من الشيعة في وجه الاضطهاد والظلم الذي مارسته الدولة العثمانية بحق رعاياها. قد يرى البعض أن الدولة العثمانية قد اضطهدت الشيعة لأنهم شيعة، واضطهدت الدروز لأنهم دروز. وقد يمكن ذكر اضطهاد الدولة العثمانية للنصيرية وللإسماعيلية... إلخ. بنفس القدر الذي يذكر فيه اضطهاد الدولة العثمانية للأكراد والآذريين والبشناق وهم جميعهم من الشعوب المسلمة وغالبيتهم من السنة. فالحقيقة التي لا جدال فيها أن السلطنة العثمانية كانت دولة ظلم وعتو وقد ساوت في الظلم بين كل رعايها وفتكت بهم وبتاريخهم وحضاراتهم دون كثير تمييز بين الطوائف والمذاهب والأعراق.

إن الصفة المشتركة في كل حكم الدولة العثمانية هو تدمير المقومات الحضارية بكل عناصرها بشراً وحجراً وإنتاجاً وثقافة. بحيث أصبح قول قصيدة عامية زجلية

إنجازاً حضارياً. ووجود من يقرأ ويكتب أمراً نادراً. الأثر الذي تركته الدولة العثمانية أثناء حكمها هو تصحر العقل ليس العربي فقط، وليس الشيعي فقط، بل كل من وقع تحت براثن هذا الوحش لم يفلت منه إلا برحمة من اللّه. لذلك فإن محافظة الحرافشة على الوجود البشري الشيعي وغيره هو إنجاز محقق لهم. ولو تمكن باشاوات الدولة من التحكم ببعلبك وسهل البقاع دون مقاومة لكانوا تركوه قاعاً صفصفاً لا حياة فيه.

اتصف الأمراء الحرافشة بقيم أخلاقية أصيلة لا زالت عند العامة مضرب الأمثال. فكانت الاخلاق العربية من الشهامة والغيرة والشجاعة والكرم متجلية فيهم. ينقل السيد الأمين في أعيانه ما يذكر عن أن: «الأمير يونس الحرفوشي كان إذا ذهب حرمه للحمام أقفل السوق وتعطل الطريق من المارة». كما يذكر للأمراء الحرافشة تكريمهم للعلماء وحمايتهم للنزلاء وبنائهم للمساجد. إضافة إلى مقاومتهم الدؤوبة للحكام، فرعوا الإمارة حق رعايتها.

لقد تحامل كثير من المؤرخين على الحرافشة حقداً وغيرة فكتبوا عنهم أقل الممكن وحاولوا تشويه الحقائق التاريخية المتعلقة بهم. ورغم كل ذلك لم يستطع كتاب تاريخ المتصرفية كحيدر شهاب واسكندر عيسى المعلوف وميخائيل موسى آلوف وطنوس الشدياق وغيرهم أن يغيروا الحقائق التي زيفوا بعضها أو زيفوا بعض نتائجها. وكتبوا في كثير من الموضوعات ما حلموا به لا ما هو حقيقة واخترع بعضهم أسماء رجال (كفخر الدين المعني الأول) لم يكونوا حقيقة موجودين في الزمان الذي ذكروه.كما اخترعوا على ألسنتهم خطباً مسجعة ومنمقة كخطبة فخر الدين الأول الأمير الافتراضي صاحب اللسان الفصيح الذي أطلق خطبة غراء بالعربية المتقنة مدح فيها (افتراضياً) السلطان العثماني سليم الاول ففهم عليه (وسليم لم يكن يعرف من العربية شيئاً) ومنحه إمارة ما في مكان ما. بالإضافة إلى ألقاب وهمية كسلطان البر (ربما احتفظ السلطان سليم لنفسه بلقب سلطان البحر ليتساوى مع الأمير الوهمي فخر الدين).

لكن البؤس في تاريخ الإمارة البعلبكية جاء أيضاً من الكتاب الباحثين عن تاريخ طائفي. صحيح أن الحرافشة كانوا شيعة إمامية إثني عشرية لكن تطبيقاتهم الحياتية لا تدل على تلك القيم التي يتغنى بها الشيعي منذ وجد التشيع وإلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

فأمراء الحرافشة الشيعة يغزون ويستولون على أموال الناس ويقطعون الطرق ويتلفون الزروع ويحرقون البيادر ويقتلون صبراً ويحرقون عدواً وهو حي.... وكل هذه الأمور تعتبر من كبائر الذنوب في الفقه الشيعي الإمامي. أما القضية الأخطر وغير المفهومة لمن يبررها هي أن الأمراء الحرافشة لم يحاربوا يوماً دفاعاً عن الوجود الشيعي بقدر حروبهم دفاعاً عن الإمارة. فهم، حلفاء طبيعيون لآل حمادة الشيعة في جبل لبنان، ورغم ذلك فالحرافشة يحالفون الأمير فخر الدين بن معن والأمير يوسف الشهابي وكذلك الأمير بشير الشهابي وكل هؤلاء كانوا يتقصدون الشيعة بحروب أدت إلى استئصال الوجود الشيعي في بعض مناطق جبل لبنان. فكيف كان للأمير الحرفوشي جهجاه أهم أمير في تاريخ لبنان أن يكون حليفاً للأمير يوسف الشهابي العائد لتوه من مذبحة ارتكبها بحق الحمادية في جبل لبنان؟ والمهزوم ثلاث مرات متتالية في حروبه ضد شيعة جبل عامل؟

كما لا يبدو مألوفاً ولا مفهوماً كيف ينتصر أمير في معركة ولا يقطف نتيجة انتصاره على الأرض. ففي كل معركة خاضها الحرافشة وانتصروا فيها اكتفوا من النتائج بالحصول على خلع الحكم لمدينة بعلبك ومقاطعتها. سيكون الاستنتاج المنطقي لذلك هو أن الحرافشة كما الحمادية كما زعماء جبل عامل، لم يخوضوا حروبهم متضامنين ولا متحدين. ولم يهتم أي طرف منهم بمصير الطرف الآخر في المناطق المجاورة. ولم يذكر أي مرجع تاريخي تحرك نجدة «شيعية» من منطقة إلى منطقة للدفاع عن إخوانهم. ربما جرى لجوء لبعض الزعماء وعلماء الدين من هذه الجهة أو تلك، لكن تفاعلاً وحدوياً لم يحصل. وربما هذا هو السبب الحقيقي الذي جعل الأمير يوسف الشهابي يصر على استئصال الوجود الشيعي بمحاربة الحمادية في جبل لبنان فنجح نجاحاً كبيراً. بينما لم يتدخل أحد من بلاد بعلبك ولا من جبل عامل لنصرة هؤلاء الشيعة الحمادية وأهل الجبل. لقد كانت حروب الحرافشة فقط دفاعاً عن الإمارة والحكم، وما ذكر عن أن الأمير جهجاه كان يجلس أحياناً في تلة الشيخ عبد الله المشرفة على بعلبك من جهة الشرق ويراقب البيوت ثم يأمر بهدم ما يستجد فيها ويتميز، حتى لا يطمع بها باشاوات الدولة فيعينون عليها حاكماً عثمانياً[1]. يندرج هذا التصرف في حرص الأمير جهجاه على إمارته وليس على أهلها.

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة، ج ١ ص ١٧٧.

لقد مُدح أمراء الحرافشة من بعض الشعراء الذي عاشوا في أيامهم. وقول الشعر في العصر العثماني كان نادراً لانتشار الأمية والجهل بين عامة الناس فلا يفهم الشعر الفصيح إلا قائله وبعض النخب من علماء الدين. أما الشعر العامي فكان ضعيفاً وركيكاً رغم ندرته.

من بعض ما مدح الحرافشة به من الاشعار ما قاله السيد محمد الحسيني البعلي (نسبة إلى بعلبك) كما في بعض المجاميع المخطوطة الموجودة بخطه عند أحفاده بمدينة بعلبك في مدح الأمير أمين الحرفوش:

اللّه ولى بعلبك وقطرها ... من آل حرفوش الأمير أمينا
فرعى رعاياها وجانب ظلمها ... برضى الاله فزاده تمكينا
وكفاه ما يخشى وكان له ... على كيد الأعادي ناصرا ومعينا
هو ما جد ألف المعالي وارتدى ... بردائها من حين كان جنينا
وروى المكارم عن ذويه وارتوى ... منها وكان بنيل ذاك قمينا
جل الذي أولاه حسن شمائل ... وحباه مجدا شامخا ومبينا
جود كمنهل الحيا ومكارم ... ضربت شمالا في الورى ويمينا
يلقي عصاه الجار منه بمنزل ... رحب ويأوي من حماه عرينا
ويظل من صرف الزمان وريبه ... ومن النوائب في حماه أمينا

وكذلك تنسب لهذا الشاعر قوله في الحرافشة:

ان الأكارم آل حرفوش لهم ... خطر تقاصر دونه الاخطار
وهم المناصب حين تنسبهم ... وهم عين الوجود وغيثه المدرار
وهم ذوو الأصل الكريم كما اتى ... النقل الصحيح وجاءت الاخبار
قوم لهم نصر النبي محمد ... فهم لدين محمد أنصار
وهم الأسود الضاريات إذا الوغى ... شبت وفر الفارس المغوار
لا عيب فيهم غير أن نزيلهم ... عنه الأكف من الملوك قصار

كـم مـن وزيـر ذاق طعـم سـيوفهم فلـوى ومنهـم أحمـد الجـزار[١]

وللسيد محمد الحسيني من شعراء القرن الثالث عشر الهجري فيه مدايح توجد في مجموعة في بعض مكتبات آل المرتضى في بعلبك منها قوله من قصيدة:

وقائـل لـم تجـد السير مجتهـدا تـذود نضـو المطايـا عـن مراعيهـا
أمنتهـى الأرض تبغـي قلـت مبتـدرا قصـدت بعـلا واهـوى ان أدانيهـا
فقـال بعـل بـلاد الفسـق قلـت لـه الآن قـد حسـنت مـن حسـن واليهـا
أعني ابن سلمان ذا المجد الذي عرفت بـه الأماجـد قاصيهـا ودانيهـا
أطريـت ندبـا تزيـل الهـم همتـه إذا الهمـوم تغشـتها غواشـيها
يحمي النزيل ويلقي الضيف مبتسما إذا اتـى وديـون المجـد يقضيهـا
كل الكمـالات رب العـرش صيرهـا مـن حظـه فتعالـى اللّـه معطيهـا
حلـم وعـدل وجـود وافـر ونهـى ينهـى الأهالـي ويعفـو عـن تعديهـا
فليـس بعـل علـى مـا كنـت تعهدهـا اليـوم بعـل علـى مـا أنـت تبغيهـا
جـواد قـد جـاد رب العالميـن بـه علـى البـلاد فيـا طوبـى لأهليهـا

ومنها قوله فيه من قصيدة أخرى:

ومـا ذاك الفتـى المحمـود الخزاعـي ابـن سـلمان جـواد
أخـا حكـم تديـن لـه البرايـا وإذا يـأس يـذوب لـه الجمـاد
إذا مـا سـل يـوم الـروع سـيفا فأعنـاق الرجـال لـه حصـاد

ومنها قوله من قصيدة يعاتبه:

لئـن صـدت سـعاد فـلا مـلام فقـد منعـت عوائدهـا الكـرام
تكاثـر صدهـم والـود منهـم تقشـع وانجلـى منـه الغمـام

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٤ ص ٢٧٢.

وقـد قـل الوفـاء فـلا وفـاء لأبنـاء الزمـان ولا ذمـام
وقطبـت الوجـوه فـلا رواء بهـا للوافديـن ولا ابتسـام
واجدبـت الأكـف وكان قبـلا لغيـث نوالهـم فيهـا انسـجام
فواوجـداه قـد غشـي الليالـي عقيـب ضيـا كواكبهـا الظـلام
ووا أسـفاه قـد مضـت المعالـي غـداة مضـت أهاليهـا الفخـام
ولـو لـم يبـق بعدهـم جـواد أخـو العليـا وماجدهـا الهمـام
فتـى أبنـاء حرفـوش المفـدي وعاملهـا المثقـف والحسـام
لزالـت بهجـة الدنيـا وولـت محاسـنها وجللهـا القتـام

وقوله مؤرخا ولادة ولده الأمير محمد سنة ١٢٤٣ من أبيات:

سـلطان يـا ذا الفتـى المحمود سـيرته فـي كل مـا بلـد يـا بيضـة البلـد
فليحيـي شـبلك فـي أمـن وفـي دعـة وفـي الصفـا قـال تاريخـي وبالرغـد

هكذا في المنقول في مجلة العرفان م ١٠ ص ٢٤٠ ويوشك ان يكون هذا الشعر في مدح الأمير سلطان بن مصطفى الحرفوشي(١).

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٤ ص ٢٧٤ نقلاً عن مجلة العرفان م ١٠ ص ٢٤٠).

الفصل التاسع عشر

شيوخ آل حمادة في جبل لبنان

١ - آل حمادة في جبل لبنان

٢ - أصلهم ومناطق وجودهم

٣ - آل حمادة والأمير فخر الدين بن معن

٤ - آل حمادة يسيطرون على جبل لبنان

٥ - الشيخ سرحان بن قانصوه الحمادة

٦ - الحماديون بعد الشيخ سرحان

٧ - معركة عيون قبعل

٨ - تراجع الوجود الشيعي في جبل لبنان

٩ - نهاية الحماديين في جبل لبنان

١ - آل حمادة في جبل لبنان

آل حمادة إحدى الأسر اللبنانية الشيعية التاريخية التي كان لها دور مؤثر وكبير في تاريخ الشيعة في لبنان. وطبعاً مثل كل الأسر اللبنانية والشيعية منها خصوصاً، تختلط الأسطورة بالواقع لترسم تاريخاً للأسرة في كثير من الأحيان غير صحيح أو مبالغ فيه.

إن أول ذكر لآل حمادة يمكن تأكيده أورده مؤرخ معاصر لحادثة حصلت في العام ١٤٧٠ عندما اتفق زين الدين بن مزهر كاتب السر عند السلطان خشقدم مع قضاة طرابلس على قتل ابن حمادة لخصومة وقعت بينهما[١].

لقد حكمت هذه الأسرة منطقة بلاد جبيل التي كانت تشمل مقاطعات جبة بشري وجبيل والبترون والزاوية والكورة[٢]. إضافة إلى حكم منطقة الضنية شرقي طرابلس. وقد يعبر عن هذه المناطق بشكل عام باسم «جبل لبنان» تمييزاً عن جبل الدروز أو جبل الشوف الذي يقع إلى الجنوب من نهر الكلب وحتى نهر الأولي دون أن يشمل الساحل الذي كان يتبع صيدا. وبالتالي فإن حكم وتسلط الحمادية كان على المنطقة الواسعة الواقعة بين بيروت وطرابلس والتي تمثل حوالي ثلث خريطة لبنان الحالي تقريباً.

لقد استعملت أسماء مختلفة للتعبير عن مناطق سيطرة الحمادية في جبل لبنان، فقد غلب اسم الشيخ سرحال «أو سرحان» الحمادة على اسم المنطقة التي حكمها، ثم حكمها أولاده ابتداءً من سنة ١٦٣٨ وحتى نهاية القرن السابع عشر فقيل «جبل سرحان» أو «بلاد سرحان». كما استعملت السلطنة العثمانية اسم «القزلباش» الذي كانت تطلقه على المتمردين من الشيعة (المقلدة والنصيرية) والمأخوذ أصلاً عن نفس الإسم الذي

---

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج ٢ ص ٦٣ نقلاص عن «وثائق نادرة للتدمري» ص ٥٢.

(٢) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج ٢ ص ٨٠ نقلاً عن هنري غيز، بيروت ولبنان ص ٢٢٠.

عرف به أنصار الصفويين الذين أسسوا الأمبراطورية الصفوية ابتداءً من سنة ١٥٠١ في شمال ووسط إيران.

كما عرف الحمادية تاريخياً خصوصاً عند اللبنانيين باسم «المتاولة» وهو لقب عام للشيعة شاع في غربي بلاد سورية في العصر العثماني، والذي يعني أصحاب التأويل (المتأولة) أو الذين يتولون علياً (المتولية). لكن اطلاق هذا الإسم على «متاولة» جبل لبنان كان يعني بشكل خاص العشائر الحمادية.

التسمية «عشائر الحمادية» ترتبط مباشرة بقضية الأنساب، فالعشائر المسماة «حمادية» ليست من «بني حمادة» لأنه لم ينوجد على المستوى القبلي العام تعبير «بنو حمادة» ليقاس الأمر على أنه قبلي. الواقع هو أن مجموعة من الأسر من أصول مختلفة عرقياً وقبلياً، وتشترك فقط في المذهب (الشيعي) والنطق باللغة العربية، ارتبطت مع آل حمادة بالولاء، فأصبحوا حمادية. وهذه الطريقة من الانتماء بالولاء شاعت في عصر المماليك، وهي أكثر وضوحاً في عشائر الحمادية. فكان تعبير «آل» يعني الارتباط بالولاء لزعيم ولا يعني الاشتراك معه في النسب، وهذه الصفة «آل فلان» حلّت محل كلمة «بني فلان» العربية التي كانت تعبراً عن الانتماء بالنسب، والتي ضعفت بسبب ادعاء كثير من الناس الانتساب إلى قبائل مشهورة كالانتساب كذباً إلى قريش (خاصة الانتساب إلى البيت العلوي) التي أصبح عدد المدعين بالانتساب إليها يزيد عن نصف الناطقين بالعربية في المشرق العربي.

لقد عد المؤرخون عدداً من الأسر المنتمية إلى «آل حمادة» وهي: زعيتر، شمص، دندش، جعفر، شرَيْف، الحاج يوسف، ملحم، ناصر الدين، عوّاد، علّوه، المقداد، حجولا، قمهز، خير الدين، حيدر أحمد، علاّم، أبو حيدر، بدير، عمرو، صفوان، المستراح، الجمل، بلّوط، جنبلاط، الحاج حسن، نون، النمر[1].

وبمراجعة أولية لهذه الأسماء يتبين أنها لا تترابط بالنسب فيما بينها على زعم بعض رجالها. فآل المقداد ينسبون أنفسهم إلى المقداد بن عمر، وآل المستراح من أسرة شيعية

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٩٦.

نافست الحمادية على حكم منطقة الجبة والضنية. كما أن هناك أسماء أسر أخذت من أسماء الأرض كآل أمهز (قمهز) وآل (حجولا). كما ينتسب آل عمرو إلى عائلة عاملية... إلخ. ولا يؤدي البحث في أنساب هذه الأسر إلى نتيجة علمية مقبولة، فكل الأنساب المشهورة والمعروفة عند العرب هي بمجملها افتراضية ليس لها من المصداقية إلا ما يزيد في تعصب أو مفاخرة هذه الأسرة على تلك. لذلك فالحديث عن آل حمادة لا يتساوى مع الحديث عن شيوخ الحمادية كما لا يعني الحديث عن الحمادية حديثاً عن نسب ينتهي إلى إحدى القبائل العربية.

من حيث المعتقد، بدون شك، الحمادية بكل عشائرهم، شيعة إماميون جعفريون اثني عشريون مقلدون، أي يؤمنون بالمرجعية وتقليد الأعلم، وبهذا يتميزون عن النصيرية الذين هم كذلك إماميون جعفريون إثني عشريون لكن لا يؤمنون بالمرجعية والتقليد. فالحماديون كإخوانهم في جبل عامل وسهل البقاع يتبعون مذهباً مختلفاً عن مذهب دولة السلطان. وربما لهذا الواقع وجدوا أنفسهم في مواجهة مفتوحة وحرب متواصلة مع الدولة دون أن يكون من داعٍ لتحديد الأسباب. فيكفي أن تكون التهمة هي «التشيع» حتى يصبح المتهم «قزلباش» عَدو كافر رافضي... إلخ. وأمام هذا الواقع لم يكن أمام الحمادية كما الشيعة في البقاع وجبل عامل إلا سواعدهم يحمون بها أهلهم، ويذودون بها عن أوطانهم أمام عدو لبس لباس الإسلام وفعل أفعال الهمجية الجاهلية. فكانت محاربة هذا العدو قدر لا يمكن الفرار منه. وتكيف المحاربون مع هذا الواقع فلم يجدوا فرصة للاستقرار في مدينة كبيرة حتى لا تصبح هدفاً لجيش السلطان العثماني. كما اعتمدوا على أنفسهم في صناعة أسلحتهم وتدريب شبانهم وإقامة طرق حربية بين جبالهم حتى يتمكنوا من صد الهجمات المفاجأة والمحتملة في كل حين. وربما سيكون هذا هو السبب الأساسي في عدم ظهور أي أثر حضاري ثقافي أو أدبي أو علمي طيلة القرون الأربعة التي استقر فيها الحماديون في جبل لبنان. وكانت الفرصة شبه مساوية لهم عند إخوانهم في البقاع في ظل حكم الحرافشة. أما أهل جبل عامل فقد عرفوا كيف يطوّرون صمودهم إلى قوة قادرة على حماية مراكز حضارية خاصة بهم أنتجت الكثير مما حرم منه الحمادية والحرافشة.

إن مصادر التاريخ التي تذكر الحمادية هي بشكل عام موجودة عند مؤرخين معادين للحمادية وللشيعة عموماً، ولولا القليل من بعض الوثائق التي احتفظت بها الأديرة المسيحية لما وجد ما يثبت حيادية أي مصدر تاريخي أرّخ أو كتب عن الحمادية والشيعة في جبل لبنان.

وينعدم وجود أي كاتب أو مؤلف من الحمادية، كما انعدم وجود أي مدرسة وأي عالم دين عادي له شهرة ومعروف في موسوعات علماء الدين الشيعة. ورغم كثرة حروبهم وطول مدة بقائهم في جبل لبنان، فإن اللوائح الكثيرة التي تذكر علماء الدين الشيعة في سورية ولبنان وتحرص على التعريف بأسمائهم ومنابتهم ،فإنه لا يعثر على أكثر من اسم واحد يعتقد بأنه ينتسب إلى كسروان رغم أنه عاش في كرك نوح في البقاع وعرف باسم «حسن العشرة الكسرواني». وليس في سيرته أي معلومات ذات فائدة تاريخية تذكر.

لقد كان الحماديون أشبه ما يكونون بالبدو المحاربين لا يستقرون في مكان دائم حتى لا تجري مداهمتهم والقضاء عليهم. كما كانوا ينتقلون بسرعة عبر المسالك الجبلية الصعبة باتجاه الجرود في جبيل والبترون ويصلون حتى الهرمل وبعلبك حتى يتراجع الطلب عنهم فيعودون إلى المزارع التي تركوها وراءهم. وطبيعي أن لا يترك البدو أثراً حضارياً له أهمية تاريخية يمكن الرجوع إليه كمصدر من مصادر البحث التاريخي عنهم.

أحد أهم المصادر للبحث عن تاريخ الحمادية هو تاريخ الأزمنة للأب الدويهي الذي يتحدث عن هذه العائلة دون أن ينسب كلامه إلى مصدر محدد أو إلى جهة موثوقة. لكن ما يرويه عنهم يعطي صورة عن وجودهم على الأقل في فترة حياته وهو عاش في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر. فما يذكره عن الحمادية يرتبط بشكل أساسي بما سمعه مباشرة أو بما رآه، رغم غلبة رأيه الشخصي على رسم صورة الأحداث والتي صوّرها بما يتناسب مع مدى تأييدها أو معارضتها للإمارة المعنية التي وضع مؤلفه في زمانها. يقول الأب الدويهي متحدثاً عن أحد آباء الكنيسة المارونية: «.... ولما رقد أخوه ابراهيم بسلام أحدره الشعب المؤمن من على العمود. وارتقى إلى حروب كثيرة ومظالم متعددة من جانب الوزراء ومشايخ المتاولة وقلقت البلاد واضطربت مما كان يحدث فيها وقتاً من قبل المتاولة أو من قبل الحكام أو فيما بين الكسروانيين وأحياناً فيما بين

أمراء الدروز والباشاوات. ولهذا كان يعاني أنواع الاضطهاد وكثيراً ما هرب من بلاد إلى أخرى»[1].

وبمجرد ذكر المشايخ المتاولة (الشيعة) أو المتاولة العاديين (غير المشايخ) يتبادر إلى الذهن وجود هؤلاء في موقع السلطة أو القدرة على «الظلم» ما دام الأب الدويهي يتكلم عن المظالم. ثم يتحدث الأب الدويهي عن واحدة من تلك المظالم التي قام بها مشايخ المتاولة فيقول: «... اعلم أولاً أنه لما رجع المشايخ الحمادية المتاولة إلى ولاية جبة بشراي جاؤوا إلى دير قنوبين بمعية كبيرهم الشيخ عيسى وقابلوا البطريرك وطلبوا منه مبلغاً من المال قلم يجبهم إلى طلبهم فغضب عيسى المذكور ولطمه على وجهه فرمى عمامته من على رأسه وألقاه على الأرض وأوسعه شتماً وضرباً واهانه. فاحتمل غبطته ذلك بكل صبر ولم يتفوه بكلمة تهين الشيخ المذكور بل كتب إلى الشيخ حصن الخازن وأخبره بما جرى له. فلما انتهى الكتاب إلى الشيخ حصن المرقوم غضب جداً وجهز حالاً عسكراً من كسروان وبعث أخاه الشيخ ضرغام (سيصبح البطريرك يوسف ضرغام) ورافقه اثنان من أولاد عمه وهما الشيخ موسى طربيه والشيخ نادر بن خاطر وتوجهوا بالعسكر إلى دير قنوبين وفي نيتهم أن يأتوا بالبطريرك إلى كسروان وإذ علم عيسى بذلك جاء إليهم ووقع على الأرض قدام غبطته بحضرة الجميع وطلب منه السماح قائلاً: أولستم تقولون في صلاتكم....» فطلب إليه عيسى أن يعدل عن التوجه إلى كسروان لئلا يجر الخراب على االبلاد فلم يقبل وحينئذ همّ المشايخ الخوازنة أن يبطشوا بالشيخ فنهاهم غبطته عن ذلك. ولما كان اليوم ٢٤ ك ٢ سنة ١٧٠٤ تجهزوا للسفر لكنهم خافوا من المطر..... واستمروا على السفر ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى قرية غزير كسروان..... ولما دنوا من غزير خرج المشايخ بنو حبيش لاستقباله وأخذوا يتنازعون.... أخيراً وردت إليه المكاتيب من والي طرابلس (؟) من ضمنها الأمان وأن يرجع إلى كرسيه....»[2].

في هذا النص كثير من المبالغة اعتاد عليها مؤرخو الطوائف في لبنان. فما يذكره الأب الدويهي عن تجهيز العساكر والتحرك العسكري لا يعطي صورة حقيقية عن الأحداث.

(١) الأب اسطفان الدويهي، تاريخ الموارنة، ص١٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

فما جرى حسب الراوي نفسه في تتبع الخبر يثبت أن المشايخ الحمادية المتاولة لم يحترموا البطريرك ولم يعاملوه بما يليق به ليس بالضرورة بسبب الجباية أو المال، ولكن لسبب آخر سيظهر في تفاصيل الأحداث التالية حيث أرغم الأب البطريرك على ترك مقره وتوجه جنوباً نحو كسروان وظل بعيداً عنه حتى وردته رسالة من باشا طرابلس بالأمان وأن يرجع إلى كرسيه. دور الحمادية في هذه الأحداث هو دور الملتزمين الذين ينفذون أوامر الباشا، أي أنهم أدوات تنفيذ السلطة العثمانية وليسوا أصحاب السلطة التامة ولا يمكنهم القيام بعمل ما خارج الصلاحية المعطاة لهم بالالتزام.

كما يعتبر المؤرخ المعلوف صاحب كتاب «دواني القطوف» أحد الذين أرخو للحمادية والأحداث التي جرت معهم نقلاً عن مصادر معظمها مجهول وقد استند الكاتب فيها إلى حكايات بعض أقربائه المتوارثة حول حركة عائلة «المعلوف» في المناطق اللبنانية. والمؤرخ يتحامل جداً على كل ما هو شيعي لحقد دفين غير مبرر. وهو يناصر كل من يعادي المتاولة (الشيعة) حتى ولو كان الباشا العثماني. وينحاز الكاتب دون تحفظ وبكثير من المبالغة للأمراء المعنيين والشهابيين الذين يجمعهم حقدهم على الشيعة وحروبهم الطويلة والدموية معهم.

يمكن إضافة مؤرخ آخر نقل الوقائع أيضاً عن مصادر مختلفة ليثبت تاريخاً لعائلات لبنانية هو الشدياق صاحب «تاريخ الأعيان « الذي كتب بخلفية البحث عن «الإمارة اللبنانية». وهي إمارة افتراضية سعى بعض المفكرين في أوروبا الاستعمارية إلى إنشائها لتصبح إمارة صليبية مشرقية جديدة. وقد نجحت دول أوروبا الكبرى بعد الحرب الأهلية المفتعلة في جبل لبنان ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ إلى تثبيت هذه الإمارة تحت إسم «متصرفية جبل لبنان» ووضع لهذه المتصرفية قانون أساسي (دستور) ليصبح شبه دولة «لبنانية» وأصبح لبعض المؤرخين ومنهم الشدياق والمعلوف مسوغ للحديث عن «اللبنانيين» كشعب وكجماعة وهي تسمية كانت حتى ذلك الحين غير واقعية على اعتبار أن الإسم هو للجبل وليس للشعب. فمعظم كتابة المؤرخ الشدياق تسعى لاثبات الكيانية اللبنانية وتمجيد طوائف وزعامات منها، وإعطائهم أبعاداً تاريخية لشرعنة وجودهم. فكانت كتابات الشدياق قاسية وغير واقعية في الحديث عن الحمادية في الجبل، أو عن الشيعة عموماً في لبنان.

أما المؤرخون المعاصرون فالمتحمسون منهم للحمادية أطلقوا العنان لخيالهم فوضعوا تاريخاً افتراضياً ووهمياً لهذه العشائر. وبالغوا كثيراً في وصف حركاتهم واعتبروا تمردهم ومواجهاتهم للباشاوات «ثورات». واعتبروا سيطرتهم والتزامهم لبعض المقاطعات عملاً تاريخياً عظيماً. إن أحداً لا يمكن أن ينكر البطولة التي أبداها الحماديون بكل عشائرهم في مقارعة الظلم والبغي العثماني. فمجرد البقاء في الأرض هو عمل جبار عجزت شعوب أخرى على تحقيقه في ظل دولة عتاة العثمانيين. وأمام عداء هائل للشيعة في السلطنة وتغذية للأحقاد المذهبية ورعاية طائفة بعينها وتسليطها على رقاب الناس كانت المقاومة درجة من درجات البطولة النادرة التي يستحق الذين قاموا بها الثناء والتمجيد. لكن ذلك لا يعني القبول عقلاً بالمبالغات الكبيرة الغير معقولة والغير ممكنة. لقد ابتلي بهذا الشكل من الكتابة التاريخية المؤرخون وعلماء الدين في جبل عامل الحديث وكذلك الذين أرخوا لمنطقة بعلبك بنفس الغلو الذي ظهر في الكتابات التي أرّخت للعشائر الحمادية.

٢ - أصلهم ومناطق وجودهم

تذهب الرواية التي ينقلها الشدياق في أخبار الأعيان إلى أنهم يتحدرون من رجل عجمي جاء إلى لبنان فاراً من شاه العجم. من هذه السيرة يفهم أن المقصود بشاه العجم أحد ملوك إيران لخصوصية لقب شاه بملوك الفرس. يقول الشدياق: «آل حمادة: هؤلاء المشايخ ينتسبون إلى رجل يسمى حمادة من بخارى العجم. فهذا لما أراد الخروج على شاه العجم وجّه له الشاه جيشاً فقتل من تعصّب له ففرّ بأخيه أحمد وأهله وعشيرته إلى جبل لبنان ونزل الحصين. ثم ذهب إلى قمهز ومن هناك تفرقت عشيرته في جبة المنيطرة ووادي علمات. وسار أولاد أخيه (أحمد) إلى بلاد بعلبك وتولوا قرية الهرمل. فحمادة وُلد له ولدان سرحال وأحمد المكنى أبا زعزوعة الذي تولت أولاده جبة بشري. وولد لحمادة أيضاً ولد آخر يقال له ذيب. وهو الذي تولت أولاده مقاطعة الضنية[1]».

من البداية يغلب على الرواية طابع الوضع الضعيف، نفس الطريقة التي كتب مثلها

---

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٢.

كثير من كتاب السير العائلية. فحمادة كان أميراً في مكان ما في بلاد العجم وتحديداً في منطقة بخارى وهي تقع في تركستان في آسيا الوسطى. وقد انهزم وفر أمام الشاه المجهول الإسم إلى بلاد الشام ليصبح فيها مع أخيه (أحمد) وعشيرته الحمادية في مراكز السلطة وتولي المناطق. ولا يشرح واضع النص إن كان أحمد شقيق حمادة يحمل نفس اسم العائلة (احمد بن حمادة) أو يحمل نسباً مختلفاً للأب أو الجد. كما لا يحدد واضع هذه السيرة إن كانت عشيرة آل حمادة تتحدر من أصول عربية أو فارسية أو تركية أو غيرها. خاصة وأن منطقة بخارى كانت تجمع كثيراً من القبائل المختلفة المنابت والأعراق والمذاهب. يجب التوقف عند الكلمة الأهم في النص وهي وجود العشيرة. فهذه لا ينبه الراوي إليها إذا ما كانت حمادية (وهو الأرجح) أم يحمل كل بيت منها إسماً مختلفاً مثل أحمد المار ذكره. هذه الملاحظة يجب أن تكون حاضرة أثناء الحديث عن الأسر في العهد المملوكي حيث تسمية «آل فلان» تعني كل من ينتمي أو يخضع لسلطة صاحب الاسم. فآل حمادة في هذا التوصيف هم كل من كان يتبع أو يخضع أو ينتمي بالقرابة أو بالولاء إلى زعيم الحمادية. بما يعني عدم انتساب كل الجماعة الحمادية إلى جد واحد، بل إلى زعيم واحد. لكن دائماً يتميز شيوخ العشير عن باقي «الآل» بتحديد بعض الأسماء المتلاحقة بالنسب. فحمادة حسب هذا الوصف هو شيخ أو زعيم (آل) حمادة وهو من بلاد العجم (ربما يكون عربياً من مهاجرة العرب أو من سواهم). جاء إلى لبنان واستقر في الجبل و«الهرمل ضمناً». وتولى أحمد آل حمادة قرية الهرمل وتولى ذيب بن حمادة مقاطعة الضنية بينما تولى الشيخ سرحال بن حمادة بلاد جبيل.

وإسم «سرحال» الذي يتردد في أسماء آل حمادة قد يكون هو ذاته إسم «سرحان» الشائع بين عامة سكان مناطق شمال البقاع وشمال لبنان، بما يعني أن الكلام عن سرحان الحمادة وسرحال الحمادة تعني شخصاً واحداً.

ثم توسع مشايخ الحمادية في المناطق الجبلية والساحلية التابعة لولاية طرابلس العثمانية حيث يبدو من السيرة التي نقلها الشدياق أن تحرك الحمادية هو تحرك لجماعة من الفلاحين الباحثين عن مكان للإقامة والعمل. وقد وجدوا جماعة أخرى من الشيعة تنتشر في بلاد جبيل والبترون فاحتكوا بها. وأدى ذلك إلى تنافس، مما أجبر الحمادية

على التراجع باتجاه بلاد المرقب. بينما لبثت جماعة منهم في بلاد البترون إلى جانب آل الشاعر. يقول الشدياق: «ثم ارتحلوا إلى فرحة في وادي علمات. ولما ثقلوا على بني الشاعر في تولا ارتحلوا إلى بلاد المرقب وصاروا فيه ولاة. وتولت الحمادية بلاد البترون»[١]. وحسب هذه الرواية يمكن إدراك ذلك الوجود الشعبي الشيعي في مناطق جبل لبنان من المرقب وعكار إلى بلاد البترون وجبيل. حيث يظهر أن الأمراء والمقدمين من التركمان والأكراد الذين وضعتهم الدولة العثمانية لم يكن لهم وجود شعبي، بل فقط وجود لعدد محدود من الرجال الموظفين الذين يتولون الإمرة والالتزامات المعهودة. وبذلك، لم يتمكن هؤلاء الأكراد والتركمان من المحافظة على مراكزهم التي غالبهم عليهم الحمادية وانتزعوها منهم بالقوة. فما يرويه الشدياق عن قتل مقدمي جاج وأخذ الولاية مكانهم يثبت مثل هذا التطور فهو يقول: «... واستدعى الأمير عساف (تركماني) والي غزير (كسروان) أحمد وذيب (ابني حمادة) وخاطبهما سراً أن يقتلا مقدّمَي جاج فيوليهما عوضهما فأبيا. ولما رجعا سألهما أخوهما الصغير فكاشفاه بذلك فتوجه سراً إلى غزير وتعهد للأمير بقتل المقدَّمَيْن المذكورين وأخذ منه صكّاً بولاية بلاد جبيل وعاد إلى أخويه فأخبرهما فارتضيا وتوجهوا جميعاً إلى جاج فقتلوا مقدَّمَيْها وأتوا برأسيهما إلى غزير. فولى الأميرُ (عسّافُ) الشيخَ سرحال بلاد جبيل ومكث أخواه في جاج»[٢].

وبعد سيطرة الحمادية على جبيل والبترون إضافة إلى تَوَلّي أولاد ذيب بن حمادة مقاطعة الضنية وأحمد بن حمادة الملقب أبو زعزوعة جبة بشرة بدأ الحمادية توسعهم جنوباً فاستولوا على وادي علمات والفتوح وجبة المنيطرة. كما استولوا على مزارع في الكورة سمّوها «بكاليك» وجعلوا من قرية لاسا في بلاد جبيل مقراً لهم[٣]. وبهذا يكون الحمادية قد سيطروا بالفعل على كل المنطقة الجبلية الممتدة من نهر ابراهيم إلى المرقب أي كل المنطقة المعروفة في ذلك العهد باسم «جبل لبنان» وهي أوسع منطقة متصلة في لبنان حكمها حاكم لبناني في ذلك العهد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق باختصار.

لكن الراوي الذي نقل عنه الشدياق هذه القصة قد أخطأ في نقل الحقيقة، وصوّر ما سمعه من حكايات على أنها تاريخ حقيقي بينما يجد خطأه دون قصد في نقله لتاريخ الأحداث. فالشدياق يروي أن حمادة جد الحمادية قد قتل سنة ١٤٧٤ يقول: «وسنة ١٤٧٤: اتفق حمادة مع ست الملوك على أخذ ثأر زوجها كمال الدين عجرمة مقدم إيطو من قاتله مقدم بشرة. فأكمن حمادة لعبد المنعم خارج برجه في بشرة فلما خرج سحراً وثب عليه وقتله ثم دخل البرج فقتل أولاده فلما رأت أصحاب عبد المنعم ذلك هجموا على حمادة وضربوه بالسيوف فجرحوه فحمله أصحابه وفروا به هاربين فبادر إليهم أهل بشرة فأدركوهم في أرض الحرايص فقتلوا حمادة ومن أدركوه من أصحابه[1]. ويبدو من هذا الخبر أن تاريخه خطأ إما من النقلة وإما عن غير قصد من المؤلف الذي يعود وينقل نفس الحدث في سنة ١٥٤٧ حيث يقول: «وسنة ١٥٤٧ اتفقت ست الملوك ابنة الشيخ علوان مع الشيخ حمادة رأس الحمادية ومع ملكيّة عين حليا على أخذ ثأر زوجها كمال الدين عجرمة وقتل المقدم عبد المنعم (بن يوحنا مقدم بشرة) فوضعوا له كميناً خارج البرج. ولما خرج سحراً وثبوا عليه وقتلوه. ثم دخلت الملكية إلى البرج وقتلوا أولاده. فلما رأت أصحابه ذلك هجموا على حمادة وضربوه بالسيوف فجرحوه فحملته أصحابه وفروا به هاربين. ولما بلغ أهل بشرة ذلك بادروا إليهم فأدركوهم في مكان يسمى الحرايص فقتلوا حمادة وبعضاً من أصحابه. وفي قتل عبد المنعم انقرض مقدمو بشرة الذين ولاّهم آل سيفا[2].

هذه الرواية بتاريخها قد تكون أقرب إلى الواقع لارتباطها بحدثين مهمين يذكرهما نفس المصدر حيث يقول بأنه بعد «سنة ١٥١٥ (الصحيح ١٥١٦) لما قبض السلطان سليم العثماني على قانصوه الغوري ملك مصر والشام وقتله ووجدت الراحة في لبنان قدم الناس إلى لبنان من كل جانب وكان ذلك في أيام ولاية الأمير عسّاف التركماني في كسروان وجبيل فقدمت المتاولة من بلاد بعلبك وأخذوا السكنى بكسروان في فاريا

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٣.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ٢١٢.

وحراجل وبقعاتا المعروفة الآن ببقعاتا كنعان»[١] (وكنعان هذا هو على الأرجح كنعان بن قانصوه الحمادة). وهو يتابع النص بالتاريخ أنه في سنة «١٥١٩ توفي المقدم عساف بن سيفا وتغلّب على المقدمية كمال الدين بن عبد الوهاب الإيطوي المعروف بابن عجرمة وتزوج من ست الملوك بنت الشيخ علوان بن حسام الدين البشراني». كما يرد ما يثبت صحة تاريخ هذا الحدث عند الأب يوسف الدبس حيث يقول: «...وفي سنة ١٥٤٧ كان مقتل المقدم عبد المنعم يوحنا فإن ست الملوك أرملة ابن عجرمة رغبة في أخذ ثأر زوجها استدعت إليها حمادة رئيس الحمادية الذين أتوا من بلاد العجم إلى قمهز بلبنان... وما انتشر الخبر حتى أسرع أهل بشري في طلب القاتلين فأدركوهم في محل يسمى الحرائص فقتلوا حمادة وبعضاً من رفاقه[٢].

وفي سنة ١٥٣٧ قدم المقدم عبد المنعم بن يوحنا مقدم بشرة إلى بلوزا للجمعية فلم يعبأ بقدومه كمال الدين بن عبد الوهاب بن عجرمة مقدم إيطو لمشاحنة بينهما على الولاية فحنق منه عبد المنعم وطعنه برمح فقتله[٣].

فالأحداث المارة بين سنوات ١٥١٦ و١٥٣٧ تتحدث عن ذلك الخلاف بين عبد المنعم بن يوحنا مقدم بشرة وكمال الدين بن عبد الوهاب مقدم إيطو الذي انتهى بقتل كمال الدين (حيث المقدمية في هذه الحالة لا تزيد عن كونها وجاهة القرية) فقامت زوجته ست الملوك بالاتفاق مع الشيخ حمادة رأس العشائر الحمادية سنة ١٥٤٧ على الثأر لزوجها فهاجم حمادة البرج الذي يقيم فيه عبد المنعم وقضى عليه وعلى عدد من أولاده ثم رجع مع أتباعه وقد أصيب في المعركة فأدركه بعض أنصار المقدم عبد المنعم وقتلوه. فالعشائر المنتسبة إلى الشيخ حمادة بدأت تنتشر بعد سنة ١٥٤٧ وليس قبل ذلك بمائة سنة كما ورد في الرواية الأولى المتشابهة جداً مع هذه الرواية. وبمراجعة أسماء الأمراء الذين حكموا منطقة جبيل كالأمير عساف وابنه الأمير منصور تثبت أن التاريخ الحقيقي لمقتل الشيخ حمادة هو سنة ١٥٤٧. وهذا التاريخ يشكل نقيضاً لما كتبه نفس

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١١.

(٢) المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص ٢٣٤.

(٣) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢١٢.

الراوي في حديثه عن منطقة شمال لبنان في مكان آخر حيث يقول في روايته للأحداث حول بعض المقدمين الموارنة في الشمال بأنه في سنة ١٤٨٨ حنق المقدم عبد المنعم بن عسّاف والي جبة بشرة وتعصب معه جرجس ابن الحاج حسن الصوفي النابلسي شيخ حدشيت على بطرك الموارنة وأهل اهدن ورؤساء الطائفة المارونية لطردهم اليعاقبة والأحباش الهراطقة من جبة بشرة وإخراقهم بهم. واستنجد المقدم المذكور بأولاد الشيخ زعزوع المتاولة أولياء بشناتا فنجدوه ، فجمعوا رجال مقاطعة الضنية وقصدوا إهدن. فلما بلغ أهلها قدومهم أقاموا لهم كميناً في مكان يسمى حمينا. ولما دنوا من الكمين وثب عليهم الكامنون فأهلكوهم في مرجة تولا. فلما بلغ الهراطقة ذلك فروا هاربين بعض إلى حردين وبعض إلى كفرحورا وبعض إلى قبرس وبعض إلى دير مار موسى في البرية وضربتهم أيدي سبا[1]. هذا الخبر مجمع من عدد من الأخبار الحكواتية التي تحكى لتمجيد أبطال وهميين في القصص الشعبية. ما فيه من واقع هو وجود الشيعة كمقدمين في بشناتا وهم أولاد زعزوع الذي يصفه المؤرخ في مكان آخر بأنه ابن حمادة. فإذا كان أولاد زعزوع أو «زعزوعة في بعض النصوص» موجودين في سنة ١٤٨٨ في بشناتا فهذا يعني وجود آل حمادة في المنطقة قبل هذا التاريخ بزمن. كما أن بعض ما ذكره المؤرخ نفسه قبل ذلك يثبت أن الشيعة في مناطق الشمال كانوا القوة الحاكمة والمتنفذة حيث يقول: «وسنة ١٤٨٢ قوي عزم المستراحية المتاولة في جبة المنيطرة وعزلوا أولاد قصاص من المشيخة»[2]. ولا يذكر الراوي إذا كان آل قصاص شيعة. فما دام آل مستراح يعزلونهم عن المشيخة فهذا يدل على قوتهم. وهذا الحدث تم قبل ست سنوات من الحديث عن أولاد الشيخ زعزوع في بشناتا بحيث يثبت أن الأسر التي تشكل تجمعاً شيعياً كبيراً وقوياً في الشمال كان قد تشكل في أواخر عهد المماليك وعلى مقربة من مدينة طرابلس حاضرة المملكة الطرابلسية. وهذا التجمع هو ما تحدث عنه الرواة الموارنة باعتباره قبائل أو عشائر الحمادية الذين انتسبوا في فترة لاحقة إلى حمادة رأس أو زعيم هذه القبائل.

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق.

سيكون لأسرة آل حمادة دور مؤثر جداً في الأحداث التي تلت في مناطق جبل لبنان وصولاً إلى طرابلس وعكار. وقد تمكنت هذه الأسرة الشيعية أن تحافظ على وجود شيعي سياسي وشعبي في هذه المناطق طيلة القرون الثلاثة التالية. لكنها وبسبب أخطاء خطيرة وكوارث طبيعية قاتلة وعداوة رجال وأزلام السلطنة العثمانية، اضطرت عشائر الحمادية إلى ترك مناطق نفوذها وانتقل عدد من تبقى منها إلى مناطق البقاع الشمالي. لقد قل عدد الشيعة في مناطق جبل لبنان بسبب نكبات طبيعية مثل المجاعات والأوبئة وليس كما توهم البعض بسبب انتصارات عسكرية لبعض أمراء جبل الشوف أو سواهم.

٣ - آل حمادة والأمير فخر الدين بن معن

بعكس العلاقة الطيبة نسبياً التي ربطت بين الشيعة في جبل عامل بمقاطعاته الثلاث، والشيعة في بعلبك مع الأمير فخرالدين من سنة ١٦٠٧ حتى سنة ١٦٢٣ والتي تميزت بقيام تحالف متين أو ولاء لشروط الالتزام للملتزم (كما في بلاد بشارة والشقيف) فإن العلاقة مع آل حمادة كانت عدائية وشهدت أحداثاً خطيرة وحروباً متصلة. ورغم أن الأمير فخر الدين بن معن قد حظي بما لم يحظَ به الأمراء الكبار في الدولة العثمانية، إلا أن مواجهته للحمادية كانت تنتقص من قدرته على الحركة في الأماكن التي وجد فيها هؤلاء. ففي سنة ١٦٠٠ أرسل يوسف باشا سيفا يوسف وقانصو ابني أحمد (بن حمادة) ليقتلا مقدِّمي جاج لأنهم من حزب الأمير فخر الدين بن معن. فوجدا المقدمين الأربعة عند البيادر فقتلاهم وسلبا أموالهم وأخذا مشيخة بلاد جبيل[1]. ويبدو من هذه الرواية أن الرجلين الحماديين كانا قويان جداً ليتمكنا من قتل أربعة رجال وسلب أموالهم والاستيلاء على بلدهم بالقوة. إلا إذا كان يوسف وقانصو حمادة قد قادا جيشاً تمكنا به من فعل ما فعلوا، وهذا ما لم يشر له الراوي. وهذه الرواية عن مقدّمي جاج الأربعة تشبه الرواية السابقة عن مقدَّمَيْ جاج الإثنين السابقين مما يوحي بأن الرواية هي ذاتها أعيد تركيبها لتتناسب مع بعض الأحداث. وهذا يؤكد أن كتابة التاريخ عند بعض المؤرخين كان استنسابياً وليس تاريخاً حقيقياً إلا بما يفيد عن بعض الأسماء التي اشتهرت في ذاك الزمن.

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٤.

في هذه المرحلة كان الأمير فخر الدين (سنة ١٦٠٠) لا يزال ضعيفاً، وكان يحكم فقط في مقاطعة الشوف في جبل الدروز (جنوب جبل لبنان). في مرحلة لاحقة عندما بدأ الأمير فخر الدين يتوسع باتجاه الشمال، كان حتماً عليه أن يصطدم بوالي طرابلس يوسف باشا سيفا تسانده أسرته القوية التي اتخذت من عكار مقراً لها. معظم الولاة العثمانيين في ولايات الشام الثلاث (حلب ودمشق وطرابلس) كانوا ولاةً عابرين، يحكمون فترة من الزمن ثم يرحلون دون أن يكون لهم بقية في الشام. إلا آل سيفا الذين كانوا يعيشون في منطقة عكار، وهي منطقة يتولى على جزء منها شيوخ من آل حمادة الذين عرفوا كيف يتعايشون مع آل سيفا ويخلصون لهم حتى اعتمد آل سيفا عليهم في حماية أسوار مدينة طرابلس عندما هاجمها الأمير فخر الدين بن معن. لقد بدأ الاشتباك بين أتباع الأمير فخر الدين بن معن أو ابنه الأمير علي والحمادية عندما سعى الأمير للحصول على التزام مناطق في الشمال حيث يتواجد آل حمادة كقوة رئيسية مهيمنة ومتحالفة مع آل سيفا. يقول الشدياق في أحداث سنة ١٦١٧: «ثم نهض الأمير (علي بن فخر الدين) بالعسكر إلى نهر ابراهيم فبلغه أن الأمير سليمان (آل سيفا وحليف المعنيين) سلم لعمه يوسف باشا (سيفا) عنوة وأخذه إلى عكار، فأمر (الأمير علي) بنهب قرى الحمادية والشاعرية وحريقها وذلك لأنهم غشوا الأمير سليمان بطرد الخوازنة من عنده وأعلموا يوسف باشا بذلك[1]. وبعد عودة الأمير فخر الدين من منفاه في أوروبا سنة ١٦١٨ تمكن من الحصول على التزام بلاد جبيل والبترون وكانتا للحمادية فتصرف بهما كما كان يتصرف في مناطق جبل عامل الشيعية. يقول الخالدي الصفدي أن فخر الدين: «...أقام هو بعض أيام يطيب خواطر أهالي بلاد البترون وبلاد جبيل ويردهم إلى قراهم لأن الأمير ضمن المقاطعتين من عمر باشا وقبّضه مالها سلفاً وتعجيلاً. وولى الشيخ أبا نادر ابن الخازن حاكماً في بلاد جبيل والمقدم يوسف ابن الشاعر على بلاد البطرون لأنه واجه (قابل) الأمير ذلك (تلك) النوبة فطيّب خاطره وولاه على البلاد المذكورة لأنه منها ورحل من البترون إلى نهر ابراهيم....»[2].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين ص ١٣٦

لقد مر أثناء الحديث عن الأمير موسى الحرفوش وأثناء هجوم علي باشا جانبولاد على دمشق (سنة ١٦٠٧) أن الأمير فخر الدين بن معن كان يسانده ويتحالف معه. في تلك الحرب أقدم علي باشا جانبولاد ومن معه من حلفاء خصوصاً فخر الدين ويونس الحرفوش، على الهجوم على مدينة طرابلس واستولى عليها وأذاق واليها ابن سيفا وأسرته وعدداً من وجهاء طرابلس الويلات. وبعد ست سنوات انتقم بنو سيفا من المعنيين عندما هاجموا جبل الشوف وبيروت وصيدا ودمروا أبنية وقصوراً للمعنيين وأنصارهم. وبعد عودة فخر الدين من أوروبا عمل جهده على الانتقام من آل سيفا سواءً كانوا في حكم ولاية طرابلس أم في قراهم في منطقة عكار. وتمكن الأمير فخر الدين من الحصول على مباركة من الصدر الأعظم العثماني لمهاجمة يوسف باشا سيفا والي طرابلس بحجة جباية أموال متأخرة. فجمع جموعه وتقدم نحو مدينة طرابلس فوقف له بنو سيفا وحاربوه يساندهم في ذلك آل حمادة الذين تولوا مباشرة الدفاع عن أسوار المدينة رغم معرفتهم بأن جماعة الأمير فخر الدين يهاجمون بأمر من الصدر الأعظم بما يعني أن مقاومتهم لهذا الهجوم هو تمرد على السلطان. يقول الصفدي في أحداث سنة ١٦٢٠: «.... فلما تكامل في داخل الصور (السور) عشرة رجال انهزمت أولاد حمادي الذين واقفين من طرف يوسف باشا على باب المدينة للحفظ والحصار وتحصنوا بالقلعة وجماعة الأمير فخر الدين نزلوا كسروا الأقفال وفتحوا الباب ودخلوا باقية سكمانية الأمير الذي معه. وتوجهوا إلى حارة حسين باشا التي بقرب القلعة فضربوهم من القلعة بالبندق فقتلوا بلوكباشي يسمى براق ورجلين ثلاثة من جماعة البلوكباشية....»[١].

كسب الأمير فخر الدين من معركة طرابلس ضد آل سيفا كثيراً من الأموال والغنائم التي أخذها أتباعه من منطقة عكار. وفي نفس الوقت حصل فخر الدين على أملاك الحمادية في البترون وجبيل وعيّن من قبله نظاراً وجباةً فيها. حيث كانت الخسارة في هذه الحالة على آل حمادة مباشرة بغض النظر عن مكاسب أو خسائر باشوية طرابلس التي تولاها سنة١٠٣٢/ ١٦٢٣عمّار باشا بعد عزل يوسف باشا سيفا عنها[٢]. وهذا

(١) المصدر السابق ص ١٥٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩.

الوالي الذي يذكره الشدياق باسم (عمر باشا) لم يتمكن حين وصوله إلى طرابلس من استلام وظيفته بسبب امتناع يوسف باشا سيفا عن تسليمه الولاية. فتابع سيره إلى البترون حيث طلب مساندة الأمير فخر الدين الذي لم يستطع إجابته لطلبه لعلاقة مستجدة مع يوسف باشا سيفا الذي ارتبط ابنه عمر بمصاهرة الأمير فخر الدين.

ويبدو من كثرة التعيين والعزل للجباة في جبيل والبترون أن آل حمادة قد شعروا بأنهم أكثر الخاسرين من صراع النفوذ بين الباشا في طرابلس والأمير المعني. ففي التعيينات التي كانت تتم عشوائياً وبدافع الكسب المالي على حساب أبناء البلاد من الحمادية وآل الشاعر وغيرهم تظهر في هذه التعيينات تلك اللامبالاة بأحوال السكان فقد «أرسل (ابن سيفا) مملوكه سرور آغا حاكم بلاد كسروان من قبله.... فكتب على الأمير فخر الدين مقاطعات ناحية بلاد جبيل والبترون وبشري والظنية وعكار بشرط أن يدفع الأمير لعمر باشا ١٠ آلاف غرش[١]. كما ذكر أن الأمير فخر الدين قد «تسلم منطقتي البترون وجبيل لمدة أربع سنوات ثم سلم كل منطقة لوكيل...»[٢].

لذلك كان لا بد أن يتحرك الحمادية في مواجهة الوضع القائم. فما دام الولاة والأمراء والحكام يتحركون لجباية الأموال بالقوة فما الذي يمنع الحمادية أو سواهم من الأسر في لبنان من القيام بذات الدور إذا تمكنوا من امتلاك القوة العسكرية القادرة؟ فكان تمرد أو ثورة آل حمادة على الحكام العثمانيين أمراً لا بد سيحصل عندما يشعر هؤلاء بقدرتهم على مقاومة رجال السلطنة.

٤ - آل حمادة يسيطرون على جبل لبنان

بداية يمكن الاعتراف بأن تاريخ الشيعة في جبل لبنان هو تاريخ حركة آل حمادة ومن حالفها أو ارتبط بها من عائلات شيعية أو غير شيعية. ليس في الأمر مبالغة، فالمؤرخون من غير الشيعة الذين تحدثوا عن تلك المرحلة قد قرنوا دائماً بين المتاولة (الشيعة) كجماعة وبين الحمادية.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠.

(٢) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٥٨.

لقد مر الحديث عن أصل الحمادية وعن الشكوك التي يمكن أن تبرز حول موضوع الأنساب الذي يكتنفه عادة غموض في الأصل ومبالغة في التفاصيل. لكن الحقائق التاريخية، خارج موضوع النسب، تثبت أن آل حمادة قد اختصروا بوجودهم وجوداً شعبياً تاريخياً للشيعة في جبل لبنان لمدة أربعة قرون متواصلة تقريباً. عاشوا فيها فترات من القوة والضعف والتقدم والتراجع. وتعرضوا لأمور خطيرة أدت في النهاية إلى استئصالهم وجوديا من المنطقة التي عاشوا فيها. صحيح أن العدوان الذي مارسه باشاوت السلطنة العثمانية كان له دور بارز في إضعاف وجود الحمادية في شمال لبنان، لكن هناك عوامل أخرى طبيعية ساهمت إلى حد بعيد في نهايتهم. من أبرزها الأوبئة التي اجتاحت المنطقة في فترات متتالية. كما ساهمت المجاعات التي كانت تصيب البلاد في إفناء أعداد كبيرة من السكان ليس فقط من الشيعة ولكن من كل الطوائف والمذاهب والجماعات.

يعود لباشاوات السلطنة وللنافذين العثمانيين دور بارز في حصول تلك الكوارث الخطيرة بسبب قطع الأشجار وتلويث الآبار وحرق الزروع وسلب البهائم... فأدى ذلك كله مجتمعاً إلى تناقص خطير في أعداد السكان في كل البلاد الشامية بما فيها المناطق اللبنانية. فكان لا بد من قيام الناس بالانتفاض والتمرد على الجور العثماني المتمادي. هكذا قُدِّر لآل حمادة أن يخوضوا حرباً شعواء ضد رموز الدولة العثمانية طيلة قرنين من الزمن على الأقل في مناطق جبل لبنان والهرمل. وكان من الممكن أن يحصل الحمادية على الكثير لو قيض لهم من يضع خطة عمل سياسية واضحة. أما الثورة التي حدثت فكانت في كثير من الاحيان رد فعل على ظلم الولاة وجلاوزة السلطان. فجاءت نتائجها أقل بكثير مما ينبغي. وانتهت بعد قرنين، ليس بانتصار السلطان العثماني على الحمادية، بل بوقوع تغييرات ديموغرافية كبيرة حدثت في المنطقة برمتها حيث جرى تنقل واسع للطوائف والأعراق داخل الولايات العثمانية الشامية. ونشأت دولة جديدة في مصر انشقت عن الدولة العثمانية وحاربتها ابتداءً من سنة ١٨٣٠ فكانت نتائج هذه التغييرات واضحة في كل لبنان.

مر سابقاً أن يوسف باشا سيفا قد أمر يوسف وقانصو بقتل مقدمي جاج في بلاد جبيل،

فنفذا الأمر. واشتهرا بعد ذلك بقوة الشكيمة والقدرة على حسم الأمور بالقوة. ويظهر أن قانصو بن حمادة قد حظي بالشهرة الأوسع بين آل حمادة قاطبة. وقد ترك هذا الشيخ ثقلاً سياسياً وعسكرياً كبيراً في مناطق شمال لبنان، وقدر لأحد أولاده سرحان أو سرحال كما في بعض المصادر، وهو ثالث أولاد الشيخ قانصو، أن يقود حركة تمرد كبيرة ضد رجالات الدولة العثمانية. وقد حقق سرحان أثناء تمرده انتصارات كبيرة في عدة معارك جرت بين مشايخ الحمادية وأتباعهم وبين الباشاوية وأمراء جبل الدروز ومقدمي القرى في جبل لبنان.

تبدأ الأحداث بالظهور والتتابع ابتداءً من نهاية الأمير فخر الدين بن معن أمير جبل الشوف الذي استطاع أثناء حياته أن يتوسع شمالاً في المناطق التي يسيطر عليها الحمادية أي تلك التي تخضع لسلطة والي طرابلس. فباشا طرابلس (يوسف باشا سيفا أو من جاء بعده) لم يحسن الدفاع عن الباشوية كما يجب واضطر أكثر من مرة أن يقدم تنازلات للأمير المعني الذي حظي بتأييد بعض الوزراء والباشاوات الحاقدين على آل سيفا. وفي تراجع باشا طرابلس كان الحماديون يدفعون الثمن من رجالهم وأموالهم. وبعد عزل ومن ثم قتل الأمير فخر الدين بن معن تنكر باشا طرابلس للحماديين رغم كل تضحياتهم، وعاملهم بالطريقة العثمانية الشائعة في حينه، أي باستغلالهم أثناء الحاجة إليهم ثم محاربتهم فيما بعد. فواجه الشيخ قانصوه الحمادة غدر باشا طرابلس مباشرة لتبدأ حرب طويلة بين الحمادية والباشوية. حرب متقطعة ودموية جرت فيها جولات لم يكن النصر فيها حاسماً لأي من الطرفين.

كان للشيخ قانصوه أربعة أولاد هم علي وأحمد وكنعان وسرحان (أو سرحال). وقد تولى ابنا الشيخ قانصو الأكبران علي وأحمد بلاد جبيل والبترون بتفويض من باشا طرابلس. وفي سنة ١٦٣٤ وقعت خلافات كبيرة بين أمراء آل سيفا. فيوسف باشا سيفا الذي توفي سنة ١٦٢٤ قد ترك لأبنائه وأبناء إخوته مشاكل جمة أدت إلى خلافات ومعارك فيما بينهم. ولأن الحمادية كانوا في الأصل يعيشون في المنطقة التي حكمها يوسف باشا سيفا فإن الأحداث التي جرت بين ورثته قد مست بهم مباشرة. ففي سنة ١٦٣٤ تمكن الأمير علي علم الدين اليمني الذي كلفه الكجك باشا أحمد الحكم مكان

الأمير فخر الدين بن معن، تمكن من الحصول على التزام بلاد جبيل وهي منطقة كانت للحمادية، فتحركوا بدعم الأمير عسّاف بن سيفا ونهضوا لطرد الأمير علي اليمني وأحزابه من بلاد جبيل والمنيطرة، وكان الأمير علي علم الدين حليفاً للأمير علي بن سيفا وللمقدم زين الدين الصوّاف. فأحرقوا (الحمادية وحزبهم) المنيطرة وقتل الأميرُ عسافُ أبا جمال الدين سيّالة وابن أخيه»[١]. ولاحق الأمير عساف والحمادية أعداءهم إلى إيعال التي على نهر رشعين حيث وقعت معركة بين الطرفين كان النصر فيها للأمير علي بن محمد سيفا وقتل في المعركة الشيخ كنعان بن قانصوه الحمادة وعدد كبير من أقربائه. فتراجع الحمادية عن بلاد جبيل ليتولاها مع البترون الأمير علي بن محمد سيفا حيث أجرى كثيراً من الظلم والجور على الأهالي «وتحملت الرعايا أكلافا بقدر المال»[٢].

بعد سنتين فقط، تولى طرابلس مصطفى باشا كاتاجاج فحين وصوله إلى الباشوية عيّن الشيخ علياً وأخاه الشيخ احمد (ابنا قانصوه بن أحمد ابا زعزوعة بن حمادة) على بلاد جبيل والبترون. وأمر آل سيفا أن «ينهضوا لطرد متسلم أحمد باشا القادم إلى طرابلس فلم يمتثلوا أمره بل قتلوا مدبره وخواصه وقتلوا كذلك الشيخ أحمد حمادة. فانهزم مصطفى باشا ليلاً ودخل المتسلم المذكور ومعه الأمير عساف والأمير علي بن محمد سيفا»[٣].

كان قتل الشيخ أحمد الحمادة سبباً في وقوع معركة في إهمج من بلاد جبيل لم يتمكن الحمادية فيها من الانتصار. لكن المعركة أثبتت صفات القيادة للشيخ سرحان بن قانصوه الحمادة ثالث أولاد الشيخ قانصوه، فأصبح في نظر عشيرته قائداً وشيخاً سرعان ما أثبت هذه القيادة في أرض الواقع. كما كان مقتل الشيخ أحمد الحمادة أحد الأسباب التي أدت إلى انتهاء وجود آل سيفا من طرابلس وعكار حيث يذكر الشدياق أنه في «سنة ١٦٣٧ ذاعت الأخبار بعزل أحمد باشا (والي طرابلس) وتولية شاهين باشا ففلّت (تفرّقت) العساكر وتوجه الأمير عساف (ال سيفا) إلى البقيعة. ولما وفد شاهين باشا إلى البقيعة تقدمت إليه شكاوٍ كثيرة على آل سيفا بأنهم أخربوا البلاد. فبلغ الأمير عسافاً ذلك فأرسل

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٣٠٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٩.

إلى الباشا المذكور خيلا وميرة مع مدبره يستعطف خاطره فخلع الباشا عليه وأعطى الأمان للأمير عساف فاطمأن وسار إليه. ولما قرب منه أمر برفعه إلى قلعة الحصن وشنقه على بابها وقتل أتباعه فلم ينج منهم إلا القليل. ثم استخدم الباشا الأمير اسماعيل موسى الكردي من راس نحاش والشيخ علي حمادة (ابن الشيخ قانصوه) وأصحابهما بعسكر لمقاصصة آل سيفا وأتباعهم. فقبضا على قاسم باشا والأولاد والنساء من آل سيفا وفتشوا في القرى والديورة على أموالهم. فهرب الأمير علي (آل سيفا) ملتجأً إلى الأمير علي علم الدين اليمني وتشتت بيت سيفا من طرابلس[١]. وهكذا تمكن الشيخ علي الحمادة وبتأييد الباشا شاهين من القضاء على غرمائه من آل سيفا ومن استعادة قوة الحمادية وإثبات وجودها في البلاد التي كانت فيها.

في هذه الظروف جاءت أوامر من السلطان إلى كل الولاة بإشهار الزينة سنة ١٦٣٨ «عند فتحه بغداد». كان هذا النصر يعني تفرغ الدولة العثمانية لمحاربة المتمردين في الداخل. كما كان يعني وقوع الشيعة في لبنان في دائرة الغضب السلطاني باعتبارهم أتباع نفس مذهب الدولة الصفوية التي ظلت تحارب السلطنة العثمانية طيلة قرن ونصف. يذكر الشدياق أن الأمير علي علم الدين خاف بعد سماعه بأوامر السلطان بالزينة وقد فر والتجأ إلى متاولة بلاد بشارة «فلما علم به الأمير ملحم المعني جمع عسكراً ودهمه في قرية نصّار (انصار) وقتل من جماعته خلقاً كثيراً. ففر الأمير علي (علم الدين) إلى دمشق مستغيثا بواليها فأرسل معه الوالي سكماناً فزحف بهم على الأمير ملحم ففر منه. وخلت الشوف والغرب والمتن والجرد من السكان[٢].

لا يوجد تفسير منطقي لهذا الخبر، إذ لا مبرر لفرار الأمير علي علم الدين لمجرد أن أمر السلطان بالزينة. كما أن هروب الأمير علي علم الدين إلى بلاد الشقيف في جبل عامل يزيد في غموض الأسباب الحقيقية. فشيعة جبل عامل ليسوا على وفاق مع الدولة ليتوسطوا للأمير علي، ولا لهم قوة عسكرية تستطيع أن تدفع غائلة الدولة المتعطشة دائماً للفتك بالشيعة بسبب وبدونه. فكيف إذا وجدوا الذريعة لذلك مثل لجوء الأمير الفار علي

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣١٠.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٥.

علم الدين عندهم؟ وقد صح هذا الأمر عندما سير الأمير المعني ملحم بن يونس أتباعه ليهاجموا قرية انصار ويفتكوا بعدد من أهلها ومن بعض اللاجئين إليها. وقد أدت هذه العملية إلى غضب باشا دمشق الذي أرسل جيش الولاية لمعاقبة الأمير المعني الذي فر من الشوف وخلت المقاطعات الأربع في جبل الدروز من السكان.

٥ - الشيخ سرحان بن قانصوه الحمادة

في سنة ١٦٤٠ توفي الشيخ علي بن قانصوه الحمادة فانتقلت المشيخة لأخيه سرحان الذي كان حتى حينه حاكماً أو ملتزماً لمنطقة المنيطرة. فاعترفت به كل العشيرة شيخاً للحمادية وكذلك اعترف بذلك الباشا نفسه. وأصبح الشيخ سرحان ملتزماً ومتولياً على بلاد جبيل والبترون. وكان الشيخ سرحان رجلاً جمع كثيراً من صفات الزعامة التي حشدت حوله عدداً كبيراً من الأنصار والمحبين فتوجس الباشا في طرابلس خيفة من الحماديين، وتحرك بجيش الولاية لمعاقبتهم وتصغير دورهم. ولأن الشيخ سرحان يتمتع بحكمة كبيرة ودراية بطرق تعامل الباشاوات مع الرعايا فقد انسحب أمام جيش الباشوية مفضلاً عدم الوقوع في مواجهة غير مضمونة النتيجة. وتراجع مع أتباعه أمامه من وادي علمات وبلاد جبيل. وانتظر الشيخ سرحان الوقت المناسب وبدأت جماعات الحمادية تهاجم القرى والمزارع التابعة لباشا طرابلس وعندما شعر الباشا بالعجز عن المواجهة اضطر إلى استرضاء الحمادية بأن عيّن محافظاً لطرابلس منهم هو حسين ذيب الحمادة سنة ١٦٤٩[(١)]. ولم يكن ذلك ليعني للحمادية نهاية الحرب مع الباشا الذي يظل في نظرهم عدواً حتى في أوقات السلم القصيرة. وفي سنة ١٦٥١ تحرك الشيخ سرحان بجماعته من الحماديين وأنصارهم وفاجأ الباشا بهجوم مباغت على منطقة عكار فاستولى عليها وطرد حاكمها حسن آغا متحدياً سلطة الباشا محمد الكبرلي الذي سارع إلى انتزاع جبة بشري منهم وسلمها للشيخ أحمد محمد. كما جمع جيش الولاية وهاجم الحمادية في عكار فتراجعوا أمامه إلى أطراف الزاوية ثم انقضوا على أتباعه فقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً كبيراً. وفي خطوة مهينة للباشا وللدولة العثمانية أقدم

---

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج ٢ ص ٩٧.

الحماديون على تحقير الجنود العثمانيين «فسلبوهم عمائمهم وأسلحتهم خاصة الرجال القوّاسة (الذين كانوا يستعملون البنادق). كما قتلوا أحد قادتهم واسمه عبد اللّه بن قمر العاقوري»[1]. في إهانة صريحة للباشا الذي لم يتجرأ على الرد عليهم سوى باعلانه تعيين المقدم علي الشاعر مقدماً على بلاد البترون سنة ١٦٥٤ منتزعاً لهذه المقاطعة من سلطة الحمادية. والمقدم علي الشاعر هو من زعماء منطقة البترون وقد عمل هو وأبوه وجده في ظل الباشوية وبتأييدها. كما كانوا من أتباع الأمير فخر الدين بن معن عندما تسلم مقاطعة البترون. وقد جدد لعلي الشاعر حكم مقاطعة البترون سنة ١٦٥٨ كما تعيّن قيدبيه بن الشاعر على جبة بشري في نفس السنة بما يرمي إلى إيقاع فتنة بين الحمادية وآل الشاعر. وفي السنة التالية (١٦٥٩) كلفت السلطنة قبلان باشا وزير طرابلس الجديد بمحاربة وقصاص الحمادية والاقتصاص من الشيخ سرحان. فزحف الباشا بمن جمعه من جنود على مناطق البترون وجبيل، فتراجع الحماديون أمامه كما كانوا يفعلون في كل مرة وذهبوا بعيالهم إلى مقاطعة كسروان. وقام جيش الباشوية بهدم البيوت وقطع الاشجار وهدم دور آل حمادة في قرى وادي علمات وهي الطريقة العثمانية التقليدية مع رعايا الدولة.

كانت نتيجة هذه الحرب تدمير منطقة البترون وجبيل وتهجير سكانهما مما حرم خزينة والي طرابلس من الأموال التي كان يجمعها من هاتين المقاطعتين. كما أن الحماديين بدأوا يهاجمون القرى القريبة من طرابلس ويشنون عليها الغارات مدة طويلة حتى اضطر باشا طرابلس سنة ١٦٦٧ لتوقيع عقد التزام المقاطعات الست وهي عكار والضنية وجبة بشري وجبيل والبترون والكورة إلى الحماديين. جرت المفاوضات في سرايا طرابلس بين الباشا والشيخ سعد بن علي حمادة وصدر العقد باسم احمد بن محمد حمادة. وكان المتعهد بالتنفيذ سرحان وأولاد عمه. مدة العقد سنة شمسية واحدة تبدأ من آذار وقيمة الالتزام ١٢٠ ألف غرش. وفي العقد شرط أن يقيم الشيخ سعد والشيخ أحمد في طرابلس تحت اشراف الباشا[2]. وفي السنة التالية أضيف إلى التزام الشيخ احمد الحمادة صافيتا

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٤

(٢) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ج ٢ ص ٨٠

وبلاد النصيرية مع التزامه عكار وجبة بشري بينما أعطيت بلاد جبيل والبترون لابن عم سرحان ذيب بن عيسى الحمادة بواسطة وكيله مصطفى بن ناصر الدين[١].

كان هذا الصلح يشبه هدنة مؤقتة عمل الشيخ سرحان على الاستفادة منها قدر الإمكان فسعى إلى تقوية اتباعه بينما واصل حرمان الباشا من الأموال المتوجبة على المقاطعات التي تولاها. وفي السنة التالية كان على الباشا أن يجدد عقد الالتزام فأصدر حسن باشا والي طرابلس أمراً ولى بموجبه الشيخ سرحان الحمادة بلاد جبيل والبترون. واستدعى بعض شيوخ الحمادية ليعينهم في مقاطعات أخرى فحضر إليه الشيخ محمد بن أحمد بن قانصوه الحمادي والشيخ محمد بن حسن بن ذيب الحمادة. فغدر الباشا بهما واعتقلهما بتهمة تخريب البلاد والتصرف بمال الضنية. وقد كان الشيخ محمد بن أحمد قانصوه الحمادة متسلماً مقاطعة بشري بينما كان الشيخ محمد بن حسن ذيب الحمادة متسلماً للضنية.

كان لغدر الباشا أثره الكبير عند الحمادية وشيعة شمال لبنان حيث اعتبروا خيانة حسن باشا وغدره بهم مقدمة لمحاربتهم في مناطقهم. فأخذوا حذرهم واستعدوا. وقد صدقت فراستهم فما لبث والي طرابلس أن حشد جيشاً سنة ١٦٧٥ وأرسله مع مدبره وهو من أعوانه المقربين، لمحاربة وتأديب الحمادية «لتصرفهم بالمال الأميري»[٢]. فالتقى بهم قرب قرية عين النقير القريبة من قرية أفقا في أعالي بلاد جبيل وحدثت مناوشة بين الطرفين حتى حجز الليل بينهما. ويذكر المؤرخون الذين تحدثوا عن هذه الحادثة خبراً غريباً وهو أن مدبر الباشا، قائد جيشه، أحضر المعتقلَيْن أحمد بن محمد قانصوه الحمادة ونسيبه محمد بن حسن ذيب الحمادة وأمر بقتلهما ثم شيّع أن القتلة هم من وجهاء جبل الدروز. وهذا الحادث يثبت أن رجال الدولة قد حصلوا على أوامر ليس فقط بقتل الحمادية ومن يؤيدهم والقضاء عليهم بل كذلك بإحداث فتنة بين سكان جبل الدروز وشيعة جبل لبنان. وقد نقل المؤرخ الشدياق هذا الخبر بطريقة مريبة فقال: «وسنة ١٦٧٥: جهّز حسن باشا عسكراً لطرد بني حمادة لتصرفهم بالمال الأميري فأرسل مدبره

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

فطردهم إلى عين النقير التي فوق أفقا حتى فصل بينهم الظلام. ثم أحضر الشيخ أحمد بن محمد قانصوه وابن حسن ذيب وأمر أولاد عمهما أن يقتلوهما فقتلوهما. ولما ذاع الخبر وثبت جماعتهما على بلاد جبيل فنهبوا وقتلوا وأحرقوا حصرايل ونهبوا قرى البترون ومواشي حصرون. وسنة ١٦٧٦: لما رجع حسن باشا من حرب تركمان البكدلة وبلغه مطاولة الحمادية أحرق لهم قرى وادي علمات وقرى جبة المنيطرة ولما رجع إلى طرابلوس أحرقوا قصوبا وتولا وعبدلي وبسينا وسفار وشبطين»[١].

ويذكر اسكندر المعلوف ما وقع سنة ١٦٧٦ من مصدر مجهول فيقول أنه: «في سنة ١٦٧٦ أحرق الحماديون بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد ابن معن وسكنوها ولم يرجع منهم أحد إلى بلاد جبيل»[٢]. وهذا الخبر يوحي بأن المسيحيين الذين كانوا يعيشون في بلاد جبيل والبترون قد هجروا قراهم وانتقلوا إلى جبل الدروز، لأن السكان الشيعة من أتباع الحمادية لم يرحلوا ولبثوا في بلادهم يواجهون عتاة الدولة العثمانية. لكن بعض الحمادية من المشايخ الذين شعروا بالخوف على أنفسهم لجأوا إلى الأمير أحمد المعني فاحتموا في بلاده. وكان لجوء الأمراء بعضهم إلى بعض في الشدائد أمراً شائعاً ومعروفاً وقد لجأ أمراء المعنيين والشهابيين أكثر من مرة للاحتماء في بلاد الحماديين.

عندما أدرك حسن باشا عدم قدرته على محاربة الحمادية أرسل يستدعي الأمير أحمد بن ملحم المعني حاكم الشوف. وطلب منه أن يعتقل اللاجئين إليه ويسلمهم للباشا. وفي نفس الوقت تلقى الأمير المعني رسالة من اسماعيل باشا والي صيدا يلوح فيها بأن الصلح مع الحمادية ممكن إذا دفعوا الأموال المترتبة عليهم للخزينة فكفل الأمير أحمد ملحم المبلغ وهو عشرة آلاف غرش الباقية عند الحمادية واشترط لتسليم المبلغ أن «يطلق حسن باشا والي طرابلس الرهائن فقبل الباشا وانفضت العساكر»[٣].

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٤

(٢) المعلوف، دواني القطوف ص ١٨٩.

(٣) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٩٨

إن المبلغ الذي تحدث عنه المصدر (عشرة آلاف غرش) ليس بالمال الكبير الذي يؤدي إلى حرب تكلف الخزينة أضعافها كنفقات للعسكر. لذلك يبدو أن ناقل هذا النص قد تعمد التعمية على الأسباب الحقيقية لقبول الباشا بالانسحاب ووقف العملية العسكرية. ففي تتمة الخبر أن الباشا قد جمع جيشاً جديداً في السنة التالية وهاجم قرى وادي علمات في بلاد جبيل وقرى جبة المنيطرة وأحرقها. فقام الحماديون بمهاجمة قرى قصوبا وتولا وعبدلي وبسبينا وسفار وشبطين وأحرقوها. وكانت هذه القرى تتبع للباشوية مباشرة. ولم يتمكن جيش الباشوية من صد المهاجمين الذين تصرفوا في المنطقة بقوة وسيطروا على كل المناطق المشرفة على طرابلس. وكان ذلك سبباً في عزل حسن باشا عن منصبه وتولية مصطفى باشا مكانه الذي عمد حال وصوله سنة ١٦٧٧ إلى تعيين الشيخ سرحان الحمادة على بلاد جبيل وابنه الشيخ حسين على بلاد البترون وقريبه الشيخ حسين بن أحمد الحمادة على جبة بشرة. وكان في قرار تعيينه طلباً ملحاً للشيخ سرحان بأن يعطي الأمان للفارين وأن يرد النزّاح إلى ديارهم.

كان هذا الحدث اعترافاً من باشا طرابلس الجديد بعدم قدرة الدولة على الاستمرار في الحرب ضد الحمادية كما يثبت اعتراف الباشا بسيطرة الحمادية على مقاليد الأمور في مقاطعات طرابلس حيث أصبح لزعيمهم الشيخ سرحان السلطة على إعطاء الأمان وإسكان الناس.

لقد كونت المقاطعات التي يحكمها الحماديون في الشمال منطقة واسعة تساوي أكثر من نصف مناطق ولاية طرابلس. ولكن شيوخ الحمادية لم يضعوا في حسابهم قيام دولة أو كيان مستقل. كما لا تظهر في تصرفاتهم تلك النزعة السلطوية التي تؤدي إلى إنشاء الكيانات السياسية. لذلك ظلت حكومة الشيخ سرحان في منطقة الحمادية سلطة عشائرية غير ثابتة وغير ناضجة ويسهل القضاء عليها عندما تصبح الظروف مناسبة. كان ترقب وقوع خلافات بين الباشا وبين الحمادية ممكن ومتوقع في أي وقت. وكان يكفي وقوع حدث صغير حتى تبدأ الباشاوية هجومها على الحمادية وقد حدث مثل هذا الأمر سنة ١٦٨٤ عندما قتل الحماديون شيخ مزرعة عكّار وابن أخت محمد باشا في حلبا، فهاجم الباشا مناطق الحمادية وأخذ عدداً من الرهائن فسجنهم في قلعة طرابلس.

وقبل أن يبدأ الحماديون هجومهم المضاد جرى عزل الباشا وإرسال باشا جديد فهاجم الحماديون طرابلس ودخلوا قلعتها بالقوة وأخرجوا منها رهائنهم ثم دهموا عشقوت ليلاً وقتلوا من أهلها أحد عشر رجلاً»(١). فاستعان الباشا الجديد بحكام المقاطعات القريبة وارسل يطلب من الأمير أحمد بن ملحم المعني أمير الشوف أن يرسل جيشاً لمؤازرته. كما أصدر أوامر بالتزام مقاطعتي جبيل والبترون الحماديتين. فلبّى الأمير أحمد المعني أوامر الباشا وتحرك مع خمسة آلاف مقاتل وزحف بهم إلى بلاد جبيل حيث نفّذ السياسة العثمانية المعتادة فأحرق قرى أيليج وأفقا ولاسا والمغيرة وقطع أشجارها. وجد الحماديون أن المواجهة المباشرة مع جيش ابن معن لا تثمر سوى الخسائر من الطرفين لمصلحة الباشا وعتوه فانسحبوا إلى بعلبك عبر الطرق الجبلية الوعرة. مما أعطى للأمير المعني حجة كافية لوقف الهجوم فتراجع نحو إمارته رافضاً خلعة الولاية على تلك المقاطعات(٢). ولا يبرر المؤرخون هذا الموقف من الأمير أحمد بن ملحم كما يجب، خاصة أن هذا الأمير كان يحمل حقداً كبيراً وقديماً على الشيعة، فلماذا رفض الولاية على بلاد الحماديين؟ يمكن أن يكون الجواب في الأحداث التالية التي أثبتت للأمير المعني أن الباشاوات يحاولون التخلص من الثائرين بضرب بعضهم ببعض، ففضل عدم متابعة تحركه العدائي ضد الحماديين حتى لا يكون هو ذاته الهدف التالي لباشا طرابلس. أو، وهو الاحتمال الأهم، لأن الأمير يعرف من التجارب السابقة أن الحماديين لن يتخلوا عن بلادهم وسيقومون بمهاجمة قواته باستمرار حتى يضطر مرغماً لتركها كما فعل غيره قبل ذلك. ففضل أن يتراجع من المواجهة ويرفض خلع الباشا.

في هذه الأحداث الغامضة يختفي اسم الشيخ سرحان من الذكر عند الذين كتبوا عن تلك المرحلة بما يفهم منه أن هذا الشيخ قد مات في حدود سنة ١٦٨٤ حيث أن الأحداث التي جرت بعد ذلك تنبيء أن الباشا قد استعجل الهجوم على مناطق الحمادية مستغلاً غياب الشيخ القائد سرحان.

هناك رواية أكثر تفصيلاً للأحداث سنة ١٦٨٤ أوردها المعلوف في دواني القطوف

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٥

(٢) المصدر السابق.

يقول فيها: «... ولما هاجم الحماديون عشقوت سنة ١٦٨٤ م وقتلوا من سكانها أحد عشر رجلاً.... ولما تولى الأمير أحمد المعني مقاطعات الحماديين في تلك السنة (١٦٨٤) قصاصاً لهم توجه إلى غزير بشأن حادثة عشقوت ومعه خمسة آلاف مقاتل وأرسل رجالاً من الخازنيين (آل الخازن) والحبيشيين (آل حبيش) فدهموهم في جبة المنيطرة ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق إيليج ولاسا وأفقة والمغيرة وميفوق وقطع الأشجار. ولولا شفاعة بعض خواصه لما عفا عنهم. وبقيت الوقائع بين الكسروانيين والحماديين تتوالى حتى سنة ١٦٩١ فقتلوا منهم أبا موسى ابن زعرور في وطا الجوز وذلك في ٢٨ أيلول (١٦٩١) وكان هذا يعتدي برجاله على المارة...»[١].

لا يمكن الركون إلى ما كتبه المعلوف، ففي بعض المسائل يتحدث عن الوقائع بشكل خيالي محاولاً إيجاد تاريخ مجيدٍ لعائلته (وفروعها) حيث لا تاريخ ولا أمجاد، فيتصور الأمور ويقلب الوقائع ويبالغ في بعض الأوصاف مع إظهاره حقداً غير مبرر على الشيعة في الشمال وجبل عامل والبقاع. وكثيراً ما صرح دون مواربة عن حقده هذا وعن تمنياته بهزيمة المتاولة وتشتت شملهم وفنائهم دون أن يصل إلى شيء من أحلامه. لقد قفز بالأحداث متجاوزاً سبع سنوات على الأقل (١٦٨٤ ـ ١٦٩١) دون أن يذكر كيفية تصرف الأعمال في بلاد الحمادية في هذه الفترة.

٦ - الحمادية بعد الشيخ سرحان

استمر الصراع بين الحماديين المتمردين وبين جيش الولاية فهاجم الحماديون سنة ١٦٨٦ مناطق الشمال التي سلبت منهم وقتلوا شيخ قرية حردين وشيخ قرية الضنية وهما من اتباع والي طرابلس علي باشا الكبرلي، فأسرع الباشا وأغار على قرى تابعة للحماديين وأخذ اثني عشر رجلاً من أتباعهم وأعدمهم برفعهم على الخازوق (وهي طريقة عثمانية مبتكرة لمعاقبة الثائرين). وكان الباشا قد هدد آل حرفوش في بعلبك ففر زعيمهم الأمير شديد الحرفوش إلى الحمادية مستغيثاً بهم فاستقبلوه في تحد للباشا الذي «زحف على العاقورة فأحرقها وأحرق أربعين قرية من مقاطعاتهم وقطع أشجارها وهدم حارة

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ١٨٤ - ١٨٥

الشيخ حسين (وهو ابن سرحان الحمادة) في ايليج وقبر الأمير عمر في طورزيا. ولما كان العسكر نازلاً عند عين الباطية دهمته الحمادية ليلاً وقتلوا منه خمسة وأربعين رجلاً وغنموا أسلابهم. فانحدر الباشا إلى جبيل ونكبها ثم قفل راجعاً إلى طرابلس. ولما انتشر خبر رجوعه انحدر حزب الحمادية فأحرقوا قلعة جبيل ونهبوا ما وجدوه في المدينة»[١].

أدرك الباشا ورجال السلطنة عجزهم عن مواصلة الحرب ضد الشيعة في الشمال التي تنهك قوتهم وتخرب مناطقهم التي تجبي الباشوية منها التزاماتها. فبدأوا يرسلون المفاوضين لاصلاح الأحوال. وبعد أخذ ورد جرى الصلح بشروط عادية لكنها تحمل اعتراف الباشا بسلطة الحمادية على مقاطعاتهم التاريخية في جبيل والبترون والضنية والكورة فأصدر والي طرابلس محمد باشا الذي حكم الولاية بعد علي باشا الكبرلي سنة ١٦٩١ أمراً سلّم بموجبه «الشيخ حسين بن سرحال (سرحان) بلاد جبيل والبترون وابنه الشيخ اسماعيل الكورة والحاج موسى حمد الجبة وأولاد حسن ذيب الضنية»[٢]. فتصرف الحماديون بهذه المناطق بسلطة تامة وانتقموا من بعض مخالفيهم فقتلوا يوحنا الأسود في الكورة و نهبوا العاقورة وأغلال الكسروانيين من مينا جبيل»[٣].

ولم تلبث السلطنة أن عزلت محمد باشا عن طرابلس وتعيّن مكانه علي باشا اللقيس سنة ١٦٩٢ وكان محمد باشا يستعد قبل عزله للانتقام من الحماديين فكتب إلى الباشا الجديد أن لا يتأخر في محاربتهم وأن «ينهض على الحمادية ويرسل له منهم ثلاثة عشر رأساً وصرّفه في بلاد بعلبك فكتب علي باشا إلى الأمير أحمد المعني يستنجده على قتال الحمادية وقدمت إليه الخوازنة بألف راجل إلى جبيل. فلما شعرت الحمادية بخطورة الموقف انهزموا إلى بلاد بعلبك عن طريق العاقورة. فجدّت الرجال في طلبهم فهلك من الحمادية بالثلج مائة وخمسين نفساً. ولما وصلوا إلى قرية كفردان التمست الخوازنة من الباشا أن يكف العساكر عنهم فكفّها. ثم استأذنوا منه الرجوع فرجعوا. فأحرق الباشا قرية نيحا ونهب ثلاثة عشر ألفاً من معزاهم وسلّم بلاد جبيل لحسن آغا النوري.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٥.

(٣) المصدر السابق.

وفي رواية المعلوف تفاصيل أكثر عن هذه الحوادث حيث يورد أن علي باشا اللقيس قد عين قبل بدء هجومه على الحمادية مجموعة من الولاة والملتزمين في مقاطعات الحمادية بما يعني أن الحرب ستكون شاملة وحاسمة. يقول المعلوف: «وهكذا كثرت الفتن فإن علياً باشا اللقيس والي طرابلس الذي خلف محمد باشا سنة ١٦٩٢ كتب إلى سلفه هذا لحنقه من الحمادية الذين عبثوا بالراحة مدة ملكه أن يوقع بهم. فعزلهم بعد أن كان قد أقرهم على إقطاعهم وولى هزيم آغا دندش على عكار والهرمل وحسين آغا الحسامي على جبيل والمقدم قايدبيه ابن الشاعر على البترون والشيخ مخايل بن نحلوس الأهدني ابن اخت أبي كرم على الزاوية وجبة بشري والشيخ أبو فاضل رعد على الضنية. واتفق مع الأمير أحمد المعني على قتال الحمادية. وكان الخوازنة ورجال كسروان نحو ألف رجل. فانهزم الحمادية على طريق العاقورة إلى بلاد بعلبك فأهلك منهم الثلج نحو مائة وخمسين رجلاً ووصلوا إلى كفردان (وقيل الفرزل) حيث تنتهي إيالة طرابلس الشام لم يشأوا أن يتخطوها إلى ولاية بعلبك فأحرق علي باشا نيحة ونهب معزى الحمادية وسلّم بلاد بعلبك إلى أحمد آغا الكردي وجبيل إلى حسين آغا النوري ورجع عن بعلبك إلى إيالته[1].

وقد توسع المؤرخ يوسف الدبس في ذكر هذه الحوادث فقال: «... إن المشايخ آل حمادة المتاولة تولوا مرات بلاد جبيل والبترون وجبة بشري وعزلوا أو طردوا من هذه الولاية إلا أنه في أواخر القرن السابع عشر أي في سنة ١٦٩١ قرر محمد باشا والي طرابلس المشايخ الحمادية على إقطاعاتهم فتولى الشيخ حسين بن سرحال على بلاد البترون وابنه الشيخ اسماعيل على الكورة، والحاج موسى بن أحمد حمادة على الجبة وأولاد حسن ديب على الضنية. ولكن في سنة ١٦٩٢ غيّر والي طرابلس من كان سالفه قد ولاّهم فنصب في بلاد جبيل حسين آغا بن الحسامي وفي بلاد البترون المقدم قيدبيه ابن الشاعر وفي الزاوية والجبة الشيخ ميخائيل بن نحلوس من اهدن»[2].

الأب يوسف الدبس الباحث في تاريخ الموارنة نقل كثيراً من التصورات التي لا حقيقة

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ١٨٦.

(٢) المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ص ٣٥١-٣٥٢.

لها عن ألسنة أشخاص يقول أنهم نقلوها عن أحد ما دون إثبات. وهو متعصب بطبيعة الحال لطائفته ويكتب ما يراه مناسباً ويهمل أي خبر لا يتماشى مع غرضه. فهو ينقل رواج أغنية شعبية تمدح نحلوس الإهدني بطريقة استفزازية جداً:

يحـرس دينـك يـا نحلـوس   حميـــت الضيعـــة بالدبـوس
جامـــع رشـــعين هدّيتـــه   وفـــي زغرتـــا دقّيـت ناقـوس.

كما ينقل في مكان آخر حول (الأمير) يونس بن ابي رزق البشعلاني وكيف قاوم الباشا الذي أراد أن يكرهه على اعتناق الإسلام حتى قتله على الخازوق في قصة تشبه قصص الكنيسة التي كانت تروج في العهد الأندلسي. وكأن الدول الإسلامية كانت تفرض الإسلام بالسلاح وعلى أشخاص بذواتهم. قصة يونس البشعلاني تختصر في محاسبة الباشا له بعد اتهامه باختلاس أموال الباشوية وقد أعدم بهذه التهمة تماماً كما أعدم في نفس الزمن في دمشق وفي عكا عدد من المسلمين بنفس التهم ولم يتحولوا إلى قديسين ولم ير أحد هالة من النور حول أجسادهم.

بالعودة إلى تعيين رجال من أنصار الباشا ومن أعداء الحماديين في المقاطعات التي اعتاد الحماديون التزامها منذ قرنين على الأقل فقد كان ذلك إعلاناً لحرب من الباشا على الحماديين وعشائرهم.لقد اعتاد الحماديون طيلة القرنين السابقين على مثل هذه المعارك والغزوات. لذلك لم تكن الأحداث لتنتهي كما يشاء الباشا المتغطرس الذي ما ان ابتعد عن بعلبك حتى قام واليه الجديد أحمد آغا الكردي باعتقال الشيخ ياغي حمية (المتوالي) وابنه حيدر. كما قتل من أقربائه سبعة عشر رجلاً لأنهم «مالأوا الحماديين» وأرسل الشيخ ياغي وابنه حيدر إلى علي باشا فقتلهما على مخاضة نهر رشعين[١].

ثم أرسل الباشا أناساً لاهلاك الحمادية فقبضوا على الشيخ حسين سرحال (وهو زعيم الحمادية بعد أبيه سرحان) وحسن ذيب وسبعة من أرفاقهم فقتلوهم»[٢]. عدد هؤلاء الحماديين القتلى هو تسعة فقط والباشا كان يريد ثلاثة عشر رأساً حتى يشتفي

---

(١) المعلوف ، دواني القطوف ص ١٨٦.
(٢) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٩٩

حقده عليهم، ففاتوه إلى بعلبك. بدأ الباشا يتصرف بمنطق المنتصر وعين على بلاد البترون المقدم قايدبيه بن الشاعر كما عين على بلاد جبيل الأمير حسين ابن الأمير صعب الكردي، ففر من تبقى من آل حمادة إلى بتاتر. واعتبر علي باشا المعركة قد انتهت كما يشتهي فترك طرابلس متوجهاً إلى اسطنبول حيث أصبح وزيراً للصدارة العظمى(١) ليحل محله أرسلان باشا المطرجي.

إن الخبر عن مقتل الشيخ حسين بن سرحان الحمادة يبدو عادياً عند الشدياق وعند المصدر الذي نقل عنه. يمكن فهم القضية من زاوية مختلفة وهي غدر الباشا بجماعة من شيوخ الحمادية الذين ما إن تمكن منهم حتى أمر بقتلهم دون أن يحسب حساباً لما سيجري بعد ذلك. لقد فتح مقتل الشيخ حسين باباً للثورة المتواصلة طيلة العقود الثلاثة التالية بعد اختيار ابنه اسماعيل بن حسين شيخاً للحمادية الذي قدر له أن يكون صاحب القرار في الثأر لغدر الباشا.

٧ - معركة عيون قبعل

كان انتصار الباشا مؤقتاً وما خسره الحماديون كان كبيراً لكنه لم ينه وجودهم ولم يضعف قوتهم، إذ سرعان ما بدأوا يجمعون قواهم استعداداً للثأر بقيادة شيخهم المتحمس اسماعيل بن حسين الحمادة. وقد أدرك ولاة الدولة العثمانية في طرابلس وصيدا ذلك فبدأوا يستعدون لمواجهة مقبلة. وأرسل عثمان باشا رسولاً من حلب إلى الأمير (أحمد بن ملحم المعني) يعرض عليه ولاية مقاطعات الحمادية وأنه يمنع أذاهم (أي مقابل منع أذاهم) عن إيالة طرابلس فلم يقبل. فولى الوزير على تلك المقاطعات واليين من غير الحمادية ففر بنو حمادة. فتوجه أولاد الشيخ حسين (آل حمادة) إلى بتاتر واختبأ الباقون في بلادهم. فأرسل أرسلان باشا مدبره بعسكر للفحص عنهم في تلك الديار فعاثوا فيها. وسار على طريق الجرد، وأمر الأكراد ومقدمي بني الشاعر أن يتوجهوا على ساحل جبيل فلما وصلوا إلى عيون قبعل في الفتوح نزلوا هناك للمبيت. ولما بلغ أولاد الشيخ حسين (الحمادة) ذلك جمعوا مايتين رجلاً من مقاطعة الجرد ودهموا المدبر والعسكر ليلاً

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٦

فقتلوا منه نحو أربعين رجلاً منهم الأمير موسى الكردي وأولاد عمه يونس محافظ قلعة جبيل والأمير أحمد قلاون والأمير عبد الخالق وابن الأمير موسى علم الدين ومن بني الشاعر المقدم منصور وابن أخيه مصطفى بن قيدبيه. وما زالوا يطردونهم حتى وصلوا إلى نهر ابراهيم في عين قبعل في الفتوح. فهزم الحماديون عسكر الولاية وقتلوا منه أربعة من أمراء الأكراد النحاشية وابن الأمير موسى اليمني واثنين من بني الشاعر المقدمين ومعهم ثلاثة وثلاثون رجلاً. فقدم أرسلان باشا الشكوى للسلطان أحمد بأن الأمير أحمد المعني وجه جيشاً فأهلك عسكره فأصدر السلطان أمراً إلى اسماعيل باشا والي دمشق ومصطفى باشا والي صيدا وأحمد باشا والي غزة ودرسن باشا والي حلب أن ينهضوا مع أرسلان باشا على الأمير أحمد المعني ويعطوا الأمير موسى اليمني ما كان بيده من المقاطعات وهي الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وأقليم جزين وأقليم الخروب فنهض أرسلان باشا واجتمع إليه المأمورون المذكورون[1].

إن معركة عيون قبعل لم تكن معركة صغيرة، ولم تحدث بالصدفة، وما يذكره الشدياق في حديثه عن هذه الوقعة فيه كثير من التعمية وابتعاد عن الواقع. ويكفي تكرار الكلمة التي احتج بها أرسلان باشا في شكواه حول (هلاك عسكره) حتى يظهر حجم الكارثة التي حلت بجيش ولاية طرابلس. كما أن كثرة أسماء الأمراء والقادة والمقدمين الذين قتلوا في المعركة تثبت أنها كانت معركة ثأر كبرى لدم الأمير حسين بن سرحان الحمادة وابن عمه حسن بن ذيب الحمادة.

يمكن تصور الحدث بأنه مخطط محسوب بدقة. فالحماديون الذين كانوا يفضلون خوض المعارك بعيداً عن قراهم التي غالباً ما تتعرض للحرق في أعقاب كل معركة، قد بدأوا يرصدون حركة العدو منذ خرجت الجيوش من طرابلس، وقد جمع الحماديون رجالهم وأنصارهم، وهذا يعني تشكيل جيش من الشيعة وليس مجرد عصابة صغيرة تغير ثم تفر. لقد تمكن الحماديون من استدراج العدو إلى عيون قبعل حتى إذا ما اطمأن جنوده وجلسوا ليرتاحوا، دهمتهم فرسان الحمادية فقضت في معركة واحدة على عدد كبير من

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٩٩.

رجال العدو وشتت ذلك الجيش حتى وصف بازيلي ذلك بأن «المتاولة قد حطّموا جيش الباشا»[١]. ولما لم يكن مقبولاً في عقول العثمانيين أن يهزموا أمام جماعة شيعية محاصرة في بلاد صغيرة فقد وجدوا في اتهام الأمير الدرزي ما يخفف عن أنفسهم وقع الهزيمة.

كانت نتيجة المعركة عودة الحماديين إلى حكم مقاطعاتهم وقد أدركوا عجز الدولة العثمانية عن محاربتهم، كما أدرك الباشاوات ذلك، فاستقل الحماديون في مناطق حكمهم وتوقفوا عن دفع الميرة والضرائب التي كانت الدولة تجبيها من المقاطعات.

يذكر المؤرخ يوسف الدبس المتحمس جداً لتولي بعض وجهاء مقاطعة الجبة ما حدث بعد رواج الأغنية «الشعبية» عن نحلوس الإهدني فيقول «أن رجلاً متوالياً يدعى ابن الشقراني قد اغتال الشيخ ابن نحلوس في الضنية وعادت الولاية على الجبة إلى بيت أحمد حمادة فوقعت فتنة بينهم وبين أبناء عمهم الحمادية أتباع الشيخ عبد السلام ابن الشيخ اسماعيل حمادة. «فهزمهم عبد السلام إلى الهرمل سنة ١٧٠٣ وأقام في الجبة نحو أربعين يوماً. وحضر إليه بعض وجوهها خيفة من شرّه وفرّ بعضهم (الوجهاء). وفرض ضريبة على قرى الجبة ومن لم يدفع ما أصابه منها أخذ رجاله طاسات النساء وسلاح الرجال والمؤن. وكتب إلى طرابلس يلتمس الولاية على الجبة فلم يعطها حينئذ»[٢]. ثم فصل المؤرخ باسهاب مناطق حكم وأملاك الحمادية التي حصلوا عليها دون أن يحصلوا على التزام من الباشا بل تحركوا ونفذوا من تلقاء أنفسهم. ودون أن يذكر الأسباب التي أوصلت إلى ذلك، وهل أن الحماديين قد استقطعوا تلك المنطقة بالقوة أم لسبب آخر. لكن الأهم في عرضه هو استمرار أحكام الحمادية في المنطقة المذكورة بشكل متواصل مدة طويلة مما يبرر انقطاع الأخبار عند الشدياق والمعلوف عن ذكر أي أحداث في جبل لبنان حتى سنة ١٧٥١. يقول الدبس: «... وفي سنة ١٧١٥ حكم جبة بشري أولاد أبي محمد عيسى وأولاد عمهم حسين المشطوب مشتركين ثم قسّموا البلاد مناصفة فأخذ حسين من أبي محمد عيسى بشرّي وقنّوبين وقيطو وبزعون، وأسعد ابن أخيه موسى أخذ حصرون وكفرصغاب وبلوزا وتولا وكرمسدي وراسكيفا.

(١) قسطنطين بازيلي أسورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٣٧.

(٢) المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص ٣٥٢.

وأخذ أولاد حسين المشطوب النصف الآخر وكانوا ثلاثة وهم أبو ناصيف وأبو حسين وأبو قاسم فأخذ أبو ناصيف إهدن وحدها، وأبو حسين صالح أخذ عين طورين ومزرعة التفاح وبنشعي وقنات وبرحليون وحماطورا وكفر صارون وبيت زعيتر في بان. وأخذ أخوهما أبو قاسم دير قزحيا وحدشيت وبقاعكفرا. وكان في حكومتهم شيء من العدل والاستقامة واقتنوا أملاكاً سموها بكاليك مزيارا وسبعل وسرعل ووطا الرامات وكفرفو وبان وحوقا وثلث سرعل ودير نهرا والحدث وطرذا وبقرقاشا ونيحا وبنهران ومتريت. على أن أولاد هؤلاء المشايخ لم يسلكوا مسلك آبائهم بل عكفوا على السلب والنهب والجور وحتى القتل»[1].

لقد كانت هذه الفترة الطويلة من شبه الاستقرار في جبل لبنان ناتجة عن قوة شخصية الشيخ اسماعيل الحمادة (ابن حسين بن سرحان) وقدرته على معالجة الأزمات حيث يمكن الاعتراف بأن فترة حكمه أهم فترة في حكم ووجود العشائر الحمادية في جبل لبنان حيث بلغ نفوذهم أوسعه لتبدأ قوتهم بعد ذلك بالانحدار تدريجياً.

٨ - تراجع الوجود الشيعي في جبل لبنان

كانت الظروف الطبيعية والسياسية التي تحيط بوجود السكان في جبل لبنان كما في كل البلاد السورية صعبة وعسيرة وعدد السكان في تناقص مستمر بسبب عسف الدولة العثمانية وانتشار المجاعات والأوبئة. وكانت هذه الظروف التي أحاطت بالحماديين والشيعة عموماً في جبل لبنان تدفع شيوخهم إلى التوقف عن دفع الضرائب للباشا بسبب فقر الناس وعدم القدرة على جباية مال الالتزام. فكان ذلك إيذاناً ببدء حقبة جديدة من الصراع المدمّر في الجبل حيث ظهرت محاولت جادة للقضاء على نفوذ الحماديين السياسي والعسكري مما مهد الطريق لاستئصال وجودهم كجماعة مذهبية.

في نفس الفترة شهدت إمارة جبل الدروز تحولاً خطيراً مشابهاً في نتائجه على الطائفة الدرزية لما حدث في جبل لبنان على الطائفة الشيعية. ففي سنة ١٦٩٧ تولى إمارة

(١) المصدر السابق.

جبل الدروز الأمير بشير حسين الشهابي الذي شهد وصوله تغييراً جذرياً في واقع جبل الدروز السياسي والاجتماعي. فقد انتقل الحكم فيه من أمير معني درزي إلى أمير شهابي سني. وهذا التحول الخطير قد أدى بالتدريج إلى تغير مذهبي وطائفي في المناطق التي ظلت حتى ذلك الحين ذات أغلبية درزية طاغية. لم يكن يعيش في المقاطعات الأربع (الشوف والجرد والمتن والغرب) إلا الدروز مع قلة قليلة من المسيحيين الذين توطنوا في المنطقة وعملوا في خدمة أمراء المعنيين، وكذلك وجدت أقلية سنية وشيعية في أقليم الخروب. وبعد أن انتقل الحكم إلى أمير سني تكاثر وجود السنة ثم المسيحيين. وكان الميزان يتحول باستمرار لغير مصلحة الدروز الذين أصبحوا بعد نصف قرن من ذلك أقلية في جبلهم لا يعدون إلا أقل من ربع عدد الموارنة خاصة بعد أن أخذ عدد من الأمراء الشهابيين بالتنصر مع عدد من أمراء اللمعيين الدروز. لكن الإمارة ظلت تعرف بالإمارة «الدرزية». لقد توسعت الإمارة (الدرزية) لتشمل سبع مقاطعات وهي الشوف والجرد والعرقوب والمتن والغرب وكسروان وأقليم جزين. كما تمتع الأمير الشهابي السني بعطف الباشا وأصبح حصوله على التزام بعض المقاطعات خارج حدود جبل الدروز أمراً ممكناً وطبيعياً ومرغوباً فيه من الباشاوات.

عندما أصبح الأمير بشير حسين الشهابي أميراً على جبل الدروز سنة ١٦٩٧ كان أرسلان باشا والي طرابلس قد هيأ جيشاً لمحاربة الحمادية الذين توقفوا عن دفع الإتاوة التي تجبيها الدولة العثمانية. وتحرك جيشه في السنة التالية باتجاه قرى الحماديين غازياً ومنتقماً. يقول الشدياق: «... في سنة ١٦٩٨ أرسل أرسلان باشا والي طرابلس عسكراً لقتال الحمادية لتوقفهم عن أداء المال الأميري فقبض العسكر على بعضهم بغتة وأحضرهم إلى طرابلوس وسجنهم»[1]. ويرسم الشدياق نتائج تلك الغزوة العثمانية على هواه فيقول بأن شيوخ الحماديين قد هربوا نحو جبل الدروز: «...ففر زعماؤهم إلى الأمير بشير يستغيثون به. فأغاثهم وأرسل إلى الباشا يلتمس منه إطلاق المأسورين منهم وكفل له المال الباقي عليهم والمال الذي ترتب عليهم لأجل «ذنبهم» فبلغ مائتين وخمسين ألف غرش. فأطلقهم الباشا وأبقاهم حسب عوايدهم

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٩.

وفوّض توليتهم للأمير بشير فولاّهم وأرسل يستورد المال منهم فأدّوه فدفعه الأمير للباشا[1].

الرواية التي نقلها الشدياق خيالية في توصيفها وفي نتائجها لأنها تعطي صورة عن قوة وبأس الأمير بشير حسين الشهابي الذي كان قد تولى قبل مدة وجيزة مقاليد الإمارة في جبل الدروز خلفاً للأمير أحمد بن ملحم المعني. ويبدو من النص أن الرواة أرادوا أن يعطوا صورة للأمير الشهابي تثبت قوة ومنعة وقدرة على التصرف أكثر من الولاة أنفسهم. وفي ثنايا النص الكثير من الاعتباطية فكلمة «استغاثة» تعني ضعف المستغيث وجبروت المغيث. وهي أمور لم يكن يحلم بامتلاكها أمير صغير في جبل الدروز. فصوّرَه الخبر وكأنه يملك رقبة الباشا، يأمره فيلبي بالسمع والطاعة. ثم يحل المشكلات على طريقة المسامحة بعد المصالحة، وهذا تزييف للواقع التاريخي. المهم أن نهاية الخبر يثبت أن مصالحة ما تمت بين الباشا والحماديين تنص على دفع قسم من المال الأميري المترتب على مقاطعات الحمادية مقابل استمرارهم في حكم تلك المقاطعات.

بعد سنة ١٦٩٨ يتوقف الشدياق عن إيراد أي ذكر للحماديين حتى سنة ١٧٥٩ أي مدة تزيد على ستين سنة وكأن الأحداث في جبل لبنان قد توقفت عند نقطة ما دون تحول. في طول هذه المدة شهد جبل لبنان تحولاً سكانياً خطيراً، فقد تزايد الوجود المسيحي بشكل مستمر بينما شهد الوجود الشيعي تراجعاً خطيراً لم يكن من الممكن وقفه لتعدد أسبابه القاهرة. حتى شهد منتصف القرن الثامن عشر نهاية السيطرة الشيعية البشرية والحكومية.

يمكن إيراد الكثير من الأسباب لتراجع الوجود الشيعي في جبل لبنان. لقد ذكر عدد من المؤرخين الشيعة أن ما حصل من تناقص في عدد السكان وبالتالي التحول في الوجود البشري مردّه إلى غطرسة الباشا والعدوانية التي كان يواجه بها المتمردين الحماديين. ولو جرى تحليل الأحداث بحيادية ودون تحيز لتبين أن الفترة الوحيدة التي شهدت استقراراً نسبياً (١٦٩٢-١٧٥٩) هي نفسها الفترة التي شهدت تناقص عدد السكان الشيعة في جبيل والبترون وسائر مقاطعات جبل لبنان. في حين كانت جماعات

(١) المصدر السابق.

من المسيحيين الموارنة تزحف باستمرار باتجاه تلك المناطق لتملأ الفراغ الذي نتج عن أسباب غير عسكرية. في هذه الفترة لم تمر سنة دون أن يحدث انتشار للطاعون وغيره من الأوبئة في المنطقة برمتها كما انتشرت أسراب الجراد ففتكت بكل شيء أخضر، ثم جاءت المجاعات التي تعقب انتشار الجراد. فقضت هذه العوامل مجتمعة على أعداد وافرة من السكان. كانت الهجرة إلى هذه المناطق هي الوسيلة الوحيدة لتعويض الخسائر البشرية. وهذا ما فعله المسيحيون القادمون من مناطق سورية الداخلية أو مناطق حوران التي شهدت فترات من القحط فاستقر كثير منهم في جبل لبنان، بينما لم تشهد المنطقة أي انتقال لمهاجرين شيعة. السبب الواضح هو أن مناطق الشيعة في المنطقة (الشام) قد وقعت تحت نفس الظروف فكان التعويض عن الخسائر أمراً مستحيلاً. على أن الظروف ذاتها قد وقعت للدروز في جبال الشوف وقل عدد سكان المقاطعات الدرزية بشكل كبير مما اضطر الاقطاعيين للاستعانة بفلاحين مسيحيين ليعمروا الارض ويؤمنوا استمرار الجباية فاختل الميزان البشري لصالح المسيحيين كذلك.

٩ - نهاية حكم الحماديين في جبل لبنان

عند الحديث عن نهاية حكم آل حمادة في جبل لبنان لا يعني ذلك نهاية لوجودهم البشري، رغم وقوع ذلك في بعض المناطق، ولكن المقصود هي نهاية إلتزامهم أو سيطرتهم على مناطقهم التي حكموها لقرون طويلة.

يقول الشدياق أنه في سنة ١٧٥٩: «... طرد أهل جبة بشرة أولاد الشيخ أحمد (حمادة) فتولى عوضهم عليها المشايخ يوحنا الظاهر وعيسى الخوري في بشرة وجرجس بولس الدويهي في إهدن وأبو سليمان عوّاد في حصرون وأبو يوسف الياس في كفرصغاب وأبو خطار الشدياق في عين طورين وأولادهم من بعدهم إلى الآن (حوالي ١٨٧٠). فأتى أولاد الشيخ أحمد إلى بلاد جبيل فضبط الأمير يوسف الشهابي الوالي جميع أرزاقهم. وسنة ١٧٦١ توجهت الحمادية بألفي مقاتل إلى الجبة فالتقاهم أهلها إلى بشرة وقاتلوهم ثماني ساعات فكسروهم وقتلوا منهم إثني عشر رجلاً وقتل من بشرة ثلاثة أنفار. وسنة ١٧٦٢ دهمت المتاولة بقرقاشا ونهبوها ثم هربوا. وسنة ١٧٦٤ اختلفت الحمادية

ومشايخ القرى فأرسلهم الوزير إلى الأمير منصور الشهابي الوالي فتعاطى أمر الصلح بينهم فأبوا. وسنة ١٧٧٠ قبض الأمير يوسف الشهابي الوالي على بعض الحمادية فالتجأ أقاربهم إلى وزير طرابلوس فأمدهم بعسكر فأتوا بزيزا فسار إليهم الأمير برجاله وانتشب القتال بينه وبينهم في أميون فانكسروا. وحصر فرقة منهم في برج أسفل القرية وقتل منهم جماعة ثم سلموا»[١].

ويذكر يوسف الدبس هذه الأحداث مع بعض التبريرات فيقول: «ومن سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٩ سلبوا (الحمادية) راحة الأهلين ونكّدوا عيشهم وقتلوا كثيرين. وكان حينئذ من مشايخ القرى المشهورين الشيخ جرجس بولس من إهدن والشيخ عيسى الخوري والشيخ حنا ضاهر كيروز من بشري والشيخ أبو سليمان عوّاد من حصرون والشيخ أبو يوسف الياس من كفرصغاب والشيخ أبو خطار من عين طورين والشيخ أبو ضاهر من حدشيت. فائتمر المشايخ المتاولة على قتلهم. فقتلوا منهم الشيخ أبا ضاهر من حدشيت واغتالوا كثيرين من وجوه الأهلين. وحملتهم الجسارة على أن يرسلوا ليقبضوا على المطران يواكيم يمّين من إهدن فلم يكن أهل الجبة ليطيقوا هذا الجور ولا ليتحمّلوا هذا الذل والعار. فالتقى أهل إهدن رجال المتاولة الآتين للقبض على المطران، وأوقدوا عليهم النار وأشغلوا بهم السيوف وطردوهم وتتبعوا أثرهم إلى درج قنوبين وخيّم الظلام بينهم. وفي النهار التالي غصّت إهدن بالآتين إليها من باقي القرى وقدّس المطران يواكيم بكنيسة القديس جرجس بإهدن وحلف جميعهم يمين الأمانة وعدم الخيانة، وقبضوا على رجل متوالي واشتركوا في قتله جميعاً، وجعلوا مشايخ القرى المار ذكرهم مشايخ لهم وحكّاماً عليهم مكان المشايخ المتاولة. وأبقوا قسمة قرى البلاد كما كانت في أيّام المتاولة. ونزل هؤلاء المشائخ إلى طرابلس وكان واليها حينئذ عثمان باشا الكرجي فالتزموا أي استأجروا منه قرى بلادهم ودفعوا المال المرتب عليها وكان ذلك سنة ١٧٥٩[٢].

إن هذه الأحداث التي يرويها يوسف الدبس تصور دون مبالغة حقيقة الإنقلاب الذي

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٧.

(٢) المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ٣٥٣.

حصل في مناطق الجبّة وما حولها في سنة ١٧٥٩. ما يبالغ فيه هو قضية التعدي وقضية المطران يواكيم يمّين. فقرون من التعامل بين المسيحيين والشيعة في جبل لبنان كما في باقي مناطق سورية لم تشهد أي تصرف شيعي يثبت عداءاً للمسيحيين بسبب دينهم أو عقيدتهم، لا بل كان كثير من الأديرة والكنائس قد جرى بناؤها في جبل لبنان على نفقة أو بمساعدة الشيعة. ما حدث حقيقة يمكن تفسيره بأنه تشجيع من الباشا في طرابلس على حدوث تمرد دموي لا تظهر الباشاوية أنها سببٌ فيه. لذلك قام حلفاء أو عملاء الباشا في الجبة بقتل رجل برىء فقط لأنه شيعي. ولو كان الأب يوسف الدبس يريد أن يثبت أنه مسيحي حقيقي او أن الجماعة الذين اجتمعوا في إهدن مسيحيون حقيقيون لكان اعتذر عن سفك دم برىء لا تقره تعاليم الكنيسة. ولكن النزوات التعصبية تجد دائماً المبررات لارتكاب المعصية تماماً كما وجد الصليبيون تبريراً لمذابح ضد الأبرياء أثناء غزوهم الأراضي المقدسة. لقد أكّد يوسف الدبس في روايته أن مشايخ القرى قد استأجروا قراهم من الباشا بمعنى أنه أصبح هو نفسه ملتزم نواحيهم ومقاطعاتهم لاغياً ذلك الإلتزام القديم.

من الطبيعي أن لا يتقبّل الحماديون هذا التصرف من الباشا بعد نصف قرن من الهدوء، لذلك انتفضوا لاستعادة حقوقهم. المشكلة في هذه الحالة هي أن الحماديين لم يستطيعوا أن يحشدوا من المقاتلين إلا حوالي ألفين. وقد أتوا بهم من منطقة بعلبك وليس من الجبل، وهذا يثبت حجم الكارثة التي حلت بأهل الجبل من الشيعة حيث أن التناقص الكبير في عدد السكان قد أفرغ المنطقة من وجود الشيعة حيث لم يبق ما يكفي من الرجال لتجنيد جيش صغير يحارب بعض أهالي لقرى المتمردة. يقول الدبس متابعاً أحداث ما بعد ١٧٥٩: «وأقام مشايخ القرى ثلاثة بكباشية (مسؤلين) من البلاد وهم بشارة كرم من إهدن وأبو ضاهر الفرز من بشري وأبو الياس العفريت من حصرون. وعيّنوا رجالاً من البلاد للمحافظة. وكان عثمان باشا والي طرابلس يشجّعهم ويمدهم بالمساعدات لكثرة ما كان المتاولة يقدمون عليه من التعديات في الزاوية وحدود طرابلس. وكان المشايخ يلتزمون قراهم منه ولذلك كانوا يسمونهم ملتزمي جبة بشري. وسنة ١٧٦١ هاجم المتاولة قرية بشري آتين من بعلبك إذ كان بعض المشايخ والأهلين في الساحل، فدخلوها وقتلوا منها

أبا ضاهر الفرز البكباشي، وجبور أصيلة، وأبا أنطونيوس سكر، وأبا رزق جعجع، وجبور رحمة. ونهبوا القرية ثم رجع المتاولة ثانية من بلاد بعلبك وبلاد جبيل بنحو ألفي رجل فالتقاهم مشايخ الجبة في أرض بشري وانتشب القتال بين الفريقين نحو ثماني ساعات ودارت الدوائر على المتاولة فانذعروا وقتل منهم أثنا عشر قتيلاً»[١].

هذه الرواية لا تبدو مستقيمة مع توصيف الراوي للأحداث. إن دوران الدوائر يعني الفناء أو شبه الفناء ولا يعني وقوع إثني عشر قتيلاً دون أن يذكر نهاية الحملة الشيعية وهل تفرق رجالها أم عادوا بسلام إلى قراهم؟ الحقيقة التي لم يشأ االراوي الاعتراف بها هي أن المعركة انتهت بهزيمة أتباع الباشا من مشايخ القرى المتمردة، فشكّل الباشا حملة عسكرية وزحف بها من طرابلس للثأر من المتاولة كما يذكر يوسف الدبس نفسه حيث يقول: «وفي سنة ١٧٦٣ سيّر عليهم والي طرابلس محمد باشا ابن عثمان باشا المذكور عسكراً إلى جبة المنيطرة وقسمه إلى قسمين: أرسل فريقاً على طريق الجبل وكان معهم بشارة بن كرم البكباشي المذكور ورجاله، وفريقاً على طريق الساحل وكان معهم الشيخ ضاهر حاكم الزاوية ويوسف الشمر من كفرحاتا. فعسكر الجبل شتّت المتاولة فهرب بعضهم إلى ناحية بعلبك وفرّ بعضهم في وادي الميحال نحو الساحل، فالتقاهم العسكر الآتي من الساحل فنكل بهم وأحرق مزارعهم التي كانت بساحل جبيل. ولكن بينما كان بشارة كرم عائداً مع رجاله تحت المغيرة كمن له بعض المتاولة فقتلوه وستة من رجاله[٢].

هكذا بدأت الحملات الأخيرة للقضاء على وجود الشيعة في جبل لبنان بتحالف تم بين مسيحيي جبل لبنان وباشا طرابلس. ثم لم يلبث ان انضم إلى الحلف الأمير يوسف الشهابي أمير جبل الدروز خصوصاً بعد أن تحوّل إلى المسيحية. فأثبت عداءً للشيعة فاق ما أثبتته الدولة العثمانية عبر جلاوزتها. كما أظهر حقداً هائلاً عليهم وحاول القضاء على وجود الشيعة في أي مكان يمكنه الوصول إليه.

وحتى تكون حجة الوجود الشهابي حقيقية في الصراع في جبل لبنان أورد المؤرخ

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤.

يوسف الدبس خبراً ساذجاً ليربط الأحداث فقال: «... وفي سنة ١٧٦٤ توجّه مشايخ الجبة إلى الأمير منصور الشهابي فولاّهم على بلادهم وأمّدهم أيضاً بمحافظين لردع المتاولة عن التعدي. فلم يكن ذلك كافياً لكبتهم عن إقلاق أهل البلاد»[1]. وهذا الخبر يوحي أن الأمير منصور الشهابي كان يعين ويعزل من يشاء في جبل لبنان، بينما الحقيقة هي أن الأمير منصور ذاته كان معيناً على مقاطعات جبل الدروز من قبل باشا صيدا، وكان يعزل في أي وقت يرغب الباشا ويستبدل دون أن يكون له القوة على منع ذلك. فأراد يوسف الدبس أن يثبت وحدة جبل لبنان مع جبل الدروز لتصبح المنطقة بلداً واحداً كما حدث في عهد المتصرفية، وقد كتب مثله معظم مؤرخي المتصرفية.

لقد بدأت الحملة الأخيرة على الوجود الشيعي في جبل لبنان مع تسلم الأمير يوسف الشهابي إمارة جبل الدروز فكان لوجهاء القرى في جبة بشري وبعض قرى البترون بالتحالف مع باشا طرابلس دور في الهجوم على الشيعة في مناطقهم. بينما قاد الأمير يوسف الشهابي ومن تأشب إليه من الحاقدين في إمارته وما حولها الهجوم على بلاد جبيل. وهكذا وجد الحماديون وعشائرهم المتبقية في جبل لبنان أنفسهم عاجزين عن صد هذه الهجمة فبدأوا ينسلون من جبل لبنان إلى الجرود والجبال الداخلية ليحتموا بها، فقل وجودهم في جبل لبنان وتقلص عديدهم. وأما أملاكهم التي كانت في بلادهم فقد استولى عليها مشايخ القرى بوضع اليد وتحولت «البكاليك» إلى أملاك لزعماء الإقطاعات الحديثي النعمة في جبيل وكسروان والجبة.

إن الصراع المستمر والمستميت بين رجال الدولة العثمانية من أمراء وباشاوات قد استفحل بشكل أكثر قسوة ودموية بعدما تولى الأمير يوسف الشهابي حكم جبل الدروز. قد يكون لذلك أسباب مختلفة بعضها إقتصادي وبعضها إجتماعي يتعلق بحكم الأمراء ورغبتهم في إثبات وجودهم بين أتباعهم، وقد يكون لذلك أسباب طائفية وهو إحتمال قائم، خاصة وأن بعض المؤرخين لا يكتب من التاريخ سوى الحكايات الطائفية بما تحمل من أحقاد ساذجة. فالمعلوف مثلاً يذكر أن الخلافات التي وقعت بين الأمير

(١) المصدر السابق.

منصور الشهابي قبل سنة ١٧٧٠ والأمير يوسف قد أدت إلى انقسام بين مشايخ الإمارة «فاشتد الخلاف بين الأميرين الحاكمين (أحمد ومنصور ابني حيدر الشهابي) وبين عمهم الأمير يوسف وتشاق الأعيان وانحاز إلى كل من طالبي الحكم فريق ولكن الأمير يوسف فاز نظراً لمحبة الناس له وكان يود الشيخ علي جنبلاط والشيخ كليب أبا نكد، فنال المعلوفيون (آل معلوف أسرة الكاتب) لديه منزلة سامية ولا سيما لأنه رآهم يناوؤن الشيعيين (المتاولة) الذين كان يقصد خضد شوكتهم وتفريق كلمتهم وتمزيق شملهم بعد أن عاثوا في بلاده وأقلقوا راحة السكان[1]. وهذه الكلمات المليئة بالأحقاد والضغائن ما كانت لتكتب إلا لتأكيد السعي الممنهج لتغيير الواقع السكاني في جبل لبنان عن طريق استيعاب جماعات من النازحين المسيحيين من المناطق السورية كافة باتجاه جبل لبنان. وكانت غالبية السكان حتى سنة ١٧٥٥ في جبل لبنان من الشيعة. وإذا كان السكان من الشيعة فإن مناوأة «المتاولة» للسكان تعني مناوءتهم أنفسهم، وإقلاقهم راحة الأهالي يعني إقلاق راحة أهلهم. ما يقوله المعلوف من أن المتاولة «كانوا يقلقون راحة السكان» يقصد بلا شك تصوير الوجود المسيحي في جبل لبنان على أنه كان موجوداً وأنه لا زال مستمراً إلى أيام كتابته لتاريخه. فيعطي صورة مقلوبة عن الواقع التاريخي لجبل لبنان. لقد وقعت في جبل لبنان أثناء حكم الحماديين (١٦٩٢ ـ ١٧٥٩) عدة كوارث طبيعية كان من أسوأها الطاعون الذي ضرب المنطقة سنة ١٧٥٥ والذي أدى إلى نقص كبير في عدد السكان استغله نازحون مسيحيون قادمون من مناطق سورية مختلفة إلى جبل لبنان فشكل ذلك انقلاباً في الوضع السكاني الطائفي. وفي نفس الفترة تنصر الامير يوسف الشهابي وتلقى دعماً غير محدود من الكنيسة فتحرك محاولاً الاستيلاء على أوسع مساحة ممكنة من الأرض ونقل ملكيتها للأسر الوافدة إلى جبل لبنان. فحدثت مجموعة الحروب الأخيرة ضد الحماديين والشيعة في جبل لبنان التي لم تنته إلا بعد شنق الأمير يوسف في سجن أحمد باشا الجزّار في عكا بعد أن تعرض لسلسلة من الهزائم المتلاحقة في حروبه الطائفية خصوصاً في مواجهة الشيعة في جبل عامل، انتهت بضعفه وعجزه عن مواصلة مغامراته الطائشة فاعتقل وسجن ثم علق في سجن الجزار دون أن يتدخل أحد للشفاعة فيه.

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٠٦.

أما عن حروبه ضد الشيعة فقد نقلت المصادر التي أرخت لجبل لبنان في عهد المتصرفية أخبار الأمير يوسف بكثير من التعظيم والتكبير بما لا يتماشى مع الواقع. الأمير يوسف في أحسن أحواله كان موظفاً عند باشا صيدا (عكا) يأمره فيلبي ويحركه فيتحرك. وإذا غضب عليه يعزله أو يسجنه وقد فعل الجزار ذلك أكثر من مرة. ثم استدعاه وسجنه قبل أن يحكم بإعدامه. فإذا وُجد من يكتب أن الأمير يوسف حارب أو أمر أو عيّن أو عزل ، فكل ذلك هو نوع من تصوير الأمور بغير واقعها. لقد كتب مؤرخو المتصرفية مادحين أميرهم بطرق مختلفة حتى لتكاد الهزيمة في بعض المصادر تصبح نصراً، بينما يصبح النصر البسيط انتصاراً تاريخياً تكتب عنه الصفحات التي تمجد قادة ورجالاً بأكبر مما هم حقيقة. يروي المعلوف وهو أحد المؤرخين المعجبين بسيرة الأمير يوسف حول أحداث جرت سنة ١٧٦٧ بين الأمير يوسف وشيعة الجبل فيقول أنه: «.... وفي سنة ١٧٦٧ م أخذ الأمير يوسف الشهابي بلاد جبيل من الحماديين المتاولة وطردهم منها وصار يدفع المرتب عليها إلى حاكم طرابلس. فالتجأ الحماديون إلى الأمير حيدر الحرفوش فأرسل معهم أناساً إلى جبة المنيطرة وبلاد جبيل فأخذوا يعيثون فيها. فقام إليهم الأمير يوسف بعسكره والتقوا في أميون فكسرهم إلى الهرمل ورفع يد الأمير حيدر الحرفوش عن بعلبك لأنه كان قد استولى على دير السيدة في راس بعلبك فهرب رهبانه وعاون الحمادية وولى أخاه الأمير محمداً (الحرفوش) فأرجع هذا الدير وأمّن رهبانه فعادوا إليه بواسطة مخائل ابن الحاج فرح البعلبكي. وحدث بأثناء ذلك الشغب أن متاولة المنيطرة قتلوا في قرية أفقة جبور شديد المعلوف من كفر عقاب وأخذوا أمتعته وماله»[1]. من يقرأ هذا الخبر يظن أن الأمير يوسف هو الآمر الناهي في البلاد وليس مجرد أمير كلّفه والي صيدا بحكم إمارة صغيرة. ومن يقرأ تمام الخبر في العزل والتعيين في بعلبك يحسب أن قوة هذا الأمير غير محدودة. حتى إذا عُرفت النتيجة لتبين أن ما قيل في هذا الموضوع هو من خيال المؤلف. وربما لحماسته للَقول بأن الأمير يوسف الذي يشاع بأنه تحول إلى المسيحية قد أصبح حامي الأديرة في البقاع البعلبكي، بينما كان الشيعة (حسب تصور الكاتب) يعادون المسيحيين وهذا يجافي الحقيقة فالمناطق التي يتحدث عنها

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧.

المؤلف ما كان لينوجد فيها أديرة ولا كنائس ولا حتى سكان من النازحين المسيحيين لولا قبول الشيعة بذلك. أما انتصار الأمير يوسف سنة ١٧٦٧ على المتاولة وملاحقتهم «إلى الهرمل» فلا يبدو مستقيماً مع تتمة الخبر الذي يشير إلى أن «المتاولة في المنيطرة قتلوا...» بما يثبت أنهم كانوا لا يزالون في بلاد جبيل ويقومون بتسيير الأحداث كما يريدون وبقوتهم لا بقوة الباشاوات.

يمكن متابعة الحديث عن الصراع المستميت بين الأمير يوسف والشيعة خاصة الحمادية في الجبل بنفس هذه الطريقة فيذكر الشدياق في أحداث سنة ١٧٧٠ أنه «... سنة ١٧٧٠ قبض الأمير يوسف الشهابي الوالي على بعض الحمادية فالتجأ أقاربهم إلى وزير طرابلوس فأمدهم بعسكر فأتوا إلى بزيزا. فسار إليهم الأمير برجاله وانتشب القتال بينه وبينهم في أميون فانكسروا. وحصر فرقة منهم في برج أسفل القرية وقتل منهم جماعة فسلموا[١]. بينما يذكر المعلوف خبراً آخر في أحداث السنة التالية فيقول: «... وسنة ١٧٧١ اجتمع المشايخ الحماديون على الأمير بشير ابن الأمير حيدر الشهابي الملقب بالسمين عم الأمير يوسف الوالي الذي أقامه حاكماً على بلاد جبيل وكان إذ ذاك في العاقورة واستعرت بينهم نار القتال من مطلع الشمس إلى مغيبها وكان مع الأمير رجال جبة بشراي فدحروا المتاولة الذين قتل منهم ثمانية ومن رجال الأمير ثلاثة. وفي اليوم الثاني جاءتهم نجدة من الجبة فكثر المقاتلون وخشي المتاولة بأسهم فقاموا ليلاً بعيالهم من جبة المنيطرة ووادي علمات حتى دار بعشتار في الكورة فلاقاهم رجال الجبة إلى دير مار جرجس حماطورة وكان الخبر قد نمي إلى الأمير يوسف الشهابي الوالي وهو في بيروت فنهض برجاله إلى جبيل فبلغه أن الحماديين نزحوا من بلادهم فأرسل مدبره الشيخ سعد الخوري ومعه عسكر المغاربة الذين كانوا مع مدبر وزير دمشق فواقعهم في دار بعشتار من الظهر إلى غروب الشمس فقتل من عسكر المغاربة خمسة عشر قتيلاً ومن المتاولة قتيلان ورجع تلك الليلة إلى بزيزا فبات فيها. وأرسل يستقدم أهل الجبة فلباه من كان منهم مخيماً في حماطورة والعاقورة فوصلوا إلى بزيزة نصف الليل. ولما رأى المتاولة كثرة جيش الأمير هربوا من وجوههم إلى الساحل وكانوا نحو ألف نفس

(١) الشدياق أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٩٦.

فلحقهم الشيخ سعد بعسكره في اليوم الثاني وبدأ القتال من هناك إلى قرب أنفه واشتد العراك إلى قرب القلمون فقتل من المتاولة نحو مائة ومن عسكر الشيخ سعد نفران. ثم خرج أهل القلمون وشفعوا بهم عنده فرجع عنهم وانكف عن قتالهم. وذهب المتاولة إلى طرابلس وعاد الشيخ سعد إلى صرود جبيل واستولى عسكره على غنائم كثيرة. وكان الأمير يوسف قد جمع الشوفيين وتقدم إلى قرية أفقا فالتقى بمدبره هناك فعاد إلى دير القمر والمغاربة إلى بيروت. وسميت هذه الموقعة «هوشة العاقورة» والهوشة في اللغة العامية بمعنى المناوشة»[١].

بعد المعارك التي يذكرها المعلوف سنة ١٧٧١ والتي أدت إلى القضاء على الحماديين والشيعة (حسب رأيه) يعود فيذكر أحداثاً جرت عقب ذلك فيقول أنه: «...وقعت منازعة بين محمد باشا والي طرابلس الشام والأمير يوسف الشهابي بسبب قتيل قتله ابن عم الأمير في داريا التي كانت في إقطاع الشيخ اسماعيل (حمادة) في بلاد البترون. فقصد الباشا أن يغرم أهل القرية بديته فلم يقبل الأمير بذلك فاستقدم الباشا الحماديين ليسلمهم ولاية بلاد جبيل وجمع الأمير عسكراً من جميع مقاطعاته وذهب الشيخ سلمان أحمد إلى جبيل ليثير أهلها ضد الأمير يوسف فالتقاه رجاله في كفرعقة من الكورة وقبضوا عليه وعلى من معه وأرسلوه إلى عين الحمام في اللقلوق بصرود كسروان حيث كان الأمير مخيماً بعسكره البالغ عشرة آلاف فلما مثلوا أمامه شنقهم وهجم برجاله إلى مقاطعة طرابلس فالتقى بالتفكجية في أميون وكانوا من رجال الباشا يبلغ عددهم نحو ثلاث مائة أرسلهم بقيادة الحاج عبيد إلى هناك للمحافظة فانتشب بينهم القتال من قبل انبثاق الفجر إلى الساعة الثانية ليلاً وحاصرهم عسكر الأمير في البرج الذي في وسط القرية فقتل منهم كثيراً وضويقوا فطلبوا الأمان فأمنهم ورجع عنهم. فسار إلى طرابلس من بقي منهم حياً وهم قليلون. وفي اليوم الثاني سار الأمير بعسكره إلى أرض الزاوية فوق نهر جوعيت فغصت تلك البلاد بعسكره حتى قرب من نهر البارد في عكار فبعث الباشا يسترضيه فعاد إلى دير القمر منصوراً ونسبت هذه الحادثة إلى التفكجية الذين حاربوا فيها»[٢].

---

(١) المعلوف، دواني القطوف ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٢.

إن مصادر مجمل الأخبار عن الحمادية في القرن الثامن عشر تظل مصادر معادية تبالغ في ذكر الأحداث وتزور بعض النتائج وتنسب لبعض الأمراء أشياء لا علاقة لهم بها. ما حدث من أوبئة ومجاعات لا تعني قوة بأس الأمراء الشهابيين. لقد واصل آل حمادة الدفاع عن وجودهم وممتلكاتهم في بلاد جبيل والبترون والكورة مدة طويلة استغرقت كل القرن الثامن عشر وثلث القرن التاسع عشر وكانوا يتلقون باستمرار هجمات العسكر العثماني في كل عام تقريباً فيما كان عدد السكان الشيعة يتراجع سنوياً بسبب المجاعات والأوبئة، مما دفع كثيرين من الأهالي لترك قراهم ومزارعهم هرباً إلى أماكن أقل تأثراً بالأمراض أو بالمجاعات.

في بعض المصادر وصف لوصول بعض العائلات المسيحية الوافدة إلى المناطق التي كان يسكنها الشيعة حيث أقام المهاجرون الجدد في خرائب «قرى المتاولة» وقاموا بإعادة بنائها. يقول المعلوف حول انتقال بعض الأسر «المعلوفية» إلى جبل لبنان: «.... فنزل بنو المعلوف تحت قلعة الحصن وهي قائمة على صخرة عالية. وكانت إذ ذاك مخفرة لجنود مقدم البترون لأنه كان يفرقهم على هذه القلعة وعلى محلة مار يعقوب تحتها. وكانت قلعة صغيرة وعلى قلعتي سنمار جبيل ومعاد، وقد وقع الخلاف عليهما بين مقدمي البترون وجبيل مع أنهما للأول وذلك لحماية وادي تنورين وقرية خربة كان المتاولة والنصيريون قد غادروها أطلالا دارسة. فحطوا رحالهم فيها... فرمموا القرية وسمّوها دومة على اسم مسقط رأسهم...»(١). وهذا يعطي صورة شبه واقعية عن انتقال عائلات مسيحية أو غير مسيحية للسكنى في جبال لبنان الشمالي على أنقاض قرى شيعية اضطر أهلها لهجرها ليس بسبب الاضطهاد الذي عانى منه الشيعة فقط، بل لأسباب أخرى هي في معظمها ناتجة عن ظلم تاريخي للبشر والحجر. بمعنى أن السلطان المملوكي ومن ثم العثماني لم يأمر بترحيل وتهجير السكان الشيعة من مناطقهم، بل كان يتعقبهم بصنوف الأذى كفرض الغرامات أو سلب المواشي أو قطع الأشجار... إلخ. وهي اضطهادات مشتركة عانى منها رعايا السلطان العثماني بشكل عام بغض النظر عن أديانهم وطوائفهم. لكنها كانت تظهر أكثر في مناطق الشيعة، فكان يعقب الحملات

(١) المصدر السابق ص ١٦٠ - ١٦١

العسكرية في المناطق الشيعية فقر ومجاعة تؤدي إلى انتقال قسري للسكان. كما كانت الأوبئة التي تصيب هذه المناطق بأعقاب المجاعات تقضي على أعداد كبيرة من البشر. هكذا كانت القرى في جبل لبنان الشمالي، كما في جبل عامل في الجنوب تهجر وتترك خراباً دون سكان. وفي نهاية العهد العثماني البغيض كانت تتوزع عشرات القرى الخربة في كافة المناطق اللبنانية التي يفترض أن خرابها جاء نتيجة طبيعية للسياسة العثمانية الجائرة والمتمادية في التخلف حتى هلاك الحرث والنسل.

من الملفت أن الأقوام المهاجرة التي تمكنت من السكن والاستقرار في جبل لبنان على أنقاض القرى الشيعية الخربة لم يتحرك مثلها من المهاجرين نحو جبل عامل فبقيت الطائفة الشيعية متغلبة في جبل عامل بينما ضعف وجودها في الجبل. ما حدث للشيعة في شمال لبنان من ضعف وقلة عدد لم يكن بسبب هزائمهم أمام جيوش الدولة العثمانية الجائرة، كما يحاول بعض المؤرخين أن يصور، فهم حاربوا طيلة أربعة قرون دون أن يظهر عليهم الكلل أو الملل من مقارعة هذا العدو. كما لم يكن السبب في قوة أمراء جبل الدروز أو الطوائف المؤتلفة معهم في إمارة الشوف والبقاع، فالشيعة قد حاربوا هؤلاء وهزموهم في أكثر من معركة. لكن السبب الحقيقي الذي أدى إلى ضعف وزوال وجود الشيعة في الشمال هو الأمراض التي فتكت على دفعات بالسكان من بداية القرن التاسع عشر وحتى منتصفه، حتى خلت القرى من السكان فالقلة الناجية من فتك الأمراض قد واجهت أيضاً المجاعات المتلاحقة التي ساهم ظلم سلاطين الدولة وولاتها في إذكائها كلما خَبَتْ عن طريق حرق المواسم وقطع الأشجار وتلويث الآبار...إلخ. بحيث اعتبرت هذه الأمور أهم ما تركته الدولة العثمانية في ذاكرة الناس في كل البلاد التي حكمتها وليس فقط عند شيعة لبنان.

ما تبقى من العشائر الحمادية يرد في شكل ما بأسماء العشائر التي تعيش اليوم في منطقة بعلبك والهرمل في البقاع الشمالي، أما أنسال المشايخ الحمادية وأسرهم فقد بقي منهم جماعات قليلة ضمن عديد بعض القرى في البقاع. وظل شيوخ آل حمادة يعاملون معاملة الأمراء حتى سنة ١٨٤٠ يثبت ذلك طريقة مراسلتهم من قبل الأمير بشير الشهابي. يقول المعلوف المؤرخ: «وكان الأمير بشير الحاكم يكتب على نصف طبق (من الورق)

إلى الشيخ بشير جنبلاط وإلى الشيخ ناصيف نكد وإلى ابن عمه الشيخ حمود قائمة من نصف طبق. ولم يكتب الحاكم (بشير الشهابي) إلى غير هؤلاء الثلاثة من المشايخ في نصف طبق إلا إلى بني حمادة الجبيليين لأنهم كانوا قديماً يتولون أمر تلك البلاد من يد وزراء السلطنة العلية[١].

وقد شارك الحماديون بما تبقى لهم من قوة في البقاع والشمال في الثورة على المصريين سنة ١٨٤٠ مع آل رعد وأهل المتن[٢]. كما ترحل عدد من المنتسبين إلى الأسرة الحمادية إلى مناطق جبل عامل فاستقروا فيه ولا زالت لهم ذرية منتشرة في عدد من قراه.

(١) المصدر السابق ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤.

الفصل العشرون

الأثر الحضاري للشيعة في لبنان في العهد العثماني ١٥١٦ - ١٩١٨

١ - مقدمة

٢ - المحقق علي بن عبد العالي الكركي

٣ - الشيخ زين الدين بن علي (الشهيد الثاني)

٤ - الشيخ حسين بن عبد الصمد

٥ - بهاء الدين بن حسين

٦ - الشيخ حسن بن زين الدين

٧ - الشيخ حسن بن علي الحانيني

٨ - الأمير محمد بن علي الحرفوشي

٩ - محمد بن الحسن الحر العاملي المشغري

١٠ - الأديب الشاعر محمد بن علي المشغري

١١ - الطبيب الشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي

١ - مقدمة

يصعب التقدير فيما إذا كان الشيعة في لبنان عند دخول العثمانيين إلى البلاد كتلة بشرية واحدة ذات توجه حضاري متشابه. لقد انتشر الشيعة في ثلاث مناطق متجاورة جغرافياً لكنها منفصلة عن بعضها ثقافياً بشكل لا يمكن تبريره. فلا يحتاج الإنسان لأكثر من ساعات للانتقال بين البقاع وجبل لبنان أو بين البقاع وجبل عامل. قد يظن البعض أن السبب في التباعد هو وجود العامل العثماني الذي كان معادٍ للشيعة، ولكن هذا العذر لا يبدو مقبولاً ولا مفهوماً عندما تؤخذ كل منطقة على حدة. من الأشياء التي لا يمكن تعليلها هو عدم وجود أي شخصية شيعية لها أثر ثقافي أو مدني مهم في منطقة جبل لبنان طيلة أربعة قرون، فهل من المعقول أن لا ينجب جبل لبنان عالم دين واحداً له شهرة؟ أو شاعراً واحداً له أهمية ثقافية حتى لو كان شاعراً زجلياً؟ وهل من المعقول أن لا يشتهر في البقاع البعلبكي شاعر أو عالم دين إلا بضعة رجال؟ المدة المقصودة هي بين ١٥١٦ و١٨٠٠ أي قرابة ثلاثة قرون. بينما في نفس الفترة يبرز في جبل عامل الخاضع سياسياً لنفس الظروف العثمانية القاهرة، عدد كبير من العلماء والمؤرخين والرجّاليين...إلخ.

اعتمد الشيعة اللبنانيون منذ أمد بعيد على أنفسهم في إنشاء مدارسهم التي ظلت في العهد العثماني مدارس دينية. ولا يفهم من ذلك أن المدارس الدينية تشبه شكل المدارس في الزمن الحديث، بل هي أشبه بذلك النوع من الكتاتيب أو حلقات المساجد التي راجت في الدولة العباسية واستمرت في خط أفقي جامد حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما بُدىء بتقليد الأوروبيين. هذه المدارس (الكتاتيب وحلقات المساجد) قد خرّجت عدداً لا بأس به من المتعلمين الذين شكلوا حلقة مهمة في ربط الماضي الحضاري العربي بالحاضر من خلال الكتابة التي في معظمها دينية الطابع، أو من خلال الشعر. وسيكون الحديث عن الناتج الحضاري الذي تركه الشيعة اللبنانيون في العهد العثماني محصوراً

في دراسة ما أنتجه الأدباء والشعراء وعلماء الدين من مواد ثقافية تركت أثراً ما في الحفاظ على الهوية الشيعية الثقافية والحضارية.

إن كثرة الأسماء التي تحدث عنها أصحاب موسوعات الرجال مثل محمد بن الحسن المشغري في كتابه «أمل الآمل» وما نقله السيد محسن الأمين في «أعيان الشيعة» وما أكمله السيد حسن الصدر في «تكملة أمل الآمل» يعطي صورة مشرقة عن الحالة الثقافية التي سادت في جبل عامل في العهد العثماني دون سائر المناطق اللبنانية نظراً لذلك الكم الهائل من الأسماء المنتسبة إلى «جبل عامل». لكن التمحيص في الأسماء قد يؤدي إلى اختصار العدد نظراً إلى أن العلماء المقصودين هم دائماً علماء دين ولا يوجد بينهم إلا نادراً من يمكن أن يوصف بأنه عالم خارج إطار الدين. كما لا يوجد إلا قلة ضئيلة ممن يمكن أن يوصف بأنه شاعر أو مؤرخ أو روائي رغم ذلك الكم الكبير من القصائد الممهورة باسم هذا أو ذاك من «الشعراء» والتي لم تبلغ المستوى الفني للشعر العربي إلا فيما ندر، وعلى مستوى الأبيات القليلة. لقد تحدث كثير ممن أرّخوا لجبل عامل عن أن أحمد باشا الجزار صادر مكتبات جبل عامل وما فيها من كتب وتركها طعماً للنيران في أفران عكا لأيام. وهذه الصورة البائسة تجعل القارىء يحسب أن عشرات بل مئات آلاف المجلدات كانت مخزونة وموجودة في البيوت العاملية، وهذا الأمر لا يمكن أن يكون صحيحاً بهذا الحجم نظراً إلى أن القرّاء في جبل عامل لم يكونوا إلا قلة قليلة من الرجال، فلمن كانت تلك الكتب؟ ومن يقتنيها؟ إن ما فعله الجزار هو حقيقة واقعة، لكن نقلها جرى بشكل مبالغ فيه جداً. لقد صادر الباشا كتباً كثيرة من بعض بيوت علماء الدين وبيوت الوجهاء، وفيها كتب قديمة وثمينة ومخطوطات تاريخية. وقد يكون أمر بإحراقها لدواع مذهبية أو لعقليته العثمانية المتخلفة. وهذا شيء عادي عند باشا عثماني يحرص كل الحِرص على تصحير العقل البشري ونشر الأمية والتخلف.

إن الواقع السياسي الذي أحاط بالمناطق الشيعية في لبنان مع المعاناة المريرة بسبب التبدلات السياسية المتلاحقة التي برع العثمانيون بإثارتها في سلطنتهم، لم تترك للمجتمع الشيعي عامة فرصة التقاط الأنفاس للعيش بكرامة، فكيف يمكن لهذا المجتمع أن يحمي أو ينتج وجوداً حضارياً ذا أثر؟ إن معظم العلماء الشيعة اللبنانيين، وجلهم من جبل عامل،

الذين حازوا شهرة وأبدعوا فكراً حضارياً مميزاً في العهد العثماني قد عاشوا خارج لبنان أو متخفين في داخله. عدد علماء الدين كان كبيراً، عدد الذين تركوا منهم مؤلفات لها أثر ديني أو إجتماعي قليل. وحتى هؤلاء فقد كانوا من المقلّدين والنّساخ أكثر منهم مبدعين، فجاءت كتاباتهم تكراراً لما أنتجه العلماء الشيعة الأوائل. لذلك لا يمكن الحديث عن «علماء» جبل عامل بهذه الصفة إلا للمبدعين منهم، أي أولئك الذين ألّفوا وطوّروا الفكر ووضعوا نظريات، أو ناقشوا وناقضوا نظريات قديمة. فمن يمكن اعتباره عالماً بحق هو ذلك الذي أنتج فكراً وترك أثراً ينفع البشرية.

لقد تمكن العثمانيون من إرجاع الشيعة والمسلمين عموماً بمن فيهم العرب إلى عهود ما قبل الإسلام وما قبل الحضارة بما فعلوه في البلاد وبما جنوه من خراب. أقفلت الكتاتيب، وعُدِمَ وجود الكتب، بعض العلماء المتخفين بالتقية ينتقلون من مكان إلى آخر خشية الطلب بتهمة «الرفض»، ومن يجروء منهم على أن يجلس في مجلس وعظ وإرشاد بشكل علني تكون نهايته على الطريقة العثمانية. قد يكون مر زمن طويل دون أن يظهر في البلاد إسم له قيمة حضارية، فيما كانت بعض الأسماء الشيعية اللبنانية تسطع خارج البلاد، أسماء كبيرة وهامة وقامات علمية وثقافية، لكنها في بلاد إيران أو في العراق أو الهند. وبعض الشعراء الذين تسربلوا التقية وعاشوا في دمشق أو القاهرة وأبرزوا تفوقاً في الأدب الرائج في ذلك الزمن. وأخيراً بدأ بصيص أمل يظهر مع وصول الحملة النابليونية إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر. فبدأ التاريخ يستعيد جذوته وبدأت محاولات صغيرة تستهدف انشاء بعض المدارس الدينية «كتاتيب» لتعليم الصبية اللغة العربية والقرآن. وبسرعة كبيرة تمكن أهل جبل عامل أن يسابقوا الزمن ويظهر بينهم عدد من أسماء العلماء والأدباء الذين طبعوا القرن التاسع عشر بطابعهم. صحيح أنهم لم يبلغوا ذلك المستوى الفني المتألق للأدب العربي القديم، لكن محاولتهم أثمرت نمواً اجتماعياً وثقافياً كبيراً.

المدرسة الأولى نشأت في قرية الكوثرية التي أسسها الشيخ حسن قبيسي في حدود سنة ١٨٠٧ واهتمت بتلقين عدد من الناشئة مبادىء القراءة والكتابة والحساب والقرآن فتخرج منها عدد ممن صار لهم شأن في جبل عامل كالزعيم حمد المحمود (البيك)

الذي حاول كما بعض أصحابه كتابة مقطوعات شعرية، لكنها لم تبلغ المستوى الفني للشعر وكان أكثر ما راج في ذلك الزمان التأريخ شعراً. لقد جاءت معظم تلك الأشعار مصنعة لم تبلغ الهدف الأدبي ولا التأريخي.

لم يبلغ الأدباء العامليون الجدد ما يمكن أن يوصف بأنه تطور علمي إلا بالقياس إلى قرون الظلام العثماني. ولا يوجد من الشعراء من يحفظ له الناس شعراً إلا فيما ندر. بينما يردد الناس بعض الأبيات لبعض شعراء الزجل مثل الشاعر محمود حداثا.

عندما دخل الجيش العثماني إلى بلاد الشام سنة ١٥١٦ كانت آخر مدرسة (حوزة دينية) موجودة في ميس الجبل في جبل عامل تتابع تخريج عدد من علماء الدين. وقد اضطر شيخ هذه المدرسة إلى إغلاقها كنتيجة أولية لوقوع البلاد في قبضة الغزاة الجدد الذين قضوا في معركة مرج دابق على آخر أمراء آل بشارة الموالين للمماليك. واضطر الشيخ الميسي (تقريباً ٨٥٠- ٩٣٨/ ١٤٤٥-١٥٣١) للانتقال إلى مقام النبي صديق قرب قرية تبنين حيث بقي هناك محتمياً بالمقام حتى وفاته. أما أولاده فقد اضطروا للفرار خارج جبل عامل واتجهوا نحو العراق ومنه إلى إيران حيث نجح الشيخ ابراهيم بن علي بن عبد العالي الميسي في تبوأ المناصب العليا في الدولة الصفوية. كما ينسب إليه نشوء الفرقة «الأخبارية» بواسطة تلميذه الشيخ محمد الأسترابادي. وهي فرقة ترفض الإعتراف بالمرجعية وبالتقليد والاجتهاد. وتعتبر أنّ الأخبارَ الواردة في الكتب الأربعة (الكافي والفقيه والاستبصار والتهذيب) مقطوعٌ بصحة ما فيها لنسبتها إلى معصومين.

كما ظهر من نسل الشيخ علي بن عبد العالي الميسي حفيد ابنه الشيخ لطف الله بن عبد الكريم الميسي الذي بُنِيَ له مسجد أصفهان الشهير والذي لا زال إلى اليوم من التحف المعمارية الإسلامية المهمة.

أما أهم العلماء الشيعة اللبنانيون الذين عاشوا في العهد العثماني سواءاً في لبنان أم في الخارج، وتركوا أثراً حضارياً بيناً فيمكن الحديث عنهم بالترتيب الزمني لحياتهم. ومن أشهرهم:

٢ - المحقق علي بن عبد العالي الكركي

يعتبر الشيخ علي بن عبد العالي الكركي (ت ٩٤٥/ ١٥٣٨) أحد أهم الشخصيات الدينية الشيعية التي ظهرت في القرن العاشر/ السادس عشر لما كان له من دور في نشر المذهب الإمامي في أقطار الهضبة الإيرانية، ولترويجه لنظرية ولاية الفقيه التي نادى بها الشهيد الأول. ويمكن القول بثقة أن الشيخ الكركي هو المنفذ الحقيقي لنظريات الشهيد الأول السياسية، والممارس الأول لمذهب الشيعة الإمامية في الإدارة والحكم لأول مرة في التاريخ الإسلامي.

قد يكون من المبالغ فيه الاعتماد على مقولة وجود نظرية تامة للحكم والإدارة السياسية في نظريات المذهب الإمامي، نظراً لافتقار المذاهب الدينية عامة، ومنها المذهب الإمامي، لنظرية واضحة في الإدارة والحكم. لكن ما فعله الشيخ الكركي هو محاولة لوضع مجموعة من الأحاديث الدينية المنسوبة إلى النبي ﷺ أو الأئمة الإثني عشر عليهم السلام في قالب قانوني، وبالتالي تشريع ربط الإدارة السياسية للدولة بما يقابلها من شريعة دينية (كتاب وحديث).

ولد الشيخ علي بن عبد العالي الكركي في قرية كرك نوح في سهل البقاع شرقي لبنان، وكانت تتبع لناحية بعلبك في عهد المماليك. تلقى علومه الدينية الأولى في الكرك على الشيخ شمس الدين بن عبد العالي الكركي الذي يمت له بصلة نسب من ناحية الأب، وأجازه الشيخ علي بن هلال سنة ٩٠٩/ ١٥٠٣، وربما يكون قد تعلم على أحد ولدي الشهيد الأول. توجه بعد ذلك إلى مصر حيث أخذ علوم أهل السنة من علمائها تماماً كما فعل الشهيد الأول سابقاً.

بعد عودته من مصر لبث الشيخ علي في الكرك مدة يسيرة ليغادرها متوجهاً جنوباً إلى قرية ميس (الجبل) في أعالي جبل عامل (جنوب لبنان) (كان فيها سنة ٩١٨/ ١٥١٢) فلزمها مدة أجاز في خلالها الشيخ علي الميسي وابنه الشيخ ابراهيم وآخرين.

ومع انتقال السلطة إلى العثمانيين ترك الشيخ الكركي ميس عائداً إلى الكرك في البقاع حيث عاش متخفياً خوفاً من اضطهاد زبانية السلطنة حتى تلقى دعوة من الشاه اسماعيل

الصفوي، فتوجه إلى إيران سنة ١٥٢٦/٩٣٣ فاستقبل بالترحاب وسلم صلاحيات واسعة من الشاه ساعدته على التوسع في نشر المذهب الإمامي مستخدماً كل الوسائل الممكنة. ونجح في ذلك نجاحاً باهراً حتى لقب من شيوخ إيران بلقب «الشيخ المروّج»، وحتى قال المجلسي عنه: «وللشيخ المروج حقوق على الإيمان وأهله أكثر من أن يشكر عليه»[١].

أشرف الشيخ علي الكركي على إعادة تأهيل علماء الدين الشيعة في إيران، وتمكن من تخريج أربعماية عالم منهم جعلهم أدواته الفكرية في نشر المذهب الإمامي في عموم البلاد الخاضعة للصفويين، كما راقب بشدة تنفيذ الحدود (الأحكام الشرعية) في البلاد حتى عم الأمن في سائرها.

كانت سلطته واسعة وتشبه سلطة الملوك والسلاطين، كل ذلك تأتى له من قانون سنه الشاه طهماسب خليفة الشاه اسماعيل سنة ٩٣٩/ ١٥٣٢ جعل فيه أمور المملكة الدينية والدنوية بيد الشيخ الكركي بعد أن اعتبره «نائب الإمام»[٢]. وهذا يعطي صورة عن رواج مبكر لنظرية حكومة الفقيه العادل (أي ولاية الفقيه) التي استشهد واضعها محمد بن مكي قبل قرن ونصف من تحقيق الخطوة الأولى منها.

يذكر بعض تلامذة الشيخ الكركي أنه بعد حصوله على ذلك التفويض الكامل من الشاه طهماسب الصفوي في إدارة شؤون الدولة قام بتنفيذ ثلاثة أمور خطيرة وهي أولاً: كتابة قوانين مفصلة لادارة شؤون الدولة حسب الشرع. وثانياً: ابعاد الموظفين غير الشيعة عن مناصبهم ووظائفهم. وثالثاً: مجاهرته بلعن الخليفتين الأولين دون أن يحسب حساباً للنتائج. لقد ذكر الشيخ نعمة اللّه الجزائري في صدر كتابه شرح غوالي اللآلي: «.... وأيضاً الشيخ علي بن عبد العالي (الكركي) عطر اللّه مرقده لما قدم اصفهان وقزوين في عصر السلطان العادل الشاه طهماسب أنار اللّه برهانه، مكّنَهُ من الملك والسلطان، وقال له أنت أحق بالملك لأنك النائب عن الإمام عليه السلام، وإنما أكون من عمالك أقوم

(١) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل، ص ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق.

بأوامرك ونواهيك. ورأيت للشيخ أحكاماً ورسائل إلى الممالك الشاهية إلى عمالها أهل الاختيار فيها تتضمن قوانين العدل، وكيفية سلوك العمال مع الرعية في أخذ الخراج وكميته، ومقدار مدته. والأمر لهم باخراج العمال المخالفين لئلا يضلوا الموافقين لهم والمخالفين، وأمر بأن يقرر في كل بلد وقرية إماماً يصلي بالناس ويعلمهم شرائع الدين. والشاه تغمده اللّه برضوانه يكتب إلى أولئك العمال بامتثال أوامر الشيخ وأنه الأصل في تلك الأوامر والنواهي، وكان رحمه اللّه لا يركب ولا يمضي إلا والباب يمشي في ركابه مجاهراً بلعن الشيخين ومن على طريقتهما[١].

ويعلق الشيخ يوسف البحراني على ذلك بقوله: «إن ما نقله عن الشيخ المزبور في ترك التقية والمجاهرة بسب الشيخين خلاف ما استفاضت به الأخبار عن الأئمة الأخيار الأبرار عليهم السلام وهي غفلة من شيخنا المشار إليه إن ثبت النقل المذكور، وقد نقل (السيد) المذكور أن علماء الشيعة الذين في مكة المشرفة كتبوا إلى علماء اصفهان من أهل المحاريب والمنابر: إنكم تسبون أئمتهم في أصفهان ونحن في الحرمين نعذب بذلك اللعن والسب[٢].

يمكن أن تكون نتيجة ما قام به الشيخ الكركي هو ظهور جيل جديد من رجال الدين في إيران الصفوية يتعصبون للفقه الإمامي، لا بل يظهرون عداوة للمذاهب الأخرى، بينما ظل علماء الدين في جبل عامل مسقط رأس الشيخ الكركي يسيرون في طريق مختلف بحيث كان يظهر فيهم ذلك الميل إلى التقارب مع رجال المذاهب السنية، ويمكن أن يكون للشيخ زين الدين بن علي وحسين بن عبد الصمد وابنه الشيخ البهائي أمثلة واضحة على هذا الخط الفقهي المعتدل، بينما يظهر في الجهة الأخرى الشيخ ابراهيم الميسي (وهو عاملي أصلاً) وتلامذته محمد أمين الاسترابادي مؤسس حركة الأخباريين، والشيخ محمد أمين التستري المشهور بين علمان أيران بالشهيد الثالث، والشيخ محمد باقر المجلسي يمثلون امتداداً طبيعياً لفكر الشيخ الكركي.

(١) يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص١٥٣.

(٢) المصدر السابق.

يعتبر المحقق الكركي أول من نبّهَ على نظرية «الترتب»، وأنكر على أساسها ثمرة الضد[١]. وهذه النظرية فقهية صرفة تتعلق بثمرة الضد التي تظهر في موردين أولهما صورة المزاحمة بين الواجب المضيق وبين الواجب الموسع، وثانيهما مزاحمة الأهم المهم في المضيقين. وهذه النظرية بأصولها وفروعها أنكرها المحقق الكركي وآمن بالترتب وتبعه على ذلك عدد من الفقهاء مثل الشيخ البهائي وغيره[٢].

ترك المحقق علي بن عبد العالي الكركي مجموعة ضخمة من المؤلفات الدينية والفلسفية منها كتاب «المطاعن» ومجموعة رسائل من أهمها رسالة في العدالة، ورسالة في الغيبة، ورسالة في الحج، ورسالة في حرمة تقليد الميت.

توفي الشيخ علي بن عبد العالي الكركي في النجف في العراق في ١٨ ذي الحجة سنة ٩٤٠/ الثلاثاء ١٣ حزيران ١٥٣٤، وقد قيل بأن بعض النافذين دس له السم لأنه تمكن من تقييد حركتهم وإضعاف سلطتهم.

٣- الشيخ زين الدين بن علي (الشهيد الثاني) (٩١١-٩٦٦ / ١٥٠٦ -١٥٥٨)

ولد الشيخ زين الدين بن علي (بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن صالح بن مشرف الطلوسي) في ١٣ شوال سنة ٩١١/ ٨ آذار ١٥٠٦ في وادي التحارير بين قريتي طلوسة وبني حيان في جبل عامل(جنوب لبنان) ونسب إليها. ثم انتقل به والده وهو طفل صغير إلى قرية جباع حيث قضى فيها طفولته، وكانت إقامة والده الشيخ علي بن أحمد الطلوسي في جباع سبباً في نسبته إليها. تلقى علومه الأولى في العربية على أبيه الشيخ علي بن أحمد. وقد أتم ختم القرآن وهو في التاسعة من عمره، ثم تلقى دروساً في الفقه على أبيه حتى وفاة الأب سنة ٩٢٥/ ١٥١٩، فارتحل زين الدين إلى ميس (الجبل) والتحق بمدرسة الشيخ الكبير علي بن عبد العالي الميسي حيث أجازه فيها، كما أجازه فيها أيضاً المحقق الثاني الشيخ علي بن عبد العالي الكركي. ظل الشيخ زين الدين في ميس حتى إقفال مدرستها سنة ٩٣٤/ ١٥٢٧ (أي قبل أربع سنوات من وفاة الشيخ الميسي) انتقل

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.

بعدها إلى جباع حيث استقر فيها متخفياً عن أعين جلاوزة السلطان العثماني.

وبسبب ولع الشيخ زين الدين بالعلم وشوقه إلى التعلم ترك مقر إقامته في جباع وتوجه إلى دمشق حيث تلقى العلوم الدينية لمذاهب أهل السنة على عدد من شيوخ تلك المذاهب من أهمهم الشيخ شمس الدين محمد بن مكي (غير الشهيد الأول) والشيخ أحمد بن جابر. ولم يطل به المقام في دمشق حتى عاد إلى جباع ولبث فيها بضع سنوات ثم ارتحل إلى مصر أيضاً طلباً للعلم سنة ٩٤٢/ ١٥٣٥ فقرأ فيها على ستة عشر عالماً من أهل السنة. ومن مصر سافر إلى الديار المقدسة حيث أدى فريضة الحج سنة ٩٤٤/ ١٥٣٧ عاد بعدها إلى جباع. بعد سنتين أي سنة ٩٤٦/ ١٥٣٩ سافر إلى العتبات المقدسة في العراق، وهي زيارته الأولى إلى تلك البلاد ولم يستقر فيها، ولم يحصل على إجازة أحد من علمائها، عاد بعدها إلى جبل عامل وأقام في جباع حتى سنة ٩٥٢/ ١٥٤٥ سافر بعدها إلى الأستانة حيث حصل فيها على وظيفة التدريس (على المذاهب السنية الأربعة) في المدرسة النورية في بعلبك. وقبل أن يأتي إلى بعلبك سافر إلى العراق ثانية فزار العتبات المقدسة لينتقل من هناك إلى بعلبك حيث ظل فيها يمارس التدريس حتى سنة ٩٥٨/ ١٥٥١ حيث ترك وظيفته وعاد إلى جباع ليعكف على وضع مؤلفه الشهير في شرح كتاب «اللمعة الدمشقية» لمؤلفها الشهيد محمد بن مكي. والذي دعاه «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية»[١].

أصبح الشيخ زين الدين بن علي مرجعاً للطائفة الشيعية في بلاد الشام، واعترف له الشيخ البهائي بالأعلمية[٢]. رغم سعة علمه واعتراف غالبية علماء إيران للبهائي بالفضل، وصارت تعود إلى الشيخ زين الدين المشكلات الشرعية التي يصادفها الناس لينظر فيها ويصدر حكمه. وسرعان ما وصلت أخباره إلى مسامع جلاوزة السلطان، فوجود عالم شيعي يحكم بغير مذهب دولة السلطان لم يكن ليترك عند الحاكمين بسهولة، ولذلك عواقب سرعان ما وقع الشيخ زين الدين فيها. فقد ترافع أمامه رجلان فحكم لأحدهما على الآخر، فتوجه المحكوم عليه إلى قاضي صيدا السني ويدعى الشيخ معروف، وقدم

(١) زين الدين بن علي العاملي، كشف الريبة، من مقدمة ابن العودي، ص ١٣-٣٧ باختصار.

(٢) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٠٨.

شكوى ضد الشيخ زين الدين، فلم يتردد القاضي معروف من أن يطلب الشيخ زين الدين ففر منه إلى مكة، فأبلغ القاضي معروف ولاة الأمر بوجود من يخالف المذاهب المعتبرة، فأرسل السلطان خلفه إلى مكة، حيث أمسك فيها وحمل منها بحراسة عسكرية. وأبلغ أنه سيواجه السلطان في الأستانة. وبوصول الشيخ وحراسه إلى مكان ما في بلاد الروم غودر وقتل في رجب سنة ٩٦٦/ ١٥٥٨ وألقي بجسده في البحر. التهمة التي أتي به من أجلها وقتل بسببها هي التشيع، تماماً كالتهمة التي وجهت إلى الشهيد الأول قبل قرابة قرنين من ذلك الزمن.

عرف الشيخ زين الدين بعد ذلك في المراجع الشيعية عامة والمراجع العاملية خاصة بلقب «الشهيد الثاني» واشتهرت كتبه ومؤلفاته بعد استشهاده، وراجت في مختلف الأقطار الإسلامية التي تتبع المذهب الإمامي، وبعض هذه الكتب لا زالت إلى اليوم تدرس في المدارس الدينية الشيعية في مختلف الأقطار.

تأثر الشهيد الثاني كثيراً بأستاذه الشيخ علي بن عبد العالي الميسي وقلده في زهده وورعه حتى فاقه، وكان الشهيد الثاني قد عاش في ظل الشيخ الميسي سنوات عديدة، وكان يرافقه في الليالي يعملان في قطع الشجر وحمل الحطب على حمار للشيخ الذي يقوم بالتدريس في النهار، وكان الشيخ الميسي وتلميذه زين الدين في ذلك قدوة لتلاميذ حوزة ميس في التواضع والزهد.

الشهيد الثاني أول من هذَّب الدرس ورتّب العلوم في برامج الحوزات والمدارس الدينية، وجعل هذه الناحية موضع بحث، ووضع فيها كتاباً ووضع برنامجاً للمعلم والمتعلم[1].

كما كان الشهيد الثاني أول إمامي صنف في «الدراية» وقد اقتبس الاصطلاحات من كتب السنة. وكان في فتاويه وتعاليمه يبدو معتدلاً ومتأثراً بنظريات علماء جبل عامل التي تتقارب مع أهل السنة. فهو يقول في «كتاب المسالك» باب الشهادات: اتفق اصحابنا على أنه لا تقبل شهادة غير الشيعي الإثني عشري وان اتصف بالإسلام، وفيه نظر، لأن الشرط في قبول الشهادة أن لا يكون الشاهد فاسقاً، والفسق إنما يتحقق بفعل المعصية مع العلم بكونها

(١) المصدر السابق ص ٩٦.

معصية، أما مع اعتقاد أنها طاعة بل من أهم الطاعات فلا يكون عاصياً، ومن خالف الحق في الاعتقاد لا يعتقد المعصية بل يزعم أن اعتقاده من أهم الطاعات، سواء أكان اعتقاده صادراً عن نظر أم عن تقليد، وبهذا لا يكون ظالماً، وإنما الظالم من يعاند الحق مع العلم به، وهذا لا يتحقق في جميع أهل الملل مع قيامهم بمقتضاها بحسب اعتقادهم»[1]. ويبدو الشيخ زين الدين قد اخترق الحاجز الكبير الذي وضع في مدرسة الحلة الفقهية حيث كان فقهاؤها يعتبرون أتباع المذاهب السنية «نواصب» أي الذين يناصبون أهل البيت العداء، وبالتالي لم تكن تقبل شهادتهم لنفي العدالة عن الناصبي، بينما قال الشيخ زين الدين بقبولها متحدياً أقوال الأصحاب دون مواربة. وقد علق الشيخ مغنية في العصر الحديث على ذلك بقوله: «إن هذا الاجتهاد الذي خالف فيه الشهيد الثاني علماء مذهبه أجمعين مع علمه واعترافه بوجود هذا الاجماع لهو خير شاهد على أنه باستطاعة الانسان أن يتحرر من قيود البيت والمدرسة وتقاليد الآباء والأجداد، وعلى أن سلطان العقل النير أقوى من كل سلطان - والعدالة التي يشترط الشيعة في الشاهد والقاضي ومرجع التقليد وإمام الجماعة في الصلاة هي العدالة في الظاهر، قال الإمام الصادق: «لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادة الأنبياء والأوصياء، فمن لم تره بعينك يرتكب ذنباً ولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر، وشهادته مقبولة وإن كان في نفسه مذنباً»[2].

وهذا القول للشيخ مغنية يظهر بلا شك امكانية قيام العالم المجتهد بالالتفاف على نظريات علماء آخرين ظلت لزمن طويل تعتبر من المحظورات.

لقد اتهم الشيخ زين الدين بالتسنن من قبل بعض رجال الدين الذين جاؤوا بعده وعاشوا في مناطق العراق أو البحرين أو الهضبة الإيرانية، فالشيخ البحراني يروي قائلاً: «حكى لي عالم من أولاد شيخنا الشهيد الثاني (زين الدين) طاب ثراه أن بعض الناس كان يتهم الشيخ في زمان حياته بالتسنن لأنه كان يدرِّس في بعلبك وغيرها من بلاد المخالفين على المذاهب الأربعة نهاراً، ويدرس على مذهب الإمامية ليلاً»[3].

(١) محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، ص ٢٨٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٣.

(٣) يوسف البحراني، الكشكول، ج ٢ ص ١٤٢.

والحقيقة أن الشهيد الثاني لم يكن سوى شيعي إمامي اثني عشري، وعاملي منفتح لا يجد مندوحة بين أن يكون شيعيا مسلماً، وأن يكون منفتحاً في نفس الوقت على باقي المذاهب الإسلامية.

من الأمور التي أصرّ عليها الشهيد الثاني في عقائده تشديده على وجوب صلاة الجمعة تماماً كرأي الشهيد الاول، وقد ترك من أجل ذلك ثلاث رسائل تتعلق بالموضوع هي: وظائف يوم الجمعة، رسالة في أعمال يوم الجمعة، ومقالة في الحث على صلاة الجمعة.

للشهيد الثاني عدد وافر من المؤلفات الدينية والفلسفية من أشهرها: آداب الصلاة، أسرار الزكاة والصوم والحج، أعمال الجمعة، بداية الدراية، جواهر الكلمات في صيغ العقود والإيقاعات، الحث على صلاة الجمعة، كشف الريبة في أحكام الغيبة، مسالك الإفهام في شرح شرايع الإسلام، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد. بالإضافة إلى عشرات الرسائل المتخصصة حول الأمور الفقهية كالميراث والحج والصلاة. لكن الكتاب الأكثر أهمية من بينها على أهميتها كلها، هو كتاب «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» للشهيد الأول، فهذا المؤلف يدرس إلى اليوم في جامعات الشيعة الكبرى كالنجف وقم وخرسان وطهران وتبريز وغيرها من حواضرهم في الهند وإيران والعراق[1].

٤ - الشيخ حسين بن عبد الصمد (٩١٨ - ١٥١٢/٩٨٤ - ١٥٧٦)

ولد الشيخ حسين بن عبد الصمد (بن محمد بن علي بن حسين بن محمد بن صالح...) يوم الجمعة في الأول من محرم سنة ١٩/٩١٨ آذار ١٥١٢ في قرية جباع العاملية في أقليم التفاح، ويرجع نسبه كما يقول أبناء أسرته، إلى الحارث الهمداني صاحب علي بن أبي طالب عليه السلام.

تلقى علومه الأولى في العربية على الشهيد الثاني زين الدين بن علي التحاريري الذي كان كما مر أثناء الحديث عنه، يقيم في جباع في تلك الفترة، وعندما بلغ من العلم درجة

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ٩٥.

عالية أجازه الشيخ زين الدين إجازة عامة. كانت هذه الإجازة طويلة ذكر فيها ترجمات لعدد كبير من العلماء العامليين. تاريخ الإجازة هو ٣ جمادى الآخرة سنة ٩٤١/ الإربعاء ٩ كانون الأول سنة ١٥٣٤، وقد أوردها الشيخ يوسف البحراني في كشكوله[١].

زار الشيخ حسين ميس (الجبل) في شبابه بقصد الأخذ عن الشيخ المحقق علي بن عبد العالي الميسي لكنه وجده قد انقطع عن التدريس وقد قابله في قرية النبي صديق وقال بأنه قد ظهرت له بعض الكرامات في أثناء حياته.

عاد الشيخ حسين بعدها إلى جباع وظل مصاحباً للشيخ زين الدين (الشهيد الثاني) مدة طويلة من حياته، ورافقه في سفره إلى اسطنبول سنة ٩٥٢/ ١٥٤٥ وعودته منها. وظل الشيخ حسين في جباع حتى شعر بأن حياته في خطر بسبب التعصب المذهبي، فآثر الهجرة عن جبل عامل سنة ٩٦٦/ ١٥٦٠ واتخذ طريقه إلى إيران حيث استقبل بترحيب كبير من الشاه طهماسب الصفوي وأقام في أصفهان ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى عاصمة المملكة في قزوين وأقام فيها برعاية الشاه سبع سنين. ثم انتقل إلى هراة (حالياً في أفغانستان) وعين شيخاً للاسلام فيها حيث عمل على ترويج مذهب الشيعة الجعفرية في تلك البلاد. ظل الشيخ حسين في هراة سبع سنوات استأذن بعدها الشاه في السفر إلى الأراضي المقدسة. وبعد أن انتهى من مناسك الحج والعمرة وفي أثناء عودته عرج على البحرين فأقام فيها حتى وفاته بقرية المصل يوم الاربعاء في ٨ ربيع الأول سنة ٩٨٤/ ٦ حزيران سنة ١٥٧٦ حيث دفن فيها[٢].

كان للشيخ حسين ميل إلى التصوف اشتهر به، وكان يمتدح شيوخ الصوفية وينقل كلامهم مقلداً في ذلك أستاذه الشيخ زين الدين الشهيد. وقد انتقد طريقته هذه فيما بعد المولى عبد اللّه صاحب كتاب رياض العلماء، واعتبره ابتعاداً عن مذهب التشيع.

يعتبر الشيخ حسين بن عبد الصمد كذلك أحد العلماء الكبار الذين ساروا على خطى الشهيد الأول في إثبات وجوب صلاة الجمعة في زمن الغيبة وكان يقول بعينيتها

(١) يوسف البحراني، الكشكول، ج ٢ ص ٢٠١.

(٢) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل، ص ١٨٣ - ١٨٦.

ويقيمها على مذهب الشهيدين الأول والثاني أثناء إقامته بقزوين دون احتياط بإعادة الظهر.

ويعتبر الشيخ حسين بن عبد الصمد أول من استدل على «حجية الاستصحاب بالروايات»، ومسألة الاستصحاب من المسائل المهمة المتشعبة المباحث، وكانت غامضة المأخذ عند كثير من علماء الشيعة الإمامية الذين لا يعملون بالقياس ولا بالاستحسان ولا بالظن الذي لم يقم على حجيته دليل مقطوع الحجية. والاستصحاب يعني العمل بما يفهم من الرواية[١]. بحيث يكون فهم الرواية حجة على الفاهم، وهذا يفتح الباب على مسألة التقليد التي أصر الشيخ عليها مقلداً الشهيدين وأئمة مدرسة الحلة، بما يتعارض مع جماعة الإخباريين الذين رفضوا مبدأ التقليد كلياً.

للشيخ حسين بن عبد الصمد مجموعة من المؤلفات الدينية والفلسفية من أشهرها كتابه «العقد الطهماسي» الذي صنفه للشاه طهماسب الصفوي، وله شرح على ألفية الشهيد الأول، وكتاب «دراية الحديث» ومجموعة رسائل هامة منها رسالة في «تحقيق القبلة» رد فيها على المحقق الكركي، ورسالة في بعض المسائل الفقهية، ورسالة «الرضاعية»[٢].

ومن المفارقات أن ذكر الشيخ حسين بن عبد الصمد يكاد يختفي ويقرن دائماً بذكر ولده العالم الجليل الشيخ البهاء العاملي الذي اشتهر جداً حتى طغت شهرته على أهمية وجود أبيه.

٥ - بهاء الدين بن حسين

محمد بن حسين بن عبد الصمد ولد في بعلبك مساء يوم الأربعاء ٢٧ ذي الحجة ٩٥٣ / ١٩ شباط ١٥٤٧. يعرف اختصاراً بلقب البهائي وهو أكثر ألقابه شيوعاً بين العامة.

هاجر مع أبيه إلى إيران سنة ٩٦٦/ ١٥٦٠ وكان عمره ثلاث عشرة سنة واستقر في مدينة قزوين. تلقى علومه الأولى على أبيه، ثم تابع علومه على عدد من علماء تلك المدينة

(١) محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، ص ١٠٠.

(٢) يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص ٢٣ -٢٨.

التي كانت تضج بالعلماء والمفكرين العاملين في الطب والرياضيات والفلك والهندسة، مما أتاح له فرصة التحصيل العلمي بشكل مميز عن علماء الدين العاديين. تلقى بهاء الدين علوم المنطق والكلام والبيان والعربية على الملا عبد الله بن شهاب الدين اليزدي، وأخذ الطب عن عماد الدين محمود أحد أشهر الأطباء في إيران في عصره، كما تعلم الرياضيات والكلام والفلسفة على العالِم أفضل القايني.

سنة ٩٨٣/ ١٥٧٥ تعين البهائي شيخاً للإسلام في مدينة هراة خلفاً لأبيه الذي توجه إلى الحج. وفي سنة ٩٩١/ ١٥٨٣ ترك البهائي إيران للحج، ثم تجول في الحجاز ومصر والشام والأناضول.

في سنة ٩٩٦/ ١٥٨٧ عين البهائي شيخاً للإسلام في أصفهان وهي العاصمة الجديدة لشاهات الصفويين، وظل في هذا المنصب حتى وفاته في ١٢ شوال سنة ١٠٣٠/ ١ أيلول ١٦٢١ ونقل جثمانه إلى مشهد فدفن فيها وقبره هناك مشهور ويزار.

من المشهور عن الشيخ البهائي أنه عاش بين كل الفرق والإتجاهات محاولاً التوفيق بينها، وكان يعامل كل صاحب عقيدة على قدر عقيدته وهو يقول:

أخالط أبناء الزمان بمقتضى عقولهم كي لا يفوهوا بإنكار.

تحول الشيخ البهائي في عقول الإيرانيين عامة إلى أسطورة مهيبة، ونسب إليه كثير من الأمور الخارقة، مثل هندسة سور الصحن المحيط بمشهد أمير المؤمنين في النجف المليء بالأسرار بحيث كلما امتد الظل إلى أصل السور دل ذلك على ساعة الزوال وذلك في جميع فصول السنة. كما ينسب إليه هندسة مئذنتين في أصفهان مبنيتين بالحجارة لكنهما تهتزان إذا هزهما إنسان[1].

من أهم مؤلفاته ذات الأثر البين في الفقه الشيعي: زبدة الأصول ، الفوائد الصمدية وكتاب جامع عباسي (فارسي). هذا بالإضافة إلى كتابه المنوع «الكشكول» الذي جمع فيه ألوان من العلوم والفنون والأحاجي والحكم.

(١) جعفر المهاجر، الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي، ص ١٦٩.

٦ - الشيخ حسن بن زين الدين

الشيخ جمال الدين أبو منصور حسن ابن الشيخ زين الدين الشهيد الثاني بن علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي الدين بن صالح ابن شرف أو مشرف العاملي التحاريري الجبعي.

ولد في جباع في ٢٧ شهر رمضان ٩٥٩/ ١٥ أيلول ١٥٥٢ وتوفي مفتتح المحرم سنة ١٠١١/ ٢٠ حزيران ١٦٠٢ في بلدة جباع وقبره بها معروف مشهور. أما تاريخ مولده فقد ذكره حفيده الشيخ علي ابن الشيخ محمد في كتابه الدر المنثور[١].

وصفه المشغري في أمل الآمل بأنه «عالم متبحر محقق ثقة، وأديب شاعر، وزاهد عابد. وكان أعرف أهل زمانه بالفقه والحديث والرجال»[٢]. وعدّد مجموعة من مؤلفاته منها كتاب مناسك الحج، والرسالة الإثني عشرية في الصلاة، وكتاب مشكاة القول السديد في تحقيق معنى الاجتهاد والتقليد، وكتاب الإجازات، والتحرير الطاووسي في الرجال، ورسالة في المنع من تقليد الميت. وذكر له ديوان شعر قام بجمعه تلميذه الشيخ علي بن محمد بن مكي العاملي.

يشتهر الشيخ حسن بن زين الدين في المصادر الشيعية ب «صاحب المعالم» وهو اسم لمؤلف له في الفقه اسمه «معالم الدين وملاذ المجتهدين». وهذا الكتاب إضافة إلى مجموعة المؤلفات الدينية أعطت صورة ناصعة عن هذا العالم الجليل الذي طرق أبواباً ظلت مغلقة منذ أن وضع الشيخ الطوسي الفروع للمذهب الإمامي. منتقداً الأخذ بكتب الأحاديث الأربعة كما هي ومشككاً بصحة الحديث إلا ما يرويه العدل الإمامي المنصوص عليه بالتوثيق بشهادة ثقتين عدلين. فرمز له ب»صحي» إذا كان موثقاً عندالجميع. أما الأحاديث التي اعتبرها صحيحة عند «الأصحاب» فرمز إليها ب»صحر». لقد أوجد الشيخ حسن فارقاً كبيراً بين الصنفين حتى لم يبق مقبولاً لديه إلا عددٌ قليلٌ من الأحاديث الموثوقة والمقطوع بصحتها. واكتفى بالعمل بها. لذلك يمكن أن يعرّف بأنه

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٥ ص ٩٥.

(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي، أمل الآمل، ص ٥٧.

واضع نظرية فقهية مختصرها «الأخذ بالصحيح والحسن من الحديث فقط». وترك ما سوى ذلك. وهذا أدى إلى انتقاده بشدة من قبل شيوخ «الأخباريين» مثل الشيخ يوسف البحراني الذي قال فيه: «قد بلغ الضيق إلى مبلغ سحيق، وأنت خبير بأنا في عويل من أصل هذا الاصطلاح الذي هو إلى الفساد أقرب من الصلاح، حيث أن اللازم منه لو وقف عليه أصحابه، فساد الشريعة. وربما انجر إلى البدع الفظيعة، فإنه متى كان الضعيف باصطلاحهم مع إضافة الموثق إليه ليس بدليل شرعي بل هو كذب وبهتان مع أن ما عداهما من الصحيح والحسن لا يفيان لهما إلا بالقليل من الأحكام، فإلى ما يرجعون في باقي الأحكام الشرعية؟»[1].

يعتبر الشيخ حسن بن زين الدين من كبار العلماء الفقهاء المحققين الإماميين الإصلاحيين، وهو واحد من ذاك الرعيل من العلماء العامليين الذين وجدوا فرصة من التقارب مع المذاهب الإسلامية الأخرى حتى اتهموا بالتسنن من بعض الأخباريين. وفي نموذج من تحقيقه ما ذكره عن مناسك الحج عند ذكر النية حيث قال: «طال في بيانها كلام المتأخرين وخلا منها حديث أهل البيت عليهم السلام رأساً وكذلك قدماء فقهائهم الذين لم يتجاوزوا المأثور عنهم فيما دونوه من الأحكام الشرعية ولم يجنحوا إلى مضاهاة أهل الخلاف في توليد المسائل[2].

المعروف عنه أنه كان لا يرى حجية غير الصحيح والحسن من الحديث. بعض الفقهاء يرى أن ضعف السند في الحديث ينجبر باشتهار العمل به. بينما يرى آخرون كالشهيد الثاني (والد الشيخ حسن) عدم جواز ذلك، وينكره حتى أنه قال في بعض مؤلفاته «أن انجبار الخبر الضعيف بالشهرة ضعيف منجبر بالشهرة». وبعضهم لا يرى حجية غير الصحيح وهو ما رواه العدل (الموثوق به). ويعتبر في العدالة التوثيق بعدلين (شاهدين). وينسب ذلك إلى أبيه الشهيد الثاني أيضاً بناء على أن التوثيق من باب الشهادة. والحق أن الحجة من الخبر ما حصل الوثوق بصدوره جريا على عادة الناس فيما بينهم. وإن الشارع لم يخترع في ذلك حكما جديداً بل أقر طريقة العرف. الوثوق يحصل بكون

(١) يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص ٤٦.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٥ ص ٩٦.

الخبر صحيحا أي رواه العدل إن لم يخالف المشهور وبكونه موافقا للمشهور وإن ضعف سنده. فالصحيح المخالف للمشهور ليس بحجة والضعيف الموافق له حجة، وكذلك الحسن والموثق. وتوثيق أهل الرجال ليس من باب الشهادة لاثبات العدالة بل من باب تحصيل الوثوق وإلا فهؤلاء المعدلون لم يعاشروا الرواة وإنما عولوا على الظنون. ولو كان من باب الشهادة لم يمكن من توثيق أحد لاعتبار المعاشرة في الشهادة والاستناد إلى الحسن دون الحدس. ولا يوجد واحد من الموثقين هو كذلك. والاستناد إلى توثيق العلامة الحلّي وأمثاله لا ينفع شيئا للعلم بأنه أخذ توثيقه من كلام من تقدمه كالنجاشي وغيره. فهو لا يزيد عن العلماء في ذلك شيئا.

وتبع الشيخ حسن «صاحب المعالم» والده الشهيد زين الدين في الاقتصار على الصحيح لكنه أضاف إليه الحسن من الحديث. ولذلك صنف كتابا في الأخبار لم يتجاوز فيه العبادات أسماه «منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان».

كما يشتهر الشيخ حسن بأشعاره الحسنة المتميزة في زمن لم يبق فيه من الشعر العربي إلى كلمات مسجعة ليس فيها من الشعر إلا الإسم. لقد حاول عدد هائل من رجال الدين أن يكتبوا الشعر في عهد العثمانيين لكن قلة قليلة منهم يمكن أن يوصفوا بأنهم بلغوا الغاية وفي بعض الأبيات فقط. أما الشيخ حسن بن زين الدين فقد كان سابقاً وترك مجموعة من القصائد الوجدانية التي خلدت أبيات منها. ومن شعره قوله:

لا يسكن الوجد ما دام الشباب ... ولا تصفو المشارب لي إلا بلبنان

في ربع أنسي الذي حل الشباب به ... تمائمي وبه صحبي وخلاني

كم قد عهدت بهاتيك المعاهد من ... إخوان صدق لعمري أي إخوان

.....

وقوله وهي من أفضل شعره:

فؤادي ظاعن أثر النياق ... وجسمي قاطن أرض العراق

ومن عجب الزمان حياة شخص ... ترحل نصفه والنصف باقي

وحل السقم في بدني وأمسى — له ليل النوى ليل المحاق
وصبري راحل عما قليل — لشدة لوعتي ولظى اشتياقي
وفرط الشوق أصبح بي خليعاً — ولما ينوِ في الدنيا فراقي
وتعبث ناره في الروح حيناً — فيوشك أن تبلغها التراقي
وأظمأني النوى وأراق دمعي — فلا أروى ولا دمعي براقي[1]

٧ - الشيخ حسن بن علي الحانيني

الشيخ جمال الدين الحسن بن علي بن الحسن بن أحمد بن محمود العاملي الكونيني الشهير بالحانيني وبالتقي[2].

أحد أهم مفكري جبل عامل في الفترة التي حكم فيها الأمير فخر الدين بن معن أمير جبل الدروز منطقة جبل عامل. وقد حصل هذا الشيخ منه على وظيفة الإفتاء كما يلمح بذلك الشيخ أحمد الخالدي الصفدي مؤرخ الأمير فخر الدين. وهذا شيء مستغرب إذ لم يكن مقبولاً في الدولة العثمانية أن يتولى شيعي منصب إفتاء ولو كان ذلك في إحدى المقاطعات النائية كجبل عامل. وقد مدح الشيخ حسن الحانيني الأمير فخر الدين من أجل ذلك بقصيدة جيدة تصور حالة المجتمع اللبناني والعاملي خصوصاً في تلك الآونة أورد منها المحبي بعض الأبيات ومنها:

لنا في هوى ذات الوشاح مقاصد — وفي خالها للعاشقين مراصد
على حبها نحيا ونحشر في الهوى — ونحن على ميثاقها نتعاهد

ويعرف به صاحب الخلاصة بأنه: حسن بن علي بن حسن بن أحمد بن محمود العاملي الكونيني الشهير بالحانيني من أهل الفضل والأدب. جم الفائدة كان شاعراً مطبوعاً كثير النظم له فيه الباع الطويل. وكان مقيماً ببلدة بيت حانيني من ضواحي صفد. وأفتى مرة

(١) المحبي، خلاصة الأثر ج ٢ ص ٢١-٢٣.
(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٥ ص ٤١٥.

في حياة الشهاب أحمد الخالدي الصفدي[1]. وتعبير «أفتى» الذي يشير إليه المحبي يعني أن الحانيني قد تولى رتبة الإفتاء. أما نسبة إلى قرية «بيت حانيني» من ضواحي صفد فهو وهم من صاحب خلاصة الأثر، لأن الشيخ حسن العاملي الكونيني أولاً ثم الحانيني ثانياً ينسب إلى قريتي كونين وحانين المتجاورتين في بلاد بشارة العاملية إلى الجنوب من تبنين.

ربما يكون الشيخ الحانيني قد مدح الأمير المعني بسبب توليته وظيفة الإفتاء. كما تؤكد قصيدته تلك العلاقة الطيبة والوثيقة بين أمير الدروز وأهل جبل عامل. وهذا يثبت أن قضية العداء الدرزي - الشيعي التي كثيراً ما يتحدث عنها مؤرخو «جبل عامل» ليست حقيقية. بل يمكن اختصارها بأنها عداوات سياسية بين أمراء ووجهاء وزعماء طموحين يسعى كل منهم إلى استقطاب الأنصار والمحاربين والأزلام في المناطق التي يسيطر أو يمكن أن يسيطر عليها.

لا يوجد تاريخ موثوق لولادته كمعظم علماء وأدباء جبل عامل. فما أكثر ما كيل المديح لرجال من الجبل بطريقة متشابهة خصوصاً في أمل الآمل وفي أعيان الشيعة دون أن يعطي ذلك صورة كاملة عن الممدوح أقله سنة ولادته ومدة حياته وما يتعلق بنهجه وأسلوبه. يمكن تلمس مدة حياة هذا العالم الكبير من خلال بعض ما كتب عنه. فَحَوْلَ تَعَلُّمِهِ يقول صاحب أمل الآمل: «قرأ على أبيه وعلى جماعة من العلماء منهم الشيخ نعمة اللّه بن أحمد بن خاتون والشيخ مفلح الكونيني والشيخ ابراهيم الميسي واستجاز الشيخ حسن بن الشهيد الثاني».

يمكن مقارنة بعض الوثائق التي ذكرت الشيخ حسن الحانين للحديث عن حياته. فقد ذكر السيد الأمين في الأعيان أن «الشيخ محمد هادي الأميني ذكر في مجلة المكتبة أنه عثر على مجموعة فيها أرجوزتان تناولتا تاريخ مصر أولاهما لأبي عبد اللّه بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد اللّه بن يوسف المنهاجي الخطيب بجامع السيدة نفيسة بمصر من علماء القرن العاشر الهجري فرغ من نظمها سنة ٩٥٦/ ١٥٤٩ وجاء في آخرها ما نصه:

---

(١) المحبي، خلاصة الأثر ج ٢ ص ٢٩.

والحمد للّه وحده علقها لنفسه الفقير حسن بن علي بن أحمد بن محمد الحانيني الكونيني يوم الاثنين في السادس من رمضان المبارك سنة ٩٨٢/ (١٩ أيلول ١٥٧٤) وذلك بقرية عيناثا العاملية. وثاني الأرجوزتين للحسن بن راشد وهي أيضا بخط حسن بن علي بن أحمد الحانيني كتبها سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة[1]. وقيام الشيخ حسن الحانيني بنسخ الأرجوزة سنة ٩٨٢/ ١٥٧٤ يدل على احتمال أن تكون ولادته في منتصف القرن أي بحدود سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣ كما يثبت أنه كان يعيش في قرية عيناثا اللصيقة بقرية كونين من جهة الجنوب وبقرية حانين من جهة الشرق. وكانت عيناثا في ذلك الوقت عاصمة بلاد بشارة العاملية وملتقى عشائرها الكبرى. وقد بقيت كذلك حتى منتصف القرن السابع عشر حينما أصابتها الأوبئة التي ضربت المنطقة وقضت على كثير من السكان.

يقول الشيخ الحانيني في عيناثا:

مقامـي بعيناثـا مقـام ابـن مريـم ... لـدى عصبـة تنفـي مقـام ابـن مريـم
قطعـت بهـا عمـرا نشـا بيـن عصبـة ... كـرام وجمـع فـي دلال ومغنـم
فـوا أسـفا لـو كان للصبـر موضـع ... ووا حـر قلبـي قـد عفـا بالتنـدم

للشيخ حسن الحانيني عدد من المؤلفات أشهرها (حقيبة الاخيار وجهينة الأخبار في التاريخ) و(نظم الجمان في تاريخ الأكابر والأعيان) وله ديوان شعر يقارب السبعة آلاف بيت»[2]. وقد فقدت هذه الكتب التي من المرجح أنها أتلفت في فتنة الجزار عندما نهبت الكتب من جبل عامل وأحرقت في أفران عكا.

عثر الشيخ سليمان ظاهر العاملي النباطي على مساجلة شعرية بين رهط من الأدباء العامليين وغيرهم فنشرها في مجلة العرفان ج ٥ م ١٤ ص ٤٨٩ وقال إني مثبتها برمتها لا لبراعة ما فيها من نثر ولا لما حوته من بلاغة شعر. قال: ونقلتها عن مجموعة كتبت سنة ١١٠١ بخط السيد نور الدين علي بن أبي الحسن الحسيني العاملي. وقد جرت هذه المساجلة في بعلبك واشترك فيها الشيخ حسن الحانيني: «... وكان رئيسهم الذي

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٥ ص ١٧٢.

(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي، أمل الآمل، ص ٦٤.

هو فريد الفنون وفي هذا الشأن غاية ما يكون، مولى الشعر والآداب، وجليل الفضلاء والأنجاب، ذو الجمال والمجد الرباني مولانا الشيخ حسن الحانيني... فابتدأهم بنظم أول هذه القصيدة، وسلك الجماعة على منواله واقتفوا اثر سجاله، وذلك ببلدة بعلبك العلية، التي لها بخصائص الفضل أهلية، فقال أيده اللّه وحماه وحرسه ورعاه الشيخ حسن الحانيني:

حبيب قلبي له في الجسم نيران ومدمعي دونه في الخد جيحان

ثم يكمل الشيخ سليمان الظاهر ما قيل من شعر ومن هم الشعراء الذين شاركوا في المساجلة فإذا هم: الشيخ محمد بن علي بن أحمد الحريري الدمشقي (الأمير الحرفوشي) والشيخ بهاء الدين العفيفي والشيخ حسن الظهيري وهو الحسن بن علي بن الحسن بن يونس بن يوسف بن محمد بن ظهير الدين والسيد محمد العباسي والشيخ عبد الرضي والسيد أحمد الحسيني الحسني والشيخ علي الحلبي ومحمد بن حماد. ومعظم هؤلاء مجهولين لا وجود لترجمة لهم إلا لبعض الأسماء. لكن وقوع هذه المساجلة وكتابة ما جرى فيها من أشعار دليل على اهتمام هؤلاء الرجال بالأدب والشعر رغم ثقل الوجود العثماني على العقل العربي والشيعي خصوصاً.

٨ - الأمير محمد بن علي الحرفوشي

هو الشاعر المبدع الذي لم يشتهر مثله في البقاع البعلبكي في ظل حكم الأمراء الحرافشة. الأمير العالم محمد بن علي بن أحمد الحريري الحرفوشي الذي ينسبه السيد الأمين بإضافة أسماء الأماكن التي عاش فيها فيقول: «الشيخ محمد بن علي بن محمد الحرفوشي الحريري العاملي الكركي الشامي توفي سنة ١٠٥٩/ ١٦٤٩»[1]. وقد عرّفه المحبي في خلاصة الأثر بأنه: «محمد بن علي بن أحمد المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الدمشقي. ثم أثنى عليه بأوصاف لا تقال عادة إلا لكبار الأدباء والشعراء المشهورين. فقال فيه: «اللغوي النحوي الأديب البارع الشاعر المشهور. كان

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ١٠ ص ٢٠.

في الفضل نخبة أهل جلدته»[١]. وهذا الكلام الصادر عن المحبي الذي عادة ما يتنقص من الشخصيات الشيعية لم يجد مندوحة في وصف الشاعر الكبير محمد الحرفوش بما يليق به. أما سيرته حسب نفس المصدر فيقول عنه أنه: «حضر دروس العمادي المفتي (بدمشق) وكان العمادي يجله ويشهد بفضله. وطلبه المولى يوسف بن ابي الفتح لاعادة درسه فحضره اياماً ثم انقطع فسأل الفتحي عن سبب انقطاعه فقيل إنه لا يتنزل لحضور درسك. فكان ذلك الباعث على إخراجه من دمشق. وسعى الفتحي عند الحكام على قتله بنسبة الرفض إليه وتحقق هو الأمر فخرج من دمشق إلى حلب هارباً ثم دخل بلاد العجم فعظّمه سلطانها شاه عباس وصيره رئيس العلماء في بلاده. وكان وهو بدمشق خامل الذكر. وكان يصنع القماش العنايات المتخذ من الحرير ولذلك قيل له الحريري. وكان كثير من الطلبة يقصدونه وهو في حانوته يشتغل فيقرأون عليه ولا يشغله شاغل عن العلم[٢]. ثم وصف إنتاجه وعطاءه فقال: «له من تصانيف كثيرة منها شرح الأجرومية في مجلدين سماه اللآلي السنية. وشرح شرْح الفاكهي وشرح التهذيب. وحاشية شرْح القواعد، ونهج النجاة فيما اختلف فيه النحاة، وشرح الزبدة في الأصول، وطرائف النظام ولطائف الانسجام في محاسن الأشعار». ونقل قولاً لشخص يدعى «البديعي» فيه أن الحرفوشي: «إمام من أئمة العربية جليل يقصر عنه سيبويه والخليل. وقد أعرب كتابه المعنون ب «نهج النجاة فيما اختلف فيه النحاة» عن غزارة فضله. فإنه كتاب لم تنسج يد فكر على منواله ولم تسمح قريحة بمثله. وله غيره من التصانيف المحررة والرسائل المحبرة مع شعر ديباجة ألفاظه مصقولة وحلاوة معانيه معسولة».

ثم ذكر المحبي شعره فقال: «وكان في الشعر مكثراً محسناً في جميع مقاصده». وذكر بعد ذلك جملة من أشعاره منها:

حباني الوجد والحرقا وأودع مقلتي الأرق
وروّع بالجفا قلباً بغير هواه ما علقا

---

(١) المحبي، خلاصة الأثر ج ٤ ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق.

تولـــى مســـرعاً عتقـــا ومـــر كطـــارق طـــرق
وطبـع الدهـــر لا يبقـــى علـــى حـــال وإن رفـــق

وله قصيدة يفتخر فيها بنسبه وبنفسه يقول فيها:

وطبت أصلاً وقدري قد زكا شرفاً وحـزت مجـداً بـه العرفـان مقتـرن
ونلـت فضـلاً بـه الأعداء قد شـهدت وأعلنـت وكفـى مـن ينكـر العلـن
فالشـمس ينكرهـا الخفّـاش ليس لها فـي ذاك منفعـة تلفـى فتمتهـن
انـا ابـن قـوم مـا جـاء يسـألهم ذو فاقـة وهبـوا مـا عندهـم وغنـوا
يعفـون عمـن أتـى فـي حقهـم سـفهاً وهم على الجود والمعروف قد مرنوا
لكـن دهـري لـم ينهـض بكلكلـه عنـي ولا ارتفعـت من صرفـه المحن
كأنـه قـد أتانـي أن يذيـق بني العلياء مـن بأسـه الضـرّاء إذ فطنـوا
ولـم يـزل قـدر أهـل الجهـل يرفعـه على ذوي الفضل طوراً وهو مؤتمن
كم قلت من ظلمه والناس في سعة والقلـب فـي سـجنه بالضيـق مرتهـن
مـا كل مـا يتمنـى المـرء يدركـه تجـري الرياح بما لا تشـتهي السـفن.

والبيت الأخير يعرفه الناس خطأً أنه من شعر المتنبي بينما يظهر في قصيدة الحرفوشي منتظماً ضمن القصيدة التي يفتخر فيها هذا الشاعر بقومه.

وله أيضاً من الوجدانيات:

رعى اللّه أوقاتاً بها كنت أجهل الفراق وأيـام بهـا أنكـر الجفـا
تقضّـت كلمـح العيـن أو زور طـارق أتـى مسـرعاً أو بارقاً فـي الدجى خفا
وأبدلـت منـه فرقـة وتشـتتاً وبعـداً وهجـراً دائمـاً وتأسـفا
فيـا رب أنعـم باللقـاء لمدنـف وإلا فكـن بالحتـف يـا رب مسـعفا

وأخيراً من أحسن اشعاره الدالة على معتقده:

تــروم ولاة الجــور نصراً علــى العدى وهيهــات يلقــى النصــر غيــر مصيــب
وكيــف يــروم النصــر مــن كان خلفــه ســـهام دعـــاء عـــن قســـيّ قلـــوب؟

هذا ما أجاد به المحبي وهو المتعصب ضد الروافض (الشيعة) من كلام وأوصاف للشاعر الأمير الحرفوشي. فيما أفاض كتاب الشيعة في ذكر أدبه وشعره ومدحوا أسرته ضمناً وذكروا كثراً من أشعاره التي لم يذكرها المحبي. يقول محمد بن الحسن المشغري في أمل الآمل عنه: « كان عالما فاضلا أديبا ماهرا محققا مدققا شاعرا أديبا منشئا حافظا أعرف أهل عصره بعلوم العربية...»[1].

وينقل السيد الأمين في الأعيان عن: «السيد نعمة اللّه الجزائري في الأنوار النعمانية انه أسند عنه وحدث عنه بواسطة الحرفوشي المذكور قال في الروضات وذكر ابن الآقا في كتاب المقامع انه له الرواية عن الشيخ محمد الحرفوشي بخمس وسائط وأنه يروي بتسع وسائط عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام»[2]. كما نقل بعضاً من أشعاره لم يذكرها المحبي منها:

خليلـــي عرجـــا علـــى رامـــةٍ لأنظـــر ســـلعا وتلـــك الديـــارا
وعـــج بـــي علـــى ربـــع مـــن قـــد نـــأى لأســـكب فيـــه الدمـــوع الغـــزارا
فهـــل ناشـــد لـــي بـــوادي العقيـــق عـــن القلـــب انـــي عدمـــت القـــرارا

وقوله:

انـــا مـــذ قيـــل لـــي بأنـــك تشـــكو ضـــر حمـــى قـــد زاد بـــي التبريـــح
أنـــت روحـــي وكيـــف يبقـــى ســـليما جســـد لـــم تصـــح فيـــه الـــروح

وقوله في الغليون:

يقولـــون فـــي الغليـــون أفرطـــت رغبـــة وليـــس بشـــئ تقتنيـــه وتختـــار

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي، أمل الآمل، ص ١٦٢.
(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ١٠ ص ٢٣

فقلــت لهــم مــا ذاك الا لأنــه مضاهــي لا تنفــك فــي قلبــه النــار

وإنه لمن المؤسف حقاً أن يكون في لبنان شاعر بحجم الأمير الحرفوشي وقلة قليلة من اللبنانيين من يسمعون بذكره ولو عرضاً.

٩ - محمد بن الحسن الحر العاملي المشغري

أحد أهم علماء الشيعة الإمامية في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، العالم الذي ترك الأثر الواسع والمستديم في الفكر الإمامي من خلال مؤلفاته التي لا زالت منارة للمتعلمين والدارسين لمذهب الإمامية في العالم.

ولد الشيخ محمد بن الحسن العاملي المشغري في قرية مشغرة من قرى جبل عامل في الثامن من رجب سنة ١٠٣٨/ ١٦٢٩ في بيت علم ودين، فأبوه الشيخ حسن بن علي بن محمد المشغري أحد العلماء البارزين في جبل عامل في القرن الحادي عشر / السابع عشر الذي تمكن من تحويل مشغرة إلى مقصد لطلبة العلوم الدينية في السنوات الأخيرة لحكم الأمير فخر الدين بن معن لجبل عامل حيث تعرضت مشغرة لأكثر من حادثة بسبب وقوعها على طريق انتقال الجيوش الموالية أو المعادية لهذا الطرف أو ذاك.

تلقى محمد بن الحسن الحر العاملي علومه الأولى على أبيه ثم على عدد من أقربائه من علماء الدين من أسرة آل الحر التي برز منها عدد كبير من علماء الدين في ذلك العصر. وحصل على إجازة من الشيخ زين الدين بن محمد، من ذرية الشهيد الثاني، لرواية الحديث وكتب العربية والرياضي والفقه وليروي عن الشيخ محمد أمين الأسترابادي عن الشيخ محمد بن علي الاسترابادي عن الشيخ ابراهيم بن علي بن عبد العالي الميسي. وهؤلاء الشيوخ الثلاثة هم المؤسسين والمفرعين لجماعة الأخباريين. فأصبح الشيخ الحر العاملي أحد الأخباريين في استنباط الأحكام. ولتوضيح هذه المسألة باختصار فإن الشيعة الإمامية تتجه أحد اتجاهين في استنباط الأحكام الشرعية وهما الإتجاه الأخباري والاتجاه الأصولي. وليس بين هذين الاتجاهين فروق كثيرة لكن بعض المتعصبين من

الطرفين قد جعلا من هذه الفروق مادة لابراز تناقضات فقهية. فالأخباريون يؤمنون بأن كتب الحديث الاربعة (الكافي للكليني، والفقيه للصدوق، والاستبصار والتهذيب للطوسي) هي كتب صحيحة والأحاديث فيها جميعها صحيحة وصادرة عن معصومين. وبالتالي فإن تلك الأحاديث هي المعول عليه في استنباط الأحكام. فتخلوا بذلك عن معتقدات راسخة يؤمن بها جمهور الشيعة من الأصوليين أي الإيمان بالتقليد الذي نظّر له وشرّعه ابن الجنيد الاسكافي والإيمان بالاحتهاد الذي نظّر له ابن أبي عقيل الحذّاء في القرن الرابع الهجري.

لكن انتماء الشيخ الحر العاملي إلى جمهور الأخباريين لم يمنعه من الاعتدال ولم يهتم كثيراً لما روّج له بعض الغلاة المتطرفين حول الفروقات. فقد ذكر في كتبه خاصة «وسائل الشيعة» و «أمل الآمل» علماء الطرفين دون تمييز ومدح من يستحق المديح منهم بكل احترام ولم يحط من قدر أحد من العلماء الأصوليين.

حج الشيخ الحر حجته الأولى سنة ١٠٥٧/ ١٦٤٧ بصحبة الشيخ علي بن سودون العاملي. وهذا العالم (ابن سودون) ينتمي إلى أسرة سودون العاملية التي حكمت منطقة بلاد بشارة بعد أسرة بشارة مباشرة. وقد تمكنت بعض العائلات من إضعافها وابعادها عن الحكم بدعم من الباشا العثماني. ومجرد ذكر وجود عالم دين من آل سودون في جبل عامل سنة ١٠٥٧/ ١٦٤٧ يثبت استمرار وجود هذه العائلة حتى بعد القضاء على نفوذها. وقد ذكره الشخ الحر باختصار شديد في أمل الآمل: الشيخ علي بن سودون العاملي كان فقيهاً فاضلاً صالحاً زاهداً عارفاً بالعربية من المعاصرين كان معنا في الحجة الأولى سنة ١٠٥٧ وقتل بعدها بسنين شهيداً»[(١)]. وقد حج الشيخ الحر العاملي ثانية سنة ١٠٦٢/ ١٦٥٢. زار بعدها العتبات المقدسة في العراق ثم تابع زائراً إلى مدينة طوس (مشهد رضوي) حيث أقام هناك وأصبح أحد مدرسي الحوزة الدينية في المقام الرضوي. وفي سنة ١٠٨٨ حج الشيخ الحر للمرة الثالثة فوقعت في الحرم المكي المقدس فتنة قام بها الأتراك العثمانيون وأدت إلى استشهاد عدد من الشيعة ظلماً. فقد وجد خدم الحرم

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي، أمل الآمل، ص ١٢٠.

بعض التلويث في المسجد الحرام فاتهم الأتراك المولجين بحماية المسجد «الرافضة» بذلك واعتقلوا خمسة من علماء الشيعة الإمامية وأعدموهم ظلماً. وفر الشيخ الحر بواسطة أحد زعماء مكة من الأشراف إلى اليمن ومنها عاد إلى إيران[1].

توفي الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي في ٢١ رمضان سنة ١١٠٤/ ٢٥ أيار ١٦٩٣ ودفن في مشهد وقبره معروف ويزار.

يعتبر الشيخ الحر العاملي أحد أكثر المؤلفين الشيعة أثراً فقد ترك مجموعة ضخمة من المؤلفات ذات الأهمية الكبرى في تطور الفقه والفكر الإمامي ومجموع مؤلفاته يزيد على ٥٥ مؤلفاً ما بين كتاب حديث وفقه وعلم رجال ورسائل وديوان شعر. لكن من أهمها على الإطلاق كتابيه: وسائل الشيعة وأمل الآمل. ففي الوسائل أعاد الشيخ الحر العاملي ترتيب واستجماع الأحاديث الموجودة في الكتب الأربعة وغيرها من مصادر الحديث وقام بتبويبها لتصبح سهلة المنال للعلماء والدارسين. أما كتاب أمل الآمل فقد ترجم فيه المؤلف لمعظم علماء جبل عامل الذين عاشوا قبله. لكن الضعف في هذا الكتاب هو اعتماد المؤلف على أخبار عمومية عن العلماء لم تصل إلى حد التحقيق إلا فيما ندر. فهو مثلاً لم يذكر مكان وزمان ولادة العدد الأكبر من العلماء كما لم يذكر أهم مؤلفاتهم أو آثارهم الأساسية بل في كثير من الأحيان تبدو معلوماته شكلية. وقد ورد كيف تحدث عن الشيخ علي بن سودون وهو رفيقه في الحج باختصار شديد ولم لم يذكر سنة الحج (١٠٥٧) لما أمكن الاستدلال على الزمان الذي عاش فيه هذا العالم الشهيد.

للشيخ الحر العاملي ديوان شعر يزيد على عشرين الف بيت من الشعر، لكنها بالمحصلة ظاهرة التكلف ركيكة البناء كمعظم الشعر الذي ظهر في القرون العثمانية السوداء. في معظم أشعاره مدح للنبي والأئمة عليهم السلام كما توجد بعض القصائد الطويلة في رثاء بعض الرجال.

١٠ - الأديب الشاعر محمد بن علي المشغري

يعرفه صاحب خلاصة الأثر بأنه «محمد بن علي بن محمود بن يوسف بن ابراهيم

---

(١) المحبي، خلاصة الأثر ج ٣ ص ٣٣٤ (باختصار).

الشامي العاملي الشهير بالحشري: الأديب الشاعر البليغ الوحيد في مقاصده البعيدة الغاية في ميدانه[١]. كما يوجد له ترجمة بوصف مسهب وكلمات رنانة في سلافة العصر لابن معصوم حيث يقول: «.... شيخنا العلامة محمد بن علي...البحر الغطمطم الزخار والبدر المشرق في سماء المجد بسناء الافتخار. الهمام البعيد الهمة المجلوة بأنوار علومه ظلم الجهل المدلهمة....»[٢]. وبعد طول مديح في صفحتين طويلتين ينقل بعضاً من أشعاره ومنها يتبين أن المقصود بكل هذا المديح هو الشيخ محمد بن علي بن محمود المشغري وليس الحشري كما ذكره المحبي. بينما سكت ابن معصوم عن نسبته إلى مشغرة واكتفى بنسبته إلى الشام (القطر) وإلى جبل عامل تحديداً. وقد نقل المؤلف في أكثر من عشرين صفحة بعضاً من روائع الشعر الذي قاله هذا الشاعر المشغري العاملي الكبير دون أن يذكر تاريخ مولده أو وفاته. ودون أن يعطي غير التوصيف له أي شيء مفيد عن حياته وأين تعلم وما هي علومه. لكنه يفيد بأنه تعلّم هو على يديه فيقول واصفاً ذلك: «... وأما خبر ظهوره من الشام وخروجه وتنقله في البلاد تنقل القمر في بروجه فإنه هاجر إلى الديار العجمية بعد إبدار هلاله وانسجام وسمي فضله وهلاله فأقام برهة من الدهر محمود السيرة والسريرة في السر والجهر عاكفاً على سبق العلم ونشره مورجاً الأرجاء بطيبه ونشره. ولما تلت الألسن سُوَرَ أوصافه واجتلت الأسماع صور أقسامه بالفضل واتصافه ، استدعاه أعظم وزراء مولانا السلطان إلى حضرته وأضله من كنفه في بعجة العيش ونضوته. ثم رغب الوالد في انحيازه إلى جنابه فاتصل به اتصال المحبوب بعد اجتنابه فأقبل عليه.... فانتظم في سلك ندمائه... حتى قصد الحج فحج وقضى من مناسكه العج والثج. فأقام بمكة سنتين ثم عاد فاستقبله ثانياً بالإسعاف والإسعاد وكنت قد رأيته حال عوده ببندر المخا... فقرأت عليه الفقه والنحو والبيان والحساب وتخرجت عليه في النظم والنثر وفنون الآداب[٣].

يصف الأديب والشاعر محمد بن علي المشغري نفسه بالشامي في كثير من أشعاره إنتماءً إلى الشام (القطر) دون أن ينسب نفسه إلى جبل عامل أو إلى لبنان أو إلى مشغرة، كقوله:

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥.

(٢) ابن معصوم، سلافة العصر، ص ٣٣١.

(٣) المصدر السابق ص ٣٣١-٣٣٣.

أكل الحـــب فـــؤادي بعدمـــا لاك منـــي مـــا تمنـــى وعلـــك
هلـــك الشـــامي وجـــداً وأســـىً مـــا يبالـــي وحياتـــي لـــو هلـــك

وقوله في قصيدة أخرى:

هـــب أن للشـــامي فيهـــا بالســـهى نســـباً فأيـــن هـــم وبـــدر دجاهـــا

يذكر السيد محسن الأمين في الأعيان أن صاحب «سلافة العصر» وصاحب «أمل الأمل» قد ذكرا محمد بن علي بن محمود المشغري، وبمراجعة المصدرين المذكورين تبين أن صاحب السلافة قد أفاض في ذكره ومدحه وهو محق في ذلك ووفي له لأنه استاذه. أما صاحب «أمل الآمل» فقد ذكره باختصار شديد فقال عنه: «الشيخ محمد بن علي بن يوسف بن محمد بن ابراهيم العاملي الشامي من المعاصرين»[١]. ومن الملاحظة الأولى يبدو الشيخ محمد الحر وكأنه لا يحبذ ترجمة هذا الشاعر لسبب مجهول. فالشاعر ابن قريته مشغرة. وابن بيئته ورغم ذلك لم ينسبه حتى لقريته. بل اكتفى بما نقله من ابن معصوم بوصفه ب»الشامي» بما يخالف ما كان يكتبه الشيخ محمد بن الحسن الحر ب»العاملي» بعد اسم كل عالم عاملي. يقول عنه واصفاً: «كان فاضلاً ماهراً محققاً مدققاً أديباً شاعراً فائقاً على أكثرية معاصريه في العربية وغيرها. له شعر جيد ومعانٍ غريبة»[٢]. ثم ينقل بعضاً مما قاله ابن معصوم عنه، كما ينقل بعضاً من أشعاره. أماالسيد الأمين فيعرفه بعنوان: «الشيخ محمد محمود العاملي المشغري» وينقل باختصار ما كتبه صاحب السلافة فيقول: «لم يكن في الديار الشامية أشعر منه بل ولا مدانيا له في زمانه. وكان عالما فاضلا محققا خصوصا في العلوم العربية وعليه تخرج السيد علي ابن ميرزا أحمد صاحب السلافة وهو أحد تلامذته في مكة. ومدحه في السلافة بما هو فأطال وذكر أنه قرأ عنده النحو والفقه والبيان والهندسة والحساب[٣].

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي، أمل الآمل، ص ١٧٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ١٠ ص ٥٣.

يمكن أن يوصف الشاعر محمد بن علي المشغري بأنه أعظم شاعر عربي في القرن الحادي عشر/ السابع عشر ويرقى شعره إلى مستوى الشعر العربي الذي اشتهر في العصر العباسي. وقد حافظ المشغري على الوزن والقافية في الشعر فجاء شعره أصيلاً. ولم يطرق أبواب الشعر كافة بل اكتفى بقصائد وجدانية طويلة تصف الوجد والخمر والسكر والنساء. ويتحدث عن لوعة الوجد وألم الفراق في معظم أشعاره. كما مدح والد صاحب السلافة بقصائد من أروع أشعاره وأكثرها صدقية ووجدانية كقوله فيها:

حججت إليك من بلد بعيد ... وأنت حطيم من صلّوا وصاموا
أحثّ إليك أنضاءاً عجاقاً ... براهنّ التهجّر والظلام
حملن إليك آمالاً ثقالاً ... ومن يرجو نوالك لا يضام
وفي البيت العتيق حططت رحلي ... فإن محلّك البيت الحرام
فلا زالت بك الايام تحلو ... كأنك في فم الدنيا ابتسام[1]

أما روائع شعره المنتقاة كما مرت في سلافة العصر أو ما نقله السيد الأمين في الأعيان فمنها:

قف بالمنازل حيث أوقفك الهوى ... ودع البكاء إلى الحمام العفيف
إني غسلت من الدموع أناملي ... ونفضت من أثر البكاء كفوفي
وقفت بي الوجناء بين طلولهم ... لولا مكان الريب طال وقوفي
أرتاد في عرصاتهن كأنني ... طيف ألم بناظر مطروف
فصممن حتى لا يجبن تساؤلي ... وعمين حتى لا يرين عكوفي

وينقل له أيضاً:

قالت عثيمة قد كبرت عن الصبا ... ما للكبير وصبوة الشبان
ما الشيب إلا كالقذاة لناظري ... فقليلة وكثيرة سيان

(١) ابن معصوم، سلافة العصر، ص ٣٥٥.

أخيـال عثمـة أنـت ألطـف بالحشـا ... منهـا أعلـق فـي صميـم جنانـي

وله أيضاً:

فقلدنـي المشـيب علـى عـذاري ... لجاماً كـف رأسـي عـن جماحـي
فقلـت لعاذلـي إيـه فإنـي ... وهبـت اليـوم سـمعي للواحـي
ومـا حسـن العيـون بـلا بيـاض ... ومـا ليـل التمـام بـلا صبـاح
ومـا ضيـف أتـاك بـلا احتشـام ... وأنـت مـن الرحيـل علـى جنـاح

وله أيضاً:

سـرى والليـل ممـدود الرقـاق ... وسـاعي الفجـر يحجـل فـي وثاقـي
خيـال مـن عثيمـة أو لبينـي ... أو الشـماء أخـت بنـي البـراق
أقـول لهـا وقـد خطـرت ريـاح ... مـن الـزوراء فـي حلـل رقـاق
وقـد بـرد السـوار علـى يديهـا ... فأحميـت القلائـد بالعنـاق
وأعجلنـا النـوى حتـى لكدنـا ... نـودع بعضنـا قبـل التـلاق
ولـم يكـن غيـر موقعنـا ونـادى ... منـادي الحـي حيـي علـى الفـراق

وله أيضاً:

أقـول وأمـر البيـن قـد جـد جـده ... وحالـت هضـاب بيننـا ووهـود
أمـا تتقيـن اللّـه فـي متهالـك ... علـى الحـب حتـى مـا يقـال وعيـد
طوى كشحه طي السجل على الجوى ... ويأبـى وشـيطان الهمـوم مريـد
إلـى كـم يـدور الدهـر بينـي وبينـه ... وتبـدي الليالـي كيدهـا وتعيـد
فقـد جعـل الواشـي وأنـت تبعتـه ... مـن البيـن يسـعى بيننـا ويزيـد
يقـول لقـد أخلقـت مـن جـدة الصبـا ... علـى رسـله إن الغـرام جديـد

وله من أبيات:

واستضحك الدهر قد طال العبوس به لا يضحك الدهر حتى يضحك القدح
فقـام والسـكر يعطـو فـي مفاصلـه يـكاد يقطـر فـي أعطافـه المـرح

ومنها:

وذي دلال كأن اللّـه صـوره مـن جوهـر الحسـن إلا أنـه شـبح
بتنـا علـى غـرة الواشـي وغرتـه أغتـاظ منـه بـلا غيـظ ونصطلـح
جعلـت عتبـي إلـى تقبيلـه سـببا والسـكر أغلـق بابـا ليـس ينفتـح [١]

وله أيضاً:

الا حبـذا الطيـف الـذي قصـر الدجى وإن كان لا يلقـاك الا مودعـا
أَلَـمَّ كسـرب الطيـر صـادف منهـلا فأزعجـه داع الصبـاح فأسـرعا
وناضلتـه باللحـظ حتـى إذا رمـى بسـطت لـه حبـل الهـوى فتورعـا
قسـمت صفايـا الـود بينـي وبينـه سـواء ولكنـي حفظـت وضيعـا

ومن قصيدة أخرى:

وكل ريـاض جئتهـا لـي مرتـع وكل أنـاس أكرمونـي هـم الأهـل
طبيـب هيـاج مـا عييـن جفونـه مـن الكحـل الا والعجـاج لـه كحـل
إذا لـم يكـن فعـل الكريـم كأصلـه كريمـا فما تغنـي المناسـب والأصل
مـن النفـر البيـض الذيـن تأنفـوا مـدى الدهـر أن يأتـي ديارهـم البخل
ليـوث إذا رامـوا غيـوث إذا همـوا بحـور إذا جـادوا سـيوف إذا سـلوا
وان خطبـوا مجـدا فـان سـيوفهم مهـور وأطـراف القنـا لهـم رسـل

(١) المصدر السابق ص ٣٣١-٣٥٩ وأعيان الشيعة ج ١٠ ص ٥٢-٥٤ (باختصار).

وقال أيضاً

أنـت يـا شـغل المحـب الواجـد قبلـة الداعـي ووجـه القاصـد
فـت آرام الفـلا حسـنا فمـا قابلـت الا بطـرف جامـد
شـأن قلبينـا إذا صـح الهـوى يـا حياتـي شـأن قلـب واحـد
أكثـر الواشـون فينـا قولهـم مـا علينـا مـن مقـال الحاسـد
لسـت أصغـي لأراجيـف العـدى مـن يغالـي فـي المتـاع الكاسـد

وقال:

رب سـاق غمزتـه فتغابـى ثـم أومـى بناظـر لا يطـاق
قـال لـي والخمـر يرعـد كفيـه وروحـي علـى يديـه تـراق
أنـت لا شـك هالـك بجفونـي قلـت زدنـي فإنهـا درياق

ومن شعره أيضاً:

يبكـي ويضحـك والريـاض بواسـم ضحك المشيب على عذار الأشيب
أزعمـت أن الـذل شـربة لازب فنشـبت فـي مخـلاب بـاز أشـهب
زعمـت عتيمـة أن قلبـك قـد صبـا مـن لـي بقلـب مثـل قلبـك قلـب
قـد كنـت آمـل أن تمـوت صبابتـي حتـى نظـرت إليـك يـا ابنـة يعـرب
فطربـت مـا لـم تطربـي ورغبـت مـا لـم ترغبـي وذهبت مـا لـم تذهبي
جعلـوا العيـون علـى القلـوب طليعة ورمـوا القفـار بـكل حـرف دعلـب
تسـري وقلـب البـرق يخفـق غيـرة منهـا وعيـن الشـمس لـم تتنقـب
فأتتـك تخلـط نفسـه بلداتهـا والحسـن يظهرهـا ظهـور الكوكـب
تمشـي فتعثـر فـي فضـول ردائهـا بحيـاءِ بكـر لا بنشـطة ثيـب

وقال:

يئست واليأس إحدى الراحتين وكم جلوت عني صدى الأطماع بالياس

في كل غانية من أختها بدل | إن لم تكن بنت رأس فابنة الراسي
أودعت عقلي إلى الساقي فبدده | في كسر جفنيه أو في ميلة الكاس
لا أوحش اللّه من غضبان أوحشني | ما كان أبطأ عن بري وايناسي
سلمت يوم النوى منه واسلمني | إلى عدوين نمام ووسواس
ذكرته وهو لاه في محاسنه | عهود لا ذاكر عهدي ولا ناسي
وددت إذ بعته روحي بلا ثمن | لو كنت اضرب اخماما بأسداس
يا ويح من أنت يا لمياء بغيته | ما كان أغناه عن فكر ووسواس
قامت تغني بشعري وهي حالية | به الا حبذا المكسو والكاسي
تقول والسكر يطويها وينشرها | اي الشرابين أحلى في فم الكاس
يا حبذا أنت يا لمياء من سكن | وحبذا ساكن البطحاء من ناس
ما ان ذكرتك الا طار بي طربي | وطاب ريح الصبا من طيب أنفاسي
ولا ذكرت الصبات الا وأذكرني | لياليا أرضعتني درة الكاس
وجيرة لعبت أيدي الزمان بهم | أنكرت من بعدهم نفسي وجلاسي

يقول السيد الأمين أن الشاعر الأديب محمد المشغري توفي سنة ١٠٩٠/ ١٦٧٩ دون أن يذكر المصدر. وإذا كان ذلك صحيحاً فالشاعر المشغري الكبير قد توفي في حياة الشيخ محمد بن الحسن الحر المشغري. ولا شك أنه كان مشهوراً في ايامه. لكن السبب المحتمل لعدم ترجمته بما يليق به في «أمل الآمل» هو أن الشيخ الحر عاش في طوس (مشهد) بينما بقي الشاعر المشغري في الشام أو في الحجاز فلم تصل أخباره إلى الشيخ في خراسان إلا باختصار شديد.

١١ - الطبيب الشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي

عالم من علماء البقاع البعلبكي، عاش في ظل حكم الأمراء الحرافشة مدة قبل أن يرتحل إلى الحجاز ويلجأ إلى ميرزا أحمد في مكة حيث مدحه ببضع قصائد لم يصب

فيها من جودة الشعر ما أصابه معاصره الشيخ محمد بن علي المشغري. ولد الشيخ حسين بن شهاب الدين سنة ١٠١٢/ ١٦٠٣ في مدينة كرك نوح في البقاع وعاش فيها وتلقى العلم على علمائها. وعندما بلغ سن الشباب اضطر إلى ترك الكرك بعد أن هاجمها سنة ١٦٢٣ الأمير فخر الدين بن معن ودمرها تدميراً كلياً. فتفرق الذين نجوا من أهلها ومنهم العالم حسين بن شهاب الدين فدخل دمشق. عمل في الطب بعد أن بلغ من عمره الكبر فلم ينجح فيه كثيراً واضطر لترك هذه المهنة والانتقال إلى مكة سنة ١٠٧٤/ ١٦٦٣ حيث لجأ إلى الأمير أحمد ميرزا ولبث في ضيافته حتى وفاته بعد سنتين في ١٩ صفر سنة ١٠٧٦/ ٣٠ آب ١٦٦٥ تاركاً القليل من الشعر الجيد منها أربعة أبيات قالها في أواخر أيامه وهي:

لقد تأملت الزمان وأهله ... فرأيت نار الفضل فيهم خامدة
فتن تجوس ودولة قد حازها ... أهل الرذالة والعقول الفاسدة
فقلوبهم مثل الحديد صلابة ... وأكفّهم مثل الصخور الجامدة
فرأيت أن الاعتزال سلامةٌ ... وجعلت نفسي واو عمرو الزائدة[1].

(١) ابن معصوم، سلافة العصر، ص ٣٧٣.

الفصل الواحد والعشرون

العلماء والمدارس في القرنين الثامن والتاسع عشر

١ - العلماء ذوو الأثر

٢ - رضى وحيدر الركيني

٣ - محمد بن مجير العنقاني

٤ - الشيخ علي السبيتي

٥ - الشيخ ابراهيم بن يحي الطيباوي

٦ - المدارس الدينية

٧ - مدرسة شقرا

٨ - السيد موسى بن حيدر الشقرائي

٩ - مدرسة الكوثرية

١٠ - مدرسة جبع

١ - العلماء ذوو الأثر

ما من شك أن عدداً كبيراً من علماء الدين وبعض الكتاب قد اشتهروا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في جبل عامل حيث يذكر السيد الأمين في أعيانه كثيراً منهم. لكنهم لم يصلوا إلى مستوى فني راقٍ في كتابة الشعر أو غيره من الآداب. ربما يكون هناك مؤلفات لبعض علماء الدين، أو لبعض المؤرخين، لكنها ضاعت أو فقد أكثرها بسبب الفتن الكثيرة التي حاقت بجبل عامل سواءاً بسبب صراع الأسر على النفوذ أو بسبب حروب الباشاوات وغزواتهم الخبيثة التي كانت تفتك بكل شيء يمت إلى الحضارة بصلة. وربما يكون هناك سبب ثالث أدهى من الأولين وهو انتشار الأمية بشكل فاحش حتى لم يبق بين شيعة جبل عامل من يقرأ إلا علماء الدين وقلة محدودة من الرجال وأقل من ذلك من النساء. فكان ذلك سبباً لاختفاء الشعر والأدب عامة. أما القلة الذين كتبوا فقد جاءت كتاباتهم تقليدية متكلفة لا ترقى إلى مستوى الشعر والنثر العربي المعروف. كما أن محاولة الشعراء كيل المديح إلى بعض الزعماء جعل شعرهم جافاً ليس فيه ما يحفز على قراءته. يمكن الافتراض أن شعراء القرنين المذكورين كانوا يعتبرون طول القصيدة ووضع الكلمات الغريبة فيها دليلاً على متانتها وجودتها. وذلك يضفي الكثير من التكلف على القصيدة فتفرغ من محتواها من الأبيات الأولى وتصبح مجرد حشو كلام.

أما فنون الشعر الذي راج في ذلك الزمن فأكثره مدائح لوجهاء الأسر أو مدائح دينية أو تأريخ على طريقة حساب الجُمّل وقد جاء أكثرها مغايراً للتاريخ المقصود. لذلك من النادر أن يعثر على قصيدة واحدة كتبت لها الحياة على ألسنة الناس رغم وجود مئات القصائد وعشرات آلاف الأبيات الشعرية.

أما أهم كتّاب هذه الفترة (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) فهم:

في التاريخ يبرز أربعة أشخاص هم رضا الركيني وابنه حيدر من قرية طيرزبنا (جرى

تغيير إسمها عشوائياً إلى الشهابية) والشيخ محمد بن مجير العنقاني من قرية عين قانا، والشيخ علي سبيتي.

٢ - **رضى وحيدر الركيني:** اللذان كتبا لمدة تقرب من قرن يوميات ووصفوا أحداثاً كما سمعوا بها أو رأوها فكانت كتاباتهما وثيقة تاريخية هامة للأحداث في جبل عامل. تنتهي هذه المذكرات سنة ١٨٣١ بعيد دخول جيش ابراهيم باشا إلى سوريا (ولبنان ضمناً). وفي هذه المذكرات ذكر ووصف لحوادث وسكوت عن حوادث بشكل يشكك فيما كتب عنها عند بعض الكتاب المعاصرين. بحيث تبدو وكأنها من اختراع بعض الكتاب لتمجيد بعض الزعماء.

٣ - محمد بن مجير العنقاني

هو الشيخ محمد بن محمد بن مجير العنقاني من قرية عين قانا في أقليم التفاح إلى الشرق من صيدا في جبل عامل. ذكره السيد محسن الأمين في أعيانه معتبراً خطأً قرية عين قانا في أقليم الشومر. لم يجد السيد الأمين في أي مصدر ما يثبت تاريخ ولادة ولا تاريخ وفاة هذا العالم الذي عمل على كتابة تاريخ موجز جمع فيه بعض التواريخ المتعلقة بجبل عامل. هناك دلالتان على فترة حياته أولهما أنه صرح بأنه نسخ كتاب «رسالة إرشاد الطالبين إلى معرفة ما تشتمل عليه الكثرة في سهو المصلين» للشيخ محمد بن أحمد بن سعادة فرغ من نسخه ٦ المحرم سنة ١٠٩٢/ ٢٥ كانون الثاني ١٦٨١ كما نسخ في نفس السنة كتاب « الأنوار الجلالية للفصول النصيرية» وهو شرح على رسالة الفصول النصيرية للمحقق الخواجة نصير الدين الطوسي التي كان أصلها بالفارسية وعربها الشيخ ركن الدين محمد بن علي الجرجاني الاسترآبادي تلميذ العلامة الحلي. والشرح المذكور هو للمقداد السيوري سماه الأنوار الجلالية لأنه ألفه باسم الملك جلال الدين علي بن شرف الدين المرتضى العلوي الحسيني الآوي. وفي آخر النسخة: «وافق الفراغ من تعليقها عشاء الجمعة ٣٠ شهر ذي الحجة الحرام عام ١٠٩٢/ ٩ كانون الثاني ١٦٨٢. من هجرة سيد الأنام عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم السلام. بقلم العبد الفقير المعترف بالذنوب والتقصير محمد بن محمد بن مجير العنقاني في قرية عين قانا». بالإضافة إلى نسخه

«أرجوزة للشيخ علي بن محمد بن مكي بن عيسى بن حسن بن عيسى الشامي العاملي الجبيلي ثم الجبعي. وهذا الشيخ من القلة الذين يتسبون إلى جبيل. وهذه الأرجوزة في وصف رحلة في اليمن وبلاد الشحر والهند وإيران والعراق والحجاز وفي آخر النسخة وقع العنقاني: «فرغ من تسويده لنفسه فقير يومه وأمسه المعترف بذنبه وحلول رمسه محمد بن محمد بن مجير العنقاني غفر الله له ولوالديه ولشيخه ولجميع المؤمنين ووافق الفراغ منه نهار السبت ٢٥ ذي القعدة الحرام سنة ١٠٩٢/ ٥ كانون الأول ١٦٨١[1].

وبناء على ذلك فإن الشيخ العنقاني كان معاصراً للشيخ إبراهيم بن حسن بن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن خاتون العاملي الذي قام أيضاً بنسخ كتاب «قصص الأنبياء» من طرق الشيعة. ووقّع في آخر النسخة: «وافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب المبارك بعون اللّه وحسن توفيقه يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة الحرام الخاتم لشهور سنة ١٠٩٢(٢٨ كانون الأول ١٦٨١) بقلم العبد الفقير الحقير الراجي عفو ربه اللطيف الخبير وشفاعة نبيه محمد البشير النذير إبراهيم بن حسن بن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن خاتون عفا اللّه عنه وغفر له ولهم أجمعين وجميع المؤمنين.

ثانيهما: أن ما كتبه الشيخ العنقاني يؤرخ بإيجاز للفترة الممتدة من ١٠٤٣/ ١٦٣٣ إلى ١١٥٣/ ١٧٤٠ فهو بلا شك عاش بعد سنة ١٧٤٠.

في كلا الحالتين لا يستفاد من رقم تاريخي يفيد عن مدة حياة الشيخ العنقاني المؤرخ الذي رغم قلة ما كتب إلا أنه أفاد بوقوع أحداث معاصرة له يمكن مقارنتها مع ما كتبه مؤرخون آخرون معادين للشيعة عن نفس الأحداث.

أما المؤرخ محمد جابر صفا فقد ترجم للعنقاني بسطرين فقط فيهما: الشيخ محمد بن مجير العاملي العنقاني نسبة إلى عنقانا (عين قانا) قرية بالقرب من جبع. له مختصر في تاريخ جبل عامل من سنة ١٠٤٣/ ١٦٣٣ إلى سنة ١١٥٣/ ١٧٤٠[2]. وهذا يفيد بأن الشيخ العنقاني قد توفي بعد سنة ١١٥٣/ ١٧٤٠ وأنه أرخ لفترة حاسمة من تاريخ جبل

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٩ ص ٤٢١.

(٢) محمد جابر صفا ، تاريخ جبل عامل، ص ٢٧٨.

عامل وهي فترة إنشاء ولاية صيدا حيث أصبح باشا صيدا يعيش في جبل عامل وعلى تماس مع أهله.

٤ - الشيخ علي السبيتي

الشيخ علي السبيتي ابن الشيخ محمد بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن يوسف العاملي الكفراوي. ينتسب وأسرته إلى مدينة سبتة المغربية التي جاء أجداده منها وسكنوا في قرية إرزي على ساحل صور في جبل عامل. ثم انتقل جده إلى قرية كفرا الى الشرق من صور فنسبوا إليها.

ولد الشيخ علي السبيتي في ٢٥ ذو الحجة سنة ١٢٣٦(٢٢ ايلول ١٨٢١) في قرية كفرا (وتوفي أول رجب سنة ١٣٠٣/ ٤ نيسان ١٨٨٢). قرأ في أول أمره على الشيخ حسن مروة ثم انتقل إلى قرية النميرية حيث تعلم على السيد علي إبراهيم. ثم ارتحل مع أخيه الشيخ حسن وخاله الشيخ محمد علي آل عز الدين إلى جباع عند المرجع الشيخ عبد اللّه نعمة[١].

تعود أهمية الشيخ علي السبيتي إلى وضعه كتاب أدب عادي في شرح قصيدة لعلي (بيك) الأسعد كبير وجهاء منطقة جبل تبنين (١٨٥٢-١٨٦٣) أسماه: «الجوهر المنضد في شرح قصيدة علي بيك الأسعد». وقد ضمن هذا الشرح ما يمكن أن يوصف بأنه تاريخ افتراضي لآل علي الصغير. حيث أخذ مادته التاريخية من أقوال مجهولة المصدر وليس من مصدر تاريخي موثوق. وكان لكتابته هذه أثر سلبي جداً على مجمل الكتابة التاريخية لجبل عامل في العصر الحديث. فقد أخذ المؤرخ محمد جابر عنه جميع ما قاله وكأنه حقيقة لا تحتاج إلى برهان. ثم تبع محمد جابر السيد محسن الأمين فترسخت صورة التاريخ الافتراضي لجبل عامل. لقد بالغ السبيتي ومن جاء بعده ونسج على منواله في اختراع تاريخ ل «أمراء» و«حكّام» في جبل عامل كما فعل السيد الأمين في أعيانه الذي، عندما يتكلم عن الشيخ السبيتي يقول: « وأخذته «أمراء» عاملة لجهتها وكان عند الدوحة

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٨ ص ٣٠٣-٣٠٤.

الوائلية ملهج لسانها وانسان عين زمانها محتاجة إلى انشائه وقلمه»[١]. والمقصود ب»أمراء» عاملة الشيخ حمد المحمود النصار أو حفيد أخيه علي الأسعد صاحب القصيدة.

لقد كتب الشيخ سبيتي أن آل علي الصغير ينتسبون إلى بني وائل القحطاني. وهذا خطأ كبير وجهل بالأنساب ما يثبت أنه مجرد اختراع. فلا يوجد في الأنساب العربية من ينتسب إلى وائل مباشرة الذي هو رأس قبيلتي بكر وتغلب. فالأنساب تعود إلى هذين الإسمين (بكر وتغلب) لا إلى وائل. وكذلك فإن وائل من ربيعة وهي قبيلة عدنانية لا قحطانية. وقد ظل كتاب جبل عامل اللاحقون يكررون نفس الخطأ الذي وقع فيه علي الأسعد والشيخ علي سبيتي (وتبعهما شبيب الأسعد ابن علي الأسعد) ويروون ما رواه من خرافات دون تمحيص ولا تحقيق حتى انتقلت العدوى إلى بعض المؤرخين المعاصرين الذين نقلوا نفس الخطأ كأنه أمر واقع تاريخي لا يمكن نقضه.

يذكر السيد محسن الأمين للشيخ علي السبيتي من المؤلفات كتاب «الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد» الذي يقول الأمين أنه «يحتوي على كثير من تاريخ جبل عامل وترجمة جملة من علمائه المتأخرين سمعنا به ولم نره بعد الطلب الحثيث وسيكون نصيب الأرضة أو الفار أو مياه السقف كما هو الشأن في كثير من نفائس كتب جبل عامل»[٢]. وهذا يزيد الغموض حول ما كتبه السبيتي حقيقة وجعله خطأً يتبعه كتاب تاريخ جبل عامل. وربما يرجع إلى الشيخ السبيتي فرضية الأمير الوهمي «بشارة» الذي ادعى من كتب عنه أن بلاد بشارة عرفت باسمه. ونسبوه إلى عاملة بن سبأ، فقط لأن اسم الجبل منسوب إلى قبيلة عاملة اليمانية. كما جرى تزوير تاريخ بكامله عنه ليتبين أنه لا يوجد في تاريخ المنطقة من عرف باسم بشارة إلا أمير تركي واحد كان في جيش صلاح الدين الأيوبي وانتهى دوره في حوادث عادية دون أن يبقى له وجود في جبل عامل أو أثر، خاصة وأن الجبل ظل بمعظمه بأيدي الصليبيين في الفترة التي يفترض أن الأمير بشارة التركي عاش فيها. كما ينسب إلى السبيتي نقله لخرافة هجوم علي الصغير على آل

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق.

سودون وهو ما لم يؤيد من أي مصدر تاريخي معاصر للأحداث. وكذلك هجوم علي صغير آخر (غير الأول) على آل شكر في قرية عيناثا وهي حكاية وهمية عن حوادث ليس لها حقيقة في التاريخ إلا في مخيلة أصحاب الحكايات والأقاصيص. ولم يروِ أي واحد من المؤرخين والكتاب الذين عاشوا في منتصف القرن السابع عشر حكاية آل شكر المزعومة وحرب مع عدو أو مهاجم من الداخل أو الخارج. فقط ذكر وقوع وباٍ (الطاعون) فتك بعدد هائل من السكان حتى فرغت بعض القرى من سكانها. وهي الحادثة التي يمكن أن تكون وراء ضعف آل شكر ونهاية وجودهم السياسي في جبل عامل وليس بسبب بطولات بعض الغزاة الفلسطينيين المتحالفين مع بعض الباحثين عن زعامة في جبل عامل.

توفي الشيخ علي السبيتي في الأول من رجب سنة ١٣٠٣/ ٤ نيسان ١٨٨٦.

وإذا كانت الكتابة التاريخية محصورة في أربعة كتّاب فإن كتابة الشعر والنثر قد اقترنت بعدد كبير من الأسماء. فقد برز مجموعة هامة من الشعراء الذين كانوا بمعظمهم من علماء الدين. فجاءت أشعارهم متلازمة مع طريقة تفكيرهم الدينية والمذهبية بحيث كانت معظم قصائدهم مدائح للنبي ﷺ وللأئمة عليهم السلام. فإذا توسعوا وكتبوا شعراً عادياً فإنه بمجمله يكون تقليدياً متكلفاً حرصوا فيه بشدة على استعمال مفردات غريبة. لقد كتب مؤرخو وكتاب جبل عامل عن هؤلاء الشعراء بكثير من الإطناب والمديح بقصد سياسي صرف، فكانت شهرة هؤلاء الشعراء تسمح بالمقارنة بين المجالس الادبية في جبل عامل والمجالس الأدبية في بيت الدين. لقد حاول العامليون في أيام حمد المحمود النصار أن يجاروا ما كان يحدث في قصر الأمير بشير الشهابي. وتبارى الشعراء في كتابة قصائد طويلة جداً يصل بعضها إلى مائتي بيت من الشعر المتكلّف. محاولين أن يطرقوا كل الأبواب التي طرقها الشعراء العرب في العصور الغابرة. فمدحوا وأكثروا المديح وألفوا قصائد دينية وحكمية. وأكثروا من قول أشعار للرثاء ولتأريخ الوفيات. وفي كل ذلك لم يبرز اسم شاعر حقيقي يستطيع أن يجاري شعراء آخرين عاشوا في جبل لبنان أو مصر أو الشام. ورغم ذلك يمكن الحديث عن بعض الأسماء باعتبارهم نماذج لشعراء تلك الفترة.

٥ - الشيخ ابراهيم بن يحي الطيباوي

ينسبه السيد الأمين في الأعيان بقوله: «الشيخ إبراهيم ابن الشيخ يحيى ابن الشيخ محمد بن سليمان العاملي الطيبي»[١].

ولد الشاعر ابراهيم بن يحي في قرية الطيبة في جبل هونين شرقي بلاد بشارة من جبل عامل سنة ١١٥٤/ ١٧٤١ في الفترة التي كان فيها الشيخ ناصيف النصار يتحالف مع الشيخ ظاهر العمر ويحققان معاً خطوات جبارة في مواجهة باشاوات السلطنة العثمانية، وهي الفترة الذهبية في تاريخ جبل عامل الحديث. تعلّم في مدرسة شقرا على العالم السيد موسى بن حيدر الحسيني حيث أقيمت مدرسة دينية على طريقة الكتاتيب. وأظهر ابراهيم بن يحي تفوقا على أقرانه من طلبة العلوم الدينية. ظل ابراهيم بن يحي في جبل عامل متقرباً من شيخ المشايخ ناصيف النصار لكن لم يشتهر عنه أنه مدحه في شعره بل المشهور أنه مدح أخاه الشيخ محمود النصار. وبعد استشهاد الشيخ ناصيف النصار في معركة يارون المشهورة سنة ١١٩٥/ ١٧٨١ اضطر ابراهيم بن يحي للفرار فيمن فر من رجال البلاد، ولجأ إلى مدينة بعلبك محتمياً بالامراء الحرافشة. لكنه عاد وتركها منتقلاً إلى النجف الأشرف في العراق حيث اتصل ببعض علمائها ودرس فيها العلوم الدينية ليعود بعد سنين إلى مدينة دمشق حيث استقر فيها. وظل يتردد بين دمشق وبعلبك حتى وفاته سنة ١٢١٤/ ١٧٩٩ في دمشق ودفن فيها.

كان ابراهيم بن يحي أديبا شاعرا مطبوعا نظم فأكثر. ولا يخلو شعره من نكتة بديعية أو كناية أو إشارة إلى واقعة. لكن كثيرا من شعره محتاج للتهذيب فيظهر أنه قلما كان يعيد النظر فيه[٢]. وكانت له اليد الطولى في التخميس وكان مولعا به وقد خمس جملة من القصائد المشهورة كالبردة ورائية أبي فراس الحمداني في الفخر وميميته في مدح أهل البيت عليهم السلام ولاميته المرفوعة التي قالها في الأسر وعينية ابن زريق البغدادي وكافية السيد الرضي المكسورة وزاد عليها مخمسا وجعلها في مدح النبي ﷺ ورائية ابن منير المعروفة

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٩.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٨.

بالترية. مدح الشيخ علي بن أحمد فارس الصعبي المعروف بالشيخ علي الفارس حاكم قلعة الشقيف ومدح أخاه الشيخ حيدر الفارس. قال الشيخ علي السبيتي المؤرخ في بعض مؤلفاته أن ثلاثة من تلاميذ السيد أبي الحسن الحسيني العاملي برعوا في الفضل في زمانهم حتى فضلهم من رآهم على أستاذهم وهم ولده حسين وابن أخيه جواد صاحب كتاب «مفتاح الكرامة» والشيخ إبراهيم بن يحيى. كان الشاعر ابراهيم بن يحي مكثراً في الشعر وقد جمع له السيد محسن الامين ديوان شعر فيه ما يقارب سبعة آلاف وخمسمائة بيت، كما ذكر بعضهم أن للشاعر ابراهيم بن يحي اكثر من أربعين ألف بيت من الشعر وهو رقم كبير جداً يمكن الشك بصدقيته. من الأمثلة على شعره تأريخه لبناء جامع قرية شقرا:

أضحى خطيب الدين في جامع قد جمع اللّه به شملكم
يقول في تاريخه آمرا يا أيها الناس اتقوا ربكم

سنة ١١٨٢

وله كذلك في نفس المناسبة:

تغفر الزلة فيه ولمن ناجاه سامع
صل فيه وادع وابك فاز طرف فيه دامع
جمع الفضل فارخ انه أعظم جامع

سنة ١١٨١[(١)]

بعد وفاة الشيخ الشاعر ابراهيم بن يحي اشتهر عدد من الشعراء والأدباء الذين عاشوا في ظل الشيخ حمد المحمود النصّار وفي قصره في قلعة تبنين، لكنهم لم يبلغوا المستوى الذي بلغه ابراهيم بن يحي. وكان من أهم هؤلاء الشعراء والأدباء الشاعر صليبي الواكد والشيخ علي مروة والشيخ علي سبيتي (المؤرخ) والسيد موسى عباس والشيخ علي زيدان والشيخ ابراهيم صادق[(٢)] (حفيد ابراهيم بن يحي).

(١) المصدر السابق ج ٢ ٢٤٣ (باختصار).

(٢) حسن محمد صالح، تاريخ تبنين، ص ٣٢٣.

قد تبدو قصائد هؤلاء الشعراء أقل من المستوى الفني للشعر العربي المعروف وهذا ما أدى إلى عدم اهتمام الناس بها. وكنماذج من شعر هذه الفترة بعض الأمثلة. فمن الشعر التأريخي ما كتبه الشاعر الشيخ علي زيدان في رثاء وتأريخ وفاة الشيخ حمد المحمود الذي توفي في شوال سنة ١٢٦٩:

أرأيت كيف المجد راح مقوضا وقضى الزمان على بنيه بما قضى
ويد المنايا في الثرى قد أغمدت سيفا على ريب الحوادث منتضى
أسقى ضريحك ديمتان فديمة تهمي بغفران وأخرى بالرضى
تاريخ ذاك المجد مات فأرخوا لجوار آل محمد حمد مضى

سنة ١٢٦٥[1].

وهو ينقص أربع سنوات عن تاريخ الوفاة

كما رثاه وأرخ وفاته الشيخ إبراهيم صادق بهذه الأبيات:

لعمر العلى مهما ترى من عجائب تجد أمر هذا الرمس أكبر اعجابا
لقد وسع البحر الذي وسع الورى نوالا ومعروفا وفضلا وآدابا
بلى وأبيه ان من أجل فقده فؤاد المعالي والندى أسفا ذابا
وقد فقئت عين المفاخر مذ رأت من الأفق أرخ بدرها حمد غابا

سنة ١٢٦٨[2].

وكذلك نموذج لشعر تلك الحقبة ما كتبه الشيخ علي السبيتي مادحاً للشيخ حمد المحمود وواصفاً معارك وهمية افترض أن الشيخ حمد ورجاله قد خاضوها:

تفاخرني السراة وان قومي لقوم جلببوا الشمس الظلاما

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٥ ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق.

لنـا يـوم الحبيـش وأي يـوم — منعنـا شـوس مصـر أن تناما
غـدا عمـرو رئيسـهم شـريدا — يـرى خلفـا وليـس يـرى أماما
دهتـه المشـرفية والعوالـي — وكـم فـج تخيلـه ركاما
وقبـلا يـوم حمـص لـو ترانـا — أثرنـا نقـع حـرب قـد أغاما
تقاعـس كل أشـوس مشـمخر — وبحـر المـوت يلتطـم التطاما
أطعنـا الملـك إذ يعصيـه قـوم — علـى حـال تـرى الصبـح الظلاما

ومن الواضح ضعف هذه الاشعار وتكلفها وخلوها من النفحة الشعرية التي تترافق مع الوزن والقافية وتدغدغ آذان السامع والقارىء.

لكن الأكثر شعبية بين الشعراء العامليين في نهاية القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين كان بلا شك الشاعر الزجلي محمود قاسم المشهور بمحمود حدّاثا الذي قال الشعر العامي على السليقة. وقد اشتهر له عملين شعريين يكادان أن يكونا الأكثر شهرة بين ما حفظ من تراث تلك الحقبة.

الأول محاورته الزجلية التي جرت في مدينة عكا مع شاعر زجلي مسيحي وفيها يبرز ذلك العمق الديني الإيماني الذي يعبر عنه الشاعر محمود قاسم، فيما يظهر أن المسيحيين كانوا يجهلون أن المتاولة (الشيعة) من المسلمين. وفي العمل الثاني: قصيدة زجلية طويلة تؤرخ لحادثة الخيام التي وقعت سنة ١٨٩٦ معدداً أسماء الرجال والأماكن المشهورة في تلك الحادثة.

أمثلة من شعر محمود قاسم: ما قاله مع ذلك الشاعر المسيحي

متوالـــي ومـــش مِتخبّـــي — أللّـــه أخبَـــر فيّـــي وفيـــك
مـــش مثلَـــك جاحـــد ربّـــي — وعامِلّـــو حُرمـــي وشـــريك
عيســـى مِنّـــك متأبّـــي — بُكـــرا بالنـــار بيرميـــك
مالَـــك بقلبـــو محبّـــي — ولا بيريـــدك يمعَتّـــرْ
اللّـــه واحـــد يـــا مجنـــون — أنشـــا الدنيـــا ومـــا فيهـــا

كِلْـفِ عليهـا كاف ونـون | عيسى شـو خصّـو فيهـا
والإنسـان فيهـا مرهـون | لا بـدٍ لـو مـن إنهـا
عيسـى عنـد اللّـه بيكـون | هـوّي وآدم فـرد عيـار

أما قصيدته الملحمية التي أرخت وحكت عن حادثة الخيام سنة ١٨٩٦ فقد تعمّد الشاعر الزجلي التذكير بالزعماء الذين كانوا طرفاً في تلك الحادثة مثل الحاج محمد عبد اللّه وخليل الأسعد الخليل النصار كما يصف اتحاد الشيعة والمسيحيين في مواجهة الدروز، ومن هذه القصيدة:

ابـدا بالصـلاة علـى محمّـد | صـلاة دايمـة ليـلا نهـارا
بْقَـوْلِ اللـي قالـو محمـود قاسـم | حـوادث عمّـت الدنيـا اخبـارا
حكاهـا بالجـرى أول وتالـي | وابـن الفـن يفهـم بالاشـارا
سـببها كان متوالـي ودرزي | وكان الشـر أصلـو مـن شـرار
وبعـد م تجمعـوا كل العشـاير | وعملـوا محكمـة ومجلـس إدارا
قالـوا يـا حمـد نحنـا رجـال | وانـت كبيرنـا والمستشـارا

.....

فهـم مضمونهـا واحـد مسـيحي | ضـرب كفـو اليميـن علـى اليسـارا
طفـش بالليـل ع خـوري القليعـا | وقللـو قـوم يـا بونـا بشـارا .... إلـخ

وتنتهي القصيدة بكيل المديح لخليل الأسعد باعتباره (البيك) الكبير ولابنه كامل الذي أصبح بعد ذلك الزعيم الأقوى في قضاء مرجعيون (جبل هونين).

٦ - المدارس الدينية

يذكر محمد جابر صفا أن مجموعة من ال»مدارس» قد نشأت في جبل عامل في محاولة من أصحاب الشأن لاستعادة الدور الذي لعبته الحوزات الدينية القديمة في

جزين وميس الجبل في عهد المماليك. لكن هذه المدارس التي ذكرها محمد جابر لم تزد عن كونها كتاتيب صغيرة استوعبت عدداً محدوداً من المتعلمين.

أولى هذه المدارس كانت في كرك نوح في البقاع البعلبكي التي نشأت بحماية الحرافشة وقد يكون الشيخ المحقق علي بن عبد العالي الكركي، فكان من الطبيعي أن تتوقف هذه المدرسة عندما فر المحقق الكركي إلى ايران (مر الحديث عنه).

وقد حاول الشيخ زين الدين بن علي الجبعي (الشهيد الثاني) إقامة مدرسة دينية في بعلبك أثناء ممارسته للتدريس فيها فجمع عدداً من المتعلمين في منزله. وكان يدرسهم سراً مذهب الإمامية. وقد توقف الشيخ زين الدين عن التدريس في بعلبك وانتقل إلى جباع (كما مر الحديث عنه).

٧ - مدرسة شقرا

المدرسة التي استحوذت على الاهتمام في جبل عامل كانت بلا شك مدرسة شقرا التي أسسها العلامة موسى بن حيدر الحسيني المتوفي سنة ١١٩٥ فكانت مدرسة حافلة بالطلاب والمشتغلين وقد ضمت أربعماية طالب حسب بعض المصادر. يقول محمد جابر بمبالغة واضحة: «وفي هذا العهد بلغ العلم والأدب في جبل عامل حده الأقصى فسطع نوره وراجت سوقه وفاح أريجه. وزهت البلاد بالعلماء والأدباء وأهل الفن والتأليف. غير أن الأقدار شاءت أن يقف سيرها ويخبو نورها وتتعطل حركتها وتذوي نضارتها....... حيث قتل زعيم جبل عامل ودرعه الحصين ناصيف بن نصار الأحمد الوائلي في سنة ١١٩٥/ ١٧٨٠ فتقوض استقلال جبل عامل. وفتك الجزار بمن قبض عليه من العلماء، وهاجر من لم يقتل أو يسجن إلى خارج البلاد. وشخص بعضهم إلى إيران والهند والأفغان....ودامت الحال على ما ذكر أكثر من ربع قرن ففي سنة ١٢١٩/ ١٨٠٤ أنشبت المنية أظفارها بالطاغية أحمد باشا الجزار فتباشر الناس بموته وتلاعب الشعراء بهجائه وتأريخ وفاته. وتولى بعده سليم باشا ثم سليمان باشا ثم عبد اللّه باشا الخزندار...»[1].

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٣٩.

ما يقوله محمد جابر حول «بلوغ العلم والأدب في جبل عامل حده الاقصى» لا يعدو كونه كلام منمق. لأن المرحلة كانت مرحلة اضطراب خطير شهدت مجموعة حروب وفتن متلاحقة (مر الحديث عنها) لم تكن لتسمح بوجود شعراء وأدباء وعلماء كما يجب. أما حول بناء المدرسة فيقول السيد الأمين: «بنى (السيد موسى بن حيدر) في قرية شقرا في أنزه بقعة منها قريبا من داره الجميلة الباقية آثارها لليوم مدرسة فسيحة تحتوي على نحو من ثلاثين حجرة باقية لليوم تحيط بها الحجر من جميع جوانبها عدا الجهة الشمالية التي تطل على البرية وحفر في وسطها بئرا يكفي ماؤه الطلاب مهما بلغوا ووقف لها وقفا في وادي الحجير باق لليوم ونقل انه كان يوجد في مدرسته نحو من ثلثمائة طالب ويحضر حلقة درسه منهم نحو من مائتين»[١].

لقد كان الفضل في بناء مدرسة شقرا للعالم الكبير السيد موسى بن حيدر العاملي الذي يعد بحق نقطة مضيئة في جو مظلم ولربما كانت خطوته في نقل العلوم الدينية في قريته وجامعه كبيرة جداً لم يقم بمثلها أحد من علماء الدين منذ إقفال مدرسة ميس في حدود سنة ١٥٢٧.

٨ - السيد موسى بن حيدر الشقرائي

ولد السيد موسى في قرية شقرا سنة ١١٣٨/ ١٧٢٥ وترعرع فيها. تلقى علومه العربية والدينية على أبيه السيد حيدر وهو عالم دين عراقي هاجر إلى جبل عامل وسكن قرية مجدل سلم أولاً ثم انتقل منها إلى قرية شقرا المجاورة لها وسكنها حتى وفاته سنة ١١٥٨/ ١٧٤٥. وتابع ابنه السيد موسى طريقه مضطلعاً بدور كبير في مسألة الدرس والتدريس في جبل عامل حيث كان طلبة العلوم الدينية ينتقلون إلى النجف الأشرف للتحصيل مع ما في ذلك من مصاعب واخطار ونفقات. تمكن السيد موسى من استجلاب عدد كبير من طلبة العلوم الدينية وصل عددهم عند بعض الرواة إلى ثلاثمائة طالب (أو أربعمائة في مصادر أخرى) كان من أشهرهم الشاعر ابراهيم بن يحي الطيباوي[٢].

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ١٠ ص ١٨٢.

(٢) المصدر السابق ج ١٠ ص ٣٧٣ (باختصار).

مما لا شك فيه أن السيد موسى بن حيدر حصل على تأييد قوي من الزعيم الكبير الشيخ ناصيف النصار الذي كان يقصده باستمرار. وكان يصلي خلفه الجمعات فكان نتيجة ذلك ارتفاع مستوى هذا العالم الجليل في أعين الناس. وقد وصف بأنه «كان عالما فاضلا جيد الخط جدا محققا مدققا فقيها محدثا متقنا رئيسا جليلا مطاعا عالي الشأن بعيد الهمة انتهت إليه الرياسة في البلاد العاملية دينا ودنيا»[1].

سعى السيد في بناء جامع في شقرا يكون مسجد الجمعات وملتقى الطلاب فبناه كبيراً واسعاً. وبنى له مئذنة وكانت مساجد جبل عامل في حينه بمعظمها بلا مآذن لأسباب عثمانية وأبلغ بها من أسباب. وأقام صلاة الجمعة بشروطها، وكانت معطلة منذ أجل بعيد». وكان يقيم صلاة

الجمعة ويجتمع للصلاة خلفه كل يوم جمعة جميع أهل القرى المجاورة له وفيهم أمير البلاد الشيخ ناصيف بن نصار الشهير»[2].

وتوفي بها ليلة الأحد ١٦ المحرم سنة ١١٩٤/ ١٧٨٠ فيكون عمره نحوا من ست وخمسين سنة. وأرخ بعضهم عام وفاته بقوله «بكت الخلائق».

ولما توفي حزن عليه الشيخ ناصيف النصار حزنا شديدا وأمر ببناء قبة مشيدة على قبره. ثم قتل ناصيف سنة ١١٩٥/ ١٧٨١ في أثناء بنائها قبل أن تكمل فقطع العملة البناء وكانت قد قاربت التمام. فلما بلغ ذلك الجزار أمر بنقل بعض ما أعد للبناء من رخام ونحوه إلى عكا وبقيت على حالها إلى هذا العصر[3].

٩ - مدرسة الكوثرية

أسسها الشيخ حسن قبيسي بإيعاز من النجف الأشرف وهي أول مدرسة تدرس فيها العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها في منطقة الشقيف. وكان الناس في ظمإٍ وكان في

(١) المصدر السابق ج ١٠ ص ١٨٢ -١٨٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

عداد تلامذة هذه المدرسة الشيخ عبد اللّه نعمة الجباعي والسيد علي ابراهيم الذي أسند له منصب الإفتاء في «شمال جبل عامل» في عهد سليمان باشا وعبد اللّه باشا. وكان ممن تولى التدريس في تلك المدرسة حتى وفاته سنة ١٢٦٠/ ١٨٤٤. والعلامة الشيخ محمد علي عز الدين مؤسس مدرسة حناويه. والعلامة اللغوي الأديب الشاعر علي بن محمد السبيتي مؤلف كتاب اليواقيت في البيان، والجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بيك الأسعد وغيرها. والشاعر البليغ الشيخ علي بن ناصر بن زيدان المتوفي سنة ١٢٨٩/ ١٨٧٢ وحمد البيك بن محمود النصار الوائلي وقد خرج من مدرسة الكوثرية عالماً شاعراً أديباً وأصبح بعدها زعيم جبل عامل وشيخ مشايخ بلاد بشارة كما كانت تنعته المراسلات الحكومية. ودامت مدرسة الكوثرية إلى سنة ١٢٥٨/ ١٨٤٢ حيث توفي مؤسسها فأقفلت[1].

١٠ - مدرسة جبع

أسسها الشيخ عبد اللّه نعمة تلميذ مدرسة الكوثرية الذي أم العراق فأتم تحصيله في جامعة النجف الأشرف. حتى إذا بلغ درجة الاجتهاد الكبرى رحل إلى إيران فاتخذ مدينة رشت دار إقامة له ولبث فيها بضع سنين ثم عاد إلى وطنه وافتتح مدرسة جبع فدلف إليها الطلاب من فلول مدرسة الكوثرية وغيرهم. وأصبح الشيخ مرجع الفتيا في جبل عامل وما جاوره من بلدان الشيعة على الاطلاق. وتخرج على يديه عدد غير يسير من كبار العلماء وأهل الفضل. وعمرت هذه المدينة أربعين عاماً[2].

بالإضافة إلى المدارس السالفة الذكر فقد أنشيء عدد من المدارس الأقل أهمية وأثراً مثل مدرسة حنويه: في حنويه (قرية بالقرب من صور) شيدها وتولى رئاستها العلامة محمد علي عز الدين بعد رجوعه من النجف الأشرف حيث أكمل تحصيله وأحرز درجة الاجتهاد. وكان من أكابر علماء عصره ومن أبعدهم نظراً. وقد أقفلت المدرسة بعد وفاته سنة ١٣٣٤/ ١٩١٥ وكان عمره حينذاك ٨٥ سنة.

(١) محمد جابر صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٤١-٢٤٢ (باختصار).

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣.

ومدرسة بنت جبيل التي أسسها الشيخ موسى بن أمين شرارة وأقفلت بعد وقت قصير بسبب وفاة المؤسس سنة ١٣٠٤/ ١٨٨٦.

إضافة إلى مدارس في شقرا ومجدل سلم وجويا وكفرا وعيناثا. ومن كل هذه المدارس يمكن أن تكون مدرسة النبطية أهمها جميعاً لأنه تخرج منها عدد من أصحاب الأقلام العاملية الأدبية والسياسية المشهورة مثل عبد الحسين ابراهيم نور الدين، والشيخ عبد اللّه الحر، والشيخ محمد الحر، والشيخ أحمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر وهما من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

وبدأ التحول نحو العصرنة في سنة ١٣٠٠/ ١٨٨٢ عندما فتحت في النبطية أول مدرسة أهلية على المناهج العصرية. وقد وضع أساسها وسهّل أسبابها الزعيم الوطني رضا الصلح عندما تولى حكومة النبطية وملحقاتها. وقد ضمت ستين تلميذاً من ناشئة النبطية وغيرها من قرى جبل عامل وكان يعنى بها اشد العناية. وجاء لها بأساتذة أفاضل من بيروت وطرابلس وكان يزورها في كل يوم. ويتولى إلقاء بعض الدروس بنفسه ويبث بين الطلاب الروح القومية ويجعلهم يتمرنون على الخطابة بين يديه في مواضيع اجتماعية وشؤون وطنية. وكانت الدروس أولا قاصرة على النحو والصرف والأدب العربي والحساب والجغرافيا والتاريخ واللغة التركية لغة الدولة الرسمية[1].

---

(١) المصدر السابق ٢٥٣.

خاتمة

كتابة تاريخ لطائفة من الطوائف عمل مربك وشاق فهو يستوجب فصل جزء من شعب عن أجزاء أخرى. لقد عرف لبنان بخريطته الحالية وجود جماعات أثنية مختلفة طيلة التاريخ المعروف ومنذ أقدم الأزمنة. لقد وجد في العهود الفينيقية (الكنعانية) مجموعة من الطوائف والمذاهب حسب أديان تلك الأزمنة فكان على سبيل المثال يتنازع عبدة الإله ملكارت في صور مع عبدة الإله إشمون في صيدا. وفي العهود المسيحية الأولى انقسم الناس بين اتباع كنيسة روما وأتباع كنيسة انطاكية. وفي العهود الإسلامية المختلفة كان هناك أعداد من المذاهب والجماعات المختلفة التي تتواجد في مكان واحد. من الصعب ان يتعايش جماعتان مختلفتان عقائدياً في اي مكان في العالم إلا في البلاد السورية حيث وجد وتعايش عشرات الأقوام المختلفين في العرق والدين والمذهب واللون...إلخ. فكيف يمكن الحديث عن تاريخ طائفة واحدة؟ إنه نوع من الثقافة الذاتية والرغبة في إظهار محاسن الجماعة التي يتبدى منها شعور الفرد بالعظمة.

لقد كان للطائفة الشيعية تاريخياً الفضل الكبير في انتاج وبناء وتثبيت هذا الوطن الفذ لبنان الذي فيه تختصر كل طائفة ذاتها في ذاتها تتفوق على نقائضها لتظهر قوة في أزمنة الضعف. كل طائفة في لبنان لها تاريخ، وتاريخ مشرف. كل طائفة ساهمت في بناء لبنان ودافعت عنه على طريقتها. وعندما يقفون جميعاً أمام الماضي سيجد كل واحد، وستجد كل طائفة أنها كانت قوية، وقوية جداً، إلى درجة أنها لا زالت موجودة بين هذا التجمع الهائل من الطوائف. لكن ما يقلب الحسنات إلى نقائضها هو المبالغة في نقل أخبار وأحداث يتبين بالبحث أنها لم تحصل ولم تكن موجودة. وقد ساهم كل كتّاب التاريخ اللبناني من مختلف الطوائف أنهم وقعوا في هذا الخطأ الكبير فالتاريخ يجب أن يكون حقيقياً لا افتراضياً. وتاريخ الحروب لا يتحدث فقط عن انتصارات، كما لا

يتحدث تاريخ الطوائف عن خيال شاعري لا يصمد أمام الوقائع التي تدحض ما دس في كتب التاريخ من أوهام.

إن تاريخ الشيعة في لبنان هو تاريخ مشرف بلا شك، وقد وجد في هذا التاريخ نخبة من الرجال العظماء الذين تمكنوا بتضحياتهم وجهودهم من المحافظة على الوجود الشيعي في لبنان رغم المخاطر الكثيرة التي عانى منها اللبنانيون، كل اللبنانيين. كما وجد عدد من الأدباء والشعراء والعلماء الذين كان للبنان الفخر بانتمائهم إليه حيث كانت نظرياتهم وكتاباتهم تعطي للبنان صفة البلد الحضاري المتفوق رغم صغر مساحته وقلة عدد سكانه وكثرة طوائفه.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ ، تحقيق عبد اللّه القاضي(أبو الفداء)، دار الكتب العلمية ، بيروت - ١٩٨٧ ط١
- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٠ مجلدات ت محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦٥

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨

- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، طبع ليدن ١٩٦٧
- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٢
- ابن زنبل الرّمّال ، آخرة المماليك، مطابع الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٨ ط ٢
- أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ت السيد أحمد صقر مؤسسة الاعلمي بيروت ١٩٨٧

أحمد أبو العباس القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٢

أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٤

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية - بيروت نسخة مصورة عن طبعة حيدر آباد الدكن ط٢ ١٩٨٦.

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة ٢٠٠٨
- أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني شهاب الدين، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٠/ ١٩٣١

- أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، اتعاظ الحنف بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية - القاهرة ١٩٩٦ ط ٢
- أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمي -١٩٩٧ بيروت.
- أحمد بن يحي (ابن فضل الله العمري)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠١٠ ط ١
- أحمد البديري الحلاّق، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١١٧٥/ ١٧٤١-١٧٦٢ مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٥٩
- أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين المعني، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، المكتبة البوليسية- بيروت ط٢ ١٩٨٥
- أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، منشورات الجامعة الأميريكية - بيروت ١٩٤٠
- اسطفان الدويهي ، تاريخ الطائفة المارونية، المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٨٩٠
- الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية ، دار ابن كثير للطباعة والنشر ، دمشق - سوريا ٢٠١٠ ط ٢
- الحسن بن محمد البوريني، تراجم الأعيان في أبناء الزمان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩
- الشهرستاني، الملل والنحل مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٢
- المحبي، خلاصة الأثر ، لا دار نشر، لا تاريخ

- أ. ن. بولياك، الاقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، دار المكشوف - بيروت ١٩٤٨

- بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، سيرة صلاح الدين، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ط١ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤.

- تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، تاريخ ابن قاضي شهبة، منشورات: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٩٤

- جعفر المهاجر ، التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا دار الملاك-بيروت ١٩٩٢

- جعفر المهاجر، الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي، دار الروضة - بيروت ١٩٨٩

- حسن الصدر، تكملة أمل الآمل ، دار الأضواء - بيروت ١٩٨٦

- المصدر السابق ٢٥٣حسن محمد صالح، تاريخ تبنين، دار الجمان للطباعة والنشر - بيروت ٢٠٠٠

- حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن ساباط، صدق الأخبار تاريخ ابن ساباط، تحقيق عمر تدمري، جروس برس - طرابلس ط ١ ١٩٩٣

- حيدر أحمد شهاب، تاريخ الأمير حيدر الشهابي المعروف ب»الغرر الحسان» ط٢ دار الآثار - بيروت ١٩٨٠.

- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي، منشورات دار الفكر للدراسات والتوزيع - القاهرة ١٩٩٣

- روح اللّه الموسوي الخمينيأ الحكومة الإسلامية، المكتبة الإسلامية الكبرى - طهران (لا تاريخ)

- زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت ، لا تاريخ

- زين الدين الجبعي العاملي الشامي (الشهيد الثاني)، كشف الريبة عن أحكام الغيبة، تحقيق السيد علي الخرساني، دار الأضواء - بيروت ١٩٨٧، المقدمة بقلم الشيخ ابن العودي.
- سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ٢٠٠٨
- شاذان بن جبرائيل القمي، الفضائل، المطبعة الحيدرية - النجف ١٩٦٢
- صالح بن يحي ، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٢ ط ٢
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، أعيان العصر بأعوان النصر، دار الفكر العربي- دمشق ١٩٩٨
- صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٠
- طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية- قسم الدراسات ١٩٦٩
- عبد الباسط الفاخوري، تحفة الأنام مختصر تاريخ الإسلام، دار الجنان - بيروت ١٩٨٥
- عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الدمشقي(ابن العماد)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير - دمشق ١٩٩١
- عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٢
- عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة الدمشقي، الذيل على أخبار الروضتين، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٢

- عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم الناشر: دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٨/ ١٩٣٤

- عبد الرحمن بن عمرو النصري، تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦

- عبد السلام التدمري ، ديوان ابن منير الطرابلسي، دار الجيل - بيروت ١٩٨٦

- عبد العزيز محمد عوض الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤-١٩١٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٩

- عبد اللّه بن أسعد اليافعي اليمني، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧

- عدنان البخيت، أحداث بلاد الشام ١٠١٥-١٠١٦/ ١٦٠٦-١٦٠٧ لا دار نشر، لا تاريخ

- عصام محمد شبارو تاريخ بيروت نشر: دار مصباح الفكر - بيروت ١٩٨٧

- عماد الدين اسماعيل (أبو الفدا ت ٧٣٢/ ١٣٣٢)، المختصر في أخبار البشر (أو تاريخ أبي الفدا)، تعليق وحاشية محمود ديوب، ط ١، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧.

- عماد الدين الكاتب الاصفهاني، الفيح القسّي في الفتح القدسي، دار المنار - لا تاريخ

- علي بن أحمد بن معصوم المدني، سلافة العصر في محاسن أهل العصر، دار الكنان للتوزيع والنشر، لا تاريخ

- علي بن الحسين الشافعي (ابن عساكر) ، تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٩٨

- علي ابراهيم درويش، جبل عامل بين ١٥١٦-١٦٩٧، دار الهادي - بيروت ١٩٩٣

- عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، المطبعة العثمانية - بعبدا ١٩٠٧-١٩٠٨
- قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، دار التقدم ، موسكو ١٩٨٩
- قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية -حيدر آباد الدكن ١٩٦٠
- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة فارس وبعلبكي ، دار العلم للملايين - بيروت ٢٠٠١ ط ٥
- كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للطباعة والنشر ط ٣ بيروت ١٩٧٢
- محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ابن جبير)، رحلة ابن جبير، دار بيروت ١٩٨٤
- محمد بن أحمد بن اياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٨٦
- محمد بن أحمد بن عبد الوهاب الدمشقي الصالحي (ت: ٧٤٤/ ١٣٤٣)، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، منشورات دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٥/١٤٢٦
- محمد بن أحمد بن عثمان (شمس الدين الذهبي) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر تدمري ، دار الكاتب العربي - بيروت ١٩٩٩ ط١
- محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبع ليدن ١٩٦٧
- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مؤسسة الأعلمي- بيروت ١٩٨٩
- محمد بن حسن الحر العاملي، أمل الآمل ، تحقيق أحمد الحسيني، ج١ ، مكتبة الاندلس - بغداد ، لا تاريخ

- محمد بن عبد الرحمن السخاوي (شمس الدين) ، الضوء اللامع ، دار الجيل - بيروت ، لا تاريخ

محمد بن علي بن أحمد (ابن طولون) مفاكهة الخلان، دار الكتب العلمية في حوادث الزمان - بيروت ١٩٩٨

- محمد بن علي بن بابويه (الصدوق)، الأمالي دار الأعلمي بيروت الطبعة ٥ ١٩٨٠

- محمد بن علي بن بابويه (الصدوق)، كمال الدين، دار الكتب الإسلامية - قم ١٩٧٥

- محمد بن عمر الكشي، رجال الكشي، مؤسسة النشر في جامعة مشهد ١٣٤٨

- محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، المطبعة الشرقية القاهرة ١٣٢١هـ.

- محمد بن محمد الأصفهاني (العماد)، الفتح القسّي في الفتح القدسي، دار المنار، لا تاريخ

- محمد بن محمد الغزي (نجم الدين) ، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧

- محمد بن محمد بن النعمان المفيد ، اوائل المقالات، دار المفيد للطباعة والنشر بيروت - ١٩٩٣

- محمد بن محمد بن محمد بن النعمان المفيد، الإرشاد، النجف ١٩٦٢

- محمد بن مكي العاملي الجزيني، ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم ١٤١٩/ ١٩٩٩

- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي في الفقه، دار الكتب الإسلامية - طهران ١٣٦٥

- محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، دار الأضواء - بيروت ط٢ ١٩٨٦

- محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق وإخراج حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٩٨٦

- محسن الأمين، خطط جبل عامل، تحقيق حسن الأمين ط١ الدار العالمية للنشر- بيروت ١٩٨٣
- محمد أمين ابن عابدين، العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية، لا دار نشر ، لا تاريخ.
- محمد جابر صفا ، تاريخ جبل عامل، دار النهار للطباعة والنشر - بيروت ١٩٩٨
- محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان ، دار الجواد ودار التيار الجديد - بيروت الطبعة العاشرة، ١٩٨٩
- محمد رفيق ومحمد بهجت، ولاية بيروت، القسم الجنوبي ألوية بيروت وعكا ونابلس، ط ٣ ١٩٨٧ دار لحد خاطر بيروت ص ٣١٥
- محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (٦٣٥-١٥١٦) دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧
- محمد مهدي الآصفي مقدمة شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، دار إحياء التراث العربي - بيروت ط ٢ سنة ١٤٠٣ ،
- محمد كرد علي ، خطط الشام ، دار الأعلمي بيروت ١٩٨٣ ط ٢
- محمود العيني (بدر الدين) ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ٢٠١٠ ط٢
- ميخائيل موسى آلوف ، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية - بيروت ١٩٠٤ ط ٢
- ناصر خسرو، سفرنامة، الهيئة المصرية العامية للكتاب - القاهرة ١٩٩٣
- مجلة المشرق، مجلد ١٩٠٧، عدد ١٨ ، ١٥ ايلول ١٩٠٧
- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، دار الاسراء للنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩١
- يوسف البحراني، الكشكول، مكتبة الريف الثقافية - البحرين ١٩٨٦

- يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر - قم، لا تاريخ)
- يوسف الدبس، تاريخ سوريا الدنيوي والديني، دار نظير عبود- بيروت ١٩٩٤
- يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٢
- يوسف بن تغري بردي الأتابكي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، مطبوعات: عالم الكتب، بيروت ١٩٩٠
- يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمتوفي بعد الوافي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤
- يوسف بن قيزوغلي (سبط ابن الجوزي)، مرآة الزمان في تأريخ الأعيان، حيدر آباد الدكن -١٩٥٢

- Crusading warfare 1193-1097, By: R.C.Smail. Cambridge U.P. 1956
- E. REY: Les colonies Franques en syrie aux XII et XIII siecles. Alph. Picard Paris 1883

E , Robinson. Biblical researches in Palestine and the adjacent regions, Arno press, NEW YORK 1977

- Plinius, Natural history xix 81
- Recueil des historiens de Croisades, Historiens orientaux. Pub par le soins de- l'academie des insriptions et de belles- lettres M DCCC XCVIII. Republishes 1967 by Gregg press limited Westmead ENGLAND.
- Watt, W. Montgomry The Formative Period of of Islamic Thought Edinburgh U. P, 1973

المحتويات